

مذكرات

# بنپنوتو چليني

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

\*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

\*\*\*

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل - كردستان العراق

ص. ب: رقم ١

[www.araspublisher.com](http://www.araspublisher.com)

مذكرات

# بنپنوتو چاليني

ترجمة وتعليق

جرجيس فتح الله

اسم الكتاب: مذكرات بتقنوتو چليليني  
ترجمة وتعليق: جرجيس فتح الله  
من منشورات ناراس رقم: ١١١  
التصحيح والتصميم: شاخوان كركوكي  
الغلاف: شكار عفان النقشبندي  
خطوط الغلاف: الخطاط محمد "B".  
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود  
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٢  
عدد النسخ: ١٢٠٠ نسخة  
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠١/٤٨٠

## المقدمة

### ظروف إنجاز هذه الترجمة:

في العام ١٩٦٣، وبإثر إنقلاب الثامن من شهر شباط الدموي، وجدت نفسي مداناً بتهمة لم يُحكّم تلفيقها - أمام محكمة عسكرية عرفية، ثم مُساقاً الى غرفة الإعدام. وكان عليّ أن أشغل نفسي بشيء وأنا أنتظر نهايةً لحياتي. وتشاء الصدفة أن يكون أحد السجنائين على إستعداد للمخاطرة مقابل شيء من المال بنقل رسائلي الى آل بيتي. فتقوم شقيقة لي بحزم كتابين أو ثلاثة من مكتبتي على غير هدى وتبعث بها صحبة هذا السجنان. ولم تكن الرقابة دقيقة على ما يبدو، فقد إستمرت الحال على هذا المنوال أشهراً بطولها.

ومن الكتب التي وصلتنني دون يقين: مذكرات چليني.

كنت قد إقتنيت هذه المذكرات ضمن مجموعة من الكتب أثناء رحلة لي الى لندن، ولم تُتَح لي أشغالي وقتاً لمطالعتها وبقيت منعزلةً في أحد رفوف مكتبتي، مع العلم أن إقتنائني إياه لم يكن بمحض صدفة، فقد عرفت إسم الكاتب لماماً من خلال مطالعاتي في أسفار التاريخ لاسيما تلك التي تتعلق بعصر النهضة العلمية الأوروبية المسماة بالرينسانس. وإسمه بين أولئك الفنانين والرسامين والمثاليين والأدباء الذين خلدتهم أعمالهم الفنية، لم تخلُ أية موسوعة علمية أو دائرة معارف عامة مهما صغرت عن ذكر له وتنويه بمذكراته الشخصية هذه بصورة خاصة.

ولا أطيل... ما أن أنهيت بضع عشرات من الصحائف حتى قررت البدء بترجمته والإسترسال فيها دون أن تصدني عنها فكرة وقوفي على عتبة دار الأبدية في كل ساعة أو لحظة. وكان القلم والورق ميسورين أيضاً فشرعت في الترجمة، وهي تختلف عن المطالعة، لأنها تحول دون شروء الخواطر وتحت على التركيز الذهني، وتطرد الأفكار السود والتأمل في المصير الذي يطارد المحكومين بالموت في كل ساعة ودقيقة ولا يقتضي له غير توقيع صغير على ورقة.

وجدت في ترجمة چليني سلوى وعزاءً، فأقبلت بدأب وعلى ضوء المصباح الكهربائي الذي لا يُطفأ قطاً وأنا بين أكثر من خمسة عشر محكوماً مثلي. وفيهم القاضي، والجنرال، والأستاذ الجامعي، والسائق، والجزار، والعريف، والسياسي المعروف والعامل البسيط. فتتداول الأيدي ما أنجزه ثم أقوم بإرساله الى الأهل.

ثم بلغت في الترجمة تلك المرحلة العصيبة التي مرّ بها (چليني) سجيناً بتهمة ملفقة أيضاً... ومحكوماً بالموت أيضاً. ولاتسل عما إنتابني من شعور بل ما ساد شعور المحكومين الآخرين الذين تابعوا ترجمتي. أن رقيقاً لهم يترجم الآن بقلمه - وقبل أكثر من أربعة قرون عين ما تجيش بهم أنفسهم. وأكملت الترجمة في أشهر قلائل وإستقرت في أيدٍ أمينة بانتظاري. ولم يكن الكتاب الوحيد الذي نقلته الى العربية خلال فترة السجن، فقد تلتته كتبٌ أخرى تمّ طبعها فيما بعد مشنى

وثلاثاً.

إلا أن "چليني" بقي مخطوطاً حتى هذه الساعة.

كان يختلف إختلافاً بيناً عن الكتب التي ترجمتها أو قمتُ بتأليفها، وبالبيدهة بل بالبصيرة كانت هذه السيرة أو المذكرات تتطلب عناية خاصة جداً. فما نقلتُ عنه كان واحداً من المترجمات العديدة الإنجليزية. والمترجم الإنجليزي نفسه يعترف بالجهد الذي تكبده في نقل بعض التعابير الإيطالية التي إستخدمها چليني - ولاسيماً ما كان يلهجته الفلورنسية. ولما كانت معرفتي بالإيطالية لاتزيد عن عبارة "قتل زيدُ عمراً"، فقد إقتضت مني الأمانة أن أدور بحثاً عن كل ما أمكن الوقوف عليه من الترجمات الإنجليزية والفرنسية الأخرى لأصاهي وأقارن وأثبت الأدق والأقرب والأصوب بهمة المنقّب الأركيولوجي. كما أوجبت على نفسي أن أغني الترجمة بالهوامش والتعليقات والشروح لما يغمض على القاريء العربي من التعريف بأسماء الأماكن والمشاهير الذين وردت أسماءهم في المذكرات مستعيناً أيضاً بمثيلات لها في التراجم الأخرى أو ناقلاً لها. حتى إجتمع لي منها فيه ثلاثمائة وواحد وثمانون (٣٨١) تعليقاً وحاشية.

وكان عليّ أن أقوم ببحثٍ مماثل عن آثار هذا الفنان الأديب-العسكري. وإقتناء صور لها. فإلى جانب شمال "پرسوس" المعروف الآن ومنذ إقامته في الميدان الفلورنسي لوجيا دي لانزي Loggia dei Lanzi ملايين الأعين، هناك تحفٌ أخرى من صنع يده الحاذقة مبثوثة في عدة متاحف أوروبية. وبقي هذا شغلي الشاغل وأنا أحمل المخطوطة معي. من الموصل الى بغداد الى كردستان الى طهران الى لندن، الى كاترينهولم (السويد) أخيراً.

وفي طهران حكمت الصدق وحدها أن ينشأ بيني وبين السنيور سورودو القائم بأعمال السفارة الإيطالية هناك نوعٌ من علاقة صداقة. وذكرت له يوماً ما ترجمتي هذه وحاجتي الى صور ورسوم لآثاره. وكان ممن يبرّ بالوعد. فقد أوعز لمعاونه السنيور (فاوستو) وهو صديق أيضاً- فتم تزويدي بكاتلوك رائع ضمّ كل آثار چليني المعروفة بتصوير ملون متقن إضطلعت به الأنسة سوزانا بارباليا Susanna Barbaglia وأصدرته بعنوان "آثار چليني الكاملة L'opera Completa del Cellini". ضمن مجموعة ريزدولي الكلاسية- ميلانو ١٩٨١. وبدت الترجمة بهذا مهية تنتظر ناشراً.

### من هو چليني: (ملاحح عصره)

ولد في العام ١٥٠٠. ودون مذكراته على فترات متقطعة خلال ثماني سنوات (١٥٥٨-١٥٦٦). وكان في الحادية والسبعين عندما ادركته الوفاة. ولم تطبع مذكراته هذه الا في العام ١٧٢٨. إلا أن شهرتها استطارت خارج ايطاليا في بداية القرن التاسع عشر عصر الأدب الرومانتي ومالبتت بعض عقود من هذا القرن، حتى إحتلت مكانتها الجديرة بها وعدّها رجال الأدب والنقاد أشهر مذكرات شخصية في عالم الأدب. واعظمتها إثارةً وأصدقها خبراً. تشيع في المذكرات روح الأنانية وحبّ الذات والتحدّي، إلا أنها تعطينا أدق ما وصل الينا من

تفاصيل واقربها الى القناعة وصفاً لأخلاق وتصرفات حكام القرن السادس عشر في أوروبا- ملوكاً وپاپاوات وأمراء - وكذلك لحياة وعادات الرجل العادي وتصرفاته.

في ذاك المجتمع وجد چليليني أعداء له وأصدقاء من كل طبقة، فهو لا يتركنا فترة من الزمن مهما صغرت إلا لنلتقي بتعاقب سريع أخذ عبر صفحات مذكراته بأصحاب الحانات والفنادق وبنات الهوى، والتجار والعسكريين والساسة والموسيقيين والصناع ورجال الأدب والفن والأمراء والملوك والكرادلة وأحبار الكنيسة العظام. وفي هذا العالم الصاخب تجد (چليليني) سيد الميدان ويطل الحلبة الوحيد، يطاعن بالسيف او يرمي بالبندقية بالحدق والبراعة التي تعالج يده أدق التقاسيم في القطع الفنيّة الرائعة التي خلدت على مرّ الأجيال. وكل هؤلاء الخلق الذين تعامل معهم، نجدهم دائماً في الخلفية أو على الهامش إزاء شخصه.

مع هذا كله فبإمكان القاريء أن يتفهم شخصية چليليني وقصص مغامراته المثيرة وتقييمها دونما حاجة به الى كثير معرفة بأحوال مجتمعات القرن السادس عشر. فسيرته هذه وثيقة تاريخية باهرة الضياء، تلقي نوراً كاشفاً على أوضاع إجتماعية عديدة. كأحوال السجون في روما وتصرفات المبعدين السياسيين الفلورنسيين والستراتيجية المتبعة في حروب ذلك العهد وعلاقات الملك فرانسوا الأول بعشيقته (مدام ديتامپ)، وأصول المرافعات في المحاكم الفرنسية. وأساليب الأطباء في الإرتاق والمعالجة. الخ.....

ونجد چليليني يتحاشى الحديث في السياسة أو زج نفسه في عباها. ففنه لا شأن له بها. رغم إن قلمه كثيراً ما كان يشتط به ويفلت منه زمامه بالتعليقات الذكيّة البارعة التي يُرغم عليها أحياناً- كحادث مقتل الدوق (اليساندرود مديتشي) بغض النظر عن ولائه لتلك الأسرة الحاكمة. فالخوض في السياسة كان سيلجئه الى الحيدة عن موضوعه الأساس وهو كتابة قصة حياته، وليس قصة الزمان الذي عاش فيه.

في حياة چليليني كانت الجمهورية التي أقامها الراهب الدومينيكي ساقونارولا<sup>(١)</sup> قد اسقطت بحركة إنقلابية. واعيد آل مديتشي الى الحكم. ثم طردوا ثم أعيدوا ثانية. وفي زمن چليليني أصدر مواطنه الفلورنسي (ماكيا فيللي)<sup>(٢)</sup> كتابه الشهير (الأمير) الذي أصبح إنجيل السياسة والحكام ومرجعاً يهتدون به ويطبقون نظرياته الى يومنا هذا. وشارك چليليني في الدفاع عن روما عندما ألقّت جيوش الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان)<sup>(٣)</sup> الحصار عليها. كما تزعمت الپاپاوية حركة الإصلاح الديني

(١) في العام ١٤٩٤ تمكن جيامكومو ساقونارولا (١٤٥١-١٤٩٨) من خلق جمهورية ديمقراطية. إلا أن الپاپا الاسكندر السادس جابهه بالحرم الكنسي في ١٤٩٥. لكن أعداءه تغلبوا عليه فسجن وحوكم وأعدم شنقاً واحرق جثته. واعيد آل مديتشي الى الحكم.

(٢) أصدر نيكولو مايكيا فيللي (١٤٦٩-١٥٢٧) كتابه الشهير هذا في العام ١٥٣٢. وقيل انه كتبه للمغامر العسكري چيزاري پورجيا. كان في خدمة جمهورية ساقونارولا. وسجن عند عودة آل مديتشي وانقطع للكتابة بعد اطلاق سراحه.

(٣) ولد شارلكان في عين السنة التي ولد فيها چليليني وتوفي في ١٥٥٨. نُصب امبراطوراً في ١٥١٩. وتنازل عن=

المضادة التي تزعمها مارتن لوثر<sup>(٤)</sup>. وضجت القارة الأوروبية على إثرها وبسببها بالحروب الدينية وحروب الوراثة، وفي عهده إندفعت جحافل الأتراك العثمانيين الى قلب أوروبا<sup>(٥)</sup>. وقبل أن يولد بست سنين فقط كانت سفن كريستوفر كولومبس مواطنه الجنوبي تمخر عباب الظلمات (الأطلسي) لتؤدي به الى إكتشاف الدنيا الجديدة، وكان له من العمر ست سنوات عندما قام هذا المستكشف بأخر رحلاته<sup>(٦)</sup>.

في ذلك الزمن تقوض صرح السلم في إيطاليا بغزوة شارل الثامن الفرنسي<sup>(٧)</sup> تلك الغزوة التي عجلت برحلة الفكر والفن الإيطاليين وانتشارهما في سائر البلاد الأوروبية، كما كانت هذه الحملة فاتحة النزاع المير بين فرنسا وإسبانيا الذي امتد لهيبه الى كل جزء من القارة الأوروبية وطال أمده بالحملة العسكرية المتعاقبة العنيفة، ومنها حملة لويس الثاني عشر<sup>(٨)</sup> ثم حملة فرنسوا الأول<sup>(٩)</sup>. على إن إيطاليا بدولاتها العديدة المستقلة، تحولت نهائياً لتدور في الفلك الإسباني خلال فترة حكم هذا العاهل الفرنسي، بعد ان بلغت المنافسة بينه وبين شارلكان أوجها. كانت إيطاليا مجموعة (موزائيك) من دويلات مستقلة إستقلالاً مهدداً. وظلت حتى وفاة جليليني منقسمة الى امارات صغيرة وكبيرة. بينها مملكة الياپا وعاصمتها روما. كانت فكرة الوحدة سابقة لأنها يحول بين تبلورها السلطة الياپوية وسلطة نواب الإمبراطور في كل من نابلي وميلان. وبعد عدة محاولات خائبة في فلورنسا لإقامة جمهورية ثابتة الدعائم، إستسلمت لحكم كوزيمو دي مديتشي الإستبدادي. وتوقف مد الإصلاح الديني السريع في الأنحاء الأخرى من أوروبا بسبب الحرب الدينية في فرنسا ومخالفة إسبانيا للياپوية ضد الإصلاح الديني بإجراءاته العنيفة القاسية ومحاكم التفتيش السيئة الصيت. وكل هذا مهد السبيل الى قيام دول أوروبية قومية الطابع مستقلة تمام الإستقلال. وفي فرنسا لم تحل الحروب المكائد السياسية التي إعتمدها فرنسوا الأول دون توطيد ملكه وحصر السلطة في يده.

=الحكم قبل وفاته بسنتين. كانت امبراطوريته خلافاً للمستعمرات الأمريكية تشتمل على إسبانيا وهولندا ونابلي وصقلية والنمسا.

(٤) نشر مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) احتجاجه الشهير في العام ١٥١٧. وانكر في كتاب له عنوانه "نيل المسيحية عند الشعب الألماني" السلطة الياپوية. وأل ذلك الى شق العالم المسيحي الغربي وعرف اتباعه بالبروتستانت اي "المحتجين".

(٥) في العام ١٥٤١ استولت جيوش السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) على بودا بست.

(٦) أولى رحلاته كانت في ١٤٩٢. وأخرها خلال (١٥٠٢-١٥٠٤).

(٧) (١٤٧٠-١٤٩٨). تولي الحكم في ١٤٨٣.

(٨) ولد في ١٤٦٢. وتولي الحكم في ١٤٩٨ وتوفي في ١٥١٥. لُقّب بأبي الشعب اذ كان محبوباً وعرف بإصلاحات عدة في ميدان القضاء والأمور المالية إلا أنه اتجه الى التوسع الإقليمي بتجريد حملات عسكرية على الإمارات الإيطالية.

(٩) من مآثر فرنسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) اقراره اللغة الفرنسية لغمة رسمية بدلاً من اللاتينية وإبرامه معاهدة الإمتيازات الاجنبية مع السلطان سليمان الأول القانوني.

محطماً نفوذ نبلاء الإقطاع بالتدريج ومجرداً إياهم من كل سلطة. وبرعايته وحمايته الفعالة لصغار النبلاء وماليي وتجار الطبقة الوسطى، واتباع سياسة الترفيه وتوفير اسباب العمل بحرية، ضمن السبيل الى التقدم الفكري وفتح ابواب فرنسا لحركة البعث المسماة بالرينسانس.

ولم يكن دور چليني في حروب جيله بالقليل. فقد استخدمه البابا كليمنت السابع أمر مدفعية اثناء حصار روما. وساهم في اقامة استحكامات باريس وفلورنسا. إلا أن شحة النقد في خزانة البلاط الفرنسي كانت بالنسبة اليه أهم من كل هذا. ونذالة الراهب اللوثري السجين معه في قلعة سان انجلو اهم عنده من حركة الاصلاح الديني. ومن كل ما هو في عرف السياسي نظر المؤرخ والقاريء بسنوات حاسمة في التاريخ كالعام ١٥١٩ مثلاً وهو عام إنتخاب شارل الخامس امبراطوراً. والعام ١٥٢٠ عام صدور قرار الحرم بحق (لوثر) والعام ١٥٣٤ عام إنفصال كنيسة إنكلترا عن العالم الكاثوليكي وعام ثورة الفلاحين في ألمانيا ١٥٢٥، والعام ١٥٤٢ عام إنجاز ماجلان البرتغالي طوافه حول العالم. وعام إستيلاء الأتراك على بودا بست. وأخيراً فتح أبواب الأمريكتين للهجرة الأوروبية. كل هذا وغيره لا يستدعي منه إلتفاتاً ولا يبدو مهماً بالمقارنة الى وصف إنتصاراته الشخصية ومتاعبه ومغدوريته.

قضى چليني السنوات التسع عشر الأولى والسنوات الست والعشرين الأخيرة من حياته في فلورنسا. وفي العام ١٥١٩ شد الرحال الى روما وإستقرّ فيها بإستثناء زيارات متباعدة لفلورنسا وفترة رحلته الخائبة الى فرنسا خدم خلالها البابا كليمنت السابع ثم البابا پولس الثالث (بين ١٥٢٣-١٥٤٠). وشهدت له مذكراته على تعلقه الشديد بموطنه. وفي روما كان الفلورنسيون أقرب أصدقائه وأعزهم وبقي على صلة وثيقة بالمغتربين منهم في كل من باريس وروما. وإجتذبتهم فلورنسا أخيراً إليها قبل نهاية حياته بزمن طويل فعاد إليها. ومع انه كان يشكو بحرقه من وضعه ويعبر عن حنين للعودة الى البلاط الفرنسي يحمله على استذكار خدمته لفرنسا الأول معتبراً إياها الفترة الذهبية في حياته- لم يكن هذا في الحقيقة غير الشعور بالحنينة ويعامل التقدم في السن.

إلا أن تعلقه بمدينته لم يحل دون هروبه عندما هاجمتها جيوش الإمبراطور انتصاراً لآل مديتشي وبهدف اعادتهم الى الحكم. وهروبه هذا يشبه هروب ميكالنجلو منها. يقول فاساري<sup>(١٠)</sup> بمناسبة كتابة نبذة عن حياته: "ترك فلورنسا الى البندقية سرّاً ضماناً لسلامته".

وما من شك في ان چليني كان مديناً لآل مديتشي بأكثر مما هو مدين لحكومة الجمهورية، ففنه وخلقته تكاملاً ونشأ في ظل بلاط المستبدين من الحكام. في بلاط دوق فلورنسا الأكبر الطاغية (كوزيمو) الذي لاتداخل قلبه رحمة وفي ظل سلطان روما البابوي الذي لايعرف حدوداً وفي بلاط باريس وحكم الملك المطلق.

بنظر چليني ان هؤلاء الحكام هم فوق القانون بفضل سلطانهم المطلق مثلما كان يعتبر نفسه فوق القانون بسبب عبقريته ومواهبه. على ان مواقفه الجريئة منهم، بل البطولية احياناً، كانت تجعل اولئك

(١٠) سيرد الحديث عن هذا الكاتب فيما بعد.

الحكام أشبه بالأقزام امامه. واعتداده الفائق الحدّ بنفسه وتمجيده لها وإيمانه الراسخ بأنه يملك من المواهب ما لا يملكها أولئك، يتسق اتساقاً تاماً والأسلوب القوي الهجومي الذي انتهجه في كتابة سيرة حياته.

## المذكرات

يتفق النقاد والأدباء بأن سيرة حياة جليليني هي أثر فنيّ عظيم رائع. وكذلك هم يتفقون على أنه خلق اثره هذا دون ان يدرك نفاسته وقيمته. ومع انه كان يطلق لقلمه العنان ويرسل القول ارسالاً دون خطة مسبقة او اهتمام بالصقل والتهذيب، فإنك لا تجد ذلك يستقيم مطلقاً وعنايته الظاهرة بحصر مادته الكتابية وسبك حكاياته وفق الضوابط والقواعد الكلاسيكية التي جرى عليها أسلافه من الكتاب. الى جانب حرص فيه على تقويم لغتها بمعرفة لغوي خبير حيثما تيسر له ذلك. وقد بدا منها قارئاً متتبِعاً لأدب العصر الى درجة كبيرة، ومثقفأً بتمام ادراك بالمستويات الأدبية الرفيعة التي قوم أسسها اصداقؤه ومعاصروه.

ويتفق المتأدبون مواطنوه، مع رجال القلم الآخرين وسائر مترجميه الى اللغات الحيّة - ان اسلوبه فريد وحده - مثل شخصيته. ففي محاولته تحوّر الدقة فيما يصف - تجده يلجأ الى التريديد والتكرار الذي يلازم الحديث الإعتيادي. وفي المذكرات فقرات طويلة تتعاقب جعلها بالشكل والمنوال والنسق كتعاقب الجمل في وثيقة قانونية. هناك فقرات أخرى لا تجد فيما بينها رابطة سياق، تفاجئك من حيث لا تدري. وهناك مواقف عديدة تري جليليني الكاتب عاجزاً عن ضبط نفسه أو إخفاء إنفعاله. فيندفع ولا يقتصد في إستخدام تعابير سوقية، كثيراً ما إعترف المترجمون بأنها بالغة التعقيد تستدق على الفهم أحياناً.

لكن جليليني هو أبدأ الراوية البارع المدرك الحكمة القصصية بكلّ ألمعية وذكاء فيه. ويميزان قلّ أن يخطيء للشخصية التي يتصدى لها. يعرف جيداً كيف يتحرك بلباقة ورشاقة، متنقلاً بين الهزل والجد. وبين التندرّ والتأسي. وكل القصص التي جاءت في السيرة. بدءاً بإنجيليكا والجنّ. ومروراً بمصرع شقيقه وهرويه من سجن القلعة وإنتهاءً بالعدالة التي إقتصت من (لويجي پولجي)، تكشف عن حساب دقيق لعاملٍ التشويق والإنفعال اللذين يتخلفان في نفس القاريء. ثم هناك وصفه المثير لمقابلته السيدة الرومانية پورشيا، الذي يكشف عن رقة مدهشة للأسلوب والخلق اللذين يبرزان في المذكرات اكثر من مرة. هناك أيضاً وصفه الرائع في حكاية الپاپا كليمنت وهو على فراش الموت عاجز عن رؤية الميداليات التي صنعها له وكيف صار يتلمسها بأصابعه ويتنهد تنهيدات عميقة. هذه القصة بحدّ ذاتها تحدثنا عن پاپوية عهد الرينسانس قدر ما يحدثنا عنها تاريخ مفصّل.

والى كل أنانيته وحبّه لذاته. فقد كان على قدرٍ ما من الإهتمام بالآخرين كاف لإعترافه بفضائل ومزايا من إعترض سبيل حياته. فأبوه الشديد الحبّ والرعاية لأولاده، بحدِيثه المثقل بمقتبسات من الكتاب المقدس، وحالته وهو شاب خاطب يد زوجة المستقبل. وغرامه بالموسيقى، بأفكاره الخاطئة وسعة حيلة وهو في سنّ متقدمة الى جانب الصبي الأسباني (دييگو) الجميل، والساعي المراوغ

(بوسباكا) و(تريبولو) الرعيد، ومحافظ القلعة المصاب بداء انفصام الشخصية، تمثل فحسب طائفة قليلة من الشخصيات ذوات الأدوار الصغيرة في المذكرات. لم يبخل جليليني عليها بإظهار الجانب الطيب فيها.

ويُحسد حقاً على طول باعه في القدح والهجاء، يقابله اقتناص ذكي للفكاهة كلما عنت. لما طفق (تريبولو) خلفته يشتكى منه وهما في رحلة العودة من البندقية، غلب على جليليني شعور بالتندر لاقبل بمقاومته، لينقلب أحياناً الى تهكم وسخرية. وفي اكثر الأحيان الى إنفجار صاعق يتحول الى كآبة. وعلى سبيل الفكاهة تراه يلجأ الى التورية واللعب بالألفاظ فيعبث بإسمه وبإسم (فليجي كواديني) وبإسم (دورانتني). ويشير الأطباء بكوامن سخريته اللاذعة ك(بانكلوس) الذي "فقد عيناً واحدة فقط وأذنأ واحدة بنتيجة المعالجة" وك(جليليني) نفسه الذي "تطب بكل شيء يعرفونه ويقبت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم!"

ولحسن الحظ وصلتنا المذكرات كما دونت. دون نقصان أو رمج أو خرم أو عبث. بدأ جليليني يكتبها بخط يده ثم عدل في سنواته الأخيرة ربما لقللة صبر على الكتابة، فصار يميلها على صبي في الرابعة عشرة. وكان معظمها بخط يد هذا الكاتب خلا صحائف قلائل لكاتب آخر. وفي العام ١٥٥٩ أرسل المخطوطة الى صديقه الأديب (بنديتو فاركي) لمراجعتها لغوياً وتصحيحها وفقاً لما طلبه منه. فلم يفعل بل ذيلها ببعض الملاحظات وأجرى تصحيحات طفيفة ثم ردّها اليه.

### رحلة المذكرات والتراجم:

جليليني مدين بخلوده الى هذه المذكرات أكثر بكثير مما تركه من آثار فنية. وقد تقلبت عليها صروف من الدهر كادت تفقدنا إياها. ظلت هذه المخطوطة في حوزة آل كافالكانتي Cavcanti حريصة عليها طوال القرن السابع عشر ثم إنتقلت الى المكتبة اللورنتية الجديدة ويرى في فهرست المكتبة هذه العبارة حولها: كتاب اندريه دي لورنزو كافالكانتي (de libri di Andrea de Lorenzo Cavalcanti). ويشهد على اعتزاز (اندرية) هذا بالمخطوطة وحرصه عليها مادونه ابنه (لورنزو ماريا) على صفحة بيضاء منها. فقد كتب:

"كان ابي السنيور اندريه كافالكانتي صاحب الذكرى الغالية عندي ينزل هذا الكتاب في نفسه أرفع منزلة. فلم يسمح لأحد بإستنساخه ولم يحوّه عن موقفه هذا الطلبات المتكررة والرجاء الملح الذي جاءه من صاحب السمو والنيافة الكلي الإحترام الأمير الكردينال ليوبولد أمير (توسكانيا)".

إلا أن (لورنزو) بالأخير نزل عن المخطوطة الى دار النشر الإيطالية "ريدي Redi" فطبع منها طبعة رديئة غير منقحة في العام ١٧٢٨<sup>(١١)</sup>. بعد هذا لقيت المخطوطة الأصلية مالقيت من تصاريق القدر

(١١) ورد في ترجمة فرنسية للمذكرات، نقلاً عن طبعة إيطالية حديثة ان النسخة التي اعتمدت في هذه الطبعة نقلت عن المخطوطة الأصلية نقلاً سيئاً بقلم نسّاح مجهول قليل الإلمام باللغة.

العجيبة وإحتفت مراراً في رفوف المكتبات. ثم ظهرت عند الوراق (چكينو دال سيميناريو Cecchino dal Simenari). اذ عشر عليها عنده واحدٌ من جماعة الكتب فإبتاعها وأوقفها بعد وفاته على مكتبة (مديتشي لورنزيانا) وهي التي نقل عنها النص الإيطالي المعتمد وسائر الترجمات الأخرى. في العام ١٧٧١ ظهرت لها ترجمة انكليزية من عمل (نوجنت N. Nugent) واجتذبت انظار الكاتب والشاعر الألماني الكبير "ولفگانگ گوته"<sup>(١٢)</sup> فقام باول ترجمة لها الى الألمانية وهو شرف عظيم لم تنله مذكرات قبلها او بعدها ينيله واحد من اعظم القصصيين والمفكرين العالميين- وكان ذلك في العام ١٧٩٦.

وظهرت اولى التراجم الفرنسية لها في العصر الرومانتي وذرورة الحركة الرومانتية في العام ١٨٢٢. في هذا العام بالذات ظهرت بالإنكليزية ترجمة جديدة للكاتب الاديب توماس روسكو. واعقبتهها ترجمة ثالثة لسامبوندرز G.A.Symonds بفاصل اربعين عاماً عن روسكو Thomas Roscoe. وفي العام ١٩٠٣ اصدرت الآنسة مكدونيل Macdonell ترجمة رابعة محكمة. واوضحت في مقدمة لها وجه امتياز ترجمتها على باقي التراجم الأخرى ببعض اوجه المقارنة والمضاهاة. ومما قالته في هذا الصدد:

"انه لسوء حظ كبير لشهرة چليني في إنكلترا وخسارة لا تُعوض في عالم الأدب هنا إن بقيت مخطوطة مذكراته منسية قابعة في رف إحدى المكتبات الإيطالية طوال قرنين. وما نحن أولاء في عصرنا الجليل عصر الترجمة والنقل الذي اتحفنا بترجمة (فلوريو) لمونتين، وترجمة سير بلوتارك ل(نورث). في هذه المنقولات يتجلي المثال الدقيق والمظهر المتقن لأساليبهم البليغة المشرقة ووصفهم الرائع. وقد فقدنا هذه الملامح كلها. فقدنا فنهم الجذاب وبساطتهم في التعبير وقلة إحتفالهم بالجزئيات والتفاصيل وفقدنا حذرهم من الدقة الرتيبة. فهم يكشفون عن عبقرية خاصة سلسلة تضاهي الأصل بقوتها".

ثم تنتقل الى مدرسة المترجمين الإنكليز الحديثة والى التراجم التي سبقتها من چليني فتقول:

"والمقاييس- إن كان ثم مقاييس في الترجمة- تختلف إختلافاً بيناً. فهي عملية المنحى دقيقة اللغة لاتتوخى الفن ولا تُعنى بجمال الأسلوب، ومع نفاستها وقيمتها في معظم الأحيان توهم المرء بأنها لم تُعمل لخدمة الأدب قدر ما عملت لتوضع أمام عيني الناقد المدقق. وفي الترجمتين اللتين سبقتا ترجمتي لمذكرات چليني- حسنات وميزات لامتت الى الصنفين من الترجمة اللتين أتيت الى ذكرهما. فترجمة (نوجنت) ترجمة تكاد لاتعد الآن من الترجمات المعتمدة. وأماً (روسكو) فأسلوبه ذو طابع

(١٢) مازالت ترجمة گوته (١٧٤٩-١٨٣٢) افضل التراجم واحبها الى الالمان رغم صدور ترجمات اخرى لها، بسبب الاسلوب الرائع الذي نقله بها. رغم ان بعض النقاد كانوا يجدون فيها ثغرات. (يعرف قراء العربية هذا الاديب الكبير من ترجمة ل(فاوست) و(آلام فرتر) و(الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)". هذا وقد طبعت ترجمته هذه عدة طبعات وبقيت لها مكانتها في عالم الأدب الألماني.

خاص قد لا يبدو في أحيان كثيرة سلساً جذاباً وهو عموماً لا يرضي أدنى معايير الدقة والأمانة. وقرأء الإنكليزية مدينون لساموندز بالكثير شأنهم في ذلك شأن من عقبه من المترجمين. وعليّ أن أقرّ هنا بفضلها شاكرة. وترجمته ليست بحاجة الى إطراء. إذ ما على المرء إلا أن يضطلع بما أنجزه من عمل ليتبين مبلغ أمانته في النقل مع طول معاناة وكلفٍ يتحري الدقة التامة بكلّ ما تقتضيه من جهد. فإذا ما وجدته مخالفاً غيره في ترجمة عبارة فثق انه ما تقصد ذلك إلا بعد تفكير طويل وتقليب وجوه الرأي وتغليبته بتأمل وبحث شاق. وليس في وسع مترسم خطاه ان يكون مهملاً قليل الاحتفال بالتفاصيل. بيد أن الأسلوب العصري لا يخلو من نقائص وعيوب لا يستطيع أيّ منا ان يتحاشاها. فالحرص العظيم على إيلاء كلّ فقرة ما تستحقّ من عناية تدعو الى إنتقاء تعابير لغوية خاصة. ويتطلب منا تقريب اللغة الدارجة في ذلك العصر الى مفهوم عصرنا فضلاً عن المصطلحات اللغوية الأجنبية. وربما امتازت ترجمة (ألكساندر سايمونديز) بتلك المجاذبية التي تشيع من كلّ آثاره، لاسيما تلك التي تتناول بلاط أمراء إيطاليا. فجليليني سايمونديز هو جليليني زائداً صفة أخرى تكسو تلك المذكرات حلّة أكثر بهاء وإشراقاً من النص الإيطالي بما يتخلله من تعابير سوقية كثيرة.

هذا جملة ما قالته الانسة آن مكدونلّ في صدر ترجمتها. وهي الترجمة التي اعتمدها انا اصلاً. ثم وقعت بيدي بعدها ترجمة اخرى لروبرت كوست Robert Cust نشرت في ١٩١٠ ثم ترجمة أخيرة تمت في العام ١٩٧٢ لروبرت بالديك Robert Baldick. وقد افدت من كليهما ايضاً فضلاً عن الترجمة الفرنسية التي أشرت اليها لاسيما بخصوص فترة بقاء جليليني في خدمة الملك فرانسوا بياريس. واليك مقاله المترجم اوجين پلون Eugène Plon عنها:

"لهجة جليليني، هي لهجة فلورنسا. نقيه للغاية، خالصة أصيلة تشيع في جوانبها روح فكاهية تتحدّى الترجمة احياناً."

ويتحدث بالديك عن ترجمته (هي الأخرى من سلسلة التراجم بحسب علمي ومتابعتي):  
"حاولت في ترجمتي إبراز فخامة الأصل وتنقلاته المتعددة في اللهجة وسرعة الحركة. وصعب عليّ مجاراة اوصاف جليليني وتعابيره الدارجة في صيغها بقالب انكليزي. ولم يكن ثمّ يدّ والحالة هذه من ضياع كثير من شتائمه واوصافه الشنعاء. ولم اتردد في تقصير الفقرات وتقطيعها لازالة الغوامض حيثما امكن..."

كان عليّ بعد هذا - وقد بقيت ترجمتي لاتفارقني - ان اتفهم تلك التعابير الدارجة والشتائم عن طريق المقارنة والمضاهاة بين ستّ تراجم اجتمعت لي خلال ذلك لأجد لها أقربها في لغة الضّاد. وقد افدت بالكثير منها مثلما افاد مترجمو جليليني الذين سبقوني أحدهم من الآخر.

## جليليني: (آخر سني حياته) ومكانته الفنية:

تنقطع المذكرات بصورة مفاجئة. وتختم بهذه العبارة "ثم انطلقت الى پيزا". هذه العبارة دونت في صدر صحيفة بيضاء لا تحتوي على كتابة أخرى. وانه لدليل على أن جليليني كان عازماً على الإستمرار. وقف بقصة مغامراته ووقائعه وأعماله حتى العام ١٥٦٢ مؤكداً في فاتحتها بأن الغرض الذي توخاه منها هو "رفع شكره لله فحسب" إلا أنه كان يكتب ويملي وعينه يقظة على جمهور قرائه. وما مذكراته هذه إلا دفاعاً عن نفسه وتزكية لمواقفه الحديّة الجريئة. اراد أن يثبت للدنيا أيّ معدن من الرجال الصناديد كان وأي مبلغ من العبقريّة الفنية بلغه.

كان جليليني في الثانية والستين عند إنقطاعه عن الإسترسال في التدوين. وقد أخرجت يده افضل آثاره الفنية. وهو معتلّ الصحة في أغلب الأحيان، يشكو بعض العسر المالي وقد إستقرّ نهائياً في فلورنسا. ولذلك وبسبب ما علم عن حياته الأخيرة- لنا أن نستنتج بأنه لو واصل الكتابة بعد العام ١٥٦٢ فكلّ مانظف به سيكون عرضاً مملاً وشكوى ممضة للمعاملة السيئة وسوء الحظ الذي لازمه دون ان يستحقه.

في العام ١٥٥٤ وضع اسمه رسمياً في قائمة طبقة نبلاء فلورنسا. إلا انه قضى رداً من الزمن في السجن لإعتدائه بالضرب على احد زملائه الصاغة ويبدو انه قضى فترة سجن اخرى بتهمة ممارسة فعل مخلّ بالأداب مع أحد مساعديه الصبيان. وفي العام ١٥٥٨ قبل نذره بالترهب. ولم يعتم إلا وطلب حلّه من الواجبات التي يفرضها هذا النذر فأجيب الى طلبه.

وبعد سنوات قلائل عقد زيجته بالمرأة المدعوة (بييرا سلفادوري پاريجي (Piera di Salvadore Parigi) ثم بدأ بكتابة رسالته في النحت والصياغة المسماة تراتاتي Trattati. وفي العام ١٥٦٤ انتخب عضواً في الوفد الرسمي لمحضور تشييع جنازة (ميكالنجلو) وتأبينه- وكان الوفد يضمّ خلافه كلاً من (برونزينو، وفاساري وأماناتي) إلا أن مرضه الذي اشتد عليه اقعهه عن المشاركة.

لم يقنع جليليني بأن يكون أباً لثمانية أولاد شرعيين وغير شرعيين من صلبه. ففي العام ١٥٥٦ تبنى رسمياً ابناً لإمرأة اسمها (دوروثيا) كان يتخذها نموذجاً له بمعرفة زوجها (دومينيكو پاريجي) ابيه الحقيقي. ولما لم يعيش اي واحد من أولاده فقد قرر أن يجعل الصبي المتبنى (انطونيو) وريثه. إلا ان ظنه فيه خاب. إذ لم يكن يسوى شيئاً. كما راح الأب الحقيقي يشير له المتاعب بالتدخل في شؤون التبنى، فحرمه جليليني من الميراث لكنه اضطر الى دفع نفقة إعاشته حتى أدركته الوفاة بمرض ذات الجنب.

كان في العام ١٥٧١. ودفن بإحتفال مهيب في كاتدرائية الأنونزيانا. وكرّم الفلورنسيون ذكراه. مثلما قدّروه حق التقدير في حياته بوصفه أحدق من عرفه العالم في فن الصياغة والتكفيت. وان إنقسمت آراؤهم في حينه حول كفاءته وعبقريته كمثال. والحكم الحديث على هذا الفنان من هذه الناحية قد يكون اضيق من ان يحشر في زمرة المثالين العظام أمثال ميكالنجلو ودوناتللو.

مهما يكن من أمر فمن الأغراض التي توخاها بكتابة مذكراته هي تزكية نفسه كفنّان. إن تعلقه الشديد بالجمال - ولاسيما جمال الإنسان وواكبته لمجاجة ورغبة جاثحة في تحقيق الصعب من الفن كما بلغت به الأوج في فنّ الصياغة. كان يكتب عن فنّه كأنما يكتب عن عشيقته متولّه بحبها، أحياناً يخونها (مثلما حصل أثناء حصار قلعة سان أنجلو) عند مثار النقع وفي دخان المدافع وقصفها ولعلعة الرصاص وقراع السيوف أثناء المعارك ضاعت منه تصاميمه ودراساته وموسيقاه الرائعة... كانت الحرب والقتال متعة روائية له واثراً رائعاً من آثاره.

يعدّ چليليني نفسه تلميذاً أميناً لـ(ميكالنجلو بوناروتي) العظيم. مردداً ذلك دون كلل أو ملل معدداً أفضاله، وكم هو مدين له. بقوله "من ميكالنجلو العظيم ومنه وحده وليس من غيره تعلّمت كلّ ما أعرفه". وبالفعل كان تأثير هذا العبقري الخالد في أسلوبه قوياً ومتواصلاً أثناء وجوده معه في روما وفلورنسا. وقد بدا هذا التأثير بأجلى صورته وبصورة خاصة في أشهر أثريين له هما "المملحة الذهبية" التي صنعها لفرنسوا الأول والقاعدة التي نصب فوقها تمثال (پرسیوس).

إن تقدير (چليليني) المفرط لعبقريته لا يمكن رفضه لمجرد صدوره من إنسان طبع على الخيلاء والإعجاب بالنفس. فقد أقرّ إثنان من كبار أدباء وخبراء عصره بمكانته في عالم الفنّ، هما (فاركسي) و(جيورجيو فاساري). قال هذا "انه صنع ميداليات فاق بها الأقدمين، وهو أشهر صانع في عصره ومثال يُشار إليه بالبنان".

ولدينا شواهد أخرى على هذه العبقرية في الصياغة وصناعة الميداليات فضلاً عن المملحة الذهبية. فهناك المسكوكات النقدية والميداليات التي صنعها للپاپا كليمنت السابع وللدوق أليساندرو دي مديتشي وفي دراساته التخطيطية لعروة زنار الپاپا وفي طبعاات أختامه المختلفة. لكن مسألة مكانته في عالم الفنّ بقين بالأخير تدور كما أراد هو نفسه حول آثاره كمثال.

في الوقت الذي حلّ چليليني في باريس (١٥٤٠) كان التأثير الإيطالي قوياً في مجال الفنّ. وبدا له وكأنه قادر على إستخدام سخاء فرنسوا وكرمه الذي فاق الحدود لعرض مواهبه كمثال. وكانت أعماله المنجزة في (فونتنبيلو) نموذجاً للأسلوب المعروف بالمانرزم Mannerism<sup>(١٣)</sup> وقد ساهم چليليني في إنشائه مساهمة بارزة ولاسيما في تفاصيله ودقائقه الفنية التي اتاحت له إبراز براعته التكنية وفق نهجه الخاص. فتمثال (مارس) العملاق الذي تحدث عنه في المذكرات إنما ينم عن رغبته الشديدة في إنجاز أثر بالغ الجرم والضخامة يلفت إليه الأنظار ويشير العجب والدهشة. إلا أن أثره الباقي من اسلوب المانرزم هو (حورية فونتنبيلو) المعروض الآن في متحف اللوفر.

وكان چليليني عند عودته الى فلورنسا قد عقد العزم على ان يشبث للفلورنسيين بأنه أصبح مثلاً

(١٣) يطلق على الأسلوب الفنّي والمعماري الذي تخلل أسلوب الرينسانس والباروك. كانت بولونيا وفلورنسا وروما مهده ومواضع نشأته وتطوره في اوائل القرن السادس عشر وشاع امره وازدهر طوال ذلك القرن حتى نهايته. ويتميز بتصوير دقيق المعالم لأوضاع الجسم البشري مع تآليف متحاشدة ومتساقطة وهو بمثابة ردود فعل مضادة لمبايديء وانماط الرينسانس الكلاسيّة.

فريداً يشار اليه بالبنان. ومن آثاره الباقية لهذه الفترة تمثال (برسيوس) البرونزي. والكلب السلاقي، وتمثال كوزيمو النصفي وكلاهما معروض في المتحف الوطني. وتمثال (بندو ألتوفيتي) النصفي في الولايات المتحدة. (متحف إيزابلا ستيوارت غاردنر في بوسطن). والصليب (في الاسكوريال بإسبانيا).

وما يزال حكم (سايونديز) عليه في هذا الصدد مقبولاً عند دائرة واسعة من خبراء هذا الفن. وهو ان جليلني ملك مواهب الفنان المحترف الكاملة إلا أنه يفتقر الى خيال الفنان الملهم. ولذلك خلت آثاره من العمق والجلال والتناسق.

وفي أيامنا هذه، وبالتأكيد على أن من حق أسلوب المانزوم في الأداء الفني - أن يعد نمطاً فنياً ذا طابع مميز لا فناً ثانوياً عادياً. صار الناقدون وخبراء الفن يدرجون (جليليني) في عداد مشاهير المثالين ويقومون آثاره تقويماً عالياً.

#### عن أسرة مديتشي:

ارتبطت حياة جليليني وحظوظه وأسباب شهرته بل ومتاعبه بهذه الأسرة الشهيرة التي حكمت فلورنسا. وقد رأيت أن لا أختتم هذه المقدمة إلا بعد عرض نبذة قصيرة عن هذه الأسرة. إنها أسرة إيطالية من المالبين والمصرفيين والأمراء ورعاة للفنون حكمت دويلة فلورنسا بصورة مستمرة تقريباً من حدود العام ١٤٢٠ حتى ١٧٣٧. وأنجبت مما أنجبت أمراء للكنيسة (كرادلة). وپاواوات ثلاثة هم الپاا ليون العاشر (١٥١٣-١٥٢١) وكليمنت السابع (١٥٢٣-١٥٣٤) وليون الحادي عشر (١٦٠٥). وملكتين لفرنسا هما كاترين دي مديتشي (١٥١٩-١٥٨٩) زوج هنري الثاني. وأم ثلاثة ملوك (فرانسوا الثاني، شارك التاسع، هنري الثالث). وماري دي مديتشي (١٥٧٣-١٦٤٢) زوج هنري الرابع الفرنسي وام لويس الثالث عشر. اقام اركان هذا البيت (جيوفااني دي بتشي دي مديتشي) (١٣٦٠-١٤٢٩) وأمره على فلورنسا ابنه كوزيمو الاول (١٣٨٩-١٤٦٤). الذي كان يحكم فلورنسا فعلياً منذ العام ١٤٣٤. ونظراً لما اتصف به من خصال كريمة، خصه الفلورنسيون بعد وفاته بلقب (أبو البلاد) وقد امتاز بثقافة عالية وبحب العلم والمعرفة وإهتمام ورعاية لأهل الفن من أمثال (دوناتللو) الشهير. وهو الذي أسس المكتبة اللورنتية العظيمة في فلورنسا. ومنهم حفيده لورنزو الأول (١٤٤٩-١٤٩٢) الذي لهج جليليني بذكره وأكثر إشتهر بلقب الممتاز او المفخم بوصفه أشهر امراء إيطاليا وأعظمهم شأناً في عصر الرينسانس. وكان هو نفسه من الشعراء المجيدين. رعى كلاً من الرسام الشهير بوتشيللي، وجيرالانديو والشاب الموهوب "ميكالنجلو" وغيرهم من الفنانين الكبار وبسط عليهم حمايته.

في العام ١٤٩٤ طرد ابنه پييرو (١٤٧١-١٥٠٣) من فلورنسا على إثر الثورة الشعبية التي تزعمها الراهب الدومينيكي (ساقونارولا) إلا أن الأسرة مالبثت ان اعيدت الى الحكم في العام ١٥٢١ بشخص لورنزو الثاني (١٤٩٢-١٥١٩) بقي منذ ١٥١٣ تحت وصاية عمه جيوفااني الذي

أصبح فيما بعد بابا باسم ليون العاشر.  
مما يذكر عن لورنزو هذا ان ماكيا فيللي اهداه كتاب "الأمير". وانه كان ضعيف الإرادة "نكرة" حامل  
الشأن. لم يكلف ميكالنجلو نفسه عناء اتقان صورته وإعطاء شبه حقيقي له في التماثيل التي  
صنعها له وهي قائمة الآن في كنيسة دي مديتشي. مصرحاً بأن لا أحد سيتذكرها او يتذكر صاحبها  
بعد قرنٍ من الزمن!  
واجتهد خلفه كوزيمو الثاني (القاسي) ١٥١٩-١٥٧٤ بتوسيع رقعة دولته الى الضعف وجعلها من  
الدول التي يحسب لها الحساب. واعلن دوقاً أكبر على توسكانيا في ١٥٦٩.  
لم ينبه شأن احد من امراء آل مديتشي الذي عقّبوه ولم يسجل لهم التاريخ مآثرة تذكر. ومات خطأ  
الأسرة بوفاة جيان كاستوني دي مديتشي (١٦٧١-١٧٣٧).  
تفخر مدينة فلورنسا اليوم بالآثار الفنية التي خلفتها هذه الأسرة.. وتجتذب اليها مئات الألوف من  
السياح وعشاق الفن.

جرجيس فتح الله



## بنقنوتو چليني

ولد في فلورنسا في الثاني عشر من تشرين الثاني للسنة (١٥٠٠). ونال شهرة عظيمة وذاع صيته نحاتاً وفناناً في شغل المعدن. وكان مختصاً بالهياكل وبعده من الأمراء والملوك. توفي في مدينة فلورنسا في الرابع عشر من شهر شباط للعام ١٥٧٢. نص رسالة بنقنوتو چليني الموجهة الى (بندتوڤاركي Benedetto Varchi) مع قسم من مخطوطة مذكراته.

"يقول سيادتك. إن قصة حياتي البسيطة وهي في هيئتها الأولى، تعجبك وانت تفضلها أن تبقى كما هي ولا ترى ان يتولى آخرون صقلها وتهذيبها لأن الحقائق التي دونتها قد يطمس وضوحها.

لقد حرصت ألا أذكر أمراً في نفسي منه شك، أو يشويه نسيان. وثق اني مادوتت غير الواقع. ولهذا أغفلت حوادث كثيرة عجيبة قد تحتل مركز الصدارة عند غيري. كما أسقطت وقائع عظيمة خطيرة لا تحصى خشية أن أبلغ بالمذكرات مجلداً ضخماً وللسبب عينه أسقطت بعض صغائر الأحداث. وها أنذا أبعث إليك بخادمي لتسلمه المحفظة والكتاب ويغلب على ظني أن ضيق وقتك لم يتسع لقراءة الكتاب كله. على أنني لا أرغب في أن أثقل عليك بشيء تافه كهذا، بعد أن ظفرت منك ببغيتي ورضيت بالذي ظفرت. فشكراً لك من أعماق قلبي. لذلك أرجو منك ألا ترهق نفسك بمطالعة المزيد منه، وأن تُعيده اليّ بجملته وتستبقي القصيدة لأنني طامع في أن يُجري مبردك العجيب بعض الصقل والتهذيب فيها.

سأقوم بزيارتك في القريب العاجل. وسأبقى دائماً رهن إشارتك على قدر ماتسعفني قواي ومواهبتي. وأرجو لك دوام العافية ولا تحرمني لطفك."

فلورنسا في ٢٢ أيار ١٥٥٩

حاشية: لو تطفل سيادتك فخص أخي الصغير بشيء من فضله وجعله في ذاكرته فسأبقى أسير كرمك منتظراً أوامر سيادتك.

بنقنوتو چليني

## القصيدة الفاتحة

من نظم

بنفنوتو جليليني

هذه هي قصة كفاحي في الحياة،  
أنشرها هنا شاكرًا ربَّ العالمين الذي مازال يرعى رُوحاً نفخها في جسمي.  
فيإرادته عزٌّ وجَلُّ بقيت حياً، أسبئةً كانت أعمالي أم حسنة.  
عيباً حاولت الأقدار القاسية النيل مني.  
فقد جمعت المجد من أطرافه وتمتعت بطيب العيش  
وملكت المال والجمال والرفعة والعبقرية الفذة وبها حققتُ تفوقِي على الكثيرين  
وبلغت ما اصبوا اليه  
إلا أن أفكار الانسان الضعيفة تبدها الريح كما تبدد ذرات الرمل.  
والآن علمتُ أن كُلَّ ما جمعت هو هباء وقبض ريح. وأنا الآن أطلق الزفرات ألاليمة  
متحسراً على الوقت الثمين الذي ضيعته في الجري وراء الصغائر والتوافه.  
ومع هذا، وبما أن الأسف لايجدي فسأقنع بما كسبتُ "قدمتُ أهلاً"<sup>(١)</sup> مثلما نزلتُ  
سهلاً في مروج ازاهير هذه الأرض الطيبة، أرض التوسكانيين.<sup>(٢)</sup>

باشرت في كتابة وقائع حياتي هذه بقلمي كما يتضح من بعض الصحائف المصححة في  
المخطوطة. على أنني وجدت ذلك مضيعة للوقت الكثير وأن عملي هذا ماهو إلا إعتداد  
بالنفس مفرط. فاستقدمتُ ابن (ميكيلى دي گورو Michele di Goro) من كُورة (بييشي  
أگروپيني Pieve a Gropine)، وهو صبي رقيق الحال في حدود الرابعة عشرة. ليقوم بتدوين ما  
أمليه عليه من وقائع حياتي أثناء تفرغي لعملي، ولم تكن متعتي التي أجنبيها من هذا  
بالقليلة. فقد رفعت معنوياتي، وزادت من انتاجي ولهذا السبب القيت بعبء الكتابة الى  
الفتى وإني لآمل في المضي قدماً بها على قدر ما تساعفني الذاكرة.

(١) هي الترجمة الحرفية لإسم الكاتب الأول: Benvenuto والمجاز لا يخفى هنا.

(٢) التوسكان شعب كان يسكن هذا الجزء من إيطاليا قبل الرومان وهي بلاد أتروريا في الزمان الغابر نشأت فيها  
الدوقية الكبرى على عهد آل مديتشي (١٥٦٩-١٧٣٨).

حتى صارت دقيقاً وصببت عليه بولي لأعمل منها حبراً.  
ثم شاع في حنايا أضلعي نور الوحي وناره وفاض الشعر وخرج  
من فمي كما يخرج الخبز من الفرن. ولأعد الآن الى غاييتي  
الأولى فأقول: على المرء ان يتوقع الشر الذي قدر له قبل أن  
يفكر بما سينال من خير.  
في جوّ السجن تجد الفنّ، والعلم. فإن كنت في حاجة للتسرية فمارسهما  
وإذ ذاك ستشيع الحرارة في عروقك فيجري دمك. وفضلاً  
عن هذا ففي كلّ سجن قوى طبيعية تجعلك بليغ اللسان، جريئاً  
شرساً. حسن المحادثة عن مصدر الخبز والشرّ.  
سعيد ذلك المرء الذي يبقيه سجانوه معتقلاً ثم يُفرج عنه.  
إنه ليعرف معنى الحرب والسلام، وكيف تُهتك العهود. وسينجح  
في كلّ ما يباشر من عمل. فالسجن يمنحه قوى وملكات عظيمة.  
ولن يندفع به عقله الى مواطن العبث والمرح.  
وقد تحتجّ عليّ بقولك إنك أضعت من حياتك سنوات وأن ماكتبت في  
السجن غير حقيقي. فلا سجن ثمّ يُنضجك عقلاً أو روحاً.  
إلا أنني سأمدحه ولن أكفّ عن ذلك مطلقاً. وإن كنت سأضع  
إستثناءً واحداً وهو سجن من يستحقّ السجن.  
على كلّ أولئك الذين يمسون بزمام السلطة أن يتعلموا دروساً من السجن  
فيحكموا بتعقل وحكمة لمصلحة رعيّتهم. ويتصرفوا بالعدل ولايحيدوا  
عن ذلك طوال حياتهم ولايسمحوا بتغلّب الأهواء والإضطراب  
على النظام والإتزان. ولكنني أرى وأنا جالسٌ في زنزانتى عدداً  
كبيراً من الكهنة والرهبان ورجال الحرب يدخلون السجن دون  
وجه حقّ. وإنه لمن المحزن أن تجد بابه يفتح لإستقبال أحدهم  
ويبقى مغلقاً في وجهك. فتتألم وتتعذب حين تُترك حيث أنت ويُطلق  
سراح واحد منهم. ولايعود عندك شيء تفكر فيه غير اليأس.  
إلا أنني أصبحت نقياً كالذهب الإبريز وعليّ أن أعرف قيمتي  
العالية ولن أضيف أكثر من هذا لأن الذهب لا يحتاج الى ثناء  
إلا أنني سأصّب في أذنيك (يا لوكا) شيئاً تذكرته وكنت قد نسيتته.  
في كتاب الله المقدس دوّنت ماجرى لي. كتبت على هامشه بقلمى والألم  
يغتذي من جسمي، بالحبر الذي صنّعته من ذلك المعجون القذر، إن

كلّ الموتى الذين كان الجحيم مصيرهم لم يعانون أسوأ من هذا .  
كان عليّ أن أغمس قلمي فيه ثلاث مرات حتى أستطيع كتابة حرف (و)  
سأكون ساكناً، فلست أول إنسان امتُحنت بهذا دون سبب. إلاّ  
أني سأكتب هنا ما قاسيت من العذاب المبرح وأمدح زنازة السجن  
بكلّ طاقتي. متوجهاً بقولي الى أولئك الذين يجهلون ناصحاً:  
إنكم بدونها لاترقون الى الأعلى. ولو أن أحدكم يقول لي كما قال  
الربّ عند الساحل: "قم يا بنقوتو خذ ثيابك وإنهض" فإنني  
سأرتل من أعماق قلبي صلاة "السلام لك يا ملكة" "Salve regina crado"  
مع "أبانا الذي في السماء" Paternosters " وسأوزع الصدقات على  
الفقراء والعريان والمقعدين دون إنقطاع.  
كم من مرّة صبغت الزنايق وجنتي بالإصفرار وبلغن بي حاقّة  
الموت وأنستني سحر فلورنسا وفتنة فرنسا. وإذا ما شاهدت  
وأنا أسير في المستشفى بشارة العذراء الطاهرة، فلا يسعني  
إلاّ الفرار لثلاث تثير زنبقة الملك جبرائيل<sup>(٢٥١)</sup> طباع الوحش الغليظة  
إني لا أجدف على العذراء النقيّة البريئة من كلّ عيب، ولا أقصد  
إهانة زنايقها البهيبة الطاهرة التي تتألأ لتنير الدنيا والسماء فوقها  
لكن أين وجهت أنظاري، فلا أرى غير العدد الكبير من تلك الزنايق ذات  
التويجات المعقوفة فأرتعد فرقاً ورعباً. أين وجهت بصرك فلا ترى  
إلاّ أولئك العبيد الكثيرين يرسفون في قيود شعار آل  
(فارنيزي) تلك الأرواح السامية التي جاء بها الله من الفردوس.  
إلاّ أنني رأيت هذا الشعار القتال يسقط من السماء بسرعة وينشر  
الشر بين الناس. ثم يسقط على الحجر نور جديد  
يضيء الجميع. وقبل أن أنال حريتي لأبد وأن يتصدع  
ناقوس الحصن: وهذا ما أعلنه الله الخالق الذي يكشف كلّ  
شيء. ثم رأيت تابوتاً قاتم اللون قرب الحجر، مع زنايق مكسرة<sup>(٢٥٢)</sup>  
وصلباناً ودموعاً حزينة. وأناساً مكروبين على أسرّتهم يتنون  
ورأت عيناى الموت وهو يعذب ويمزق الأرواح إعتباطاً  
عند ذلك قالت الروح " (سأخذ كلّ من يخشاه بنقوتو).  
ثم كتب ذلك الكائن النبيل العظيم بقلم

(٢٥١) يتألف شعار آل فارنيزي من سبع زنايق معقوفة التويجات. ويرى في شعار فلورنسا زنبقة واحدة. أما شعار  
فرنسا فيتألف من ثلاث زنايق. ويرسم الملك جبرائيل الذي بشر العذراء مريم بجنينها مسكاً عادةً بزنبقة واحدة.  
(٢٥٢) إدعى في رؤياه انه أنبيء بوجي من الله، بوفاة محافظ السجن وقتل بيير لويجي.

بطرس الرسول على جبهتي الكلمات التي بدأها. وشدد  
عليّ بأن أحفظها سرّاً ثلاث مرات. رأيت الحاكم الأسمى  
للشمس وقد إشتتمل برداء من الجلال والسلطان وحوله  
الأعوان ما لم تره عين إنسان قطّ. ثم سمعت زقزقة  
عصفور في أعلى السور فوثب قلبي وقلت "  
هذا يعني خلاصي، وينبيء بموتك!"  
فأنتشددت وكتبت نداء حريتي، ولم أطلب العون  
والغفران إلا من الله وحده. ذلك لأن أبصاري  
تعاني سكرات الموت.

أهو نمر أم دب أو أسد أو ذئب. ليس واحد من  
هذه الضواري أكثر منه ظمأً الى الدم. وليس ثمّ أفعى  
أكثر منه سمّاً. (٢٥٣)

ودونك هذا الكايتن القاسي، الذي حذق اللصوصية، أكبر  
نذل بين شرّ مجموعة من الجنود. إلا أنني سأليّن من كلامي  
فالكلمات تخونني. تصور أولئك الكلاب من الشرطة  
وهم يقتحمون منزل أحد الفقراء فيسلبونه ما عنده ويحطمون  
الصور المقدسة بحثاً عن الأسلاب. بهذا الشكل جاؤا  
اليّ في أول يوم من شهر آب ليجرّوني ويقذّفوا بي الى  
قبر أشدّ وحشة. ثم جاء تشرين الثاني<sup>(٢٥٤)</sup> وولى - وإنهالت  
عليّ شتائمهم. وسمعت بوقاً وكأنه يطلق نداء يوم الحشر  
فكشفت له معنى ذلك. وقد أرغمتني كأبتي وأحزاني  
أن ألقأ الى الشراسة والتحدي ثم جاءت الحبيبة الحائرة. عندما دسّوا لي  
مسحوق الألباس وجعلوني أتناوله مع طعامي قاصدين القضاء عليّ  
بشكل أكيد. إلا أنني طلبت من ذلكم المحتال الشرير أن يتذوقه  
ولهذا الذي جلب طعامي قلت: (لن يتحقق هذا الذي يبنيه  
لي دورانتني). وقبل هذا وجهت كل أفكاري الى الله متضرعاً  
وطالباً الغفران لكلّ ذنوبي. وتلوت تسيبحة الخلاص، برأس  
منحن. فزال بعض آلامي. ويفكر ثاقب وعزم راسخ أودعت  
روحي في يد الله بكل رغبة ليأخذني الى ملكوته الذي كنت

(٢٥٣) المقصود بهذه الأبيات وما قبلها: بيير لويجي.

(٢٥٤) كان قد قال لأحد حراسه بأنه سيكون مطلق السراح في شهر تشرين الثاني.

أتشوق إليه. وأقبل ملاك من عند الله بكل جلالٍ يحمل  
سعةً ووجهه يطفح بشراً. ووعدني بإطالة أمد حياتي  
وقال: "إن الله سيُشَنُّ حرباً عواناً على أعدائك ويسحقهم سحقاً.  
وستنعم مرة أخرى بحياة هنيئة. وستبقى في رعاية الله الذي  
له السلطان المطلق على الأرض والسماء".

الكتاب الثاني



مكثتُ في قصر كردينال (فرارا) ضيفاً، موضع إحترام الجميع وقبلة لعدد من الزائرين يفوق بكثير ما إستقبلت في المرة الأولى وهم لا يكتفون عجبهم من نجاتي وكيف اني مازلت حياً بعد المصائب المريعة التي حلّت بي. وكنت أثناء عنايتي بصحتي وممارسة فنّي أجنبي اعظم لذة في مراجعة ملحمتي الشعرية وتهذيبها. وعزمت مراعاةً لصحتي على قضاء فترة نقاهة في الهواء الطلق خارج المدينة فزودني صديقي الكردينال بعدد من الخيل مشفوعةً ببركته. فتركت روما برفقة صديقين شابين أحدهما صانع مثلي. وثانيهما لاعلاقة له بالمهنة وإنما رافقني للصحة فحسب. توجهت الى (تالياكوزا) لزيارة خلفتي (اسكانيو) وكان مع أبيه وإخوته وأخواته وزوجة أبيه. ويقصر قلبي عن وصف الحفاوة والرعاية التي أحاطوني بها. ثم ركبت بعد يومين عائداً و (اسكانيو) معي وقطعنا الطريق في أحاديث حول الفن وأنا أتحرق شوقاً للوصول الى روما والعودة الى عملي. وما إن إستقرّ بي المقام حتى أكملت إستعدادي للبدء في العمل. فإستعدتُ طُست الفضة الذي كنت قد بدأت به للكردينال قبل إعتقالي وكنت كذلك قد بدأت بالإبريق الأنيق الصغير وكانا قد سرّقا مني مع مجموعة أخرى ثمينة.

دفعت بالطست الى (باگولو) ليشتغل فيه وباشرت في عين الوقت بالإبريق فعملت له تصميماً جديداً ضمنته تماثيل صغيرة كاملة، ونقوشاً بنصف بروز بشكل يتسق مع الطست الذي كان يتضمن تماثيل كاملة البروز وأسماكاً بنصف بروز. وقد حاز إعجاب كلّ من شاهدهما من حيث تصميمهما المتناسق والنقوش والأشكال التي حفلا بها. كما كانوا كشيرى الشناء على مهارة تلاميذي ودقة عملهم.

وكان الكردينال يمرّ عليّ مرتين يومياً على الأقل لقضاء بعض الوقت معي ويأتي عادة برفقة السيد (لويجي آلأماني) و(گبريل جيزانو: Gabriel Cezano)، فتمرّ بنا ساعات ممتعة معاً. ومع كثرة الأشغال التي في يدي فقد كان الكردينال يثقلني بالأشغال الكثيرة غير ملقٍ بالاً على المتراكم منها عندي. ومما عهد به اليّ صنع ختم الكردينالية وكان بحجم كفّ صبيّ في الثانية عشرة. فرسمت له صورتين مختلفتين واحدة تمثل القديس (امبروجيو St. Ambrogio) وهو يطارد الأريوسين<sup>(١)</sup> ممتطياً جواده ويبيده سوطاً. والثانية تمثّل يوحنا المعمدان وهو يعظ في القفر. وكان التصميم بالحفر الواطيء وفي غاية الإبداع بحيث أقرّ الجميع بأنني تفوقت به على (لاويتزيو) العظيم المتخصص في هذا الفنّ. وكان الكردينال في الواقع يقارنه بأختام الكرادلة الاخرين في روما، وتكاد كلها تكون من صنع (لاويتزيو) فيطيب نفساً لتفوق ختمه عليها جميعاً.

(١) القديس امبروزيو هو شفيح مدينة ميلان. قيل أنه ظهر فجأة في ساحة معركة (پارابيوگيو Parabiago) (١٣٣٩) راكباً حصاناً لمساعدة مواطنيه الميلانيين ضد لودفيگو فيسكونتي. ومنذ ذلك الحين وهو يصوّر فارساً يشابه الخبيرة. عن هذه الميدالية أنظر (پلون، ص١٩٢). يعتبر القديس الميلاني المولد (٣٣٩-٣٩٧) أباً للكنيسة الكاثوليكية الغربية. سيم أسقفاً على ميلان قبل أن يتعمد. وشنّ حرباً على أريوس الأسكندري (٤٨٠-٣٣٦) الذي أنكر ألوهية المسيح وكان السبب الأصلي في إنقسام الكنيسة المسيحية الى شرقية وغربية.

بالإضافة إلى هذين العملين أمرني الكردينال بعمل تصميم لمملحة ولكنه شدد عليّ بأن تكون مختلفة عن النوع الإعتيادي. وألقى لويجي خطبةً بليغةً حول ما ينبغي أن يمثله تصميم المملحة. ثم قام (كابرييلو جيزانو) بدوره بإبداء ملاحظاته حول أوصافها وما يجب أن يُنقش فيها. وأصغى إليهما الكردينال بكلّ أدب. وأبدى سروره الشديد بالنموذجين اللذين إقترحهما هذان الجهيدان وأتيا إلى إعطاء صورة وصفية لهما. ثم إلتفت إليّ قائلاً:

- إني مسرور جداً يا عزيزي بنقوتو بالنموذجين اللذين إقترحهما لويجي وكابرييلو حتى صرت محتاراً في أيهما أختار. وبما أنك أنت الذي ستطبقهما فأنا أترك الأمر لك.  
قلت:

- تعلمون أيها السادة ماهي مكانة أبناء الأباطرة والملوك وكم تبلغ من الأهمية. وتعلمون أيضاً المهابة والجلال الذي يبدون فيه. ومع هذا فلو سألتهم راعياً فقيراً من الدهماء: أيهم أحب إليه؟ أولاده أو أولاد الملوك أولئك؟ ليس من شك في أنه سيجيب بأنه يحب أولاده. كذلك أنا. فحبي عظيم أذخره لأولادي الذين أخلقهم لممارسة فنيّ. وسيكون أول نموذج تتملأه عينك يا حامي ومولاي الكليّ الإحترام- هو من صنع يدي وإختراعي. كثير من الأشياء تبدو جميلة ساحرة. ولكنها لا تبدو كذلك إذا ما تمّ تطبيقها عملياً.

ثم إلتفت إلى الأديبين الكبيرين وأردفت قائلاً:

- إنكما تكلمتما أما أنا فسأعمل.

فإبتسم الأستاذ لويجي وبدأ بكل طيبة يلقي خطبة ساحرة قصيرة تتضمن الثناء عليّ. وناسبه هذا تماماً إذ كان في غاية الوسامة وتناسق الجسم. إلى جانب رخامة في الصوت. في حين كان الأستاذ (كابرييلو) يعكس ذلك تماماً. فقد جمع إلى قبح الوجه غلاظة طبع. ولذلك كان كلامه شبيهاً بوجهه. في خطبة (لويجي) إقترح عليّ أن أتخذ صورة فينوس وكيوبيد مع ما يناسبهما من تهاويل وزخرفة وكانت فكرة الأستاذ (كابرييلو) تتركز في إتخاذ (أمفتريتي Amphitreti<sup>(٢)</sup>) والـ (تريتون Triton<sup>(٣)</sup>) وأشياء كثيرة أخرى قد تبدو لطيفة عند الوصف لا العمل.

مهما يكن فقد كان تصميمي يتألف من شكل بيضيّ سعته تزيد عن أربعة عشر إنجاً (أكثر بقليل من نصف كوبيت). في هذا الشكل البيضيّ خالجتني فكرة معانقة الأرض للبحر فصممت تمثالين يزيد طولهما على طول الكف الإعتيادي بقليل ووضعتهما متقابلين على طرفي البيضة بحيث تتشابه أرجلهما في الوسط حتى لكأنك ترى أذرع البحر الطويلة تمتد إلى اليابسة ومثلث البحر برجل يحمل سفينة أثقلتها بالزخارف. هذه السفينة مجوفة لوضع الملح. وتحت جسم الرجل مباشرة صوّرت خيول البحر الأربعة. ووضعت في يد الرجل اليمنى رمحاً مثلث الشعب. أما الأرض فمثلتها بامرأة جميلة الوجه متناسقة الجسم بأدق ما تفتقت عنه مخيلتي. وجعلت إلى جنبها معبداً أكثر من زخرفته ويدها

(٢) في أساطير الإغريق هي زوجة نبتون (بوسيدون) آلهة البحر. ابنة أوقيانوس.

(٣) هما إبتان لپوسيدون من أمفتريتي. ويصرون عادة بذب سمكة ورأس وجذع إنسان.

مستقرة عليه. خصصت المعبد لوضع التوابل. أما يدها الثانية فقد أمسكت بـ(كورنوكوپيا Cornocopia<sup>(٤)</sup>). وحشّدت ما لا يحصى من الزخارف الجميلة. وتحت هذا كله ومن الجانب الذي خصصته لليابسة صورت طائفة من مختلف الحيوانات الجميلة التي تعيش في البرّ. بينما جمعت في الجانب المائي كل أنواع الأسماك والقواقع والحيوانات البحرية قدر ما يتسع المجال. أما بقية البيضة فقد زينتها بالنقوش البارزة.

وبعد فراغي من التصميم رحت أنتظر مقدم الكردينال. ومالبت أن أقبل بصحبة رفيقيه الجهبذين. فسارعت بعرض التصميم عليه فسبق (كابرييلو چيزانو) إذ هتف قائلاً:

- هذا عمل لا يمكن إنجازه بأقلّ من عشرة رجال متفرغين يفنون فيه حياتهم.

ثم إلتفت الى الكردينال وقال:

- أما بالنسبة إليك يا مونسنيور، فلعلك راغب فيه إلا أنك لن تحوزه في حياتك. أراد (بنقنوتو) أن يرينا أولاده إلا أنه لم يرد ان ينزل عنهم تماماً كما أردنا نحن. كنا نتحدث عن أشياء يمكن إنجازها. وما يرينا الآن هو بكلمة مختصرة مستحيل.

وهنا إنحاز السيد (لويجي) الى جانبي. إلا أن الكردينال لم يرد أن يربط نفسه بمثل هذا المشروع الكبير. عندئذ إلتفت إليهم وقلت:

- مولاي الكليّ الإحترام! سيديّ العالمين الكبيرين! إسمحوا لي بهذا القول: إني أمل أن أنجز مثل هذا العمل لمن قدر له أن يملكه. وسترونه كلكم وهو كامل أجمل بمائة ضعف وأدق من التصميم. وإني متأكد بعون الله بأن لديّ من الوقت المتوفر لأنجز أعمالاً أعظم وأسمى بكثير من هذه المملحة.

أجاب الكردينال بشيء من الغضب:

- إن لم تعملها للملك الذي سأخذك إليه. فلا أظنها تُعمل لأي شخص غيره.

ثم أراني الرسالة التي تتضمن فقرة ذكر فيها الملك بأن الكردينال يجب أن يستعجل العودة ومعه (بنقنوتو). فرفعت يدي الى السماء وهتفت:

- رباه متى ستكون تلك العودة العاجلة؟

أوصاني الكردينال بأن أقوم بتصفية كلّ أعمالني في روما وأن أكون مستعداً تماماً خلال عشرة أيام.

عندما حان وقت السفر أهداني الكردينال جواداً أصيلاً حسن السميت، إسمه تورنون Tomon كان هو قد تلقاه هدية من سميه تورنون<sup>(٥)</sup>. وزود (باگولو واسكانيو) بحصانين أيضاً. وكانت قافلة الكردينال ضخمة. فقسّمها قسمين. الأول منهما ضمّ عليّة القوم، وإختار طريق رومانيا Romagna ليؤدي فريضة الحج لسيدة (لوريتو) وبعدها يتجه الى (فيرار) مسقط رأسه.

أما القسم الثاني فيسلك طريق فلورنسا، ويضم معظم القافلة ويتألف من مجموعة كبيرة من

(٤) هو قرن عنزة مقوّس مثقل بالزخرف من فاكهة وغيرها. إستخدمه فنانو الرينسانس.

(٥) كردينال تورنو وزير معروف للملك فرانسوا الأول.

الرجال وبضمنهم نخبة فرسانه ونصحتني بأن أرافقه إن شئت ضمناً لسلامتي وإلا تعرضت حياتي للخطر. أجبته نيافته إنني لأرغب في هذا. إلا أن إرادة السماء شاءت أن أتذكر أختي المسكينة التي شفها الحزن لما لحقني من أوزار، كذلك تذكرت إبنتي عمي الراهبتين في (فيتيريو Veterbo)<sup>(٦)</sup> إحداهما رئيسة الدير والأخرى المسوولة عن الإدارة. وبذا تكون مقدرات هذا الدير الغني منحصرة فيهما. ألمهما ما حصل لي جداً وصلبتنا لأجلي بحرارة. وقد جزمت أن صلاة هاتين العذرائين المسكينتين قد حننت قلب الله عليّ فنلت نعمة الحرية. كل هذه الأفكار خالجتني فدفعتني الى فلورنسا دفعاً. ولو كنت في قافلة الكردينال لضمنت سافراً مجانياً في أي قسم منها لكنني قررت السفر بمفردتي. ورافقتي الأستاذ (كيروينو Cherobino) صانع الساعات الشهير وهو أحد أصدقائي. إلتقينا في أول الرحلة وإتفقنا على السفر معاً وقضينا وقتاً ممتعاً للغاية.

خرجنا من روما نحن الثلاثة نهار الإثنين من أسبوع الآلام. وإلتقينا برفيق السفر المتقدم ذكره في (مونتي روسي Monte Russi)<sup>(٧)</sup>. ولما كنت قد صرحت بأني من حاشية الكردينال ومن ضمن قافلته فما تصورت أن يجرأ أعدائي على نصب كمين لي. إلا أن الأمور كادت تنتهي بكارثة في (مونتي روسي). إذ لحقت بي عصابة من الرجال مدججة بالسلاح فسبقتني الى (فيتيريو) لمهاجمتي. شاءت إرادة الله أن يعرفوا بأني سأسلك هذا الطريق وحدي لا مع قافلة الكردينال فأطبقت عليّ وأنا أتناول طعام الغداء. وفي تلك اللحظة بالذات بدأت طلائع فرسان الكردينال فحبطت خططهم وسرت برفقة الفرسان حتى (فيتيريو) بنفس مطمئنة وبأمن من كل خطر. لاسيما وإنني لم أكن أتقدم القافلة إلا بمسافة أميال قليلة. وصلت فيتيريو والحمد لله سالماً. ورحبت بي إبنتا عمي وبقية الراهبات أحرّ ترحيب.

تركت فيتيريو مع الرفقة التي تقدم ذكرها نتأخر عن قافلة الكردينال مرةً وتقدمها مرةً أخرى. وفي الساعة الثانية قبل مساء خميس الفصح وجدنا أنفسنا في مشارف (سيينا) وكان ثمّ خيول بريد عائدة والموكلون بها يرغبون في إستكرائها بأجر زهيد لمن يريد أن يستفيد منها ويسلمها الى صاحب البريد في (سيينا). فترجلت عن (تورنون) ووضعت سرجه وخرجه على عاتق واحد من الخيول المكتراة. ونفحت صبي الإسطليل بـ(گويلو) وتركت جوادي بعهدة تلميذي وإنطلقت قبلهما الى سيينا بنصف ساعة إذ كنت أريد زيارة بعض الأصدقاء وتصريف أشغال لي. ولم أجهد الحصان وإن كنت أحتشه. وبيلوغي المدينة إستأجرت في فندق غرفة جيدة تتسع لأبواء خمسة أشخاص. وأمرت خادماً صبياً بأن يقود الحصان الى محطة البريد التي كانت تقع خارج باب (كاموليا Camollia) إلا أنني نسيت ان أرفع عنه السرج والركاب.

قضينا أمسية عيد الفصح في أنس وسرور. وفي اليوم التالي يوم الجمعة العظيمة تذكرت سرجي وركابي. فبعثت بطلبهما لكن صاحب البريد أبى إعادتهما بحجة أنني أجهدت حصانه حتى كدت

(٦) شمال روما وعلى مسافة سبعين كيلومتراً.

(٧) تقع بين روما وفيتيريو على طريق فلورنسا.

أتلفه. وتبادلنا الرسائل بين أخذ وردّ وأصرّ عليّ أن لا يعيد لي سرجي وركابي مضيفاً الى ذلك بعض الشتائم وعبارات التحدي وقال لي صاحب الفندق الذي كنت نازلاً فيه:  
- من حسن حظك أن يكون كلّ الضرر الذي أصابك منه هو فقدان سرجك والركاب.  
ثم أردف يقول:

- لا يخفك أنه أشرس مخلوق قد تقع عليه في هذه المدينة وإبناه المقاتلان الجريئان هما شرّ منه. وفي رأيي أن تعتبر سرجك وركابك في حكم المفقودين وتبتاع لنفسك ماتريد وتذهب في حال سبيلك دون أن تلفظ كلمة واحدة. فإبتعت فعلاً ركاباً. ولكنني فكرت في أنه قد ينفع معه الكلام اللطيف ويردّ لي سرجي المحكم الوثير. فضلاً عن هذا فقد كنت فوق جواد مطهّم وأنا كامل السلاح بزرد محكم مع قفازين واركبوسي<sup>(٨)</sup> (بندقية ثقيلة) فوق السرج. ولذلك رغم الوصف الذي خلعه صاحب الفندق على رجل البريد فإني لم أشعر بأقلّ خوف. كنت كذلك قد عودت تلميذي الشابين على إرتداء الزرد مع الأكماس وكنت عظيم الثقة في الشاب الروماني الذي لم ينزع عنه زرده طوال وجودنا في روما في حين كان اسكانيو رغم حداثة سنه قد تعود إرتداءه أيضاً. وعلى أية حال كنت أتصور أن المجانين في يوم الجمعة العظيمة هذه قد يمنحون جنونهم إجازة ويتحلّون بشيء من العقل إحتراماً لهذا اليوم. بلغنا باب (كاموليا) وتبينت صاحب البريد لما أبصرته من الأوصاف التي أعطيت لي فقد كان أعور الشمال. دنوت منه وأنا على صهوة جوادي متقدماً تلميذي ورفاق السفر بمسافة.

ثم إبتدته قائلاً بأدب:

- أوكد لك يا صاحب البريد أنني لم أجهد حصانك. فلم لا تتكرم عليّ بإعادة سرجي وركابي؟  
فأجاب بعين ما قبل لي أنه سيجيب أعني إجابة وحشٍ فظّ.  
عندئذ قلت متعجباً:

- هيا، هيا إنك مسيحيّ. أتريد أن نسب لأنفسنا فضيحة في يوم الجمعة العظيمة؟  
فأجاب إنه لا يهتم قلامه ظفر إذا كانت الجمعة عظيمة أو صغيرة. وإنه في حالة عدم إنصرافي فسيردني قتيلاً مع أركبوسي بالرمح الذي أسرع بتناوله. سمع هذه الكلمات الجارحة سيد سيينيّ كبير السن فتقدم نحونا. كان يرتدي لباساً مدنياً عادياً وقد عاد لتوه من صلاة الجمعة العظيمة. وقد سمع عن بعد ما دار وتبين مناقشتي الهادئة فإنحاز الى جانبي وراح يؤنب صاحب البريد تأنيباً شديداً. وإنتهر إبنيه وطردهما لأنهما يسيئان التصرف تجاه الغرباء المسافرين، وقال إن في هذا التصرف تحدياً لله وإساءة لسمعة المدينة فهزّ الإبنان رأسيهما ودلغا الى المنزل دون أن ينطقا بحرف. أثار عبارات الشيخ الوقور ثائرة الأب فتدفق من فمه سيل من التجديف والكفر ورفع رمحه في وجهي وهو يحلف بأنه سينتزع روحي من جسدي مهما حصل.  
ولما تبينت نيّة الشرّ عنده، ولكيما أبقيه بعيداً عنيّ تظاهرت بتسديد فوهة بندقيتي نحوه فزادت

(٨) إخترت هذه البندقية في القرن الخامس عشر ويصعب إستخدامها بغير مسند ذي قوائم.

حركتي من ثورته وحمل عليّ حملةً عنيفةً وكنت متأهباً للدفاع عن نفسي وقد أعددت البندقية لذلك، إلاّ أنني لم أخفضها الى الحدّ الذي تصير مصوبة اليه. بل كانت فوهتها متجهة الى الأعلى. ثم إنطلقت من تلقاء نفسها. وإصطدمت البندقية بقوس الباب وإرتدت عنه لتصيب صاحب البريد في قصبته الهوائية فسقط ميتاً. وفي الحال خرج الإبنان وقد تسلح أحدهما بما وقعت عليه يده من المشجب والتقط الآخر حربة أبيه ثم حملا على تلميذيّ. هاجم صاحب الحربة (باگولو) الفتى الروماني وطعنه في محلّ ما من الصدر الأيسر واندفع الآخر الى الميلائي الذي كان يسافر معنا، فبدا وجهه وقد فقد كلّ إمارات الحياة من فرط الخوف. وحاول عبثاً إنقاذ نفسه بالصياح متنصلاً من كلّ علاقة له بنا، ثم راح يدافع عن نفسه بالعصا الصغيرة التي يحملها ضد الحربة الضخمة المسددة إليه، إلاّ أن محاولته لم تحل دون إصابته بجرح طفيف في فمه.

كان (گيروينو) يرتدي ثياب الكهنة، إذ كان ينعم بمنصب پابوي ذي دخل طيب رغم كونه أستاذاً قديراً في صناعة الساعات كما ذكرت ولذلك لم ينله أذى. وكان اسكانيو مسلحاً لا كالميلائي فثبت وقاتل ولم يصب بأذى. ولكرت جوادي فنفر بي مسافة تمكنت من خلالها من حشو بندقيتي ثم ألويت عنانه وكررت راجعاً الى ساحة المعركة وقد فار دمي في عروقي. كنت أعالج الموضوع باستخفاف وأعدده من قبيل المزاح فلما إنقلب الأمر جداً صممت أن أخذه بما يستحق من جدية. تصورت أن تلميذيّ قد صرعا، فقررت أن أموت معهما ولكن ما إن تقدم بي جوادي قليلاً حتى رأيتهما مقبلين نحوي فسألتهما هل أصيبا؟ فقال (اسكانيو) ان (پاگولو) اصيب بطعنة حربة قتالة. فصرخت:

- پاگولو! ولدي العزيز. إذن فقد اخترقت الحربة زردك؟  
فأجاب:

- كلا فقد حزمته في أمتعتي صباح هذا اليوم.  
فقلت حانقاً:

- إذن فالزرد تلبسه في روما للإختيال أمام الغواني؟ أما عند الخطر والضرورة فهو يحزم مع الأمتعة! إنك تستاهل محلّ بك. وها إني الآن بسبب خطئك أعود لألقى حتفي.

قلت هذا واندفعت الى أمام فتشبت بيّ هو واسكانيو متوسلين بمحبة الله أن أنقذ نفسي معهما لأنني بالتأكيد ذاهب الى حتفي. ثم أقبل (گيروينو) والميلائي الجريح. وصرخ حالاً بأن الجميع سالمون وأن (پاگولو) لم يصب إلاّ بجرح سطحي كما أنبأني بمقتل صاحب البريد وإن ولديه وجمعاً من الرجال يتأهبون لتعقيبنا وسيقطعوننا إرباً إن ظفروا بنا. ثم أردف يقول:

- مادام الحظ قد واتانا وخرجنا من العاصفة الأولى سالمين، فلا تجرّبة مرةً أخرى وإلا تخلى حظنا عنا.  
ألا فلنسرع يا بنقنوتو.  
فأجبته:

- إن كان هذا رأيك فأنا موافق.  
ثم إلتفت الى پاگولو واسكانيو وقلت:

- اعملا ارجلكما في مهمازيكما. وجهتنا (ستاجيا Staggia)<sup>(٩)</sup> دون وقفة وسنكون آمنين.  
وصرخ الميلاني الجريح:  
- يحق الله ذنوبنا! السبب الوحيد لإصابتي هو أنني أكلت قليلاً من الحساء إذ لم يكن لدي ما أقتات به سواه.

في وسط متاعبنا وقلقنا لم نستطع حبس فقهاتنا لسخافات هذا الأحمق وهرائه. واحتششنا خيلنا تاركين (غيروينو) والميلاني خلفنا ليلحقا بنا على هونهما.  
في تلك الأثناء أسرع إبننا القليل الى دوق أمالفي Amalfi<sup>(١٠)</sup> وطلبنا منه كوكبة من الفرسان الخفيفة للحاق بنا وإلقاء القبض علينا. إلا أنه رفض طلبهما ومنعهما من اللحاق بنا وتعقيبنا لمعرفة ما كنا من رجال الكردينال فرارا. كنا في غضون ذلك قد بلغنا (ستاجيا) وأمنّا على أنفسنا. وإستدعينا خير طبيب في البلدة، وبعد فحص جرح (پاگولو) تبين أنه لم ينفذ عميقاً ولا خطر منه. فأمرنا بإحضار الطعام. وفي أثناء ذلك لحق بنا (غيروينو) والميلاني الأحمق الذي إستمر يصب اللعنات على كل من يثير الشجار. وصار يشكو بأنه أصبح في عداد المحكومين بالحرم من الكنيسة لأنه لم يتسن له تلاوة "أبانا الذي"<sup>(١١)</sup> ولو مرة واحدة طوال ذلك اليوم المبارك. كان قبيح الوجه كأبليس زاده قبحاً الجرح الذي أصابه في فمه الواسع فزاد في سعته إنجمن. وبين رطانتة الميلانية وثرثرته السخيفة بدا مضحكاً الى درجة أنسانا متاعبنا وسوء حظوظنا فلم يسعنا سوى الضحك على كل كلمة يتفوه بها.  
وبدء الطبيب يخيظ جرحه وبعد أن أكمل ثلاث درزات طلب منه أن يتوقف قليلاً لأنه لا يريد أن يخيظ فمه كله ثم تناول ملعقة وقال له بأن عليه ان يترك من فمه فتحة تتسع لدخولها ليعود الى أهله حياً! كان يقول هذا ويهز رأسه هزات مضحكة فتواصلت فقهاتنا. وسادنا هذا الجو المرح بدل تأسبنا بما صادفناه من متاعب طوال سفرنا الى فلورنسا.

ترجلنا أمام دار أختي المسكينة فرحبت بنا هي وزوجها أجمل ترحيب. وإنصرف (غيروينو) والميلاني الى شؤونهما. وبقينا في فلورنسا أربعة أيام ولما غادرناها كان (پاگولو) قد تعافى. والغريب إن الضحك كان يستولي علينا كلما تذكرنا أقوال الميلاني المعتوه أو جئنا الى ذكره بقدر ما أبكتنا معاناتنا. وهكذا كنّا نضحك ونبكي في آن واحد. إندمل جرح (پاگولو) دون مضاعفات فإنطلقنا الى (فرارا) وإستبقنا الكردينال إليها. ولما وصل هو وسمع بما وقع لنا من مشاكل قال معبراً عن ألمه لما حصل:

- كل ما أطلبه من الله هو أن أوصلك الى الملك حياً، كما وعدته.  
وخصص لي جناحاً في أحد قصوره بـ(فرارا) وهو قصر جميل بالقرب من أسوار المدينة يعرف بـ(بلفيوري Bifiori) ووضع تحت تصرفي كل ما أحججه للعمل ثم تهيأ للرحيل الى فرنسا بدوني.

(٩) تقع بين سبيننا وپيجينزي الى الشمال. وهي بليدة صغيرة بينها وبين سبيننا حوالي عشرة كيلومترات.

(١٠) الفونسو بيكولوميني حاكم سبيننا المنتدب من قبل الإمبراطور شارلكان.

(١١) أي الصلاة الربية وتبدأ بـ"أبانا الذي في السماوات...". [وهي في مقام سورة الفاتحة عند المسلمين]

وعندما تبين مبلغ إضطرابي لهذا النبأ قال:

- أعلم يا بنقوتو بأن كل الذي أعمله هو لصالحك. ذلك لأنني أريد أن أتأكد قبل أن أخرجك من أرض إيطاليا- ماذا سيكون واجبك في فرنسا. وخلال هذه الفترة عجل في إكمال الطاس والأباريق فقد ألقيت على وكيلي الأوامر بتزويدك بكل ما تحتاج.

وواصل سفره وتركني أحرق الإرم غيظاً مفكراً بالعودة من حيث أتيت والعدول نهائياً عن مشروع السفر نهائياً ولم يكن يقفني عن هذا إلا فضله عليّ في تحريري من قبضة البابا پولص. وأما خلاف ذلك فقد تركني وأنا غير ممتن. فما فعله أدى الى خسارة مادية كبيرة لي. إلا أنني أقنعت نفسي بأن العطف الذي أظهره لي يستحق الشكر والشعور بالفضل وقررت الإنتظار متذرعاً بالصبر والتريص بما ستؤول إليه الأمور. وبدأت في عملي يساعدني خلفتاي وتقدمت كثيراً في الطاس والإبريق.

كان الهواء في المنطقة التي نسكنها غير صحي. ويتقدم أشهر الصيف ساءت أحوالنا الصحية جميعاً. وفي خلال إعتلالنا كنا نقوم بجولات إستطلاع في الضيعة وكانت جدّ واسعة والأرض مثل حرج تمتد الى مسافة ميل لم تعمل بها يد إنسان ووجدنا عدداً كبيراً من طائر السماني قد إستقر هناك يتوالد كالطيور البرية. وكنت بعد إكتشافي هذا أحشو بندقيتي ببارود لا صوت لإنفجاره وأصطاد طائراً منها بين يوم وآخر، مختاراً صغارها وأنا منبطح. وبذلك تزودنا بمقدار كبير من اللحم الصحي ساعد في إزالة الوعكة عنّا. وقضينا هذه الأشهر القليلة نشغل بالطاس والإبريق وهو عمل تطلب منا كثيراً من الدقة والتركيز- دون أن يعكّر صفو حياتنا معكراً.

في أثناء هذه الفترة من الزمن وفق دوق (فرارا) الى إتفاق مع البابا پولص الروماني حول تسوية خلافات طويلة الأمد بينهما بخصوص (مودينا Modena<sup>(١٢)</sup>) وغيرها من المدن. ولما كانت الكنيسة صاحبة الحق فيها فقد ترتب على الدوق أن يدفع لخزينة البابا مبلغاً كبيراً من المال ثمناً للصالح والسلام. وأعتقد أنه كان يبلغ ثلاثمائة ألف دوقية بحساب العملة البابوية<sup>(١٣)</sup>.

وكان أمين بيت مال الدوق في ذلك الحين رجل عجوز يدعى (السيد جيرولامو كيلبولو G. Giliolo) نشأ في رعاية الدوق (ألفونسو) والد الدوق الحالي. هذا الرجل الشيخ صعب عليه تسليم المبلغ الطائل الى البابا. وشفّه الحزن وإعترته نوبة عاطفية فراح يدور في الشوارع شاكياً بأن الدوق ألفونسو والد الدوق الحالي كان سيستخدم هذه الأموال لإحتلال روما بدلاً من تسليمها طواعية للبابا وتعذر إقناعه بدفعها. بالأخير أجبره الدوق على تسديدها فإنتابه نتيجة ذلك إسهال شديد كاد يقضي على حياته. وفيما هو عليل طريح الفراش إستدعاني الدوق وأمرني بعمل صورة معدنية له. فعملتها على حجر أسود دائري الشكل في حجم صحيفة طعام صغيرة. وكان الدوق يجني لذة عظيمة من متابعة عملي في صورته، فضلاً عن إستمتاعه بمبادلتني الحديث طويلاً وهذا يعني في كثير من الأحيان جلوسه أمامي من أجل الصورة أربع أو خمس ساعات على الأقل. ودعاني عدّة مرات لتناول العشاء

(١٢) تقع بين بولونيا وبارما وهي على بعد حوالي (٤٠) كيلومتراً الى الشمال الشرقي من الأولى.

(١٣) في الحقيقة أن المبلغ هو مائة وثمانون ألفاً. وقد ثبت للدوق مقابل هذا حقوقه في دوقية ديستي d'Este.

معه. أنهيت صورة الوجه خلال أسبوع فأمرني أن أعمل لها ظهراً، وكان التصميم يرمز الى السلم مثلاً بإمرأة تمسك مشعلاً هي تحرق كدساً من الأسلحة. صورت المرأة وهي مفترسة الثغر كاملة الأنوثة مرتدية غلالة شفافة. وجعلت (فيوري) تحت قدميها يائسة مثقلة بالسلاسل في حالة بؤس شديد. وقد أجهدت نفسي في تحري الكمال والدقة في العمل وأكسبني ذلك شرفاً عظيماً وحظوة عند الدوق. لم يتوقف الدوق لحظة عن إبداء مقدار إرتياحه ورضاه وأعطاني العبارة التي أراد كتابتها في أعلى الظهر وهي كالتالي: "شري السلم بالمال الطائل pretiosa in conspectu domini". وفيما أنا مشغول بعمل الظهر وصلتنني رسالة من الكردينال يطلب التهيؤ للسفر لأن الملك قد إستدعاني وأضاف يقول أنه سيعلمني في رسالته التالية بتفاصيل كل ما وعدني به. فحزمت الطاس والإبريق بعد أن شاهدهما الدوق.

كان للكردينال وكيل أعمال من أهل فرار يدعى (ألبرتو بنديديو Alberto Bendidio). هذا الرجل كان يشكو علّة مستعصية جعلته قعيد الدار لمدة إثنين عشر سنة لم يبرح خلالها فراشه. وفي ذات يوم إستدعاني اليه بصورة عاجلة وأبلغني بوجود الإنضمام فوراً الى قافلة البريد للتوجه الى الملك الذي كان دائم السؤال عني معتقداً اني في فرنسا وقد اعتذر الكردينال لنفسه بالقول اني كنت قد اصبت بوعكة وأنا أعيش في دير له في (ليون) لكنه سيسبقني بدون تأخير. ولذلك أصر السيد (بنديديو) بالسفر مع البريد بأسرع ما يمكن.

السيد ألبرتو إنسان مستقيم الى أبعد حد، إلا أن المرض الذي يعاني منه جعله حاد المزاج ضيق الصدر الى درجة لاتطاق. وقد أمرني كما ذكرت بأن أستعد فوراً وأسافر مع البريد السريع. فكان جوابي أن فني لا يمكنه السفر بالبريد السريع وإذا ماقررت السفر فسيكون ذلك على مراحل وبشكل مريح وأن يرافقني مساعداي (پاگولو واسكانيو) اللذان جئت بهما من روما. وفضلاً عن هذا فإني أحتاج الى خادم بحصان يقوم على خدمتي الى جانب مبلغ من المال يكفيني للرحلة.

فردّ عليّ الشيخ المريض بجواب فيه من الغلظة والغطرسة مافيه، قال:

- إن رحلة كهذه التي وصفتها هي لأبناء الأمراء وليس لغيرهم.

فأجبت أن أبناء مهنتي يسافرون على الشكل الذي وصفته له. ولما لم أكن ابناً لأمير فأنا أجهل تماماً كيف يسافرون. وإن أراد أن يسترسل في صبّ مثل هذه الخطب الغريبة في أذني فسأعدل عن السفر نهائياً. وأضفت قولي:

- أخلف الكردينال وعده من جهة، وأنا الان أتلقى الإهانات بهذا الشكل من جهة أخرى؛ لهذا صممت على أن لا أتعامل مع أي فراري بعد الآن.

ثم أدت ظهري وإنصرفت وهو يطلق تهديداته وأنا أردد إحتجاجاتي.

توجهت الى الدوق وسلمته الميدالية كاملة فطار بها فرحاً وأغرقتني بالمديح حتى أخرجتني وكان قد سبق له فأمر (السيد جبرولامو كيليلولو) بأن يحصل على خاتم الماسي بقيمة مائتي كراون وأن يدفعه الى أمين السرّ (فياسكينو Fiaschino) ليقدّمه هذا لي مكافأة على أتعابي. وقد جرى ذلك وجاءني

(فياسكينو) بعد الغروب بساعة ودفع اليّ بخاتم ترصعه ألامسة رائحة المنظر وردد رسالة الدوق الشفوية لي "على سبيل الذكرى من سموه، فلتزدان يد الفنان الفريدة بهذه الألامسة تلك اليد التي أنجزت مثل هذا العمل الدقيق".

في صباح اليوم التالي تفحصت الألامسة فوجدتها رقيقةً "تافهة" لاتسوى أكثر من عشرة كراونات. ولقد كرهت والحق يقال أن يرفق رسالة الدوق العالية مثل هذه الهدية التافهة. ولعلمي ان الدوق قد ظنّ أنه أحسن مكافأتي ودفع اليّ بشيء حاز رضاي. ولأنني قدّرت بأن هذا التصرف هو من عمل أمين خزائنه النذل. فقد سلمت الخاتم اليّ صديق لي ليعيده اليّ (فياسكينو) بألطف ما يمكن. فقام صديقي هذا وإسمه (برناردو سالييتا B. Salita) بالمهمة خير قيام. فما كان من هذا إلا أن أقبل مسرعاً اليّ، رافعاً عقبيرته بالإحتجاج وقال لو أن الدوق علم برديّ الهدية التي قدمها اليّ بكيّ وكيت من الإلتفات والتقدير لأستاء جداً وربما سأندم على عملي وألقى ما أكره. فأجبت أنه هدية سموه لاتسوى أكثر من عشرة كراونات وعملي يسوى أكثر من مائتين. لكنني إظهاراً لإمتناني من الدوق أرجو ان يهديني خاتم تعويذة<sup>(١٤)</sup> من النوع الذي يستورد من بريطانيا ولايسوى أكثر من درهم وسأبقبه ذكرى عزيزة لسموه اليّ جانب رسالته الرقيقة. معتزلاً بها طوال حياتي. فإن مجرد خدمته هو أجره لأتعايي. أما هذه الألامسة التافهة فهي إهانة لي ليس إلا.

ألمت كلماتي هذه الدوق فأسرع بإستدعاء أمين خزائنه وإنهال عليه لوماً وتقريراً بشكل لم يسبق من قبل. ثم أمرني بأن لا أغادر فرارا وإلا تعرضت لسخطه، وأن أخبره شخصياً قبل ذلك. ثم أمر أمين خزائنه بأن يقدم لي الألامسة لاتقل قيمتها عن ثلاثمائة كراون. إلا أن هذا العجوز الشحيح إنتقى الألامسة أخرى لاتزيد قيمتها عن ستين كراون زاعماً أنها تسوى أكثر من مائتين بكثير.

ما ليث (السيد ألبرتو) أن عاد اليّ رشده وزودني بكل ما طلبت وقررت ترك فرارا في ذاك اليوم بالذات مهما كلّفني الأمر إلا أن أمين سرّ الدوق المتطفل رتبّ مع (ألبرتو) بأن لا أحصل على الخيول في ذلك اليوم. كنت قد حزمت فوق أحد البيغال أمتعة كثيرة جداً من ضمنها الطاس والإبريق اللذين صنعتهما للكردينال. وفيما أنا أشدّ الأمتعة دخل عليّ نبيل من أهل فرار يدعى (ألفونسو دي تروتتي A. de Trotti). كان رجلاً مسناً بالغ اللطف. شديد التعلّق بالتحف الجميلة والتقدير لها. إلا أنه كان من أولئك الذين يصعب إرضائهم، ومن الصنف الذي إتفق لهم ووقعوا على شيء أعجبهم أصروا بأنهم لن يقفوا على أجمل منه. الحاصل عندما جاء السيد (ألفونسو) بادره (ألبرتو) بالقول:

- يؤسفني أنك جئت متأخراً لأن الطاس والإبريق اللذين سنرسلهما اليّ الكردينال في فرنسا قد تم حزمهما مع الأمتعة.

فأجاب (السيد ألفونسو) لا بأس في هذا وليس مهماً. ثم نادى خادمه وأمره بأن يذهب اليّ منزله ويأتي بمزهية مصنوعة بشكل فني دقيق من جيس فاينزا<sup>(١٥)</sup> الأبيض. وفي أثناء إنتظار عودة الخادم

(١٤) مازال خاتم التعويذة شائعاً وهو من الحديد ويتخذ علاجاً لبعض الأمراض.

(١٥) تقع هذه البلدة جنوب شرق رافنا وعلى بعد حوالي أربعين كيلومتراً.

قال للسيد ألبرتو:

- سأعلمك بسبب قلة إهتمامي بمشاهدة آنية أخرى، فأصل الحكاية إنني رأيت مرةً إناءً فضياً أثرياً رائعاً في غاية الجمال لايسمو الى تصور عقل بشر مثيل له ولذلك عزفت عن رؤية أي إناء آخر لئلا يشوه الإنطباع العجيب الذي خلّفه عندي ذلك الإناء. لقد عرض سراً على نبيل عارف بدقائق الفن في روما إذ سافر إليها في مهمة خاصة فإستطاع أن يغري واضع اليد بمبلغ كبير من المال رشوةً لينزل له عنها فجلبها معه إلا أنه بالغ في إخفائها لئلا ينتمي خبرها الى الدوق فيفقدها. كان السيد (ألفونسو دي تروتي)<sup>(١٦)</sup> يقصّ حكايته الطويلة دون أن يكلف نفسه عناء النظر اليّ مع أنني كنت أفق بقربه إذ لم يكن يعرفني. وفي أثناء ذلك وصل الحادم بنموذجه الجبسي الثمين وأزاح عنه الغطاء بكثير من التيه والمباهاة والتعاطف. فلم أتمالك نفسي وإلتفت الى السيد ألبرتو قائلاً:

- أي صدفة عجيبة لحسن الحظ إذ أراه ثانية!

ظهرت علام الإنفعال على السيد ألفونسو وصاح بخشونة:

- من أنت؟ إنك لاتفقه شيئاً عما تتحدث به؟

فأجبت:

- الآن عليك أن تصغي اليّ لتعرف من هو أدري من غيره بما يتكلم.

ثم توجهت الى (السيد ألبرتو) الرجل الرزين الذكي. وأخبرته بأن نسخة من منقولة عن إناء فضي صغير وزنه كذا وكذا قمت بصنعه في تاريخ كذا وكذا لطبيب مشعبد يدعى (جاكومو دا كاپري) وإستطردت أقول:

- إنه ذلك الذي قدم الى روما وبقي فيه ستة أشهر يخدع بعلاجه عشرات من النبلاء ووجهاء القوم المساكين معتصراً منهم آلاف الدوقيات. صنعت له أصل هذا الإناء مع إناء آخر يختلف عنه تصميماً أثناء إقامته ولم يدفع لي لقاء أتعابي إلا اليسير<sup>(١٧)</sup>. وإنك لتجد اليوم كل أولئك الذين عاجلهم بين كسيح أو مقعد يعاني أشد الآلام. إنه لشرف عظيم لي أن تحظى أعماله بمثل هذا التقدير من السادة الأغنياء أمثالكم. ويمكنني التأكيد لكما بأنني لم أدخر وسعاً لأرتفع بفني الى أفاق أوسع منذ ذلك الحين وفي إعتقادي ان الآنية التي أحملها معي الى فرنسا هي أليق بالملك والكردينال من هذا الإناء الذي يملكه طبيبك المحتال.

أثار كلامي هذا شوقاً مستعراً في السيد ألفونسو لمشاهدة آنية الكردينال إلا أنني تمنعت ورفضت وبعد أخذ وردّ طويلين قال انه سيذهب الى الدوق ويطلب منه أن يأمرني بذلك وكاد يسقط ميتاً لفرط لهفته. عندئذ تدخل السيد (ألبرتو) الذي وصفته قبلاً بالغرسة فقال بلهجة متعالية:

(١٦) وزير لدوق فرارا وثق صلته فعلاً مع چلليني فيما بعد حتى انه إستأجر منه منزله في شارع سانتا ماريا نوفللاً

(انظر حاشية لطبعة بيانكي Bianchi، ص ٢٥٨)

(١٧) هذا خلاف ما ذكره في السابق. إذ قال ان الطبيب قد دفع له أجرأ طيباً.

- سترهما أيها السيد ألفونسو قبل أن تنصرف. دون حاجة إلى إستخدام نفوذ الدوق. عند هذا تركتهما وانصرفت. وقام (ياگولو واسكانيو) بعرض الإثنائين عليه، فكانت دهشته لا تحدد حسبما أعلمني (ياگولو) وأبدى شوقه الكثير إلى توثيق الصلة بي. وبدا لي وكأن دهرأ مر علي قبل أن أغادر فرارا والنجاة من أهلها. كل حسن لقيت في هذه المدينة هو صحبة الكردينال سالفاتي وكردينال (رافنا) وبعض الموسيقين ولا أكثر. أن أهالي فرارا شديدو البخل يجنون لذة كبيرة من سرقة الآخرين وإحتلابهم ما وسعهم ذلك. وكلهم على هذه الشاكلة. قبل حلول الليل بساعتين جاءني (فياسكينو) وسلمني الأمانة التي لا تزيد قيمتها عن ستين كراونا. ورجاني بكلمات مقتضبة وبوجه أكلح أن أضعها في إصبعي إكراماً لسموه. فأجبتة: - ثق إنني سأفعل ذلك.

ووضعت رجلي في الركاب وهو ما يزال واقفاً وإنطلقت في رحلتي دون أن أستأذن أحداً. فأبلغ الدوق بتصرفي هذا فثار ثائره لو إستطاع لقلب الأرض والسماء ظهراً لبطن في سبيل إعادتي. قطعت في ذلك المساء ما يزيد عن عشرة أميال هذباً. وعاودني الشعور بالراحة العظيمة عند خروجي من حدود دوقية (فرارا) في اليوم التالي. ذلك لأنني - بإستثناء طائر السماني الذي كنت أقتات عليه وكان السبب في إستعادتي صحتي - لم أستفد شيئاً من الموضع. وسلكنا طريق جبل جينز Genis متحاشين مدينة (ميلان) بسبب الوسواس التي كانت قد داخلتنني<sup>(١٨)</sup> ثم بلغنا (ليون) سالمين وكنا أربعة أنا وياگولو واسكانيو وخادم، وتحتنا خيول ممتازة قوية. مكثنا في ليون بضعة أيام في إنتظار المكاري والبغل الذي يحمل أنيسة الكردينال وباقي أمتعتنا. وحللنا في دير يعود إلى للكردينال. بعد أن وصل المكاري جمعنا أمتعتنا كلها ووضعناها في عربة وأرسلناها في طريق (پاريس) ثم لحقنا بها. وقد واجهتنا في الرحلة متاعب طفيفة سأضرب صفحاً عن ذكرها. وجدنا بلاط الملك في (فونتينلو) وهناك قدمنا أنفسنا للكردينال الذي أمّن لنا مسكناً على الفور فقضينا فيه ليلة مريحة جداً. وفي اليوم التالي وصلت العربة فأنزلنا أمتعتنا ولما أبلغ الكردينال بذلك، أخبر الملك الذي أبدى رغبته في رؤيتي حالاً. فقصدت جلالته ومعني الطاس والإبريق. وأسرعت عند دخولي بتقبيل ركبته. ورحّب بي ترحيباً حاراً فشكرت جلالته على تحريري من السجن قائلاً إن أميراً مثل جلالته، رجلاً في مثل طبيئته التي لانظير لها يرى من واجباته تحرير من يملك بعض المواهب ولاسيما الأبرياء مثلي إن هذه المأثرة الكريمة تسجل له في كتاب الله لتكون أرفع وأسمى من أي مأثرة.

كان الملك الصالح يصغي إلي حتى نهاية أقوالي. مظهرأ عطفأ ومجاملة. ومعقبأ بكلمات قليلة تليق وتتفق مع طبعه الكريم. وبعد أن فرغت من أقوالي تناول الطاس والإبريق وقال:

(١٨) نسي أن يذكر طبيعة هذه الوسواس ومأناها. ولربما كانت بسبب حادث القتل الذي ذهب ضحيته (پومپيو) وهو ميلاني. وخوفه من مطلب ثار هناك.

- لعمري هذا شيء لا أعتقد أن القدماء قد عرفوه. وأنا أذكر جيداً مبلغ إطلاعي على كل آثار خيرة فناني إيطاليا في هذا المجال ولم أجد شيئاً أثار إعجابي كهذين.  
قال الملك هذا للكردينال مستخدماً اللغة الفرنسية مضيفاً إليها الكثير من عبارات المديح والتهنئة ثم إلتفت إليّ وقال بالأيطالية:

- بنقنوتو! رفّه عن نفسك بضعة أيام. وأزح عن رأسك عوامل القلق. وإقض وقتاً طيباً. وستقوم أثناء ذلك بالترتيبات اللازمة لتوفير ما تحتاجه للبدء بما نعهده إليك من أشغال فنية.

تبين الكردينال فرارا مبلغ سرور الملك بي وأدرك على ضوء الأشياء القليلة التي عرضتها عليه بأن جلالته ينوي أن يعهد لي بأعمال هامة جداً تحتلّ تفكيره. في هذا الوقت كنتُ تتبع البلاط أو بالأحرى نتقل في أعقابه ذلك لأن الركب الملكي يتحرك في رحلاته بإثني عشر ألفاً من الفرسان من الساقية خلفه. وفي وقت السلم عندما يكون البلاط كاملاً يبلغ العدد ثمانية عشر ألفاً. ولذلك كان زخم البلاط وقتذاك في حدّه الأدنى. وهكذا صرنا نتبع الركب ونجتاز بقاعاً لانجد فيها منزلين أحياناً. وضرنا خيامنا مثل العجر<sup>(١٩)</sup> ولقينا مختلف المتاعب والإزعاجات. وواصلت إلحاحي على الكردينال ليستأذن لي من الملك بإرسالني الى حيث أباشر عملي. فأجاب إن أفضل شيء هو الإنتظار حتى يذكرني الملك من تلقاء نفسه وبدون تنبيه وان عليّ أن أظهر نفسي للملك بين الفينة والفينة أثناء تناوله طعامه. ففعلت ما أشار به. وفي صباح ذات يوم ناداني جلالته أثناء ما كان يتناول طعامه وشرع يكلمني بالأيطالية قائلاً إنه إعتزم تكليفي ببضعة أعمال هامة جداً. وإنه سيصدر إليّ في القريب العاجل التعليمات حول المحل الذي سأزاول فيه عملي وبتزويدي بكلّ ما احتاجه. وأضاف أقولاً لطيفة أخرى في مسائل مختلفة. وكان كردينال فرارا موجوداً أثناء ذلك لإعتياده تناول فطوره مع الملك في أكثر الأحيان. وقد أخبرت فيما بعد أن الكردينال بعد أن نهض الملك وترك المائدة قال:  
- أيها الملك الأقدس، إن بنقنوتو هذا متلهف جداً للبدء بالعمل، ومن الحيف أن يضيع وقت مثل هذا الفنان.

فأجاب الملك بأنه محق في هذا تماماً وعليه أن يتداول هو معي بخصوص تدبير معاش لي. فاستدعاني الكردينال مساء اليوم نفسه بعد العشاء وأخبرني عن جلالته بأنه قرر بأن أباشر في العمل إلا أنه أراد أن يعرف الراتب الذي سيجره عليّ ثم أردف:

- يبدو لي أن لو أجرى عليك جلالته ثلاثمائة كراون سنوياً، فإنك ستكون في خير حال. ومهما يكن فإنني أرغب في أن تترك لي تدبير الأمور فكلّ يوم يمرّ يزودني بفرصة للقيام بتحقيق شيء ما في هذه المملكة العظيمة. وإنني سأكون في عونك دائماً وبدون تحفظ.  
وعندها أجبت قائلاً:

- يا صاحب النيافة، عندما خلّفتني وراءك في فرارا دون طلب مني. كنت قد وعدتني بالألا تخرجني من إيطاليا إلا وأنا على علم تام بالشروط التي ستربطني الى الملك. وبدلاً من إنبائي بهذه الشروط

(١٩) هم "الكاولية" في العراق. و"النور" في سوريا ولبنان. و"العجر" في مصر.

وإبلاغي بالمعلومات عن مركزي. أمر سيادتكم الكليّ الإحترام بأن أسافر فوراً بالبريد السريع كأن فناً كهذا الذي ملكته يمكن تسفيره بالبريد. ولو أنك أعلمتني بأن مرتبي سيكون ثلاثمائة كراون كما ذكرت لما قدّمت رجلاً واحدة ولو كان ضعف هذا المبلغ. وعلى أية حال فأنا أحمد الله الله ثم أشكر نيافتك أيضاً لأنه سبحانه تعالى قد سخّر أداة لفضل عظيم عليّ وهو إخراجي من السجن. ألا إسمح لي أن أقول هذا لسيادتكم: إن كلّ هذه الضربات القاسية التي تنزلها بي الآن لاتنقصُ جزءً من الألف، من الحسنات العظيمة التي تكرّمت بها عليّ. إني أشكركم بمجامع قلبي وأستأذّنك بالسفر وسأبقى أينما كنت ومهما عشت أدعو الله لك بالتوفيق.

ثار تائر الكردينال وإنفجر يقول غاضباً:

- إذهب أنى شئت. لا يمكن أن يحسن المرء لأحد بالقوة.

وقال بعض رجال حاشيته من المتسكعين الذين لا نفع فيهم:

- يظن أنه يقوم بإتخاذ قرار صائب برفضه ثلاثمائة كراون دخلاً سنوياً!

إلا أن أفطن من فيهم قال:

- لن يقع الملك على رجل مثله. وها هنا كردينالنا يحاول المساومة عليه وكأنه حزمة حطب.

وبلغني فيما بعد أن قاتلها هو (لويجي آلاماني). وقد وقع هذا كله في (الدوفينييه Douphie) (٢٠)

وفي قلعة نسبت إسمها في آخر يوم من تشرين الأول.

تركت مجلس الكردينال وعدت الى مخيمي الذي كان يبعد مسافة ثلاثة أميال. وكان يرافقني أحد أمناء سرّ الكردينال وهو يقصد عين الموضع. ولم يكن يكفّ طول الطريق عن سؤالي ماذا أتوي أن أفعل وأي شكل من أشكال المكافأة أتصورها لنفسي. فلم أجب بأكثر من العبارة الموجزة: "لقد توقعت كلّ هذا".

وصلت مقري فوجدت پاگولو واسكانيو وقد لاحظا ما أنا عليه من ضيق الصدر. فصارا يلحّان عليّ بمصارحتهمما والكشف عما يؤلني. ولم أدركت مبلغ قلقهما قلت:

- غداً صباحاً سأعطيكم ما لا أكثر من الكفاية للوصول الى أيطاليا بكلّ راحة. وأما أنا فسأذهب وحدي لمهمة بالغة الأهمية كنت أريد إنجازها منذ زمن طويل.

لم يكن يفصل بيني وبين غرفة أمين السرّ غير جدار. ومن المحتمل جداً أنه كتب للكردينال بما نويته. إلا أنني لم أتحمق من هذا مطلقاً.

بتّ مؤرقاً. وبدا وكأن دهرماً مرّ قبل طلوع الفجر ومباشرتي في تنفيذ ماقررت. وأمرت بإخراج جوادي عند الفجر وتهيأت بسرعة وأعطيت تلميذي كلّ ما جئت به من متاع الى جانب خمسين دوقية. واحتفظت لنفسي بمثلها فضلاً عن عن ألماسة الدوق. ولم أحمل من أمتعتي غير قميصين وكانت ثياب سفري تميل الى الرثاثة. إلا أنه كان من الصعوبة بمكان فراق الشابين اللذين عقدا العزم على العودة معي على كلّ حال. ولذلك لجأت الى الحشونة فإنتهرتهما بقولي:

(٢٠) مقاطعة في جنوب شرق فرنسا ومركزها مدينة ليون.

- أحدكما نبتت لحيته والثاني طرّ شاربه وكلاكما رجل. وقد تعلمتما مني أكثر ما أحاط به فنيّ  
ويقدر ما تمكنت من تعليمكما فصرتما الآن في مقدمة الفنانين الشبان الإيطاليين. أفلا يدرككما  
الحجل من إفتقاركما الى الشجاعة للإستغناء عن الخيوط التي تحرككما؛ هيا أغربا عن وجهي.  
وليبارككما الله ألف مرة ووداعاً.

ألويت عنان جوادي وتركتهما وعيونهما تفيض دموعاً، وسلكت طريقاً لطيفاً يمتد خلال غابة وأنا  
عازم على قطع أربعين ميلاً على الأقل في ذلك اليوم للوصول الى بقاع غير مطروقة بقدر ما يمكن.  
وفي أثناء الميلين التي قطعتها عاهدت نفسي أن لا أغشى أي مكان يعرفني فيه إنسان، وفقدت  
الرغبة في إنجاز أي عمل بإستثناء هيئة السيد المسيح بطول ثلاثة كوبيتات محاولاً الإقتراب من  
الجمال الرّائي قدر إمكاني. ذلك الجمال الذي كشفه بنفسه لي. وبهذه النية التي إستقرّ عليها فكري  
تماماً لويت عنان حصاني بإتجاه القبر الأقدس.<sup>(٢١)</sup>

وفي الوقت الذي خيل لي أنني إبتعدت مسافة يصعب معها العثور عليّ. سمعت ورائي وقع سنابك  
خيل، فإنشغل بالي لأن الشائع أن المنطقة التي أجتازها تسيطر عليها عصابة من قطاع الطرق تدعى  
بـ(عصبة المغامرین) إعتادوا الفتك بالناس في الطريق. ومع أن عدداً كبيراً كان يُشقق منهم يومياً،  
فإن ذلك لم يكن يردعهم كما يبدو. وعندما إقتربت الخيل مني تبينت في أحد الفارسيين ساعي الملك  
يصحبه اسكانيو. وهتف أولهما عندما حاذاني:

- بأمر الملك عليك أن تعود اليه دون تأخير.

فأجبت إنه جاء من لدن الكردينال ولهذا السبب أرفض العودة. فقال مادمت أرفض العودة طوعاً  
فإن لديه من السلطة ما يخوله دعوة السكان المحليين وتقييدي كأبي سجين. وراح اسكانيو يتوسل  
بحرارة طالباً مني الرجوع قائلاً ان الملك ما أن يقبض على طليّته مقيداً فإنه يبقى مسجوناً خمس  
سنوات على الأقل قبل أن يطلقه. وبسماعي لفظة سجين تذكرت سجنني في روما فشاع الفزع والخوف  
في نفسي فأدرت جوادي الى الناحية التي أوما إليها الساعي الملكيّ وإنطلق بي جوادي وأنا ساكت  
واجم بينما ظلّ الساعي طوال الطريق يثرثر بالفرنسية على نفس واحد ولم يقف لسانه حتى أوصلني  
الى البلاط: كان يتهددني أناً وينتقل الى موضوع أناً، ثم يتحول الى آخر، حتى كدت أنشق غيظاً.

ومررنا من أمام مقر الكردينال فرارا ونحن نتجه الى مقرّ الملك. وكان واقفاً بالباب فناداني بقوله:

- ان الملك القويم الدين بإختياره المحض قد نسب ان يكون مرتبك السنوي بقدر ما أجرى للرسم  
(ليوناردو دافنشي) اعني سبعمائة كراون. كما انه سيدفع لك أجراً عن كل عمل تنجزه له.

وسيمنحك خمسمائة كراون تسديداً لنفقات سفرك الى هنا على ان تُسلم لك قبل رحيلك.

بعد ان إنتهى من قوله هذا أجبت إن هذه المخصصات التي ذكرها جديرة حقاً بمثل هذا الملك. ولم  
يكن ساعي الملك حتى تلك اللحظة يعوف هويتي. فلما سمع هذه العروض الكبيرة التي قدمت لي  
نيابة عن الملك بادر الى طلب العفو مني مراراً في حين عقّب (پاگوليو واسكانيو) على الأمر

(٢١) أي شرقاً الى أورشليم القدس.

بقولهما:

- رأيت كيف ساعدنا الله على عودتنا على الإمساك بطرف الخيوط المحركة.  
في اليوم التالي توجهت لأرفع شكري الى الملك. فعهد اليّ بصنع نماذج لاثني عشر تمثالاً من الفضة تستخدم بمثابة شمعدانات حول مائدته ستة منها تمثل آلهة ذكوراً وستة منها آلهة إناثاً على أن يكون ارتفاعها بطول قامته جلالتة بالضبط وكانت تقلّ عن أربعة كويبتات بالقليل<sup>(٢٢)</sup>. وبعد أن ألقى اليّ بأمره هذا إلتفت الى أمين خزانته وسأله هل دفع لي خمسمائة كراون؟ فأجاب هذا بأنه لم يؤمر بذلك. فبان الإنزعاج على الملك لأنه كان قد أوصي الكردينال بإبلاغه بصرفها لي.  
كما إنه أشار بوجوب رحيلي الى باريس لأجد لي محلاً مناسباً للعمل الذي أناطه بي. وقال انه سيرتب لي مسكناً لإقامتي. فقبضت الكراونات الخمسمائة وتوجهت الى باريس ونزلت في دار تعود للكردينال (فرارا) وهناك شرعت بعون الله في عملي. فهيات أربعة نماذج صغيرة من الشمع كل واحد بارتفاع ثلثي كويبت تمثل الآلهة: جوبيتر وجونو وأبوللو، وفولكان. وفي أثناء ذلك عاد الملك الى باريس فأسرعت لمقابلته مع النماذج الأربعة وتلميذي پاگولو واسكانيو. فأبدى جلالتة إرتياحه لما رأى وأمرني أن أبدأ به (جوبيتر) بالحجم الذي ذكرته آنفاً. ثم قدمت له مساعدتي وأعلمته بأني جئت بهما من إيطاليا ليكونا في خدمته، وليعاوناني في ما لا يقوى عليه أمهر الصناع في باريس لأني أشرفت على تعليمهما. فسألني أن أقترح لكل منهما مرتباً كافياً. فقلت إن مائة كراون لكل منهما كافية إذ أنني سأعمل على أن يكسبا دخلاً من مصادر أخرى فوافق على ذلك.  
بعد هذا أعلمت جلالتة بأني عثرت في إعتقادي على محل مناسب جداً للعمل الذي عهد به اليّ وهو جزء من أملاك جلالتة الخاصة ويعرف به (پتي نل Pétit Nesle)<sup>(٢٣)</sup> وواضع اليد عليه في الوقت الحاضر هو حاكم باريس الذي كان جلالتة قد أطلق يده فيه. ولكن الحاكم لا يستفيد منه. فلو رأى جلالتة أن يمكنني منه لأستغله في خدمته. فأجاب الملك على الفور:  
- المحل محلي وهو من أملاكي الخاصة، وأنا على علم تام بأن الرجل الذي أطلقت يده فيه لا يشغله بنفسه ولا ينتفع به. لذلك خذه وإستخدمه لمشاريعنا.  
ثم أصدر أمراً لمرافقه العسكري بإسكاني في القلعة ولكن هذا الضابط بدأ متردداً وأبدى عجزه عن القيام بالمهمة، فردّ الملك غاضباً أنه يريد أن يعطي ما يعود له لأي شخص يختاره والى من هم في خدمته- والرجل الآخر لم يقدم له أية خدمة. وأضاف إنه لا يريد أن يُضاف أي قول الى ذلك. فعقب العسكري قائلاً إنه من الضروري استخدام قدر ما من القوة فأجاب الملك:  
- إذهب إذن وإن لم تكن القوة القليلة كافية لإستخدم الكثير منها.

(٢٢) أي حوالي (١٧٠) سنتيمتراً.

(٢٣) هو جزء من برج أو قلعة دي نل Tower (Chateau) de Nesle كان يقع على الضفة اليسرى من نهر السين. واليوم تقوم على أرضه مديرية دار الضرب. والمعهد الفرنسي L'Institut de France. ووصف بالصغير تمييزاً عن الآخر الذي يقع على الضفة اليمنى وتقوم على أرضه اليوم غرفة التجارة La Bourse de Commerce. [حاشية بلون].

فأخذني الى الموضع حالاً ولجأ الى القوة لتمكينني منه، وأذرنني بأن أكون على حذر وإلا قُتلت. وضعت يدي على العقار وإستأجرت خدماً وإبتعت حراباً ضخمة وبقيت عدّة أيام لا أعرف للراحة معنى. فالشاغل السابق حاكم باريس هو نبيل خطير الشان والبقية كانوا كلهم يناصروني العداء. واسقط في يدي وعجزت عن الصمود تجاههم. وهنا عليّ أن لا أنسى ذكر إبتدائي بالخدمة عند الملك. فقد كان ذلك في العام ١٥٤٠ وقد بلغت الأربعين من العمر.

إضطرت إزاء مهاجمتهم العنيفة لي- الى مراجعة الملك راجياً منه تأمين حلٍ آخر. ولما تقدمت برجائي هذا إلتفت اليّ وقال بحدّة:

- من أنت؟ ما إسمك؟

صعقتُ وإنعقل لساني وحررت في قصده. وقفت جامداً ساكتاً وعاد الملك يكرر سؤاله كأنه منفعل. فأجبت أن إسمي هو بنثنوتو.

فأجاب الملك:

- حسن جداً! إن كنت أنت بنثنوتو الذي سمعت به فقم بما يتوقع منك عادة، إني أعطيك مطلق الحرية في التصرف.

فأجبت حسبي أن أكون متمتعاً بالحظوة لدى جلالته أمّا ما عدا ذلك فلاشيء يمكن أن يلحق بي أذى. فإبتسم الملك إبتسامة خفيفة وقال:

- إذهب إذن ولتعتد دائماً على مكانتك عندي.

ثم أمر فوراً وزيره (مسيو دي فيللو دي Villerois) أن يشرف على تزويدي بكلمة أحتياج. وكان (فيللو) هذا من أصدق أصدقاء الرجل الذي يدعى به (الحاكم) شاغل ال(پتي نل). وهو حصن مثلث الأضلاع ملتصق بسور المدينة، وكان حصناً عتيقاً إلا أنه خال من حامية عسكرية، وهو واسع جداً. نصحتني السيد فيللو هذا أن أنشد لي محلاً ثانياً، وأن أتركه مهما كلفني ذلك لأن واضع اليد عليه رجل كبير النفوذ وسيعمد الى الفتك بي بلا ريب. فأجبت إن السبب الوحيد الذي دفعني الى ترك أيطاليا والمجيء الى فرنسا هو خدمة هذا الملك الجليل: وأما عن الموت فإن لكلّ أجل كتاباً. وسأموت يوماً ما قصر أجلي أم طال والأمر لدي سيان. كان (فيللو) هذا شخصية قوية جداً وكل شيء فيه يدعو الى الإعجاب وهو فاحش الغنى لم يتورع عن الأخذ بكلّ وسيلة لإقلاق راحتي، إلا أنه لم يظهر أي أثر لشعوره الحقيقي. فقد كان رجلاً جدياً، بهيّ الطلعة والهيئة. يتكلم ببطء وثقّة، وقد عهد بأمر إزعاجي الى نبيل آخر يدعى (مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna). الذي كان مدير مال مقاطعة اللانگدونك<sup>(٢٤)</sup> Languedoc. فأول عمل قام به هذا الرجل هو انه إختار افضل الحجرات في الحصن وهبأها لسكانه. فنبهته الى إن الملك قد سلمني الحصن لأستخدمه في إنجاز أعماله وإني لا أنوي أن أدع أحد يسكن فيه غيري وغير خدمي. وكان شخصاً متعجرفاً شديد الإعتداد بنفسه عصبياً

(٢٤) مقاطعة جنوبية مركزها مدينة (تولوز). والإسم مركّب = Langu-de'oc. ومعناه الحرفي (لغة الأك) وهي لغة بروفنسالية قديمة مازال يتداولها حتى الآن عدد محدود من سكان المقاطعة.

المزاج وقد قال لي إنه سيفعل ما يحلو له وخير لي أن أضرب رأسي في جدار من مقاومته، وإن كل ما يقوم به هو بتفويض من (مسيو فيلرورا). فأجبتته ان تفويضي مصدره الملك وليس له ولا لقيللروا أن يتصرفا بهذا الشكل. وما أن قلت هذا حتى راح الرجل الغطريس يشتمني ويهينني بلغته الفرنسية. فقلت له بالأيطالية- إنه كذاب فثار ثائره وأتى بحركة كأنما يهيم بإستلال خنجره الصغير. فبادرت الى وضع قبضتي على خنجري الكبير الذي لم يكن يفارقني لغرض الدفاع عن نفسي وصحت به: "إن إستللت خنجرك فأنت هالك لا محالة".

كان يواكب (مارمانيا) خادمان له وكان معي فتياي. فتردد قليلاً وهو غير مستقر على نية إلا أنه كان يميل الى الغدر وراح يتمتم لنفسه: "إني لن أتحمّل هذا". وجدت الموقف يزداد سوءاً وينذر بسوء العاقبة. فإتخذت قراراً سريعاً وقلت ل(ياغوليو واسكانيو):

- ما أن تشاهداني أجردّ خنجري حتى تلقيا بنفسيكما على الخادمين وتردياهما قتيلين إن أمكنكما. وأما أنا فسأجندل هذا الرجل بضربة واحدة ثم ننجو بأنفسنا هارين.

بعد أن سمع (مارمانيا) قولي أثر أن يترك القلعة شاكرأ حسن حظه لخروجه حياً. فقمّت بكتابة كل ما وقع للكردينال فرارا مع بعض تعديل، فنقله للملك فوراً فما كان منه وقد عيّل صبره إلا أن عهد بأموري الى الفيكونت (دوربيك d'orbic) وهو من ضباط حرسه. فقام هذا الرجل بسد حاجاتي بألطف شكل متصور.

بعد أن قمت بترتيب مقرّ سكناي ومحل عملي وأثنتهما بما يلزم لراحتي وعملي بخير ما تسنى لي. إنكفأت الى تصميم ثلاثة نماذج بالحجم المطلوب لتماثيل الفضة وهي (جويتتر ومارس وفولكان) عملتها من الصلصال المسلح بالحديد. ثم أسرعت لمقابلة الملك الذي كان قد أمر بأن أسلمّ مازنته ثلاثمائة پاوند من الفضة على ما أتذكر لأبدء بها العمل. وكنت خلال إشتغالي بالنماذج قد أكملت العمل بالطاس والإبريق. فصقلتهما صقلاً بديعاً وظليتهما ولم يكن في فرنسا كلها ما يضايهما جمالاً- وحملتهما فوراً الى كردينال (فرارا) فشكرني بحرارة ثم أخذهما بنفسه الى الملك وقدمهما هدية له. فسّر بهما وأنشأ يغدق علي آيات المديح والثناء مما لم يحظ به أحد مثلي منه. وقابل الملك هدية الكردينال بمنحه ديراً يغلّ عليه سبعة آلاف كراون سنوياً. وهم بأن يقدم لي هدية كذلك إلا أن الكردينال أوقفه وحال دون ذلك بقوله اني لم أنتج له شيئاً بعد وعليه ان لا يستعجل. اما الملك المطبوع على الكرم فقد خالفه بقوله:

- لكنني اريد تشجيعه وشحنه همته ليعلمني بإخلاص.

فعرّا الكردينال خجل واجاب:

- مولاي ارجوك أ تترك هذا لي، وسأجري عليه راتباً سنوياً لا يقلّ عن ثلاثمائة كراون حالما أتسلم إدارة الدير.

في الواقع لم أحصل على أي شيء منه. ويطول بي كثيراً شرح حيل هذا الكردينال في حين أريد أن أقصر حديثي على الأهم من الأمور.

عدت الى باريس وصرت موضع إعجاب الناس للحظوة التي نلتها عند الملك، تسلمت الفضة وبدأت أشتغل بتمثال (جويتر) وبعد أن إستخدمت عدداً كبيراً من العمال باشرت العمل بتفرغ ودأب دون توقف ووصلت الليل بأطراف النهار. فباشرت بصبّ تمثال (جويتر) ولم ينقض طويل زمن على إكمالي نماذج التماثيل الثلاثة جويتر ومارس وثورلكان. وقطعت فيه مرحلة لا بأس بها. وبدا منظر مصنعي مهيباً. وفي تلك الأثناء عاد الملك الى باريس فقامت بزيارته وما وقع نظره عليّ حتى ناداني هاشأً باشأً وسألني هل هناك شيء جميل في مصنعي يمكنه أن يطع عليه، فإذا كان ذلك فسيأتي لزيارتي. فأحطته علماً بما أنجزت فتملكته رغبة قوية لرؤيته وتوجه الى مصنعي بعد الغداء ومعه مدام دي تامب Mme. d'Etampes<sup>(٢٥)</sup> وكردينال اللورين C. de Lorraine<sup>(٢٦)</sup> وأمراء آخرون منهم ملك الناغار حتته<sup>(٢٧)</sup> وملكة الناغار شقيقته. فضلاً عن (الدوفان والدوفينه)<sup>(٢٨)</sup>. وهكذا إجتمع في مصنعي زهرة أمراء البلاط في ذلك اليوم. وكنت قبل ذلك قد عدت الى المصنع وإستأنفت عملي ففوجئت بالملك عند باب القلعة وسمع أصداً وقع المطارق وأمر من يرافقه بالسكوت. وكان جميع العمال منصرفين الى العمل غير متوقعين زيارة الملك وقد بوغت أنا نفسي. دخل قاعتي وكنت أول من وقع نظره عليّ. وأنا واقف أشتغل بصفيحة من الفضة لجسم جويتر كبيرة الحجم وآخر يضرب برأس مطرقتة وثالث يشتغل في الساقين وضجة المطارق تصم الآذان وكان ثم صبي فرنسي الى جانبي يساعطني في عملي وقد أتى بتصريف أزعجني فمددت رجلي وركلته. فأصبت في منفرج رجله وأرسلته يتعثر مسافة خمسة ياردات وتشاء الصدف أن يدخل الملك في تلك اللحظة فتشبهت به الصبي حفظاً لتوازنه فأغرق جلالته في الضحك في حين وقفت جامداً مصعوقاً. ثم بدأ الملك يسألني عما أشتغل فيه ورغب في أن أستمر وقال إنه ليسر جداً أن لا أجهد نفسي بل أستأجر ما أحتاج اليه من الصنّاع وأعهد إليهم بالعمل لأنه يريد أن أحافظ على صحتي لأطيل في مدة خدمتي له. فأجبت: إنني سأعتل فور توقي عن العمل فضلاً عن إنني لن أنجز أعماله بالشكل المطلوب الذي أريده. وظنّ قولي هذا إدعاءً ومباهاة أريد منه المجاملة وحسن الوقع فحسب. فطلب من كردينال اللورين أن يكرر لي أقواله هذه. فأوضحت للكردينال بصراحة وتفصيل الأسباب التي تدعوني لإتخاذ هذا الموقف بحيث إقتنع تماماً ونصح الملك بأن يترك لي الخيار في مقدار ما أقوم به من عمل.

وعاد الملك الى القصر وهو راضٍ تمام الرضا. وأغرقتني بكرمه وألطفاه ولا يتسع المجال هنا لوصف ذلك فالحديث طويل جداً عنها. وفي اليوم التالي أرسل بطلي وقت الظهر وكان على مائدته كردينال

(٢٥) هي آن دي پسليو Anne de Pisseleu. كانت إحدى وصيفات الشرف للملكة لويز دي ساقوي والدة الملك فرانسوا. وزوجها هو جان دي بروس دوق ديتامب فيما بعد وهي محظية الملك. مارست سلطناً عظيماً وكان مصدر ذلك راحة عقلها وقوة إرادتها. إعتنقت المذهب الكالغني في آخر حياتها وتوفيت في ١٥٧٦.

(٢٦) ابن رينيه الثاني دوق اللورين وحامل لقب ملك أورشليم القدس.

(٢٧) ملك الناغار هنري الثاني. وزوجته مرغريت دي فالوا شقيقة الملك فرانسوا واحدة من أعظم نساء زمانها وهي مؤلفة كتاب (هبتاميرون Heptameron) وإحدى المناضلات عن حرية الفكر في كل زمان ومكان.

(٢٨) بعدئذ هنري الثاني ابن فرانسوا وزوجته هي كاترين دي مديتشي والدوفان لقب ولي العهد الفرنسي.

(فرارا) وعند وصولي كان الملك يتناول الصنف الثاني من وجبة الغداء، فتقدمت من جلالته فبادرني بالحديث فوراً وقال "لما كان يملك الآن أجمل طاس وإبريق من صنع يدي فهو يريد أن أرفقهما بـ(مملحة) جميلة. وأضاف يقول انه يريد ان اصنع له نموذجاً وبصورة مستعجلة. فأجبت:

- سيرى جلالتك النموذج بأسرع من الطلب. وذلك لأن فكرة مناسبة المملحة للطاس والإبريق خطرت لي أثناء ما كنت أقوم بصنعهما فبادرت الى تنفيذها وعملت نموذجاً لمملحة فعلاً. فإن شاء جلالتك عرضته عليك دون تأخير.

فالتفت الملك وهو في غاية الإنشراح الى الحاضرين وهم ملك الناغار وكردينال اللورين وكردينال (فرارا) وقال:

- لعمري إنه يعرف كيف يظفر بحبّ وصداقة كل من يتصل به.

ثم قال لي انه سيكون جدّ مسرور لو أريته النموذج، فقمتم بالمهمة بسرعة اذ لم يكن يقتضيني ذلك إلاّ عبور نهر السين. وعدت ومعني النموذج الذي كنت قد صنعته في روما بطلب من كردينال فرارا. ونزعت الغطاء عنه حالما وجدت نفسي بمحضر من جلالته، فقال متعجباً:

- إنه ليفوق أروع ماسما اليه خيالي بمائة مرة. إن الرجل لمعجزة والحق يقال وعلينا ان لا نبقيه عاطلاً أبداً.

ثم يتسم بنفس راضية وأبدى سروره من النموذج وأشار عليّ أن أعمله من الذهب الخالص. وحدّق كردينال (فرارا) بوجهي ليفهمني بأنه عرف في النموذج ذلك الذي صنعته في روما وعندئذ ذكرته بقولي له آنذاك: إني سأصنع هذه التحفة لمن قُدّر له ان يمتلكها، فتذكر كلماتي جيداً وبالحرّف الواحد فظهر عليه الإستياء لعلمه بأنني إنتصفت لنفسي منه، فخاطب الملك بقولي:

- مولاي! إن هذا مشروع ضخم جليل. وتحفظي الموحيد هو أنني أشك في أن يبلغ مرحلة التمام. لأن هؤلاء الفنّانين الفطاحل الذي يعلو بهم خيالهم الطمّاح الى تحقيق مثل هذه الفكرة ويتلهفون للشروع فيها، لا يلقون بالأعلى على الوقت الذي يكفّهم لإنجازها ولا يهتمون بموضوع إكمالها. ولهذا فإني سأطلب معرفة المدة التي يستغرقها لإنجاز مثل هذا العمل لو أنني رغبت في صنعها.

فأجاب الملك إن من يتعب عقله حول مسألة الإنتهاء من صنع شيء، لن يبدأ في أي عمل. وكان المعنى الذي يقصده من هذا القول إن عملاً كهذا لم يقدر للنفوس الخائرة. وعندئذ قلت:

- إن الأمراء الذين يشجعون خدمهم بالشكل الذي يقدم عليه جلالته الآن قولاً وعملاً هم المفلحون في تسهيل أشقّ الأعمال. ومادام الله قد أنعم عليّ بمولى عظيم مثله، فإني أمل في إنجاز أبدع الأعمال له.

فقال الملك وهو ينهض تاركاً المائدة:

- وأنا أعتقد بأنك ستفعل حتماً.

ثم إستدعاني الى غرفته وسألني عن مقدار الذهب الذي أحجاجة لعمل المملحة فأجبت: ألف كراون. فأرسل حالاً يستدعي أمين خزانته الفيكونت (دو أوربيك) وأمره أن يسلمني فوراً ألف كراون جيدة

الوزن.

إنصرفت من لدن جلالته، وأرسلت خبراً لمسجلي العقود الذين كانا قد أمنا لي فضة تمثال (جوبتر) الى جانب أشياء أخرى. ثم عبرت السين وتزودت بسلة صغيرة جداً كانت بنت عمي الراهبة قد زودتني بها عند مروري بفلورنسا (من حسن الحظ اني تعوضت بهذه السلة عن الحقيبة) متصوراً اني سأتمكن من قضاء المهمة أثناء النهار، اذ كان الوقت مبكراً ولم أشأ إزعاج رجالي المنصرفين الى أعمالهم أو أخذ خادماً معي. عندما بلغت دار أمين الخزانة وجدته قد عبأ النقود أمامه وهو يفرز القطع بحسب تعليمات الملك. إلا أن هذا الأمين اللص<sup>(٢٩)</sup> راح يتشيث بكل حيلة ووسيلة ليؤخرني في عملية تسلّم المال ولم ينته من ذلك إلا بعد حلول الليل. ولم يفتني إتخاذ الإحتياطات فقد أرسلت بطلب عدد من عمالي لمرافقتي فالمسألة ليست هيّنة. ولما إستبأتهم سألت الرسول هل بلغ الرسالة؟ فأجاب أحد الخدّام الأندال إنهم بحسب علمه لا يقدرّون على المجيء، لكنه على إستعداد تام لحمل النقود عني. قلت سأحملها بنفسني. وفي أثناء ذلك تمّت كتابة العقد وإنتهى كل شيء وأحصيت النقود ووضعيتها كلها في السلة ودرست يدي في مقبضها وكان عليّ حشر ذراعي بين النقود. ولذلك أصبحت في حرز وأمان، فبات حملها على هذه الشاكلة أهون بكثير من حملها في حقيبة. كنت مسلحاً بسيف وخنجر ومرتدياً زرداً مع قفازيه. وأسرعت في سبيلي بأقصى طاقتي ثم لفت نظري بعض الخدم يتهايمسون فيما بينهم ويعدّها أسرعوا بالخروج من المنزل سالكين الجهة المعاكسة. فسرت بخفة وعبر جسر بونت دي شانج<sup>(٣٠)</sup> ثم تقدمت وسرت بمحاذاة المسنّاة التي تؤدي الى منزلي في (نل). ثم إقتربت من دير الأوغستيين: وهي أخطر بقعة وتقع على مسافة خمسمائة ياردة فقط من منزلي، إذ كان ذلك الجزء المسكون من القلعة يقع في الجهة القصى البعيدة فإن صوتي لن يُسمع لو ناديت مستنجداً. لكن عندما رأيت أربعة من الرجال يحملون عليّ بسبوفهم المشهورة صممت بلمح البصر على ما أنوي عمله. أسرعت فغطيت السلة بمعظفي وصرخت بهم وهم يقتربون مني:

- كلّما تكسبون من الجندي هو معطفه وسيفه وأمل ان تكونوا الفريق الخاسر قبل أن أسلمهما.  
وقاتلتهم قتالاً عنيفاً وكنت بين الفينة والفينة أبسط ذراعي الى الخارج ليروا بأنني لأخفي تحت عباءتي شيئاً في حالة ما لو كانوا متواطئين مع الخدم الذين رأوني أتسلّم المال. وإنتهت المعركة بسرعة فقد أخذوا يرتدون على أعقابهم خطوة خطوة وهم يقولون بلغتهم:  
- هذا الإيطالي من الشجعان الصناديد. وبقيناً إنه ليس الشخص الذي نريده. وإذا كان هو فلا يحمل شيئاً.

فصحت بهم بالأيطالية وواصلت الضرب والطعن. وقد كدت أهوي بضربة قتالة أكثر من مرّة ولما وجدوني أطاعن وأقاتل بحذق ومهارة حسبوني جندياً محترفاً ولاشيء آخر. فبدأوا يبتعدون عني شيئاً

(٢٩) قبل برهة وصف جليلني هذا الرجل بالأمانة. وأبدي إرتياحه من تسهيل أموره بفضله.

(٣٠) هو الآن بونت نوف Pont Neuf. وهو أحد الجسور الذي يصل بين شقّي باريس فوق نهر السين ويمر بجزيرة ايل

دلاستيبي ويقع جنوب كاتدرائية نوتردام دي باريس.

فشيئاً وهم منضمون متكاتفون يهيمسون بالفرنسية بعضهم لبعض وكنت أنا نفسي أكرر عبارتي الأولى "على كل من يطمع في معطفي وحسامي لن يجد مهمته سهلة" بكل لطف وثبات نفس. ثم بدأت أغمز السير وكانوا يتعقبونني ببطء. فزاد قلقي من هذا إذ خشيت كميناً آخر في إنتظاري وعندئذ سأهاجم من جهتين. ما إن صرت على مسافة مائة ياردة تقريباً من منزلي حتى أطلقت ساقى للريح منادياً بأعلى صوتي "الى السلاح، الى السلاح! أخرجوا أخرجوا إنهم يقتلونني". فخرج في الحال أربعة فتيان بحراب مشرعة وعندما هموا بمطاردة المهاجمين الذين مازالوا مرتين قتل لهم بصوت جهير للغاية:

- هؤلاء الجبناء الأربعة فشلوا في سلب رجل واحد لاغير ألف كراون ذهبي كاد ثقلها يحطم ساعدي. أأ فلذهب ونودعها مكاناً ثم أعود بسيفي ذي المقبضين فنطاردهم الى حيث شتتم. ودخلنا المنزل وتخلصت من الذهب: وراح فتياي يهنئوني على السلامة من الخطر الدايم ثم أخذوا يلومونني قائلين:

- ما أشد إعتماذك على نفسك، سيأتي يوم تعطينا منه سبباً للأسى. فأدليت لهم برأيي إلا أنهم أصرّوا وزادوا، وهرب أعدائي. فعدنا الى الدار جميعاً لتناول العشاء بمعنويات عالية جداً نضحك لتصاريف القدر العجيبة التي تتجلى لنا في الخير كما تتجلى في الشر، ثم ينتهي الأمر وكأنه لم يكن عندما تخطيء الأقدار هدفها. بالتأكيد إن المرء يقول لنفسه بعد مرور المحنة: "لقد تلقيت درسك يا هذا لأجل المرة التالية!" إلا أن "المرة التالية" لن تكون كالأولى تماماً بل ستختلف.

أول ما بدأت العمل به صباح اليوم التالي هو (الملحة) فأولييتها جانباً كبيراً من إهتمامي فضلاً عن الأشغال الأخرى. في هذه الفترة من الوقت كنت أستخدم عدداً كبيراً من الصنّاع والصاغة والمثاليين. فيهم الفرنسي والأيطالي والألماني. وأحياناً كان عدد المستخدمين يتضاعف فأستبقي أحسنهم وكنت أعمد الى التبديل فيهم وأبقي من هو أكثر معرفة. وأدفع بهم الى العمل الدائب. وكانوا يخلصون في شغلهم حرصاً على أن لا يتأخروا عني، إلا أن بُنييتي كانت أقوى منهم وأكثر تحملاً للعمل الشاق فيعجزون عن مجاراتي ويلجأون الى الإكثار من الأكل وشرب الخمر ظناً أنه يزيد من قدرتهم. ولم يستطع بعض الألمان الذين هم أكثر خبرة من الآخرين الإستمرار في بذل هذا الجهد الشاق الذي ناؤوا به وكاد يهلكهم.

وفيما كنت أتقدّم في تمثال (جويتر) وجدت أنه سيبقى لي مقدار من الفضة بعد صبّه فبدأت أشتغل دون علم الملك بعمل طست فضي كبير بالميتقي إرتفاعه قدما بعروتين متقابلتين. ومالت نفسي الى صبّ النموذج الكبير الذي صنّعه لجويتر بالبرونز وهو عمل لم تسبق لي ممارسته من قبل، فإستشرت بعض الأساتذة الباريسيين المتخصصين في هذا المجال وشرحت لهم كل الطرق المستخدمة في إيطاليا لمثل هذا العمل، فقالوا إنهم لم يمارسوا هذه الطرق. وبيّنوا أنهم يصيّنون التمثال بإحكام وسهولة لو تركتهم يطبقون اسلوبهم وانهم سيسلموني أياه تماماً جميلاً كأنه عمل من جيس. فعقدت صفقتي معهم

وعهدت إليهم بالعمل ووعدهم بأن أزيد مقداراً من الكراونات الى الأجرة التي طلبوها. فبدأوا به لكنني لاحظت أنهم سلكوا سبيلاً غير صحيحة، فتركتهم وشأنهم وأشغلت نفسي بتمثال نصفي لـ(يوليوس قيصر) أكبر من الحجم الطبيعي كنت قد إستنسخته عن صورة أثرية جلبتها معي من روما. كما بدأت العمل أيضاً برأس آخر بعين الحجم إلا أنني في هذه المرة إستخدمت نموذجاً فتاةً جميلة جداً كنت قد ضممته الى منزلي لإشباع شهوتي الجنسية. وسميت الرأس (فونتبلو) تيمناً بإسم الموضع الذي إختاره الملك لقضاء أوقات راحة وإستجمام فيه. بعد أن بُني الفرن الصغير الجميل لصهر البرونز وبعد أن هُبئت القوالب وفُخرت (جويتر يصبه الفرنسيون، وأنا لأصبّ تمثاليّ النصفيين) قلت لهم:

- لأظنكم ستنحجون في صبّ (جويتر) لأنكم لم تتركوا منافذ تهوية كافية في الأسفل حتى يستوفي الهواء دورته. واني لأجدمكم تددون وقتكم بلا فائدة.

فأجاب: إنهم سيعيدون لي أجوري إن أخفقوا، كما سيعوضون كلّ خسارة تلحق بي. ومن الخير لي أن أهتم بالرأسين الجميلين اللذين سأستخدم لهما طريقة الصبّ الأيطالية، لنلا يكون الفشل نصيبي. وكان أمين الخزانة وعدد من رجال الحاشية حاضرين أثناء المناقشة؛ يتردد اليّ هؤلاء عادةً وينقلون الى الملك كلّ مايقال ويعمل في مصنعي. وأراد السبّاكان الشبخان الفرنسيان اللذان سيصبّان جويتر أن يتوليا أمر صبّ قالبَي الرأسين لخشيتهما أن الأسلوب الذي أطبقه قد لا يكتب له النجاح ومن الخيف ان يكون مصير مثل هذين الأثرين الفنيين التلف. وعندما سمع الملك بهذا علّق على قولهما بهذه العبارة: من الأفضل أن يتفقا وقتهما بالتعلم لا بمحاولة تعليم أستاذهما.

وبكثير من الضحك والمرح وضعا قالب جويتر في المسبك. ثم قمت بوضع قالبَي كل واحد في جانب من جويتر، غير مظهر إشارة مما يعتمل في نفسي، لم أضحك ولم أنفعل وإن شعرت بميل اليي ذلك. وبعد أن إنصهر المعدن تماماً رحنا ندفع به الى داخل القوالب بإرتياح كبير شملنا جميعاً. فملاً جويتر على أحسن وجه كما ملاً قالبَي فيدت عليهما علامت الإرتياح والفرح كما كنت أنا راضياً: سررت لأنني كنت مخطئاً في تقديري لعملهما وسرورهما كان أكبر لخطئهما في تقدير نتيجة طريقي. وجرباً على عادة الفرنسيين طلبا بمرح صاحب شيئاً من الطعام والشراب. فأمرت بكلّ طيبة خاطر أن يمدّ لهم سماط حافل بأشهى الطعام وأنفس الشراب ثم طلبا دفع المكافأة التي وعدتهم بها. فقلت لهما:

- أكثرتما الضحك وأظهرتما أعظم السرور لما أخشى أن يكون مدعاةً لبكائكما. ففي إعتقادي إن الكمية التي دخلت القالب من المعدن المنصهر أكثر بكثير مما يتطلبه. ولذلك لن أدفع لكما شيئاً يزيد عما تسلمتموه حتى صباح الغد.

بدأ الرجلان المسكينان يفكران بما قلت ثم عادا الى منزليهما دون أن يتلفظا بكلمة واحدة. وفي اليوم التالي شرعا يفرغان المسبك بكلّ لطف وحذر ولم يكن في وسعهما إخراج (جويتر) إلا بعد إزاحة قالبَي. فأخرجاهما وهما في غاية الكمال ليس فيهما أقلّ عيب ونصباهما في وضع صحيح. ثم شرعا بإستخراج (جويتر) وبعد أن بلغا عمق (كوبيتين) في الحفر أطلقا والعمال الأربعة الذين كانوا

يساعدونهما في الحفر صحيحةً داوية سمعتها وأنا بعيد، فأسرعت أعدو إليهما معتقداً بأنهما اطلقا هتاف فرح وإستبشار. كنت في غرفة نومي التي تبعد أكثر من خمسمائة خطوة عنهم. وعندما وصلت اليهما وجدتهما وقد علاهما الغمّ والذهول فمثلتهما بحارسي قبر المسيح كما يبدوان في الصور الدينية<sup>(٣١)</sup> وحانت مني إلتفاتة الى تمثالي النصفيين فإذا بهما مصبوبان بكل إتقان فشعرت بأسف يخالطه سرور. وبدأ يعتذران لنفسيهما ملقين كل اللوم على سوء حظوظهما. فكان جوابي لهما قولي: - إن الحظ محالفكما فعلاً. إلا أن السيء فيكما هو إفتقاركما الى المعرفة. ولو كنت موجوداً أثناء وضعكما الهيكل داخل القالب فإن كلمة واحدة مني كانت تكفي لضمان حصولكما على نتيجة طيبة. وبهذا سأكون قد رفعت من سمعتي، في الوقت الذي يعود عليكم بالفائدة. إنني سأحافظ على سمعتي على أية حال ولكنكما لن تخرجا من هذا إلا بالخسارة المادية وسوء السمعة. ولهذا عليكم أن تتعلما في المرة الأخرى كيف تتقنان العمل لا كيف تسخران من الآخرين.

فراحا يتوسلان بي راجين مساعدتي مقرين بصواب رأيي قائلين إن لم أمدّ لهما يد العون فإنهما سيضطران مع أسرتهما الى الإستجداء، إذ كان عليهما أن يسددا النفقات العظيمة التي صرفناها فضلاً عن دفع الخسارة. فوعدتهما أن أسدد عنهما ما بذمتهما للخزانة إن طالبيهما بها محاسبو الملك لأنهما طبقاً ما يعرفانه بأمانة وحرص وبحسن نية. وقد رفع كل ذلك من قدرتي وسمعتي عند أمناء خزانة الملك ووزرائه. وابلغ الملك بكل ما وقع وبكرمه المعهود أمر أن يتم كل شيء وفق ما وعدت. في غضون ذلك ظهر على مسرح الأحداث ذلك الرجل الباسل الصنديد (بييرو ستروزي)<sup>(٣٢)</sup> وذكر الملك بوثائق تجنسه فأمر جلالته بأن تُنظّم في الحال ثم أضاف يقول: "ونظّموا أيضاً معها وثائق (صديقي mon ami) بنفتوتو، وخذوها اليه فوراً وادفعوا بها اليه ولا تتقاضوا رسوماً عنها"<sup>(٣٣)</sup>. هذه الوثائق كلّفت (بييرو ستروزي) العظيم عدة مئات من الدوقيات، أمّا أوراقى فقد جاءني بها السيد (انطون لوماسون Antone le Massone) وزير الملك الأول وسلّمها لي مشفوعة برسالة شفوية من الملك. قال:

- إن جلالته يهديك هذا حتى يدفعك هذا الى المزيد من الحماسة والإخلاص في خدمته. هذه أوراق تجنّسك.

ثم أخبرني كيف إن السيد "بييرو ستروزي" لم ينل هذا الشرف العظيم إلا بعد مرور وقت طويل وبناءً على طلبه الخاص. في حين أن الملك شملني بهذا الإنعام من تلقاء نفسه وبدون طلب مني وإن مثل هذه الإلتفاتة السامية لم يحظ بها أحد من قبل في المملكة. فبادرت الى شكر الملك بحرارة على فضله الكبير ثم رجوت الوزير أن يتفضل عليّ بتعريفي بالأهمية التي تنطوي عليها الوثائق. كان

(٣١) وضع حارسان على قبر السيد المسيح بعد دفنه. وعندما بُعث حياً في غفلة منهما ووجدوا القبر خالياً صعقاً دهشةً.

(٣٢) هو ابن فيليو ستروزي المتقدم ذكره. خدم فرنسوا الأول الذي نصبه مارشالاً بعد هزيمة جيش المبعدين السياسيين

الفلورنسيين في موقعة مونت مورلو Monte Murlo.

(٣٣) نشر بيانكي نصّ هذه الوثيقة. كما نشر أيضاً نص كتاب الملك بتوجيه ملكية قلعة "بتي نل" الى چلبيني (أنظر

ص ٥٨١).

(مسيو لوماسون) إنساناً ذكياً كَيْساً عالي الخلق يتكلم الإيطالية بطلاقة. عندما وعى سؤالي راح يقهقه ضاحكاً. ثم تحول الى الجدّ فشرح لي باللغة الإيطالية كيف يعتبر هذا أعظم شرف يناله الأجنبي في فرنسا وعقّب في الختام قوله "إنه لأعظم شرفاً من أن تمنح درجة النبيل في حكومة البندقية". وإنصرف ونقل الى الملك حديثي فأطلق ضحكة طويلة ثم قال:

- الآن أريده أن يدرك سبب إرسالي الأوراق إليه. إذهب وقم بتسجيل ملكية قلعة (پتي نل) بإسمه، حيث يسكن وهي من أملاكي الخاصة. وسيكون فهم ذلك أسهل عليه من فهم معنى الأوراق. وجاءني رسول يبشرنني بالمنحة. فهممت بإعطائه البشارة لكنه أبى قبولها قائلاً إن هذه أوامر جلالته. أخذت وثائق الرعوية مع سندات الملكية التي جعلتني سيد القلعة عند عودتي الى إيطاليا وسأبقي محتفظاً بها الى آخر أيام حياتي وفي أي مكان ألفظ فيه آخر أنفاسي.

سأعود الآن الى إستئناف قصة حياتي. كان بين يدي العمل الذي ذكرته آنفاً، أعني تمثال (جويتر) الفضي الذي قطعت فيه مرحلة. والمملحة الذهبية، والطست الفضي الكبير والرأسان البرونزيان، وقد وزعت مجهودي بينها بكلّ مشاركة. كما إني إتخذت التدابير لصبّ قاعدة جويتر وهي قطعة فنية دقيقة جداً حافلة بالتفاصيل الزخرفية من البرونز. ومن زخارفها صورت إغتصاب گانيميد<sup>(٣٤)</sup> في جهة "ليدا والبجعة" في جهة. بعدها صببتنها بكلّ نجاح. ثم عملت قاعدة مشابهة لتمثال (جونو Juno)<sup>(٣٥)</sup> الذي كنت أنتظر له ورود الفضة من الملك لأبشر به. وأكملت التمثالين النصفين كما قطعت شوطاً كبيراً في الأعمال الأخرى. وقمت بإنجاز بعض القطع الصغيرة لكردينال (فرارا) كما إني صنعت إناءً كثير النقش والزخارف لأقدمه هدية لـ (مدام ديتامپ) وأنجزت أشغلاً كثيرة لعدد من النبلاء الإيطاليين كالسنيور پييرو ستروزي و(الكونت دانگويارا Coont d'anguillara) و(الكونت دي پيتيليانو C.de Pitigliano) و(الكونت دللّ ميراندوللا C.della Mirandolla) وآخرين.

وأما بخصوص الملك العظيم فقد تقدم قولتي أنني قمت له بالكثير من الأعمال. ثم إنه عاد الى باريس وفي اليوم الثالث لمقدمه زارني بصحبة عدد كبير من أرفع رجال بلاطه مقاماً. فذهل للقدر الكبير الذي أتولاه من الأعمال وللدقة التي أشغل بها. وكانت صاحبتة (مدام ديتامپ) معه وبدءاً يتحدثان عن (فونتنبلو) فأشارت عليه بأن يعهد اليّ بعمل زخرف جميل للنافورة هناك. فأجاب الملك في الحال:

- انه إقتراح رائع. وسأقرر في هذه اللحظة ما أريد أن يعمله.  
ثم إلتفت اليّ وبدأ يسألني عن رأيي في الفكرة وتصوراتي لها بعد ان شرح لي فكرته. فأدليت بمقترحاتي ثم أبلغني بأنه سيرحل الى (سان جرمان آن لايي Saint Germain en Laye)<sup>(٣٦)</sup> التي تبعد

(٣٤) في الاساطير اليونانية هي إلهة النساء والأطفال. زوج جويتر وملكة الآلهة وهي عند الاغريق (هيرا).

(٣٥) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة ١٢ ميلاً من مركز العاصمة الى الشمال الغربي. من هذا يبدو أن (المرحلة) هي ميل واحد.

(٣٦) هي الآن ضاحية من ضواحي باريس وتقع على مسافة (١٢) ميلاً من مركز العاصمة الى الشمال الغربي. من هذا=

بمسافة إثنتي عشرة مرحلة عن باريس وسيتمكث فيها خمسة وعشرين يوماً. وإن عليّ أن أهيء خلال هذه المدة تصميماً للنافورة الجميلة. وليكن في غاية الأناقة مشحوناً بالزخارف والتهاويل. وشدد عليّ بأن أسخر له كلّ مواهبي ليكون فريداً في بابه لأن البقعة التي ستقام النافورة عليها هي عنده أحبّ مكان في مملكته حيث يقضي فيها أوقات فراغه مستمتعاً، فوعده. وعندما شاهد كلّ الأعمال التي أشتغل بها قال لمدام ديتامپ:

- لم يقدّم رجل في صناعته بإرضائي مثله فهو يستحق اعظم الجزاء. ولذلك علينا ان نفكر في وسائل بقائه هنا. انه ميسوط اليد؛ جليس مؤنس، وعامل مجدّ. فعلينا والحالة هذه أن لانهمل أمره وأن نفكر فيه دوماً بل وأكثر من هذا ياسيديتي، أنظري انه لم يطلب شيئاً لنفسه قط في الزيارات العديدة التي قمت بها لمصنعه، وفي جيناته اليّ. ان فنّه هو كلّ شيء عنده وقد اوقف عليه روحه وقلبه. علينا ان نفكر في شيء له فوراً خشية أن نفقده.

فأجابته (مدام ديتامپ):

- سأذكرك بهذا.

وإنصرفوا وواصلت عملي دؤوباً كما شرعت في عمل تصميم للنافورة بحماسة وتفوّغ. بنهاية شهر ونصف عاد الملك الى باريس وكنت خلال ذلك أشتغل ليل نهار فتوجهت للسلام عليه مصحوباً بالتصميم الذي بدا رائعاً عند تمامه دقيقاً في تفاصيله بحيث يسهل فهمه.

في تلك الأثناء نشبت الحرب اللعينة مرة أخرى بين الملك والإمبراطور<sup>(٣٧)</sup> ولذلك وجدت جلالته مشغول البال. فما كان مني إلا أن بحثت الأمر مع كردينال (فرارا) وأعلمته بأنني أحمل تصاميم للملك سبق وكلفني بها وأشرت الى أن عرضها قد يسرّي عنه ورجوته أن يقول بضع كلمات إن وجد فرصة مناسبة تمكيني من ذلك. ففعل الكردينال ماطلبت منه. وعندما نوه لجلالته بالتصاميم أقبل الملك حالاً لمشاهدتها. كان التصميم يحوي أولاً على مدخل قصر فونتنبلو بتحوير طفيف لتصحيح أبعاده إذ كان واطئاً وعريضاً على الأسلوب الفرنسي القبيح. وكانت فتحة المدخل أيضاً مربعة الشكل وفوقها العقادة بشكل نصف دائري مفلطحة شبيهة بيد السلّة. في وسط هذه العقادة الدائرية رغب الملك أن أعمل تمثالاً يمثل فونتنبلو. فأدخلت تحسينات في أجزاء المدخل وجعلت العقادة بنصف دائرة كاملة أما الركنان فقد جعلت فيهما زخارف بارزة وحليتهما من الأعلى والأسفل بما يناسبهما من الأفاريز والكوى وإعتضت عن الأسطونين الجانبيين بتمثالي مسخين يرفعان كلّ منهما يداً ليسند الأسطون ويمسك باليد الثانية رمحاً كبيراً ذا شعب وصورتها بشكل يوحى بالرهبة. والفرق الوحيد بين المسخين هو أنني جعلت يد أحدهما تمسك بسوط ذي شعب ثلاث كلّ شعبة تنتهي بكرة. وقد سميتهما بالمسخين تجوازاً لأنهما لا يشبهان ذلك الكائن الخرافي إلا في القرنين الصغيرين اللذين

=يبدو ان (المرحلة) هي ميل واحد.

(٣٧) ساد السلم حوالي خمس سنين (١٥٣٧-١٥٤٢) ثم نشبت الحرب مجدداً في أيار ١٥٤٢ وإستمرت حوالي السنتين

وإنتهت بمعاهدة كريبي Crépy في ١٥٤٤.

يخرجان من الرأس الشبيه برأس الجدي. أما سائر الجسم فهو بشريّ. وجعلت في وسط العقادة نصف الدائرية إمراً مضطجعة<sup>(٣٨)</sup> على جنبها بهيئة لطيفة جداً. يدها اليسرى مستقرة على عنق غزال وهو واحد من الشعارات الملكية وجعلت في جانب منه ضباً صغاراً بنصف بروز وخنازير بريّة وغيرها من الوحوش البريّة بنصف بروز واطيء. وفي الجانب الآخر كلاب صيد وكلاب سلاقية من مختلف الأجناس، وهو ما يكثر عادة في تلك الغابة الجميلة حيث نبع الماء.

وأحطت كلّ هذا بإطار مستطيل في كلّ زاوية من زاويتيهِ العُليين جعلت صورة للإلهة (فكتوري) بالحفر الواطيء ممسكة مشاعل كما ترى في النقوش التي خلفها الأقدمون. وفوقها نقش سحليّة وهو إقتراح الملك. ومع مجموعة كبيرة من الزخارف والزركشات الرائعة على النمط الآيوني<sup>(٣٩)</sup> مما ينسجم مع الباقي.

وأشرق وجه الملك عندما وقعت أنظاره على التصميم، وإنصرف فكره الى المناقشات المتعبة أكثر من ساعتين. ولما وجدته في حالة نفسية طيبة كشفت عن التصميم الثاني الذي لم يكن يتوقعه، فقد حسب أن التصميم الأول هو كلّ ما إتسع له وقتي وكان إرتفاعه يزيد عن ثلاثة أقدام ويمثل فسقية تامة التريع تحيط بجوانبها الأربعة مدرجات جميلة متقاطعة بشكل غير مألوف لا عندنا ولا في هذه البلاد. وجعلت بمركز الفسقية قاعدة مرتفعة بعض الشيء عن الحوض وأقامت وسط هذه القاعدة تماثلاً عارياً متناسق الأعضاء جميل الشكل ترتفع ذراعه اليمنى الى أقصى ما تمتد ممسكة برمح مكسور. وتستقر يده اليسرى على مقبض سيف عريض إعتنيت كثيراً بتصويره. وهو واضح ثقله على قدمه اليسرى. أما قدمه اليمنى فقد جعلتها تستقر على خوذة حربية كثيرة الزخارف. وفي جوانب الفسقية أقامت أربعة تماثيل تجلس فوق قواعد وكل واحد منها يرفع شعاره الخيالي الطابع.

أنشأ الملك يستجوني عمّا يكمن وراء هذا التصميم الجميل من فكرة، قائلاً إنه لا يحتاج الى كلمة مني ليفهم كلّ ما قصدته في تصميم تفاصيل مدخل الباب. لكنه مع الجمال الظاهر في تصميم الفسقية - لا يستوعب قط ما أرمي إليه من فكرة فيها. وأردف يقول: انه يعلم حق العلم بأنني لست من صنف أولئك الحمقى الذين يبدو عملهم أنيقاً في الظاهر ولكنه يخلو من أي معنى. وهنا تهيأت لشرح فكريتي لأنني كنت أريد أن أسره بأقوالي قدر ما جعلته مسروراً بما أنجزت. قلت:

- يودّي أن يعلم جلالتك الأقدس إن عملي هذا مبني على حساب دقيق الى حدّ العقدة. بحيث إنه سيحتفظ بكامل روعته وجماله عند إكماله. فهذا التمثال في الوسط سيكون إرتفاعه أربعة وخمسين قدماً (أبدى الملك هنا حركة تدل على الدهشة العظيمة) وهو يمثل (مارس). أما التماثيل

(٣٨) هذه الحورية لم تركب في باب القصر. وبعد وفاة فرنسوا الأول، منحها ابنه هنري الثاني لعشيقته (ديانا دي بواتييه) فزُيّت بها باب قصرها في أنيت. وهي الآن من معروضات متحف اللوفر.

(٣٩) أيونيا هو الاسم الذي يعرف به ساحل بحر أيجة التركي حالياً. حيث ازدهرت في مدنه حضارة يونانية مهمة جداً من الألف الأخيرة قبل الميلاد ومنها إستمدت اليونان حضارتها في القرون التي تلت. وجليني يشير هنا الى أسلوب البناء اليوناني المتميز الذي قلده فنانون الرينيسانس مع بعض تحوير.

الأربعة الأخرى فتمثل العلوم والفنون التي يشجعها جلالته ويشملها برعايته. فالذي في الجهة اليمنى يمثل دنيا المعرفة وأنت ترى كيف كان شعارها؛ مظهره الفلسفة ومختلف فروعها. والآخر يمثل كل فنون التصميم أعني النحت والتصوير والهندسة المعمارية. والثالث للموسيقى التي ترافق كل فروع المعرفة هذه. يليه هذا التمثال اللطيف الجميل الذي يمثل التسامح ولولاه لإختفت كل الملكات النادرة التي أنعم بها الله علينا. والتمثال العظيم في المركز يمثل شخص جلالته (مارس) إله الحرب، الفريد في الشجاعة: أنت الذي تستخدم شجاعتك بعدل وإخلاص في الدفاع عن شرفك ومجدك.

ولم يصبر على إنهاء كلامي فقاطعني قائلاً بصوت جهير:

- لعمري إني وجدت رجلاً يناسبني.

ثم إنه نادى أمناء خزانته وأمرهم بأن يزودوني بكل ما أحتاج مهما كلف ذلك من مال. ثم ربت على كتفي وقال لي:

- يا صديقي (Mon Ami) لا أدري أيهما أسعد حظاً؟ الأمير الذي وجد رجلاً يتفق وهو؟ أم الفنان الذي وجد أميراً مستعداً لتلبية كل طلب له للتعبير عن أفكاره العظيمة الخلاقة؟ فأجبت قائلاً: إن كنت المقصود بكلام جلالته، فأنا الأسعد حظاً. فقال مبتسماً:

- فلنعتبر أنفسنا ذوي حظوظ متساوية.

ثم إستاذنت والدنيا لاتسعني فرحاً منصرفاً إلى أشغالي.

كما شاء لي حظي العاثر، لم ينصحنى أحد بإعادة تمثيل هذه المقابلة مع (مدام ديتامب). فبعد أن سمعت من فم الملك نفسه كل ما وقع تجمع لها حقد مسموم في صدرها علي بحيث انفجرت قائلة:

- لو عرض علي بنفوتو أعماله الفنية الجميلة لزودني بمبر وسبب لتذكره في الوقت المناسب. وحاول الملك الاعتذار لي من غير طائل. وقد سمعت بالقضية بعد أسبوعين لأنهما كانا قد قاما برحلة ملكية إلى نورماندي زارا خلالها مدينتي (روان Rouan) و(دييب Diepe) ثم عادا إلى (سانت جرمان آنلاي). فحملت الإناء الصغير الجميل الذي كنت قد صنعته بناء على طلب مدام ديتامب وقصدتها مؤملاً بإهدائه أن أستعيد حظوتي لديها. بلغت منزلها وعرضت على إحدى وصيفاتها ماجلبته لسيدتها فرحبت بي بلطف لا مزيد عليه وقالت إنها ستكلم سيدتها التي لم ترتد ثيابها بعد. وإني سأدخل عليها حالما تخطر بها بوجودي.

نقلت الوصيفة رسالتي إلى السيدة فأجابت بإستخفاف:

- قولوا له أن ينتظر.

ولما بلغت بذلك قلت سمعاً وطاعة وتحملت بالصبر وهو عندي أصعب الأمور. بقيت صابراً كاظماً حتى فات وقت الغداء. وتأخر بي الوقت وعمل الجوع على إثارة غيظي الشديد ولم يعد عندي طاقة للإحتمال فأنصرفت وأنا أقول في نفسي إلى سقر بها ويئس المصير. قصدت كردينال اللورين وقدمت له الإناء هدية ولم أسأله عوضاً سوى أن يذكرني بخير أمام الملك. فأجاب لاجحة تدعو إلى هذه

الوساطة ولكنه لن يتردد في إهتبال أي فرصة لتزكيتي وسيفعل ذلك بكلّ طيبة خاطر. ثم دعا وكيله وهمس في أذنه كلاماً. وانتظر الوكيل حتى خرجت من مجلس الكردينال فقال لي:  
- هيا معي يا بنقوتو وسأسقيك خمراً معتقة.  
فأجبت وأنا غير مدرك قصده:

- رحماك ياسيدي الخازن. أسعفني بكأس خمر مع كسرة خبز فأنا في أمس الحاجة اليهما. فأنا على الطوى منذ صباح اليوم الباكر حتى الان، أنتظر على عتبة دار مدام ديتامپ لأقدم لها هذا الإناء الفضي الصغير الجميل هدية. أخطرتها بغرضي إلا أنها أشارت بالانتظار قاصدة تحقيري. والآن أرى الجوع يقرص أحشائي فأكاد أسقط إعياءاً. ولقد شاءت إرادة الله على كل- أن أقدم ثمرة عملي الى من هو أحق به منها. وكل ما أطلبه الآن هو ما أنقع به ريقى لأنني صفراروي المزاج والصوم يضرّ بصحتي. وأنا أخشى أن أسقط من شدة الضعف. وفيما أنا أنتزع الكلمات من فمي بجهد خارق ظهر بالباب طبق عليه خمر ممتازة وغير ذلك من الأطايب. فعادت اليّ روحي وانتعشت بعد أن تناولت هذه الوجبة الخفيفة وزايلني الغضب. بعدها قدّم لي الخازن الكريم مائة كراون ذهبي فرفضت قبولها بشدة. فأبلغ الكردينال بذلك فأنبه وأمره أن يحملني على قبولها حملاً وأن لا يريه وجهه قبل أن يفعل ذلك. فعاد الخازن وهو منفعّل وقال إنه لم يؤنّب من قبل بمثل هذا الشدة. والحّ عليّ بقبول المال ولكني بقيت على إصراري. عندئذ حمي غضبه وقال إنه سيرغمني على ذلك بالقوة. ولم يعد لي حيلة إلاّ القبول. وطلبت منه أن ادخل على الكردينال لأشكره. فبعث نيافته لي برسالة شفوية يقول فيها انه لن يدع فرصة تفوت إلاّ إنتهزها لفائدتي.

عدت مساء اليوم نفسه الى باريس وعلم الملك بالحكاية من أولها الى آخرها. وضحك المطلعون على المسألة سخريّة بدم ديتامپ مما ضاعف من حقدّها عليّ ورغبتها في إلحاق الضرر بي وكاد سعيها يوردني حتفي وسأورد الحديث عن ذلك في موضعه المناسب.  
كان عليّ قبل تسجيل هذا أن أنوّه بفوزي بصدّاقة أسمى وأرق وأعظم الناس ذكاً ومواهب لقبته في حياتي، ألا وهو الأستاذ (گويدو گويدو Guido Guidi)<sup>(٤٠)</sup> الطبيب النطّاسي والحكيم العالم والمواطن النبيل الفلورنسي. أنساني الكلام عنه سوء حظي القاسي بمتاعبه المستمرة التي يرميني بها. إلا أن إغفاله ليس مهماً ما دام هو قريب من القلب على طول. على اني أرى قصة حياتي ناقصة من دون التنويه به. وها أنا الآن أبرز شخصه من وسط الأعاصير والزوابع التي عانيتّها، ففي أثنائها كان مصدر عون وراحة لي. واني الآن أقرّ بما أظهره لي من طيبة وكرم.  
بعد أن قدم السيد (گويدو) الى باريس وفي مبدء تعرفي به دعوته للسكنى في قلعتي ووضعت

(٤٠) هو حفيد الرسام دونيبيكو دل جيرلاندايو الفلورنسي. قضى في فرنسا ست سنوات (١٥٤٢-١٥٤٨) طبيباً للبلاط الملكي. ثم عين أستاذاً للطب في جامعة بيزا. كتابه في الطب أو بالأحرى في الجراحة الذي تنوّه به المذكرات. هو ترجمة لأبقراط وجالينوس. طبع في باريس (١٥٤٤) وطابع هذا الكتاب هو (بيير گوتيهيه) مستأجر چليني المطرود كما سيأتي ذكره. [حاشية بيانكي].

تحت تصرفه جناحاً كاملاً منها، فإستقرّ فيه وإستمتعنا معاً بصحبةٍ إمتدت عدّة سنوات. وقدم باريس كذلك (أسقف بافيا) المونسيور (داروسّي) أخو الكونت (سانت سكوندو). فجنّت بهذا الحبر الجليل الى قلعتي وأفردت له جناحاً فإستقرّ فيه مع خدمه وكان جدّ مرتاح من إقامته التي إمتدت بضعة أشهر. كذلك إستضفت السيد (لويجي آلماني) وأولاده في مناسبة أخرى فأقاموا عندي أشهراً قليلة. إن الله كان برّاً حتى بي فجعل مني أداة لخدمة هؤلاء الرجال العظماء والموهوبين. لقد أنست كثيراً بصدقة الأستاذ (گويدو) طوال المدة التي قضيتها في باريس. وكثيراً ما هنأنا أنفسنا بالحظوة والتقدير اللذين نلناهما من ملك عظيم كلّ في مجال صناعته. ولا يسعني إلا الإقرار بأن الفضل في كلّ مانلته من شهرة وما أنجزت من جلائل الآثار الفنية إنما يعود الى هذا الملك المحبوب الرائع. ولكن ينبغي لي أن أوصل ما إنقطع من الحديث عنه وعن العمل العظيم الذي قمت به له.

كان في قلعتي ساحة للعب التنس أحصل على أيراد جيد جداً منها بأيجارها للاعبين. والملعب يحوي عدداً من الغرف الصغيرة يسكنها أناس من مختلف الهويات ومن بينهم طبّاع ماهر جداً كان كلّ مطبعتة تقريباً داخل قلعتي وهو الذي طبع للسيد (گويدو) كتابه الأول النفيس في الطب. وبناءً على حاجتي الى الغرف التي يشغلها فقد أخرجته ولكن بعد مشقة عظيمة. وكان ثمّ أيضاً منتج ملح البارود رفض رفضاً قاطعاً أن يتحرك من مكانه عندما أردت إخراجها من غرفته لأسكن فيها بعضاً من عمالي الألمان الحاذقين. رجوته إخلاء الغرف عدّة مرات بكلّ لطف وأدب قائلاً إنني أريدها لإسكان عمالي الذين هم في خدمة الملك.

ان صلف هذا الحيوان ووقاحته كانتا تزيدان بزيادة تأدبي ولطفي. أخيراً أنذرت له مهلة ثلاثة أيام للجللاء. فإنفجر هذا ضاحكاً وقال إنه سيبدأ في الإخلاء بعد نهاية ثلاثة أعوام. ولم أكن أعلم أنه من أحد خدم (مدام ديتامپ) المقربين، ولو لم يجعلني خلافها معي حذراً متوجساً بعد تلك الحادثة لطردته في الحال. إلا أنني قررت أن أصبر عليه هذه الأيام الثلاثة. وبعد أن إنتهى هذا الأجل جمعت بعض عمالي الفرنسيين والألمان والأيطاليين. وكلّ سلاحه في يده- مع عدد من العمّال غير الماهرين وبدون أن أبادله كلمة واحدة حطمتنا محلّه وقذفنا بكلّ مقتناه وأثاثه خارج القلعة. وقد قمت بهذا العمل العنيف بعض الشيء لأنه قال لي: إنه لا يعرف أيطالياً واحداً يجرؤ على قلع مسمار واحد من محلّه. وبعد أن إنتهى كلّ شيء أقبل عليّ، فقلت: - إنني أضعف أيطالي في كلّ أيطاليا. ولم أفعل بك إلا أقلّ مما يمكنني عمله لو نطقت الآن بكلمة واحدة لنالك أكثر.

ثم أضفت الى ذلك بعض الشتائم والإهانات. فصعق وركبه الخوف وأسرع يجمع أشياءه بسرعة وإنطلق حالاً الى (مدام ديتامپ) ووصف لها ما فعلت بصورة نقشها من جهنم نفسها. فقامت عدوتني الكبرى هذه بنقل المسألة الى الملك مستعينة بذلاقة لسانها ونفوذها وصورت عملي بأسوأ ما يمكن. ابلغت فيما بعد أن الملك حمي غضبه حتى كاد يتخذ قراراً قاسياً بحقيّ مرتين لولا تدخل إبنة ولي العهد هنري (ملك فرنسا الآن) الذي واجه من هذه السيدة الغطريسة عدة تحديات فدافع عنيّ هو

وأخت الملك ملكة النافار دفاعاً حاراً، فإنفتحت غضبه وانقلب الأمر كله الى مزاح. وهكذا بعون صادقٍ من الله نجوت من هذه العاصفة الكاسحة.

كان ثمَّ رجل آخر إضطرت أن ألجأ معه الى عين العمل. إلا أنني لم أحطم أثنائه بل كذفت بها الى الخارج وعلى إثر هذا بلغت الجراءة بدمام ديتامپ حدّاً أن قالت للملك:

- يغلب على ظني أن هذا الشيطان سيخرّب باريس كلها يوماً!

فأجاب الملك غاضباً: إن الرجل يستخدم حقه الكامل في الدفاع عن نفسه ضد الصعاليك الأوغاد الذين يعرقلون خدمته لي. وأخذ حقد هذه المرأة الشريرة ينمو ساعة بعد ساعة. ثم إستقدمت رساماً كان مقيماً في (فونتينبلو) حيث يقيم الملك عادة، وهو مواطن من أهل بولونيا يعرف بلقب (إل بولونيا Il Bologna) وإسمه الحقيقي (فرانشيسكو پريماتيجيو F. Primaticcio) <sup>(٤١)</sup> ولقنته بأن يطلب من الملك تكليفه بنفس العمل الذي عهد به اليّ جلالته بخصوص النافورة. ووعدته بإستخدام كلّ نفوذها لمساعدته على نيل هذا العمل. وهكذا إتفقا معاً على ما يترتب عمله في هذا الشأن. ولم تسع (بولونيا) الدنيا فرحاً، متصوراً أن العمل أصبح له. ومع إنه كان ماهراً في تخطيط التصاميم وقد جمع حوله عدداً من العاملين الذين كانوا عند رسّامنا (روسو) الفلورنسي الفنان العظيم، إلا أنه لم يكن صالحاً لمثل هذا العمل. والواقع أن كل حسن جيد في أعماله يعود الى (روسو) الذي كان يستنسخ منه. و(روسو) الآن في عداد الأموات.

نحجت الدسيسة الماكرة بفضل المنطق الخبيث الذي إستخدمته مدام ديتامپ وبذلها أقصى ما في طاقتها من المساعي. وكانا يلاحقان الملك بالموضوع ليلاً ونهاراً مرّة (بولونيا) ومرّة (المدام) والسبب الأساسي لرضوخه قولهما:

- يا صاحب الجلالة كيف يمكن أن يقوم بنفثوتو بعمل إثني عشر تمثالاً من الفضة وهو ماتطلب منه في حين انه لم ينجز حتى الآن واحداً منها؟ فإن أنت إستخدمته لهذا المشروع الضخم فلاشك أنه يترتب عليك أن تستغني عن الأشياء التي تصبو إليها نظراً لأن مائة من الفنانين الكبار قد يعجزون عن إكمال المشاريع العظمى التي إضطلع بها هذا الرجل الداهية. واضح جداً كم هو مشوق للعمل حريص عليه والنتيجة هي إن جلالتك سيفقد الرجل ويفقد إنتاجه معاً.

عُرِضت هذه الحجج وأمثالها عندما وجدا الملك في حالة إستعداد فكري لقبولها فوافق على ما طلبا؛ إلا أنه لم يشاهد أي تصميم من عمل (بولونيا).

في الوقت الذي جرى هذا، رفع المستأجر المطرود عليّ دعوى قضائية زاعماً أنني عندما طردته إغتصبت مقداراً كبيراً من بضاعته وأشياءه. وسببت لي هذه الدعوى مضايقات لا نهاية لها. وإستنزفت مني وقتاً مديداً حتى ركبني اليأس من الحال وخالجتني فكرة الرحيل عن فرنسا بلا عودة. في هذه البلاد يجني الناس أرباحاً كبيرة للغاية من إقامة الدعاوى ضد أجنيبي أو أي شخص يتوسمون فيه الجهل بالأصول القانونية أو قلة الصبر. فما ان تبدو الدعوى رابحة حتى يحاول صاحبها بيعها

(٤١) إستخدمه فرانسوا الأول. ثم هنري الثاني ثم فرانسوا الثاني. وقد أورد فاساري (ج٧) سيرة حياته.

الى آخر. وقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يمهرن بناتهم بتألف من دعاو قضائية لمن احترف التعامل بها وجعلها مورد رزق له ومدار عيش. وثم عادة شائعة قبيحة عند كل أهل نورماندي أو معظمهم، وهي تلفيق الشهادات الكاذبة التي مهرها فيها. فقد يتفق أن يستعين مشتري الدعوى بأربعة أو ستة من شهود الزور حسبما تدعو اليه الحاجة. ومن يجهل هذه العادة ولا يجد من ينصحه بتأمين عدد مماثل من شهود الزور لإسقاط شهادات الخصم فسيجد قرار الحكم ضده.

كل هذا وقع لي وهو من أرذل وأحط أساليب الخداع والظلم. بلغت مبنى محكمة باريس الشامخ الباذخ لأدافع عن حقي. فوجدت القاضي وهو بمنصب نائب الملك في الدعاوى المدنية، يتصدر منصة عظيمة مرتفعة. وكان رجلاً بديناً ضخماً فارح الطول منفر الوجه الى درجة كبيرة. وقد جلس الى يمينه ويساره عدد من المحامين ورجال القانون. فيتوافد اليه المراجعون ليعرض كل منهم بدوره قضيته. وسمعت المتداعين الى جانب منه يتكلمون جميعاً في وقت واحد. فسمرت في مكاني مشدوهاً أحملق في هذا الرجل العجيب الذي شبهت وجهه بوجه أفلاطون معجباً بسرعة بديهته وشدة إنتباهه. إذ كان يرهف اذنه الى هذا تارةً ويصغي الى ذلك تارةً أخرى ويجيب عن كل سؤال بإجابات بارعة مسكتة. كنت ومازلت أسرّ كثيراً بمشاهدة أي مظهر من مظاهر الذكاء والعبقرية يعن لي. وقد وجدت في هذا القاضي بغيتي من الإعجاز والفتنة، فقررت ألا أحرم نفسي من هذا المنظر النادر وأن أبقى متابعاً له الى الأخير. كانت القاعة غاصة بالناس. وقد اتخذت الإجراءات للحيلولة دون دخول أي شخص لأشأن لديه فيها ولا دعوى. فأغلق الباب وقف الحاجب عنده يصد من يريد الدخول. فكان يشتبك بين حين وآخر مع من يريد الدخول في جدال يزعم القاضي ويقطع عليه سلسلة تفكيره بالضجة الناجمة فتشور ثائرتة وينهال على الحاجب تأنيباً وتقريعاً. ووقع هذا عدة مرات فإسترعى إنتباهي وأرهفت أذني لإلتقط الكلمات التي كانت تتناثر من بين شففتي القاضي. واتفق أن سيدين همًا بالدخول لمتابعة المرافعة فقاومهما الحاجب بشدة فصرخ القاضي بصوت كالرعد "سكوتاً، سكوتاً! يا للشيطان! أخرج! أسكت!" وعيبارته تبدو بالفرنسية كالأتي "Phe Phe, Satan, Phe Phe alé Phe". وكنت ملماً باللغة، فلما سمعت هذه الكلمات خطر ببالي ما قاله (دانتي)<sup>(٤٢)</sup> عندما اجتاز أبواب الجحيم برفقة أستاذه (فرجيل)<sup>(٤٣)</sup>. فقلت لنفسي: إن (دانتي) والرسام (كيوتو)<sup>(٤٤)</sup> وجدا معاً في فرنسا وفي باريس على الأخص التي تشبه الجحيم فعلاً وفق ما ذكرت. ولما كان دانتي يتقن اللغة الفرنسية فقد ضمن عبارة القاضي قصائده. ومن الغريب ألا يفهم البيت على هذا الأساس. لذلك أريد أن أوضح هنا بأن المعلقين والشراح قد فسروا هذه الأبيات بمعانٍ لم تخطر ببال الشاعر مطلقاً<sup>(٤٥)</sup>.

(٤٢) دانتي أليغري (١٢٦٥-١٣٢١) بملحمته (الكوميدي الإلهية) يعتبر أبا الشعر الإيطالي. وهي أشهر من أن يُعرف القاريء بها.

(٤٣) بوبليوس فرجيليوس مارو (٧٠ ق.م-١٩ م.) شاعر روماني ومسرحي صاحب ملحمة الأينباد.

(٤٤) كيوتو دي بوندوني Gioto de Bondone (١٢٦٦-١٣٣٧) رسام وفسيفسائي ومعمار إيطالي معروف. آثاره ترى في بادوا وفلورنسا.

(٤٥) والمقصود هو البيت الأتي: Pohe Satan, Pohe Satan alleppé Convincio Pluto con la voce chioccia (الجحيم ٧:١) قال=

ولأعد الى شؤوني: عندما صار واضحاً عندي نتيجة الحكم الذي سيصدر عليّ من المحكمة ورجال القانون هذا حالهم ولم أجد سبيلاً للخروج من الورطة. توكلت على خنجر كبير ماضٍ وأسلمته أمر الدفاع عن حقوقي (كنت أجد لذة عظيمة في إقتناء أفضل السلاح). وكان أول رجل ذاق حده هو اليد المحركة لتلك الدعوى الزائفة التي أقيمت ضدي. ففي ليلة من الليالي أصبته بعدة جراح في ذراعيه وساقيه (محتطاً من عدم إصابته بمقتل) بحيث حرمته من إستخدام ساقيه الإثنتين. ثم إنثيت الى صاحب الدعوى الأصلي فأحدثت فيه شقاً بليغاً بحيث جعله يترك الدعوى.

حمدت الله وشكرته على هذا وعلى كل شيء راجياً أن يكون فيه نهاية لمتاعبي لفترة من الزمن على الأقل. وشددت على فتياي الذين يشتغلون عندي ولاسيما الإيطاليين بأن ينكبوا على أعمالهم وإستحلفتهم بالله أن يكونوا صادقين في معاونتي على إنجاز الأعمال المنوطة بي بأقرب وقت ممكن. لأنني عزمتم على العودة الى إيطاليا بعد أن ضقت ذرعاً بنذالة هؤلاء الإفرنج ومكرهم السيء مقدراً أيضاً احتمال ثورة غضب مفاجئة من الملك قد تفسد عليّ حياتي، بسبب الأعمال التي قمت بها دفاعاً عن نفسي.

من الإيطاليين الذين ذكرتهم كان (اسكانيو) أحبهم الى قلبي، وهو من بلدة تدعى (تالياكوزا) التابعة لمملكة نابلي. والآخر (پاگولو) وهو من أهل روما ذو أصل وضيع لايعرف له أباً. كانا يسكنان عندي في روما وقد جاء معي وثم أبطالي ثالث اسمه (پاگولو) أيضاً وهو ابن لنبييل من روما رقيق الحال من أسرة (ماكاروني). ولم يكن هذا الفتى حسن الإلمام بالفن، إلا أنه كان مقاتلاً شجاعاً. وكان ثم رابع من (فرارا) يدعى (بارتولومو كيوچيا B. Chiocia) وآخر من فلورنسا يدعى (پاگولو ميچيري P. Micceri) له أخ يلقب بـ(إل كاتا Il Catta) ماهر في المحاسبة، لكنه أفلس عندما كان يدير أملاك (توماسو گواديني Tomasso Guadagni) التاجر الغني جداً. وتولى (كاتا) هذا تنظيم دفتر حساباتي المتعلقة بأموال الملك المسيحي الأعظم وغيره من مختلف الناس. وأشرف عليها فيما بعد أخوه پاگولو ميچيري الذي تعلم منه وكنت أدفع له أجراً سخياً. ويدا لي شخصاً مستقيماً أهلاً للثقة. ولم تفتني ملاحظة شدة تدينه إذ كنت أشاهده دوماً وهو يتمم بصلاة ولا تفارق مسبحة الصلاة يده فأثر بي ورعه وتقواه الظاهرين وإعتمدت عليه كل الإعتقاد. إنتحيت به جانباً وقلت له:

- پاگولو ! أي أخي العزيز. انظر الى عيشتك المرفهة عندي وأنت لاشك مدرك بأنك رقيق الحال لا تملك ماتبدء به عملاً، فضلاً عن هذا أنت فلورنسي. ومما يزيدني إعتقاداً عليك هو كثرة صلاتك

=(پلوتوس) عندما وقعت نظاره على كل من (فرجيل) و(دانتي) وهما يلجان الدائرة الرابعة. إن شرح چليني هنا، لا يقل غرابة عن شرح غيره من مفسري ملحمة (دانتي) لهذا البيت ومن المحتمل ان (دانتي) قد زار باريس. لكن يشك كثيراً في ان يكون الرسام (گيوتو) قد زارها. وليس هناك اي دليل على أنهما كانا معاً. وعلى أية حال فيا ماسمعه چليني في المحكمة هو "Paix Paix Satan. Paix Paix Satan Allez Paix" وهو قريب الجرس من بيت (دانتي) وهو مصدر وهم چليني.

وعبادتك الأمر الذي يبعث في نفسي الراحة والسرور. ولذلك أرجو أن تكون في عوني لأنني لا أطمئن كثيراً إلى أي واحد من الآخرين. أرجو منك أن تهتمّ خصوصاً بأمرين كلاهما يورثاني غمّاً وقلقاً كثيراً: أولهما أن تحرس مقتناتي ومالي بعين يقظة وتحول دون سرقة، وأن لا تمتدّ يدك اليه. والآخر هو قضية تلك الفتاة اليافعة (كاترينا) التي أويها أساساً للإفادة منها في عملي الفني والتي لايسعني الإستغناء عنها. والى جانب هذا ولأنني رجل فإني أستخدمها للمتعة الجنسية، وأنا لأريد تحمّل نفقات أطفال غيري ولن أصبر حتماً على أية إهانة تلحق بي من هذه الجهة والواقع هو أنني سأعلم حتماً بذلك إن دفع الطيش بأحد ممن هم في داري إلى ارتكاب فعلة كهذه. وبإمكاني التأكيد بأنني سأقتلها معاً. لذلك أرجو منك أيها الأخ العزيز أن تكون لي عوناً. فإن لاحظت أي شيء فإني سأحدثك حالاً. لو حدث شيء من هذا القبيل فسأضع حبل المشنقة في عنقها وعنق أمها مع مرتكب العمل. وعليك أنت قبل كل أحد أن تلتزم جانب الحذر.

فرسم النذل شارة الصليب مبتدئاً برأسه ونازلاً حتى قدميه وقال:

- تبارك إسم يسوع. معاذ الله أن أفكر بمثل هذا الأمر. أولاً لأنني بعيد بطبعي عن هذه الغوايات والردائل. وثانياً لأنني أقدر تماماً الدين الذي لك عليّ.

أثرت بي بساطة لهجته ومظهر الإخلاص والتفاني فوثقت تماماً بكل ماقاله.

بعد هذا بيسومين حل العيد ودعاني (ماتيسو دل نازارو Mathio del Nazaro) وهو إيطالي كذلك يستخدمه الملك في عين عملي بجدارة- إلى مجلس لهو وشرب مع فتياتي في الهواء الطلق. فكّرت بأنني افلحت إلى الآن في إسكات الضجة المتأتية من تلك الدعوى القضائية المزعجة ولذلك تهيأت ودعوت (ياغولو) لمرافقتي وإصابة شيء من المتعة. فأجاب الفتى قائلاً:

- من أكبر الخطأ أن يترك المنزل دون رقابة على هذا الشكل، أما فكرت بكميات الذهب والحلي والجواهر الموجودة عندك؟ نحن كما لانخفاك نعيش في مدينة تعجّ باللصوص وعلينا ان نكون يقظين دوماً منتبهين ليلاً ونهاراً. وسأقوم بحراسة المنزل وأتلو صلاتي خلال ذلك. وبإمكانك ان تطمئن تماماً. فاذهب رفّه عن نفسك واقض وقتاً ممتعاً. وسيتاح لي ذلك في مناسبة أخرى عندما نجد من يتولى الحراسة عنيّ.

وزايلني القلق وإطمأنت نفسي فإنطلقت إلى البساتين ومعني (اسكانيو وياغولو وكويجيا) وأمضينا هناك الجزء الأكبر من النهار في لهو وأنس. ولما أخذ النهار يدنو من المساء ركبنتي الهواجس وبدأت أفكر بكثير من الشك في كلمات ذلك الساقط وكيف وضعها لي في قالب من البساطة والإقناع. ركبنت حصاني وعدت إلى القلعة مع إثنين من خدمي وهناك كدت أفاجي (ياغولو) والعاهر (كاترينا) بالجرم المشهود. إذ ما إجتزت عتية الدار حتى سمعت أمها العجوز الشمطاء تصيح بالفرنسية:

- ياغولو، كاترينا! السيد هنا.

عندما رأيتهما يدنوان مضطربين مرتعبين، لايدريان وسط فزعهما ماذا يقولان والى أين يتوجهان.

إتضح لي تماماً ما كانا يفعلان. فطاش عقلي وعلاني الغضب فجردت سيفي وأنا مصمم على قتلها معاً. فأطلق (پاگولو) ساقيه للريح وخرت الفتاة راکعة وهي تستغيث بالسماء طالبة الرحمة. وكان أول ما طرأ لي هو أن أحمل على الرجل ولكني لم أمسك به حالاً. وكان هدفي وأنا في سبيل هذا أن أختار خير موقف وهو أن أقذف بكليهما خارج المنزل. إذ لم يكن بوسعي إضافة عمل آخر الى أعمال عنفي السابقة قد يتعذر علي الخروج منه حياً. ولذلك قلت ل(پاگولو):

- أيها النذل الساقط! لو أني رأيتك بأمر عيني تعمل ما اضطرت الى الإعتقاد بأنك قمت به لجعلت هذا السيف يخرق أحشاءك عشر مرات. والآن أغرب عن وجهي وإن صليت مرة ثانية الصلاة الربية فلتكن موجهة للقديس گویانو!<sup>(٤٦)</sup>

ثم قذفت بالأمر والبنيت الى الشارع مستخدماً قبضتي ورجلي، فإختطنا للإنتقام مني وراجعتا محامياً نورمانياً فأشار عليهما بأن تدعي البنيت بأني واقعتها من الطريق غير الطبيعي أى مثل اللوطة. وقال:

- عندما يبلغ الإيطالي بشكواكما فسيخفف الى إعطائكما بضع مئات من الدوقيات ضماناً لسكوتكما ولمعرفة العقوبة الرهيبة التي تفرض على مرتكب هذا الفعل في فرنسا. وهكذا إتفقا وسجلا شكواهما ضدي وإستدعيت الى المحكمة.

بقدر ما كنت أتلهف الى صفاء الفكر وأحاول إجتنب المتاعب. كانت المزعجات تلاحقني وتعلق بأذيالي فتهاجمني كل يوم بشكل جديد وأسلوب مختلف. أطلت التفكير في أي من السبيلين أختار: إما أن أترك فرنسا الى سقر. وإما أن أخوض هذه المعركة بعزم وصدق معتمداً على ما يدخره الله لي. فقلبت وجوه الرأي في المسألة طويلاً. أخيراً صح عزمي على الرحيل. وأن لا أستفز سوء حظي كثيراً لئلا ينتهي أمري وتذهب ريحي. وإتخذت كل ما أمكنني من الإستعداد وبدأت أتخلص بسرعة من الممتلكات التي يتعذر حملها وجمعت المقتنيات الخفيفة والصغيرة لنقلها معي ومع خدمي. إلا أن سفري صعب علي، وأورثني حزناً كبيراً. وجلست في مرسمي الصغير وحدي بعد أن قلت لتلميذي اللذين نصحاني بالرحيل- بأني أفضل أن أعيد النظر في المسألة على إنفراد وإن كنت أجد في رأيهما قدراً كبيراً من الإصابة. لو أمكنني النجاة من السجن وتركت العاصفة تمر بمرور الزمن فسأكون في موقف أحسن بكثير لأيضاح عذري للملك وإعلامه بالكتابة اليه كيف أن هذه النكاية الخبيثة كان مبعثها الحقد. وكما قلت أنفاً قررت الرحيل. وحزمت رأبي عليه. ولم أشعر وأنا أهم بذلك- إلا ويبد خفية تمسك كتفي وتديرني الى الخلف وسمعت صوتاً يقول لي مشجعاً: "بنقوتو! تصرف بالشكل الذي إعتدته ولا تخشي شيئاً". فعدلت عن رأبي حالاً وقلت لفتياني الإيطاليين:

(٤٦) القصة المشار إليها هي الحكاية الثانية لليوم الثاني من مجموعة أقاصيص كتاب (الديكامرون) للكاتب الإيطالي الشهير بوكاتشيو (٣١٣١-١٣٧٥). وملخص القصة أن بطلها التاجر رينالدو كان معتاداً تلاوة الصلاة الربية والصلاة المريمية لوالدي القديس گویانو يومياً بعد نهوضه من النوم. وقد عزا إستعادته أمواله المنهوبة من قبل اللصوص الثلاثة وقضاءه ليلة غرام مع أرملة جميلة الى هذه الصلاة. وتشبيهه چليني هنا واضح.

- تسلّحوا بخير سلاح تجدون وهيا معي. إعملوا ما أمركم به ولا تفكروا بأي شخص اخر لأنني أنوي التصدي للمسألة وخوض معركتها. فلو رحلت عنكم غداً لتشتت شملكم وذهبت ريحكم. فإعملوا بما أقول وتعالوا معي.

فأجاب الجميع بصوت واحد محرضاً بعضهم بعضاً:

- مادمننا هنا. ودمنا نعيش بفضل فعلينا أن نذهب معه ونساعده على القيام بما يراه، مادام فينا نَفْسٌ يتردد. لقد توصل الى حلّ أفضل من حلّنا. إذ ما أن يتركنا ويرحل حتى يقوم أعداؤنا بطردنا. علينا أن نفكر ملياً بالأعمال التي بدأناها هنا ويعظمتها وأهميتها ونحن أعجز الناس عن إنجازها بدقّة وسيقول أعداؤه بأنه رحل لعجزه عن إنجاز المشاريع التي بدأها.

والى جانب هذا أبدوا عدداً من الملاحظات الوجيهة تتعلق بالمسألة. وكان أول من إستنهض الهمم وبتّ الحماسه في النفوس، الفتى الروماني (ماكاروني) وتطوع عدد من الألمان والفرنسيين لمرافقتنا فكنا عشرة بمجموعنا. فإنطلقنا وأنا ثابت الجنان شديد العزم على أن لا أؤخذ حياً.

عندما مثلت أمام قضاة محكمة الجنايات وجدت كاترينا وأمها وما أن دنوت منهما حتى شاهدتهما تضاحكان المحامي وتقدمت بجراًة من القاضي الذي كان يجلس على مقعد مرتفع وراء منصة القضاء منتفخاً بديناً كبير الجرم. لما وقعت أنظاره عليّ هزّ رأسه مهدداً وقال بصوت خفيض:

- مع إن إسمك (بنقنوتو) فأنت في هذه الساعة (مالقنوتو).<sup>(٤٧)</sup>

سمعت ما قال وصحت مرة أخرى:

- قل لي لماذا إستدعيتني، وعجّل به.

فإلنتفت القاضي الى (كاترينا) وقال:

- كاترينا! حدثينا بكلّ ماجرى بينك وبين (بنقنوتو).

فأجابت إني كنت أواقعها بالطريقة التي يمارسونها في إيطاليا. فإلنتفت اليّ القاضي وقال:

- أسمع ماتقوله (كاترينا) يا بنقنوتو؟

فأجبتته بقولي:

- لو واقعتها على الطريقة الإيطالية، فإني أريد أن أرزق بولد ليس إلاً مثلما تفعلون أنتم.

فأوضح لي القاضي ماتقصده بقوله: إنها تعني غير ذلك أي إنك واقعتها بغير الشكل الذي يأتي به الأطفال. فأجبت: إذن لا بد وأنه يشير الى طريقة فرنسية لا إيطالية. مادام هو أعرف بها مني، ثم طلبتُ منها أن تكرر عباراتها ثلاث مرات ففعلت البغي الساقطة ذلك... ثلاث مرات واحدة بعد

الأخرى دون حياءٍ. ما إن إنتهت حتى صحت بأعلى صوتي:

- سيدي القاضي وأنت نائب أعظم ملك مسيحيّ. إني أطلب منك إحقاق الحقّ. فليس بخافٍ عليّ أن القانون يعاقب مرتكبي هذه الجريمة بالحرق. وهي الآن تعترف بإقدامها على هذه الفعلة فيما أصرّ أنا على أن لا شأن لي بها. وأمها الشمطاء هي الآن شريكة لها وهي لهذه الجناية وغيرها تستحق

(٤٧) يعني سيء المقدم.

الحرق أيضاً. وإنى أطالب بإنفاذ حكم العدالة.

بقيت أردد العبارة الأخير بصوت جهير مطالباً بحكم الموت على المحرقة لأُمها ولها. وقلت للقاضي إنني سأذهب الى الملك حالاً وأخبره بالظلم الذي لحقني من نائبه في محكمة الجنايات إن لم يبعث بها الى السجن بمحضر مني. وبالصخب الذي أحدثته بدأوا يخفضون أصواتهم، فرفعت صوتي أكثر من الأول وراحت العاهر الصغيرة وأمها تبكيان وصحت بالقاضي:

- احرقهما! احرقهما.

بعد ان وجد القاضي الأمور لا تسير وفق الخطة التي رسمها لطف من لهجته وأخذ يعتذر لضعف النساء وسهولة وقوعهن في الغواية. ومن هذا إستخلصت بأني فزت بمعركة عظيمة. وأسرت والدنيا لاتسعي بالخروج من المحكمة وانا اطلق عبارات التهديد. في الواقع كنت على أتم الإستعداد لأدفع خمسمائة كراون كيلا أقف في هذا الموقف. وإجتزت العاصفة وشكرت الله من كل قلبي.

إذا ماشاءت الأقدار أو قلّ سوء الطالع كما يحلو لنا أن نسمّيه- ان تضطهد إنساناً فإنها لاتفتقر الى وسائل جديدة لإعتراض سبيله. وقد حسيت أني بتغليبي على هذه المحنة العاصفة، قد سلمت من معاندة القدر لي ولو الى حين، إلا أنه وقبل أن ألتقط أنفاسي وبعد هذا الخطر الماحق، هُددت بإثنين آخرين معاً. ففي خلال ثلاثة أيام واجهت محنتين كانت كل واحدة منهما كفيلة بإيرادي حتفي.

وماحصل هو أني قصدت (فونتنبولو) للإتصال بالملك: اذ كان قد كتب لي رسالة يقول فيها إنه إختارني لعمل قوالب كل المسكوكات المتداولة في المملكة وأرفق بالرسالة بعض الرسوم التخطيطية لتهديني الى مايرغب فيه، إلا أنه أطلق لي الحرية في التصرف بالشكل الذي يحلو لي. فعلمت عدة نماذج وفقاً للجمال والأناقة اللذين يقضي بها الفن وبحسب ما تفتت عنه خيالي. وبعد أن بلغت (فونتنبولو) إبتدري (مسيو دي لافا M.de la Fa) وهو أحد أمناء خزانته الذين كلفهم بالنظر في حاجاتي قائلاً:

- فليكن معلوماً لديك يا بنقنوتو أن الرسام (بولونيا) قد فاز من الملك بعمل نصب النافورة العملاق: وأنه يسحب منك كل المهام التي أناطها بك ملكنا في السابق الخاصة بهذا المشروع وأن تودع اليه. وقد إعتبرنا هذا السلوك بعيداً عن اللياقة. ويخيل لنا أن هذا الأيطالي ابن بلدك قد أساء معاملتك كثيراً. لأن من حقك أن تستأثر بالعمل وحدك نظراً لتفوقك بتصاميمك. لم ينجح الرجل في إنتزاع العمل منك إلا بتدخل وشفاعة (مدام دي تامپ)، وها قد مضت عدة أشهر على تكليفه بالنافورة ولم تبدر إشارة منه تدل على شروعه فيه ولم يقم بأي عمل تحضيري.

فقلت وأنا مشدوه:

- كيف إنني لم أسمع شيئاً عن هذا؟

فأخبرني إن (بولونيا) قد أبقى المسألة سرّاً وانه لم ينل المهمة إلا بعد مشقة عظيمة. إذ لم يكن الملك يريد أن يعهد بها اليه، ولكنه نزل عند إلحاح (مدام دي تامپ). ولشعوري العميق بالظلم الذي حل بي بإنتزاع العمل الذي لم أنله إلا بعد الكدح والجهد، قررت أن أقوم بعمل حاسم يكون فيه فصل

الخطاب. وإنطلقت حالاً الى منزل (بولونيا) وسيفي في عاتقي. فوجدته يطالع في غرفته. دعاني الى الدخول ورحب بي بأسلوبه اللومباردي المعهود. وسألني عن الغرض من حظوته بزيارتي فقلت:

- غرض جيد جداً، ومهم جداً.

فأمر الرجل خادمه بإحضار الشراب وقال:

- فلنشرب معاً قبل أن نبحث في أي موضوع فهي العادة المتبعة في فرنسا.  
ياسيد فرانشيسكو. اعلم ان المسألة التي يجب أن نبحثها لا يمكن ان نفتتحها بالشرب وربما أمكننا ذلك فيما بعد.

ثم بدأت أحاججه قائلاً:

- ان من يطلب لنفسه الإحترام من سائر البشر عليه ان يثبت بسلوكه انه مستقيم الخلق وأهل لذلك وبخلاف ذلك فإنه يهدر سمعته ويفقد مكانته. وإني لعلى علم بأنك لا تجهل ما كان من أمر إناطة الملك بي عمل النصب العملاق - وهو كان مطروحاً على بساط البحث طوال ثمانية عشر شهراً ولم تتقدم أنت أو أحد غيرك ليضيف كلمة واحدة الى ما قيل حوله. لقد أثبت كفايتي للملك العظيم بما أنجزته من آثار وقد حازت تصاميمي رضاه فأوكل اليّ القيام بهذا العمل الجليل. ولم أسمع خلال هذه الأشهر بأن العمل قد أنيط بك وانك إختلست منه مني إلا في هذا اليوم. لقد نلت التفويض بالعمل بفضل إنجازاتي الرائعة. وإنك إنتزعت بلجوئك الى الكلام الفارغ.

فكان جواب (بولونيا) هذا قوله:

- لكن كل إنسان يجري وراء مصلحته يا بنقوتو وهو يستخدم كل الطرق المتيسرة له. فإذا كانت هذه رغبة الملك فكيف يكون بوسعك معارضتها؟ إنك تضيع وقتك. بعد أن تم كل شيء وأصبح العمل في عهدي. والآن قل لي ماتريده فأنا مصغ.

فقلت هذا: "الا فلتعلم يا فرانشيسكو بأن لدي الكثير مما يمكنني قوله. وبكثير من المنطق المعقول والنقاش سأرغمك على الإقرار بأن أساليبك التي إستخدمتها وتحدثت عنها ليست بالتي يمارسها الناس الفضلاء والعقلاء. إلا أنني سأتي الى النقطة موضوع البحث بكلمات مقتضبة: فأرهف أذنيك وأضع جيداً الى ما أقول فهو خطير.

تحرك الرجل وكأنه يريد الوقوف إذ رأى سحنتي منقلبة ووجهي مكفهراً تماماً. فقلت له إن الوقت لم يحن بعد للحركة وأن عليه أن يبقى جالساً ويصغي اليّ. ثم أردفت قائلاً:

- تعلم يا فرانشيسكو بأن العمل الأول كان قد أنيط بي. وإن الوقت قد فات على أي أحد لإثارة المسألة مجدداً وبشكل مقبول. والآن أقول لك إنني سأكون راضياً لو صنعت نموذجاً وقمت أنا بعمل نموذج جديد غير ذلك الذي عملته أولاً. وبدون أي لغط وضجة نحملهما الى الملك العظيم، فمن كان تصميمه أفضل حق له أن يتولى العمل بالنافورة. وإن قدر لك أن تفوز في المباراة، فسأزيل من ذهني أي أثر للشعور بالضرر الذي ألحقته بي وسأبارك لك في يديك وأعتبرهما أجدر من يدي بهذا المجد والشرف المؤثّل. ألا فلتتفق على هذا ولنكن أصدقاء وإلا فنحن أعداء بعضنا لبعض.

والله الذي هو الى جانب الحق دائماً وأنا الذي أعرف كيف أثبتته، سيكشف لك عن الغلطة التي إرتكبتها.

أجاب فرانشسكو:

- العمل في عهدي. ومادمت قد كُلفت به فليس في نيتي المخاطرة بما أملكه.  
قلت:

- أي فرانشسكو. إنك تحيد عن الطريق السليمة؛ الطريقة العادلة والمعقولة ومادمت كذلك فياني سأريك الطريق الأخرى وهي مثل طريقك قبيحة وكريهة، فأصغ لِقولي هذا. إن سمعتك تتلفظ بكلمة واحدة بشأن عملي هذا الذي ظفرت به فسأقتلك دون تردد كأني أقتل كلباً. إننا لسنا الآن لا في بولونيا ولا روما ولا فلورنسا- وحياتهم هنا تختلف- إن سمعت بأنك تكلمت مع الملك أو أي شخص آخر حول هذا الموضوع فسأنزع عنك روحك عنك بوسيلة ما أو بأخرى. فلتقرر أيّاً من السبيلين تسلك: السبيل الصائبة الأولى التي إقترحتها أم السبيل الثانية التي تقدمت بها الآن؟  
حار الرجل فيما يقول أو يعمل، وملت الى أن أنفذ ما صممت عليه في تلك اللحظة لا إرجاءه وترك الوقت يمرّ ويضيع مني. وكان كلّ ما إستطاع فرانشسكو قوله هو:  
- إن كان تصرفي قميناً بالرجل المستقيم فلن أخشى شيئاً في هذه الدنيا.  
فقلت:

- بالحق نطقت. ولكن لو فعلت العكس فهناك كلّ مبرر لخوفك، لأن القضية خطيرة.  
ثم إنصرف فوراً وتوجهت لرؤية الملك ومكثت عنده طويلاً نتبادل الرأي حول مسكوكاته ولم نتوصل الى إتفاق كامل حولها. وقد أقنعه مجلس شورا الذي كان مجتمعاً عنده بأن النقود يجب ان تُسكّ على الطريقة الفرنسية مثلما كانت حتى هذا الوقت. وكان ردّي أن جلالته إستقدمني من إيطاليا لأنجز له عملاً طيباً. فإن شاء جلالته أن أعمل العكس فإن قلبي لا يطاوعني عليه. ثم أرجيء البحث في القضية الى وقت آخر. وقفلت راجعاً الى باريس دون وقفة.  
ما إن ترجلت حتى سعى اليّ أحد أولئك الخدم الذين يبحثون عن الشرّ ليقول لي إن (پاگولو ميجيري) قد إستأجر منزلاً للعاهرة (كاترينا) وأمها وإنه دائم التردد إليهما وإنه كان يردد كلما تكلم عني قوله ساخراً متهكماً:

- وضع (بنفنونو) الوزة لحراسة الخسّ ظاناً أنني لن آكله: وهو الآن قانع بالتفاخر في كلّ مكان بما عمله ظاناً بأنني أخشاه. ولكن ها هنا سيفي وخنجيري في خصري يثبتان له أنهما ماضيا الحدّ أيضاً. وإني فلورنسي مثله ومن أسرة (ميجيري) التي تعلو أسرة (جليليني) شرفاً ومحتداً.  
ان الوغد الذي حمل اليّ هذه القصة أدلى بها بشكل جعل الدم يغلي في عروقي وركبنتي الحمى (وأنا أستخدم كلمة الحمى بمعناها الحقيقي). إن الثورة العصبية العنيفة كفييلة بإيرادي حتفي إن لم أطلع على الحافز وأجد الدواء في التنفيس عنها ما تيسر لي ذلك. أمرت العالم الفراري (كيوجيا) الذي يشتغل عندي أن يرافقتي وتبعني خادم يقود جوادي ولما بلغت منزل هذا السافل وجدت الباب

موارباً، فدخلت عليه وكان مسلحاً بسيفه وخنجره جالساً فوق صندوق وذراعاه تطوقان عنق (كاترينا). وسمعته وأنا داخل يمازح أمها حولي. فإقتحمت الباب وأشهرت سيفي وسددت ذبابته الى خنجرته من غير أن أدع له وقتاً ليتذكر بأنه يملك سيفاً أيضاً. وصحت به:

- صلّ صلاتك يا أحقر الجبناء فأنت في عداد الموتى.

بقي مسمراً في مجلسه وصرخ عدّة مرات:

- أمي العزيزة. عونك!

كنت عازماً على قتله مهما كانت النتائج. ولكن نصف غضبي تلاشى عندما سمعت إستغاثته المخنثة. في عين الوقت أمرت (كيوجيا) أن يحول دون خروج البنت وأمها من الدار. إذ كنت قد قررت عندما قصدته أن ألحق الأذى بالبعيتين الحقيرتين بقدر ما ألحق به من أذى. ولذا أبقيت ذباية سيفي لاصقة بخنجرته (أنخسه بها نخسات خفيفة بين آن وآخر) وأنا أهده وأتوعده. ثم عندما وجدته مستكيناً لا يأتي بأقل مجهود مستسلماً لا تبدر منه مقاومة حرت في أمره ولم أدر ما أصنع به. وبدا وكأنني سأظل أتهدد وأتوعد الى ما لا نهاية. ثم خطر لي خاطر فجائي وهو أن أحملهما على الزواج كأهون الشرين ولكيما أنال ثأري فيما بعد. فقررت ذلك وقلت:

- إخلع هذا الخاتم من إصبعك أيها الجبان الرعديد وتزوجها وبهذا سأصيب إنتقامي بالشكل الذي تستحق.

فأجاب في الحال:

- إعمل ماتريد شرط ألا تقتلني.

فأمرته بوضع الخاتم في إصبعها. ونحيت سيفي قليلاً عن عنقه. ففعل ذلك ثم قلت:

- ليس هذا بكاف. أريد إثنين من مسجلي العقود حتى يتم ذلك بعقد صحيح.

ثم أمرت (كيوجيا) أن يذهب لإستعداد إثنين من مسجلي العقود ثم إستدرت الى الأم و البنت ووجهت كلامي لهما بالفرنسية:

- لن يلبث أن يأتي مسجلا العقود والشهود. وسأفتك دون تردد بأول واحدة منكما تنطق بكلمة بخصوص ما وقع واتبع الباقيين بها. فلا تنسيا ذلك.

وقلت لـ(پاگولو) بالأيطالية:

- إن أبديت أيّ إعتراض على ماقررتة فكلمة واحدة منك ستؤدي الى طعنات متتالية تمزق أحشاءك.

فقال:

- كلّ ما أرجوه منك هو أن لا تقتلني وسأفعل ماتريد.<sup>(٤٨)</sup>

وأقبل مسجلا العقود وتم تنظيم عقدٍ دقيقٍ محكم الصيغة وبعدها زايلتني الحمى وإنفثاً غضبي. ودفعت أجر المسجلين ثم عدت الى داري.

(٤٨) في ذلك الزمن كان يشترط لصحة هذه الزيجة المدنية مراسيم دينية مخصوصة لا تتم إلا بحضور كاهن. إلا إذا كان مسجل العقود الذي جاء به چليني كاهناً كاثوليكياً.

في اليوم التالي جاء (بولونيا) الى باريس خصيصاً ليعبث اليّ بـ(ماتيو دل نازارو) وسيطاً، فذهبت لزيارته فقابلني بوجهه باشّ ورجا مني أن أنظر إليه كصديق وأخ عزيز، وقال إنه لن يتفوه بكلمة واحدة حول العمل مرة أخرى. ولإدراكه بأنني على حق. (٤٩) لولا ماجيلت عليه من الصراحة في الإقرار بأخطائي وركوب متن الشطط في بعض المواقف. فإن القاريء قد يداخله الشك في صحة أقوالي عند روايتي لتصرفاتي الحسنة وبناء على هذا لايسعني إلا الإقرار بالخطأ الشنيع الذي إرتكبته بحقّ (پاگولو ميچيري) بإنتقامي هذا. ولو دريت انه على هذا القدر من الجبن وخور النفس لما فكرت قطّ في إلباسه ثوب العار بهذا الشكل اللإنساني. فلم يكفني إكراهه على الزواج بهذه العاهرة الوضيعة، بل جعلتها تقف فيما بعد أمامي عارية كنموذج لقاء أجرة يومية قدرها ثلاثون صولدياً كيما أبلغ ذروة إنتقامي. كنت أدفع لها مقدماً حسب طلبها ثم تطلب وجبة غداء جيدة ويعدها أقوم بإفتراشها إنتقاماً وأنا أسخر بها وبزوجها للقرون العديدة التي أركبها له. والشيء الرابع الذي كنت أسخرها له هو حملها على إتخاذ أوضاع شاقة ساعات بطولها. وكان هذا يرهقها الى حدّ الإنزعاج الشديد بقدر ماكان يسرّني. فقد كانت رائعة التكوين وأفادتني فائدة عظيمة في فنّي.

ولما وجدت إنني لا أعاملها بالرعاية التي تعودتها مني قبلاً. ثار غضبها وبدأت تتكبر وتفخر بالطريقة الفرنسية بزوجها قائلة أنه رجل من حاشية حاكم كاپوا Capua (بييرو ستروزي) (٥٠) وإنه إنتظم في خدمته. وكما ذكرت راحت تتحدث عن زوجها وما أن سمعت ذكره حتى كدت أختنق غيظاً. إلا أنني ضببت نفسي بجهد كبير. فقد كان يصعب عليّ العثور على نموذج أنسب لعملي منها. وقلت لنفسني " أني أنال نوعين من الإنتقام بهذا الشكل: الأول إنها متزوجة وهذه القرون هي قرون حقيقية وليست مثل قرونها عندما كانت بغيّاً لي. ولهذا فأني أصيب ثأراً ممتازاً منه وإنتقاماً عظيماً منها يجعلها تتخذ هذه الوقفات والأوضاع المتعبة التي تكسبني سمعة وريحاً فماذا أريد أكثر من هذا؟" وفيم أنا أقلب الأمور وأزنها بهذا الشكل ضاعفت الحقيرة اهاناتها الى جانب مفاخرتها بزوجها وأدت أقوالها الى تفجير كوامن حقيقي وأسلمتني الى حالة من الجنون فأمسكت بها من شعرها وجررتها جراً فوق أرضية الغرفة وأنا أوسعها ضرباً وركلاً حتى خارت قواي ولم يكن ثمّ أحد ليخفّ الى إنقاذها. وبعد أن نالها مانالها حلقت بأنها لن تأتي بعد الآن. فأدركت لأول مرة الخطأ الذي وقعت فيه لأنني سأفقد بها فرصة عظيمة للشهرة. كما أدركت الى جانب هذا أنها أصابت مني بما غطى جسمها بالرضوض والكدمات، فلو عادت فلن تكون ذات فائدة لي لمدة لاتقل عن أسبوعين.

أرسلت خادمة عجوزاً إسمها (روپرتا) لمعالجتها وتمريضها وإلباسها ثيابها وكانت امرأة عطوفة رقيقة القلب فجاءت بطعام وشراب لها ودهنت جراحها البالغة بشحم الخنزير وتناولت طعامها معها. وأتيتا على ماتبقى من الشحم. ثم إرتدت ثيابها وخرجت وهي تلعن كلّ الأيطاليين والملك الذي

(٤٩) يبدو إن (پريماجيو) فاز بالعمل أخيراً وربما كان ذلك بعد رحيل چليني.

(٥٠) هو ليوني ستروزي كان قائداً عسكرياً مثل أخيه (بييرو) وخدم في قوات فرنسا وقُتل في حرب سيبينا (١٥٥٤).

وكاڤوا بلدة تقع على بعد (٣٥) كيلومتراً شمال ناپولي.

يأويهم وقصدت منزلها وهي تبكي وتتمتم طول الطريق، في الواقع كانت هذه المرة الأولى التي وجدت نفسي أرتكب فيها غلظة شنيعة. وراحت خادمتي (روپرتا) تعنفني أيضاً بقولها: - ما أقساک إذ تعامل هذه الفتاة الجميلة بهذه الفظاظة.

حاولت إختلاق الأعذار لنفسی، فقصصت علی (روپرتا) حکایة غدر (کاترینا) وسفالة أمها وكيف عاملتاني أثناء سکنهما عندي. إلا أنها أصرت علی لومي قائلة إن ما تظلمت منه لاشيء إذ هي عادة جرى علیها الفرنسيون. وإنها تعلم عن يقين بأنه ليس في فرنسا زوج واحد إلا ومعه زوج قرونه. فقهرقتها ضاحكاً لقولها ثم طلبت منها أن تذهب وتعود (کاترینا) لأنني أود أن يكون في وسعي إستخدامها لإكمال عملي. فعنفنتني (روپرتا) بقولها إنني لا أعرف شيئاً عن الحياة، إذ ما أن تبدو تباشير الصبح حتى أرى (کاترینا) قادمة بمحض إختيارها. وإن أرسلت مستفسراً عن حالها أو ذهبت لزيارتها فسوف تترفع وتتمنع ولن تأتي مطلقاً.

في اليوم التالي وجدت (کاترینا) بالباب وهي تطرقه طرقات عنيفة وكنت بالطابق الأرضي فهرعت وخيل لي أنه فعل مجنون، أو أحد يسكن في المنزل. ولما فتحتة قابلتني المسکينة بضحكة وألقت بنفسها عليّ وطوقت عنقي وراحت تقبلني وتضمنني اليها متسائلة عما إذا كنت غاضباً منها؟ فقلت كلا. فقالت: إذن فقدم لي فطوراً جيداً. فوضعت أمامها طعاماً وشاركتها فيه كدليل علی المصالحة. ثم قامت وإتخذت الوضع الذي أشرت به وبأشرت عملي. وبعد ذلك أخذتها الي الفراش فراحت تناكدني وتشيرني كما فعلت قبلاً وفي نفس الساعة فضربتها قليلاً وتكرر ذلك عدة أيام علی نفس الحالة والوتيرة بتغيير طفيف.

في تلك الأثناء فرغت من تمثالي بصورة مرضية وتهيات لصبي بالبرونز فواجهت بعض الصعوبات سأخطاها ولو ان شرحها قد يكون علی درجة كبيرة من الفائدة من الناحية الفنية. لأن ذلك سيأخذ مني وقتاً طويلاً. وسأكتفي بالقول ان القالب كان ممتازاً جداً والسبب جرى بدقة ونجاح تام.

وفي أثناء إنشغالي بهذا العمل خصصت ساعات معينة من النهار لأشتغل في (المملحة) وساعات أخرى للعمل في (جويتر). ولما كان عدد الرجال الذين عهدت إليهم بالعمل في المملحة أكثر من أولئك الذين أرسدتهم للعمل في (جويتر)، فقد حققت إكمالها الي اخر تفاصيلها. وكان الملك قد عاد الي باريس فقصدته ومعني (المملحة) وكنت قد ذكرت أنها بيضوية الشكل إرتفاعها حوالي ثلثي قدم وكلها من الذهب الخالص وقد إشتغلنتها بطريقة الحفر. وكانت كما بينت تمثل البر والبحر يجلسان متقابلين متقاطعي الأرجل ويد البحر ممتدة داخله في البر والبحر يدخل في البر وكان منظرهما آية في الجمال. وضعت في يد البحر اليسرى حربة ذات شعب ثلاث وجعلت يده اليمنى مستقرّة علی سفينة مرتفعة أكثر من نقشها وزخرفتها وهي مجوفة ليوضع فيها الملح. وتحتته صوّرت جواده البحرية الأربعة وهي تشبه الخيول المعروفة من رأسها حتى صدرها. ومن سيقانها حتى حوافرها الأمامية. أما أواسطها وأجزاؤها الخلفية الأخرى فهي تشبه أبدان الأسماك، أما ذيولها فقد ألويتها بشكل جذاب

للغاية وأجلست البحر فوقها جلسة فيها كبرياء وعظمة تحيط به أنواع لأسماك وحيوانات البحر. ومثلت الماء بأمواج مكفتة بالمينا الزرقاء مقلداً لون الماء بشكل أخاذ. وأما البر فقد مثلته بإمرأة جميلة للغاية ووضعت في يدها اليمنى (كورنوكوپيا) وكانت عارية كزميلها البحر. ووضعت يدها اليسرى فوق معبد أيوني صغير دقيق الحفر والزخرفة وهو مجوف لوضع الفلفل. وتحت المرأة صورت نخبة من أجمل حيوانات البرّ وظليت بالمينا جانباً من الصخور وتركت الباقي ذهباً مجرداً. وثبتت المملحة على قاعدة من الأبنوس الأسود بالحجم المناسب وأحطتها بحاشية رفيعة مزدانة بأربعة تماثيل ذهبية بنصف بروز تمثل الليل والنهار والفجر والغسق. وبأربعة تماثيل أخرى تمثل الرياح الأربع الرئيسة وظليت بعض الجوانب بالمينا، بدقة لا مزيد عليها.<sup>(٥١)</sup>

عندما وضعت القطعة أمامه، خرجت من فمه صرخة إعجاب ولم يستطع تحويل نظره عنها. ثم طلب مني أن أعيدها الى منزلي وسيخبرني في الوقت المناسب ما يقرر بشأنها. ففعلت ما أمرني ودعوت عدداً من أصدقائي الخُلص لمأدبة عشاء قضيناها في مرح وأنس. ووضعت المملحة في وسط المائدة وكنا بذلك أول من يستعملها. ثم إنني وجهت إهتماماً الى (جوپتر) الفضّيّ والطست الكبير الذي تقدم ذكره وكان العمل فيه شاقاً لكثرة ما حشدت فيه من زخرف ونقوش.

أفلح (بولونيا) الرسام في إقناع الملك بإرساله في بعثة الى روما مع رسائل توصية ليستنسج له نماذج جيسية بالحجم الطبيعي لأشهر المنحوتات والتماثيل الفنية الأثرية مثل تمثال كليوباترا، و(لاوكون Laocoon) و(فينس) و(كومودس Commodus) و(زنگارا) و(أبولو). وهي في الواقع أجمل وأنفس المنحوتات في روما. وقال (بولونيا) للملك ما أن يشاهد جلالته هذه الآيات المعجزة في عالم الفن حتى يكون قادراً على تكوين رأيه الخاص في فن التصميم والنحت. لأن ما شاهدته من آثار الفنانين المعاصرين لأيداني بالدقة والإبداع تلك التماثيل الأثرية. وزوّده الملك برسائل التوصية بكلّ رغبة فرحل الحيوان<sup>(٥٢)</sup> على بركة إبليس. كان أعجز من أن ينافسني بتصميم من بنات أفكاره وإحراز قصب السبق عليّ. فعمد الى هذه الحيلة اللومباردية المعهودة. وهي الإنتقاص من أعمالها بمضاهاتها بالتماثيل الأثرية المستنسخة. ومع إنه أتقن عمله إلا أن أنه خاب في إحداث الأثر الذي قصده وإرتدّ عليه، فكانت النتيجة عكس ما أمل. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه المناسب.

قطعت صلتي بالعاهر (كاترينا). وإختفى زوجها الفتى البائس من باريس. ولما كنت أهمّ بعمل نموذج مجسم لنافورة (فونتنبولو) الذي صيبت به بالبرونز. وإكمال تمثاليّ (فكتور) اللذين سيدخلان في أسفل العقادة نصف الدائرية للباب، فقد إتخذت لي نموذجاً آخر وهو فتاة فقيرة في الخامسة عشرة من العمر بديعة الجسم كستنائية الشعر تشبه الحيوان البرّي غير المدجّن بحركاتها السريعة ونظراتها الكسيرة وفمها المطبق الساكت. لذلك أطلقت عليها إسم (سكورزونى)<sup>(٥٣)</sup> أما إسمها الأصلي فهو

(٥١) تلك واحدة من أشهر آثار چليني الباقية. وهي الآن في متحف فيينا. كانت قد أهديت لأرشيدوق النمسا فرديناند

ويقيت في قلعته (إمپراس) في التيرول. وإشترها بعد وفاته الإمبراطور رودولف الثاني.

(٥٢) ساعده في عملية الإستنساخ الفنان فينيولا Vignola. وبعض هذه النسخ موجود في متحف اللوفر.

(٥٣) Scorzone بالإيطالية معناها الأفعى الصغيرة (الصل).

(جان). وأنهيت نموذجي لباب (فونتنبولو) مع الثكثورين بكل نجاح بفضل إتخاذي إياها نموذجاً. وكانت عذراء باكراً وحملت مني وولدت طفلة في الساعة الثالثة عشرة من السابع من حزيران (١٥٤٤) وكنت إذذاك في الرابعة والأربعين. فأطلقت على المولودة إسم (كوستانزا) ورفعها الأستاذ (گويدو گويدي) طبيب الملك وصديقي فوق جرن العماد، فكان أبا عمادها الوحيد إذ جرت العادة في فرنسا أن لا يكون للطفل أكثر من أب عماد واحد والدة عماد. فإتخذت لذلك السيدة (مادلينا) زوج الأستاذ (لويجي ألأماني) النبيل الفلورنسي والشاعر الفحل مع زوج السيد (رودريگو دل بيني) أحد مواطنينا الفلورنسيين ومن تجار باريس الأغنياء، وهي سيدة فرنسية جلييلة القدر وهو أول مولود من صليبي على ما أتذكر. وقد أوقفت عليها بائنة بالمقدار الذي إقترحتة خالة الطفلة واليها عهدت بتربيتها والعناية بها. وبعد هذا إنقطعت لي أية علاقة بها.

إنكيتت على عملي وتقدمت فيه كثيراً، وشارفت على إكمال (جويتر)، كذلك فرغت من (الطست) وبدأت تقاسيم باب (فونتنبولو) تظهر للعيان. وفي أثناء ذلك عاد الملك الى باريس.

أوردت تفاصيل ميلاد طفلتي الذي وقع في العام ١٥٤٤. إلا أن الزمن الذي أروي حوادثه الآن كان العام ١٥٤٣. وقد حشرت موضع الطفلة هنا عمداً، لئلا أقطع شجون حديثي عن الأمور التي تفوقها أهمية. ولن أذكر إبتني بعد هذا إلا في الموضع المناسب. قلت عاد الملك الى باريس وخفّ لزيارتي قبل أن يستقر به المقام، فوجدني قد قطعت أشواطاً بعيدة في أعمالتي. وكان منظرها وهي منتصبة في المصنع مما يبهر العين ويسرّها. وطرت فرحاً للإرتياح الذي بدا في أسارير الملك وغمرتني السعادة. أنا الذي تحملت كل المشاق للوصول الى هذه النتيجة. ومن دون تنويه مني تذكر جلالته فجأة أن كريدنال (فرارا) لم يولني إهتماماً ولم يدفع لي الراتب المقرر لي أو أي شيء مما وعدني به، فإلتفت جلالته الى الأميرال مرافقه وصار يتحدث إليه همساً معرضاً بتصرف الكريدنال ازايني. وكيف أهملني ولم يدفع لي شيئاً وأردف يقول انه سيتدارك الأمر بنفسه. بعد قلة شكواي وسكوتي الذي قد ينتهي برحيلي دون كلمة واحدة، مخلقاً كل أعمالتي ورائتي.

عاد جلالته الى مقره ويعد أن تغدّى، طلب من الكريدنال أن يصدر نيابة عنه أمراً الى مدير الخزانة الملكية بدفع سبعة آلاف كراون ذهبي لي على جناح السرعة، بثلاثة أقساط أو أربعة حسب الظروف وأوصاه بأن لا ينسى هذا وأضاف يقول:

- عهدت إليك بـ(بنقنوتو) لكنك نسيتته.

وأجاب الكريدنال أنه سينفذ كل رغبات جلالته بغاية السرور.

إلا أن الطبع الخبيث الذي جُبل به جعله ينسى الموضوع وفي تلك الفترة ساء الموقف الحربي؛ وزحف الإمبراطور بجيش جرّار نحو باريس. وكان الكريدنال مدرّكاً بأن فرنسا هي في ضائقة مالية. في ذات يوم دار الحديث بينه وبين الملك حولي فقال:

- وجدت يا صاحب الجلالة الأقدس من الأفضل أن لا يدفع شيء من المال لبنقنوتو. فنحن من جهة في أمس الحاجة الى النقد، ومن جهة ثانية رأيت أنه مبلغ إن دفع فقد يؤول الى خسارة بنقنوتو فوراً.

إذ ما أن يجد نفسه عامر الجيب حتى يعمد الى إبتياح عقار له في إيطاليا ويميل به الهوى ذات يوم فيترك غير عابيء أو مبالٍ، لذلك هداني التفكير الى خير ما يمكن أن يقدم عليه جلالتك من تدبير في هذا الشأن. وهو أن تهبه عقاراً داخل حدود مملكتك إن شئت أن تبقيه في خدمتك. وأيد الملك هذا المنطق لأنه كان معسراً ليس إلا. لكنه أدرك وهو ذو العقل الراجح الجدير بمثل هذا الملك العظيم إن غرض الكردينال من هذه النصيحة هو طمعه بالحظوة عنده أكثر من ضرورة الأخذ بنظر الإعتبار حاجة هذه المملكة العظيمة الى المال.

ومع أن الملك بدا وكأنه مقتنع بحجة الكردينال كما أسلفت، فقد قرر في سره أن لا يعمل بها، وما حصل فعلاً هو أنه عاد الى باريس كما ذكرتُ وبادر في اليوم التالي لوصوله الى زيارتي من تلقاء نفسه دون أن أتصل به.

إستقبلته وأخذته الى مختلف القاعات وقد حفلت بالعديد من الأشغال المنجزة وهي بهيئة العرض. بدأت أقدم الأشغال الفرعية وعرضت عليه أعمالاً عديدة برونزية تزيد كثيراً عما شاهدته قبلاً ثم أخذته الى تمثال جويتر الفضي وكدت أفرغ منه - بكل نقوشه البديعة. فحكم عليه بأنه أروع وأفخم من أن يفیه حقّه حكم أي شخص. وقولته هذه لها علاقة بحادثة مزعجة جداً وقعت له قبل بضعة سنوات.

ففي وقتها أي بعد إحتلال الإمبراطور (تونس) (٥٤)، كان قد زار باريس لسبق دعوة من صهره الملك (فرنسا)، ورغب هذا في أن يقدم له هدية لاثقة بإمبراطورٍ عظيم مثله. فأمر بصنع تمثال فضي يمثل (هرقل) بعين الحجم الذي إتخذته أنا لجويتر. لكنه جاء بإعتراف الملك نفسه على أقيح ما وقعت عليه العين ولم يكن رأييه فيه عن أرباب الصنعة الباريسيين، الذين إدعوا بأنهم أساتذة الفن من غير منافس في العالم وأوهموا الملك بأن ما أنجزوه هو أفضل ما يمكن إنجازه بمعدن الفضة وتقاضوا منه لقاء عملهم الخائب ألفين من الدوقيات، لذلك وجد الملك أن ما خرج من يدي عمل يكاد لا يُصدق من فرط جماله ودقته وقد أنصفتني والحق يقال في الحكم عليه حين قوم جويتر هذا بألفي دوقية ايضاً. ثم عقب قائلاً:

- لم أدفع لهم مرتباً. وقد صرفتُ لهذا الرجل حوالي ألف كراون سنوياً. فاذا أدخلنا هذا المبلغ في الحساب. فأظن أن هذا العمل يسوي ألفين من الدوقيات.

ثم صحبتته الى قطعة أخرى صنعتها من الذهب والفضة، وانتقلت به الى عدد كبير من النماذج لمشاريع جديدة. وإقتدته قبل مغادرته الى عملاق ضخم ينتصب في مرج القلعة. فزاد عجباً وإلتفت الى الأميرال المرافق ويدعى "مونسنيور أنيباللا Monsignor Aniballa" قائلاً:

- الكردينال لم يدفع له شيئاً، وهو بطيء في الظهور وجلب الإنتباه لنفسه لذلك عزمت على تزويده

(٥٤) كان الدافع الذي حمل الإمبراطور (شارل الخامس) على غزو تونس، هو تزايد غارات العمارة البحرية العثمانية بقيادة خيرالدين بن بربروسه (أي خيرالدين ذا اللحية الحمراء) وبمساندة القراصنة الذين إتخذوا من تونس منطلقاً. بغارات على سواحل إيطاليا وجزرها وتهديد أملاك الإمبراطور. وقد بلغت تلك الغارات حداً مكّن العثمانيين من إحتلال جزيرة كاپري الشهيرة في العام ١٥٣٥ وهي على بعد ثلاثة أميال من مدينة نابلي فحسب.

بكل ما يحتاجه. هؤلاء الناس لم يتعودوا المطالبة لإعتقادهم بأن مجهوداتهم هي التي تطالب عنهم وبالكثير. أعطوه أول ديرٍ يخلو من شاغلٍ على أن لا يقلَّ إيراده السنويَّ عن ألفين من الكراونات. وإن لم يوجد دير له مثل هذا الإيراد فليتنقاضَ عين المبلغ من ديرين أو ثلاثة فالنتيجة واحدة بالنسبة إليه.

كنت قريباً وسمعت كلَّ شيء. فأسرعت أشكر الملك وكأني تسلمت المنحة فعلاً وأردفت: إنني سأظل قائماً على خدمته حتى اليوم الذي تكلَّ فيه يدي عن العمل ومن دون أجرٍ أو عطاءٍ آخر وبأي شكلٍ من الأشكال وإذ ذاك سيكون بمقدوري قضاء بقية عمري في دعة وسلام وعيش مشرفٍ على الدخل الذي يأتييني من هبته هذه. متذكراً دائماً حظوتي بخدمة ملك عظيم كجلالته.

إبتسم الملك إثر قلبي مشجعاً وقال:

- هكذا فليكن.

وتركني وهو على أتم الرضى عني.

لما بلغ (مدام ديتامپ) ما أصبته من حظوة تضاعف حقدتها عليَّ وقالت:

- ها أنا اليوم والدنيا ملك يميني، ودونك رجلاً خامل الشأن يستخفُّ بي ويتحداني!

ومضت الى أبعد حدٍّ في إصرارها على إيذائي والإضرار بي. وأسعدتها الظروف بخبير في تقطير العطور ركب لها بعض العطور السائلة الممتازة مما لم يكن معروفاً في فرنسا. وقدمته للملك ليعرض عليه عطوره التي حازت رضاه، وإستغلت حالة الإنشراح فيه وحضت عطارها هذا على الطلب من جلالته ساحة لعب (التنس) في حديقتي مع بعض الغرف الصغيرة المجاورة للساحة زاعماً أنني لا أشغلها. وأدرك الملك ما وراء الأكمة فرفض طلبه، وعندها إنبرت مدام (ديتامپ) لإقناعه مستخدمة تلك الفنون المعهودة التي تمارسها النساء على الرجال وأصابته مبتغاهما بسهولة حين وجدت الملك في حالة من حالات الهيام التي كثيراً ما كانت تنتابه. وحققت ما إنتوته.

جاءني هذا الرجل بصحبة گروليبيه Grolier أمين الخزانة وهو من كبار النبلاء الفرنسيين وإبتدرني مداعباً مازحاً حال وصوله مستخدماً اللغة الإيطالية التي كان يجيدها إجادة تامة حتى وجد المناسبة، فقال:

- نيابة عن الملك، إنني أضع يد هذا الرجل على ساحة التنس والغرف الملحقة بها.

فأجبتته بقولي:

- ملكنا الأقدس هو مصدر كلِّ شيء. ولذلك كنت تملك ملء الحرية في دخول الساحة على أن إتخاذ إجراءات عن طريق الكتّاب العدول وموظفي القضاء أمور تبدو وكأنها محاولة نصب وإحتيال أكثر مما تبدو أمراً صادراً من ملك عظيم. لذا فلتكن على يقين بأنني مصمم على حماية نفسي بالطريقة التي دلّني عليها الملك يوم أمس قبل أن أراجع جلالته. فإن لم تبرز لي أمراً خطياً صادراً من يد الملك فسأقذفُ برجلك هذا الذي جئت به من النافذة.

بعد أن وعى أمين الخزانة قلبي نكص على عقبيه عائداً من حيث أتى وهو يهدد ويتوعّد وتركني

مثله أحرق الإرم. ولم يكن قصدي القيام بأي عمل لإزاحة هذا الدخيل مبدئياً بل قصدت مسجلي العقود الذين أصدروا قرار وضع اليد وصك التمليك وكنت جيد الصلة بهم، فأكدوا لي أن الإجراءات قانونية وصحيحة فعلاً وأنها تمت بناءً على أوامر صادرة من الملك إلا أن ذلك ليس مهماً. ولو أنني تظاهرت ببعض معارضة وأبدت مقاومة لما استطاع الرجل وضع يده على العقار كما فعل وشاء فهذه إجراءات وأعراف قضائية تتعلق بالمحاكم ولا تتعلق بأي وجه من الوجوه بشأن إطاعة الملك أو عصيانه. فإن أفلحت في رفع يد هذا الرجل بعين الطريقة التي إتبعها هو في وضع اليد على العقار فنعم العمل عملي ولن أضرار قط.

كان في هذه الإشارة الكفاية وشرعت في اليوم التالي باستخدام أسلحتي ووجدت في ذلك نوعاً من التسلية والمهارة رغم ما إقتضاني من مشقة وجهد. كنت صباح كل يوم أبدأ بشن هجومي فجائي بالحجارة والرماح والبنديقيات فأطلق باروداً خلباً من غير حشوة رصاصة، وأحدث عملي خوفاً عظيماً بحيث أحجم الجميع عن المبادرة الى مساعدة الرجل. وإخترت يوماً بعد أن زابلتها القدرة على الصمود فإقتحمت عليه المسكن وقذفت به الى الشارع وأتبعته بأثائه. ثم راجعت الملك وأعلمته أنني قمت بتطبيق النصيحة التي أسداها إلي جلالته في الدفاع عن نفسي، بمواجهة أولئك الذين أرادوا أن يحولوا بيني وبين خدمته فإنفجر الملك ضاحكاً ثم أصدر أمراً جديداً يضمن حمايتي من أي تحرش آخر.

وركزت همتي في إكمال تمثال (جويتر) الفضي الجميل مع قاعدته المذهبة وكنت قد أقمته على ركيزة خشبية لا يبدو منها إلا جزء صغير تستند الى أربع كرات خشبية صلبة صغيرة يغيب أكثر من نصفها في محاجر كما تغيب البندقة في مرمى القوس الثقيل. وقد جعلتها بشكل يسهل معه على الطفل الصغير دفع التمثال الى الأمام أو الخلف أو إدارته من غير بذل أقل مجهود. بعد أن سويت كل شيء طبق ما رسمت حملت جويتر الى (فونتنبلو) حيث يقيم الملك.

في حينه كان (بولونيا) قد عاد من روما ومعه التماثيل المستنسخة التي نوهت بها وبلغني أنه تكيد عناءً ولقي مصاعب جمّة في عملية صيها بالبرونز. لم أعلم بذلك في مبدء الأمر لأنه أحاط عمله بسرية تامة. وكذلك لأن (فونتنبلو) كانت تبعد عن باريس بما يزيد عن أربعين ميلاً.

وهكذا بقيت أجهل الناس بالحكاية. ولما طلبت من الملك تخصيص موضع لجويتر، قالت (مدام ديتامپ) وكانت حاضرة، ليس ثم موضع أفضل وأنسب له من سراقه الجميل وهو ما ندعوه في (توسكانيا) بالوجيا Loggia أو بتعبير أدق بالرواق. لأن كلمة لوجيا تطلق على القاعة المفتوحة من أحد الجوانب.

كان طول هذه القاعة نحواً من مائة خطوة، حشد فيها كثير من النفاثس وكسيت جدرانها بلوحات من إبداع رسامنا الفلورنسي العبقري روسو Rosso<sup>(٥٥)</sup> وإجتمع تحت تلك الرسوم عدد كبير من

(٥٥) جيوفاني باتستادي اياكوبو دي روسي Giovanni Batista di Iacopo de Rossi (١٤٩٤-١٥٤٠) رسام إيطالي من مواليد فلورنسا أناط به فرنسوا الأول زخرقة قصره (شاتو فوتنبلو).

المنحوتات بعضها كاملٌ وبعضها بالنحت البارز. وكان عرض القاعة نحواً من عشرين خطوة. أقبل (بولونيا) بكل قطعته الأثرية وقد صبت بمعدن البرونز صباً متقناً. وقام بترتيبها ترتيباً أحاذاً بارعاً كل قطعة منها تستوي فوق قاعدة. وكما سبق فقلت كانت نسخاً لأروع ما أبدعه الفن منقولاً عن التحف الأصلية في روما. وجوبهتُ بهذا المنظر الرائع الذي تمّ تنسيقه بكل مهارة عندما جئتُ بجويتري ولم أملك من القول لنفسي:

- إنها معركة حقيقية، فعونك يارب.

إخترتُ أفضل موضعٍ ممكن. ورحت أنتظر مقدم الملك.

كنت قد وضعت في يد جويتري اليمنى "شعاع صاعقة" بشكل يبدو وكأنه يهيم بقذفها. ووضعت في يده اليسرى كرة. وبين ألسنة النار في الصاعقة دسست فتيلة مشبعة بالشمع بيضاء، وأحكمت إخفاها عن العين.

نجحت (مدام ديتامپ) في إلهاء الملك وإشغاله حتى الليل وفي نيتها أن تضمن لي أحد مصيرين: إما أن لا يأتي الملك أبداً. وإما أن يخفي ظلام الليل مزايا عملي الفنية.

لكن لما كان الله يجزي أولئك الذين يضعون فيه رجاءهم خير جزاء، فقد جاءت النتيجة خلاف ما بيّنت لي. لأنني قمتُ عند حلول الظلام بإشعال الفتيلة المختفية في صاعقة جويتري ولما رفعتها قليلاً فوق رأس التمثال وسقط نورها من الأعلى عليه بدا الجمال في التمثال يفوق ما يبدو وهو في وضوح النهار. ثم دخل الملك يرافقه كل من (مدام ديتامپ) والدوفان نجله (وهو اليوم ملك فرنسا). والدوفينه، وملك الناغار زوج شقيقته، ومدام (مرگریت) شقيقته، وعدد من السادة العظام الذين أوصتهم (مدام ديتامپ) وشددت عليهم الوصية بأن يحاولوا الإنتقاص من عملي.

ما ان لمحت الملك مقبلاً حتى أشرت الى مساعدي (اسكانيو) بدفع التمثال الجميل الى أمام نحو الملك فقام بتحريكه بكل رفق ولين. ولما كنتُ قد أحكمتُ عملي فيه ليخرج دقيق الصنعة كامل الشيات من كل ناحية فقد بدا بهذه الحركة الخفيفة وكأنه ينبض بالحياة. وصارت كل التماثيل الأخرى وراءه بسبب الحركة ليكون أول ما تقع عليه أنظار الملك.

وإبتدرني جلالته فوراً:

- إنه لأبدع بكثير مما بدا قبلاً. وإستناداً الى خبرتي فأنا ما كنتُ أتخيّل شيئاً كهذا أو ما هو قريب منه.

أما أولئك الذين كان يُنتظر منهم إنتقاص عملي. فقد بدا وكأنهم يحارون في العثور على التعابير المناسبة للإشادة به وترجمة إعجابهم. هؤلاء السادة راخوا يكيلون لي المديح جزافاً.

هتفت (مدام ديتامپ) بعصبية:

- هل فقدت عينيك؟ أما ترى هذه التماثيل البرونزية النصفية في الخلفية كم هي رائعة؟ إن عبقرية النحت الأصيلة تتجلى فيها وليس في هذه الفجاجة المستحدثة.

تقدم الملك متبوعاً بالآخرين وأرسل بصره متفرساً في القطع الأثرية المنقولة ولم تكن ظاهرة بهيئة

جذابة لأن النور كان يأتيها من الأسفل وليس من الأعلى.

قال:

- كل من قصد بهذا الرجل سوءاً فقد منَّ عليه بفضلٍ كبير. فمقارنة عمله بهذه التحف الأثرية الرائعة لا تؤدي كما يبدو واضحاً للرائي إلا إلى الحكم بأن ثمرة عمله أجمل وأبدع منها بمراحل. لذلك وجب علينا أن نخصّ (بنفوتو) بأعلى التقدير. فعمله لا يضاهاه تلك فحسب بل يفوقها. قالت (مدام ديتامپ) لن يبدو التمثال يمثل هذا الجمال لو شوهد نهراً كما يبدو ليلاً بنسبة الواحد بالألف. واستطردت تقول... "وفضلاً عن هذا فإنه وضع فوق التمثال حجاباً إخفاً لعيوب فيه". في الواقع كان هذا "الحجاب" مجرد غلالة من الخرز شفافة للغاية وضعتها عليه بأناقة ولطف لمضاعفة مهابته. ما وعيت ملاحظتها حتى أمسكت بالغلالة وسحبته من الأسفل كاشفاً عن الأعضاء التناسلية المتقنة الصنع ثم رفعت الكساء كله بإنزعاج واضح. ظننت (مدام ديتامپ) أنني ما كشفت عن هذه الأجزاء إلا تعريضاً بها<sup>(٥٦)</sup>. وما ان أدرك الملك مبلغ شعوري بالإهانة وكيف أنني وقد أعمانى الغيظ أحاول إنتزاع بعض الكلمات التي عصيت في حلقي هتف هذا الإنسان العظيم الحكمة بلهجة آمرة جازمة:

- بنفوتو! حذارٍ من أن تنطق بحرف. أسكت وإهدأ وستكافأ بألف ضعف مما ترجو من الغالي والنفيس.

كنت أرتجف حقناً. وخانني لساني. وإرتج عليّ. وكلّ هذا جعلها تجمجم وقد تضاعف غضبها. وإنصرف الملك بسرعة قبل الأوان وهو يزجي إليّ عبارات التشجيع والمؤاساة بصوت مرتفع كقوله: إنّه أستقدم من إيطاليا أعظم فنان ولدته أمّ.

تركت (جوپتر) حيث هو، وفي صباح اليوم التالي وأنا أستعد لمغادرة (فونتنبلو) دفع لي ألف كراون ذهباً تسديداً لما أنفقته من جيبي الخاص زائداً أجري المتفق عليه. وعدت إلى باريس راضياً منشرح النفس ولم يستقر بي المقام حتى أقيمت حفلة في داري وبعد العشاء أمرت بإحضار كلّ ثيابي وفيها قطع كثيرة من الحرير والفراء الثمين، ومن أنفاس القماش وأدقه حياكة وقمت بتوزيعها هدايا لسائر العاملين في مصنعي كلّ حسب إستحقاقه ولم أستثن البنات الخادومات وصبيان الإسطل تشجيعاً وتحريضاً لهم على التفاني في خدمتي والإخلاص لي. وإندفعت بعظيم حماسة في إكمال تمثال (مارس) العملاق بدقة وتفريغ. وكنت قد فصلته هلى هيكل خشبي يناسبه تماماً. ثم كسوت الهيكل بطبقة من الجص سمكها ثمن (كوبيت) تقوم مقام اللحم الذي يغطي الهيكل العظمي. ثم شرعت في صبّه جزء جزءاً ليتّم لحام القطع فيما بعد بطريقة التعشيق وكان عملاً سهلاً.

جديرٌ بي هنا أن لا أغفل ذكر حادثة مضحكة تتعلق بهذا التمثال العملاق.

كنت قد منعت كلّ المشتغلين عندي من جلب عاهرات إلى المنزل أو إلى القلعة مطبقاً أمري بكل صرامة. إلا أنّ (اسكانيو) مساعدي الشاب كان قد علق بهوى فتاة في غاية الحسن وبادلته هي

(٥٦) التعريض هناك بعلاقة المحظية الجنسية واضح مقصود. وقد أصابت مدام دي تامپ في تقديرها فعلاً.

الحبّ. فهربت من أمها ذات ليلة وأقبلت تفتش عنه وكرهت أن تتركه وحار هو في إيجاد مخبأ لها. وبعد أن أعيته الحيل هداه فكره الوقاد الى إخفائها داخل تمثال (مارس) ومكثت فيه ردحاً. وكان (اسكانيو) يخرجها منه في بعض الليالي سراً. وإتفق أُنّي - ولنزوة طارئة لا تعليل لها ثبت رأس التمثال وهو كامل تقريباً على الهيكل. وسرعان ما بات قبلة أنظار كل أهالي باريس. وهؤلاء الذين جاوروني كانوا يعتلون سطح بيوتهم لمشاهدته.

وتقاطر الناس ليتابعوا ظاهرة مخصوصة فيه فقد كانت في المدينة شائعة قديمة مؤداها أن قلعتي مسكونة بالأرواح على أنّي لم ألحظ ما يؤيد هذا الزعم. والعامّة في باريس يطلقون على هذه الأرواح مصطلح ليمونيو بوريو Lemmonio Boreo<sup>(٥٧)</sup>. وحقيقة الأمر أن الفتاة المخبأة لم تكن تقوى على البقاء ساكنة ففي أثناء حركتها كانت تشاهد من خلال فتحتي عين التمثال. فزعم بعض السخفاء أن الروح تقمّصت التمثال وراحت تحرك عينيه وفمه وكأنها تريد الكلام. وإرتد بعضهم على أعقابهم عند رؤية الحركة وولى مذعوراً. والآخرون الأرحح عقلاً وإتزاناً لم يسعهم بعد التحقق إنكار ما رأوا من وميض في العينين يشبت أنهما تنبضان بالحياة فعلاً. وأقروا بحلول روح في التمثال غير مدركين بأنّ من حلّ فيه ليس روحاً فقط بل لحماً ممتازاً!

حينذاك تفرغت الى تجميع وتركيب مدخل الباب الجميل بنقوشه التي أتيت الى وصفها. ولما كنتُ زاهداً في تضمين ما أدون من تاريخ حياتي - أموراً تهّم كتاب التاريخ، فقد أغفلت الحديث عن دنوّ الإمبراطور على رأس جيشه اللّجب من باريس وتعيّنة الملك كلّ قواته. على أنّ هذا يتفق والزمن الذي إستشارني جلالته في إقامة تحكيّمات عاجلة لباريس. جاء الى منزلي لهذا الغرض وصحبني في جولة تفقد وتفتيش حول المدينة. وما ان وجدني على إستعداد للمساهمة في تحصين باريس على مباديء وأسس سليمة وخلال وقت قصير حتى أصدر أمراً إستثنائياً عاجلاً يقضي بتطبيق كل ما أقترحه من تدابير من دون تلوؤ. وأمر أميراله بتنبية المواطنين كافة الى إطاعة أوامري وإلاّ أستهدفوا لسخطه. كان هذا الأميرال قد حصل على منصبه بتدخل ووساطة (مدام ديتامب) فحسب، لا بفضل عمل جليل صدر منه. وكان محدود القابليات والذكاء. ويسبب ما ذكرت ولأنّ إسمه (دا انيبول d'Annebault) ويقابل السيد دا انبالي بلغتنا وإنك تجد الناس ينطقون إسمه بلهجتهم الخاصة كما لو كان Ane-Bouf<sup>(٥٨)</sup>. بمختصر القول إن هذا المأفون نقل الى (مدام ديتامب) كل ما وقع لي. فأمرته بإستقدام (جيروليمو بيللاماتو Girolimo Bellarmato) على الفور من (دييب) وهو مهندس من أهالي (سيينا) ودييب تقع بمسافة تزيد عن رحلة يوم واحد من باريس. فجاء فوراً وشرع في تطبيق خطة تحكيم في غاية التعقيد. فانسحبت من العمل كلية ولو واصل الإمبراطور زحفه لأمكنه إحتلال باريس بكل سهولة.

(٥٧) يفسر ناشرو المخطوطة والمترجمون (لاسيما الفرنسيون) أنّ الإسم قد يكون تحريفاً لتعبير Le démon bourreau أي إبليس الجالد. أو ربّما قصد چليليني به Le moine bourru أي الراهب الفظ.

(٥٨) لن يخفى عنصر الفكاهة على القاريء حين يعلم أنّ معنى Ane بالفرنسية (حمار) ومعني boeuf (ثور)!

وقيل أن معاهدة صلح عقدت فيما بعد<sup>(٥٩)</sup> كشفت عن عمل خياني لـ (مدام ديتامپ) كان لها فيه اليد الطولى ولن أطيل في هذا فهو ليس من شأني.

إنصرفت بكليتي الى إنجاز المدخل البرونزي ووضع اللمسات الأخيرة على المزهية الكبيرة، ومزهريتين متوسطتين كنت قد صبيتها من فضتي الخاصة. وعاد الملك الى باريس ليصيب بعض الراحة فترة بعد معاناته الكثير من المتاعب. لا بد ما جاءت هذه المرأة اللعينة الى هذه الدنيا إلا للتخريب والتدمير. وما من شك في أنها كانت تصفني بين ذوي الشأن والخطر لتجد بي عدواً رئيساً، فقد ملأت أذني الملك بالحديث السيء عني حتى حلف لها الملك الطيب إرضاءً لها بأنه لن يعاملني إلا معاملة مخلوقاً لا قيمة له وأنه لن يأبه بي وسيتجاهلني وكأنه لا يعرفني.

نقل لي هذا رأساً حاجب اسمه فيللا Villa مختص بكردينال (فرارا) وقال أنه سمع بنفسه هذه العبارات من فم الملك. فهاجت نفسي ورحت أقذف بأدواتي وما بيدي من أعمال في أرجاء الغرفة وتهيأت لمغادرة باريس.

بعد أن أكملت استعدادي للرحيل إنطلقت لمواجهة الملك.

دخلت على جلالته وكان قد فرغ لتوه من الغداء ووجدته وحده خلا مرافقٍ واحدٍ أو اثنين. حبيته بالتوقير والإحترام الحريين بالملك. وما وقعت أنظاره عليّ حتى إرتسمت على وجهه إبتسامة ومال برأسه نحوي. فإطمأنت نفسي وأفرخ روعي، فدنوت من جلالته رويداً رويداً. كان مرافقاه يعرضان عليه بعض الأشياء التي تخص صناعتني وبعد أن دار الحديث حولها برهة سألني أيجاد في منزلي شيء قمين بالرؤية يمتاز بالجمال. فأجبت إن شاء فأنا مستعد لعرض شيء عليه الآن. فسألني متى يسعه أن يأتي قلت الآن، فأمرني بالعودة الى منزلي على التو وانتظار مقدمه.

عدت، وبقيت في انتظار الملك الكريم الذي قصد (مدام ديتامپ) يستأذنها في الخروج فسألته عن وجهته وأبدت رغبتها في مرافقته، ولما أخبرها بوجهته قالت أنها عدلت عن ذلك ورجت منه تأجيل ذلك والبقاء إكراماً لها. ولجأت الى عدة محاولات أخرى في هذا المجال والخلاصة أنه لم يأت منزلي في ذلك اليوم.

في يوم الغد وعين الساعة إنطلقت أنا إليه. ما وقعت أنظاره عليّ حتى إبتدرني بالقول أنه يعتزم التوجه الى منزلي الآن. وكالعادة ذهب يستأذن (مدام ديتامپ) وحين أدركت عجزها بكل ما تملك من دالة وتأثير عليه - راح لسانها السليط يسألني مفترياً متهماً كأني أعدى أعداء العرش. وكان جواب الملك الطيب على هذا قوله أنه ما قصد الزيارة إلا ليشبعني تقريعاً وتأنيباً بلاحدٍ ووعدها بكلمة شرف بأنه سيفعل ذلك حتماً. ثم قفل الى منزلي مباشرة.

تقدمته الى بعض الغرف في الطابق الأرضي، حيث كنت قد فرغت من تركيب أجزاء المدخل الكبير برمته. وما ان سلط أنظاره عليّ حتى إنعقل لسانه دهشة ولم يجد سبيلاً الى توجيه عبارة لومٍ أو

(٥٩) كان ذلك في ١٥٤٤ إذ تم بين الملكين عقد معاهدة غريبي Grèpy وبموجبها تنازل فرنسوا الأول عن مقاطعتي سافوي ويسدمونت وتخلي عن إدعائه بكل من ناپلي وأرتوا والفلاندرز، مقابل حصوله على إقليم بورغندي.

تأنيب واحدة كما تعهد. إلا أنه لم يضع مع هذا فرصته في توجيه اللوم إذ شرع بالقول:

- أي بنفثوتو! هناك أمر هام واحد يجب عليكم أنتم أيها الفنانون الموهوبون أن تدركوه. وهو أنكم لا تتمكنون من إظهار مواهبكم دون تشجيع ومساعدة. إن عظمة فنكم لا تتجلى إلا بالفرص التي نتيحها لكم. وأنت بالذات عليك أن تكون أكثر إطاعة وأقل معاندة ومكابرة. أذكر مما أذكر أنني أصدرت لك أمراً صريحاً بصنع إثني عشر تمثالاً فضياً. هذا ما كنت أريد منك، غير أنك أبيت إلا أن تصنع لي "ملمحة" وزهريات وتمائيل نصفية وأبواباً وحاجات أخرى كثيرة. حتى أنك أسلمتني إلى حيرة عظيمة متفكراً كيف تجاهلت رغباتي ورحت ترضي نفسك سادراً على هواك. إن ظننت بأني قادر على الإستمرار في مجاراتك، فأنت واهم وسأريك الطريق التي سأسلكها عندما أريد أن تنجز الأمور وفق رغبتني. ولذلك فأني أنذرك بوجوب الحرص على إطاعة أوامري. وإن بقيت مصراً على ركوب رأسك منفذاً ما شئت أهواؤك، فإن حالك ستكون حالة من يضرب رأسه في جدار.

كان مرافقه من النبلاء يصغون بكل إنتباه وأنظارهم شاخصة إليه وهو يلوح برأسه عابساً مقطباً محرماً هذه اليد تارة وتلك تارة أخرى والكل يرتجف فرعاً يارتقاب ما سيحل بي. إلا أنني كنت قد صممت أن لا أدع للخوف سبيلاً إليّ بأية صورة.

ما ان إنتهى من التوبيخ الذي وعد به (مدام ديتامپ) حتى ركعت على ركبة واحدة وبعد أن لثمت طرف معطفه من فوق ركبته قلت:

- أيها الملك الكلي القداسة أنا أقر بصواب كل ما قلت. وكل ما أملك من جواب هو أنني كنت قد ألزمت نفسي بطاعة وخدمة جلالتك من كل قلبي وبهمة لا تكمل ليلاً أو نهاراً. وإن بدا لك ما يناقض قولي فعلى جلالتك أن لاتنحو باللائمة على شخص (بنفثوتو)، بل على حظه العاثر وسوء طالع الذي يحاول أن يجعلني غير جدير بخدمة أعظم أمير في العالم. ولذلك فأني أستميحك العفو والمغفرة وليس لي إلا أن أضيف هذا: كنت أتصور أن جلالتك قد زودني بكمية من الفضة لا تكفي لغير التمثال الذي أنجزته. وقمت بصنع الاناء من الفضلة القليلة المتخلفة قاصداً لإطلاع جلالتك على الفن الجميل الذي إستطرفه الأقدمون، وفي ظني أنك لم تتطلع عليه من قبل. وأما عن الملمحة فأعتقد إن لم تخني الذاكرة - أن جلالتك طلبت مني ذات يوم أن أقوم بصنعها لك برغبة منك بعد أن بحثت مسألة ملمحة أخرى عرضت عليك، وعندها عرضت عليك النموذج الذي كنت قد عملته في إيطاليا فأقدمت بكل حرية وإختيار على دفع ألف دوقية ذهبية لي فوراً وأطلقت يدي في عملها. وقد أعربت أنت نفسك عن إمتنانك العظيم للفكرة بل شكرتني بما لا مزيد عليه عند فراغي منها كما يغلب على ظني. وأما عن (عقادة) الباب فالإنطباع المتكون عندي حوله هو أن جلالتك أصدرت أمراً به لكبير أمناء السر مسيو دي فيللروا مرة عندما كنا نبحث في أمره. فقام هذا بدوره بإصدار الأوامر لكل من مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna وموسيو ديللا فا M. della Fa لضممان إستمراري في العمل به ولمنحي علاوة من أجل ذلك، ولولاها ما كان بوسعي مواصلة العمل بهذا المشروع الكبير. وأما بخصوص التمائيل النصفية البرونزية

والقاعدة التي يستقر عليها تمثال جويتر وغيرها، فلا نكران في أنني قمتُ بصب التماثيل النصفية من تلقاء نفسي والسبب في هذا هو أنني أجنبي لم أمارس العمل من قبل بالصلصال الفرنسي، ولذا كان صب التماثيل النصفية بالبرونز مجرد عملية تجريبية فما كان بوسعي أبدأ صب التماثيل الكبرى إلا بعد إجراء هذا الإختبار. وأما عن القاعدة فقد صنعتها لأنها تناسب التماثيل أتم مناسبة. ومن هذا يجد جلالتك أن كل ما قدمت عليه كان يحدهه أسمى النيات ولم يكن قصدي مطلقاً معارضة جلالتك. ولا أكنتم أن نفقات هذا التمثال العملاق حتى هذه اللحظة كانت من جيبي الخاص. وقد فكرت أن ملكاً عظيم الشأن مثلك إستخدم فناً ممتازاً مثلي - جدير بأن يخلده ويمجده عمل تمثال لا نظير له عند الأقدمين، فضلاً عن السمعة التي سيكسبها الفنان الصانع. لكنني أرى أن الله لا يريد أن ينيلني شرف الجدارة بخدمتك لذا أرجو جلالتك عوضاً عن المكافأة الكريمة التي كنت قد إعتزمتها لعملي - أن يسمح فيض كرمك بإخلاء سبيلي، فإن تفضلت بالإذن لي بالسفر، فسأعود الى إيطاليا وأنا ألهمج دائماً بحمد جلالتك داعياً الى الله لك وشاكراً تلك الساعات الهنيئة التي قضيتها في خدمة جلالتك.

أمسك بي وأنهضني بكل لطف فإستويت قائماً. وقال: عليك أن تقنع بالبقاء في خدمتي. وإن كل ما صنعتته هو حسن وهو به جد مسرور. ثم إستدار نحو جمع النبلاء الذين يحيطون به ونطق بهذه الكلمات وأنا أنقلها بالحرف الواحد:

- إنني أقول جازماً لو صنع مدخل لباب الجنة لما خرج أبدع من هذا.

بعد هذا المديح السامي - بقيت ساكناً برهة. ثم واصلت بكل إحترام فشكرته مرة أخرى مكرراً رجائي بالسماح لي بمغادرة البلاد لفرط ماكنت أشعر به من حنق. لم يتبين هذا الملك الجليل أن لم أتلق عطفه الكريم الذي طبع عليه بالشكل الجدير به صاح بي بصوت مخيف راعد أمراً، ينهاني عن التفوه بكلمة أخرى وإلا لحقني ضرر عظيم، ثم أردف قائلاً إنه سيغرقني بالذهب، وأنه راض أتم الرضى عن أشغالي التي أنجزتها بمبادرة مني، فضلاً عن تلك التي أنجزتها بأمر منه وأنه لن يحصل بعد هذا خلاف بيننا لأنه فهم نفسيتي. وعلي أنا من ناحيتي أن أحاول فهمه بالشكل الذي يرشدني إليه واجبي.

أجيبته: إنني أقدم الشكر لله وجمالته على كل شيء. ثم رجوته أن يتكرم علي برؤية التمثال العملاق بعد المراحل التي قطعتها فيه. فرافقني اليه وأمرت بإزاحة الأغطية عنه. فكان إعجابه به يجلل عن الوصف وأمر أمين سره تواباً بأن يدفع لي دون تلكؤ كل ما أنفقت عليه من مالي الخاص بالغ ما بلغ وبحسب القائمة التي أكتبها. ثم غادرني مودعاً بقوله: "في أمان الله يا صديقي". عبارة ندر أن تخرج من فم ملك.

بعد عودته الى القصر، أخذ يستعيد في ذهنه أقواله كلها وكيف أنني بدأتها متواضعاً فيها متصاعراً الى أقصى الحدود وكيف إنتقلت بها الى نبرة فيها من التعالي والغرسة ما لامزيد عليهما، فإنزعج كثيراً. وحصل أنه ردها مغيضاً بمحضر من (مدام ديتامپ) والسيد دي سان پولو M.

di San Polo وهو من كبار نبلاء الفرنسيين، وهو الذي كان فيما مضى قد تعدى كل الحدود في إظهار صداقته لي. لكنه في هذه المناسبة بدأ أخلص الأوفياء لي على الطريقة الفرنسية. وما جرى آنذاك هو أن الملك بعد نقاشٍ طويلٍ راح يشكو من موقف كرينال (فرارا) بقوله أنه عهد إليه بأُموري فأهملها ولم يهتم قلامه ظفر بتصريفها وأضاف قائلاً أن الفضل في بقائي بمملكته لا يدين الي الكرينال. وأنه سيعهد بأُمري الي شخصٍ آخر أحسن تقديراً لي من الكرينال، لأنه لا يريد أن يزودني بذريعة لتركي خدمته.

وهنا عرض (مسيو دي سان پولو) خدماته فوراً وطلب من الملك أن ينيط به مسؤوليية تصريف شؤوني قائلاً أنه سيتخذ كل حيلة لتلافي الأسباب التي قد تدفعني الي الرحيل. فرد الملك قائلاً: لا مانع لديه من ذلك شريطة أن يعلمه (مسيو دي سان پولو) بالوسائل التي سيتخذها ضمناً لبقائي وكانت (مدام ديتامپ) تتابع الحديث مقطبةً مغيظة. فتوقف (مسيو دي سان پولو) وأمسك عن مصارحة الملك بالتدابير التي سيتخذها لإبقائي. فأعاد الملك السؤال عليه. فأجاب وقصده إرضاء (مدام ديتامپ) وإدخال السرور الي نفسها:

- هذا ال(بنثوتو) الذي ذكرته سأعلقه من رقبتة وبهذه الصورة لن تفقده.

وعندها قهقهت (مدام ديتامپ) وقالت "هذا ما يستحقه". وضحك الملك مجاراةً لها. ثم عقب قائلاً أنه ليرغب جداً في أن يقدم (مسيو دي سان پولو) على شنقي شريطة أن يجد له أولاً شخصاً من عياري ووزني بديلاً وهو عندها حرٌ يفعل بي ما يشاء وإن لم أكن أستحق هذه النهاية. وإنقضى اليوم بهذه الصورة وبقيت قيد الحياة وحمداً لله وشكراً!!

في تلك الأثناء كان الملك قد أنهى الحرب مع الإمبراطور بعقد صلح. لكن حربه مع الإنكليز تواصلت. هؤلاء الشياطين الذين إستمروا يخلقون المتاعب والمشاكل وكان على جلالته يركز إهتمامه في أمورٍ أخرى لا تمت الي اللهو وأسباب التسلية بسبب، وأناب (بييرو ستروزي)<sup>(٦٠)</sup> قيادة حملة بحرية في المياه الإنكليزية. كانت مهمة خطيرة عسيرة حتى بالنسبة الي هذا العسكري المحتك الذي بدأ وحيد عصره في صناعة الحرب قدما كان الأوحد المتفرد بسوء الحظ<sup>(٦١)</sup>.

ومرت بضعة أشهر دون أن يصلني أي مبلغ أو أكلف بعملٍ ما. فسرحت كل صنّاعي بإستثناء الإيطاليين اللذين أنطت بهما العمل بإناءين كبيرين من فضتي الخاصة. إذ لم يسبق لهما الإشتغال بالبرونز. وعلى أثر فروغهما منهما حملتهما الي مدينة إسمها (ارجنتان)<sup>(٦٢)</sup> من أملاك

(٦٠) هو من أسرة ستروزي Strozzi الشهيرة التي ناصبت آل مديتشي العداة. ففي العام ١٥٣٧ أفلح الدوق (كوزيمودي مديتشي) في إلحاق الهزيمة بجيش الجمهوريين الذي كان بقيادة آل ستروزي وآل سالفاني. وظفر بالقائدين فاجتز رأس سالفاني وأبقى (فيليو ستروزي) والد بييرو في السجن، وأشيع أنه أعتيل فيه وقيل أنه قتل نفسه. إلا أن بييرو تمكن من الفرار ولجا الي ملك فرنسا.

(٦١) يشير چليليني هنا الي معاكسة الحظ ل: بييرو دائماً. فمثلاً أخفق في تحقيق أي نصر على الإنكليز هنا. مُني كذلك بهزيمة أخرى في العام ١٥٥٥ بالقرب من مارشيانو (سيينا) أمام (كوزيمو) أيضاً وكان أيضاً على رأس جيش فرنسي.

(٦٢) تقع هذه المدينة على مسافة ١٤٠ كيلومتراً غرب باريس.

ملكة النافار على مسيرة أيام قليلة من باريس. ووجدت الملك يشكو وعكة. وأنهى كردينال (فرارا) إليه نبأ مقدمي فلم يعلق بشيء، الأمر الذي أمضني وأورثني ضيقاً لازمني بضعة أيام، فأعصابي في الواقع لم تكن تتحمل حالات كهذه على أنني نجحت بعدها في تقديم نفسي للملك وعرض الإناءين الأنيقين عليه، فسُرَّ بهما أعظم السرور. ولما وجدته طيب المزاج رجوته أن يسمح لي متلطفاً بسفرة الى إيطاليا وقلت إنني مستعد للنزول عن مرتبات الأشهر السبعة الفائتة المستحقة ولا مانع من تسديدها لي فيما بعد إن شاء جلالته في حالة ما لو إحتجتُ إليها للعودة.

توسلت اليه ليتكرم عليّ بهذه المنة. متعللاً بأن الظروف هي ظروف حرب وقتال لا ظروف إقامة أنصاب ومثايل. وأضفتُ قائلاً أنه أسبغ على رسامه (بولونيا) مثل هذا الفضل ورجائي أن يتفضل عليّ بمثله.

كان الملك أثناء ذلك يتفحص الإناءين بدقة، مرسلًا اليّ بين آن وآخر نظرات شزراء مخيفة. إلا أنني مضيت في سؤالي ملحاً كل ما وسعني الإلحاح. وعلى حين غرة حمي غضبه فنهض وترك كرسيه وقال:

- بنفوتوا! إنك لأحمق كبير. خذ هذين الإناءين الى باريس. وعدّ بهما إليّ وهما مطليان بالذهب. وخرج دون أن يزيد.

دنوت من كردينال (فرارا) الذي كان حاضراً. وصرت أرجو منه بأن يحاول التوسط لي عند الملك لتحقيق طلبي الإذن بالسفر فهو صاحب الفضل عليّ. وهو الذي منّ عليّ بالكثير وحقق إطلاق سراحي من السجن في روما الى جانب أياديه الأخرى. ليتمكنني من العودة الى إيطاليا. أجاب الكردينال، أنه لتسره المحاولة وسيبذل قصاره ويوسعي الإتكال عليه تمام الإتكال، لا بل إن يوسعي الرحيل الآن إن شئت دون وجل، إذ أنه سيقف موقف المدافع الحريص على سمعتي أمام الملك.

قلت إنني على معرفة بأن الملك قد عهد بي إليه. فإن أجازني هو فسأرحل وأنا مطمئن خالي البال، مستعداً للعودة لدى أقل إشارة منه. إلا أن الكردينال نصحني بالعودة الى باريس والإنتظار أسبوعاً ريشما يسترضي الملك ويقنعه بإعطائي الإجازة. وأنه سيخبرني دون تأخير ومن غير تردد اذا ما إمتنع الملك عن منحي إياها. وإن لم يكتب لي بهذا فبوسعي الرحيل مطمئناً.

عدتُ الى باريس بناءً على وصية الكردينال وصنعتُ خلال الفترة ثلاث علبٍ بديعة للأواني الفضية الثلاثة. وبعد مضيّ عشرين يوماً بدأتُ إستعدادي للسفر وحزمتُ الأواني وحملتُها ظهر بغلٍ إستقرضته من أسقف (پافيا) الذي كان يسكن في قلعتي. حتى مدينة (ليون).

هكذا تركتُ باريس كما شاء لي سوء حظي.

من رفاق السفر السيد (إيپوليتو گنزاجا Ippolito Gonzaga) وهو من خدام الملك ومن خاصة الكونت (گاليوتو ديلا ميراندولا Galeoto della Mirandola) ونبلاء آخرون من بيت الكونت. ورافقتنا ايضاً مواطننا الفلورنسي (ليوناردو تيدالدي Leonardo Tedaldi) تركتُ القلعة بعهدة (اسكانيو) و(باگولو) وإستأمنتهم على كلِّ مقتناي ومنه تلك الأنية الصغيرة التي بدأتُ بعملها، تركتها للشابين كيلا

يُمَيِّيان عاطلين. ومما خَلَّفْتُ مقداراً كبيراً من الأثاث البيتيّ الثمين فقد كان مستوى عيشي عالياً. وربما بلغ ثمن ما تركته ألفاً وخمسمائة دوقية أو أكثر.

ذَكَرْتُ (اسكانيو) بالجميل الذي صنعه له، ونَبَّهته بأن لا ينسى ما غمرته من أفضال أو نعم. قلت له إنه كان حتى هذه الساعة نزقاً طائشاً خليع العذار، لكن عليه الآن أن يتحلى بأخلاق الرجال، من جدية ووقار ورزانة. وها أنا ذا أودع إليه كل ما لديّ، فضلاً عن شرفي وسمعتي. وأوصيته بأن يتصل بي حالاً إذا أصابه هؤلاء الفرنسيون الغلاظ بأذى لأعود على جناح الطير. فقد عاهدت نفسي على الإلتزام بكلمتي للملك الجليل إلتزاماً تاماً. فضلاً عن حرصي على شرفي.

وأجاب (اسكانيو) وقد إغرورقت عيناه بدموع الكذب والنفاق:

- إني ما عرفتُ أباً خيراً منك وسيكون موقفك معك موقف الإبن الصالح إزاء الأب الصالح.

وبعد أن رتبتُ أموري بهذه الصورة إنطلقتُ في سبيلي برفقة خادمٍ واحدٍ وصبيّ فرنسيّ.

بعد ظهر ذلك اليوم قصد قلعتي بعض أبناء الخزانة الملكية الذين لا يحفظون لي ودّاً، هؤلاء الأندال الأوشاب طفقوا يكيلون لي التهم زاعمين أنّي غصبتُ فضة الملك وهربتُ بها وحتّوا السيد (گويدو) وأسقف پاڤيا على إرسال حملة تعقيب ورائي لإستعادة أموال الملك وإن أحجما فسيقومون هم بذلك. وسألقي ما أكره بسبب ذلك. فملك الرجلين الخوف الشديد وعجلاً بإيفاد ذلك الخائن (اسكانيو) بالبريد السريع في أعقابي فأدركني والليل يكاد يتنصّف وكنْتُ ساهراً مستيقظاً لم يغمض لي جفنٌ من فرط القلق أحدث النفس بقولي:

أنظر الى من تركتُ مقتناتي وقلعتي، أواه! كيف يلازمني سوء الحظ ليرغمني على هذه الرحلة؟ أرجو من الله أن لا يكون الكردينال حليفاً لمدام ديتامپ) فما تريده هذه المرأة هو أن أفقد حظوظي عند الملك الطيب.

وفيما أنا أضرب أخماساً بأسداس وأحرق الإرم غيظاً سمعتُ (اسكانيو) يناديني فهبيتُ من رقدتي فوراً وإبتدرته بالسؤال أخيراً يحمل لي أم شراً فأجاب اللص قائلاً:

- أنباء طيبة. كل ما عليك أن تفعل هو إعادة الآنية. لأن أميني الخزانة الوغدين قد أثارا ضجة. والسيدان گويدو وأسقف پاڤيا يقولان لا سبيل غير إعادتها بأية صورة، ومن ثم لا يعود ما يوجب القلق وفي إمكانك إستئناف سفرتك بقلب مطمئن وإستمتاع.

فأسرعتُ بتسليم الآنية إليه، رغم أن إثنتين منهما كانا ملكاً حلالاً، كما سلمتُ له الفضة وحاجاتٍ أخرى. كان قصدي أخذهما الى دير كردينال (فرارا) في ليون. غير أنني أتهمتُ بأخذهما الى إيطاليا؛ فالمعروف للجميع أنه من قبيل المحال إخراج نقود أو ذهب أو فضة من البلاد دون إجازة خاصة. كيف يتصور المرء إمكان إخراجي هذين الإناءين الكبيرين اللذين يعادلان حمولة بغل؟ فضلاً عن صندوقيهما، في الواقع كنتُ قلقاً على مصيرهما لفرط جمالهما ونفاسة قيمتهما في حالة وفاة الملك فقد تركت جلالته وهو في أخطر مرحلة من مرضه. قلت لنفسي:

- لو حصل شيء له. فسأكون مطمئناً الى وجودهما في حوزة الكردينال. فلا أفقد آثارهما.

لكن وقع المقدر على كل حال. وأعدتُ البغل والآنية وأشياء هامة أخرى وفي اليوم التالي باشرتُ المرحلة التالية من سفري برفقة من نوهت بهم، وأنا لا أقوى على حبس تنهداتي ودموعي، على أنني كنتُ بين الفينة والفينة أستمدُّ القوة والراحة من الله. وأنا أرفع دعائي إليه.

"أيها الإله القادر على كل شيء، أنت العارف بالحقيقة، أنت تعلم أن رحلتي هذه لم تكن إلا من أجل مساعدة ستّ بناتٍ صغيراتٍ مسكيناتٍ شقيّاتٍ ووالدتهما شقيقتي، صحيح أن لديهنّ أباً لكنه شيخٌ فان أدركه الهرم ومهنته لاتدرّ عليه شيئاً وهن معرّضات للتلف، فيا أيها العزيز المتعالي إني أركن إليك وأهتدي بك في قيامي بهذا العمل الصالح".

كان هذا ما فرّج من كربتي وأراحني خلال سفرتي.

وفي ذات يوم عندما كنا على مبعدة يوم واحد من (ليون) قبيل المغرب بساعتين تقريباً. طرق سمعنا هزيم الرعود في سماء صافية! كنت على مرمى سهم أتقدم أصحابي، ففوجئنا على إثر هزيم الرعد بصوت هائل مرعب إرتجت له أركان السماء حتى حسبت أنه يوم القيامة. توقفت هنيهة وإذا برشقات من البرد تنهال فوق الرؤوس دون أن تصاحبها قطرة ماء منها أكبر من حجم بندقة البارودة المنطلقة من سبطانة النفخ- محدثة المأ حيثما وقعت من بدني. ثم تضاعف حجمها فصارت أشبه بحشوة القوس القذاف. وحانت مني التفاتة الى حصاني فوجدته يكاد يُجنُّ رعباً فلويت عنانه وكررتُ راجعاً الى رفاقي بسرعة جنونية. وكان الخوف قد تملكهم مثلي فإحتموا في غابة صنوبر. وإستمر سقوط ذلك البرد الشبيه بالصخر وزاد حجمه فغدا بقدر الليمونة الكبيرة. فشرعت في تلاوة (صلاة الإستنجاد في وقت الضيق<sup>(٦٣)</sup> Misérée) وفي أثناء صلّاتي هذه لله بكلّ خشوع سقطت واحدة كبيرة جداً بحيث كسرت فرعاً غليظاً من الصنوبرة التي كنت أحسبني أمناً تحتها. ثم سقطت رشقة أخرى من البرد على رأس حصاني فترنح وكاد يهوي على الأرض وأصابتنى واحدة إصابة غير مباشرة ولولا ذلك لقتضت عليّ. وأصابت واحدة أخرى الشيخ المسكين (ليوناردو تيدالدي) الذي إضطر الى أن يجبو على يديه وكان راععاً مثلي. ثم لما وجدت فرع الشجرة أعجز عن حمايتي وإن على المرء أن يفعل شيئاً آخر الى جانب تلاوته (الميزيرير)، أسرع فجمعت أطراف ثوبي فوق رأسي وقلت ل(ليوناردو) الذي كان يستنجد بالسيد المسيح ليكون في عونته وهو أقصر عن ذلك. وكان إهتمامي بأمره أصعب عليّ من إهتمامي بأمره. وإستمرت العاصفة ردهاً من الزمن ثم توقفت بعد أن أصابنا منها ضررٌ عظيم ودقّت عظمتنا دقاً، إلا أننا إمتطينا جبادنا بأفضل ما أمكن وإنطلقنا نريد الوصول الى محطتنا الثانية وبعضنا يكشف لبعض عن الحدوش والأورام التي نالته. وبعد نحو من ميلٍ طالعنا منظر خراب ودمار يفوق مانالنا ويجلّ عن الوصف.

شاهدنا الأشجار محطمة عارية عن الأوراق. والماشية القريبة منها قد فطست فضلاً عن عدد كبير من الرعاة الذين لاقوا حتفهم. ووجدنا كتلاً من الصخر كبيرة بحيث يصعب أن تحيط بها ذراعان. من هذا أدركنا أننا خرجنا من المحنة بأقل الأذى وأدركنا بأن لإستنجادنا بالله وتلاوتنا (الميزيرير) الفضل

(٦٣) وتبدأ "إشملني يا ربّ برحمتك".

في حمايتنا أكثر مما كان لمجهودنا الخاص. فرفعنا الشكر لله وواصلنا السفر الى (ليون). وفي هذه المدينة مكثنا أسبوعاً ثم إستأنفنا رحلتنا نشطين وإجتزنا الجبال ببسر. وفي الجانب الثاني إبتعت فرساً لأن بعض المتاع عندي كان قد ثقل على جيادي الأخرى.

بعد مرور يوم واحد لنا في أرض إيطاليا، أدركنا الكونت (غالوتو دلا ميراندولا) وكان يسافر بعربة البريد. فتوقف حيث كنا ولامني على رحيلي قائلاً إنني كنت مخطئاً ونصحني بالأمر أمضي قدماً وأن الأمور ستكون أفضل لي من السابق بكثير لو قفلت راجعاً. أما إذا أصرت على مواصلة السير فإني سأترك الميدان لأعدائي وسأمنحهم كل الفرص ليلاحقوا بي الأذى، في حين إن عودتي ستحبط المؤامرة التي حاكوها ضدي وقال:

- إن أولئك الذين خصصتهم بأكبر الثقة هم الذين خانوك.

وكل ما أوضحه لي هو أنه يعلم بما لا يرقى اليه الشك ان كردينال (فرارا) هو الذي أوقع بي مستعيناً بالوغدين اللذين إستأمنتهم على مقتناتي. وظل السيد الشاب يواصل إلحاحه علي بالعودة رغم كل شيء ثم إنه ركب عربته وإنطلق بها. وأنا بدوري ويسبب رفاقي قررت مواصلة رحلتي في حين كنت بين: العودة الى فرنسا، أو التوجه رأساً الى فلورنسا. لازمتني الحيرة وبقيت مذنباً الى أن رسوت أخيراً على قرار التوجه الى فلورنسا دون تلكؤ والإنضمام الى قافلة البريد. إلا أنني لم أقم بتهيئة أسباب سفري بأولى القوافل الى أن عقدت العزم على فلورنسا بصرف النظر عما سينتظرنني فيها من متاعب.

فارقت السنيور (ابوليتو كونزاكا) الذي سلك سبيل (ميراندولا) في حين إتجهت نحو (بارما) و(بياجنزا). بعد وصولي هذه المدينة لقيت الدوق (بيير لويجي) صدفةً في أحد شوارعها. فتفرس بي ورکز نظراً حديداً حتى عرفني، ولعلمي بأنه كان علةً ما قاسيت في قلعة سان انجلو، فقد تلاحقت أنفاسي وكدت أختنق عندما وقع نظري عليه. ولما لم أجد وسيلة للإفلات منه، رأيت أن أقصده في زيارة. دخلت عليه وقد فرغ لتوه من الطعام. وكان معه أفراد من أسرة لاندي Landi أولئك الذين فتكوا به فيما بعد. عندما واجهت سموه، إلتقاني بحفاوة وترحاب ماتوقعتهما. ومن حديث كثير له توجه بخطابه للحاضرين قائلاً عني اني بلغت الآن قمة صنعتي وفني. وإني قضيت مدة طويلة سجيناً في روما. ثم إلتفت الي قائلاً:

- بنقوتو! أي صديقي العزيز ثق اني تأملت كثيراً لما لقيت من أرواء. وكنت متأكداً من براءتك لكن لم يكن بيدي شيء أساعدك به. ذلك لأن والدي في حينه- أصر على إرضاء فريق من أعدائك الذين أقنعوه بأنك تغتابه وتشنع به. في حين كنت موقناً بالأمر لظل لهذا من الحقيقة. ثق اني كنت شديد الألم لما أصابك.

وكرر ذلك وأعادته مرآت ضارباً على هذا الوتر حتى بدا كمن يطلب مني المغفرة. بعد ذلك إستفسر مني عن الأعمال التي قمت بها للملك المسيحي الأعظم وكان يصغي الى شرحي بإهتمام بالغ مظهراً ما لامزيد عليه من الإلتفات والتكريم. ثم سألني عما إذا كنت راغباً في خدمته. فأجيبته إن شرفي

لا يسمح لي ولو إني أكملت كل الأعمال الهامة التي بدأت بها للملك الجليل، فلاشك اني أفضل تقديم خدماتي لسموه قبل أي سيد عظيم آخر.

وهنا لا يسعني إلا إظهار العجب من قدرة الله اللامحدودة. فهي لا تترك ذلك الذي يبغى البريء بشراً وظلمه دون عقاب مهما بلغت منزلته هذا الرجل في الواقع طلب مني العفو بمحضر من كان بعد فترة قصيرة سيثأر لي وللكتيرين الآخرين الذين إصطلوا بنار إضطهاده ولؤمه. كما فعل أحد الذين أعرّفهم وسأصف في الوقت المناسب موقفه العدائي منّي.

في تدويني هذه الأمور الخصوصية ليس ثمّ حافز دنبوي يدفعني. وكلّ قصدي من سردها هو تقديم شكري لله الذي أنقذني من هذه الملمات العديدة. ففي وسط تلك المحن كنت أستصرخه دوماً طالباً منه أن يبسط عليّ ظلّ حمايته مستودعاً روحي له فكان عزّ وجلّ يظهر لي حوله وقدرته على الفور بعد إعتماذي على نفسي قدر الإمكان. فإذا خانتني قواي وتعشرت بي القدم كشفت قدرة الله عن نفسها بشكل غير منتظر وأنزلت العقاب بالظالمين المعتدين جزاءً وفاقاً أولئك الذين يسيئون استخدام الوظائف الشريفة الرفيعة التي أناطها الله بهم.

عدت الى الفندق لأجد الدوق وقد أرسل لي ألواناً مختلفة من نفيس المأكّل وفاخر المشرب. فأكلت بشهية. ثم إمتطيت حصاني ولويت عنانه الى فلورنسا. وفيها وجدت شقيقتي وبناتها الصغار الست، وهن بين من بلغ سنّ الزواج ومن هو رضيع. وكان زوجها ثمّ، وهو عاطل إنقطع عن مزاوله عمله بسبب أحداث معينة وقعت له في المدينة.

كنت قبل أكثر من عام قد أرسلت بعض الحلبي الذهبية والمجوهرات المصوغة الى فلورنسا مما يُقيم بأكثر من ألفي دوقية. كما إني جلبت معي مقداراً آخر تبلغ قيمته زهاء ألف كراون. وكنت أرسل إليهم أربعة كراونات ذهبية شهرياً بصورة منتظمة كما كانوا عادة يصيرون ربحاً من بيع جانب من الحلبي يوماً بيوم. ومع إن النقود التي كنت أرسلها لم تكن كافية، فقد تبين لي رغم ذلك ان زوج أختي كان عفاً أميناً بحيث لم يمدّ يده الي أموالتي التي كانت في الواقع أمواله خشية إغضابي، بل راح بدل ذلك يرتهن كلّ مالديه من متاع في الدنيا تقريباً، فأكلته أكلاً وإمتصته عظماً تلك الفائدة التي كان يدفعها للمرتهن. وبهذا تبين لي مبلغ أمانته وعزمت على زيادة مساعدتي له كما قررت ان اكفي حاجة بناته وأستُرّ خلتهنّ قبل رحيلي عن فلورنسا.

في ذلك الزمن - شهر آب من العام ١٥٤٥ كان دوقنا أعني دوق فلورنسا يقيم في (پوجيو كايانو Poggio a Caijano) وهو موضع يبعد عشرة أميال عن فلورنسا. فتوجهت اليه وغرضي الوحيد هو السلام عليه كما تقضي قواعد الأدب. فأنا مواطن فلورنسي وأجدادي كانوا من أخلص أصدقاء آل مديتشي. وكنت من جهتي أكنّ للدوق كوزيمو حباً خاصاً.<sup>(٦٤)</sup>

(٦٤) في العام ١٥٣٧ اختير كوزيمو دوقاً لفلورنسا على ان يعاونه في حكمها مجلس شيوخ ومجلسان استشاريان. وأيد إختياره الامبراطور شارل الخامس (شارلكان). وفي العام نفسه تمكّن جيش الجمهوريين الفلورنسيين ودحروهم. عرف بالذكاء والطموح فأعلن نفسه دوقاً وهاجم سيينا (١٥٥٤) ودحر جيشاً فرنسياً يقوده پييرو ستروزي=

كما قلت توجهت الى (بوجيو) للسلام عليه فحسب، لاتخالجني أية فكرة في البقاء لديه كما شاءت إرادة الله بعد ذلك... فهو المدبر للأشياء على أحسن تقويم. ما علم الدوق بوجودي حتى أقبل عليّ وحياني بحرارة ومودة فائقتين، ثم طفق هو والدوقة يستجوياني عمّا قمت به للملك من عمل فسرّني أن أسرد عليهما الحكاية برمتها. وبعد أن فرغت قال الدوق إن ماحدثته به كان قد علم به من قبل وإني ما أنهيت إليه إلا بالحقيقة ثم أضاف بكلّ لطف:

- ما أقلّ الجزاء الذي نلته على جهودك العظيمة الفائقة؟ أي بنقنوتو العزيز لو خطر ببالك أن تنجز لي عملاً فنياً فإنني سأجزيك بشكل يختلف تماماً عن الطريقة التي عاملك بها ذلك الملك الذي أفرطت في الثناء عليه مدفوعاً بطيبة نفسك ورهافة احساسك.

عندها نوهت بالواجب الكبير الذي أراني ملتزماً به إزاء الملك الذي أخرجني من سجن عانيته ظلماً وعدواناً، وأتاح لي فرصة القيام بعمل أسمى وأرفع بمراحل من أي عمل اضطلع به فنان من حرفتي. وكان الدوق أثناء كلامي يتململ ويتلفت مبدياً فروغ الصبر وكأنه لايقوى على إنتظاري حتى أنتهي. فإبتدري قائلاً:

- لو قمت لي بعمل سأجزل لك العطاء بشكل لاتحلم به. شريطة ان يحوز رضائي وهو ما لأشك فيه. وأنا ذلك المسكين المنكود الحظ، رغبة مني في إطلاع مدرسة الفن الفلورنسية الرفيعة على حقيقة كوني قد كُلفت بعد رحيلي عنها بإنجاز أعمال فنية في أفاق أخرى واسعة تفوق التصور، أوجب الدوق معرباً عن سروري العظيم في أن أصنع تمثالاً عظيماً من الرخام أو البرونز يقام في ميدانه الرائع (بيازا Piazza).

فأجاب إن أول عمل يرغب في أن يكلفني به هو تمثال (پرسوس Persius)<sup>(٦٥)</sup> فإن فكرة هذا التمثال كانت تلازمه منذ زمن طويل وهو يتمنى تحقيقها على يدي. ثم طلب مني أن أصنع نموذجاً مصغراً له. بدأت عمل النموذج راضياً مستبشراً وأكملتته في أسابيع قليلة. وكان إرتفاعه يبلغ كوبيتاً واحداً تقريباً (١٨ إنجاً). وإستخدمت له الشمع الأصفر بكلّ دقة، فبدا جميلاً بما أودعت فيه من حذق وبراعة. عاد الدوق الى فلورنسا إلا أنني لم أوفق في عرضي النموذج عليه إلا بعد عدة أيام. وبدا عند لقائنا وكأنه لايعرفني لم تقع أنظاره عليّ من قبل، فشعرت بالذلة والحيرة المرة من علاقتي نتيجة

=بالقرب من مارشيانو. وفي العام (١٥٥٥) استسلمت له المدينة بعد حصار طويل ووافق الملك الاسباني فيليب الثاني على ان يضمها كوزيمو الى أملاكه. وقوي مركزه عندما انتخب وأحد من آل مديتشي من فرع ميلان- پاپا بإسم بيوس الرابع. فأخضع توسكانيا لحكمه وقام بعده بإصلاحات إقتصادية وعمرانية أظهرها تحجيف المستنقعات. وكان محباً للفنون مشجعاً لأهلها. إلا أنه شقي في أواخر سني حكمه وتوالت المصائب في أسرته. ففي خلال ست سنوات (١٥٥٧-١٥٦٢) توفي له إبنان وبناتان ثم زوجته. وقد استغل اعداؤه هذه المصائب للنيل من سمعته ونشروا الشائعات حولها. وفي العام ١٥٦٤ ترك الحكم لإبنه فرانشسكو. وتزوج في العام ١٥٧٠ (العام الذي توفي فيه جلليبي) محظيته كاميللا مارتيللي وتوفي في ١٥٧٤.

(٦٥) پرسوس (في الأساطير الاغريقية) هو ابن جويتر من زوجه داناي (إلهة اغريقية) جاء في الاساطير انه قطع رأس (ميدوسا) وأنقذ منها (أندروميذا) التي تزوجها.

ذلك. وفي ذات يوم أدخلت النموذج الى قاعة الشباب فأقبل بعد تناول الغداء هو والدوقة<sup>(٦٦)</sup> وعدد من رجال الحاشية النبلاء. وشرع يتفحصه وينعم النظر فيه وشاعت علائم الرضى في وجهه وأخذ يثنى عليه دون تحفظ. وهذا ما أسلمني الى الأمل بأنه على شيء من الألمان بدقائق الفن وكان إرتياحه يزداد بطول التأمل فيه. ثم إبتدرني قائلاً:

- أي بنفوتو العزيز، لو وفقت الى إنجاز عمل هام يمثل الدقة والإمتياز اللذين أنجزت بهما النموذج فسيكون أبدع قطعة فنية في الميدان.

فأجبتته بقولي:

- يا صاحب السمو! في الميدان آثار فنية لـ(دوناتللو Donatello)<sup>(٦٧)</sup> العظيم وميكالانجلو الإلهي. وقد أثبت هذان الألبان بأنهما أعظم فنانيين ظهرا منذ الزمن القديم. وبما أن سموك الجليل متحمس جداً لنموذجي هذا. فكن على يقين بأني عقدت العزم على أن يخرج التمثال الأصلي أجمل من نموذجي بثلاثة أضعاف.

وعلى إثر ذلك حصل جدال ومناقشة إستمر زمناً غير قليل. فقد كان الدوق يردد بأنه خبير وأنه على إدراك تام بما يمكن تحقيقه. فقلت له إن ما أخرجته يدي من أعمال يفوق ما وعدته بكثير. لكن يجب عليه أن يزودني بالوسائل والأسباب إذ أنني عاجز بدون مساعدته وتوفيره ما أحجته فطلب مني تقديم كشف مفصل بالمبالغ المطلوبة.. وأن أكتب له تقريراً دقيقاً بما أحجته ثم أضاف يقول انه سيحرص على أن تجاب طلباتي بالتمام والكمال.

لاشك في أنني لو كنت من الذكاء والدهاء في تأمين ما أحجته لعملي، بتوقيع عقد لما عانيت كل المتاعب التي تلت، ولما قاسيت ما قاسيت نتيجة هذه الغلطة. كان الدوق يلحّ الحاحاً شديداً عليّ في إكمال التدابير وإنجاز العمل. ولم أدرك بأن هذا السيد يتعامل كتاجر أكثر منه دوقاً. في حين كان تعاملني معه بإعتباره دوقاً أكثر منه تاجراً.

نظمت طلباتي بتقرير وكان عطف سموه عليها بالغ الكرم. قلت في تقريرتي:

"يا أعلى إنسان. إن المطالب والإتفاق الحقيقي يخرج عن نطاق هذه الكلمات والوثائق. لأنهما يتوقفان على درجة نجاحي في العمل الذي تعهدت به. فإن أصبت النجاح فأنا على ثقة بأن سموك الأفخم سيتذكر جيداً ما وعدني به".

سُرّ سموه بهذه العبارات وبالطريقة التي إستخدمتها للإعراب عن ذات نفسي فغمزني والدوقة

(٦٦) تزوج كوزيمو (الأول) في العام ١٥٣٩، بـ(ليونور دي توليسدو Leonor de Toledo) ابنة پدرو دي توليسدو نائب الامبراطور شارلكان في مملكة نابولي.

(٦٧) (١٣٨٦-١٤٦٦) دوناتللو دي بيلتا برادي Donatello di Belta Bardi نحّات ومثال إيطالي يعد واحداً من أعظم فناني الرينيسانس. كان واقعي النزعة في تصوير الجسم البشري. تتجلى روعة فنه في تماثيله ونقوشه البارزة البرونزية وأخصّها بالذكر تمثال القديس جورج المقام في الميدان بـ(فلورنسا) - والى هذا يشير چليني هنا - (عمله خلال ١٤١٦-١٤٢٠) وتمثال داود الشاب البرونزي وكلاهما معروض الآن. وغير ذلك من الآثار في مدن إيطالية أخرى.

بكرمهما الى حد يفوق التصور.

كنت شديد اللهفة الى الشروع في العمل. فأعلمت سموه بأني سأكون في حاجة الى دار لأرتب شؤوني وأبنى مسابكي. بعضها لفخر الطين وبعضها لصبّ البرونز، وأخرى غيرها لسبك وصبّ الفضة والذهب. وقلت إنني مدرك تفهمه مبلغ شوقي لخدمته في مجالات فني هذه ولذلك سأحتاج الى غرف مناسبة لهذه الأغراض ولكيما يتحقق سموه من مبلغ شوقي الى خدمته أضفت قائلاً: إنني عثرت على المنزل الذي يفني بأغراضه وإنه يقع في موضع ملائم للغاية. ولما كنت أكره إزعاج سموه بموضوع مالي أو أي شيء آخر قبل أن تكتحل عيناه برؤية عملي، فقد رجوت أن يتناع لي هذا المنزل بثمن جوهرتين كنت قد جلبتهما معي من فرنسا. وإن شاء ابقاها عنده حتى أمتلك المنزل بما أحققه من أعمال. كانت هاتان الجوهرتان قد صيغتا في حليتين يديعتين من قبل مساعدي وفق التصميم الذي صنعتته لهما. وبعد أن تفحصهما ملياً قال لي مشجعاً وبأسلوب أفعمني بالأمل الخادع:

- خذ حليتك يا بنقوتو. فأنا لا أريدهما بل أريدك أنت. وستفوز بمنزلك مجاناً.

ثم إنه تناول عريضتي فكتب حاشية في ذيلها مازلت محتفظاً بها حتى الساعة وهذه هي حرفياً:  
"فليكشف عن المنزل. ويتم التأكد من هوية بائعه والتمن الذي يطلبه له، لأننا نرغب في إرضاء بنقوتو!"

خيّل لي ان المنزل أصبح ملكي. ليقيني بأن عملي سيكون موضع رضى بشكل يفوق ما وعدت. ثم إن سموه بعد ذلك أصدر أمراً واضحاً لوكيل خرج له يعرف باسم (السيد پيسير فرانشسكو ريجيو Ser Pier Francesco Riocio) وهو من (پارتو). وكان فيما مضى معلماً او مربيّاً للدوق. كلّمت هذا الحيوان الخشن مفصلاً جملة ما أحجته. ونوهت بوجود حديقة صغيرة ملحقة بالمطبخ ملاصقة للمنزل حيث كنت أريد أن أقيم فيها مصنعي. فقام فوراً بإناطة هذه الأشغال بأحد المتعهدين. وهو شخص نحيف أعجف فظّ الطباع يدعى (لاتانزيو گوريني Lattanzio Gorini). هذا الشخص التافه الحقيير بيديه العنكوبيتين وصوته الشبيه بطنين البعوضة، قام كما شاءت إرادة إبليس بنقل الحجارة والرمل والجص ببطء يفوق ببطء الحلزون، وبكميات لم تكن تكفي لبناء بيت للحمام الزاجل إلا بشيء من الصعوبة!  
بدء اليأس يخامرني للبطء الشديد الذي يسيير به عملي لكنني شجعت نفسي بقولي "لابأس فالبيديات الصغيرة قد تؤدي أحياناً الى نهايات عظيمة". والى جانب هذا فقد وجدت مبررات لأملي برويتي كيف بددّ الدوق الآلاف المؤلفة من الدوقيات الذهبية في أعمال نحت فاشلة من منتوج ذلك الحيوان الأبله (باندنللو Bandinello)<sup>(٦٨)</sup> فسرى ذلك عن نفسي قليلاً، ولكزت (لاتانزو گوريني) هذا لكزة في دبره ليتحرك الى أمام مثلما تصرخ في مجموعة من الحمير العرج يقودها صبي أعمى.

(٦٨) او باندنللي باجيو (١٤٩٣-١٥٦٠) نحات معروف ولد في فلورنسا لأب صانع من خاصة آل مديتشي المقربين. لذلك بسطت هذه الأسرة ظلها على الإبن الذي تتلمذ للنحات (جيوفاني روستينجي) وأصبح فيما بعد واحداً من كبار النحاتين في بلاط الدوق كوزيمو. ومن آثاره الباقية يستدل بأنه كانا نحاتاً ممتازاً لا كما إعتبره معاصروه الفنانون ومنهم چليني .

رغم كل هذه المصاعب، مضافاً إليها إنفاقي من جيبي الخاص. قمت برسم وتخطيط موقع المصنع وأزلت الأشجار والكروم من الأرض مواظباً بدأب ونشاط كعادتي. وإعتمدت في أعمالي الأخرى على صديق حميم جداً هو (تاسو Tasso) النجار، فقد كلفته بإعداد بعض الأطر الخشبية للبدء في (برسيوس) كان هذا فناً ممتازاً لا مثيل له ولا نظير في مهنته برأيي. وهو فضلاً عن هذا إنسان مرح خفيف الظل، كان كلما زرته يحييني بضحكة وبأغنية قصيرة على مقام (الزير). وأسرت بي قدمي إلى درب اليأس والقنوط إذ تلقيت أنباء من فرنسا تشير إلى أن شؤوني هناك تسير من سيء إلى أسوأ. في الوقت الذي لم أكن أعلق آمالاً بفرص طيبة هنا في فلورنسا بسبب الفتور الذي ألقاه. على أن (تاسو) كان يرغمني إرغاماً على سماع نصف قصيدة غنائية على الأقل فتنتعش نفسي في صحبته وأطرد أفكار السوء عني قدر الإمكان.

قطعت أشواطاً في مشاريعي التي نوهت بها وتهيأت بنشاط أكبر لإقامة الأبنية - وقد سبق لي أن استعملت كمية من الجص. عندما وصلتني دعوة بالحضور فجأة عن طريق أمين السر. فتوجهت إلى القصر وكان سموه قد فرغ لتوه من طعام العشاء. وجدت أمين السر هذا في قاعة الساعة. فحيبته باحترام كبير فردّ تحيتي ببرود عظيم. ثم سألتني من الذي خولني الحق في إشغال المنزل وأمر من أمني وأشيد في الموضوع؟ وقال إنه منذهل لطيشي الأحمق وتهوري. أجبت: إنني شغلت المنزل بأمر سمو الدوق. وان سيادتكم بالنياية عن سموه وبإسمه أمرت (لاتانزيو غوريني) بتزويدي بما أحتاج. وان (لاتانزيو) هذا نقل لي الحجر والجص، وهياً ما كنت أحتاجه زاعماً أن سيادتكم كلفه بذلك.

وعندها راح الحيوان يهاجمني بضراوة تفوق ماسبق منه قائلاً "لا أنت تقول الصحيح ولا واحد من الذين ذكرتهم". وهنا فقدت السيطرة على نفسي وقلت:

- اصغ الي يا وكيل الخرج. إنني سأحترم سيادتكم وأخاطبك باحترام مثلما أكون في حضرة الدوق إن تكلمت بالشكل اللائق برتبة النبيل التي تحملها. فإن سلكت خلاف ذلك فإنني سأخاطبك باعتبارك (سر بيير فرانشكو ريجيو) ذلك الإنسان العادي.

فإستشاط غضباً وهاج هائج حتى خيل لي أن روحاً من الجن قد ركبته. لقد كان أعجل على المقدر مما كتب في السماء. إذ أجابني بسيل دافق من الشتائم المقذعة وتسأل باحتقار عما يحدو به إلى التنازل والسماح لرجل مثلي بمخاطبته فأثارني بذلك وإستفزني، فأجبت بما يلي:

- أصغ الي يا (سر بيير فرانشكو ريجيو) ريثما أعلمك بمن هم من أمثالي، ومن هم من أمثالك وأقصد أولئك السادة الذين يلقنون الصغار الأحرف الأبجدية<sup>(٦٩)</sup>.

إنقلبت سحنته وإرتفع صوته وهو يردد بعنف أشد، كل ما قاله في الأول. فقابلت صلافتته بموقف عدائي أشد وقلت له إن أمثالي من الرجال جديرون بمخاطبة الپاڤاوات والأباطرة ناهيك عن ملك فرنسا الرفيع الشأن. وربما تعذر عليه أن يجد نظيراً لي في العالم كله. في حين نجد عشرات من أمثاله في عطفة اي شارع.

(٦٩) يعرض بنفوتو مهنة وكيل الخرج الأساسية وهي تعليم الأطفال.

عندها نطّ وإعتلى إفريزاً للجلوس عند عتبة النافذة في القاعة وطلب منفِعلاً أن أعيد العبارة التي نطقَتها. ففعلت بأشدّ من الأول حدّةً وأضفت إليها قولِي اني الآن فقدت كلّ رغبة في الخدمة عند الدوق وسأعود الى فرنسا حالاً وهو ما كان بوسعي تنفيذه دونما عائق. تسمّر البهيممة حيثما هو مصعوقاً بوجه كالح كالطين الأصفر وإنصرفت وانا أتلفّي بنار الغيظ مصمماً على الرحيل وحبذا لو فعلت.

لم يكن بوسع الدوق أن يسمع هذه المشادة الحادة فوراً. وقد إنتظرت عدة أيام عبتاً إذ لم يبدر شيء بهذا الخصوص. ليس ثمّ شيء يربطني بفلورنسا إلاّ موضوع أختي وبناتها، فبالمال القليل الذي جئت به كنت أنوي أن أتركهنّ على خير حال ممكن. ومن ثمّ أتوجه الى فرنسا بأسرع ما في إمكانني غير عابيء برؤية إيطاليا ثانية.

وفيما أنا أستعجل أموري للسفر دون طلب الإذن من الدوق أو أي شخص آخر. فوجئت بوكيل الخرج يوسل بطليبي صباح ذات يوم دون سبق إنذار من تلقاء نفسه ويكلّ تواضع ومسكنة. وشرع حال اللقاء يلقي خطبة طنانة جوفاء لا أول لها ولا آخر لم أتبين منها بلاغة أو إنتظاماً أو حداقة ولكن ما إستخلصت منها زعمه بأنه مسيحيّ صالح وإنه يكره أن يعادي أحداً. ثمّ سألني نيابةً عن الدوق كم يكفيني من راتب لمعيشتي؟ وكنت أثناء ذلك واقفاً غارقاً في أفكاري الخاصة. فلم أجبه بشيء لأنني كنت قد قررت السفر. وعندما وجدني ساكتاً هداه ذكاؤه الى القول:

- أي بنفوتو. إن الأمراء يتوقعون جواباً عن أسئلتهم وإني أكلمك نيابة عن سموه.  
فقلت:

- إن كان موكلّاً من سموه حقاً فسأجيب بطيبة خاطر.

ثمّ أضفت: "بأن عليه أن يبلغ سموه بأنني لا أعتزم إحتلال المرتبة الثانية في خدمته نسبة الى أي فنان آخر".

فقال وكيل الخرج:

- يتقاضى (باندللو) مائة دوقية كمرتب. فإن رضيت بمثل هذا المبلغ فالمسألة منتهية. أجبت إنني راض، شريطة أن يدفع لي كلّ ما أستحقه من علاوة "عندما تشاهد أعمالي كاملة". وأن يترك كلّ شيء لحكم سموه الميجل. وهكذا عدت لأمسك بالخيط مرّة أخرى دون رغبة مني، وتفرغت لعملي. وكان الدوق يظهر لي ما لا مزيد عليه من دلائل الرعاية والإهتمام.

تسلمت عدداً من الرسائل كتبها لي ذلك الصديق المخلص (گويدو گويدي) من فرنسا. ولم يكن فيها حتى ذلك الوقت إلاّ الطيب من الأخبار. كما كان خلفتي (اسكانيو) يرسل لي ما يطمئنني على أموري هناك، ويوصيني بأن لا أقلق أو أهتم وأن أرقّه عن نفسي وأخذ بأسباب اللهو والتسلية وإن حصل شيء فإنه لن يتردد في إخباري. لقد أبلغوا الملك بدخولي خدمة الدوق وبما أنه أنبل إنسان على وجه البسيطة فقد ظل يردد قائلاً:

- ولم لا يعود الينا بنفوتو؟

وإستجوب مساعديّ كلاً على حدة. فأجابه كلاهما بأني كتبت أخيرهما بسعة العيش والرخاء الذي أصابني وإني عازف عن العودة لخدمته. فإغتاط الملك من هذه الكلمات التي لم تخرج من فمي وعقّب قائلاً:

- لما تركنا دون سبب. فلن أطلب عودته ثانية وليبق حيث هو.

هذان المجرمان الخائنان دبراً ما دبراً بالشكل الذي طاب لهما ومصّلحتهما. إذ أن عودتي الى فرنسا ستعيدهما الى منزلتهما السابقة لا أكثر من خلفتين يأتّمران بأمرى ويطيعان قراراتي في حين أنهما بقائى بعيداً سيسرحان ويمرحان في بيتي حرّين طليقين، ولذلك توسلاً بكلّ حيلة ليحولا دون رجوعي. في الوقت الذي كنت منشغلاً في بناء المصنع ليتسنى لي الشروع في (پرسیوس) قمت بعمل مجسّم بالحجم الطبيعي المطلوب له من الجبس وذلك في الطابق الأرضي من المنزل- على أن يتم صبّ التمثال الأصلي عليه. ثم وبعد التأمل توصلت الى أن هذه العملية قد تأخذ مني وقتاً طويلاً، فأطرحتها جانباً وأرسيّت على فكرة أخرى. سبق وان تم بناء المصنع آجرة فوق آجرة، فبدا بهيئة كوخ حقير سيء البنيان وكنت أصاب برجفة كلما تمثّلتته في خاطري. وبدأت في (ميدوسا)<sup>(٧٠)</sup> فصنعت هيكلًا من حديد ثم كسوته بالصلصال وبعد أن إنتهيت منه وضعت في الكور وفخرته.

لم يكن عندي من المساعدين أكثر من صبيّ أو إثنين صغيرين. أحدهما كان وسيم الصورة للغاية. وهو ابن عاهر تدعى (گامبيتا Gambetta) إتخذته نموذجاً ونموذجاً- فالطبيعة هي الكتاب الوحيد الذي نتعلم منه الفنّ. ولقد حاولت إستخدام عدد من العمال إختصاراً للوقت وتعجّلاً بالعمل، فلم أوفق ولم يكن بوسعي أن أقوم بكلّ شيء بنفسى. كان في فلورنسا عدد من الصناع يرغبون في الخدمة عندي. إلا أن (باندنللو) كان يزهدهم في ذلك ويحول بيني وبينهم. وبعد أن ضاق بي الأمر قال للدوق إنني أحاول الإستيلاء على عماله لأنني أفترق الى المهارة في صنع تمثال كبير. وإني أنشد المعونة. وأنا بدوري شكوت للدوق المضايقة الشديدة التي يسببها لي هذا الوحش ورجوته أن يتوسط لتزويدي بعمال من الأوبرا<sup>(٧١)</sup> وهذا ما جعله يصدق أكاذيب (باندنللو) عنيّ. وعندما تبين لي الأمر قررت أن أقوم بكلّ الأعمال بنفسى قدر ما يسعني وهذا ما أدى الى بذل جهود خارقة. في تلك الأثناء إعتلت صحة زوج أختي وفاضت روحه بعد أيام قلائل. لم تزل أختي صغيرة السنّ، وقد تركها لي مع بناتها الستّ وهنّ في أعمار متفاوتة. وكانت هذه أول صدمة أتلقاها في فلورنسا: فلقد تركت أباً ووصياً لهاته المخلوقات البائسات.

على أية حال كنت حريصاً على أن يتمّ كلّ شيء بالصورة المطلوبة ووفق الخطة المرسومة. وكانت

(٧٠) في أساطير الاغريق. إن ميدوسا هي إحدى ثلاث (أورگونات) شقيقات. تكسو رؤوسن أفاعٍ بدلاً من الشعر كلّ من ينظر إليهنّ ينقلب الى حجر. لم يوفّق پرسیوس الى قتل ميدوسا وإحتزاز رأسها إلا بنظره الى إنعكاس وجهها في المرأة.

(٧١) إستحدثت أوبرا دل دوومو Opera del Duomo لصيانة أبنية كاتدرائية فلورنسا. وهي لجنة إدارية فنية تتألف من مديرين ومراقبين وعمال وفنيين.

حديقتي قد غصت بالمخلفات والنفايات فقد بعثت بطلب عاملين إثنين من (پونتي فيكيو<sup>(٧٢)</sup> Ponti Vecchio) لإزالتها. وكان أحدهما شيخاً فوق الستين من العمر وثنانيهما شاباً في الثامنة عشرة. وبعد مضي ثلاثة أيام على وجودهما قال لي الشاب ان الرجل المسن لا رغبة له في العمل ومن الخير لي أن أسرحه. فهو فضلاً عن كسله وتقاعسه يمنعه (أي رفيقه هذا) عن القيام بقسطه من العمل، وأضاف يقول ان القليل المتبقي لديهم سيقوم به هو وحده ولا حاجة بي الى تبديد مالي.

لما وجدت في هذا الشاب وكان يدعى (برناردينو مانيليني) من (موجللي) إستعداداً للعمل وتفانياً سألته هل يرغب في البقاء عندي وفي خدمتي وإتفقنا فوراً. وكان من واجباته العناية بحصاني. ورعاية الحديقة. ثم ماليت أن ألم بصناعتي وصار يساعديني فيها وبدء بالتدريج يحذق الفن ويزاوله بشكل فيه إتقان واناقة. ففاق بذلك كل مساعدي السابقين. وقر رأي أن أكتفي به مساعداً. وبدأت أثبت للدوق كذب (باندنللو) بتقدم عملي بشكل مرضي جداً دون أن تلجئي الحاجة الى صنّاعه.

في تلك الأثناء شعرت بالآلام في كليتي أعجزتني عن العمل. لكن كان من دواعي سروري العظيم تمضية أوقاتي في حجرة الثياب بقصر الدوق مع شابين صائغين هما (جيانباگولو) و(دومينيكو) إبنني (پوجيني). وقد زينت لهما صياغة أناء ذهبي صغير مزدان بنقوش بارزة ذي تهاويل جميلة أوصت الدوقة به لشرب الماء. كما طلب مني صياغة نطاق ذهبي هو الآخر كثير النقوش مكّفت بعدد كبير من الأحجار الكريمة. وسائر التهاويل كالأقنعة الصغيرة فأنجزته. وإعتاد الدوق القدوم الى حجرة الثياب بين دقيقة وأخرى. إذ كان يجني أعظم اللذة من مراقبتنا ونحن نشغل فيما هو يبادلني الحديث. بعد أن طرأ تحسن على كليتي طلبت مقداراً من الصلصال وفي أثناء قضاء الدوق وقتاً في صحبتنا قمت بعمل نموذج لرأسه أكبر بكثير من حجمه الطبيعي، فسرّ سروراً عظيماً بمجهودي هذا وزاد تعلقه بي. وقال إنه ليكون جدّ سعيد لو أمكن نقل مصنعي الى القصر، وفي هذه الحالة سينظر في إخلاء جناح واسع لي هناك وسيكون عليّ أن أنقل مسابكي ومصاهري وكل ما أنا في حاجة إليه لأنه يجد متعة كبيرة في متابعة هذه الأمور. فقلت لسموه إن هذا غير ممكن إذ انه يعني بأني لن أفرغ من أعمالي بعد مائة سنة.

راحت الدوقة تغمرنني بعطفها وإلتفاتها. وكانت تودّ لو أنني تفرغت بكليتي لأشغالها الخاصة وعدم الإنشغال به (پرسیوس) أو ما أشبهه. لكنني كنت أحسّ كلما أنعمت النظر في هذا العطف والحظوة- بأن نكد طالعي المعاند لن يتأخر في تسديد ضربة لي أو إبتلائي بمصائب جديدة. وكنت على الدوام مدركاً كم أسأت التصرف متوهماً بأني أحسن التصرف على خير ما يكون- وإني أشير بهذا الى خدمتي في فرنسا.

لم يكن بوسع الملك أن يتغاضى عن الإهانة التي ألحقها به رحيلي عنه. ومع هذا فقد كان يتمنى عودتي شريطة أن لا يخلّ ذلك بكرامته. وأما من جهتي فقد كنت أرى الحق بجانبي، لأني لم أشأ

(٧٢) أي "الجسر العتيق"، وهو حي من أحياء فلورنسا.

إذلال نفسي. كنت مقتنعاً بأنني لو تنازلت الى الحد الذي أقوم فيه بكتابة رسالة إستغفار وتصاغر فإن أولئك الناس وهم لا أبا لك فرنسيون! سيقولون إنه أقر بالذنوب التي إقترفها. وإن تلك التصرفات المأفونة الحقيرة التي إتهمت بها هي صحيحة. لذا بقيت محافظاً على كرامتي متمسكاً بعزة نفسي. ورحت أكتب بأسلوب لا يخلو من الإعتزاز بكرامة الرجل الذي يدري إنه على حق. ولم يكن ثم ما يدخل السرور في نفس ذينك المساعدين الحبيثين أكثر من موقفي هذا.

كتبت لهما مشيداً بالإكرام والعطف الكبير الذي ألقاه في مسقط رأسي من السيد والسيدة اللذين هما الحاكمان المطلقان لمدينة فلورنسا حيث ولدت، وكانا كلما تسلما رسالة من هذا القبيل يهرعان الى الملك ويرجوان منه أن يمنحهما القلعة كما فعل معي لكن الملك وهو من أنبل المخلوقات وأرفعها فضائل يأبى أن يلبي طلب هذين اللصين الكبيرين اللذين لا يفتآن يلحان عليه بكل صفاقة. فقد بدء يتحسس نياتهما الشريرة، إلا أنه رغبة منه في عودتي ودفعاً لإلحاحهما وتهدة لحاظهما، كلف السيد (گوبليانو بوناكوزي) المواطن الفلورنسي أحد أمناء سره بأن يكتب لي رسالة جافة يلوح فيها الغضب وكان محتواها كالآتي:

قال: إن شئت المحافظة على سمعتي بإعتباري رجلاً مستقيماً ولكوني رحلت دون سبب فالواجب يقتضيني أن أقدم حساباً بكل ما قدمت به لجلالته من أعمال.

شاع في نفسي إرتياح عظيم بتسلم هذا الخطاب ولو كان لي فيه خيار لما أبدلت فيه حرفاً. جلست لأكتب ردي وسودت تسع صفحات من الورق الإعتيادي. فأوردت بتفاصيل دقيقة مسهبة حساباً بكل ما صنعتته وكل ما جرى لي من الأحداث أثناء عملي، وأثبتت مقدار الأموال التي أنفقتها وكيف إنني كنت أتسلم ما يدفع لي دائماً عن طريق مسجلي عقود إثنين وواحد من أمناء خزانة لجلالته وكيف إنني كنت دائماً أخذ وصلاً موقعاً بالتسلم من الأفراد الذين كنت أدفع لهم مقابل بضاعة لهم أو أجور عن عملهم. وأما عن نفسي فإنني لم أضع في جيبتي قطعة نقود واحدة. كما إنني لم أمنح شيئاً لقاء ما أنجزت من أعمال وكل ما أخذته عند رحيلي الى إيطاليا هو بعض دلائل العطف والحظوة وبعض الوعود الملكية الجديرة بجلالته.

ومضيت أقول: لا أستطيع الإدعاء بأنني نلت أي مكافأة عن أعمالي خلال المرتبات التي أمر بها لجلالته لمعيشتي. وبخصوص هذه المرتبات فإنني ما زلت صاحب حق في أكثر من سبعمائة كراون ذهبي كانت قد تخلفت لي في فرنسا لغرض إرسالها حتى أستعين بها على العودة. ولقد علمت أن بعضاً من ذوي النفوس الشريرة. سعوا بي وشوهوا سمعتي. لكنني أقول: إن الحق يعلو دائماً. إنني وجدت عزتي وإرتفاع قدرتي عند جلالة الملك المسيحي الأعظم. ولم يكن رائدي في خدمته المحرص والطمع. وقلت أيضاً: مع إدراكي بأنني أنجزت لجلالته أشغالات أكثر بكثير مما تعهدت له، ومع أن المكافأة التي وعدت بها لم تصرف لي. فإن رغبتني الوحيدة في هذه الحياة هي الإحتفاظ برضا لجلالته ورجائي أن ينظر الي كما ينظر الى إنسان شريف مستقيم كما كنت ومازلت. وإن ساور لجلالته أى شك فيما أقول فإنني سأعود لدى أقل إشارة منه على أجنحة البرق لأقدم له حساباً عن نفسي ولن يحول بيني

وبين ذلك مخاطرتي بحياتي. اني زهدت في العودة وتقديم نفسي للخدمة بسبب الإهمال الذي لقيته. ولعلمي بأني قادر على الحصول على خبز يومي أينما كنت. على أية حال فإنني لن أتردد قط في العودة إذا ما أرسل يطلبني. وضمنت الرسالة أموراً وتفصيل أخرى كثيرة جديدة بمطالعة ذلك الملك الشهم الرائع- منتصفاً فيها لشرفي وكرامتي. وبعد فراغي منها أخذتها الي الدوق وسرّ بمطالعتها. ثم ختمها وبعث بها توأاً الى فرنسا معنونةً الى كردينال (فرارا).

في ذلك الحين كان (برناردو بالديني Bernardo Baldini) وكيل سموه في شراء الأحجار الكريمة- يمتلك ألماسة كبيرة الحجم يزيد وزنها على خمسة وثلاثين قيراطاً جاء بها من مدينة البندقية. وكان (أنطونيو دي فيتوريو لاندي Antonio di Vittorio Landi) مهتماً أيضاً بحمل الدوق على شراء هذه الألماسة. ثم قطع الألماسة وصقلها فتبين انها تفتقر الى ذلك الصفاء والبريق المشع المتوقع في أمثالها. فأزال مالكوها رأسها الحاد. لكنها لم تستقم لا بالقطع العرضاني ولا بالقطع الحاد. والدوق الذي كان شديد الشغف بالأحجار الكريمة من غير دراية بقيمتها مهما كانت أعطى (برناردو) ذلك المحتال كل سبب للإعتقاد بأنه راغب فيها. ولما كان (برناردو) يريد أن يحتفظ لنفسه بشرف إرتكاب عملية النصب والإحتيال على دوق فلورنسا، فإنه لم يسرّ بكلمة واحدة عن نيته هذه لشريكه (انطونيو لاندي).

كان (انطونيو لاندي) هذا من أعز الأصدقاء على نفسي ربطتنا أيام الصبا علاقة حميمة لاتنقسم. ولما كان على علم بعلاقتي مع الدوق، فقد إستوقفني وإنزوى بي يوماً في زاوية من السوق الجديد وكان الوقت ظهراً تقريباً، قال لي:

- أي بنفثوتو. لأشك في أن الدوق سيعرض عليك ألماسة قد يرغب في شرائها. إنها ألماسة كبيرة الحجم وعليك أن تساعدنا في إتمام الصفقة. وأريد أن أقول لك بأني سأوافق على بيعها بمبلغ سبعة عشر ألف كراون. وأنا على ثقة بأن الدوق سيطلب منك رأيك فيها. فإن وجدته حريصاً على إقتنائها فإنني سأخذ التدابير لإتمام الصفقة.

كان يبدو في غاية الإطمئنان من نجاحه في بيعها. فوعدهتني بأني سأقول فيها ما أعتقده حقاً في حالة عرضها علي وإستمزاج رأيي فيها ولن أبخس من قيمتها مطلقاً.

وكما سبق لي القول إعتاد الدوق الحضور يومياً الى دكان الصياغة والمكوث عدة ساعات. فبعد مرور أكثر من أسبوع على حديثي مع (أنطونيو لاندي) عرض عليّ الدوق يوماً الألماسة فعرفتني من الأوصاف التي زودني بها (أنطونيو) حول شكلها ووزنها. وكما ذكرت آنفاً لما كان ماؤها عكراً (وهو السبب الذي حدا بهم الى قطع رأسها المدبّب) فقد كنت سأنصح بالتأكد بعد شرائها حال عرضها عليّ. ولذا سألت سموه بعد أن أرائها- ماذا يريد مني قوله؟ لأن الأمر يختلف بين ما إذا طلب من الجوهري تقويم حجر كريم بعد أن أبتيع وبين ما إذا طلب منه التقدير قبل تمام البيع ليرى الراغب رأيه على ضوء ذلك.

أجاب الدوق إنه في الواقع قد إبتاعها وهو يريد مني إبداء رأيي فحسب. فلم يسعني إلا الإشارة من طرف خفيّ ملمحاً بأني لا أنزلها تلك المنزلة الكبيرة. فقال بأن عليّ أن ألاحظ جمال حواف الألماسة

الطويلة. فأجبت قائلاً: إنها ليست بالجمال الفائق الذي يتصوره سموه. وإن ما يراه من جمال بسبب حوافها الطويلة إنما كان نتيجة لقطع الرأس المدبب من الألماسة. عند إدلائي بالحقيقة إكفهر وجه الدوق وقد أدرك صحة رأيي، فطلب مني الإستمرار في تقويمي وأن أخبره كم تسوى؟  
وازنت الأمر في فكري: إذا كان (أنطونيو لاندي) قد عرض عليّ سبعة عشر ألف كراون ، فلا بد أن الدوق قد إبتاعها بخمسة عشر ألفاً على أكثر تقدير. وبما أنه تبين لي بأنه لم يرتح عندما أصدقتة الخبر عنها وصارحته بالحقيقة. فقد إرتأيت إبقائه على وهمه وأنا أعيد الألماسة إليه:

- لعلك دفعت ثمانية عشر ألفاً؟

فهمت مستنكراً وخرج حرف ال(O) من فمه بشكل أكبر من فتحة البئر.

وقال معقّباً:

- الآن تأكدت بأنك غير ملّم بهذه الأمور.

قلت:

- أخشى أن يكون إعتقادك خاطئاً يا صاحب السموّ. أنت تهتم بالإبقاء على حسن سمعة أحجارك الكريمة. وأنا سأهتم بتفهم هذه الأمور، فقل لي كم دفعت ثمناً بها حتى أتعلم كيف أفهم الأمور على ضوء خبرة سموك.

فنهض تاركاً مجلسه وقال بصوت المزدرى الهازيء:

- كلفتني خمسة وعشرين ألف كراون، بل وأكثر يا بنقنوتو...

ثم خرج.

كان الصائغان (جيانباگولو) و(دومينيكو) ولدا (پوجيني) حاضرين أثناء الحدث. وكان المطرّز (پاكياكا) يشتغل في الغرفة المجاورة ولما سمع الضجة أقبل هو الآخر وإنضم إلينا.

قلت للحاضرين:

- ما كنت لأنصحه قطّ بشرائها. لكن لا مناص مادامت رغبته فيها شديدة والأمر لديه سواء. فقبل أسبوع عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بمبلغ سبعة عشر ألفاً وأعتقد إنني كنت سأقنعه بخمسة عشر ألفاً أو أقل. لكن الدوق يقصد المحافظة على سمعة مجموعته من الأحجار الكريمة حسب إعتقادي. بعد أن عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بهذه القيمة، كيف سوّل الشيطان لنفس (برناردو) القيام بمثل هذا الإحتيال القذر؟

وتحولنا عن سذاجة الدوق بضحكة، غير مصدقين بأن ذلك ممكن.

كما قلت كنت قد بدأت العمل في (ميدوسا) فصنعت هيكلاً جديداً غطيته بالصلصال بتقاسيم جسدية دقيقة بسماكة نصف إصبع ثم طبخته طبخاً تاماً. ثم كسوته بالشمع وإنتهيت منه بالشكل الذي أردته. وكان الدوق دائم التردد اليّ لمشاهدته غير مخفّ قلقة من أن لا أوفق في صبّه بالبرونز. ودفعه ذلك الى الإقتراح عليّ بأن أستعين بخبير. في تلك الأثناء كان سموه يلهج بمهارتي الفنيّة

ويتحدث عنها بإعجاب كبير، في حين تفتق ذهن وكيل خرجه - وهو يتحين الفرص ليقوع بي ويدق عنقي - عن حيلة للوصول الى مرامه. كانت سلطته تمتد لتشمل ضباط الشرطة وجميع موظفي تلك المدينة المنكودة فلورنسا: وإن المرء لا يسعه إلا أن يعجب لهذا الرجل الجاهل كل الجاهل، والخصم اللدود لنا إبن صانع براميل في (پارتو) كيف يعهد اليه بهذه السلطة الكبيرة لا لشيء إلا لأنه كان معلماً خاملاً لكوزيمو دي مديتشي قبل أن يصير هذا دوقاً! ومهما يكن من أمر، كان هذا الرجل كما قلت يتربص بي الدوائر باحثاً عن وسيلة لأذيتي. وبعد أن أعيته الحيل ولم يجد سبباً للنيل مني أو إلصاق تهمة بي لجأ الى أسلوب آخر للفوز بمراهه. هذا المعلم النذل قصد تلك العاهرة الخائنة (گامبيتا) والدة صبيّ مصنعي (چنچيو) وحبك مؤامرتة معها مستهدفاً إرهابي ووضعي تحت طائلة التهديد بحيث لا يسعني غير حزم متاعي والرحيل. ونقّدت (گامبيتا) خطة ذلك المعلم المعتوه وكيل الخرج مستخدمةً أساليب من هنّ على شاكلتها، وشارك في ذلك رئيس شرطة المدينة وهو من مدينة (بولونيا) وقد نفاه الدوق فيما بعد لأعمال مشابهة.

كانت الساعة تشير الى أكثر من الثالثة من مساء ليلة سبت عندما أقيبت (گامبيتا) مع إبنها. وقالت إنها قد سجت إبنها عدة أيام بسببي.

قلت لها: ما كان عليها أن تسجن إبنها بسببي. ثم إلتفت الى الصبي وأنا أضحك لحيلتها الوضيعة وقلت له أمامها:

- أنت تعلم يا (چنچيو) بأني لم آثم معك.

فأجاب وهو يبكي بحرقة "كلا!"

فإنتنت الأم الى إبنها وخاطبته وهي تهزّ برأسها:

- ويل لك أيها الوغد الصغير أتظنني أجهل بما يحدث؟

ثم إلتفتت اليّ وقالت: لا مفرّ لي من أن أخفيه في داري لأن رئيس الشرطة يتعقبه وهو عازم على إعتقاله ان وجده في الخارج، لكنه لن يمسه بسو إن بقي داخل منزلي. أجبته إن شقيقتي الأرمل مع بناتها الست الطاهرات يشاطرنني السكن وأنا لا أريد أحداً هنا خلافهن. فقالت إن وكيل الخرج قد أصدر الأمر لرئيس الشرطة وسيلقيان القبض عليّ حتماً. لكن ما دمت أرفض إبقاء إبنها في منزلي، فإن أعطيتها مائة كراون فلا داع للقلق من كل جهة. لأن وكيل الخرج صديق حميم ويمكنني الإطمئنان التام من قدرتها على تحويله عن عزمه والقيام بما تريد، شريطة أن أدفع لها الكراونات المائة.

أترع جام غضبي وهاجت نفسي فصحت بها:

- أغربي عن وجهي أيتها القحبة الصفيقة. لولا حرص علي أن لا أسبب فضيحة ولولا خوفي على براءة هذا الصبي البائس الذي جئت به. لقطعت رقبتك بهذا الخنجر.

ومددت كفي الى قبضته مرتين أو ثلاثاً.

بهذه الكلمات وبيعض الركلات واللكمات الموجعة دفعت بها وإبنها الى الخارج.

رحت أفكر ملياً بخيب هذا المعلم وسوء طويته، ومبيلغ سلطانه، فقررت بأن خير ما أعمله هو أن

أترك هذه القضية الشيطانية تنفجر كالصاعقة وتتبدد كالدخان. فنهضت في الصباح الباكر وامتطيت حصاني منطلقاً به نحو البندقية يلازمي صديقي (برناردينو الموجللي). مستودعاً شقيقتي بعض الأحجار الكريمة وحاجات مختلفة أخرى تناهز قيمتها ألفي كراون.

بوصولي (فرارا) كتبت لسمو الدوق ما مفاده إنني سأعود دون حاجة منه لأن يرسل في طلبني. لأنني رحلت لرغبة خالجتني دون أن يرغمني أحد عليها. وبعد وصولي البندقية عدت أفكر بسوء حظي، وكيف توجه اليّ الضربات القاسية غدراً. وعجبت لبقائي سليماً معافى رغم ذلك كله. فقوي عزمي على المقاومة والدفاع كعادتي. واصلت التفكير في أموري على هذا المنوال ووجدت سلامي المنشود في تلك المدينة الجميلة الحافلة بآيات الفن. ثم إنطلقت للسلام على (تيتيان Titian) (٧٣) الرسام العبقري. وعلى مواطننا الفلورنسي النحات القدير والمهندس الألمعيّ (جاكوبو سانسوفينو Jacopo Sansovino) الذي كان يحظى بمنزلة كبيرة عند حاكم البندقية. تعارفنا في أيام الصبا أيام كنت في روما. وجددنا المعرفة في فلورنسا مسقط رأسه إحتفى بي هذان الفنانان العظيمان ورحباً بعظيم مودة. في اليوم التالي إلتقيت صدفة السيد (لورنزو دي مديتشي) (٧٤) فأسرع فوراً يضافحني ويرحب بي أجمل ترحيب. فقد عرف أحدنا الآخر في فلورنسا عندما كنت أشتغل في ضرب سكة الدوق (أليساندرو) (٧٥) وبعدها في باريس عندما كنت في خدمة الملك. وكان أنتدّ ضيفاً على (كولييانو بوناكورزي Giuliano Buonaccorsi) ولما لم يكن يملك موضعاً يمضي في أوقاته دون التعرض لخطر كبير، فقد إعتاد قضاء معظم ساعات يومه في قلعتي يتابع عملي في تلك الآثار الفنية العظيمة. قلت انه ويسبب معرفتنا القديمة أخذ بيدي وإقتادني الى بيته وهناك وجدت النبيل (پريور دلسبي ستروزي) شقيق النبيل (بييرو) وسألاني وهما يرحبان بي مسرورين كم أنوي البقاء في البندقية ظانين أنني في طريقي الى فرنسا. فصارحت هذين النبيلين بالأسباب التي حملتني على ترك فلورنسا وهو ما شرحتة آنفاً. ثم قلت إنني أعتزم العودة لخدمة الدوق الأكبر- بعد يومين أو ثلاثة. ما إن تلفظت بهذه العبارة حتى طفق كل من (لورنزو) و(پريور) يحدقان بي بصرامة، فشاع في أوصالي خوف عظيم. بعدها قال:

- خير لك أن تعود الى فرنسا فأنت هناك ذائع الصيت غنيّ ولو عدت الى فلورنسا فستخسر كل ما نلته في فرنسا. ولن تكافأ إلا بالمتاعب.

(٧٣) تيتيان فيجيللي ١٤٩٠-١٥٧٦. رسام بندي ذائع الصيت. أشهر آثاره (صورة الجبل بلادنس) وترى رسومه في الكنائس الأثرية في عدة من إيطاليا.

(٧٤) (١٥١٤-١٥٤٨) إنتهز لورنزو نعمة الفلورنسيين على اليساندر و إفاغتاله في العام ١٥٣٧، وكان صديقه وعشيرته في لهوه فضلاً عن صلة القرابة- ظاناً أن الثورة ستعم فلورنسا وسينصب هو دوقاً بدلاً عنه. ولما لم يحصل ذلك فقد هرب الى مدينة بولونيا ثم الى تركيا ثم الى فرنسا وأخيراً لجأ الى البندقية حيث اغتيل بيد مجهول. وهذا يفسر وجوده مع آل ستروزي كما ذكر جليليني.

(٧٥) بعد أن وقع الصلح بين كليمنت السابع والپاپا والإمبراطور في العام ١٥٣١ سيق جيش الى فلورنسا وبعد حصار دام (١١) شهراً إستسلمت المدينة وقُضي على الحكم الجمهوري وواعيد اليساندر دوقاً.

لم أجبهما بشيء. وفي اليوم التالي إنطلقت عائداً الى فلورنسا سرّاً دون علم أحد بقدر إمكانني<sup>(٧٦)</sup>. في أثناء ذلك كانت القضية الشيطانية قد شاعت، كما إنني كنت قد كتبت للدوق المعظم مطلعاً إياه على الأسباب والظروف التي حملتني على الرحيل الى البندقية.

إستقبلني الدوق بتحفظه المعتاد وبصرامة ولكن بدون إثارة ضجة. وظلّ تعامله معي مشوباً بالبرود ساعة من الزمن ثم إستدار نحوي هاشأً باشأً وسألني أين كنت؟ فأجبت أنه أن قلبي لم يتحول قيد أنملة عن سموه الجليل وإن أرغمتني أسباب معينة وجيهة على إطلاق العنان لجسدي ليتجول ويدور ضمن مسافة قصيرة. بعدها شرع يسألني عن البندقية وزاد إقباله عليّ. وتبادلنا الحديث برهة. في الختام شدّد عليّ بمواصلة العمل والفراغ من (پرسیوس). فعدت الى داري سعيداً بقلب خال من الهمّ. وإرتاحت أسرتي أي أحتي وبناتها الست بعد قلق. وياشرت العمل وقطعت فيه أشواطاً بهمة ونشاط. كان أوّل ما تعيّن عليّ صبّه بالبرونز- التمثال النصفي الكبير الذي عملته لسموه من الصلصال في دكان الصياغة عندما داهمتني آلام الظهر. وكان عملاً بسيطاً لا تعقيد فيه ما دفعني إليه إلا حرصي على إختيار الصلصال ومقدار صلاحه لصبّ البرونز. كنت قد علمت أن (دوناتللو) الملهم قد إستخدم صلصلاً فلورنسياً عندما صبّ تماثله البرونزية. إلا أنه عانى منه أشدّ الصعاب حتى أصاب نجاحه. وبما إنني تصورت أن المشقّة التي عاناها كانت بسبب رداءة الصلصال، فقد رأيت أن أقوم بهذه التجارب قبل شروعي بصبّ (پرسیوس). على إنه إتضح لي بعد تجاربي بأن الصلصال جيد وإن (دوناتللو) العظيم لم يتفهم خواصه تفهماً تاماً ولهذا عانى ما عاناه. ومهما يكن فقد أعددت الصلصال بأحسن ما يمكن وإعتنيت عناية فائقة بعجنه وخلطه فكان نجاحي فيه كبيراً، وإستخدمته كما قلت في صبّ التمثال النصفي. ولما لم أكن بعد قد بنيت مسبكي الخاص فقد إستخدمت له مسبك (زانوبي دي پانيو Zanobi di Pagno) صانع الأجراس.

ولما ظهر الرأس جميلاً نظيفاً لا تشويه شائبة، شرعت فوراً في بناء مسبك صغير في الدكان الذي كان الدوق قد ملكني إياها. وتم بناؤه طبقاً لمخططي وفكرتي. وكنت أنوي بناءه في البيت الذي وهب لي. لم أكد أفرغ من البناء حتى بدأت أستعد- محشداً كلّ طاقاتي- لصبّ مجسم المرأة (ميدوسا) التي تتخبط تحت قدمي (پرسیوس). ولما كانت العملية في غاية الصعوبة فقد حزمت أمري على الإفادة من كل المهارات والخبر التي إكتسبتها لتفادي أية هفوة ممكنة. وبنتيحة ذلك خرجت القطعة الأولى في غاية الكمال والنظافة، بحيث أشار عليّ أصدقائي بأنني قد أخطيء في إجراء أي تهذيب عليها أو مسّها بتعديل. هذه الطريقة كان قد وقف عليها صنّاع ألمان وفرنسيون فإدعوا الى جانب إمتلاكهم بعض الأسرار الدفينة في هذا المجال- بأنهم قادرون على صبّ البرونز من غير حاجة تدعوهم الى تهذيب أو معالجة تالية للقطعة المصبوبة. وهو في الواقع إدعاء سخيف. إذ بعد ان يصبّ البرونز ويُسبِك بالهيئة المطلوبة لا بدّ وأن يُعالج بالإزميل والمطرقة، وهو ما كان يفعلُه أعظم المثّالين، القدما

(٧٦) يستنتج من عودة جليليني السريعة. ان الخوف الشديد من إتصاله بأقطاب الجمهوريين الفلورنسيين المنفيين في البندقية قد يضعه موضع شبهة ويجرّ عليه متاعب ومشاكل تزيد بكثير عن قلقه من القضية التي ارغم على ترك فلورنسا بسببها.

منهم والمحدثين أو على الأقل أولئك المحدثين الذين يشاركونني المعرفة بهذا .  
سرّ سموه بالنتيجة وتردد اليّ عدة مرات لمشاهدة هذا الجزء من التمثال مشجعاً حاثاً على تحقيقي  
مزيداً من النجاح. إلا أن الحسد الجنوني الذي كان يكنّه لي (باندنللو) ظل يلاحقني. فلم يكفّ عن  
صبّ إفتراءاته عليّ في أذنيّ سموه، فأثر فيه بدرجة كبيرة حتى حملته على الظن بأنّي وإن نجحت في  
صبّ قطعة أو قطعتين من التماثيل، سأخفق إخفاقاً تاماً في صبّ المجموعة التي يتألف منها التمثال  
لأن هذا الفن مجهول بالنسبة اليّ. وإن عليّ سموه أن يحرص على أمواله لئلا تضيع. بلغ من تأثير  
هذه الأقوال في مسامع الدوق النبيلة حدّاً أدى الى قطع بعض الأجور المخصصة لعمالي. فإضطرت  
نتيجة لذلك الى الشكوى الشديدة لسموه. إنتظرت يوماً في درب (سرقي Via de Servi) وما أن أقبل  
حتى وجهت الكلام إليه قائلاً:

- مولاي إن طلباتي لا تُسعف وحاجاتي لا تُسدّ. وأنا أخشى أن تكون ثقة سموك بي قليلة. دعني  
أكرر لك بأنّي قد وعدت وتعهدت بأن يكون عملي أجمل من النموذج الذي عرضته عليك بثلاثة  
أضعاف.

بعد تلفظي بهذه العبارات التي قوبلت منه بصمت ولم تجد رداً، أدركت أنها لم تثمر فيه. فأدركني  
الغضب الشديد. وكدت أختنق من فرط تغلب العاطفة.  
شرعت أقول:

- لا نكران يامولاي في ان هذه المدينة كانت دوماً مدرسة لأسمى العبقريات. لكن وبعد أن يُوفى المرء  
فيها الى نبيل الشهرة لنفسه وينجح في إكتساب معارف قليلة، فإنه يطمع في أن يضيف مجدداً آخر  
الى أمجاد مدينته وأميرها الجليل بالعمل في مجالات أخرى وإثبات حقيقة هذا الأمر. دعني أذكر  
سموياً هو غير خاف عليه. إن (دوناتللو) و(ليسوناردو داڤنشي) العظيم في الزمن الحثالي  
(وميكالنغو بوناروتي) العبقري الملمهم في زمننا الحاضر، هؤلاء الرجال أضافوا بعبقريتهم مجدداً الى  
مجد سموك. وإني لأرغب في أن أضرب بسهمي هذا المضمار فأجزني بالسفر يامولاي لكن فليكن  
سموك حريصاً على أن يبقني (باندنللو) في فلورنسا ولا يغادرها بل ليمنحه سموك أكثر مما يطلب  
دائماً. فلو قصد مكاناً آخر فأن جهله المطبق وغروره المفرط سيحطّ على أكثر تقدير من سمعة  
مدرسة فلورنسا الفنية ذات العماد الرفيع. ألا فلتسمح لي يامولاي بالرحيل ولن أطلب شيئاً ما  
عن أتعابي حتى هذه اللحظة أكثر من عطف ورضا سمك العالي القدر.

لما وجد سموه مبلغ تصميمي وصحة عزمي إلتفت اليّ غاضباً وقال:  
- بنقنوتو! إن كنت تريد الفراغ من أعمالك، فلن أدعك في حاجة الى شيء.  
فشكرته وقلت ان رغبتني الوحيدة هي أن أثبت لحسّادي عزمي وتصميمي على إنجاز ما وعدت به.  
بعد أن تركت سموه، حملت اليّ مساعدة صغيرة، صغيرة جداً بحيث ألجأتني الى مدّ يدي الى جيبي  
لأضمن التقدم بعلمي بخطى أسرع من الزحف على أربع بقليل!  
إعتدت الذهاب الى خزانة الثياب في قصر سموه لقضاء بعض الوقت مع (دومينيكو) وأخيه  
(جيانباولو) في الأمسيات. وكانا يشتغلان في إناء ذهبي للدوقة نوهت به سابقاً، فضلاً عن حزام

ذهبي. كذلك كلّفني سموه بعمل نموذج لقلادة سترصع بها الألماسة الكبيرة التي جرّه الى شرائها (برناردو) و(أنطونيو لاندي). حاولت التنصّل والإعتذار عن هذا التكليف إلا أن الدوق بكثير من الإطراء والمجاملة أقنعني بالعمل فيها دائماً منذ المساء حتى الساعة الرابعة بعد الغروب. وحاول بمعسول القول ولطف الطلب أن يحملني على الإشتغال هناك أثناء النهار أيضاً، فلم أنزل عند رغبته وبقيت مصراً لعلمي اليقين بأن رفضي هذا سيكون سبباً في سخط الدوق عليّ. وإتفق اني جئت متأخراً مساء ذات يوم - على غير عاداتي فإبتدري الدوق قائلاً:

- إنك (مالقنوتو)! (٧٧)

أجبت:

- مولاي! هذا ليس بإسمي، وأنا أدعى (بنقنوتو). لكنني أعتقد إن سموك يقصد ممازحتي، ولذلك سأنسى المسألة.

فأجاب الدوق إنه جادّ كل الجدّ وإنه لا يمزح. وإن عليّ أن أراقب سلوكي، فقد بلغ سمعه بأنني معتمداً على رعايته وحظوتي عنده، أخادع هذا وأستلب ذاك. ولما رجوت سموه الجليل أن يتكرّم عليّ بإسم شخص واحد على الأقل وقع ضحية خداعي. إلتفت اليّ حالاً وقال بعصبية:

- إذهب وأعد الى برناردو ما سلبته من أدواته. وهذا واحدٌ من الأشخاص الذين إحتلت عليهم. فأجبت قائلاً:

- إنّي أشكرك يامولاي وأرجو أن تتلطّف بالإصغاء إليّ وأنا في سبيل عبارتين لا غير. لانكران في أن برناردو أعارني سلّمين قديمين وسندانين وثلاث مطارق صغيرة. وقبل أسبوعين من يومنا هذا نبّهت مساعده (جيورجيو دا كورتونا Giorgio da Cortona) بأن يرسل من يحمل هذه العدّة والأدوات الى صاحبها. وأقبل (جيورجيو) نفسه فحملها. إن ثبت لسموك بأنني منذ جئت الى هذه الدنيا حتى الآن، قد إغتصبتُ أيّ شيء من أيّ شخص أفي روما أو في فرنسا، وسواء في ذلك أعلمت ذلك من الناس الذين أبلغوك بهذه الحكاية أو من غيرهم، لو أنك إكتشفت فيّ شيئاً من هذا القبيل فلك أن تُنزل بي العقاب الذي أستحقّه الذي أستحقّه دون أن تأخذك بي رحمة.

عندما وجدني في حالة شديدة من الهياج، نظر اليّ ذلك الدوق المحبوب الحكيم وقال:

- إن تأنيباً كهذا لا يقصد به الأبرياء طبعاً، وإن كانت المسألة كما تدعي فسأستقبلك دائماً مرحباً بك ومسوراً بمقدمك كما كنت أفعل قبلاً.

فقلت:

- والآن يا صاحب السمو - نظراً الى موقف (برناردو) الشائن أراني مرغماً على هذا السؤال: كم دفعت ثمناً لهذه الألماسة الكبيرة ذات الرأس المقطوط. إنني لأمل في أن أثبت بالبرهان الدامغ عما حدا بهذا المحتال الزنيم والوغد الكبير الى محاولة النيل من شرفي وسمعتي.

قال سموه:

(٧٧) يعني (شرّ مقدّم) وهو معكوس المعنى المستخلص من إسم (بنقنوتو) أي (خير مقدّم). انونها بذلك في حاشية سابقة.

- كلفتني الأمانة خمسة وعشرين ألف دوقية. ما قصدك من هذا السؤال؟  
عندها أخبرت سموه، انه في يوم كذا وكذا وفي الساعة كذا في منعطف من منعطفات السوق  
الجديد، طلب مني (أنطونيو فييتوريو لاندي) بالتوسط له عند سموه لشرائها. وكان الثمن المبدئي  
الذي رسمه لها ستة عشر ألف دوقية. ثم إستتليت:

- ... وها أنت تدري يا صاحب السموك كم دفعت بها. وإن شئت دليلاً على ما أقول، فسل (دومينيكو  
يوجيني) وأخاه (جيانباولو) وكلاهما موجود فقد أعلمتهما بالأمر فور وقوعه. إلا أنني منذ ذلك  
الحين وبعد أن حكم سموك بأنني لا أفهم شيئاً في الموضوع- لم أنطق بكلمة واحدة وحفظتها في  
نفسي مستنتجاً بأنك تقصد المحافظة على سمعة الأمانة الحميدة. وقد وجب عليّ القول يامولاي  
بأنني على دراية بهذا الموضوع. وأما عن القضية الأخرى، فإني لا أخجل من الإدعاء بالإستقامة  
والأمانة مطولاً أي مخلوق على وجه البسيطة مهما كانت سمعته. أنا لست بذلك الذي يحاول  
سرقتك، فيختلس منك ثمانية أو عشرة آلاف دوقية صفقة واحدة. بالعكس إنني أحاول كسبها بكدّ  
يمني وعرق جيبي. لقد إضطلعت بخدمة سموك مثلاً وصانغاً ومديراً لدار الضرب فحسب، وأنا  
أربأ بنفسني عن وظيفة الواشي والنمّام ونقل الحكايات عن أمور الآخرين الخاصة، وأقوالي هذه هي  
دفاعي عن نفسي فقط. وإني لأزهد الناس في المكافأة التي تعطي للمخبر الواشي. لقد قلتُ  
ماقلتُ بحضر من هؤلاء الطيبين الواقفين حولنا كيلا يصدق مايزعمه (برناردو).

نهض الدوق منتصباً وقد بان عليه الغضب وأرسل حالاً بطلب (برناردو). فإضطر هو و(أنطونيو  
لاندي) الى الفرار واللجوء الى البندقية. رحلا إليها وبعد قليل عادا وأخبرني (أنطونيو) بأنه كان في  
حديثي معه يقصد أمانة أخرى غير تلك التي باعها من الدوق.  
وراجعت الدوق وقلت له:

- مولاي إن ماقلته لك عن الأدوات المستعارة من (برناردو) هو الصحيح وما زعمه لك هو الكذب  
الصراح. ولتسمح بإجراء الرأي الصائب وهو أن يُفتح تحقيق رسمي، وأن تدعني أراجع رئيس  
الشرطة.

نظر الدوق اليّ ملياً ثم قال:

- أي بنقنوتو، إحرص على حياة مستقيمة مثلما كنت في الماضي. ولا تدع للقلق والإهتمام بغير ذلك  
سبيلاً الى نفسك.

وتنوسيت القضية. وتلاشت كما يتلاشي الدخان وكان هذا آخر عهدي بها.  
تفرغت الى القلادة. وبعد إنتهائي منها حملتها الى الدوقة فقالت لي بالحرف الواحد بأنها تقوم  
صنعتي بثمان الأمانة التي توسط (برناردو) المذكور في شرائها. وشاء لطفها أن أقوم بتثبيتها الى  
صدرها وناولتني دبوساً كبيراً ففعلت. ثم عدت الى منزلي بعد أن أغدقت عليّ الكثير من والمديح  
والثناء.

وبعد زمن طرق سمعي بأنهم رصعوا الأمانة في حلية أخرى قام بصياغتها صائغ ألماني أو أجنبي  
آخر. كم هو مبلغ ذلك من الصحة؟ لا أدري. فلقد حكم (برناردو) بأن الأمانة ستزداد ظهوراً وبروزاً

إن رصعت في حلية أكثر بساطة من حليتي وأقل تعقيداً.

يخال لي أنني نوهت قبلاً بقيام الصانعين الأخوين دومينيكو وجيانباغولو بوجيني بالعمل في خزانة ثياب قصر سموه المعظم مستخدمين نماذجي التي صنعتها لآنية ذهبية صغيرة مزدانة بمجموعة من التهاويل البارزة ولغيرها من الحلي ذات القيمة العالية. وكنت لا أفتأ أقول للدوق:

- مولاي! لو إستأجر لي سموك الأفخم عدداً من العمال فسأقوم بصنع سكة لك في دار الضرب فضلاً عن ميداليات ينقش عليها رأس سموك الموقر، وسأضاهي وأبزّ بها كل ماخلفه الأقدمون منها. لأنني إكتسبت كثيراً من الخبرة والمعرفة منذ صغري ميداليات الپاپا كليمنت. سأكون قادراً على إخراج أفضل التحف ولسوف أفوق بها السكة التي ضربتها للدوق (أليساندرو)، تلك السكة التي مازالت تعدّ نموذجاً رائعاً. كما سأعمل لك آنية من الذهب والفضة كتلك التي صنعت العديد منها للملك الجليل فرانسوا ملك فرنسا. وبسبب المعونات الكثيرة التي قدمها لي كان في وسعي أن أعجل في صنع التماثيل العملاقة وخلافها من التماثيل أيضاً.

فقال الدوق مجيباً:

- إمض قدماً وسأنظر في أمر مساعدتك.

لكنه لم يزودني بأي مساعدة، ولم يسهّل أموري قط. وفي ذات يوم دفع اليّ ببضع أوقيات من الفضة وهو يقول:

- هذا من فضة مناجمي. إصنع لي منها إناءً جميلاً.

لم يكن بودّي إرجاء الإشتغال به (پرسیوس) إلا أنني كنت في الوقت نفسه أحرص على تنفيذ طلباته وخدمته، ولذلك عهدت اليّ وغد من الصاغة يدعى (پييرو دي مارتينو Peiro di Martino) بمهمة صناعة الإناء الفضي بعد أن زودته بنموذج شمعي مع تخطيط. فبدء به بداية سيئة وتلكأ في عمله وهكذا ضيعت وقتاً كثيراً يزيد بكثير عما لو قمت أنا بصياغته. فبعد أن ضاعت أشهر عليّ و(پييرو) لا يقربه ولا يكلف أحداً به، إسترجعته وعانيت مشقة عظيمة في إعادة الإناء اليّ هيئته الأصلية. وكنت كما قلت- قد بدأت العمل قبل دفعه اليّ (پييرو). أما الدوق الذي نما اليه طرف من الحكاية فقد أرسل بطلب الإناء والنموذجات دون أن يعرفني بالقصد من ذلك. وكانت النتيجة أن دفع به اليّ أياد عديدة في مدينة البندقية، فلم يجيدوا الصنعة فيه قط.

دأبت الدوقة على طلب صياغة بعض الحلي لها. فكنت أجيبها بقولي:

- الكلّ يعلم يقيناً وإيطاليا كلها تشهد بأنني صانع جيد. إلا أن هذه البلاد لم تر منحوتة أو تمثالاً من صغري. هناك بين أبناء حرفتي عدد من النحاتين الخبثاء الذين يهزأون بي ويصفونني بالنحات المبتدئ، بيد أنني أأمل أن أريهم في نحاتاً عتيقاً متمرساً إن مكّنتني الله من إكمال پرسیوس وعرضه في ميدان سموه الشريف.

عدت اليّ داري وتفرغت للعمل المتواصل ليلاً ونهاراً وإنقطعت عن الذهاب اليّ القصر. على إنني رأيت ضرورة الإبقاء على حظوتي عند الدوقة ونيل رضاها. فصنعت لها عدداً من المزهريات الفضية. وكانت بحجم تلك الآنية الرخيصة المبتذلة. وزينتها برؤوس وصور جميلة بأسلوب يخالف المألوف

وعلى طريقة الأقدمين. أخذتها إليها فاستقبلتني بلطف لا مزيد عليه وسددت لي قيمة الفضة والذهب اللذين وضعتهما في المزهريات ثم رجوتها أن تعلم الدوق بأنني لا أتلقى إلا أقل مساعدة في عملي الذي كُلفت به وأن لا يعبر كبير إهتمام لقول ذلك الشرير (باندنللو) وإفترائه التي حالت بيني وبين إتمام (پرسیوس). بعد هذه الشكوى الباكية هزت الدوقة كتفيها وقالت:

- بالتأكيد يجب على الدوق أن يسمع هذا، وهو إن صاحبه (باندنللو) هذا لا يسوى قلامة ظفر. لازمتم داري لا أرتاد القصر إلا في النادر وإنكسبت على عملي بغية الفراغ من تمثالي بأسرع وقت. ثم حان أجل دفع أجور عمالي. والذي حصل حولها إن الدوق بعد أن أمر (لاتانزيو گوريني) بدفع مبلغ يسد أجور العمال لثمانية عشر شهراً. أخذ هذا يتأفف ويتمنع ثم حرمني المنحة. وقال جواباً على طلبتي وهو يلوح بيديه العنكبوتيتين وينأم بصوته الشبيه بطنين البعوضة:

- لماذا لاتفرغ من تمالك؟ المعتقد الشائع أنك لن تكمله قط.

فأسرعت فوراً الى الرد عليه مهتاجاً:

- الى سقر بك ويكل من يعتقد اني لن أكمله!

وقادني ياسي الى داري حيث (پرسیوس) ذو الحظّ العاثر. وتذكرت بعينين دامعتين. المركز الرفيع الذي خلّفته ورائي في باريس وأنا في خدمة ملك فرنسا الكريم الذي أعطاني الكثير من كل شيء في حين أنا الان في فلورنسا خالي الوفاض لا أملك شيئاً. وبدافع اليأس خالجتني فكرة ترك كل شيء وفي واحدة من هذه الحالات النفسية النكدية ركبت حصاني الجميل وانطلقت به الى (فيسيزولي Fiesole)<sup>(٧٨)</sup> وفي جيبي مائة كراون قاصداً زيارة إبني الطبيعى الذي كنت قد أودعته في حضانة صديقة هي زوج أحد عمالي. فوجدت الطفل في صحة جيدة جداً وقبّلته وأنا كسير القلب حزين. وعندما أرفق وقت رحيلي تعلّق بي وأبى أن يتركني. أمسكني بيده الصغيرة وإنفجر يبكي بكاءً مرّاً ويصرخ. فعجبت لصدور هذا من طفل لا يتعدى عمره السنتين:

إعتاد (باندنللو) إرتياد مزرعته الواقعة فيما يلي (سان دومينيكو) مساء كل يوم. فقررت في لحظة يأس أن ألقى بنفسي عليه إن التقيته. إنترعت نفسي من إبني الصغير وتركته وعيناه تكادان تنفجران بكاءً. وما أن بلغت ميدان (دي سان دومينيكو)<sup>(٧٩)</sup> وهو على الطريق المؤدية الى المدينة، حتى لمحت (باندنللو) داخلاً من النهاية الأخرى. فقررت في الحال تنفيذ ما صمّمت عليه بهجوم قتال فدنوت منه ونظرت إليه فاذا هو أعزل يعتلي متن بغل أو حمار زري الهيئة برفقة صبي في العاشرة. ما إن فطن الى وجودي حتى علت وجهه صفرة الموت وأخذ يرتجف ويرتعش من قمة رأسه الى إخصم قدمه. وعندها راجعت نفسي مدركاً العمل الشائن الذي كنت أهمم بالإقدام عليه. فقلت:

- لاتخف أيها الجبان الرعديد. فإني لن أخط من قدر نفسي بضربك.

تطلّع اليّ بدلة وإنكسار ولم ينبس ببنت شفة. هكذا تغلب الجانب الطيب مني وحمدت الباربي الذي عصمتني قدرته وألطفه من إرتكاب مثل هذه المعصية. بعد أن تحررت من غضبي الشيطاني إرتفعت

(٧٨) ضاحية تقع شمال فلورنسا وتبعد عنها زهاء ثمانى كيلومترات.

(٧٩) مازال هذا الميدان محتفظاً باسمه الى يومنا هذا. [حاشية مكداول]

معنوياتي وقلت لنفسي:

- إن لطف الله بي وأعانني على إنجاز عملي فإنني آمل بهذه الوسيلة قهر كل أعدائي الغدّارين وسأناثراً أعظم مما لو صيبت جامه على أحدهم.

بهذا العزم الجميل عدت الى داري. وبعد ثلاثة أيام وردني نبأ إختناق إبني الوحيد بإهمال الحاضنة. فكان حزني يفوق كل أحزاني السابقة ولم أجد إلا أن أركع على ركبتيّ باكياً شاكراً البارئ وقلت باللهجة التي إعتدتها في مثل هذه الظروف:

- إلهي! أنت أعطيتني وأنت أخذته وأنا أحمدك وأشكرك على كلّ حال ومن صميم قلبي.

ومع حزني الذي كاد يسحقني تحته، تجمّلت بالصبر وجعلت من الضرورة فضيلة وكعادتني روّضت نفسي على الصبر والتحمل.

في حدود ذلك الزمن، إتفق أن شاباً في مقتبل العمر يدعى (فرانشسكو) ابن (ماتيو) الحداد. ترك العمل عند (باندنللو) وجاءني يطلب عملاً عندي. فرحبت به وكلفته بصقل وتنظيف تمثال (ميدوسا) الذي كنت قد فرغت من صبه. وبعد مرور أسبوعين أخبرني هذا الشاب بأن حديثاً جرى بينه وبين (باندنللو) وإن (باندنللو) هذا حملّه رسالةً لي، مجملها انه على إستعداد لإهدائي رخامة ثمينة إن كنت أرغب في نحت تمثال من الرخام. فأجبت على الفور:

- قل له إنني أقبل. وأتعشم أن تكون شاهداً يوضع على قبره. ان الرجل لا يفتأ يستفزني. ولعله نسي الخطر الماحق الذي كان يواجهه عندما إلتقاني في ميدان (سان دومينيكو). أجل قل له إنني أريدها على كلّ حال. أنا لا أتى الى ذكره ولا أتحدث عنه قطّ إلا أن الحيوان يصرّ على إزعاجي وإقلاق راحتي وما أظن مجيئك اليّ وعملك عندي إلا لأنه أرسلك للتجسس على أشغالي، ومهما يكن من أمر قل له إنني أقبل الرخامة رغم أنفه، فاذهب وجئني بها.

مرت عدة أيام وأنا معتكف في بيتي لا أزور القصر ثم خطر لي فجأة أن أتوجه اليه في صبيحة يوم. وجدت الدوق قد فرغ لتوه من تناول طعامه ومما سمعته هناك هو أن سموه كان في ذلك الصباح يشيد بي ويمتدحني. ومما نوه به في هذا الصدد مهارتي في التكفيت ورصع الأحجار الكريمة. الخلاصة أن الدوقة لما رأتني أرسلت النبيل ستورزا Storza تستدعيني إليها ولما قدمت نفسي لسموها الأقم طلبت مني أن أقوم بصنع خاتم صغير لألماسة صغيرة مقببة. قالت إنها ستضعه دوماً في خنصرها. ودفعت اليّ بالألماسة التي كانت تسوى مائة كراون تقريباً فضلاً عن المقياس المطلوب راجية مني الإستعجال فيه. فبادر الدوق الذي كان حاضراً، يناقش موضوعي مع الدوقة، إذ قال:

- لاشك أن بنقنوتو وحيد عصره في مجال صناعته. لكنني أتصور بعد ان هجرها إن تكليفه بخاتم صغير كالذي طلبته سيتعبه كثيراً لذا ارجو ان لاتثقلني عليه به رغم تفاهته فإنه سيتضايق منه بعد ان طلق حرفته.

شكرت الدوق على أحاسيسه ثم رجوته ان يسمح لي بتقديم هذه الخدمة الصغيرة للدوقة. وبدأت العمل دون تلوؤ فأكملت في بضعة أيام. وكانت قد قررت أن تضعه في خنصرها ولذلك جعلت فيه ثلاثة ملائكة صغاراً بارزة، وأربعة أقنعة صغيرة. ثم نظمت حول الألماسة بعض الثمار مطلية بالمينا وربطتها بها، فبدا الخاتم بأجمل ما تقع عليه العين. أخذته من فوري الى الدوقة، فقالت بلطف

وإستبشار إني صنعت لها أجمل حلية وأردفت تقول إنها لن تنساني. ثم إنها أرسلت الخاتم هدية الى الملك فيليب<sup>(٨٠)</sup>. ثم واصلت تكليفي بصنع الحلبي وكان أسلوبها في الطلب رقيقاً ساحراً يضطرني مرغماً على تلبيته مع إني ماكنت أرى من مالها لقاء أتعابي إلا القليل. والله يدري كم كنت في حاجة الى شيء منه. فقد أردت الفراغ من (پرسیوس) وإستخدمت لمساعدتي فيه عدداً من الشباب كنت أدفع أجورهم من جيبي. وعدت أتردد الى القصر أكثر مما كنت أفعل في السابق. في يوم عيدٍ أو ما أشبه قصدت القصر بعد الغداء. وما إن إحتوتني (غرفة الساعة) حتى لاحظت أن باب خزانة الثياب مفتوح فدنوت منه قليلاً وإذ بالدوق يناديني ويحييني ببشاشة قائلاً:

- مرحباً بك. الق نظرة على هذا الصندوق الصغير الذي أهدها لي السيد (ستيفانو بالسترينا Stefano Palestrina) افتحه ودعنا نرى ما فيه.

فبادرت الى فتحه وقلت للدوق:

-مولاي. أنه تمثال من الرخام اليوناني. وهو أثر فني رائع. وأنا لا أتذكر اني شاهدت مثل هذا التمثال الاثري -الذي يمثل صبياً صغيراً منحوتاً- بهذه الدقة والجمال. وليس لي سموك الأفخم بأن أعرض عليك إصلاحه، أعني بإضافة الرأس والذراعين والقدمين وسأضعه على نسركي يصح إطلاق إسم (گانيميد)<sup>(٨١)</sup> عليه. ومع إن ترميم التماثيل ليس من شأني (هذا النوع من العمل ينام عادة بالمرقعين وهم أجهل الناس) فإن مهارة هذا النحات العظيم تسوقني الى خدمته. سرّ الدوق كثيراً بمعرفة قيمة التمثال وجماله. وأمطرنى بالعديد من الأسئلة حوله:

- قل لي ياعزيزي بنفوتو، ماذا حقق النحات الصانع فيه بالضبط بحيث حملك على الإعجاب بالتمثال؟

وهنا بذلت جهدي لإبراز النواحي الفنية فيه والأسلوب النادر الذي إتبعه النحات والإدراك الدقيق لأسرار الفن الذي يحتويه. وواصلت الضرب على هذا الوتر ملياً وأنا مسرور لأنني كنت أعرف مبلغ إستمتاع الدوق بالإصغاء اليّ عند بحث هذه المواضيع. وبينما أنا أنادم سموه بهذا الشكل اللطيف. إتفق أن أحد الحجاب خرج من غرفة الثياب وقبل ان يتوارى دخل (باندنللو) فقطّب الدوق عند رؤيته وقال بلهجة خلت من الود:

- عمّ تبحث؟

وبدلاً من الإجابة فوراً، أرسل (باندنللو) طرفه الى الصندوق الصغير حيث التمثال قائم ظاهر وقال للدوق وهو يضحك بخبث ويهزّ رأسه:

- مولاي، لديك هنا واحدٌ من تلك الأشياء التي طالما حدثتكَ عنها. هؤلاء الأقدمون كما ترى لا يفقهون شيئاً عن تشريح الجسم البشري. ولذلك كانت آثارهم ملأى بالأغلاط.

(٨٠) هو الملك والإمبراطور فيليب الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨) ابن شارلكان ملك إسبانيا. تولى الحكم بعد وفاة ابيه وسار على نهجه في توسيع رقعة أملاك أسبانيا وفي عهده منى الأسطول الذي وجهه لغزو بريطانيا (الأرمادا) بهزيمة ساحقة في (١٥٨٨).

(٨١) في الأساطير اليونانية: شاب جميل حمله (جوبيتر) الى الأولمپ ليكون ساقى الآلهة.

بقيت ساكناً غير ملقٍ بالاً الى حديثه، بل إنني أدت له ظهري. وما أن فرغ الحيوان من ثرثرته السمجة حتى إبتدرني الدوق قاتلاً:  
- لكن هذا يا بنقوتو يناقض كل ما برهنته لي بمنطق ساحر للغاية. ألا دعنا نسمعك وأنت تدافع عن التمثال قليلاً.

قلت رداً على سؤال الدوق الذي وجهه بكلّ لطف:

-مولاي! على سموك الأفخم أن يدرك بأن (باجيو باندنللو) هو الشرّ مجسماً وقد كان كذلك دوماً. ولهذا فإن كل شيء يقع عليه نظره الكريه ينقلب الى قبح وشرّ بالغ مبالغ من الجمال والرفعة. لكنني أنا الذي كنت دائماً أنجذب الى كل ما هو جميل وطاهر- أرى الأشياء من زاوية صافية نقيّة ولهذا فإن معارضته لسموك حول التمثال البالغ قمة الجمال، هو الحقّ الصراح وإن ماقاله عنه (باندنللو) إنما يعكس سوء طبيعه.

وقف الدوق يصغي اليّ بغاية اللذة والإنشراح. وكان (باندنللو) أثناء حديثي يديم التمللمل والتأود وتنقلب سحنته لتبدو غاية في القبح على قبحه بالأصل. ثم ترك الدوق القاعة سالكاً سبيله عبر حجرات في الطابق الأسفل وسار (باندنللو) في أعقابها تابعنا الدوق والوصفاء بمسكون بطرف معطفي ويقودونني عبرها حتى بلغ سموه غرفة فاتخذها مجلساً ووقفنا أنا و(باندنللو) كلّ الى جانب لاننطق بحرف والرجال يحقّون بنا ويضمنهم عدد من خدم سموه، والجمع يوجّه الى (باندنللو) نظراً حديداً ويتهايمسون فيما بينهم حول ماقلته في الغرفة العليا. ثم بدأ (باندنللو) هراءه بالقول:

- مولاي. عندما أزحت الستار عن تمثالي (هرقل وكاكوس)<sup>(٨٢)</sup> كنت متأكداً بأن أكثر من مائة قصيدة مبتذلة قد نظمت بحقي تتضمن أقذع شتائم يمكن أن تصدر من أمثال هؤلاء الرعاغ. فقلت جواباً على هذا:

- مولاي. عندما أراح مواطننا (ميكالنجلو بوناروتي) الستار عن (سكرستيه Sacristy)<sup>(٨٣)</sup> بتماثيلها الجميلة العديدة. نظم فنانونا الموهوبون من نوابغ فلورنسا أصدقاء الحقيقة والتفوق أكثر من مائة قصيدة بحقها يسابق أحدهم الآخر في إزجاء أرفع المديح والثناء. فكما إستحق عمل (باندنللو) كلّ الهجاء الذي يقول انه قُذف به كذلك كان عمل (بوناروتي) يستحق كلّ الإطراء الذي قيل فيه. بلغ الغيظ بـ(باندنللو) حداً حسبت معه انه سينفلق. فإلتفت اليّ وقال:

- وماهي تلك العيوب التي تأخذها عليه؟

- سأخبرك بها إن صبرت على سماعها.

(٨٢) هذا التمثال الكبير مازال قائماً في (الأوفيزي) بفلورنسا. وهو ليس بالشكل الذي يصفه چليني بطبيعة الحال. وهرقل في الأساطير اليونانية أشهر من أن يُعرف به. أما (كاكوس) فهو ابن (قولكان) إله النار، لص وقاطع طريق سرق أبقاراً لهرقل وإستاقها فتعقبه هرقل وإستعادها منه مهتدياً إليه بخوارها.

(٨٣) حجرة قد تكون خارج البيعة أو خارجها. مخصصة لحفظ الآنية المقدسة والحلل الكهنوتية وغير ذلك من الألبسة والحاجات الكنسية.

- إذن فهات ما عندك.

كان الدوق والحاضرون يتطلعون الى ما سأقول بكل شوق.  
قلت أولاً:

- من الواجب عليّ أن أقول انه ليؤلمني الإشارة الى عيوب تماثلك، لذلك فإنني لن أتطرق اليها  
وسأقصر كلامي على إعلامك بأقوال شعراء فلورنسا عنها.

كان الرجل البائس تارة يتمتم بشيء سخيف، وتارة يحرك قدمه ويلوح بيديه. حتى أثارني الى الحد  
الذي جعلني أبدأ بداية مهينة جارحة ماكنت لأجأ اليها لو انه تصرف بخلاف ذلك.

- ... إن مدرسة الخبراء في فلورنسا تقول: لو أن شعراً (هرقل) قد حُلِقَ لما بقي من رأسه ما يكفي  
لإستيعاب دماغه. وإن المرء لا يدري أوجهه هو وجه إنسان أم مزيج من رأس أسد وثور؟ وإن نظرتة  
غير طبيعية، وإن إلتحام الرأس بالعنق هو على أسوأ ما يكون. إلتحام سيء قبيح لم يُشاهد مثله  
من قبل. وإن كتفيه القبيحتين تشبهان مقدمة ومؤخرة برذعة حمار النقل. وأن صدره وبقية عضلاته  
لم تستنسخ عن جسم بشري وإنما إستوحيحت من غرارة عظيمة الجرم ملأى بالبطيخ ومستندة الى  
حائط! وأما الحُقوان فكأنما نُقِلَا عن كيس من اليقطين المستطيل. وبخصوص الساقين فمن المتعذر  
أن يفهم كيف تم وصلهما بالجذع ذي الشكل البائس. كما كان من الصعب ان يتبين المرء على أي  
من قدميه يقف أو على أيهما يوازن جسمه. ومن المؤكد إنه لا يبدو مركزاً ثقله عليهما معاً، كما هو  
الحال في بعض التماثيل التي نحتها أولئك الفنانون العارفون من أسرار الصنعة. وكل ما يُشاهد  
منه هو أنه يميل الى أمام بدرجة مِيل قدرها ثلث كوبيت (٦ إنجيات). وهذا بحد ذاته أسوأ خطأ  
يرتكبه هذا الصانع الفاشل السوقي. وهو ما لا يمكن إغتفاره له أبداً. أما عن الذراعين فقد قيل  
انهما يبرزان بصورة قبيحة ويفتقران الى الأناقة حتى ليبدو وكأن النحات لم يشاهد جسماً بشرياً  
حيّاً عارياً. وقالوا أيضاً أن ساق هرقل اليمنى قد إلتحمت بساق (كاكوس) في الوسط بشكل لو  
أزيحت أية ساق منهما فإن كليهما - لا واحدة منهما - ستكون بدون ريلة<sup>(٨٤)</sup> ويقولون كذلك إن  
إحدى قدمي (هرقل) قد دُفنت وأن الثانية تبدو وكأن أحدهم اشعل ناراً تحتها.

لم يطق الرجل صبراً على السكوت ولم يدعني أو اصل وصف العيوب الكبرى في (كاكوس): أولاً  
لأنني كنت أقول الحقيقة. وثانياً لأنني كنت أكشف المعاييب بكل وضوح للدوق وللحاضرين الآخرين  
الذين كانوا يعبرون عن عجبهم ويكشفون عن إدراكهم بأنني أصبت كبد الحقيقة.

صرخ الرجل مقاطعاً:

- تبا لك أيها المفترى الخبيث. وما قولك عن نموذجي؟

قلت:

- من يحسن عمل النماذج لا يمكن أن يصنع تماثيل سيئة. لذلك فلي أن أحكم أن نموذجه هو من طينة  
عمله الرديء.

(٨٤) هي عضلة الساق الخلفية.

ثم ركبه الهياج لدى ملاحظته موقف الدوق والحاضرين والتعابير المرتسمة على وجوههم، فغلبت عليه صفاقته ووقاحتها وأدار وجهه القذر القبيح نحوي وقال:

- اسكت أيها اللوطي القذر.

وقطب الدوق جبينه غاضباً. وزمّ الآخرون شفاههم وراحوا يبخلقون فيه وأنا إزاء هذه الإهانة الشنعاء كدت أختنق كمدأ. لكنني وجدت الجواب المناسب في الحال، فقلت:

- أيها المجنون. إنك تعديت كلّ الحدود. على إني أرغب من صميم قلبي أن تدلني على كيفية ممارسة هذا العمل الشريف! على أية حال نحن نقرأ عن سيد الآلهة بأنه كان يمارس ذلك مع (گانيميد) في الجنة. وأما هنا على الأرض فنحن نرى أعظم الأباطرة وملوك العالم يتعاطونه. إني إنسان خامل الذكر صغير الشأن لاقدرة لي على ممارسة هذا العمل المدهش ولا معرفة لي به.

وهنا لم يستطع أحدٌ ضبط نفسه فإنفجر الدوق وسائر الموجودين يقهقهون وتعالّت صرخاتهم حتى ارتجت لها أركان القاعة. صحيح إني إتخذت من الأمر مادة للهزل والتندر. إلا أن جوفي - ياقرائي الأعزّاء - كان يحترق لبلوغ الجراة بهذا الرجل وهو أقدر وغد ولدته أم، الى الحد الذي يقذفني بإهانة مثل هذه يحضر من هذا الأمير العظيم. إلا أنكم أدركتم بدون شك بأن المهان الحقيقي هو الدوق لا أنا. اذ لو لم أكن بين جمع من النبلاء كهذا الجمع لما ترددت في إخماد أنفاسه.

لما وجد السوقي الأبله القذر أن السادة الحاضرين مسترسلون في إرسال ضحكاتهم عاجزون عن وقفها راح يغيّر الموضوع في سبيل وضع حدّ للضجة فقال:

- ان هذا البنثوتو يشيع بين الناس مفتخراً بأنني وعدته بقطعة رخام...

ولم أدعه يكمل عبارته فقاطعته قائلاً:

- ماذا؟ ألم ترسل (فرانشسكو) ابن ماتيو الحداد أحد معاونيك ليقول لي بأنك على إستعداد لإهدائي قطعة من الرخام في حال إبداء رغبتني؟ أو لم أقبل عرضك هذا؟ ثق إني متمسك بوعدك ولن أدعك تنكل عنه.

فأجاب:

- اطمئن إنك لن تراها أبداً.

مازال جوفي يتلظى من نار الشتائم الكاذبة التي صبّها. فما نطق بهذه العبارة حتى افلت زمامي من يدي ونسيت اني في حضرة الدوق وصحت بهياج:

- هذا إنذار صريح لك. إن لم ترسل الرخامة الى بيتي فلتبحث لك عن عالم ثانٍ تعيش فيه. لن أصيب راحة في هذه الدنيا حتى أبقّر بطنك وأخرج هواها.

وصحوت على الفور مدركاً إني أواجه الدوق فإستدرت الى سموه بكل خشوع وقلت:

- مولاي! الأحق الواحد يخرج مائة أحمق. إن لوثة هذا الرجل أنستني بأنني قائم بين يديك، كما ان حقلك في التوقير واجب علينا فعفواً ومغفرة.

التفت الدوق الى (باندنللو) وسأله:

- أصبح هذا؟ هل وعدته برخامة؟

فإعترف (باندنللو). فقال لي الدوق. إذهب الى (الأوبرا) وإختر ما تريد من الرخام بحسب ذوقك. قلت إن (باندنللو) وعد بإرسالها الى داري. ثم وقع جدال حاد وبقيت مصراً على أن تصل الرخامة الى داري. وفي صبيحة اليوم التالي وصلت داري قطعة من الرخام فسألت عن مرسلها، فقالوا إنها من (باندنللو) وهي التي وعدني بها. فنقلتها حالاً الى المعمل وبدأت أعمل إزميلي بها. وفيما كنت أعالجها قمت بعمل نموذج لها إلا أن لهفتي الى نحتها أفقدتني الصبر على إتقان النموذج والإعتناء به. ثم تبين لي أن الرخامة هشّة جوفاء وندمت كثيراً على بدايتي في نحتها. على أنني نحتُ ما تبسّر منها وأقصد هيئتي (أبوللو وهياسنته)<sup>(٨٥)</sup> اللذين مازالا موجودين في مصنعي غير كاملين. وكان الدوق يزورني وأنا عاكف على عملي وكثيراً ما قال لي:

- دعك من البرونز الآن وابدء العمل. وخذني أشاهدك تشتغل في الرخام.

فأتناول إزميلي وأبدأ العمل بنفسية الواثق من الإجادة. وسألني يوماً عن التصميم الذي صنعته للرخامة. فأجبت:

- مولاي إن الرخامة ملأى بالصدوع إلا أنني سأستخرج شيئاً منها. لذلك لم أشأ الإستقرار على فكرة معينة لتصميم. وإن كنت سأستمر في نحت التمثال على خير ما يمكنني.

أسرع الدوق فأرسل اليّ قطعة من الرخام كان قد جلبها من روما لإصلاح تمثال (كانيميد) الأثري سبب المشادة بيني وبين (باندنللو). وبعد أن تمثلتها وجدت من الحيف أن أقطعها لأعمل منها رأساً وذراعين لذلك إستخدمت قطعة أخرى. وقمت بعمل تصميم للرخامة اليونانية صغيرة الحجم من الشمع وأطلقت عليه إسم (نارسيوس)<sup>(٨٦)</sup>. كان في هذه القطعة ثقبان عمقهما أكثر من ربع كوبيت (٥ . ٤ إنجات) وسعتهما قدر إصبعين. ولهذا إتخذت لتصميمي الوقفة التي يتم بها تحاشي الثقبين وبعدها فصلتهما. إلا أن الرخامة كانت قد تركت تحت المطر زهاء عشر سنوات. حيث كان الثقبان فيها لا يخلوان قط من ماء المطر الذي تغلغل فيها فنخرها نخرأ وأبلاها. ولم ينكشف مدى التلف المتأتي من الثقب الأعلى إلا بعد حين أي عندما فاض نهر (الأرنو) وإرتفع منسوب مياهه في مصنعي الى ما يزيد عن كوبيت ونصف كوبيت. وكان (نارسيوس) مقاماً على كتلة من الخشب فعلاه الماء حتى غمره فإنكسر الى شطرين من ناحية الصدر فلحمته. ولكي أخفي موضع الإنشطار أضفت الى التصميم قلادة من الزهر ترى مستقرة فوق الصدر. ودأبت على العمل فيه يوماً ابتداءً من الفجر وفي أيام الأعياد أيضاً حتى أكملته؛ كل ذلك حرصاً على أن لا أضيع شيئاً من وقت العمل المخصص لـ(نارسيوس).

(٨٥) في الأساطير الإغريقية هياسنته Hyacinthus شاب عشقه أبوللو وقتله خطأ وأنبت لذكراه زهرة الزنبق من مسقي دمه

(٨٦) في الأساطير الإغريقية. هو شاب بارع الحسن نظر الى صورة وجهه المنطبعة في الماء فعشقه ومال كثيراً وهو

يتأملها فسقط في الماء وغرق. ونبتت في الموضع زهرة النرسيه او النرجسة. ومنه جاء المصطلح السايكولوجي لداء

عصابي يعرف بالنرجسية أي عشق الذات.

ذات يوم، وأنا أقوم بسنّ عدد من الأزاميل التي أستخدمها، طارت شظية دقيقة جداً من الفولاذ وإستقرت عميقاً في إنسان عينيّ بحيث تعذر إخراجها. خيّل لي أنني سأفقد بصر هذه العين حتماً. وبعد أيام إستدعيت الطبيب (رافاييلو دي بيلي Rafello di Pili) فجاء بحمامتين حيتين وأضجعني على نضدٍ ثم أمسك بالطائرين وفتح بسكين صغيرة عروفاً كبيرة في جناحيهما فتدفق الدم في عيني. وشعرت فوراً بالراحة، وقبل أن يمرّ يومان على ذلك خرجت الشظية وسلم بصري وتحسّن.

وأقبل عيد القديسة (لوجي)<sup>(٨٧)</sup> بعد ثلاثة أيام من شفائي. فقامت بصياغة عين ذهبية من قطعة تاج فرنسي وأوعزت الي واحدة من بنات أختي الستّ وهي (ليبيراتا) البالغة عشر سنين- بتقديمها للقديسة نيابةً عنيّ، عربوناً لشفائي شاكرًا الله وأياها.

طال ترددي في العمل بتمثال (نارسيوس). وإنقضت فترة وأنا غير مستقرّ على رأي فيه. إلاّ أنني واصلت الإشتغال في (پرسیوس) رغم الظروف الصعبة التي أتيت الي ذكرها. وكلّي عزم وتصميم على الفراغ منه ثم الرحيل عن فلورنسا. صببت (ميدوسا) بالبرونز فخرجت على أحسن هيئة. وأشرفت على إكمال (پرسیوس) تحدوني آمال جسام. كنت قد كسوته بالشمع ومنيتّ النفس بالنجاح في صبّه مثلما نحجت في صبّ (ميدوسا). كان (پرسیوس) المكسوّ بالشمع يبدو مهيباً رائعاً وحكم الدوق بأنه آية في الإبداع. ويغلب على ظنيّ أن أحدهم أوحى إليه بأن عملية صبّه بالبرونز ستمنى بالفشل. أو لعلها كانت فكرته الخاصة. إلاّ أنه مع هذا كان يتردد الي منزلي أكثر مما إعتاد. وفي إحدى زيارته هذه قال لي:

- أرى يا بنقنوتو ان صبّ التمثال بالبرونز لن يكتب له النجاح. فأصول الفن لا تسمح بذلك. إحتججت على سموه بشدة وأجبت:

- ليس خفياً عني يا مولاي بأن سموك الأفخم لا تثق بي كثيراً. ويخيّل اليّ أن مصدر هذا الشك هو ثقة بالغة منك بأولئك الذين دأبوا على إغتيابي وتلفيق الحكايات ضدي. أو لعلك غير واقف على حقيقة الأمر.

ماكدت أكمل عبارتي حتى هتف يقول:

- أنا لا أدعيّ بالعلم حقاً. على اني أفهم المسألة خير فهم. أجبت:

- أجل. بوصفك هاوياً لا بوصفك صانعاً ممارساً. فلو أن سموك تتفهم الموضوع كما تعتقد انك فاهمه، لوضعت ثقتك بي بعد الدليل الواضح الذي قدمته من تمثالك النصفي الذي صببته. ذلك التمثال الكبير الذي أرسل الي (إلبا). كما كان عليك أن تصدق قولي إثر قيامي بإصلاح (كانيميد) الجميل المرمرى. وهو العمل الذي بذلت فيه أشق مجهود. إذ كان اسهل عليّ منه أن

(٨٧) قديسة عذراء ولدت في حدود (٢٨٣) في سيراكيوز الصقلية وإستشهدت في (٣٠٤) بعد تعذيب ومن ضمنه قلع باصرتيها. وعيدها يقع في الثالث عشر من كانون الأول. وفي السويد له مقام كبير وإحتفال خاص ويدعى عيد سانتا لوجيا.

أقوم بنحت التمثال برمته. كذلك كان عليك أن تؤمن بقولي لاسيما بعد نجاحي في صبّ (ميدوسا) الشاخصة الآن أمام سموك. كان صبّ هذا الجزء من أشقّ العمليات وقد حققت به مالم يسبقني اليه أي أستاذ نابغة في هذا الفن المعقد الشبيه بأحبولة الشيطان. ألا أنظر يامولاي. كيف أعدت بناء المسبك بشكل يختلف إختلافاً تاماً عن أي مسبك آخر فأقمت فيه منفذين لمعدن البرونز. وهذه هي السبيل الوحيدة الممكنة لضمان النجاح في صبّ التمثال الصعب الكثير التعاريج والإنحاءات. وقد أصبت بغيثي بسبب بعد نظري وقدرتي الإبداعية، فليس بين الفنانين من يصدّق بأن ما فعلته ممكن. ولتتأكد أيضاً من هذا الذي سأقوله لك يامولاي، وهو السبب الوحيد الذي يُعزى اليه نجاحي في كلّ الأعمال الشاقة الهامة التي أنجزتها في فرنسا، إنه التشجيع العظيم الذي لقيته من الملك العالي القدر فرنسوا بمنحه السخية وبالشكل الذي كان يعالج حاجتي الى العمال فقد جاءت أيام كنت أستخدم فيها أربعين عاملاً أقوم أنا نفسي بإختيارهم. وهذا الذي جعلني أنتج الكثير في الوقت القصير. وأنا أرجو منك الآن يامولاي أن تثق بقولي وتدعني أحصل على المساعدة التي أحتاجها، لأنني عظيم الأمل بأن ما سأنجزه سيكون مدعاة لسرورك. أما إذا ثبط سموك همّتي ورفض طلبي المساعدة التي أنا في حاجة إليها. فليس في وسعي تقديم نتائج حسنة لا أنا ولا غيري مهما كانت صفتة.

أرغم الدوق نفسه على البقاء والإصغاء الى كلامي المنطقي. وكان يدبر وجهه الى هذه الجهة أنا والى تلك أنا. أما أنا فقد دهمتني لجة من اليأس وغرقت فيها واعتصرت الآلام قلبي وأنا أتذكر تلك الظروف الممتازة التي عشتها في فرنسا.

قال الدوق فجأة:

- ألا أجبني يا بنقنوتو كم تقدّر نجاحك في مثل هذا الرأس الجميل رأس ميدوسا بهذا الإرتفاع الذي يبدو ويد پرسيسوس تمسك به؟

فأجبت في الحال:

- تلك هي المسألة يامولاي! فلو أن سموك مطلع على هذا الجانب من الفن كما قلت، فإن القلق لن يداخلك حول فشل سبك الرأس، بل سيكون منصباً على الرجل اليمنى وهي في الأسفل بعيدة.

فإستدار الدوق مواجهاً بعض النبلاء المرافقين وقال وهو شبه غاضب:

- في إعتقادي أنّ مايقوله هذا الرجل هو بدافع الغرور والتيه بإنكاره كلّ الحقائق.

ثم التفت اليّ حالاً وقد إرتسمت على وجهه ملامح هي أقرب الى الإزدراء والهزء، فأسرع الآخرون يقلّدونه فيها، ثم قال:

- إني على إستعداد لأصبر منصتاً الى هذه الحجج التي قد تجدها مقنعة لي.

قلت:

- سأدلي الآن بهذه الحجج المقنعة؛ بشكل سيدركها سموك خير إدراك، أنت تعلم يامولاي طبيعة النار. فهي كما لا يخفك تتصاعد الى الأعلى ولهذا السبب خذها وعداً مني بأن رأس ميدوسا

سيسبك جيداً. وبما أن النار لا تتسرب الى أسفل فسيكون واجباً عليّ أن أدفع بهما دفعاً الى تحت بمسافة ستة كويبتات (١٠٨ إنجيات) بوسائل فنية. وإستناداً الى هذا الدليل المفحم لي أن أقول لسموك بأن (القدم) لن تظهر سليمة وسيتعين عليّ إعادة صبّها وهي عملية سهلة جداً.  
قال الدوق:

- عال! لماذا إذن لا تتخذ التدابير لضمان صبّ القدم بالشكل الذي تخرجها فيه سليمة كما هو شأنك بالرأس حسب قولك؟  
أجبت:

- ان هذا يتطلب منّي بناء مسبك أكبر بكثير من مسبكي الحالي. ثم بناء قناة فيه سعتهما تزيد عن غلظ ساقني. وعندئذ سيساعدني ثقل المعدن الذائب بالحرارة على إمراره الى أسفل. وفي الحال الحاضر تجد القناة منحدرّة الى أسفل بمسافة الكويبتات الستة التي نوهت بها. الى أن تبلغ القدمين. لكنها لا تزيد عن إصبعين سمكاً، وإستبدالها لايسوى النفقات التي نتكبدتها في إستبدالها بسبب قدرتي التامة على إصلاح العيوب. ولكن النار كما اتوقع ستصعد الى الأعلى تبعاً لطبيعتها عندما يمتليء القالب بأكثر من النصف. وسيخرج رأس (مبيدوسا) ورأس (پرسیوس) معاً كاملين لاعيب فيهما. ولك أن تظنّ من هذا.  
بعد أن عرضت هذه الحجج المفحمة وغيرها كثير مما يشقّ عليّ تدوينه هنا. غادر الدوق وهو يهزّ رأسه محتاراً.

عادت اليّ ثقّتي بنفسني بعد أن تركت وحيداً ونفضتْ عنيّ تلك الأفكار السوداء التي دأبت على تعذيبني بين آن وآخر وكثيراً ما أسلمتني الى الندم الباكي لتركي فرنسا وقدمي الى مسقط رأسي فلورنسا، وإن كان سبب ذلك رسالة الخبير والإحسان المترتبة في عنقي لبنات أختي الست. وها أني أدرك الآن بأنها علّة كلّ مصائبني. لكنني عزيت نفسي معللاً إياها بالرخاء والرفاء وزوال كلّ متاعبي بعد إكمالي تمثال (پرسیوس). فباشرت المرحلة الأخيرة بقوى جديدة ويكلّ ما أملك من طاقة جسمية ومالية (ولم يكن قد بقي عندي الكثير). فإبتعت كميات من الخشب أحتطبت لي من غابة الصنوبر في (سيرأتوري Serratori) القريبة من (مونت لوبو Mont Lupo) وفي أثناء إنتظاري لها قمت بإكساء (پوسیوس) بالصلصال الذي كنت قد أعددت له قبل أشهر لأضمن نضجه التام. وبعد إلباسه حلّته الطينية كما هو شائع القول، سلّحته تسليحاً دقيقاً وأحطته بدعائم حديدية وبدأت أزيل الشمع منه فوق نار هادئة، فكان يسيل من منافذ الهواء التي عملتها فيه. إذ كلّما زاد عددها زاد القلب إمتلاءً بعد أن إنتهيت من إستخلاص الشمع. بنيت حول (پرسیوس) مصهراً على شكل قمع من الأجر المرصوف واحدةً فوق أخرى. تاركاً فتحات عديدة لتسهيل خروج النار. ثم بدأت أكّدس الخشب بكميات قليلة تاركاً النار متقدّة مدة يومين وليلتين دون إنقطاع.

بعد أن تخلصت من الشمع وطبخت القالب طبخاً جيداً. بدأت فوراً في حفر النقرة التي سيُدفن فيها. مطبقاً جميع القواعد التي يتطلبها فنيّ. وبعد فراغي من ذلك جيئت الى القالب فرفعته الى

الأعلى بكلّ حبيطة بواسطة بكرات وحيال قوّة، فتدلى على مسافة ذراع واحد فوق المسبك. وبهذا صار معلّقاً فوق مركز النقرة مثلما قدّرت له. ثمّ باشرت في خفضه رويداً رويداً الى داخل المسبك. ورتبته في الوضع الصحيح بغاية من الدقة. بعد أن إنتهيت من هذا العمل الدقيق بدأت بركم التراب الذي كنت إختزنته من النقرة. وبعد أن أهلت التراب طبقةً طبقةً تركت عدداً من المنافذ الهوائية بدسّ أنابيب فخارية صغيرة من النوع الذي يستعمل لإمتراء الماء وماشاكل من الأغراض. وعندما وجدت كلّ شيء قد تمّ وفق المرام بخصوص التغطية ووضع الأنابيب في أماكنها. وتفهم العمال طريقتي - وهي تختلف جداً عما إعتاده زملائي في الصنعة - شعرت بالثقة من إمكان الإعتماد على ما إتخذت من التدابير. فأوليت المسبك إهتمامي: ملأته بكتل عديدة ضخمة من النحاس وغيرها من فضلات البرونز ورتبت وضعها بحسب مباديء الصناعة وقواعدها، أعني مكدّسة بشكل يجعل النار تتخللها وتسخّنها وتذيبها بأسرع مايمكن. ثمّ أمرت بإيقاد الأتون.

كدست قطع الصنوبر. وبفضل الصمغ اللزج المتحلّب من الخشب وإتقان مسبكي، سار كلّ شيء وفق المرام. فصرت أنتقل من موضع الى آخر مجهداً نفسي الى حدّ الإرهاق مرغماً إياها على الإستمرار والمتابعة، زيادة على ماواجهني من متاعب وإرهاصات سابقة.

سرت النار في المصنع نفسه وتملّكنا الخوف العظيم من سقوط سقفه علينا، في أثناء ذلك أخذ المسبك يبرد بسبب المطر والريح اللذين إندفعا من الحديقة. كافحت هذه العوارض المزعجة عدّة ساعات. إلاّ أن الإجهاد كان أكثر مما يحتمله جسمي القوي. فأعترتني فجأة نوبة من الحمى أقسى وأشدّ نوبة متصورة. فلجأت الى الفراش رغم أنفي.

ببعدي عن موقع العمل وبالقلق الممضّ الذي إعتراني لم أر مندوحة من الإلقاء بتعليماتي الى معاوني العشرة او اكثر ومنهم سيّاكو البرونز ومنهم الصنّاع المهرة، ومنهم الشغيلة العاديون فضلاً عن عمال آخرين في مصنعي. ومن هذه الفئة الأخيرة أحدهم (برناردينو مانيليني الموجلي) الذي تدرب عندي بضع سنوات فقد زوّده بتعليمات خاصة إذ قلت له:

- الآن أعرنى إنتباهك ياعزيزي برناردينو. نفّذ بالضبط ماكنت قد لاحظتني أقوم به وأسرع لأن المعدن سيكون جاهزاً بعد قليل، لايمكنك أن ترتكب خطأً فهؤلاء الرجال الحاذقون سيعجّلون بالقنوات وانت نفسك ستكون قادراً بسهولة على دسّ السدادتين بهذه الخطّافات. وعندها سيمتليء القالب على أحسن وجه.

أمّا أنا فما شعرت بوطأة المرض كماأشعر الآن. لم أشك في ان هذه الحمى ستقضي عليّ في ساعات قلائل. ثمّ إني تركتهم وإرقيت على فراشي وأنا أشعر بيؤس لامزيد عليه.

ما أن إستلقيت على فراشي حتى أمرت أهل بيتي بإعداد طعام وشراب كافيين لكلّ من في المصنع. وزدت قائلاً إني سألفظ أنفاسي الأخيرة حتماً ولن يطول الأمر بي حتى الغد. فحاولوا تشجيعي مؤكدين بأن شدّتي لن تطول وما أحسّ به إنما هو نتيجة الإرهاق المتأّتي من العمل المتواصل.

وقضيت ساعتين أصارع خلالهما الحمى التي كانت تتفاقم وأنا أصرخ:

- اني مشرف على الموت.

كان لديّ مديرة بيت محبوبة جداً لانظير لها في الدنيا تدعى (فيوري) وهي من (كاستيل دل ريو). راحت هذه المرأة تؤنّبني وتلومني لما أشعر به من بؤس وغمّ. وكانت تقوم بتنفيذ أوامري بإخلاص وتفانٍ لا مزيد عليهما. وقد أدركت شدة مرضي، ومقدار هبوط معنوياتي، فلم تستطع، مع شجاعتها الفاتقة، حبس دموعها. إلا أنها حاولت جهداً إخفاها عنيّ.

لمحت وأنا أقاسي هذه الآلام - شخصاً يتجه الى غرفتي وكان جسمه ملتويّاً مثل حرف (S) الكبير. بدء هذا الشخص يئن ويتفجع بصوت يقطر كآبة وكأنه كاهن يواسي محكوماً بالموت قبل تنفيذ الحكم فيه:

- واه لك يا بنقوتو المسكين. كلّ شيء تلف ولم يبق أي أمل.

بسماعي هذا المنكود. أطلقت صيحة راعدة رجّع صداها أبعد كوكب. ثم قفزت تاركاً فراشي وتناولت ثيابي وإرتديتها أما الخدم والمساعدون وجميع من سعد الى فوق لمعاونتي فلم يجدوا في إنتظارهم غير اللكمات والرفسات والركلات وكشّرت في أوجههم جميعاً هائجاً صارخاً:

- أيها الخونة الحساد! إنها لخيانة متقصّدة. قسماً بالله أنّي سأميظ اللثام عنها وأنفذ الى أعماقها. وسأترك قبل موتي بيانات وحقائق عن نفسي سيذهل لها العالم بأسره!

ما أن أكملت إرتداء ثيابي حتى نزلت الى المصنع وأنا على أسوأ حال. هناك وجدت الرجال الذين كنت قد تركتهم مستبشرين مرتفعي المعنويات. وقد وقفوا في مواضعهم مسمرين تلوح على أوجههم علائم الحيرة والإنكسار، قلت:

- هيا بنا الان وأصغوا اليّ. أرى إنكم عجزتم عن تطبيق تعليماتي التي زودتكم بها، فأطيعوني وانا الآن معكم لإدارة دفعة العمل بنفسي، لأريد أي إعتراض فنحن بحاجة الى عمل لا الى نصح وإرشاد.

وعلى إثر أقوالي هتف أحدهم وهو (أليساندرو لاستريكاتي Alessandro Lastricatti):

- قدك يا بنقوتو ولا تتسرع. إن ماتطمح الى إنجازه لا قابلية للفن به فهو بكلّ بساطة ضرب من المحال.

فإلتفتُ اليه هائجاً وعيناي تقدحان بشواظ من نار ألمأتا الجميع الى إطلاق هتاف موحد:

- طيب، ألق إلينا بأوامرك وسنطيعك في كلّ شيء مادام فينا نفّس يتردد.

وأظنهم ما أظهروا هذا الولاء إلا لأنهم كانوا يتوقعون أن أقع على الأرض ميتاً في أية دقيقة.

باشرت حالاً بفحص المسبك فوجدت المعدن كلّهُ قد تصلّب وتقطّع أو كما يقولون: قد تكتل. فأمرت عاملين بأن يقصدا بيت (كاپريتا) صاحب حانوت القصابة، وجلب قدر حمل من خشب البلوط الفتّي الذي تمّ يبسه خلال سنة أو أكثر. فقدمته لي زوجه (جنيقرا) بطيبة خاطر. ولما جيء بأول دفعة منه بدأت بتلقيمه المسبك من خلال المدخل. وبهذه المناسبة يجدر بي أن أذكر إن البلوط الذي إستخدمته

كان ذا نارٍ شديدة تفوق نار أي نوع آخر من الخشب. ولذا فُضِّلَ إستعمال خشب الصنوبر أو خشب (الحَرَج Alder)<sup>(٨٨)</sup> الأبطأ إحترافاً لأعمال معينة بصورة عامة، كصبّ المدافع وما أشبهه. وليتك أيها القاريء شاهدت تلك النار الجهنمية وهي تعلق المعدن بألستتها اللاهبة وكيف بدأ يتوهج ويسطع منصهراً.

في هذه اللحظة عجلت الى القنوات كما أرسلت رجالاً الى سطح المصنع لمكافحة النار التي إشتد سعيها بسبب تعاطم الحرارة في المسبك بالأسفل. وأخيراً أحضرت ألواحاً وأبسطة وغيرها من الستائر وجعلتها بمثابة حاجز للمطر الذي كان يندفع الى الداخل من الحديقة. وما أن تَمَّت سيطرتي على الفوضى والإضطراب العظيمين وإستقام الأمر حتى شرعت بإطلاق أوامري كالرعد القاصف:

- أنقلوا هذا الى هنا، خذوا ذاك الى هناك!

وعندما بدأ المعدن بالإنصهار، وشاهدته مجموعة من المساعدين وهو يتسرّب. دَبَّت فيهم الحماسة وملكتهم الرغبة في التعاون فعدا الواحد منهم يعمل عمل ثلاثة. ثم أشرت الى أحدهم ليأتي بكتلة من ال(بيوتر)<sup>(٨٩)</sup> تزن حوالي ستين باونداً، فدفعت بها الى المسبك لتنصهر مع مافيه من المعدن المتكثل. وبهذه الوسيلة ويتكديس الوقود وتحريكه بالقضب الحديدية والمحرك، مالبت البرونز أن إنصهر- وعندما وجدت بأني أفلحتُ في نفخ الحياة بجثة الميت- رغم اليأس الذي إستولى على مساعدي الجهلة، إنبعث نشاطي من جديد، فنسيت الحمى التي أشاعت الخوف من الموت في أوصالي. في هذه المرحلة سَمِع دوي إنفجار فجائي وتوهج ساطع حتى لكأن صاعقة إنقضت في وسطنا. وسادنا الرعب جميعاً غير مستثنى نفسي. ثم لما خمدت النار الوهاجة وتلاشت أصداء الإنفجار. راح بعض يبخلق في وجه بعض، ثم تطلعتنا الى مصدر الإنفجار فإذا يغطاء المسبك قد تفجّر وإنفتح البرونز الذائب ينصب خارجاً. فأسرعت بفتح منافذ القالب وفي الوقت ذاته دفعت بالسدادتين الى الداخل. ثم إني وجدت المعدن المنصهر لايجري بالسهولة التي يجب أن تكون، فأدركت أن البيوتر قد نفذ في تلك الحرارة الفائقة. فأمرت بإحضار كلّ مافي بيتي من الصحف والأوعية والأواني وقد بلغ عددها المائتين تقريباً ووضعيتها واحداً بعد الآخر أمام القنوات. وقذفت ببعضها الى أعماق المسبك. وأثار مظهر إنصهار البرونز السهل وإمتلاء القالب به جميع الموجودين وأخذوا يتدافعون فيرتمي بعضهم على بعض متسابقين لتلبية أوامري وهم ضاحكون مستبشرون، وكنت خلال هذا أتقل من هنا الى هناك بسرعة مصدر الأوامر وبإذلاً المساعدة لمن يريدونها وأنا أهتف:

- أيها الرب الإله الذي بعثت حياً من عالم الأموات وصعدت الى السماء بقدرتك الصمدانية، إني أسأل العون منك.

بعد فترة إمتلاء القالب بصورة كاملة.

(٨٨) نوع من الشجر غير مثمر ينمو في المناطق الباردة. وهو مقاوم للماء إذ لايتسرّب اليه. ولذا أستُخدم لعمل المضخات ودواليب الماء. ولحاؤه بني اللون يستخرج منه صمغ شائع.

(٨٩) أشابة معدنية مقومها الأساسي معدن القصدير ومنه تصنع الأواني المعدنية في الغالب.

عندئذ توجهت الى قصعة الصلصة التي كانت موضوعة فوق مقعد أو كرسي، فأكلت منها بشهية وشربت وشاركني الجميع في الطعام. ثم أويت الى الفراش وأنا بكمال الصحة و السعادة. وكان الوقت يشير الى مرور ساعتين على الفجر. فتمت نومة هادئة وكأني لم أصب بأي عارض مرضي. وقامت خادمتي الأمانة دون توصية مني بتهيئة ديك مسمن. ثم أقبلت بعد أن إستيقظت في حدود الظهيرة وهي تقول باسممة:

- اهذا هو الرجل الذي ظن أنه مشرف على الموت؟ يخيل لي ان الكلمات والرفسات التي كلفتها لنا بالجملة في ثورتك الجامحة وهياجك الشيطاني قد اشاعت الرعب في الحمى. فخوفاً من ان تنال مانلنا من الضرب، هربت لاتلوي!

انقشعت غمامة القلق عن خدمي ولم يعد عملهم يثقل عليهم فينتشروا يريدون التعويض عن الأواني والصحاف المعدنية التي صهرتها. وعادوا بعدد مساو لها من الأوعية الفخارية ثم تناولنا وجبة غداء بهناء وراحة بال وشهية عظيمة.

بعد فراغنا من الطعام أقبل كل مساهم ومساعد في العمل لزيارتي و تمت فرحتنا بإجتماعنا، ورفعوا الشكر الى الله لما جرى قائلين إنهم شاهدوا وتعلموا مسائل إعتبرها الأساتذة الآخرون ضرباً من المحال. وبعدها مددت يدي الى صرة مالي وسددت لهم أجورهم فخرجوا والكل راض. كان عدوي اللدود وكيل خراج الدوق (بيير فرانشسكو) حريصاً دؤبياً على تسقط أنباء عملية السبك بكل مراحلها ونتائجها. وحدثه بما جرى الشخصان اللذان شككت كثيراً في أنهما قد تسببا في تكتل المعدن. فقد قال له:

- واضح ان بنفوتو ليس من طينة البشر، بل هو عفريت من جبابرة العفاريت. فقد حقق المستحيل مع أشياء أخرى تُعجز معشر الجن ويقف أمامها حائراً.

وبالغا كثيراً في وصف ماجرى، ربما على سبيل الإعتذار لفشل مساعهما. وأسرع وكيل الخرج فكتب للدوق كل ما أنهى اليه حول الموضوع. وكان سموه في (بيزا) - وزاد فأضفى على الحكاية الكثير من الخيال، ففاق بها الشكل الذي نُقلت به اليه.

تركت التمثال المصبوب يومين ليبرد. ثم بدأت أكشف عنه ببطء شديد وبكل أناة. كان رأس (ميدوسا) أول ما وقع على بصري منه وقد خرج كاملاً بديعاً والفضل يعود الى منافذ التهوية كما ذكرت للدوق بخصوص طبيعة النار المتصاعدة. ثم بدأت الكشف عن بقية الأجزاء فجئت الى الرأس الثاني رأس (پرسیوس) وكان كاملاً لاتشوبه شائبة. وهو المفاجأة بعينها اذ كما يلاحظ انه ادنى بكثير من رأس (ميدوسا). كنت قد جلعت فتحات القالب فوق رأس (پرسیوس) وعلى محاذاة الكتفين. فوجدت ان كل البرونز الذي كان في المسبك قد إستوعبه رأس (پرسیوس) وانه لما يبعث الدهشة ان لايبقى أثر للمعدن في القنوات في الوقت الذي لم يعتور التمثال اي نقصان. انه لأمر مذهل حقاً حتى ليبدو وكأنه معجزة حققها الله لي وكلايتها عنايته.

واصلت الكشف عن بقية الأجزاء وأنا سعيد منشرح الصدر فوجدتها كاملة لاعيب فيها دون

إستثناء. الى أن جئت الى القدم اليمنى التي يقف عليها التمثال، فوجدت الكعب قد خرج كاملاً وتقدمت قليلاً فلم أجد فيه عيباً أو نقصاً فداخلني السرور من جهة وشبهه سخط من جهة أخرى لأنني تكهنت للدوق بأن القدم قد لاتخرج كاملة. لكن تبين لي بعد فراغي من الكشط أن أصابع القدم ناقصة بل هناك نقص أيضاً فيما يلي الأصل اعني ان الجزء الناقص هو أقل من نصف القدم. ولم يكن يقتضي إصلاح ذلك مني عملاً كبيراً. سررت بهذه النتيجة لأنها تثبت للدوق وقوفي على أسرار حرفتي. وإذا خرج من القدم مقدار أكبر بكثير مما توقعته. فالسبب (وبادخالي في الحساب كل ما إعترض من عقبات)، يعود الى ان المعدن قد سخن أكثر مما يجب وكان عليّ في الوقت نفسه أن أساعده بالقصدير بالطريقة التي وصفتها وبأواني (البيبوتر) وهو أمر لم يُقدم عليه أحد من قبل.

بعد أن ظفرت بهذا النجاح، شددت الرجال الى (بيزا) فوراً لأقابل الدوق. رحّب بي بحرارة غير إعتيادية وحذت الدوقة حذوه. ومع إن وكيلهما سبقني بالتفاصيل الكاملة فقد حلا لسموئهما أن يسمعا القصة من لساني إذ ستكون أدعى الى الإستمتاع والإثارة. ولما وصلت في حديثي الى قدم (پرسیوس) وقلت إنها خرجت ناقصة، أظهر الدوق إستغراباً وتعجباً لحدود لهما. لأن هذا ما توقعته. فراح يصف للدوقة كيف كنت قد تنبأت له به.

عندما إطمأنت نفسي باللطف والحفاوة التي استقبلت بهما طلبت من الدوق ان يأذن لي بالسفر الى روما. فأجازني بكل رقة وأوصياني بالعودة السريعة للفراغ من (پرسیوس). كما إنه زدني بكتب توصية لسفيره هناك السيد (إفراردو سيرستوري Averardo Serristori) وكان ذلك في غضون السنوات الأولى لجلوس (يوليوس دي مونتني Julius di Monti)<sup>(٩٠)</sup> على كرسي البابوية.

وقبيل رحيلي زوّدت عمالي بتعليمات حول مواصلة العمل على ضوء المبادئ والقواعد التي تلقوها مني. أما سبب سفري فهو كالآتي:

كنت قد نحتُ تمثالاً نصفياً بالحجم الطبيعي ل(بندو دا أنطونيو آلتوفيتي Bindo d'Antonio Altoviti) وأرسلته اليه وهو في روما، فوضعه في غرفة المكتبة التي كانت مؤثثة تأثيثاً أنيقاً وقد حفلت بالقطع الأثرية الفنيّة وغيرها من التحف البديعة. إلا أن الغرفة لم تكن مناسبة لوضع المنحوتات أو الرسوم واللوحات لأن نوافذها على مستوى أوطأ من تلك النفاثس، فكانت إضاءةتها سيئة ما يفسد التأثير العظيم الذي قد تخلفه لو سقط عليها النور الكافي.

وفي ذات يوم اتفق ان (بندو) المذكور كان واقفاً على عتبة داره فمرّ به (ميكالنجلو بوناروتي) فرجا منه ان يشرّفه بالدخول ومشاهدة غرفة المكتبة، وما ان إحتوته حتى هتف يقول متمسلاً:

- من هو هذا الفنان الذي صوّرك بهذه الدرجة من الدقة وبهذا الأسلوب الجذاب؟ ألا تيق أن تمثالك النصفي هذا يعجبني قدر ماتعجبني هذه التحف الأثرية بل وأكثر، وإن كنت أرى بينها قطعاً ممتازة. لو كانت شبابيكك هذه فوق مستواها لا تحتها فإن التأثير سيتضاعف جداً. وسيحتل تمثالك النصفي موضع الصدارة بين كل هذه التحف الجميلة.

(٩٠) هو يوليوس الثالث (١٤٨٧-١٥٥٥) الذي نصب پاپا في (١٥٥٠) وقام بدور هام في مجمع (ترنت) الديني.

ما أن غادر (ميكالنجلو) الدار حتى قام بكتابة رسالة ساحرة اليّ وقد جاء فيها مايلي:  
"أيها العزيز بنقنوتو. لقد سلّمت منذ سنوات عدة بأنك أنيغ الصاغة الذين عرفناهم  
على الإطلاق. وإني سأسلّم الآن بأنك لا تقلّ نبوغاً عن هذا في فنّ النحت. وعليّ أن  
أعلمك بأن السيد (بندو ألتوفيتي) أطلعني على تمثاله النصفي وأنبأني بأنه من  
صنعك. فأعجبت به كثيراً لكن من الإساءة العظيمة ان يوضع في مكان قليل النور  
ولو سقط عليه نور كاف ليدا كما يجب أن تبدو أي صناعة بدیعة كصناعته".

وحفلت الرسالة بكثير من مشاعر الودّ والمجاملة. فأطلعت عليها الدوق قبل سفري الى روما.  
فقرأها قراءة متمعن وقال لي:  
- أي بنقنوتو! إن كتبت له وأثرت فيه الرغبة للقدوم الى فلورنسا فإنني سأعيّنه عضواً في مجلس  
الثمانية والأربعين<sup>(٩١)</sup>.

فكتبت له رسالة حافلة بالمودة والتعظيم. وفيها وعدته نيابةً عن الدوق بمائة ضعف مما خولني  
التعهد به ودفعاً لأي إلتباس في المستقبل أطلعت الدوق على رسالتي قبل ختمها وقلت لسموه  
الأفخم:

- أخشى أن أكون قد منّيته الكثير يا مولاي.

فأجاب قائلاً:

- كلا. إنه يستأهل أكثر مما وعدته. وإني بالتأكيد سأحقّقه له.

لم يردّ (ميكالنجلو) على رسالتي. وشعرت بغضب الدوق الشديد عليه.

بوصولي روما، حللت ضيفاً على (بندو ألتوفيتي) وبادر هذا الى نفض الحكاية. كيف إنه قام  
بإراءة (ميكالنجلو) التمثال وكيف أثنى عليه. ثم بحثنا المسألة التي قصدته فيها بتفصيل.

كنت قد أودعت لديه ألفاً ومائتي كراون ذهبيّ. وهي تؤلف جزءاً من خمسة آلاف وكان قد أقرض  
الدوق أربعة آلاف منها تعود له، وحصتي من الدين كانت بإسمه. وأنا من جهتي كنت قد تسلّمت  
الفائدة عند إستحقاقها<sup>(٩٢)</sup>، هذه العلاقة كانت السبب في قيامي بعمل تمثاله النصفي. فبعد أن شاهد  
(بندو) النموذج الشمعي، أرسل لي خمسين كراوناً عن طريق المدعو (السيد كويانو باكاللي Ser  
Guiliano Paccali) أحد وكلائه القانونيين الذين يساكنونه، لكنني لم أشأ قبول المال ورددته اليه صحبة  
رسوله نفسه. بعد هذا قلت له اني أقنع منه بإستثماره مالي لأجني منه بعض الفائدة. لكنني شعرت  
الآن ببروده ونفرته تجاهي، اذ بدلاً من أن يستقبلني بحرارة كما كان يفعل قبلاً- شاب مسلّكه الضيق  
والتبرّم. ومع إنه أنزلني داره إلا أنه لم يعاملني بمودة بل ظهر منه جفاف. وعلى أية حال فقد سوينا

(٩١) هو أعلى المجالس الثلاثة في فلورنسا التي تشارك دوق فلورنسا في الحكم.

(٩٢) لاشك أن چليليني يعني أحد أمرين: إمّا ان الخمسة آلاف والمائتي كراون قد أقرضت للدوق. وإمّا أن ثلاثة آلاف  
وثمانمائة من أصل الخمسة آلاف كراون هي عائدة لألتوفيتي. على أن هناك صحيفة شطبت من المخطوطة تؤيد أن  
حصّة چليليني كانت ألفاً ومائتين. [حاشية بيانكي].

المسألة بشكل مقتضب: تنازلت عن أجرى في العمل وقبلت بثمان البرونز الذي إستخدمته له على أن يبقى (بندو) محتفظاً بمالي طوال حياتي بفائدة قدرها خمس عشرة بالمائة.

قمت أولاً بالتوجه الى الپاپا وتقبيل قدميه. فيما كنت أحداثه وصل (أفيراردو سرستوري) سفير دوقنا. وكنت قد أدليت للپاپا بإقتراحات معينة ظننت أنها ستحظى بموافقته بسهولة وستكون نتيجتها الطيبة عودتي الى روما وتخلصي من متاعبي وعقباتي في فلورنسا. لكنني علمت فيما بعد أن السفير قد أحبط تدبيري وعمل ضد مصلحتي.

ثم إنني قصدت (ميكالنجلو) وأعدت عليه ماكتبته له من فلورنسا نيابةً عن الدوق. فرداً قائلاً، إنه مكلف الآن ببناء كنيسة القديس بطرس. ولهذا يتعذر عليه القدوم. قلت له: بعد أن تمت الموافقة على التصاميم التي عملها للبناء فيماكانه أن يترك مساعده (أوربينو) للإشراف وتطبيق تعليماته بالضبط. وأضفت من عندي نيابةً عن الدوق كثيراً من الوعود.

حدق (ميكالنجلو) فيّ تحديقة شديدة وقال وقد إرتسمت على وجهه إبتسامة ماكرة:

- وكم أنت راض من الدوق؟

قلت له إنني راض تماماً وانه يعاملني معاملة جيدة. إلا أنه أبدى لي ما أكد لي بأنه مطلع على علة مصاعبي. ثم اعاد القول بأنه لا يستطيع ترك روما. فأجبت ان خير مايفعل هو أن يعود الى مسقط رأسه وعلى رأسها حاكم عادل جداً يحبّ النبغاء حبّ عشق ولايبذه في ذلك أي أمير ولدته أم.

ذكرت قبلاً إسم صبي مساعده له (اوربينو) وكان قضى بضع سنوات في خدمته كمساعد عمومي لا يختص بفرع معين. من الواضح أن هذا الخلفة لم يكن على شيء من الإطلاع في أمور الفن. فبعد أن أشبعت (ميكالنجلو) حججاً ومنطقاً بحيث بدا محاذراً في جوابه، إلتفت فجأة الى مساعده (اوربينو) هذا التفاتة من يطلب منه رأياً. فصاح (اوربينو) فجأة بأسلوبه الغليظ وبصوت شبيه بصوت الرعد:

- لن افترق عن خليلي (ميكالنجلو) حتى يوارى القبر أحدا.

لم يسعني غير الضحك على هذه العبارة السخيفة. ولم يساعفني اللسان في قول آخر. فأدرت وجهي دون أن أضيف كلمة واحدة.

أسأت تسوية أموري مع (بندو التوفيتي) فقد خرجت صفر اليدين من تمثالي البرونزي، وقبيلت إيداع نقوي عنده مدى حياتي. وقد أزال هذا كلّ شبهة لدي في معدن معشر التجار وقيمتهم الحقيقية كبشر. وقفلت راجعاً وانا في أسوأ حالة نفسية. وما ان بلغتها حتى قصدت قصر الدوق زائراً ولم يكن سموه هناك، فقد رحل الى (كاستيللو) الواقعة ماوراء (بونتي أريغري). لكنني إلتقيت بوكيل الدار (پيبر فرانسسكو ريجيو). ومان ان دنوت لتحيته كالعادة حتى إبتدرني بدهشة قائلاً:

- آه! أعدت؟

ثم وبعد علائم الدهشة نفسها ضرب كفاً بكف وأضاف:

- الدوق في (كاستيللو).

ثم دار وأدير مسرعاً . ولم أدر ما حدا بهذا المخبول الى مثل هذا التصرف! توجهت فوراً الى (كاستيلولو) وولجت الحديقة حيث الدوق ورأيتة من بعيد. وعندما فطن الى وجودي صدرت منه حركة تنم عن الإستغراب مما أشعرتني بأنه يريدني أن أنصرف. وكنت أمني النفس بأن صاحب السمو سيلقاني بعين اللطف السابق بل وبأكثر مما أظهره لي عند رحيلي. فلما وجدت هذا السلوك الشاذ، قفلت راجعاً الى فلورنسا وأنا في أقصى درجة من الغم. وإنكسبت على العمل في التمثال بغية إكماله بأسرع ما يمكن. لم أتوصل الى سبب هذا التغيير على كل حال وبعد أن لاحظت تغييراً مماثلاً في سلوك (سفورزا) وغيره من خلصاء الدوق، لم أتردد في سؤال هذا الأخير عما يعني هذا. فقال وهو يبتسم رداً على سؤالتي:

- بنفوتو! حسبك ان تحافظ على إستقامتك ولا يقلقك أي شيء.

بعد أيام قلائل اتبحت لي فرصة الكلام مع الدوق. فحياني تحية عرضية وسألني عما حصل في روما. وحدثته بأفضل ماوسعني وسردت له حكاية تمثال (بندو ألتوفيتي) النصفي وماتلا ذلك. ووجدته يصغي بانتباه شديد، فزدت على ما سبق حكاية (ميكالنجلو بوناروتي) بتفصيل، وبدا عليه بعض إنزعاج. ولما بلغت الحكاية مقولة مساعده (اورينو) حول مواراة أحدهما التراب انفجر مقهقهماً ثم قال:

- إنما هو الحاسر.

وإنصرفت.

لاشبهة في أن وكيل الدار (سر پيبر فرانسسكو) قد حاول الإيقاع بي عند الدوق ولم يفلح. لأن الله الذي يحب الصدق بسط عليّ ظلّ حمايته هنا أيضاً كما كان يحميني دوماً من المخاطر المهلكة سائر حياتي واني لآمل أن أظل متمتعاً بحمايته الى آخر أيامي مهما حفلت بالمصاعب والمتاعب. لقد زادني هذا عزمًا على الماضي قدماً، معتمداً على حوله وقوته تعالى غير خائف من تنكّر الحظ أو تقلّب أحوالي شريطة أن أبقى رافلاً في نعمائه.

والآن يتحتم عليّ أيها القاريء العزيز أن أطلعك على أقسى ضربة من ضربات الحظ السيء لحقت بي. كنت أواظب على عملي متفرغاً له تمام التفرغ. واعتدت قضاء أمسياتي في خزانة الثياب بقصر الدوق أعاون الصائغين اللذين كانا في خدمة سموه الميجل. وكان معظم أعمالهما يرتكز على نماذجي وتصاميمي وقد وجدت الدوق يجني لذته الكبرى في مراقبتي وأنا أشتغل وفي مبادلتني الحديث أثناء ذلك. ولذلك زين لي أن أغشى القصر أحياناً أثناء النهار. وإتفق مرة اني كنت في خزانة الثياب واقبل الدوق كالعادة وقد حف به الخدم عندما علم بوجودي وبدء حال وصوله يبادلني الأحاديث في مواضيع مختلفة لطيفة وكنت أجيبه بما يقع في نفسه موقعاً حسناً، فزاد لطفاً على كل ما أظهره لي في السابق.

ثم أقبل أحد أمناء سره فجأة وهمس في أذنه بشيء. لا بد وأن ما جاء لأجله كان ذا خطر. اذ نهض

الدوق فوراً ودلف الى غرفة ثانية مع أمين سره. في تلك الأثناء كانت الدوقة قد أرسلت من يستعلم عما يفعل الدوق فأبلغها الحاجب ان سموه يتحدث الى (بنقنوتو) وببساطه. وإنه في أفضل حالاته. لما أبلغت الدوقة بهذا أقبلت حالاً حيث كنت. ولما لم تجد الدوق فقد جلست على مقربة وراحت تتابع عملنا برهة. ثم إنها توجهت اليّ بكلّ لطف وأرتني عقداً منظوماً من حبات اللؤلؤ الكبيرة الحجم النادرة المثلث حقاً وسألتنني عن رأيي فيها، فقلت انها في غاية الجمال والنفاسة فقالت سموها:

- أرغب في أن يشترىها الدوق لي، ولذا أرجو منك يا بنقنوتو العزيز أن تمتدحها له بأفضل ما يحضرك من المدح.

لما أدركت هدف الدوقة صارحتها برأيي الحقيقي بكلّ احترام وتجلّة، فقلت:

- سيدتي، كنت أظن اللآليء ملكاً لك، لذلك لم يكن من الأدب في شيء أن أقول ما يجب عليّ قوله فيها بعد علمي أنها لا تعود لك، ينبغي لي أن أصارحك يا صاحبة السموّ بأن معرفتي بمثل هذه الأمور تكشف لي عن عيوب كثيرة في هذه اللآلي وأنا لهذا لا أنصحك بشرائها.

فأجابت قائلة:

- إن التاجر يعرضها عليّ بستّة آلاف كراون ولولا هذه العيوب الصغيرة لأرّبت قيمتها على إثني عشر ألفاً.

وفي سبيل الرد قلت: لو كان العقد خالياً من كلّ عيب لما نصحت أحداً بشرائه بمبلغ يزيد عن خمسة آلاف. لأن اللآليء لا تعدّ من قبيل الجواهر فهي عظام سمك تبلى بتعاقب الزمن. إلا أن الألماس والزمرد والياقوت- ولا أستثنني الزفير منها لا تشيخ ولا يعتورها تغيير، وكلّها جواهر وأنا أحبّد شراءها. هذا ما قلته للدوقة فقد كنت دائماً أعشق الصراحة وأبغض الكذب، والآن أراه يُفرض عليّ فرضاً. على اني لم أشأ أن أفقد حظوتي عند هذه الأميرة الجليلة القدر، فتناولت تلك اللآليء اللعينة وانا أرزح تحت همّ ثقيل. وتوجهت الى الجناح الاخر حيث ذهب الدوق والعقد في يدي. فما وقع نظره عليّ حتى هتف:

- أه، بنقنوتو ما وراءك؟

أظهرت له اللآليء وقلت:

- مولاي جيئت أعرض عليك منظومة من اللآليء في غاية الجمال. انها نادرة المثلث في الواقع. ولا أعتقد أنه يمكن جمع مثل هذا العدد منها لقلادة خير منها. فإبتعها يا مولاي. ان العقد هو فلتة في الواقع.

أجاب الدوق على الفور:

- ليس في نيّتي شراءها. فهي لا ترقى الى ما زعمت لها من الأوصاف والقيمة ولا هي بالنفاسة التي ذكرت، وقد سبق لي أن إطلعت عليها فلم تثر إهتمامي.

قلت:

- عفواً يا مولاي. فهذه اللآليء هي أبدع بما لا يقاس من أي لآليء إنتظمها عقد.

في تلك الأثناء كانت الدوقة قد تركت مجلسها ووقفت خلف الباب تتسمع الى ما أقول. وبعد أن ذكرت آلافاً من الأشياء الأخرى التي لم أدون هنا إلا القليل منها. نظر الدوق اليّ نظرة مودّة ونطق بالملاحظة التالية:

- أي بنفوتو العزيز، ليس بخفيّ عليّ مبلغ خبرتك وحسن إطلاعك على هذه الأمور. فلو كانت هذه اللآليّ متماز بكلّ المزايا التي عزوتها اليها لما ترددت في إقتنائها والأمر لديّ سواء إرضاءً للدوقة أم لمجرد إقتنائها والواقع هو إنني أريد أقتناء مثل هذه الأشياء لا إكراماً لخاطر الدوقة وحدها، بل لعلاقتها بما أتخذه من إحتياطات لضمان مستقبل أولادي وبناتي.

بعد أن بدأت في حشد الأكاذيب، لم أجد بأساً في أن أتبعها بأخرى وأخرى ويجرأة محاولاً جهدي إكسائها ثوب المعقول لأحمل الدوق على الإيمان بما أقول. على إنني كنت متوقفاً أن تخف الدوقة اليّ نجدتي عند حاجتي اليها. وكانت قد وعدتني بمائتي كراون بعد تمام الصفقة. إلا أنني بداعي الحيلة والأمان- كنت قد قررت في نفسي وعزمت عزمًا أكيداً على أن لا ألمس كراوناً واحداً كيلا يتصور الدوق بأنني مافعلت ذلك إلا بدافع الجشع.

راح الدوق يخاطبني بكلّ رقة، قال:

- أجل إنني أعرف مبلغ خبرتك في هذا. فإن كنت رجلاً نزيهاً، وهذا رأيي فيك دائماً، فقل لي الحقيقة الآن.

إحمرّ وجهي خجلاً وقلت وعيناي مغرورقتان بدمعي:

- مولاي. لو قلت الحقيقة لسموك فإنني سأجعل من سموّ الدوقة خصماً لدوداً وهذا ماسيرغمني على الرحيل من فلورنسا. ولن يعتم أن يهاجمني اعدائي بخصوص (پرسیوس) الذي واعدت به مدرسة فناني سموك الشريفة. لذلك أتوسل بسموك كي تبسط حمايتك عليّ.

بعد ان تفهم الدوق مصدر حراجتي وإضطرابي الى إتخاذ مثل هذا السلوك قال لي:

- إن وضعت ثقّتك بي، فلا حاجة تدعوك الى القلق او الخوف من أي شيء.

فعدت اقول له:

- لكن فكّر يا مولاي. مالذي يحول دون علم الدوقة بما جرى؟

رفع الدوق يده كما هو الحال في أخذ العهد والقسم وقال:

- ثق إن ماتقول سيبقي سرّاً دفيناً.

وعلى الإثر وإعتقاداً على كلماته النبيلة أخبرته بالحقيقة من وجهة نظري وقلت إن اللآليّ لا تسوى أكثر من ألفي كراون.

حسبت الدوقة أننا فرغنا من الحديث. إذ كنا نتحدث بصوت خفيض على قدر الإمكان. فأقبلت علينا تقول للدوق:

- أرجو أن تتكرم عليّ ياسيدي بشراء هذا العقد اللؤلؤي. لأنني أرغب فيه كثيراً. وصديقك بنفوتو يؤيد نفاسته وقد قال انه لم ير لآليّ بمثل جمالها.

فقال الدوق:

- لا أريد شراءها.
- لماذا لا يريد سموك أن يسرني بشراء العقد؟
- لأنه لا يسرني أن أبدد مالي.
- زادت الدوقة في إلحاحها وقالت:
- لكن ماذا تعني بقولك "أبدد مالي" بعد أن أكد لي صديقك بنقوتو الذي يستحق ثقتك بجدارة- بأنها صفقة جيدة وإن كلفت أكثر من ثلاثة آلاف كراون؟
- وهنا لم يسع الدوق إلا أن يقول:
- سيدتي، ان صديقي (بنقوتو) هو الذي قال لي بأني أبدد مالي بشرائها لأن اللآليء ليست كروية ولا متساوية الحجم وإن عدداً منها قديم. وكدليل على هذا، أنظري هذه اللؤلؤة والى هذه... أنظري هنا... وهنا. كلا إنها لاتصلح لي.
- وفيما هو في هذا، رشقتني الدوقة بنظرة شزراء حاقدة إرتعدت لها فرائصي. وبإيماة تهديد من رأسها تركتنا ومضت.
- كان الشعور العفوي الذي غشيني هو أن أفرّ بعيداً ناجياً بجلدي. وان أنفض عني غبار إيطاليا الى الأبد. ثم لاح لي (برسيوس) وقد أشرف على التمام. فترددت في الرحيل قبل عرضه لكنك ياقارئي العزيز، لا أخالك إلا أدركت خطورة الموقف الذي وجدته فيه.
- أمر الدوق حرس الباب بإفصاح السبيل لي إليه أينما كان موجوداً. وأمرت الدوقة الحرس نفسه بأن يطردوني كلما شاهدوني في القصر. فكانوا نتيجة ذلك يتركون مواقع حراستهم ويطردوني خارجاً إلا أنهم كانوا يحاذرون من أن يحصل هذا على مرأى من الدوق، لأنه كان سينادييني لو لمحني قبل هؤلاء الأوغاد فيشير عليّ بالدنو منه.
- في أثناء ذلك إستقدمت الدوقة الوسيط في محاولة إبرام صفقة العقد وهو نفس (برناردو) الرجل الذي كثيراً ماشكت لي مبلغ كسله وعدم صلاحه لأي شيء وإستنجدت به لمساعدتها في حمل الدوق على شراء العقد، مثلما كانت قد إستنجدت بي. فقال لها مؤكداً:
- سيدي اعتمدي عليّ.
- توجه العليج الى الدوق والعقد في يده. وما إن وقع عليه نظر الدوق حتى أمره بالإنصراف. وعندها أطلق العليج الكبير شخيراً من أنفه القبيح الشبيهه بنهيق الحمار وقال:
- عفواً مولاي، إني أتوسل إليك بأن تشتري العقد لتلك السيدة المسكينة المتلهفة الى إقتنائها. إنها سوف تنفق آخر أنفاسها كمداً إن لم تظفر به.
- وإستمر يضرب على هذه الوتيرة السمجة الحمقاء حتى عيل صبر الدوق، فإنتهره قائلاً:
- أخرج وإلا نلت مني لكمة.
- فما كان من الوغد الكبير، وهو يدرك جيداً ماهو مقدم عليه وبه سيتمكن- سواء لديه أبتورم خديه

أم بغنائته (فرانچينيا الحلوة<sup>(٩٣)</sup>) - من إقناع الدوق بعقد الصفقة فينال الحظوة عند الدوقة فضلاً عن عمولته التي قد تبلغ بضع مئات من الكراونات. فنفخ خديّه وهم به الدوق فأهوى على وجهه القبيح بعدة لكلمات القوية، وكان يريد التخلص منه ولذا كمال له ضربات موجعة غير عادية، بلغت من الشدة إن إحمراً لها خداه وإستدرت الدموع من عينيه. بعد هذا توجه بالقول للدوق:

- تأمل يامولاي! تأمل خادمك المخلص كيف يحاول جهد إمكانه، كيف إنه إستعد لتحمّل أي شكل من سوء المعاملة في سبيل إسعاد السيدة المسكينة.

والى هنا كان هذا الأخرق قد إستنفذ كل صبر الدوق فعلاً، لكن بسبب اللكمات التي ذاقها منه، وللحب الذي يكنّه للدوقة بحرصه على إرضائها، قال فجأة:

- أخرج من هنا وإذهب الى سقر فإبتعها. إنني مستعد لتنفيذ كل طلب للسيدة.

من هذا يتبين للمرء الأساليب التي يسلكها سوء الحظ ضد إنسان بائس والطريقة الحقيرة التي ينال بها الوغد الحظوة. لقد فقدت إعتباري عند الدوقة بالتمام. كما كدت أفقد إعتبار الدوق نتيجة ذلك. أما (برناردو) فقد ربح عمولة دسمة فضلاً عن رضاهما. أجل ليس بكاف نجاح المرء أن يكون نزيهاً ذا فضيلة.

\*\*\*

\*\*\*

\*\*\*

في ذلك الزمن نشبت نار حرب (سيينا) وقرر الدوق تحصين المدينة. فوزع واجبات تحصين الأبواب على نحّاتيه ومهندسيه. وأنيط بي باب (پراتو) والباب الصغير المؤدي الى نهر (آرنو) والقريب من المرج على الطريق المؤدية الى الطواحين. وكلف (الفارس باندنللو) بواجب تحصين باب (سان فرايانو San Fraino) وأودع أمر تحصين باب (سان پيترو گاتولينو San Pietro Gattolino) الى (پاسكوالينو دا انكونا Pasqualino d'Ancona). وأعطى (گوليانو باچيو دانيولو Guiliano Baccio d'Agnolo) وهو حفار على الخشب واجب تحصين باب سان جيورجيو San Giorgio وأوكل لـ(پاتريچينو Patriccino) النقاش على الخشب باب (سانتو نيكولو Santo Nicolo) وعهد الى (فرانشسكو دا سانگالو Francesco da Sangallo) النحّات المعروف بـ(مارگولا Margolla)<sup>(٩٤)</sup> بباب (سانتا كروچي Santa Croce) والى (جيوفانباتيستا Gio-vanbatista) المعروف بـ(تاسو) بباب (پنتي Pinti). الى جانب أبواب وحصون أخرى كلف بها مهندسون مختلفون لا أتذكرهم وليس لأسمائهم شأن هنا.

قام الدوق - وأنا أشهد للرجل بالكفاءة حقاً - بجولة تفقدية في المدينة وبعد أن أجرى تفتيشاً عاماً وإستقرّ على رأي معين إستدعى (لاتانزيو گوريني) أحد صرافيه وأمره بإعداد تصاميم لمختلف الخطط

(٩٣) لم أهدت الى عنصر الفكاهة في تعبير چليني هنا ولا بد أن المقصود هو أغنية شائعة فيها توسّل وإتضاع من حبيب لحبيبتة ولم تسعفني أية ترجمة من الترجمات التي إعتمدتها بالترسير.

(٩٤) هو غير گويانو دي سانگالو الذي ساهم مع رفائيل في هندسة كنيسة بطرس الشهيرة، وغير انطونيو دي سانگالو الذي ابتداء في تشييد قصر فارينزي. وقد ورد ذكرهما في حواشٍ سابقة وربما كان هذا إبناً للأول أو أخاً للثاني أو قريباً لهما فالثلاثة هم مواطنون فلورنسيون. [حاشية مكدونالد].

التي إرتأها لتحصين الأبواب، ولما كان (لاتانزيو غوريني) يهوى مثل هذه الأشغال فقد قام بتهيئتها. وبعث الدوق لكلّ منا بالتصاميم التي تتعلق بما يخصّه من عمل. ويتأملني التصميم الخاصّ بي حكمت بانه غير صحيح من كل وجه فضلاً عن كونه غير ملائم فرحت ابحث عن الدوق ومعني التصاميم وقصدي أن أشير الى النقص والعيوب فيها. لكن ما إن هممت بالكلام حتى إلتفت الدوق اليّ هائجاً وقال:

- بنفثوتو! عندما يكون الموضوع متعلقاً بالتماثيل فأنا أنحني خاشعاً لحيرتك. أما في هذه الأمور فدعني وشأني. طبّق التصميم الذي واصلك ولا تزد.

رداً على هذه العبارات الغاضبة اجبت بلطف وأرقّ ماحضرتني:

- لكنني يامولاي تعلمت منك حتى في فن النحت. ذلك لأننا دوماً نتشاور فيه ونخوض في عيابه الرحب. فبنفس الروح وبخصوص تحصين مدينتك وهو أمر يفوق النحت أهمية، اضرع الى سموك المعظم ان تتنازل فتصغي اليّ. وبنتيجة المناقشة سيكون أسهل على سموك ان ترشدني الى الطريق الذي يجب عليّ سلوكه.

بعد هذه العبارة المقتضية الرقيقة، شرع الدوق يبحث معي بكلّ طيبة خاطر، فبرهنت لسموه بالحجج الدامغة وبكل وضوح الأسباب التي تجعل التصميم المعطى لي غير ذي فائدة.

بعد هذا قال:

- اذهب واعمل تصميماً خاصاً وسأرى رأيي فيه.

فكملت بعمل تصميمين لتحصين البابين متبعاً في ذلك المباديء الصحيحة وجئت بها الى سموه.

وكان قادراً على التفريق بين المبدأ الصحيح وبين المغلوط، فقال بإرتياح:

- اذهب طبّق تصميمك فهو وافٍ بالعرض وسأقتصر عليه.

فأسرعت الى الموقع وباشرت العمل بجدّ ونشاط.

كان يقوم على حراسة باب (براتو) كابتن لومباردي. رجل متين البناء شديد العضل قدر ماتتصور. الى جانب فظاظة لا تُحدّ وجهل مطبق وخطرة لا تُطاق. خفّ هذا القائد يسألني عمّا أنا في سبيله. فبسّطت أمامه تصاميمي بكلّ أدب وبذلت جهداً كبيراً في محاولة افهامه الغرض من الإجراءات التي سأقوم بها، إلا أن هذا الحيوان ظلّ يهزّ رأسه ويتململ ويلتفت بينة ويسرة واضعاً ثقل جسمه على هذه القدم مرة وعلى تلك مرة أخرى وهو يبرم شاربيه ويجذب حافة قبعته فوق عينيه ويجمجم في الوقت نفسه:

- بحق الشيطان، ما الغرض من هذا كله؟

وأنا مشغول بشرحي دؤوباً. الى أن أفقدني سلوك هذا الأهبل صبري، فقلت:

- حسن إذن، دع المسألة لي فأنا أعرف بالعرض من هذا كله.

ثم أدت له ظهري معتزماً الإنصراف الى عملي. فأتى الرجل بحركة من رأسه تنم عن الغيظ ومدّ يده

اليسرى الى قبضة سيفه وجرّد نصله من الغمد قليلاً ثم قال:

- مهلاً يا معلمي، أتريد إذن أن تشير شجاراً على هذا؟

فاستدرت اليه وقد فار دمي. في الواقع إنه إستغزني.  
أجبتة قائلاً:

- إن قتالك سيقتضي جهداً أقل من إقامة التحكيمات لهذا الباب.

وبومضة عين شدّ كلّ منا يده على قبضة حسامه لكن فوجئنا بجمع من الناس الطيبين يحيطون بنا قبل أن نستلّ سلاحينا، هم خليط من مواطنينا الفلورنسيين والسعاة والمراسلة وما إليهم. وتوجه اليه معظمهم باللوم والتوبيخ قائلين انه المذنب واني رجل معروف ذو مقام، وانه اذا سمع الدوق فسيقع في مأزق. ونتيجة ذلك تولّى عنيّ الى شؤونه وتركني حراً أقوم بتحسيناتي. وبعد أن أكملتتها توجهت الى الباب الآخر وهو الباب الصغير عند نهر (آرنو)، فوجدت الضابط المشرف وهو من أهل (چسينا Cesena) (٩٥) أطيّب خلقاً وأكيس من كلّ العسكريين الذين إلتقيتهم بطباع دمثة رقيقة كطباع الفتاة. كما وجدته عندما تدعو الظروف مقداماً شديداً فوق ما تتصور. تابع هذا السيد الساحر الخلق ما أقوم به من عمل بإنباه شديد حتى كان الخجل يعلوني أكثر من مرّة وكان حريصاً على تفهم وإستيعاب كلّ شيء، ولذلك قمت بشرح كلّ شيء له بطيبة خاطر. والنتيجة أننا صرنا نتسابق في تبادل آيات الودّ والتعاطف، ولذلك جاءت تحصينات بابيه بشكل أفضل من تحصينات الباب الأول.

ما كدت أفرغ من من تحكيم البابين حتى قام بعض فصائل (پييرو ستروزي) بهجوم مباغت فساد الرعب منطقة پراتو. وهجر سكانها جميعاً بيوتهم واندفعوا الى المدينة زرافات وقد حملوا كل متاعهم على عجالات، فنشأ عن ذلك فوضى عظيمة. وبدت العجلات صفّاً طويلاً لا تُرى نهايته أخذاً بعضها بحُجز بعض. فشددت على الحرس بالالتزام اليقظة والحزم خشية وقوع الفوضى هنا كما وقع عند أبواب (تورين Turin) ذلك لأنه لو إستدعت الضرورة الى إستخدام الباب الحديدي المشبك. فإن المحاولة في إستخدامه ستفشل بسبب تراحم العجلات. لما سمع الكاپتن ذاك الحيوان الكبير أقوالي إستدار نحوي وأخذ يشتمني فكلت له الصاع صاعين وكدنا نلتحم لو لم يحل الناس بيننا. بعد فراغي من التحصينات دفع لي مبلغ لم أتوقعه من الكراونات. وعدت لإكمال (پرسيسوس) وأنا مرتاح جداً.

في ذلك الحين عشر المنقبون على بعض العاديات في ريف (أريزو Arezzo) وكان من بينها الـ(كميرا Chimera) (٩٦) ذلك الأسد البرونزي الذي يشاهد في الحجرات القريبة من القاعة الكبرى في القصر. والى جانب هذا عُثر على مقدار من التماثيل البرونزية الصغيرة يعلوها الطين والصدأ وكلها مشوهة، هذا ينقصه رأس وذاك يدان أو رجلان وهلمّ جرّاً... وكان الدوق يسلي نفسه بتنظيفها مستعيناً بأزاميل الصياغة. وكنت ذات مرة أتحدث الى سموه، فناولني مطرقة صغيرة وأشار فضربت بها الإزميل الذي كان يمسه به. وبهذا الشكل أزلنا عنها الصدأ والأترية وأنفقنا في ذلك عدة أمسيات، ثم كلفني الدوق بإصلاح التماثيل وتركيب الأجزاء الناقصة فيها. وكان الدوق يجني من هذا غاية اللذة حتى

(٩٥) بلدة تقع شمال شرق فلورنسا على مسافة ٦٠ كيلومتراً.

(٩٦) كائن خرافي له رأس أسدٍ وجسم خروف وذنب يشبه جسم الأفعى وينتهي برأسها.

حملني على مواصلة العمل أثناء النهار أيضاً وكان يرسل يطلبني يستعجلني كلما تأخرت. وحاولت إقناعه أكثر من مرة بأني قد ألقى من سوء الحظ ما أكره للوقت الطويل الذي أستغرقه من هذا التمثال خوفاً من فروغ الصبر، وقد وقع ذلك فعلاً. أضف الى هذا مشكلة العمال الذين استخدمت عدداً منهم ووجب عليّ أن أأزهم ملازمة الظل أثناء عملهم، وإلا آل الأمر الى مضاعفات وكلها خطيرة. منها أنهم قد يتلفون عملي، ومنها أنهم سيتقاعسون ويتباطأون. وعلى أية حال فقد وافق الدوق بالأخير على حضوري مساء كل يوم إعتباراً من وقت الغروب فما فوق. لقد بلغ إنسجامنا حدّاً انه كان يتلقاني بمودة وترحاب يفوق السابق بكثير.

في تلك الأيام كان العمل يجري في تشييد البناية الجديدة بالقرب من (فيسا دي ليوني Via dei Lieoni) وكان سموه يرغب في مقر أكثر إنعزلاً. لذا أعدّ لنفسه حجرة صغيرة في البناية الجديدة. وكان قد أوصاني بأن أسلك سبيلي اليه عبر خزانة الثياب. لذلك اعتدت التسلل من خلال شرفة القاعة الكبرى مجتازاً عدداً من الغرف الصغيرة ثم ادخل غرفته بسرّية تامة. إلا أن الدوقة بعد أيام قليلة حرمتني من هذا الطريق السهل بسدّها المر بوجهي. وكانت النتيجة انتظاري وقتاً طويلاً كل مساء. فالدوقة قد تكون منصرفه الى أمورها الخاصة في الغرف الجانبية التي تقع في طريقي وكذلك لأن صحتها ليست على مايرام فقد كان قدومي يزعجها دائماً. ولهذا ولغيره اشتد سخطها عليّ فلم تعد تتحمل رؤيتي لكنني واظبت على زياراتي رغم المتاعب والمضايقات.

كانت أوامر الدوق صريحة وهي تقتضي بفتح الأبواب لي حالما أطرقتها وان يسمح لي بالمرور دون كلام وإستفسار عن وجهتي. وقد نجم عن ذلك اني كنت احياناً وفي اثناء مروري غير المتوقع بتلك الغرف الخصوصية، أجد الدوقة منصرفه الى شؤونها الخاصة. في هذه الحالات يستبد بها الغيظ، فتنتهرني بكلّ حدة فيركبني الخوف. وكانت لا تفتأ تردد قائلة:

- متى ستفرغ من إصلاح هذه التماثيل الصغيرة؟ إن مجيئك ورواحك هذا هو السماجة بعينها. فأجيبها بكلّ رقة ودماثة:

- سيدتي وحاميتي الوحيدة؛ اني لا أرغب إلا في خدمتك بإخلاص وفي إطاعة أوامرك. إلا أن العمل الذي عهد اليّ الدوق به قد يمتد أشهراً غير قليلة. لذلك أرجو منك يا صاحبة السموّ الجليلة أن تصدقيني القول اذا كان مجيئي يثقل عليك فما عليّ إلا السمع والطاعة ولن تري وجهي، وإن أرسل الدوق في طلبي فإني سأعتذر له بالمرض ولن أحضر مطلقاً.  
فتردّ قائلة:

- اني لا أمنعك من المجيء. لم أقل هذا ولم أطلب منك عصيان أمر الدوق لكن يخيل لي مع هذا ان العمل الذي تقوم به لن ينتهي.

ولست أدري، أبلغ الدوق شيء مما جرى أم لسبب آخر فقد عاد مجدداً يرسل في طلبي فيصّل رسوله قبيل حلول الليل ويقول لي مشدداً:

- إحرص على أن لا تتأخر فالدوق في إنتظارك.

واصلت العمل عدة أمسيات بوجه هذه المضايقات. وذات مرة أثناء دخولي كالعادة التفت اليّ الدوق- ولعله كان مشغولاً ببعض الشؤون الخاصة مع الدوقة- وبغاية من الحدة قال لي فجأة وأنا مسرّ في مكاني وقد ملكني الخوف أهمّ بمغادرة المكان:  
- ادخل يا بنقوتو وواصل عملك وسألحق بك بعد قليل.  
وفيما أنا ماضٍ في سبيلي لقيني سيّدنا (دون غارسيا Don Garcia) فأمسك بمعطفي وبدأ يلاعيني بشكل ظريف للغاية وكان طفلاً آنذاك فتعجب الدوق وهتف قائلاً:  
- انظر الى الصداقة والمحبة الساحرتين اللتين يخصك بها أولادي.  
اعتاد الأمير و(دون جيوفاني) ودون (ارناندو) ودون (غارسيا)<sup>(٩٧)</sup> الوقوف قريباً منّي أثناء إنصرافي الى العمل في هذه الأشياء التافهة الصغيرة. فيمازحونني ويلكزونني ضاحكين لاجئين كلما أدار الدوق أبوهم ظهره فأتوسل بهم ليتلطفوا ويتركوني، فيجيبون بصوت واحد:  
- لانقدر!  
فأقول:

- حسن جداً، مادمتم لاتقدرون، فأنتم لاتقدرون. إستمروا.  
فينفجر الدوق والدوقة ضاحكين.

وفي مساء آخر يوم، بعد فراغي من عمل التماثيل البرونزية الأربعة الصغيرة التي كان مقرراً تركيزها في زوايا قاعدة تمثال پرسسيوس. وهي تمثل كلاً من (جويتر ومارس ومنيرفا وداناوي والدة پرسسيوس)<sup>(٩٨)</sup> مع ابنها الجالس عند قدميها حملتها معي الى الغرفة التي كانت محلّ عملي ووضعتها صفّاً واحداً فوق خطّ النظر بقليل لتبدو وهي أكثر جمالاً. ولما ابلغ الدوق بهذا خفّ مسرعاً ووصل قبل موعد وصوله المعتاد. إن من أخبر سموه بها كان قد أفرط في الشناء عليها قائلاً هي أبدع من تماثيل الأقدمين غير ذلك من عبارات الإطراء. اقبل الدوق تصحبه الدوقة وهما يتحدثان عن عملي بإنبساط، فإستويت قائماً وتقدمت مستقبلاً. فحيّاني سموه بحرارة وبسمة الإمارة ورفع يده اليمنى التي كانت ممسكة بفرع شجرة أجاص كبيرة جداً وقال:  
- دونك أيها العزيز (بنقوتو) اليك هذا الفرع من الإجاص فإزرعه في حديقتك.

فأجبت باسماء:  
- مولاي هل لي أن أفهم أن سموك يقصد بأن أقوم بغرسه في حديقتي الخاصة؟ حديقة البيت الذي هو ملكي؟  
فأكد الدوق قائلاً:

- أجل في حديقة بيتك. بيتك الخاص. أدركت الآن ما قلت؟  
فبادرت الى شكر سموه كما فعلت المثل للدوقة بخير ما حضرني من عبارات الشكر. ثم إنهم جلسا

(٩٧) هم أولاد الدوق والدوقة وكانوا صغاراً بين الخامسة والتاسعة.  
(٩٨) داناوي Danae في أساطير الإغريق هي بنت اكرسيوس خطفها جويتر زعيم الآلهة فولدت له پرسسيوس.

قبالة التماثيل. وبلغ من إعجاب الدوقة بها أنها أشارت قائلة:

- ليس بودي أن تمتهن هذه التماثيل وتضيع قيمتها في قاعدة التمثال في الميدان. فقد تعطب وتبلى. لم لا تضعها في جناحي الخاص. فهناك ستحظى بالرعاية والتقدير الجديرين بمنزلتها الفريدة. عارضت الفكر بطائفة من الحجج القوية. لكنني أدركت مبلغ تصميمها على منعي من وضعها في القاعدة حيث هي الآن. فانتظرت اليوم التالي ويمت شطر القصر قبل المغرب بساعتين وكان الدوق والدوقة قد خرجا يتنزهان على ظهور الخيل. ولما كان قد كمل نصب القاعدة فقد أمرت بنقل التماثيل الأربعة الى الميدان وقمت بلحامها في أماكنها المخصصة لها.

النتيجة! لن أطيل عليك. لما سمعت الدوقة بما فعلت إجتاحتها غضب شديد ونقمت عليّ أشدّ نقمة ولو لم يخفّ الدوق الى نجدتي ينبله وشهامته- لسقطت سقطه عنيفة لا قائمة لي بعدها. مهما يكن من أمر، فإن نقمتها السابقة بسب حادثة اللالكي فضلاً عن هذه الأخرى جعلتها تدبّر الأمور بحيث عاف الدوق مصدر تسليته البسيطة وكان عليّ أن أقطع زياراتي، بل وجب عليّ أن أتحمّل المضايقات السالفة كلما أردت ولوج القصر.

عدت الى اللوجيا (Loggia) حيث سبق لي ان نقلت (برسيوس) وحاولت الفراغ منه في تلك الظروف الصعبة التي أشرت اليها. وأنا خالي الوفاض لا أملك دانقاً موجع القلب محزوناً. لو ابتلي رجل قد من حديد بنصف ما أبتليت به من عثار حظ ونكد لسحق تحته سحقاً. لكنني واصلت السير غير مبالٍ.

في صبيحة ذات يوم، بعد أن فرغت من سماع (القدّاس) مرّ بي صدفةً (برناردو) السمسار الصائغ الغبيّ- ومتعهد مواد دار الضرب بفضل كرم الدوق. كان ذلك في (سان پييرو سككراجيو San Piero Scgeraggio) وماكاد يخرج من باب البكنيسة حتى افلت من دُبر هذا الخنزير القذر أربع ضرطات مجلجلة قد تُسمع في (سان مينياتو San Miniato) فصرخت به قائلاً:

- تبا لك أيها الخنزير القَبّاع يا حيوان يا بهيمة، أهذا هو دليلك على عبقريتك؟

ثم أسرعت أفنتش عن عصا فأطلق ساقيه للريح نحو دار الضرب. ووقفت خلف باب بيتي مباشرة. وندبت أحد صبيان دكاني ليقف خارجه ويبلغني عند خروج ذلكم الخنزير من دار الضرب وبعد إنتظار سئمت وهدأت نفسي. ثم قدّرت أن كلّ شيء يمكن أن يقع أثناء القتال وقد تتطور المسألة الى ما ليس بالحسبان. فقررت أن أثار لنفسي بشكل آخر.

وقع هذا بعد يوم او بعض يوم من عيد القديس يوحنا. لذلك نظمت مقطوعة شعرية والصقتها في ركن من أركان الكنيسة الخارجية حيث الموضع الذي يؤمه الناس لقضاء الحاجة. قلت:

هوذا (برناردو) الخنزير البسغل

السمسار اللص، الجاسوس

تتطاير منه شرور پاندورا<sup>(٩٩)</sup> نحو

(٩٩) في الأساطير اليونانية پاندورا Pandora هي امرأة بعث بها جوبيتر الى البشر لعقابهم بعد أن قام (بروميشيوس)=

المغفل (باجييو) ذلك الأحق الآخر.

وذاعت الحكاية والشعر في القصر وضحك الدوق والدوقة لها كثيراً وقبل أن يسمعها (المهجو) نفسه كانت العشرات تقف فتقرأ الشعر وتضحك شاخصة بأبصارها الى دار الضرب أو تبحلق في وجه (برناردو). وفطن ابنه (باجييو) اليها فانتزعها ومزقها وهو يكاد ينشق غيظاً. أما (برناردو) فقد راح يهزّ قبضته مطلقاً الوعيد والتهديد من أنفه الضخم الخوكر. لما أبلغ الدوق بأن (پرسیوس) جاهز للعرض جاء لرؤيته. وأظهر رضاه التام من غير ممارسة. ثم وجه كلامه الى طائفة من النبلاء كانوا في رفقته، فقال:

- الواقع إنني أرى التمثال آية في الجمال. ولكن يجب أن يحوز رضا عامة الناس ولذلك إسمح لي أيها العزيز بنقوتو أن أطلب منك التكرم عليّ برفع الستار عنه في ميداني لمدة نصف يوم قبل أن تضع اللمسات الأخيرة عليه. وإذذاك سيكون في وسعنا أن نسمع آراء الناس فيه. هناك على كل فرق بين رؤيته داخل قفص كما هو الآن وبين رؤيته وهو قائم لا حاجب بينه وبين العيون. أجبته بكلّ تصاغر:

- عليّ أن أوكد لك يامولاي بأنه سيبدو أجمل بأضعاف. كيف نسي سموك مشاهدته قبلاً وهو في حديقتي معروض في فناء واسع وكم بدا رائعاً لك الى الحد الذي جعل (باندنللو) يسترق النظر اليه من خلال حديقة (الأتوستي). ولقد اضطّر رغم أنفه الى الثناء عليه مع ما جبل عليه من خبث طوية وطبع شرير وهو الذي لم يقل كلمة خير في أحدٍ طوال عمره. واني لأقول هذا لعلمي بأن سموك يضع فيه ثقة كبيرة.

مطّ الدوق شفّيته علامة الضيق لكنه قال بلطف:

- قم بهذا يا بنقوتو. إرضاءً لي فحسب.

ثم دار على عقبه منصرفاً. وبدأت أستعد لإزاحة الستار عنه. وكان ينقصه شيء من التهذيب وطلاء أجزاء فيه وغير ذلك. فلم يسعني إلا التذمر والشكوى. وأخذت ألعن اليوم النحس الذي خطر ببالي فيه أن أشدّ الرجال الى فلورنسا. بمرور الزمن صرت أدرك الخسارة العظمى التي نكبت بها نفسي بتركي فرنسا. واستقط في يدي فلم أعد أتبين سبيلاً للأمل من خدمة أميرى هذا في فلورنسا. لقد آل كلّ ما فعلته في حياتي من بدايتها حتى الآن- الى الخسار والضرر...

يمثل هذه الأفكار السوداء أزحت الستار عن تمثالي في اليوم التالي. وكما شاءت عناية الله، ما أن عرض للملأ حتى أقبل الناس عليه بالثناء المستطاب والإعجاب غير المتحفظ مما منحني بعض العزاء. وإستمر لصق القصائد والأغاني الشعرية على أعمدة الأبواب حيث أقمت لنفسي ستائر واقية أثناء إنهماكي في وضع اللمسات الأخيرة. وأذكر عن يقين بأن أكثر من عشرين قصيدة تم لصقها في يوم

=بسرقه النار. وزودها جويتر بعلمية ما أن فتحتها بدافع الفضول حتى إنطلق منها جميع الشرور والرذائل فعمت البشر. والنكته التي قصدتها جليليني في شعره والتعريض بما عمله برناردو واضحان هنا. (ربما فكّر جليليني أن خصمه هذا ما أطلق الريح إلا بمناسبة لقائه وإنه إذخرها له!).

العرض الذي لم يدم غير ساعات قلائل. وكلها مدح وتقريظ رفعا تمثالي الى السماكين. ولم ينقطع سيل هذه القصائد حتى بعد ستره. ومن بينها قصائد باللغتين اليونانية واللاتينية. إذ إتفق أن العرض وقع أيام عطلة جامعة (بيزا) فتنافس مشاهير الأساتذة والعلماء فيما نظموه وكتبوه. على أن ما ضاعف في سروري ومنحني الأمل في أن تتوثق علاقاتي بالدوق، هو أن زملائي الفنانين وأقصد النحاتين والرسامين راحوا هم أيضاً يتبارون في الثناء على عملي. وأذكر مشفوعاً بالتقدير رأي الرسام الموهوب جاكويو داپنتورمو Jacobo da Pontorno<sup>(١٠٠)</sup>، وبصورة خاصة رأي تلميذه الرسام (برونزينو Bronzino)<sup>(١٠١)</sup> الذي لم يكتف بلصق عدد من القصائد على الأعمدة، بل أرسل الى منزلي بعضها بيد مساعده (ساندرينو Sandrino)، كتبها بأسلوبه البليغ الذي لا يُداني، وبقلم محكم فأدخلت العزاء والراحة الى نفسي.

بعد هذا أحطتُ التمثال بالستائر ورحت أضع اللمسات الأخيرة عليه بكل نشاط. إطلع الدوق على الثناء الذي أغرقني به أساتذة الفن في فلورنسا بعد معاينتهم التمثال. ومع هذا فقد علّق بقوله:

- اني لعظيم الإغتباط لما نال (بنقوتو) من بعض إرتياح، فسيدفعه هذا الى إنجاز العمل بالتمثال بسرعة وبالشكل الصحيح. لكن عليه أن لا يحسب بأنه سيلقى عين الترحاب والثناء بعد أن يتم عرضه للملا بصورة نهائية وتتملأه الأعين من شتى جوانبه. فمن المحتمل جداً أن يتضح كل عيوبه والكثير مما ليس فيه. ولذلك يجب عليه أن يتجمل بالصبر ويتهبأ لإحتمال السيء. تلك العبارات صبها (باندنللو) في أذن الدوق. مقتبساً على سبيل المثال آثار (اندريا دل فيروكيو Andrea del Verocchio)<sup>(١٠٢)</sup> الذي صنع ذلك التمثال الرائع للسيد المسيح ولتوما الرسول المعروف في واجهة ال(اورزاميكيلى Orsammichele). وكذلك معرضاً بعدد من الآثار الأخرى، حتى لم يسلم منه تمثال داود الرائع لميكالنجلو الخالد، الذي قال عنه أنه لا يبدو مهيباً إلا عندما يُنظر من أمام. ثم نوه بالعدد الكثير من المقطوعات الهجائية الشعرية التي نظمت بحق تمثاله (هرقل وكاكوس) وراح يشتم الفلورنسيين.

مع كل هذا والدوق الذي كان يوليه الثقة الكبيرة، لم يقل ما قال عنّي إلا بوحى منه. وسموه كان متأكداً بأ مقاله (باندنللو) سينتقل ويشيع لأن هذا الوحش الحسود كان مغرماً بالنميمة وقول السوء. وفي إحدى المناسبات أراد ذلك الوغد السمسار (برناردو) تأييد الأقوال التي تفوه بها (باندنللو) فقال بمحضر من الدوق:

(١٠٠) جاكويو كاروجي (١٤٩٤-١٥٥٦) المولود في پونتورمو من أعمال إيطاليا. أثرت رسومه كثيراً في اتجاهات ميكالنجلو ودورر.

(١٠١) أنيو لو توري برونزيو (١٥٠٣-١٥٧٢) رسام فلورنسي إختص بآل مديتشي من أشهر لوحاته (ماري مديتشي) ورسوم دوقات وأدواق فلورنسا التي ترى في معارض ومتاحف فلورنسا الآن.

(١٠٢) صانع ورسام ونحات فلورنسي (١٤٣٥-١٤٨٨). اشتهر بالتمثال العظيم الذي يشاهد الآن في كامپو (ساحة) سان زانپولو في البندقية، للقائد (باتولومو كولينيوني). وهو استاذ ليوناردو دافنشي.

- ليس بخافٍ عنك يا مولاي إن إقامة تماثيل ضخمة مسألة تختلف عن صنع تماثيل صغيرة. ولست أقصد من هذا انه (يقصدني) لا ينجز الجيد الرائع في صغير التماثيل، لكنك ستري انه لم يحسن العمل في الكبير منها.

وجرياً على عادة هذا النمّام مروج الحكايات، دس في هذا التعريض اللاذع إفتراءات عدّة، وأقام جبلاً من الأكاذيب على اني بحول الله المجيد وعونه وضعت للمسّات الأخيرة على التمثال. وفي صباح يوم خميس أزحت الستار عنه. وماكاد يتنصّف النهار حتى إجتمع حوله خلق كثير يتعذر إحصاءهم. وشرعوا في الثناء والإطراء دون تحفظ وتنافسوا في تقريظه. وكان الدوق قد أشرف على الميدان من إحدى نوافذ القصر السفلى فوق المدخل وهو شبه متخفّ فسمع كلّ ما قيل عنه. وبعد إصغائه الى أقوال الناس بضع ساعات نهض متحمساً وإلتفت الى النبيل السيد (سفورزا) مرافقه وقال:

- سفورزا. أسرع الى (بنثوتو) وقل له أنه أرضاني وأسعدني فوقما توقعت وقل له أيضاً إنني سأكافئه بشكل يدهشه، وأن عليه أن لا يقلق بخصوص أي شيء.

حمل لي السيد (سفورزا) هذه الرسالة الرائعة فإرتفعت بها معنوياتي الى السماء لا بسبب ماتضمنت من أنباء طيبة فحسب بل بسبب صيرورتي حديث الناس جميعاً وإستمرارهم في الإشارة الى تفاصيل في التمثال تارة هنا وتارة هناك. قائلين إنها إبداعات طريفة لم يسيقني إليها أحد. من بين المعجبين، نبيلان صقليان. كان نائب الملك في صقلية<sup>(١٠٣)</sup> قد أوفدهما في مهمة الى الدوق. أقبل هذان النبيلان الرقيقان عليّ وأنا في الميدان (كنت ماراً فدلّهما أحدهم عليّ فأسرعا يعدوان نحوي). شرعا حالاً وكلّ منهما ممسك بقبعته- يلقيان خطبة رسمية حافلة بالتقريظ والتعظيم فيها إفراط بحق البابا نفسه. رحت أتوسل بهما ليتكرّما بمبارحة الميدان لأن المارة بدأوا يتسكعون حولنا لفرط ماغمراني بالمديح وأنا مظهر تواضعي قدر الإمكان. وأخذ الناس الواقفون يحدقون فيّ أكثر من تحديقهم بتمثال (پرسیوس)، فأدركني الخجل لكنهما اندفعا بحرارة وحماسة الى الحدّ الذي إقترحا عليّ السفر الى (صقلية). ووعداني بشروط للعمل مناسبة جداً. حدثاني كيف ان الراهب (جيوغانانيولو دي سرقي (Giovanagnolio de Servi) قد صنع فسقية كاملة مزدانة بعدد من التماثيل الصغيرة فجعلوا منه رجلاً ثرياً، وإن لم تكن تماثيله بالتي يمكن مقايستها ب(پرسیوس). لم أدعهما ينهيان ما أرادا قوله فقاطعتهما بقولي:

- إن العجب بل وأكثر منه ليتملكني لمحاولتكما إقتاعي بترك الخدمة لشخص لم أجد محبباً للفن مثله كأميري الدوق، لاسيما وأنا الآن في بلدتي التي هي مدرسة كلّ العباقره. ولو كنت أطمع بالريح الكثير لبقيت في فرنسا أخدم (فرانسوا) ذلك الملك الجليل الذي أجرى عليّ ألف كراون معاشاً. فضلاً عن دفعه لي أجراً إضافياً عن كلّ عمل أكلف به. فكنت أتسلم سنوياً طبقاً لهذا، مايزيد عن أربعة آلاف كراون ذهبي. ومع ذلك فقد رحلت تاركاً في باريس ثمرة عمل السنوات

(١٠٣) كانت صقلية آنذاك من أملاك ملك إسبانيا.

## الأربع المنصرمة.

بهذه الردود وغيرها وضعت لمقترحاتهما حداً وشكرتهما على مديحهما الجميل الذي تفضّلا به. وهو خير جزاء ينشده الذي أبدع عملاً فنياً رائعاً. وقلت إنهما ضاعفا من رغبتني في السموّ بفنيّ، وقويا عزمي على أن أقوم خلال السنوات القليلة التالية بعرض أثر آخر قد يدخل السرور في قلوب الفنانين الفلورنسيين النبغاء أكثر مما أشاعه (پرسیوس) فيهم. وهمّ النبيلان الصقليان بوصل حبل الشفاء والمديح حيث إنقطع، إلاّ أنني رفعت قبعتي لهما وإنحيت بإحترام ثم أقرأتهما السلام. مرّ يومان، والثناء على (پرسیوس) يعلو ويتضاعف. وبعدها قررت مقابلة سيّدنا الدوق فبادرني حالما لقيته قائلاً بنفس طيبة جداً:

- لقد سررتني وأرضيتني أي عزيزي (بنقوتو). وأنا أعد بإرضائك على نحو سيأخذك منه العجب. بل وأكثر من هذا؛ دعني أؤكد لك بأنني لا أنوي الماطلة والانتظار الى يوم غد. إستقبلت هذه الوعود الضخمة بشخصي الى الله تعالى روحاً وجسماً وشكره من أعماق قلبي. وتقدمت في الوقت نفسه من الدوق بعينين تدمعان فرحاً وقبيل طرف عبا، ته، وقلت:

- مولاي المعظم. أيها الراعي الكبير للفن وللرجال الذين يمارسونه. اني أتوسل بسموك العالي القدر لكي تمنحني إجازة مدة أسبوع، أولاً لأتمكن من تقديم شكري لله. فأنا وحدي أعرف كم من الجهد والتعب قد كلّفني التمثال. مثلما أعلم بأن ثقتي القوية به عزّ وجلّ جعلته يخفّ الى نجدتي. فلاجل ذلك وبمقابل كل المعجزات الأخرى التي حققها أرغب في أن أقوم بحجّة شكر أمدها أسبوع أقضيه في الصلاة والدعاء لله الحيّ ذلك الذي يخفّ لمعونة من يستجيره بإيمان خالص.

سألني أين ستكون وجهتي فأجبت:

- سأقصد (قالمبروزا Vallombrosa) ثم (كامالدولي Camaldoli) ومنها الى (إريمو Eremo) حتى حمامات سانتا ماريا (Bagai de Santa Maria) وربما (سستيلي Sestile) لأنني أعلمت بوجود بعض التحف الأثرية الجميلة فيها. وبعدها سأقفل عائداً بطريق (سان فرانشسكو دلاقرنيا San Francesco della Vernia) وأنا مرتاح النفس، لأقف في خدمتك مواصلاً شكري لله.

فأجاب الدوق فوراً وبصوت مرح:

- اذهب ثم عد اليّ. فأنا في الحقيقة راض عنك كلّ الرضى. وأترك لي سطرين لتذكركني بوعدتي واعتمد عليّ.

فقمتم في الحال بكتابة سطور قليلة شكرت فيها سموه، ودفعت بالرقعة الى السيد (سفورزا) الذي ناولها بدوره للدوق. فأخذها منه ثم أعادها اليه قائلاً:

- إحرص على تريني إياها كلّ يوم. اذ لو عاد بنقوتو ووجد اني لم أف بعهدي له فلا اراه إلاّ قاتلي! وبضحكة منه أضاف قائلاً: بأن لاشيء يحول دون تذكره ولن يسمح لنفسه بالنسيان. نُقلت لي كلمات الدوق هذه بالحرف الواحد مساء اليوم نفسه. بلسان (سفورزا) الذي أعادها على مسامعي وهو يضحك، وقال انه مندهش للحظوة العظيمة التي تفضّل بها الدوق عليّ. ثم أضاف بلطف ساحر:

- اذهب يا بنثنوتو وعد، واني لأغبطك.

بارحت فلورنسا متوكلاً على الله، مواظباً على تلاوة الصلوات والمزامير تمجيداً له وتعظيماً وكانت سفرة ممتعة، فالصيف في أروع حلّة والريف أنعش نفسي وشرح خاطري بلا حدود وأنا أجوس خلاله وأملأ منه عيني وهو والحق يقال بلا نظير. وكان في صحبتي أحد مساعدي الشبان ضمته الي ليكون دليلاً وإسمه (چيزاري Cesare) وهو من أهل الحمامات<sup>(١٠٤)</sup> رحب بي والده وسائر أسرته ترحيباً حاراً. وكان من بين أقربائه شيخ مسنّ أربى على السبعين وهو عمّ لـ(چيزاري) ويتعاطى الجراحة مهنةً، إلا أنه كان يزاول الكيمياء أحياناً. وقد آنستني صحبته كثيراً. ذكر لي هذا الرجل الطيب وجود مناجم لمعدني الفضة والذهب في (حمامات سانتا ماريا) كما صحبني الى مواقع ذات مناظر طبيعية خلابة. فاستمتعت بإقامتي إستمتاعاً تاماً والحق يقال. ولقد قربته طبيعته السمحاء مني كثيراً، حتى إنه أسرني ذات يوم بهذا القول:

- علي أن لا أكتمك شيئاً يتردد في خاطري، ربما كان ذا نفع عظيم لصديقك الدوق. فبالقرب من (كامالدولي) شعبٌ جبلي مكشوف غير محصنّ يسهل جداً على (بييرو ستروزي) إجتيازه دون عائق. ليس هذا فقط بل سيتمكن بعد ذلك من إلقاء الحصار على (پوبي Poppi) دون أن يلقى في طريقه أية مقاومة.

ولم يكتف بذلك بل تناول ورقة من جيبه كان قد رسم عليها بوضوح خريطة لكلّ الناحية وثبت فيها المعلومات التي أدلى بها بشكل يمكن الإعتماد عليه. فأخذتها وغادرت (الحمامات) فوراً مستقبلاً فلورنسا بأسرع ما أمكنني سالكاً طريق (براتو مانيو Prato Magno) و(سان فرانشسكو دلاً قونيا). ولم أتأخر في منزلي أكثر مما إقتضاني نزع حذاء الركوب من وقت وخففت الى القصر مسرعاً. ما إن بلغت (باديا Badia) إلا وأنا والدوق وجهاً لوجه. إذ كان مقبلاً من قصر (الپودستا Podesta). ولما وقعت أنظاره عليّ أقبل يرحب بي بحرارة تشوبها دهشة. ثم قال:

- ما الذي دعاك الى العودة بهذه السرعة؟ لم أكن أتوقع مجيئك قبل أسبوع آخر. أجبته:

- أجل عدت. وسبب عودتي هو خدمة سموك. فأنا نفسي كنت مشتاقاً الى قضاء بضعة أيام أخرى مستجماً في الريف الساحر.

فسألني الدوق:

- ما أخبارك الطيبة؟

قلت:

- هناك يامولاي أمرٌ بالغ الخطورة أريد أن أطلعك عليه وأحدثك به.

ثم سرت في معيته الى القصر. ويوصلنا أخذني الى غرفة وإختلى بي فأطلعته على كل شيء.

(١٠٤) يقصد حمامات سانتا ماريا التي ورد ذكرها.

وسلمته الخارطة الصغيرة المرسومة بالقلم. فبدا عليه السرور الشديد ولما أشرت عليه بوجوب معالجة الموقف دون إبطاء، أطرق مفكراً فترة من الزمن ثم أجابني:

- أرى أن أخبرك بأننا عقدنا معاهدة مع دوق (اورينيو) وبمقتضاها ستكون المحافظة على هذا الشعب من واجباته. وأرجو أن يبقي ما قلته سراً عندك.

وبعد إظهاره الكثير من المودة والرعاية عدت الى منزلي.

وفي اليوم التالي يمت شطر القصر. وبعد حديث مع الدوق قال لي ببشاشة:

- غداً سأنظر في شؤونك بلا إرجاء، فلا تقلق.

إنتظرت اليوم التالي إنتظار المشوق المستهام وأنا أشعر بتمام الثقة. وعندما بزغت شمسها توجهت الى القصر.

إن المرء عادة ما يسمع خبر السوء بأسرع مما يصله الخبر المفرح. فقد طلبني السيد (جاكوبو غويدي) أمين سر سموه وقال لي بصلافة المعهودة وصوته يتسلل خارجاً من فمه الأعوج بصعوبة:

- الدوق يقول إن عليك أن تعرفني بالثمن الذي تطلبه لـ (پرسیوس).

وكان يقف جامداً كالقضيبي أثناء ذلك.

سمرت في مكاني وعقلت الدهشة لساني. ثم إندفعت فجأة لأجيبه بأني ما وضعت قطاً ثمناً للعمل الذي أقوم به. وإن هذا يناقض ما وعدني به سموه قبل يومين. فردّ حالاً بنبرة أكثر إرتفاعاً إنه يبلغني بأوامر صريحة صادرة من الدوق نفسه أن أسمي المبلغ الذي أريده ويخلاف هذا فإنني سأفقد مكانتي عند الدوق وسأكون موضع سخطه.

إن معاملة سمو الدوق الحافلة بالمودة، فضلاً عن العطف الذي أظهره لي، ضللني كثيراً وجعلني أتوقع أشياء منه. زد على هذا فقد كان الإنطباع المتخلف عندي هو اني نلت كامل الحظوة عنده لاسيما وان كل ما رجوته هو ان يجعلني موضع ثقته واعتماده ليس إلا. لذا فإن هذا الطرز من التعامل معي ملأني غضباً لأنه لم يكن متوقعاً. وبسبب الأسلوب الذي ابلغت برسالته من قبل هذا العليح الحاقد. قلت: لو ان الدوق اعطاني عشرة آلاف لما كان كافياً. ولو قدرت ان جزائي سيكون بهذا الشكل لما بقيت لحظة واحدة في خدمته. فما كان من الحيوان إلا وشرع يصب عليّ الشتائم صباً فقابلته بمثلهما.

في اليوم التالي توجهت الى القصر للسلام على الدوق فإستدعاني سموه بإشارة منه ولما دنوت قال لي غاضباً:

- بلدان وقصور باذخة تُبنى بعشرات الألوف من الدوقيات.

فأجيبته في الحال ان سموه يستطيع ان يجند اي عدد يشاء من الرجال الذين في وسعهم بناء المدن والقصور، لكنني أشك في ان يكون قادراً على ايجاد شخص واحد في العالم بأسره يستطيع ان يصنع تماثيل مثل (پرسیوس).

قلت هذا وأسرعت بمغادرة القصر دون إضافة كلمة أخرى.

بعد أيام قلائل إستدعتني الدوقة ونصحتني بأن أدعها تتولي أمر تسوية خلافي مع الدوق فهي تعتقد بأنها ستفعل وبالصورة التي ترضيني. قلت رداً على هذه الكلمات الرقيقة، إن المكافأة العظمى التي انشدها لقاء جهودي إنما هي رضى الدوق عني وهو ما وعدني به سموه المعظم. وزدت قائلاً: لاجحة تدعوني الى أن أضع بين يدي سموها ما كنت قد تنازلت عنه لهما منذ اليوم الأول لتجنيدي نفسي في خدمتهما. ولو أن سموه لم يعطني غير درهم توسكاني واحد لا يساوي أكثر من خمسة صولديات، فسأعد نفسي سعيداً وأرضى به شريطة أن أبقى موضع ثقته ومقرباً منه. وهذا ما حمل الدوقة على القول وهي تبتمس:

- بنقنوتو، نصيحتي لك هي أن تفعل ما أوصيك به.

ثم أدارت ظهرها لي وانصرفت.

كنت قد توهمت بأن خير أسلوب أنتهجه هو أن أخذ بسبيل التذلل والإنصياع في كلامي، فظهر لي أنه أسوأ ما أقدمت عليه. لأن طبعها الدمث كان يدفعها الى عمل الخير، وإن كانت حانقة علي بعض الشيء.

في ذلك الحين كانت أوامر الودّ تربط بيني وبين (جيروليمو ديلي اليبزي Girolimo Degle Allizzi) ضابط تموين عسكر الدوق وقد قال لي هذا الصديق يوماً:

- يخطر ببالي يا بنقنوتو الإشارة بأن الحكمة تقتضي منك تسوية هذا النزاع الناشب بينك وبين الدوق. وأؤكد لك اني لقادر على تسوية الموضوع إن وضعت ثقتك في. أقول هذا وأنا مدرك تماماً ما أقول. فالدوق يتضاعف إستياؤه، وستكون العاقبة عليك وخيمة. ولأقف في الحديث هنا اذ لا يسعني المصارحة بكل شيء.

واتفق بعد محادثتي للدوقة- أن اتصل بي أحدهم (وغد ولاشك) وقال انه سمع الدوق يقول لسبب ما أو لغيره:

- ما أسهل عليّ أن أقذف بـ(پيرسيوس) الى حيث... وبهذا أنفض يدي من المسألة وأتخلص من تبعاتها نهائياً.

فبسبب القلق الذي شاع في نفسي إثر هذا القول بادرت الى أن أعهد بالأمر لـ(جيروليمو ديلي اليبزي) قائلاً اني اوافق على أية تسوية شريطة ان استعيد ثقة الدوق.

هذا الرجل السليم القلب الملمّ حق الإمام بفنون الحرب والجنود، الماهر الحاذق بصورة خاصة في أمور الميليشيا وكلهم من أهل الريف، كان أجهل الناس بفن النحت، بل لا يفهم منه شيئاً. ولذلك قال للدوق عند توسطه في الأمر:

- مولاي، إن بنقنوتو قد فوّضني تفويضاً مطلقاً. وطلب مني الدفاع عن قضيته عند سموك.

فأجاب الدوق:

- وانا أيضاً أفوّضك في ايجاد حلّ ولن اعترض على الحكم الذي تصدره.

فقام (جبروليمو) بتدبير رسالة ساذجة لصالحه. ذكر فيها ان على الدوق ان يدفع لي ثلاثة آلاف وخمسمائة كراون بالنقد الذهبي وأن هذا المبلغ ليس بالقيمة الحقيقية لعمله الفريد. وإنما هو بمثابة أمانة على نفقاتي وستراً لخلتي ووسيلة للتصريح برضائي. اذ من الواجب قبل كل شيء ان اكون راضياً. ثم أضاف الى هذا تعاليل أخرى بقصد الوصول الى التسوية المالية.<sup>(١٠٥)</sup>

اسرع الدوق يعلن موافقته بلهفة توازي إستيائي. ولما سمعت الدوقة بالنتيجة عقت بقولها:

- يا للرجل المسكين! لو اعتمد علي لنفعته. اذ كنت سأحصل له على خمسة آلاف كراون.

وردت هذه الأقوال بعينها لي يوماً في القصر بحضور من (الأمانو سالفاتي Alommano Salviati) وراحت تشتم بي قائلة إنني أستأهل ما يصيبني من سوء حظ.

ورتب الدوق أن يدفع لي شهرياً مائة كراون ذهبي الى أن يتم تسديد المبلغ، فتسلمت الأقساط بانتظام بضعة أشهر وفق ذلك، ثم بدأ الموكل بالدفع السر أنطونيو دي نوبيلي Antonio de Nobili يسلمني خمسين فحسب ثم خمسة وعشرين، وأحياناً لاشيء.

شئت علي هذه المماطلة فكلمت (أنطونيو) بكل أدب راجياً مصارحتي بالأسباب التي تدفعه الي التوقف عن الدفع. فأجاب بمثل أدبي قائلاً إن السبب في التأخر عن الدفع بانتظام هو قلة المال في القصر ووعد بالدفع حالما يتيسر المال، ثم زاد قائلاً "لأكون وغداً زنيماً إن لم أذفع لك" - وبهذا القول المتناقض فضح ما كان يريد كتمه كما سيحكم القاري بلاشك.

عجبت لهذا القول حقاً. إلا أنني منيت نفسي بأنه لن يتأخر عن الدفع عندما يكون قادراً. فكنت واهماً. وأخيراً بعد أن إتضح لي كم تساء معاملتي فقدت السيطرة على أعصابي وفي لحظة من حنق متفجر، اندرته وبكل حدة بأنه سينزل من مكانته عندي إن إمتنع عن دفع ما إستحق. على إن الرجل ما لبث ان غادر هذه الدنيا وظلت أجوري معلقة. وها أنا في نهاية العام ١٥٦٦ ومازال مبلغ خمسمائة كراون ذهبي موقوفاً. كان ثم أيضاً المتأخرات من رواتبي التي بدت بعد مرور ثلاث سنين وكأنها في عداد الديون الميتة. إلا أن الدوق اصيب بعلة خطيرة. اذ احتبس بوله ثمانى وأربعين ساعة. ولعلمه بأن الأطباء ماعادوا يجدون له في طبيهم حيلة، توجه الى الله ضارحاً وكما يغلب على ظني. أمر أن تسدد كل ديونه. فتم دفع المتأخر من تلك الرواتب ولكن الأقساط الباقية من ثمن (پرسوس) بقيت غير مدفوعة.

كنت قد قررت ألا أتطرق الى الحديث عن (پرسوس) المنكود ولا أذكره بحرف. لكني مرغم على ذلك لسبب لا قبل لي بدفعه ولذلك سأعود القهقري قليلاً وأواصل الحديث من حيث إنقطع. خيل لي إنني كنت مصيباً بقولي للدوقة بأنني ماعدت قادراً على التوصل الى إتفاق حول شيء خارج عن نطاق إرادتي بعد أن قررت للدوق بأنني سأرضى بكل ما رغب في أن يدفعه لي. وقد كان هدفي من هذا

(١٠٥) نظراً لقوة النقد الشرائية في ذلك الزمن يبدو ان المبلغ المتفق عليه ليس قليلاً وإن چليني لم يغط حقه كما يدعي.

القول هو إرضاء الدوق. ومحاولتي بهذا التصرف الكيس إزالة إستيائه الشديد بشكل ما، ذلك الإستياء الذي عبّر عنه غضبه مني قبل أيام قلائل من إتفاقه مع (أليبيزي). ويعود سبب غضبه الى تظلمي لدى سموه من المسلك الخياني الخشن الذي عاملني به كل من السيد (الفونسو كوستيللو Alfonso Quistillo) والسيد (جاكوبو پولثيرينو Jacobo Polverino) المستشار. ولاسيما السيد (جيو فانباتستا برانديني Giovanbatista Brandoni) الثولتيري. فقد عرضت عليه قضيتي معهم بشيء من الحدة والتوتر وكان هو يحاول ضبط نفسه، حتى إذا إنتهيت قال:

- هذا عين ما حصل حول تمثالك (پرسيسوس) عندما طلبت عشرة آلاف كراون ثمناً له. إنك تغلّب منفعتك الذاتية على أفضل ما فيك. سأقوم بتقدير ثمنه وسأدفع لك المبلغ الذي يحكم لك به.

فكانت إجابتي على هذا مشوبة بشيء من الحدة والغطرسة (ليس من الحكمة في شيء أن تستخدم هذه اللهجة في مخاطبة السادة العظام) إذ هتفت قائلاً:

- لعمرى كيف يمكن أن يُقيّم عملي، وليس في فلورنسا من هو صالح لهذا؟ فتضاعف غضب الدوق وأطلق فمه بعض العبارات المرّة. أذكر منها هذه:

- في فلورنسا اليوم رجل قادر على صنع تمثال مثله بالتأكيد. وهو لهذا يصلح للحكم عليه حكماً عادلاً.

وكان يقصد (باندنللو) فارس القديس يعقوب. (١٠٦)

فأجبت:

- مولاي، إن سموك المعظم وهو بين أعظم فناني العالم، مكنتني من إنجاز عمل هام جداً دقيق للغاية. هذا الأثر مُدح وقرّظ بشكل لم يسبقه فيه عمل آخر لمدرسة الفلورنسيين النبغاء. ومما يزيدني فخراً أن واحداً من أولئك الرجال العظام المطلعين والممارسين وأقصد به الرسام (برونزينو) خرج عن طوره في إعجابه، فكتب أربع قصائد بأسلوبه الرفيع البليغ تقريظاً له. وحذا حذوه كل أهالي المدينة بحماسة وضجيج غير مسبوقين. أوكد لكم لو أن هذا الفنان النابغة ركّز جهوده في النحت مثلما ركّزها في الرسم لكان في وسعه أن يصنع مثيلاً له، كما أوكد لسموك بأن أستاذي (ميكالنجلو بوناروتي) كان بإمكانه أن ينجز عملاً مثله وهو في شرح الشباب باذلاً عين الجهد الذي بذلته فيه. إلا أنه سيقصر دونه الآن بعد أن طعن في السن. ولهذا فإني لا أجد من الأحياء الذين أعرفهم اليوم من يقوى على صنع نظير له أو يباريه. وأنا من جهتي لا أجدني طامعاً في مكافأة لعملي هذا أعظم من الجزاء الذي نلته. لا سيما وإن سموك المعظم لم يكتف بالإعراب عن سرورك به بل أثبتت عليه ثناء لم يطاولك فيه أحد. فأبي مكافأة أعظم وأبعث على الفخر يطمع بها المرء بعد هذه؟ أقول مصرّاً إن سموك أعجز من أن تدفع لي عملةً أسمى وأرفع من هذه العملة. وليس ثم كنز بالغ مبالغ من النفاسة يمكن إضافته إليها. في الواقع إن مادفعته هو أكثر من الكثير، ولذلك فأنا أشكر سموك من أعماق قلبي.

(١٠٦) لقب شرف منح ل(باندنللو). والتعريض بذلك يقصد منه السخرية.

أجاب الدوق على هذا بقوله:

- يغلب على ظني أنك تحسبني مفلساً لا أملك ما يكفي لتسديد ثمنه. طيب! إنني سأدفع لك أكثر من القيمة الحقيقية بكثير.

فأجبت:

- إنني لم أتوقع أي مكافأة أخرى من سموك. وأنا أعدد نفسي بأني قد إستوفيت أكبر المكافأة بما حكم لي به فنانو فلورنسا أولاً. وبهذا المكافأة في جيبي سأرحل من هنا في هذه اللحظة من غير عودة حتى الى المنزل الذي وهبته لي سموك. والأمر سواء أوقع نظري على فلورنسا. أم توفاني الله دونها.

كنا إذذاك قد بلغنا (سانتا فيليجيتا Santa Felicita) والدوق في طريق العودة الى القصر. فإستدار نحوي بعد ثورتي هذه وقال وهو يتميز غيظاً:

- لن تبرح فلورنسا أبداً. وإحذر من إقدامك على هذا.

سرت في ركيه حتي بلغنا القصر وأنا أشعر ببعض خوف. وبعد أن إستقر به المقام، إستدعى سموه المطران (برتوليني Bartolini) الذي كان رئيساً لأساقفة (بيزا). كما إستدعى السيد (باندلفو دلالاً ستيفيا Pandolfo della Stifa). وأمرهما بأن يقصدا (باجيو باندنللو) ويبلغاه عنه أن يقوم بفحص (پرسيسوس) فحصاً دقيقاً شاملاً وتقدير ثمن له تبعاً لذلك لأنه يريد أن يدفع لي ثمناً عادلاً عنه. فإنطلق الرجلان الصادقان يبحثان عن (باندللو) وأبلغاه أمر الدوق. فقال إنه دقق التمثال ملياً وهو على علم تام بقيمته. إلا أنه لايعتزم التدخل قط في كل ما يتعلق بي من شؤون بأي شكل كان بسبب جفاء بيني وبينه حول مسائل قديمة.

فقال له النبيلان:

- قال الدوق إنك مأمور وعصيانك أمره قد يغضبه وعليك أن تضع ثمناً. وإن إحتجت الى يومين أو ثلاثة للتوصل الى رأي فلا بأس. وعليك بعد هذا أن تعلمنا بالثمن الذي تراه مناسباً.

أجاب (باندنللو):

- سبق لي أن عاينت التمثال وفحصته فحصاً دقيقاً. ومادام الدوق قد أمر فلايسعني إلا الطاعة: إن التمثال جميل للغاية، دقيق الصنعة وهو في نظري يسوى ستة عشر ألف كراون بل وأكثر. قام هذان الشريهان الصادقان بإبلاغ الدوق بالنتيجة. فإنزعج كثيراً ثم إنهما أبلغاني الحكاية كما وقعت. فعلقت بقولي إنني زاهد تماماً في ثناء (باندنللو) الرجل الشرير الذي لم يسلم أحد من لسانه الخبيث فنقلت كلماتي هذه الى الدوق. وكان هذا هو الباعث الذي حمل الدوقة على أن تنصحني بتفويضها لحل القضية. تلك هي الحقيقة بلا مبالاة. وحسبي أن أضيف الى هذا انه من الخير لي لو أطلقت يد الدوقة. إذ أن ثمن التمثال في هذه الحالة سيدفع لي صفقة واحدة فوراً وبدون تقسيط فضلاً عن مكافأة أكثر بكثير من الثمن الأصلي.

أعلمني الدوق عن طريق محاسبه السيد (لوليو توريللو Lolio Torillo) بأنه يريد مني عمل عدد من

المنظر المحفورة على البرونز ليهو المرتلين في كاتدرائية (سانتا ماريا دل فيوري - Santa Maria del Fi- ore)<sup>(١٠٧)</sup> لكن لما كان في ذلك الجزء من الكاتدرائية أعمال من صنع (باندنللو)، فقد كرهت نفسي تجميل صناعته الخرقاء بمجهوداتي. وإن لم يكن هو مسؤولاً عن تصاميم عمله لأنه أجهل خلق الله في فن الهندسة المعمارية. كان التصميم في الواقع من بنات أفكار الحفار على الخشب (غويليانو باجيو دا انيولو Guiliano Baccio d'Agnolo) الذي أتلف القبة. وحسبي القول أنها لاتنم عن أي إبداع ولا تمتاز بشيء من الفن مطلقاً. ولهذا كنت عازفاً عن العمل بأي صورة. غير أنني كنت لا أتي أوكد لسموه المعظم إستعدادي التام لتنفيذ أي عمل يكلفني به، وبناء على هذا ابلغ مجلس ادارة صيانة (سانتا ماريا دل فيوري) بالتعاون معي على أساس ان يدفع الدوق لي معاشي السنوي وهو مائتا كراون فحسب. في حين يزودني المجلس بكل ما أحتاجه خلاف ذلك من مصاريف ونفقات.

بعد هذا مثلت أمام المجلس وأبلغت بالتعليمات التي أصدرها الدوق فخلت إنني أستطيع شرح وجهات نظري بحرية وبيّنت لأعضاء المجلس كيف ستضيع مقادير كبيرة من البرونز بما لا طائل تحته فضلاً عن المبالغ الكثيرة التي ستبذد فعلاً وفصلت الأسباب بمنطق واضح وفهموني تماماً. قلت أولاً: إن الشكل الذي بُني به يهو المرتهلين كان خاطئاً من ألفه الى يائه. فهو عاطل عن الفن، مخالف للمعقول. خال من أي جمال او سبق تصميم لا منطق فيه. وثانياً ان النقوش البرونزية البارزة يجب ان يختار لها مستوى واطيء لتكون تحت خطّ النظر بمسافة كبيرة. كما كان يجب أن يعمل محلّ لتلقي الكلاب فضلاتها فيه إذ ستطغى القاذورات على المكان. ولهذا فاني أمتنع عن القيام بالعمل مهما بذل لي من ثمن ثم إستدردت قائلاً: إنني ولأجل أن لا أبدد خير سنّي حياتي بالعبث الباطل ورغبة مني في إرضاء سموّ الدوق وخدمته من صميم قلبي بعمل شيء له. في حالة ما لو شاء الإفادة من جهودي. أرغبُ في أن يدعني أقوم بصنع الباب الرئيس لسانتا ماريا دل فيوري. إذ سيكون أثراً فنياً رائعاً تتملأه كلّ عين، فيرفع من قدر سموه بشكل لايدانيه فيه أي أثر آخر. وزدت على هذا قولتي إنني سأرتبط بعقد كتابي مشروط عليه بأنني لن أتقاضى أي شيء لقاء أتعابتي إن لم أتفوق في بابي على باب سان جيوفاني<sup>(١٠٨)</sup> الذي بلغ الغاية في الجمال، فلن أتقاضى شيئاً عن أتعابتي. أما اذا كان كما

(١٠٧) تعتبر هذ الكاتدرائية أروع صرح فني في لورنسا وواحدة من أجل الآثار التاريخية والدينية في العالم. بدء تشييدها في حدود العام ١٢٩٦. ثم تعاورتها أيادي فطاحل المهندسين المعماريين وكان آخرهم وهو الذي أكملها في ١٤٣٦ (فيليبو بروندلجي) قد سلخ فيها (١٤) سنة من حياته. ثم إفتتحها البابا يوجين الرابع وسماها بهذا الإسم. يبلغ طولها (١٥٠) متراً وعرضها في أوسع موضع (١٥٠) متراً وعرضها في أوسع موضع (٩٦) وإرتفاعها في أعلى نقطة (٩٠) متراً. تكاد لا تجد فناً فلورنسياً شهيراً إلا وقد ترك فيها أثراً له فهي أشبه بمحتف ضخم حاشد من التماثيل والنقوش والرسوم.

(١٠٨) المقصود به ولاشك الباب الشرقي لكنيسة القديس يوحنا المعمدان المسماة الآن بالكنيسة المعمدانية. وهو الباب المواجه لكاتدرائية سانتا فيوري. إنها أعتق بناء أثري في فلورنسا. سماها دانتي في كوميدياه الألهية il mio bel san giovani وفيها تعمّد وهي مثمّنة الشكل. ولاشك في ان جليليني كان يقصد مباراة هذا الباب الذي يعد آية من آيات الفن بحيث اطلق عليه ميكالنجلو عبارة (باب الفردوس). وهو الإنجاز الرئيس للفنان (لورينزو جيبيرتي)=

وعدت فسأرضى بأن يقدر ثمنه ثم يخضم ألف كراون من التقدير الذي سيحكم به أعضاء النقابة. سُرَّ أعضاء المجلس بما قلت. وقصدوا الدوق لبحث الموضوع. وقد خُيِّلَ لأحدهم وهو (بييرو سالفياتي (Piero Salviati) أن الإقتراح سيكون موضوع سرور الدوق فكان واهماً. إذ ردَّ سموه قائلاً: - إن (بنثنوتو) لا ينفكُّ يريدني أن أفعل خلاف ما يراد منه عمله.

وبهذا إنصرف (بييرو) دون التوصل الى قرار.

بُلِّغَتْ بما كان. فإنطلقت فوراً لمقابلة الدوق. فوجدته منفجلاً بعض الشيء. لكنني رجوته أن يتفضل عليَّ بالإصغاء لما سأقول، فوافق. فبدأت الحكاية من أولها وأوردت مجموعة كبيرة من البراهين الدامغة والجذابة، محاولاً إيفهامه الحقيقة، مبيناً له كثرة النفقات وكيف ستضيع هباءً. ثم هدأت من غضبه بقولي إن لم يشأ قيامي بصنع الباب. فهناك منبران ينقصان بهو المرتلين في الكاتدرائية وهما عملان في غاية الأهمية وسيرفعان من قدر سموه. وأردفت قائلاً إنني سأعمل لهما عدداً كبيراً من المناظر البرونزية البارزة بنقوش وتهويل بديعة دقيقة. فأمرني بعمل بعض التصاميم.

قمت بعمل عدة نماذج وإستغرق مني ذلك وقتاً ومجهوداً. وبين التصاميم واحدٌ ذو ثمانية أضلاع بذلت فيه عناية خاصة ويدا لي أنه أنسب وأوفى بالغرض. ثم حملتها الى القصر عدة مرات دون أن أوفق في عرضها. وبعدها فهمت عن طريق السيد (چيزاري) الموكل بخزانة الثياب ان سموه يرغب في أن أتركها له هناك. ثم إطلع عليها وتبين لي أنه إختار أقل التصاميم جمالاً. بعد ذلك أرسل في طلبي ذات يوم. وفي أثناء بحثنا التصميم أشرت الى أن التصميم المثمن هو أليق وأنسب ودعمت قولي بالبراهين والحجج ونوهت بجماله الذي يفوق البقية. فقال انه يريد ان يكون مربعاً فهو المفضل عنده. ثم واصل حديثه معي وقتاً ملياً بكل إيناس. إنني لم أتردد في شرح ماوقع لي حرصاً على سمعة الفن ومكانته الرفيعة. من المحتمل أن الدوق أدرك صواب رأبي. لكنه أبى إلا أن يصرَّ على إجراء ما يريد وقد إنتظرت طويلاً دون أن تطرح القضية على بساط البحث.

في ذلك الحين جيء بكتلة ضخمة من الرخام لنحت تمثال (نبتون) منها عن طريق نهر (آرنو) الى (گريفي (Grievi) بالطريق المحاذية لـ(پوجيو آكايانو (Poggio a Cajano) وتمَّ نقلها على هذه الصورة السهلة بإختيار طريق مستوية<sup>(١٠٩)</sup> وكانت قد تركت هناك فذهبت لمعاينتها. ومع اني علمت أن الدوقة قد

=الذي اودع فيه عصارة عبقريته وإشتغل فيه (٢٧) عاماً (١٤٢٥-١٤٥٢). وصبه بالبرونز ويتكون من مصفقين في كل مصفق خمس مناظر بارزة إقتبس مواضيعها من قصص شهيرة في التوراة. ويحيط بكل مصفق اطار تحتشد فيهما صور صغيرة للقديسين. اعيد طلاء هذا الباب مؤخراً فعدت اليه روعته السالفة. وكان لا يزال قبلة السياح وعشاق الفن وموضوع دراستهم.

(١٠٩) كان الرخام يستخرج من المقالع في الجبال الواقعة جنوب فلورنسا حيث منابع نهر (آرنو) الذي يصدر منها وينحدر شمالاً حتى فلورنسا ويصب في بحر ليگوري بالقرب من پيزا. ويظهر أن مجرى هذا النهر كان يصلح لنقل قطع الرخام الكبيرة الى مسافة ما وبعدها ينقل من العوامات الى الطرق البرية. والموضعان اللذان ذكرهما چليني في المتن لا أثر لهما في خرائط إيطاليا الحديثة. إلا أن الموضع الأخير (پوجينو اكايانو) كما يبدو هو موضع في ضواحي فلورنسا أو قريب منها.

منحتها (باندنللو) تكريماً خاصاً له. فقد أدركني الأسف لا حسداً لـ(باندنللو) بل إشفافاً على الرخامة السيئة الحظّ. إن المرء لا يتمالك نفسه فيظهر التأسف والتفجع على شيء ما قدّر له أن يؤول الى نهاية سيئة، ويحاول إنقاذه من هذه الخاتمة فيقع بسبب ذلك في مأزق أسوأ من النهاية التي توقعها لذلك الشيء. وهذا ينطبق على المصير الذي قدّر للرخامة، عندما وقعت بالأخير من نصيب (بارتولومو أمّاناتي Bartolomio Ammanati) (١١٠) الذي سأقول عنه الحق في الموضوع والوقت المناسب.

بعد أن أجلت نظري في الرخامة البديعة، قمت بأخذ قياساتها من سائر جهاتها. وبعد عودتي الى فلورنسا عملت لها عدداً من التصاميم بنسب وأبعاد صحيحة. وبعد ذلك شددت الرحال الى (پوجيو آكايانو) حيث الدوق والدوقة والأمير الصغير إبنهما. وجدتهم جميعاً على مائدة الطعام، والدوق والدوقة يأكلان بمفردهما، لذا رحلت أتحدث الى الأمير وطال بنا الحديث حتى سمع الدوق صوتي من الغرفة المجاورة فإستدعاني بكلّ لطف. فدخلت عليهما وتلطفت الدوقة بالحديث معي بأسلوبها الساحر، ثم وجدت فرصتي المناسبة فأدرت الحديث تدريجاً الى موضوع الرخامة البديعة التي عاينتها. وأخذت أذكر الدوقة بأسلافها وكيف أنشأوا مدرستهم الرفيعة وأعلوا من شأنها بتشجيع الفنانين وإيمانهم روح المنافسة بينهم، وبهذه الوسيلة تم إبداع القبة الرائعة والأبواب البديعة التي تشاهد الآن في بيعة (سان جيوفاني) فضلاً عن مختلف البيع الأخرى الممتازة والتماثيل التي تحفوا بها المدينة منذ العصور الغابرة وظفروها على هامتها كالتاج الوهاج. لم تدعني الدوقة أسترسل فقاطعتني وهي في أشدّ حالات الإنفعال قائلة انها تدرك جيداً ما أرمي اليه. ومنعتني منعاً باتاً من ذكر شيء عن الرخامة بمحضر منها مرة أخرى. قائلة إن ذلك يورثها أشدّ الإنزعاج. فقلت:

- إذن فأنا أضايقك عندما اعلن رغبتي في مصلحة سموكما وترتيب الأمور بشكلها الصحيح المرضي؟ ألا فكري ياسيدتي ماضراً سموكما المعظمين لو وافقتما على أن يقوم كلّ نحات بعمل تصميم لـ(نبتون)؟ حتى وإن كان قراركما النهائي ان تكون من نصيب (باندنللو)، فإن هذا سيدفعه الى بذل المزيد من الجهد لعمل تصميم متقن وأكثر دقة مما لو كان على يقين بأنه سيد الميدان بلا منافس- يدفعه الى ذلك حرصه على سمعته. بهذه الوسيلة ستتوصلان الى خير النتائج ولن تخيبا آمال الفنانين العباقرة بكما. وستتبيّنان من هو المبرزّ السباق في ممارسة هذا الفن السامي الممتاز على البقية بالمهارة والإبداع الذاتي، وبذلك سيعلم الملأ أي نصيرين للذوق السليم ومتفهمين للفن أنتما؟

أجابت الدوقة وقد بلغ الغضب بها أقصاه، إنني أضايقها بكلامي واثقل عليها الى حد كبير. وقد

(١١٠) مهندس ونحات فلورنسي (١٥١١-١٥٩٢) فنان قدير من مبرزّي جيله ولد في (سفتيانو). وإستخدمه أمراء آل مديتشي. وأثاره توجد اليوم في البندقية وبادوا وروما، فضلاً عن أشغاله في فلورنسا. ومن أشهر آثاره الهندسية جسر الأرنو الشهير الذي نُسف في ١٩٤٤ وابعيد ترميمه في ١٩٥٧. مازالت نافورة (نبتون) وتمثاله من عمل هذا النحات يشاهد في فلورنسا. وهو التمثال الذي نجح في الفوز بعمله كما سيأتي في المذكرات. ومع أن چليني يبدي هنا كثيراً من التحيز في الحكم على مقدرة (أمّاناتي). إلا أن حكمه على التمثال نفسه يكاد يكون صائباً. فهو ينظر أهل الفن المعاصرين لايعتبر من الآثار المتقنة الحالية من العيوب.

صممت تصميمياً لارجعة فيه على أن تكون الرخامة من حظّ (باندنللو) ثم أضافت:  
 - سلّ الدوق عنها. فهو أيضاً عازم على إعطائها (باندنللو).  
 ظلّ الدوق لائداً بالصمت أثناء كلام الدوقة، فلما توجهت إليه قال:  
 - عشرون عاماً مرّ على قطع هذه الرخامة من المقطع خصيصاً لـ (باندنللو)، فهي له.  
 فأسّرت أقول للدوق:  
 - فليسمح سموك العظيم لي ببعض الكلمات المقصود بها خدمتك.  
 قال لامانع لديه من قول ما أريد قوله وانه سيصغي اليّ.  
 قلت:

- إذن فعليّ إبلاغك يامولاي بأن تلك الرخامة التي نحت منها باندنللو تمثاله (هرقل وكاكوس) كانت قد جلبت خصيصاً (الميكالنجلو بوناروتي) الأملعي المفلق. فوضع لها تصميمياً بهيئة (شمشون) والمجموعة تتألف من أربعة شخوص بالتمام. ولو أتاحت الفرصة له وواتته الظروف لأنتج منها أعظم أثر. في حين إن صاحبكم (باندنللو) لم ينحت منها غير شخصين مشوهين قبيحين. وفنانو فلورنسا مازالوا الي يومنا هذا يأسفون للخطأ الفظيع الذي ارتكب بحقّ تلك الرخامة النفيسة. واعتقد أن أكثر من ألف قصيدة هجاء وسُخر علققت على هذا الإخفاق الفني الذريع. واني لعلى يقين بأن سموك يتذكر ذلك جيداً. لهذا السبب يامولاي الأجلّ أنا أربأ بك ان تفرط بمثل هذه الرخامة التي تفوق سابقتها نفاسة أن تمنعها عن فنان خبير يجيد نحتها، وإن كانت مخصصة لـ (باندنللو) الذي سيتلفها حتماً فأنت لست كأولئك الذي كانوا في مركز المسؤولية وأدى بهم جهلهم الي حرمان (ميكالنجلو) من تلك الرخامة التي اقتلعت له، فدفعوا بها الي (باندنللو) فأتلّفها. ألا فكر ملياً ياسيدّي. واحكم بأن يقوم كلّ من يريد لها لنفسه - بعمل تصميم. وبعد ان تجتمع لك طائفة منها اعرضها على المدرسة<sup>(١١١)</sup>. وبعد ان يستمع سموك الي رأيها ستعرف بحكمك الصائب كيف تختار الأفضل. وعندها لن تبدد مالك ولن تخيب آمال عصابة الفنانين النوايح الذين لانظير لهم في العالم اليوم، فسيضيّفون مجدداً الي مجدك.  
 بعد أن أنصت الدوق اليّ بإهتمام ولطف نهض تاركاً المائدة وهو يقول:

- إذهب وإعمل تصميمك يا بنقنوتو واربح القطعة الرخامية. فما قلته هو الحقّ وإني بذلك لعليم.  
 أظهرت الدوقة إشارات تنمّ عن الهديد والوعيد وراحت تتمتم بغيظ وحنق ما لا أدري. أما أنا فقد استأذنت وعدت الي فلورنسا وأنا أرى الطريق دهرأ، لاتفرغ حالاً الي التصميم.  
 بعد عودة الدوق قصد داري دون إخطار. فأريته نموذجين صغيرين يختلف أحدهما عن الآخر فإمتدحهما لكنه خصّ أحدهما بأكثر إعجابيه، وطلب مني أن أضع اللمسات الأخيرة عليه قائلاً إن ذلك سيكون من صالحني. وكان قد إطلع على نموذج (باندنللو) وعلى آخر غيره لعدد من النحاتين. إلاّ أنه خصّ تصميمي بالمزيد من الثناء. أو هذا على الأقلّ مانقله العديد من الحجاب والمرافقين الذين

(١١١) أي نقابة أو جمعية الفنانين الفلورنسيين.

سمعوا ثناء الدوق.

ومما أذكر من الوقائع حول هذا الموضوع، حادث له صلة وثيقة به. إتفق أن كردينال (سانتا فيوري) قدم إلى فلورنسا فأخذ الدوق إلى (بوجيو كايانو) وفيما هو في عرض الطريق وقع نظر الكردينال على الرخامة فامتدحها وأظهر إعجابه الشديد بها ثم سأل الدوق عن كلف العمل بها من المثالين؟ فأجاب الدوق دون توقف:

- بنقنوتو، فقد عمل تصميماً لها في غاية الروعة.

نقل اليّ هذا الحديث أناس موثوق بهم. وعلى إثر سماعي ذلك إنطلقت لمقابلة الدوقة حاملاً معي بعض الحلبي الجميلة. فأعجبته كثيراً ثم سألتني بمّ أنا مشغول. فقلت:

- اني أقوم الآن يا مولاتي بعمل نموذج يتفق ومزاجي. عملٌ مجهودٌ للغاية لم يسبقني إليه أحد. اني أنحت مجسماً للمسيح على الصليب بالحجم الطبيعي من رخام أبيض ناصع كالثلج فوق صليب من الرخام الأسود.

فسألتني فوراً عما أنتويه له، فأجبت:

- بصراحة ياسيدتي. اني لا أنوي بيعه ولو بألفي دوقية ذهبية. فأنا لا أعتقد أن أحداً صرف مجهوداً مثلما صرفت فيه. كما اني لم أرغب في أن أتعهد بصنعه لشخص ما خشية أن لا أوفق به ويسيء الفشل إلى سمعتي. لقد إبتعت قطعتي الرخام من حرّ مالي. وإستخدمت لمعاونتي شاباً طوال سنتين وأجرته مع ثمن الرخام والحديد جمعت كلها ثلاثمائة كراون ذهباً. ولهذا قلت لن أتنازل عنه بأقل من ألفين. لكن لو أن سموك أنالنتني فضلاً لا غبار فيه ولا ضرر يتأتى منه، فإنه يسرني جداً أن أقدمه هدية خالصة لك. كل ما أطلبه من سموك هو أن لا تقفي ضدي في قضية ترجيح التصاميم التي كلفني سموّ الدوق بها لتمثال نبتون من الرخامة الكبيرة.

فأجابت بإنفعال شديد:

- إذن فمعارضتي أو مساندتي لا وزن لهما عندك؟

أجبت قائلاً:

- بالعكس! اني لعظيم الإعتبار لكليهما يا سيدتي. وإلاّ لما عرضت عليك هدية ذات إعتبار عندي لا يقلّ ثمنها عن ألفي دوقية. غير اني واثق من الدراسات والتصاميم المصنوية الدقيقة التي عملتها للتمثال بحيث صرت كبير الأمل بالفوز في هذه المسابقة حتى وإن كان منازلي (ميكالنجلو) العظيم الذي تعلمت منه وحده لا من غيره كلّ ما أملكه من معرفة. ولعمري اني سأعطي لو شارك وهو الواسع الإطلاع بعمل تصميم لا أولئك الجهلة الذين لا يملكون من المعرفة إلاّ النزر فيمنافستي لأستاذي الجليل سأنال درجةً رفيعة من الشرف في حين أني لن أكسب شيئاً من مباراتي لهؤلاء الآخرين.

بعد أن فرغت من أقوالي هذه نهضت وتركت مجلسها وهي غاضبة.

عدت إلى عملي في التصميم حتى إنتهيت منه. وجاء الدوق لمشاهدته يصحبه سفيران، أحدهما

مرسل من دوق (فرارا) والثاني من مجلس حكام (لوگّا). سرّ سموه بالنموذج وقال للنبييلين المرافقين:  
- حقاً ان (بنقنوتو) جدير بالفوز.

وشاركه السفيران وإرتفعا بالثنا الى عنان السماء لاسيما سفير (لوگّا) الذي كان من مشاهير العلماء. وكنت قد تأخرت عنهم مسافةً لأتيح لهما مجالاً لقول ما يريدون لكنني وبعد سماعي هذا التكريظ تقدمت من فوري ووجهت كلامي الى الدوق قائلاً:

- مولاي. إليك خطوة ممتازة أخرى يخطوها سموك: وهي أن تأمر كل راغب في الرخامة أن يصنع أنموذجاً من الطين بنفس الحجم الذي تتسع له الرخامة. وعندئذ سيكون سموك في أفضل موقف للحكم فيمن يستحقها. وإسمح لي أن أضيف: لو أعطى سموك الرخامة لمن لا يستحقها فلن يلحق ضرر بمن يستحقها قدر ما يلحق بك. لأنك ستخسر مالياً، وسيصيبك الحجل. في حين لو عكست الآية وأعطيتها لمن يستحقها، فستنال شرفاً عظيماً وسجني ربحاً من المال الذي تنفقه. كما سيدرك أهل الفن بأنك خبير وصاحب ذوق.

هزّ الدوق كتفيه غير مكترث وسار مبتعداً إشارة الى نهاية الزيارة. وعندها قال له سفير (لوگّا):  
- مولاي، انت رجلك (بنقنوتو) هذا رجل فظيع!

اجاب الدوق:

- بل واكثر مما تتصور بمراحل. ما كان افضل له لو هو أقلّ من هذا، اذ لحظي بالكثير مما فقده.  
هذه العبارة نقلها لي السفير نفسه بالحرف الواحد كأنما يريد ان ينصحني لأغبر من أسلوب تعاملي. فعلقت على هذا بقولي: القضية هي اني متعلق بسيدي وخادمه المحبّ المخلص. لكنني لا اتقن اسلوب الملوك والمداهنة.

ما مرّت أسابيع قلائل حتى حضرت (باندنللو) الوفاة. وقيل ان العلة التي اوردها حتفه هي الصدمة التي اصابته بعد يأسه من الحصول على الرخامة، ناهيك عن فسقه وفجوره المفرطين. كان (باندنللو) قد سمع بالصليب الذي ذكرت فيما سبق قيامي بنحته. فأسرع يباشر العمل في نحت الـ(بيتا Pieta)<sup>(١١٢)</sup> من قطعة رخام. وتشاهد الآن في كاتدرائية (انونزياتا)<sup>(١١٣)</sup>. أما أنا فكنت إعتزمت إهداء صليبي لكنيسة (سانتا ماريا نوفللا Santa Maria Novella)<sup>(١١٤)</sup> فثبتت الكلايب التي

(١١٢) اي تمثال العذراء مريم وهي تحتضن جسد المسيح. في الواقع ان باندنللو مدفون في كاتدرائية الأنونزياتا وعلى قبره قطعة رخام ذات كتابة بارزة تشير الى ذلك. لقد تفنن النحاتون في نحت تماثيل للعذراء في هذا الموقف. وعلى رأسهم (ميكالنجلو) الذي يرى تمثاله (ألسييا) الآن في كاتدرائية (سانتا فيوري). وقد نحت ليوضع على ضريحه إلا أنه توفي في (١٥٥٥) ولم يتمه وهو اهم أثر في الكاتدرائية.

(١١٣) بنيت في حدود (١٢٥٠) واعيد بناؤها في اوسط القرن الخامس عشر.

(١١٤) بوشر بنائها في اواسط القرن الرابع عشر واروع ما فيها الرخام المستعمل في تزيينها من اللونين الأبيض والأخضر ويشاهد فيها أروع ما خلفه رسّامو ونحاتو الرينسانس من تماثيل وصور تمثل مناظر دينية. وهي مخصصة لأخوية الرهبان الدومينيكان وهناك دير ملحق بها. والى هؤلاء رجع جليلني يفوضهم في الموضوع.

سيعلق بها. ولم أطلب لقاء هديتي إلا السماح لي ببناء ضريح صغير لي تحت قدمي الصليب لتثوي فيه عظامي. فأجاب الأخوة الرهبان انهم لا يستطيعون الموافقة دون قرار من مجلس الإدارة. فقلت لهم:

- إذن لماذا لم تطلبوا أيها الأخوة موافقة المجلس على السماح لي ب نصب الصليب بعد أن سمحتم لي بدق المسامير وغير ذلك دون إجازة منهم؟

على إثر ذلك قررت ألا أهدي (سانتا ماريا نوفللاً) ثمرة جهودي الفنية. وبقيت مصرراً على هذا رغم أن أعضاء المجلس جاؤوا اليّ ورجوني بأن اعيدده اليها. على اني راجعت المسؤولين عن كاتدرائية (انونزيانا) وافضيت للأخوة الرهبان المطهرين بما في نفسي من أمنية مثلما فعلت في (سانتا ماريا نوفللاً). فوافقوا بالإجماع قائلين من المؤكد أنهم يريدوني أن أهديه لكنيستهم ولا مانع عندهم من بناء ضريحي فيها بأي شكل أردته مناسباً. ولما سمع (باندنللو) بهذا بدأ يشتغل بكل دأب وجدّ لإنجاز تمثال العذراء (البيتا) وطلب من الدوقة أن تتوسط للحصول له على بقعة في كنيسة (پازي Pazzi)<sup>(١١٥)</sup>. فتم له ذلك بشيء من الصعوبة. وما أن تأكد من ذلك حتى أقام تمثاله بغاية من الإستعجال، لكنه توفي قبل الفراغ منه. فقالت الدوقة إنها إلتزمت (باندنللو) في حياته وستلتزمه أيضاً وهو ميت. ويخصوص الرخامة قالت:

- إني وإن اصبح في عالم الأموات، سأطرد كل فكرة تساورني لنفص يدي من أمر الرخامة. وعلمت ذات يوم من السمسار (برناردو) لذي لقبته صدفة في الريف ان الدوقة قد أعطت (آماناتي) الرخامة. فقلت:

- ما كان أسوأ حظها العاثر لو وقعت في يد (باندنللو) على أن مصيرها سيكون أسوأ بمائة ضعف وهي في يد (آماناتي).

كان الدوق قد كلفني بعمل نموذج بإرتفاع الرخامة وأوصى بأن أزود بالخشب والصلصال اللازمين. فضلاً عن إقامة قاطع صغير في اللوجيا الكبير حيث إنتصب (پرسیوس) مع دفع أجور عامل واحد. فباشرت العمل بحماسة باذلاً قصارى جهدي وأقمت متبعاً الأصول المعتمدة- هيكلأ خشبياً وقطعت أشواطاً في فترة وجيزة حتى أشرفت به على النهاية غير ملق بالآ على ما إذا كنت سأتولى نحته من الرخام أو أصبّه بالبرونز. أبيت أن أشغل فكري بهذا وكنت في الواقع مسروراً لإضطاعي بمثل هذا العمل المرهق معللاً نفسي بأن الدوقة وهي المرأة الذكية الأريية كما تبين لي فيما بعد- ستأسف بعد أن ترى النموذج- على إرتكابها هذا الخطأ الفاحش بحق نفسها وبحق الرخامة.

وعمل (جيوقاني) الفلمنكي<sup>(١١٦)</sup> نموذجاً آخر في دير سانتا كروچي Santa Croce<sup>(١١٧)</sup> كما عمل

(١١٥) سانتا ماريا مادلينا دي پازي. إحدى الكنائس الأثرية التي تعود الى القرن الرابع عشر.

(١١٦) ويدعي جان پولونيا. نسبة الى المدينة التي يرى فيها تمثاله الرائع ل(نبتون) الآن وهو لعين النموذج الذي عمله في فلورنسا فرفض على الأرجح. ويعد من أشهر الآثار في إيطاليا.

(١١٧) كنيسة الأخوة الرهبان الفرنسيسكان جددت في (١٢٩٥) كما ترى الآن. ويقع الى جوارها دير الرهبان وهو الذي يقصده چليني هنا.

(فنجنزيو دانتي Vencenzio Danti) البيروجي نموذجاً ثالثاً في منزل النبيل (اوتافيو دي مديتشي Ottavio de Médici) وياشر ابن (موسكينو Moschino) الپيزي برابع. وصنع الخامس (بارتولومو آماتاتي) في بهو اللوجيا الذي قسّم بيننا. وكنت قد أقمت لنموذجي حاجزاً محكماً. وهممت بالجزء الختامي من الرأس، فصورت ملامحه التقريبية ولم أكد إذ أقبل الدوق من القصر بصحبة الرسّام جيورجيو<sup>(١١٨)</sup> قاصداً محل عمل (آماناتي) للإطلاع على نموذج (نبتون) الذي كان (فاساري) نفسه قد شارك آماتاتي في العمل به مع كلّ مساعديه أياماً غير قليلة. وقد نُقل لي أن الدوق لم تبد عليه علائم الرضى أثناء تفقده. ولم يقع من نفسه موقع قبول. فهمّ (جيورجيو) بإلقاء خطبة طنانة إلاّ الدوق هزّ رأسه وقال موجهاً كلامه الى (جيانستفانو Giastefano):

- إذهب وسلّ (بنفوتو) هل بلغ عملاقه مرحلة يمكن معها إلقاء نظرة عليه؟

أبلغني (جيانستفانو) برسالة الدوق بلطف وإحترام واذاف انه لن يتردد في مصارحة الدوق إن لم يكن النموذج قد بلغ المرحلة التي تمكن الدوق من تأمله، لأن سموه مدرك تماماً الظروف العصبية التي اجتازها جراء إفتقاري الى المعاوين. قلت: سأكون ممتناً لو تفضل عليّ بالمجيء، ومع اني لم أتقدم في عملي كثيراً لكنني أركن الى نفاذ بصيرة سموه المتناهية القادرة على الحكم بدقة عما سيكونه نموذجي عند فراغي منه.

فتقل السيد الماجد كلامي للدوق فأقبل متلهفياً، وما ان إحتوته دكاني حتى شخص بأبصاره الى النموذج متفرساً متمعناً فيه بشكل إستشففت منه الإرتياح والسرور. ثم أخذ يدور حوله متوقفاً بين آن وآخر مدققاً إياه من جهاته الأربع تدقيق الخبير العليم بأسرار الصنعة. ثم أظهر مايدلّ على رضاه التام. ولم ينطق بأكثر من هذا القول:

- بنفوتو! ما عليك الان إلاّ أن تضع عليه كسوته الأخيرة.

ثم إلتفت الى مرافقيه وأنشأ يمدح عملي بإفراط. وانهى ذلك بقوله:

- النموذج الصغير الذي رأيته في منزله كان في نظري في غاية الإبداع إلاّ أن هذا فاقه.

شاءت إرادة الله- وهو المدبّر لسائر الكائنات والأشياء الخبيرنا (أقصد أولئك الذين يؤمنون به وينحنون لجبروته، فهو يدفع عنهم البلوى والضرّ دائماً) أقول شاءت إرادة الله ان يعترض سبيل حياتي وغدّ حقير من أهل (فيكيو Vicchio)<sup>(١١٩)</sup> إسمه (پييرماريا دانترغولي Piermaria d'Antergoli) ويلقب بـ(سبييتا Sbietta). وهو فلاح غنّام من أقرباء الطيب (گويدو گويدو) الذي هو الآن رئيس بلدية (پسچيا Pescia)<sup>(١٢٠)</sup>. جاءني هذا بإقتراح: عرض أن يبيع مني منافع واحدٍ من حقوله للمدة التي

(١١٨) هو جيورجيو فاساري Giorgio Vasari (١٥١١-١٥٧٤) المولود في أريزو، رسام ومهندس شهير من مدرسة الرينسانس. وقد نوهنا بكتابه الجليل الشهير في سير الفنانين الذي سبق ان ذكره جليلني في موضع سابق من مذكراته.

(١١٩) بلدية تبعد زهاء خمسة وعشرين كيلومتراً الى الشمال الشرقي من فلورنسا.

(١٢٠) بلدية تبعد زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً الى الشمال الغربي من فلورنسا.

بقيت لي في هذه الدنيا . لم أشأ تفقد الحقل قبل عقد الصفقة لإنصافي الى إكمال نموذج (نبتون) العملاق، كما إنني لم أر ضرورة لذلك مادام هذا البيع هو مجرد إستغلال منفعة. فقام بحساب الغلّة التي ستصيني بمقدار كذا من بوشلات القمح، وكذا من الخمر، وكذا من الزيت والذرة والكستناء الخ... الخ... فقدرت أن كلّ هذا المحصول يسوى في يومنا ذاك مبلغ مائة كراون ذهبي. دفعت له ستمائة وخمسين كراوناً وهو الثمن المتفق عليه بضمنه الضرائب، ووضع في يدي صكّ ضمان بخط يده فيه تعهد أن يدفع لي تلك الكميات من الغلال طوال حياتي. ولذلك لم أهتم بأمر الذهاب الى المزرعة وإلقاء نظرة عليها، ومهما يكن فالأمر لدي سواء مادام الوضع المالي لـ(سبييتا) وأخيه (سوفيليو) سيقومان بمثابة ضمان كافٍ، إذ أكد لي عدد كبير من معارفهما بأن مالي مضمون الى آخر حد. بعد هذا إتفقنا على إستقدام السيد (بيير فرانشسكو برتولدي) مسجل عقود المركاتانزيا (Mercatanzia). فبادرت بتسليمه الوثيقة التي أدرج فيها (سبييتا) تفاصيل كلّ ما أقرّ به لي من غلّة معتقداً أنها ستُدْرَج في صلب العقد. إلا أن مسجل العقود هذا الذي كان مسؤولاً عن صياغة العقد إنشغل بتدوين الحدود الإثني والعشرين التي عددها له سبييتا، فغفل كما أظن عن تثبيت كميات الغلّة التي أقرّ لي بها البائع. وكنت من جهتي مركزاً إنتباهي في عملي أثناء قيام المسجل بكتابة العقد حتى إنني تمكنت من إنجاز جانب كبير من رأس نبتون أثناء كتابته التي إستغرقت عدة ساعات. بعد توقيع العقد، راح (سبييتا) يجاملني فيظهر لي من الودّ ما يزيد عن المعقول. فقابلته بالمثل وأهداني جداً وجيناً وديوكاً ولبناً خائراً وأصنافاً من الفاكهة حتى أخجلني وأخرجني. وإزاء كرمه هذا كنت أخرجته من الفندق الذي ينزل فيه كلما إختلف الى فلورنسا وأستضيفه في منزلي هو وقريب أو قريبان له كانا يوافقانه في كثير من الأحيان.

ثم شرع وبغاية من الكياسة والمحبة يحضني على زيارة المزرعة قائلاً انه لمن المؤسف أن لا أعتزم عملي الى مساعدي بضعة أيام والقيام بزيارة للمزرعة بعد مرور الأسابيع الكثيرة على شرائها. وأحدث هذا الرجاء والإلحاف المنطوي على أخبث النوايا تأثيره. فشددت الرحال في ساعة من ساعات النحس وإستقبلني (سبييتا) في منزله بحفاوة وودّ يقصر عن إظهار مثلهما للدوق نفسه! وبدّته زوجته في الترحيب وحسن الإستقبال. ومرّ بنا زمن ونحن على هذه الحال من المودة والتعاطف الى أن أتت نسج خيوط مؤامرتي ضدي أعني هو وأخوه (سرفيليو).

لم أهمل العمل الدائب في (نبتون) وقد تبينت سابقاً أنني قمت بإبراز تقاسيم جسمه وتفصيل أعضائه بأسلوب محكم جداً ومتميز لايعرفه أحد ولم يمارس من قبل. ومع يقيني بأن القدر حكم بأن لاتكون الرخامة من نصيبي للأسباب التي فصلتها سابقاً، فقد إستهدفت الفراغ منه بسرعة وعرضه في الميدان حالاً إرضاء لرغبة في نفسي لا غير.

ذات يوم وكان يوم أربعاء يقع فيه عيدٌ إختيارى<sup>(١٢١)</sup> شجعني الطقس الدافيء الجميل ومعاملة

(١٢١) هو عند الكاثوليك ليس بالعيد الرسمي، وإنما يوم مخصص لذكرى قديس أو حدث ديني وللمرء الخبير في يتخذة عطلة أو يشتغل فيه.

الوعددين البالغة في اللطف والمجاملة، على الخروج من منزلي الريفي في (ترسبيانو Trespiano). كنت قد أصبت وجبة غداء فاخرة، فلم أتأخر في طريقي الى (فيكيو) كثيراً بل بلغتها في أقل من ثلاث ساعات قبل حلول المغرب. فلقيني (سرفيليسو) عند مدخل البلد. ويبدو انه كان على علم سابق بمقدمي. غمرني بالمجاملات. وأخذني الى دار (سبييتا) حيث رحبت بي زوجته تلك الساقطة العاهر بكل حرارة، فقدمت لها على سبيل الهدية قبعة من القش ظريفة جداً قالت أنها لم تر أجمل منها. ولم أجد (سبييتا) في الدار.

حلّ المساء فجيء بالعشاء وتناولناه معاً بإنسجام وإنشراح خاطر. وخصص لمبتي مخدع ممتاز نمت فيه على فراش في منتهى النظافة. وعومل خادمان كانا معي بعين المعاملة حسب مركزهما. وفي صباح اليوم التالي لقيت إثر إستيقاظي عين الحفاوة والإكرام كأمس. وتوجهت لمعابنة مزرعتي فوجدتها على خير مايرام. ودفع لي المقدار المقدر من الحنطة والذرة. ثم إني قفلت راجعاً الى (فيكيو) وبعد عودتي قال لي القسّ (سرفيليسو):

- أرجو أن لا يستبدّ بك القلق أي بنقنوتو! قد لا تجد كل شيء بالشكل الذي مُنيت به؛ وفي هذه الحالة لا تزعج نفسك أو تقلق اذ سرعان ما ستجد الأمور في صالحك لأنك تتعامل مع أناس أمناء. وعليّ أن أخبرك بأننا طردنا الفلاح الأجير في المزرعة لأنه من أهل الفساد.

هذا الفلاح الذي يدعى (ماريانو روزيگلي). كثيراً ما كان يبهني بعد طرده بقوله:

- ستري في النهاية أيّنا من أهل الفساد وحسبك أن لا تغفل عن مصالحك وكن يقظاً. وفي أثناء تحذيره هذا كان يطلق ضحكات مكتومة فيها إنذار ويميل برأسه مشيراً كأنه يريد القول "إذهب الي هناك وستتبن الأمر بنفسك". فداخني القلق من أقواله لكّني لم أتوصل الى معرفة شيء مما كان سيقع لي.

على كل، بعد عودتي من المزرعة التي كانت على نحو ميلين من (فيكيو) بإتجاه جبال الألب، وجدت القسّ<sup>(١٢٢)</sup> في إنتظاري. فتلقاني بسحره المعتاد هاشاً باشاً وسرنا معاً الى المنزل لتناول الغداء. كانت وجبة خفيفة أكثر مما هي وجبة كاملة. وبعدها خرجت متجولاً في أنحاء (فيكيو) وكان السوق قد بدء يكتنظ بمرتاديه ووجدت نفسي فجأة وأنا محطّ أنظارهم: الكل يتطلعون اليّ متفلسين كأنما يجدون شيئاً غريباً فيّ ومنهم بصورة خاصة شيخ صالح طاعن في السن، قضى شطراً كبيراً من حياته في (فيكيو) وإمرأته خبازة تخبز وتبيع. وكان يملك عقاراً زراعياً جيداً يبعد عن الموقع نحو ميل واحد لكنه قنع بالبقاء حيث هو. وكان مستأجراً داراً تعود لي في (فيكيو) تحولت ملكيته اليّ مع المزرعة التي كانت تدعى (حقل النافورة).

فبدأ يخاطبني:

- إني أشغل دارك وسأدفع لك الإيجار عند الإستحقاق. وإن إحتجت إليه قبل الأجل فأنا طوع أمرك وسأنقدك البدل. كل ما أريد قوله هو اني أكره أن يقوم سبب للخلاف بيني وبينك.

(١٢٢) يقصد سرفيليسو.

وفيم نحن في هذا الحديث، لاحظت انه كان يركز في نظراً حديداً.

فلم يسعني السكوت وقلت:

- اجبني ايها العزيز (جيو فاني) لماذا تبخلق في ولا تحول أنظارك عني؟

أجاب الرجل الطيب:

- سأصارك بكل سرور إن وعدتني وعد رجل حر وهو ما أتوسمه فيك أن لا تدع أحداً يدري بأني القائل.

فقطعت له عهداً، فقال:

- ينبغي لي أن أخبرك بأن ذاك القسّ الجلف (سرفيليبو) راح قبل أيام ليست ببعيدة، يدور متبجحاً مفاخرًا بذكاء وسعة حيلة أخيه (سبييتا)، كيف إنه باع مزعرته من شيخ مسنّ بيعاً محددًا بما بقي من حياة الشاري الذي لن تمتد به الحياة أكثر من سنة واحدة. إنك تورطت مع عيارين محتالين فاحذر لنفسك. وإحرص على أن تعيش ما يمكنك ولتكن عينك مفتحتين، وهو ما لاغنى لك عنه. هذا ما أردت قوله ولن أطيل.

في أثناء تجوالي في السوق إلتقيت صدفة به (جيو فانيستا سانتيني Giovanbatista Sanini) فأخذنا القسّ لتناول الغداء معاً. وكما سبق لي القول كان الوقت قبل الغروب بأربع ساعات. وقد تناولنا وجبة عاجلة متقدمة على الموعد كي يتفق ذلك مع ترتيبى العودة الى (ترسبيانو) مساء ذلك اليوم. ولذا تم إعداد الوجبة بعجلة، وكانت زوج (سبييتا) تروح وتغدو وهي منشغلة بهذا وذاك يساعدها خادم يدعى (چچينو بوتى). وبعد إعداد الصلصة ونحن نهم بالجلوس قال القس وقد إرتسمت على وجهه الشربير إبتسامة نكراء:

- أرجو أن تتقبل إعتذاري لعدم إستطاعتي مشاركتك الطعام. فثم صفة هامة لأخي (سبييتا) وعليّ أن أبرمها لأنه غير موجود وسأنوب عنه فيها.

وألحنا عليه جميعاً بالبقاء عبتاً، فقد أصرّ ثم إنصرف وشرعنا نأكل. بعد أن فرغنا من الصلصة وكانت في صحاف قُدمت لنا جميعاً. جاء دور اللحم المسلوق فقدم لكلّ منا بقصعة على حدة. وهنا قال (سانتيني) الذي كان يجلس قبالي:

- لقد خصوك بإناء فخاري يختلف عن البقية؛ أنظر بأي شكل يحتفون بك ويكرمونك؟ قلت إنني لم ألحظ هذا. ثم أشار عليّ بأن أدعو امرأة (سبييتا) لمشاركتنا وكانت هي و(چچينو بوتى) يروحان ويغدوان بعجلة وبشكل غير عادي. أخيراً نزلت عند إصراري وجلست لمشاركتنا قائلة بلهجة الشاكي المتبرّم:

- إنكم لا تأكلون شيئاً. لعلكم لم تستسيغوا طبخي؟

فأسرعت أمتدح الطعام مثني وثلاثاً مؤكداً لها بأني لم أذق أفخر منه. ولم أكل قبلاً بشهية كما أكلت الآن، وقد إستوفيت حظي منه ونلت كفايتي. ولم يخطر ببالي أن أسأل نفسي عما حدا بها الى مثل هذه اللجاجة والتأكيد على تناولى مزيداً من الطعام. عندما فرغنا كان الوقت يشير الى أقل من

ثلاث ساعات لموعد الليل. وكنت جدّ حريصٍ على الوصول الى (ترسپيانو) في تلك الليلة لأتمكّن من إستئناف عملي في اللوجيا صباح اليوم الثاني. فودّعت الحاضرين وشكرت ربّة البيت وإنطلقت. بعد أن قطعت ثلاثة أميال بدأت أشعر وكأنّ ناراً كابية تحرق معدتي، وإنتابنتي آلام شديدة حتى خلت المسافة الى (ترسپيانو) دهرأً. ويعون الله بلغتها ليلاً وأنا أكاد أسقط إعياءً. آويت الى فراشي حالاً لكنني لم أغمض عيناً واحدة حتى الصباح، والأنكى من هذا إن الإسهال الفظيع الذي إنتابني جعلني أشعر وكأنّ إستي تحترق. وحين إستدرت لأرى السبب وجدت الجزء الملائق لها من ثيابي ملطخاً بالدم.

فطنت فوراً الى أنني أكلت شيئاً ساماً. ورحت في فكري أقلبّ الحوادث مراراً وتكراراً لعلّي أتوصل الى معرفة الشيء الذي تناولته. وتذكرت الصحف والقصاص والأطباق الصغيرة المختلفة عن البقية التي خصّنتني بها زوج (سبييتا). ثم تذكرت كيف أن القس الشرير شقيق (سبييتا) كاد يقتل نفسه من فرط الإحتفاء بي ورعايتي ثم أبى البقاء ومشاركتنا الطعام كما تذكرت أيضاً إعتذاره عن البقاء بحجة صفقة لأخيه (سبييتا) وقوله قبلاً لبعض الناس، إن أخاه هذا قد باع مزرعة من شيخ مسنّ لمدة تنتهي بأجله ولن يتعدى سنة واحدة. وهو ما أسرّني به الرجل الطيب (جيو فاني ساردللو). من هذا كله توصلت الى نتيجة واحدة. وهي إنهم وضعوا لي سبلمة<sup>(١٢٣)</sup> في قصعة الشورباة الصغيرة. وجعلوا مذاقها طيباً شهيماً. أجل لاشكّ في ان السمّ هو سبلمة لأن هذا النوع يسبب عين الأعراض التي ظهرت فيّ. كان من عاداتي أن لا أتناول مع اللحم إلا القليل جداً من الحساء المتبلّ أو المرق الكثير البهار مقتصرأً على الملح. إلا أنني تناولت ملعقتين صغيرتين من ذلك المرق لأنني وجدته لذيذاً. بعدها رحّت أذكر كيف ألحّت عليّ زوج (سبييتا) بمختلف الوسائل لأتناول المزيد منه. وعند ذلك أيقنت بأنهم دسّوا لي مقداراً من السبلمة في المرق.

مع شعور بثقل العلة فقد صحّ عزمي على مواصلة العمل في اللوجيا ولكن وطأة المرض إشتدت بعد أيام قلائل فأرغمتني على ترك العمل وإلتزام الفراش. وما إن سمعت الدوقة بما حصل لي حتى أسرعّت فأسندت العمل بالرخامة الى (بارتولوميو أمّاناتي) وأهدتها له. فأرسل يقول لي بأن أعمل الذي أريد بنموذجي، لأن الرخامة أصبحت في حيازته. أبلغني بهذه الرسالة السيد (.....) الذي يسكن في (فيا ديل Via del) وهو واحد من عشاق زوج (بارتولوميو أمّاناتي). رجل مهذب كتوم ولذا كان أكثرهم حظوة عندها. و(أمّاناتي) يمنحه كلّ الفرص التي يريدها للوصال بها. وبإمكانني ان أقول الكثير في هذا، على إنني لا أرغب في نهج سبيل أستأذه (باندنللو) الذي لم يكن يثبت على نقطة عند بحث موضوع معين. يكفيني القول اني أجيت السيد (.....) بأن هذا النبأ ليس مفاجأة لي، فقد كنت أتوقعه على الدوام. وعليه أن ينصح (بارتولوميو) عني بأن يجتهد في عمله لكي يظهر إمتنانه من حسن حظه الذي تحفه بهذه الفرصة العظيمة، وهو غير جدير بها.

(١٢٣) المركب الكيميائي (كلورور الزئبق المصعد) ويدعى بالسليمانتي. وهو سمّ قاتل إذا اخذ بكميات كافية، وهو من السموم المعروفة منذ القدم.

بقيت طريح الفراش وأنا في حالة من اليأس تجلّ عن الوصف. وإستدعيت الطبيب النطاسيّ  
 (فرانشسكو دا مونتني فاركي Francesco da Monti Varchi) والجراحيّ (رافايللو دي بيللي Raffaello de' Pil- li) أيضاً للإشراف على معالجاتي. فقد أحرقت السبلمة امعاني وإستمرّ الإسهال دون إنقطاع. وأدرك  
 (فرانشسكو) بأن السمّ قد عمل كلّ الضرر والتخريب الذي يقوي عليه ولم تكن كميته كافية للتغلب  
 على جسمي المتين التركيب كما ظهر له. وفي يوم ما قال لي:  
 - اشكر الله. يا (بنقنوتو) فقد نجوت من الموت. وعليك ان لاترتاب لحظة واحدة في اني كنت أعمل  
 جهدي لشفاك. فيهذه الوسيلة نرد كيد الأوغاد الذين حاولوا إيذاءك الى نحورهم.  
 وعقّب (رافايللو) على هذا بقوله:  
 - إن الشفاء الذي حققته هو أعجب وأصعب ما عرف من حالات مشابهة. لا يخفك يا بنقنوتو ان ما  
 ابتلعت من السبلمة هو ملء فم.  
 وهنا وافقه فرانشسكو بقوله:  
 - ربما كانت واحدة من تلك الديدان المعوية السامة.  
 قلت لهما اني لعلّ يقين من هوية السمّ الذي دسّ لي.  
 ثم لاذ جميعنا بالصمت. وإستمرّ الطبيبان يعالجانني مدة تربو على الستة أشهر ولم أستعد صحي  
 كاملة وأتوفر على أعمالتي المعتادة إلا بعد إنقضاء عام وبعض عام.

في ذلك الوقت كان الدوق قد تهيأ لدخول (سيينا) ظافراً. وقد تقدمه (آماناتي) ببضعة أشهر  
 لإقامة أقواس النصر. وتخلّف في اللوجيا ابن سفاح له. فقام هذا برفع بعض الأغطية التي كانت  
 تخفي (نبتون) تمثالي وقد أحكمت تغطيته لأنه لم يبلغ حدّ الكمال. فراجعت الأمير (دون  
 فرانشسكو)<sup>(١٢٤)</sup> ابن الدوق وكان شديد الميل اليّ وشكوت له الأمر. حكيت له كيف أزاوحوا الغطاء  
 عن تمثالي قبل تمامه ولو كان كاملاً ما إكترت. فأتى بحركة او حركتين فيهما وعيد وتهديد ثم قال:  
 - بنقنوتو! لاتزعج نفسك بهذا الأمر. إنهم يحفرون قبرهم بيدهم. لكنني سأصدر الأوامر بإعادة غطاءه  
 إن شئت.

وأضاف سموه الأفخم أشياء كثيرة في صالحني بمحضر من الأشراف. فأجبتُ إن رجائي من سموه هو  
 تزويدي بما يلزم من وسائل لإكماله له لأنني أرغب في تقديمه هدية له مع النموذج الصغير. فأجاب انه  
 يتقبل الهديتين بكل سرور وسيأمر بما أحتاج. نفخت فيّ هذه الإلتفاتة الصغيرة قوة جديدة بل انقذت  
 حياتي في الواقع، فقد إنهدت قواي وأشرفت على التلف لكثرة ما ابتليت به من عللٍ ولفرط ما لقيت  
 من بلايا سقطت عليّ كلها دفعة واحدة. إن هذا التقدير البسيط اراحني ونفخ فيّ روحاً من العزم على  
 المضي قدماً في عملي.

(١٢٤) في العام ١٥٦٤ تنازل الدوق كوزيمو عن أملاكه لإبنه هذا محتفظاً بحكم فلورنسا وحدها. ثم خلفه في الحكم بعد  
 وفاته في العام ١٥٧٤. إلا أنه كان مجرد نائب لوالده في الزمن الذي ينوه به جليليني.

كملت سنة واحدة على شرائي منفعة حقل النافورة من (سبييتا) وكان لم يكفه ما ألحق بي من أذى بدس السم لي وارتكابه بعض عمليات إختلاس، فقد اتضح لي ان المزرعة لاتغلّ نصف المقدار الذي تعهد لي به من الغلة. اني حائز فضلاً عن العقد الرسمي، وثيقة بخطّ يده تعهد فيها أمام شهود بأن يؤمن لي الغلّة التي ذكرتها لي سابقاً. وبناء عليه راجعت أعضاء مجلس القضاء. وكان السيد (ألفونسو كويستللو Alfonso Quistello) في قيد الحياة وهو المستشار ويجلس مع سائر الأعضاء ومنهم (أفيراردو سريستوري Averardo Serristori) و(فدريغودي ريچي Federigo de Ricci) وغيرهما ممن لا أتذكر أسماءهم. وكان ثمّ فرد من أسرة (اليساندري Alessandri). كانوا جماعة من ذوي الشأن والمقام الرفيع. بعد شرح قضيتي للحكام. قرروا بالإجماع الحكم على (سبييتا) بإعادة المبلغ الذي إستوفاه مني. بإستثناء (فدريغو دي ريچي) الذي كان يستخدم (سبييتا) في ذلك الوقت. وعندها قالوا لي جميعاً انهم آسفون لأن (فدريغو دي ريچي) يحول بينهم وبين إصدار حكم في القضية. وقال لي (أفيراردو سريستوري) عين ماقاله الآخر. وابلغني انه وذاك الفرد من أسرة (اليساندري) قد أحدثا ضجة كبيرة حول المسألة وإحتجاً بشدة. ويعد أن أرجأ (فدريغو) البتّ في القضية الى أن أنهى أعضاء مجلس القضاء فترة خدمتهم. لقيني (سريستوري) صباح يوم وهم خارجون من ميدان (الانونزيانا) فقال بصوت جهوري غير هيّاب أو مهتم بمن يسمعه:

- إن النفوذ الذي يمارسه (فدريغو دي ريچي) يفوق ما يمارسه سائرنا مجتمعاً. وهذا الذي أصابك بالدمار رغم أنوفنا.

لن أعلق بشيء حول هذا. اذ ما سأقوله قد يعدّ قذفاً وطعناً بسلطة الحكومة العليا. وحسبي القول اني ظلّمت، وهظم حقّي بمسعى واردة مواطن ثري، لأن الراعي الجلف (سبييتا) كان من خدامه ليس إلا.

كان الدوق في ليفورنو Livorno<sup>(١٢٥)</sup>. فقصدته في زيارة لأطلب منه إعفائي من الخدمة ليس إلا. فبعد أن إستعدت قوتي وصحتي وأدركت كم أنا مهممل لا يُستفاد مني. خالطني الألم والحزن على ما لحق بفتني ومواهبتي من ضرر. قصدت ليفورنو وأنا عازم على مقابلة الدوق. فرحّب بي بحرارة وأدب جم. وبقيت هناك أياماً عدة أخرج فيها معه في نزهة على ظهور الخيل كلّ يوم. فكانت أحسن فرصة لقول كل ما أريد قوله. اذ اعتاد الدوق قطع مسافة أربعة أميال خارج (ليفورنو) بإمتداد الساحل حيث كان يبني قلعة صغيرة. ولم يكن يريد أن يُضايق بالكثير من الأتباع ولهذا إختصني لمنادمته ومبادلته الحديث. وفي ذات يوم وبعد أن إستشففت منه مودّة وميلاً غير عادي تعمّدت الحديث حول (سبييتا) أي (بيرماريا دانترىگولي)، فقلت:

- مولاي! إنني لأرغب في إطلاعك على القضية الغريبة التي ستوضح لك سبب تخلفي عن إكمال

(١٢٥) مدينة على ساحل البحر تقع جنوب غرب فلورنسا وتبعد عنها زهاء خمسة وخمسين كيلومتراً وهي (ليگهورن) الحالية.

نموذجي العزيز على قلبي (نبتون) الذي كنت أشتغل به في اللوجيا. عليّ أن أوضح لسموك بأني كنت قد إبتعت مزرعة لمدى الحياة من سببينا...

ثم أنهيت إليه بالتفاصيل كافة. دون أن أشوبها بتزييف. ولما بلغت بالحكاية مرحلة السمّ. قلت: إذا كان سموه يعدني من خدامه المقيدين فعليه بدلاً من عقاب (سببينا) وكلّ من دسّ لي السمّ - أن يجزل لهم العطاء لأن السمّ الذي لم يكن كافياً لقتلي، كان في الواقع بالمقدار الذي وضع لي كافياً لشفائي من داء اللزوجة المميت الذي تشكو منه معدتي وأمعائي منذ سنوات. والنتيجة فبدلاً من أن يكون حظي من الحياة ثلاث سنوات أو أربع على أكثر تقدير كان لتأثير دوائهم في جسمي من الفائدة ما يجعلني أعتقد بأني كسبت أكثر من عشرين سنة. واضفت الي هذا قلبي اني شكرت الله على ذلك بحرارة وشوق أضعاف ما فعلت قبلاً.

وختمت الحكاية بالقول:

- صحيح جداً ما كنت أسمع الناس يرددون: إن الله يريد بنا الخير حين يبتلينا بالشروع.

أصغى اليّ الدوق لأكثر من ميلين في نزهتنا مرهفاً السمع ثم قال متعجباً:

- تباً لهم من أشرار!

ولم يزد شيئاً.

قلت أخيراً إني مدين لهم بالفضل. ثم إنتقل بنا الحديث الي مواضيع طلية أخرى. وإنتظرت يوماً مناسباً لغرضي وإتفق اني وجدته رائق المزاج، فطلبت منه أن يسرّحني من خدمته كيلا تضيع السنوات المتبقية من عمري بما لا طائل تحته ودون القيام بعمل ما. وأما ما تبقى من ثمن (پرسیوس) فلا بأس من أن يتم تسديده حينما يشاء سموه. وقد خرجت عن حدودي في شكره مختاراً أجمل العبارات إلا أنه لم يردّ عليّ بكلمة واحدة ولكنه بدا شديد الغيظ.

وفي اليوم التالي أقبل عليّ السيد (بارتولوميو كونچينو Bartolomio Concino) وهو أحد كبار أمناء سرّ الدوق الرفيعي المقام. فقال لي بنبرة لا تخلو من وعيد:

- يقول الدوق: إن شئت الإستعفاء فسيقبل ذلك. وإن شئت أن تواصل الخدمة فسيوكل إليك أعمالاً عساک تكون قادراً على إنجازها.

أجبتُ إن رغبتني منحصرة في التفرغ الي عمل ما سيما ما يعهد اليّ به سموه لأنني أقدمه على أي إنسان آخر في العالم. وإني لمسرور في أن أعمل لسموه بدرهم واحد ما أنجزه لغيره بدوقية ذهب. فأجاب يقول:

- إن كان شعورك هذا فالمعنى الذي أستخلصه منه أنه قبولٌ ولا حاجة الي المزيد من الكلام. عد الي فلورنسا لايساورك القلق مادام الدوق يريد بك خيراً.

وعلى هذا الأساس عدت الي فلورنسا.

ماكاد منزلني يحتويني حتى طرقتني زائراً شخص يدعى (رافاييلوني سكيچيا Raffaellone Scheggia) وهو حائك للثياب المقصبة بالذهب. قال لي:

- إنني يا عزيزي (بنفوتو) لراغب في إصلاح ذات البين. بخصوص خلافك مع (بيير ماريا سبييتا). أجبته لا أحد يمكنه إجراء الصلح بيننا غير السادة أعضاء مجلس القضاء. وفي الدورة الحالية لهذا المجلس لن يجد (سبييتا) صاحبك هذا، (فدريغو) آخر مستعد لقاء خروفين مُسمَّنين ودون إعتبارٍ لشرفه أو خوف من ربه، ليروج لدعوى مخزية. فيصيب مقدسات العدالة بطعنة نجلاء وبهذا العار الجلل.

بعد أن قلت هذا وكثير غيره. واصل (رافايللوني) مهمته قائلاً بلهجة المتملق المداهن: إن أكل القطة بسلام أفضل من شق مثل هذه الحرب للفوز بديك سمين وإن كان الفوز به مضموناً. ثم زاد قائلاً إن إجراءات القضاء قد يطول أمدها، وسأتحسر على الوقت الضائع بها متمنياً لو صرفتها في إنجاز عمل فنيّ بديع يكسبني المزيد من الشهرة، ويعود عليّ بالكثير من الربح. أدركت إنه يقول الحق. وبدأت أعير أذنناً صاغية لأقواله. ولم يضع وقتاً فأجرى الصلح بيننا على الوجه التالي: يقوم (سبييتا) بإستئجار المزرعة منيّ ببدل سنوي قدره سبعون كراوناً ذهبياً لما تبقى من سنى حياتي. لكن ما كدنا تأتي الى توقيع العقد الذي قام بتنظيمه السيد (جيوفاني ابن ماتيو أد فالغانو Giovanni Mattio ad Valgano) حتى نوه (سبييتا) بأن الطريقة التي نريد بها تصريف الأمور ستنجرّ الى أن ندفع أكبر مقدار من الضريبة ومع العلم انه لن يتراجع عن الإتفاق فمن المستحسن ان نجعل الإيجار محدوداً بخمس سنين متجددة. وإنه سيحافظ على تعهده ويفي به دون اللجوء الى رفع الدعوى مرةً أخرى. ووعدته اخوه القس المحتال بعين الشيء. وعلى هذا تم إبرام العقد لمدة خمس سنين.

كنت أريد أن أهمل الكلام عن هذه العملية الشائنة الى حين وأتحدث عن أمور أخرى، غير إنني مضطر لتدوين ما حصل بعد ختام السنوات الخمس المتفق عليها. بعد ختام المدة بدأ هذان النذلان مترددين في المحافظة على الوعد الذي قطعاه. وفي الواقع أرادا إعادة المزرعة اليّ وإقالة الإيجار. فما كان منيّ إلا أن أخذت أجار بالشكوى والإحتجاج، فلوحا لي بالعقد فصرت فاقد الحول أمام نكولهما واسقط في يدي. وبإدراكي قلة حيلتي هددتهما بالدوق وقلت انه لن يتسامح بمثل هذا السلوك الخياني الإنساناني إذ يحصل في مدينته. فأرعبهما ذلك بحيث دفعتهما الى إرسال (رافايللوني) الذي تحقق بمسعاة الإتفاق الأول. كانا قد أبديا عجزهما عن دفع مبلغ سبعين كراوناً كما فعلا طوال السنوات الخمس المنصرمة. فأجبت بأني لن أرضى بأقل. فجاءني (رافايللوني) هذا قائلاً:

- عزيزي (بنفوتو). لاشك أنت مدرك اني اقف الى جانبك، وهما الآن يضعان كل شيء في يدي. ثم انه اطلعني على مقترحاتهما المكتوبة. ويجعل مني الحقيقة كونه من أقرب أقربائهما فكرت بالأداعي للريبة وفوضت أمري اليه تماماً. ثم جاءني يوماً- وكان ذلك بعد الغروب بنصف ساعة في شهر آب. وأغرقتني بكلامه المعسول وأرغمني على كتابة عقد فوري مدركاً بأن الحيلة التي حيكها لانتظلي إن تأجلت القضية الى اليوم التالي. وقضى الإتفاق أن يقوموا بدفع خمس وستين كراوناً إيجاراً سنوياً على قسطين لما تبقى من عمري. وقد إعترضت بشدة وصممت على الرجوع عن قبولي العقد. فأشار

(رافاييلو) الى توقيعي، وأقنع الجميع بأني الجانب المعتدي. وإحتج بأنه ما توسط في القضية وحسمها إلا متوخياً مصلحتي وإنه أحرص الناس عليها. ولم يكن مسجل العقود أو الآخرون يدرون بأنه قريب لهما فقد لآمني الجميع وعذلوني. فلم يسعني إلا الرضوخ والتسليم دون تلكؤ. على أني سأبذل جهدي لأعيش أطول عمرٍ ممكن!

ثم إنني إرتكبت غلطة أخرى في السنة التالية (شهر كانون الأول ١٥٦٦) فقد ابتعت منهما أيضاً واقصد (سبييتا) وإخاه نصف حقل (بوجيو) بمبلغ مائتي كراون وهو ملاصق لحقل النافورة. وبعد أن دفعت المبلغ نقداً أجرتة لهما لمدة ثلاث سنين عند إنقضائها يعود لي. قمت بهذا بدافع حسن النية ومصلحة الطرفين. وقد يكون مني شذوذاً عن الموضوع لو أوردت تفاصيل الحيل والندالات التي إرتكبتها هذان الشخصان بحقي. فالله الله منهما! وحسبي هو ونعم الوكيل، واليه اشكو لأنه بسط عليّ حمايته من أولئك الذين أرادوا بي شراً.

فرغت من صليبي الرخامي وقررت أن أقيمه مرتفعاً عن الأرض بضعة أقدام عند وضعه في محله. إذ سيبدو أكثر مهابةً وجلالاً للناظر وإن كان يبدو وهو مستقرٌ على الأرض بديعاً رائعاً. فتأثيره تضاعف بعد رفعه وكان سروري به لا يُحدّ. وعرضته لكلّ من يرغب في مشاهدته. فسمع به الدوق والدوقة وفوجئت بزيارتهما بعد عودتهما من (بيزا) إذ أقبلا على غير إخطار يصحبهما حشد من النبلاء ورجال البلاط، تحدهما الرغبة في مشاهدة الصليب لا غير. كان إعجاب سموها به عظيماً وأصعداني بمديحهما الى السماوات العلى وحذا حذوهما النبلاء والأشراف المرافقون.

بعد أن وضع لي إعجابهما طفقت أشكرهما بأرقّ العبارات قائلاً إنهما رفعا عن كاهلي عبء رخامة (نبتون) إذ كان خلاصي منها العامل الرئيس لإنجازي مثل هذا العمل الذي لم يسبقني اليه أحد قط. ومع إنه لم يكلفني جهداً خارقاً فإنه في إعتقادي يسوى العناء الذي تكبّدته فيه، لاسيما بعد أن حظي بإعجاب سموهما. ثم إستتليت: وبما اني لا أرى من هو أجدر منهما به فإني أقدمه هديةً لسموهما المعظمين ببالغ السرور. على أني رجوت منهما قبل الإنصراف أن يتكرما بزيارة الطابق الأرضي من منزلي. فنهضا في الحال وبكلّ لطف تركا المصنع ودخلا ليشاهدا النموذج الصغير الذي عملته لـ(نبتون) مع (النافورة) وكان مفاجأةً للدوقة التي لم تره من قبل، فقد أثر فيهما تأثيراً عظيماً بحيث أطلقت فجأةً صرخةً إعجاب ودهشة. ثم إلتفتت الى الدوق وقالت:

- ما تصورت قطّ بحياتي أن أرى أحداً من عشرة من هذا الجمال.

وجواباً على هذا قال الدوق:

- ألم أقل لك؟

وردد هذه العبارة عدة مرات.

وتجاذبا أطراف الحديث ملياً وكله إطراءً وثناءً عليّ. ثم إستأذنتني الدوقة وغمرتني بمديح يتضمن الإعتذار أو يجري مجراه وكانت تكلمني وكأنها تطلب مني الصفع ويعدها قالت انها ستوصي لي من

المقلع برخامة مناسبة لأقوم بالعمل. فقلت رداً على عبارتها اللطيفة. لو أن سموها زودتني بالوسائل وبما أحتاج فإني على أتم الإستعداد والرغبة للنهوض بمثل هذا التكليف جياً بهما وولاً لهما. فأجاب الدوق في الحال:

- ثق يا بنثنوتو بأنك ستزود بكل ما تريده. فضلاً عن ان ما سأعطيك دون سؤال منك سيكون أكثر بكثير وأنفس بما لا يُقاس. بهذه العبارات الساحرة انصرفا وتركاني سعيداً راضياً.

مرت عدة أسابيع دون أن أمرّ على الخاطر. ولم يخطُ أحد خطوة واحدة نحوّي فتملّكني اليأس. وفي تلك الفترة من الزمن أوفدت ملكة فرنسا<sup>(١٢٦)</sup> السيد (باچيو دل بيني Baccio del Bene) الى دوقنا بطلب قرض مستعجل. فقام الدوق بإرساله بكلّ طيبة خاطر كما قيل. ولما كانت تربطني بالسيد (باچيو) صداقة متينة العرى فقد غمرتنا السعادة عندما إلتقينا في فلورنسا ووصف لي الرعاية التي شمله بها سموه والعطف الذي أبداه. وفيما نحن نتجاذب أطراف الحديث سألتني عما إذا كنت أشتغل الآن في عمل هام؟

فلم يسعني إلا أن أحدثه بحكاية تمثال (نبتون) الكبير ونافورته والضرر الكبير الذي أصابني من الدوقة. فقال نيابة عن جلالة الملكة انها مهتمة جداً بإكمال ضريح زوجها الملك هنري<sup>(١٢٧)</sup>. وإن (دانييلو دا فولترا Daniello da Valterra) كان قد كُلف بصبّ الحصان البرونزي الكبير. إلا أن الوقت الذي كان قد حدده لنفسه، إنقضى دون قيامه بالعمل كما إن هناك نقشاً وتهاويل مهمة جداً للضريح. فإن وجدت في نفسي الرغبة في العودة الى فرنسا فإن الملكة ستقدم لي كلّ ما أطلب شريطة أن أتفرغ لخدمتها.

فرجوت السيد باچيو أن يتوسط لديّ عند الدوق ليمنحني الأذن بالعودة الى فرنسا. فقال (باچيو) مستبشراً وكأن الموضوع قد بُتّ فيه:

- إذن فسنعود معاً! وأورد ذكري أمام الدوق في اليوم التالي وقال إن كان الدوق راغباً فإن الملكة ستفيد من خدماتي. فأسرع الدوق يجيب:

- مازال بنثنوتو ذلك الفنان القدير الذي تعرفه الدنيا إلا أنه تقاعد ولم يعد يشتغل. وإنتقل الحديث بهما الى شؤون أخرى.

في اليوم التالي قصدت السيد (باچيو) فأطلعتني على مادار بينه وبين الدوق حولي، فلم اقو على

(١٢٦) هي كاترين دي مديتشي (١٥١٩-١٥٨٩) ابنة لورنزو الثاني دوق فلورنسا وزوج هنري الثاني. وأمّ الملوك الثلاثة الذين تعاقبوا على عرش فرنسا (فرانسوا الثاني، شارل التاسع، هنري الثالث).

(١٢٧) هنري الثاني ملك فرنسا (١٥١٩-١٥٥٩). تولى العرش بعد وفاة ابيه فرانسوا الأول في ١٥٤٧. وتزوج كاترين دي مديتشي في ١٥٣٣.

ضبط نفسي من فرط الإنفعال وصرخت:

- بعد أن أبى سموه أن يكلّفني بعمل وأبقاني عاطلاً. وبعد أن قمت بمبادرة شخصية مني بإنجاز عمل من أصعب أعمال النحت في أي زمان ومكان ويتكاليف زادت على مائتي كراون دفعتها من جيبي الذي يكاد يكون خالياً. أي شيء لا أقوى على إنجازه لو أناط بي سموه عملاً؟ ألا دعني أصارحك القول: لقد أسيئت معاملتي الى أبعد حدّ.

هذا الصديق نقل أقوالي الي الدوق فأجاب سموه أنه كان في الواقع يمزح وإنه يريد له لنفسه. والنتيجة؟ خامرتني فكرة النزوح عدة مرات... وتخلت ملكة فرنسا عن طلبي خشية إغضاب الدوق. وبقيت هكذا والبؤس يكتنّفني من كلّ جانب.

في ذلك الزمن توجه الدوق الى (بيزا) ترافقه حاشيته كلها مع أولاده باستثناء الأمير<sup>(١٢٨)</sup> الذي كان وقتئذ في إسبانيا. وكان طريقهم يمرّ خلال مستنقعات (سيينا) ومنها الى (بيزا). وأثرت في صحة الكردينال<sup>(١٢٩)</sup> سموم الهواء الفاسد قبل الآخرين، فركبته حمى خبيثة وبعد أيام وجيزة اوردته حتفه. كان الكردينال عند الدوق كعينه اليمنى. كان شاباً وسيماً عالي الخلق والذكاء وموته لاشك خسارة عظيمة.

انتظرت بضعة أيام لتجف الدموع على الراحل بحسب تقديري. ثم انطلقت الى بيزا.

((إنتهت المذكرات))

(١٢٨) أي ولي عهد الدوق.

(١٢٩) الكردينال جيوفاني دي مديتشي ابن الدوق الثاني. توفي في روزينانو Rosignano في تشرين الثاني ١٥٦٢.

(( صورة لصحيفة من المخطوط الأصلي ))

... e ando con quelto quarto questa volta del digmo in quibus et...  
... nona nulla al modo che prima egli di...  
... gli et perche io crederei benissimo per fare...  
... miue ragioni alle quali non potria...  
... la vera madre di tutte le azioni del huomo...  
... natura che si come la figurano gli antichi...  
... a dunque la prima causa di ogni cosa...  
... il primo huomo a' imagine et similitudine sua...  
... nona ignoti anzi virtuosissimi p' questo...  
... Hora io ritorno a quella causa che...  
... auendomi fatto degno, uoi tanti mirabili...  
... lume quasi spento di una cosi grande...  
... del nostro gloriosissimo et...  
... del uero bene et il uero bene si e' idio...  
... Tunc lecole che sono ripiene in mezzo...  
... io manco dimodo che ognicosa che fa...  
... di cultura di terra colta sua propria...  
... la meraviglia et lascia prima appreso...  
... appoi considerando l'huomo et...  
... uendo rinouati i metalli et tra questi...  
... iuste che si p'ue...  
... 17

## سيرة حياة بنقنوتو ابن الأستاذ جيوفاني جليني الفلورنسي - دونها بنفسه في تلك المدينة

مهما اختلفت أحوال أولئك الذين حققوا من المآثر ما يستوجب التقدير أو بالأحرى ممن هو جدير بالتقدير فعلاً، فالواجب يحتم عليهم إن كان للصدق والصلاح مكانة عندهم - أن يكتبوا سيرة حياتهم بأنفسهم. ويفضل أن لا يباشروا هذا العمل الطيب إلا بعد تجاوزهم سن الأربعين. وقد خطر ببالي وأنا ها هنا في فلورنسا أن أقوم بهذا بعد بلوعي الثانية والخمسين أو أكثر. وكسائر أبناء آدم، كثيراً ما وجب علي أن أكافح الأقدار كفاحاً مريراً. لكني الآن أقل تعرضاً للشدائد ومعاكسة الحظ من أي وقت مضى من عمري. كما أعتقد في الواقع أنني أمتنع بصحة وبكثير من راحة البال أفضل مما كنت أفتقده قبلاً. إنني لأتذكر أحداثاً طيبة، واستحضر في ذهني أموراً مخفية تجل عن الوصف حصلت لي، فارتجف رعباً كلما استعدت ذكراها وأتساءل كيف بلغت الثامنة والخمسين فعلاً وأنا ماض في حياتي مفلحاً آمناً.

ليس ثم شك في أن الرجال الذين كدحوا وأظهروا شيئاً من المواهب. قد أثبتوا للدنيا قيمتهم، وبرهنوا على أنهم من الأكفاء، وذوي الشهرة والصيت وربما كان هذا الكسب كافياً لهم. ومع ذلك أراني ملزماً أن أفعل ما يفعله الآخرون، ولذلك اعتزم أن أدون قصة حياتي بقدر من الفخر والاعتزاز. وهناك عدة أشكال للفخر والعزة، إلا أن أولها هو إهتمام المرء بتعريف الناس بالعائلة العريقة الموهوبة التي أنحدر منها.

اسمي (بنقنوتو جليني) وأنا ابن الأستاذ الموسيقار (جيوفاني) وجدي هو (اندره Andrea) وابوه هو (كريستوفانو جليني Cristofano Cellini) وأمي هي مادونا (اليزابيتا Elisabetta) ابنة (ستيفانو غراناجي S. Granacci). وكلاهما مواطن فلورنسي.

نجد الآن بين المؤرخين الفلورنسيين الغابرين، أناساً موثوقين إلى آخر حد - ومنهم (جيوفاني فيلاني G. Villani) يذكرون أن مدينة فلورنسا بنيت بلاريب على حُطط وهيئة مدينة روما الجميلة وما زال يشاهد فيها آثار من الحمامات والكوليسيوم Calesseum<sup>(٣)</sup> وبالقرب من (سانتا كروچي<sup>(٤)</sup> Santa Croce). كان يقوم الكاڤيتول حيث السوق العتيق اليوم، و(الروتوندا Rotunda) التي بنيت بمثابة هيكل الإله (مارس) مازالت قائمة إلى يومنا هذا وهي اليوم كنيسة للقديس يوحنا شفيع المدينة. إن الأبنية التي ذكرتها هي أصغر من مثيلاتها في روما بكثير. إلا أن أصل تخطيط مدينتنا واضح جداً ولا سبيل لأحد إلى نكرانه.

(٣) الملاعب الرومانية المدرجة المعروفة. كان يشيدها حكام روما تخليداً لهم في المدن الرومانية لإقامة الألعاب والاحتفالات العامة بما في ذلك المصارعة. والمبارزة والقتال مع الوحوش.

(٤) كنيسة للاباء الفرنسيسكان سيرد ذكرها وصفتها فيما يلي من المذكرات.

يقولون أن (يوليوس قيصر Julius Caesar) <sup>(٥)</sup> هو المسؤول عن بنائها وأنه إعتزم بمشاركة طائفة من اشراف روما بعد سقوط (فيسولي<sup>(٦)</sup> Fiesole) بناء مدينة يضطلع كل واحد من هؤلاء الأشراف ببناء واحد من الصروح المشهورة والأبنية العامة فيها. وكان من بين كبار قادة (يوليوس قيصر) ضابط مقدم يدعى (فيورينو) من أهالي (چليني) وهي مزرعة تقع على بعد ميلين أو نحوهما من جبل (فياسكوني Fiasconi). إتخذ (فيورينو Fiorino) هذا مقره في موضع يلي (فيسولي) وهو الموضع الذي تقوم عليه فلورنسا اليوم - ليكون قريباً من نهر (آرنو) تيسيراً لحاجة الجيش من الماء. وإتخذ كل الجنود وسائر من له ارتباط بهذا القائد عادة القول "ألا فلنقصد (فيورنزي) عندما يريدون التوجه الى المعسكر لزيارته. كانوا يقولون هذا لأن القائد يدعى (فيورينو)، وكذلك لأن الحصوية التي تتمتع بها تلك الأرض ساعدت على نمو الزهر بكثرة وبصورة طبيعية. لذلك بدأ الاسم مناسباً جداً للمدينة الجديدة وجميلاً عندما إختاره لها (قيصر) إسم فلورنس (فيورنزي)<sup>(٧)</sup>. فهو فال حسن لأنه مشتق من كلمة (الزهرة)، فضلاً عن أنه كان يريد أن يعبر عن المنزلة الرفيعة التي يحتلها هذا القائد الباسل عنده. وخصوصاً لأنه هو الذي رَفَع (فيورينو) من جندي بسيط الى مرتبة القائد الكبير واليه يعود الفضل في عظم شأنه<sup>(٨)</sup>.

أما العلماء الباحثون وذوو المعرفة المتقنون عن أصول الكلمات الذين يقولون إن اسم (فلورنسا) مشتق من *fluente* ولايعني أكثر من أنها تقع قرب (مجرى) الأرنو، فهم يدعون المحال وما علينا إلا أن ننظر الى روما التي تقع على مجرى نهر التيبير Tiber، أو فيرارا على مجرى نهر البو أو ليون على مجرى نهر السون أو باريس على مجرى نهر السين لنجد أن كل هذه المدن أخذت أسماءها من مصادر

(٥) كايوس يوليوس (١١٠-٤٤ ق.م) رجل دولة روماني وقائد ومؤرخ حقق لروما انتصارات عديدة ولاسيما في شمال أوروبا وغزا بريطانيا واحتل الجزء الجنوبي منها. واصبح قنصلاً (٦٠ ق.م): وقضى على منافسه الاكبر پومبي في مصر. إلا إنه راح ضحية مؤامرة اعضاء مجلس الشيوخ بزعامه پروتوس. حيث طعن حتى الموت.  
(٦) ضاحية لفلورنسا. وهي اقدم منها عهداً. سيأتي ذكرها فيما بعد. إكتشف فيها مسرح يوناني الطرز روماني البناء في ١٨٠٩، يعود بناؤه الى عصرالدكتاتور (سوللا) ٨٠ ق.م.

(٧) فيورنزي Firenze هو أسم المدينة باللغة الإيطالية.

(٨) قد لايجد القاري ضرورة تدفعنا الى القول بأن مزاعم (چليني) حول أصل نشوء مدينة فلورنسا هي مختصراً مجرد أقوال يتناقضها الناس ولا سند تاريخي لها. وإن قصته التي أوردها عن أصل المدينة ما هي إلا مثال من أمثلة المبالغة في المباهاة التي قال عنها هو نفسه بأنها ظاهرة طبيعية عند من يكتبون سير حياتهم. أما عن (الكوليسيوم) فأغلب الظن إنه كان قائماً على مقربة من ميدان (بيروزي) الحالي. ولاتختلف المراجع التاريخية القديمة عن مآل هيكل (الروتوندا) الذي قُلب الى بيعة عماد القديس يوحنا. فقد كان بالأصل مخصصاً للإله (مارس) إله الحرب. بناه الرومان تخليداً لانتصارهم على (فييسوبي) الاتروسكانية. والمتفق عليه الآن أن القسم الرئيس في البناء الحالي يعود بناؤه الى القرن الرابع الميلادي. وقد صمم على غرار البانتئون. أما الأجزاء الأخرى فتعود الى القرنين ١١ و١٢ هذا الاحتمال لايتعد عن الأسطورة الخاصة بمنشأ المدينة. راجع كتاب فيلاني: I piani due scoli della soria di Firenze ط: فلورنسا (١٨٩٥). وكتاب دافيدسن (تاريخ فلورنسا ط. برلين ١٨٩٦ وكتاب غاردنر قصة فلورنسا ط ١٩٠٠). (لها تراجم إنكليزية).

مختلفة أخرى لا علاقة لها بالأنهار التي تجاورها.

هذا بالجملة ما وجدته من أسباب ودلائل. ولذلك أعتقد أن أسرتي إنحدرت من صلب هذا الرجل الكبير الشأن نفسه، زد على هذا، هناك من آل چليني فرع في (رافنا Ravenna) المدينة التي تفخر ببعض الأسر الارستقراطية العريقة جداً وهي من أعتق مدن إيطاليا. وهناك من آل (چليني) في (بيزا). وأنا نفسي عشرتُ على أفراد من آل چليني في كل بقاع المسيحية. وفي توسكاني بعض المحاربين الممتازين يحملون اسم چليني. فمنذ زمن غير بعيد وقع هناك نزاع بين شاب لم يخطُ شاره يدعى (لوكا چليني) واضطر هذا الشاب الى قتال عسكري جسر مجرب ولاعب سيف ماهر يدعى (فرانشيسكو فيكوراتي F. Vicorati) كانت المباراة الفردية قد جرت عنده مجرى العادة. ومع هذا فقد تصدى له (لوكا) والسيف في يده وتغلب عليه وجندله قتيلاً مظهراً شجاعة ومهارة أثارنا إعجاب الناس جميعاً لأنهم كانوا يتوقعون عكس المأل. لذلك فخرتُ بتعقيب سلالتي وأصلي إذ كنت خريج رجال عرفوا بالبأس وشدة المراس.

أما ما ظفرت أنا به للأسرة من مجد طارف في مجال الحياة التي نحيها اليوم وما نلته بفضل مني وهو ليس بالكثير، فسأحدث عنه في موضعه المناسب. ومما يزيدني فخراً أنني ولدت لأسرة متواضعة فبنيت مجد البيت الذي أنتمي اليه ولم أنحدر من بيت عريق شريف النسب فلطخت سمعته وألبسته عاراً يارتكاب الآثام والمعصيات. إذن سأبدء بالحديث عن الظروف التي ولدت فيها بحول الله ورضاه. كان أسلافي قد أخذوا (فال دامبرا Val d'Ambra) موطناً، هاجروا اليه بسبب الصراع السياسي الذي إستعر آنذاك. وكانوا في رغد من العيش يملكون الكثير ويعيشون عيشة صغار النبلاء. وكلهم كانوا يعشقون الجنديّة وكلهم من الشجعان المغاوير. في حدود تلك الفترة أجم كريستوفانو Cristofano الشاب الأصغر في الأسرة نار فتنة مع بعض جيرانهم وأصدقائهم. فشارك فيها رباً الأسرتين وتساعدت السنة النار التي أشعلها رهيباً عنيفة حتى بدا وكأنها ستأتي على الأسرتين معاً. ولما واجه الطرفان هذا الخطب الجلل تدخل كبار السن من الأسرتين وإتفقوا على حلّ، إذ قام أسلافي بإبعاد ابنهم ونفت الأسرة الأخرى الشاب الذي كان الباديء بالنزاع الى مدينة (سيينا Siena) وأرسل الفتى (كريستوفانو) الى مدينة (فلورنسا) حيث ابتاعت<sup>(٩)</sup> له أسرتي منزلاً صغيراً في زقاق (كيارا Chiara) بالقرب من (سانتا اورسولا Orsola) وعقاراً ممتازاً في (بونتي أريفردى Ponte a Rifredi)، وإقترن بفتاة فلورنسية أنجبت له بنيناً وبنات، ضمن لهنّ عيشاً مرفهاً وأمنهن شرّ الفاقة بعد موته في حين قسم الأبناء ما تبقى من التركة. فال المنزل الواقع في زقاق (كيارا) مع قليل من المال الى أحدهم وهو المدعو (اندرية). وإتخذ اندرية له زوجةً وأنجب ذكوراً أربعة بكرهم (جيرولامو) يليه (بارتولومو)<sup>(١٠)</sup> ثم

(٩) في ركن المنزل المرقم (٦) في زقاق كيارا يرى الزائر هذه العبارة -I questa casa nacque Beuvento Cellini il di Primar No-

vembre del 1500 evie fasso iprimi anni وترجمتها: في هذا المنزل ولد بنقنوتو چليني في الأول من تشرين الثاني ١٥٠٠

للميلاد. (وهذا خطأ في التاريخ لأن چليني ولد في ٢ تشرين الثاني..)

(١٠) هو بارتولوميو باچيو چليني. كان نقاشاً بارعاً على الخشب. ومن الغريب أن لا يذكره ابن أخيه أو بنوه بشهرته=

والذي (جيوثاني) ثم (فرانشسكو) وهو الرابع.

(اندرية)<sup>(١١)</sup> هذا كان مرجعاً في فن الهندسة المعمارية المعاصرة وإتخذ منها حرفة ومورد رزق، وأولاهما (جيوثاني) أهتماماً يفوق ما أولاهما اخوته. وإتبع قول (فيتروفيوس)<sup>(١٢)</sup> الذي نصح من يريد أن يضرب بسهم وافر في هذا الفن. أن يُلَمَّ بالموسيقى ويتقن الرسم. فواظب (جيوثاني) على تلقي فن التصوير وغداً رساماً ضليعاً. ثم راح يتدارس فن الموسيقى فأتقن مع نظرياته العزف على الكمانجة عزفاً رائعاً واللعب بالزرنابي لعباً في غاية الإبداع. وكان رجلاً مجدداً فقد لازم المنزل لا يبرجه إلاً لماماً.

وكان له جار يدعى (استفانو گراناچي Stefano Granacei) له عدة بنات جميلات للغاية، وشاءت إرادة الله أن يقع نظر (جيوثاني) على واحدة منهن وهي الصبيّة المدعوة (اليزابتا) فوقع من نفسه موقعاً فخطبها. ولما كان الأبوان على معرفة تامة أحدهما بأحوال الآخر بحكم الجوار. فقد سهّل تحقيق الزواج إذ وجد إنه في صالح الطرفين. وبعد أن تمّ اتفاق الأبوين العجوزين على المصاهرة، أخذاً يتداولان في مقدار مهر البنت. فأسفر ذلك عن خلاف ودّي ومناقشة حبيّة فبدأ (اندرية) يقول لإستيغانو:

- ليس من يداني ابني هذا نظير لا في فلورنسا وحدها بل في إيطاليا كلها. ولو اني أردت تزويجه قبل هذا لظفرتُ بأكبر مهر تمهر به عروس في فلورنسا من مستوى طبقتنا.

فأجابه ستيغانو بقوله:

- إنك لعلی حقّ ألف مرة. ولكن ماذا ترى بيدي؟ وها أنا ذا كالحصان مُسرج الى خمس صبايا. والى مثل عددهنّ من الصبيان. لقد حسبتُ حسابي وهذا غاية ما أتمكن من دفعه.

وهنا نهض (جيوثاني) الذي كان يصغي الى حديثهما دون أن يلحظ وجوده وقال:

- أبت! إني مغرّم باليزابتا وهي التي اروم الزواج بها لا بالمال. ومن إطلب الغنى من مهر زوجة ساء حظّه من الدنيا، وما دمت أنت تفاخر بذكائي وقابليتي فلا أخالك تراني عاجزاً عن إعالة زوجة. وتأمين حاجاتها حتى ولو مهرت بمبلغ أقل مما تريده؟ دعني أوكد لك بأن الصبية هي لي وأما المهر فإنني لأرغب في أن أتركه لك.

كان يغلب على طبع (اندرية) بعض الحدة وسرعة الغضب. فأظهر إستياء مما سمع. إلاً أن (جيوثاني) جاء بعروسه الى المنزل بعد بضعة أيام. ولم يسأل قطّ عن أي مهر أكثر مما تسلّم. ومَرَّ عليهما ثمانية عشر عاماً وهما يستمتعان بحبهما المبارك وشبابهما الغضّ إلاً أن سعادتتهما كانت تشويها نغصة وحسرة الى الذريّة. فقد أسقطت (اليزابتا) جنينين إثنين بسبب جهل الأطباء. ثم حملت ووضعت طفلة سميها (كوزا Cosa)<sup>(١٣)</sup> على أسم جدّتي لأبي. وبعد سنتين حبلت مرة أخرى. ولما كان

=في حين ذكره فاساري أكثر من مرة.

(١١) الظاهر أن (اندرية) كان بناءً لا مهندساً معمارياً. أنظر طبعة باكي، ص ٨، للمذكرات.

(١٢) ماركوس فيتروفيوس پوليو: مهندس معماري روماني نبغ في القرن الأول قبل الميلاد، وربما كانت ولادته في فورميس (كامباني) وتعزى اليه رسالة في الهندسة. تتضمن أحوال هذا الفن في ذلك العصر.

(١٣) هو مختصر لأسم نيقولوزا Nicolosa.

الوحم الذي أحست به هذه المرّة (وهو ما يلازم الحبالى عادةً) يشابه بالتمام الوحم الذي إنتابها في فترة الحمل السابق. فقد أستقر رأي الجميع أن الجنين هو الآخر أنثى وإتفقوا على أن تدعى (ريباراتا Reparata) وهو أسم جدّتي لأميّ. وجاء أميّ المخاضُ في الليلة التالية لعيد جميع القديسين في الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط<sup>(١٤)</sup> من العام (١٥٠٠). وما أن أتمت القابلة غسل الوليد ووضعتَه في أقمطةٍ من الكتان الأبيض (وكانت على علم بأن الأهل يتوقعون أنثى) حتى إنسلت بخفّة وأقبلت على الوالد وأسرت في أذنه:

- جئتك بهدية ثمنية ما كنت تتوقعها.

كان أبي فيلسوفاً حقيقياً، فردّ على القابلة وهو يروح ويغدو في الغرفة:

- كل ما يرسله الله لي ثمين.

ويعد أن أزاح القماط والأغطية وتأكد من أن المولود ذكر خلافاً لما كان متوقعاً ضم يديه العجوزتين معاً ورفع نظره الى السماء معها وقال:

- يارب إني أحمذك من أعماق قلبي على عطيتك هذه. فهي غالية لا تقوم. ألا ألفَ مرحباً به".

وسأله الحاضرون والفرح يغمهم أن يختار له اسماً فكان لا يجيب إلاً مردداً كلمة.

- مرحباً به Benvenuto!

فقرّ الرأي على اختيار هذا الاسم للوليد. وكان اسمي الذي كنيته به في العماد وهو الذي أعرف به اليوم بنعمة الله.

كان جدّي (اندرية) حيّاً عندما بلغت الثالثة أو كدت. وقد أناف هو على المائة. وفي ذات يوم كنا نستبدل برُبُخ صهريج القاذورات في دارنا فخرج منه عقربٌ ضخّم وراح يسعى على الأرض دون أن يلحظه أحدٌ ثم انزوى تحت التخت. فلمحتّه وأسرعت إليه وأمسكت به. وكان كبيراً حتى إني عندما أطبقت عليه بقبضي الصغيرة أبقيت ذيله خارجاً من جانب وفكيّه بارزين من الجانب الآخر، وقد روي لي فيما بعد إني أخذت أعدو مسرعاً الى جدّي والدنيا تكاد لاتسعني فرحاً وصحت:

- أنظر يا جداه. أنظر إلى سرطانِي الصغير!

ما أن تبين فيه عقرباً حتى إنتابه رعبٌ قتالٍ كاد يفقده صوابه قلقاً عليّ. فأخذ يحاورني ويداورني بمعسول القول متوسلاً بأن أسلمه الدوبية. لكنني زدت من قبضتي شداً على العقرب وأنا أبكي واردد القول بأنني لن أعطيه لأحد. وكان أبي في المنزل فأسرع على صوت بكائي فما رأيي ممسكاً بالعقرب حتى طاش عقله وشل الرعب تفكيره وحار في إيجاد وسيلة تمنع الحشرة السامة من لدغة يكون فيها القضاء عليّ، ووقعت عيناه فجأة على مقصّ وإستطاع بالهائي وبيعض المراوغة فغافلني وقطع الذيل والفكين، وأعتبرت الحادثة فألاً حسناً بعد زوال الخطر عني.

ومرة أخرى وأنا في الخامسة من عمري، كان أبي معنا في غرفتنا بالطابق الأرضي حيث كانوا

(١٤) كانت الساعات يومذاك تحسب من الغروب الى الغروب ولذلك يتعذر تماماً تعيين الساعة بحسابنا الحالي إلا إذا كان الفصل معروفاً لدينا.

يقومون بالغسيل والتنظيف والنار العظيمة من خشب البلوط متقدة، ثبتت (جيوثاني) كما نحتته الى صدره وأنشأ يعزف ويعغني لنفسه بالقرب من النار، ثم حانت منه إلتفاتة فلمح في وسط اللهب حيواناً صغيراً يشبه سام أبرص يتقلب ظهراً لبطن وسط الحرارة الشديدة فناداني أنا وشقيقتي وهو يتطلع الى النار مشير اليها بالنظر وما أن وجّهت نظري الى حيث أشار حتى أهوى على خدي بلطمة شديدة ابكتني بكاءً مرّاً. لكنه شرع رأساً يهديء من روعي بكلمات رقيقة إذ قال:

- صغيري العزيز. إني ما ضربتك لذنب اتيتته. بل لأنني أردت أن تتذكر باللطمة أن الحيوان الذي شاهدته يتقلب في النار دون أن تؤثر فيه هو (سام ابرص) وهي ظاهرة لم يرها أحدٌ من قبل بدون شك.

ثم إنه قبلني ومنحني قليلاً من المال.

بدأ الوالد يعلمني النفخ بالزرناي ويدربني على غناء بعض المقطوعات والتلاحين. ومع إني كنت في سنّ الطفولة وهي فترة من العمر يولع فيها الصغار أمثالي بالصفارات وأمثالها من اللعب. فقد شعرت بكره خاص لا يحدّ لهذه الآلة الموسيقية. ولم أكن أغنيّ أو العب على الزرناي إلا إمتثالاً لأمر الوالد ونزولاً عند رغبته. في تلك الأيام صنع الوالد أرغين (ج: أرغن) عجيبه التركيب بأنايب خشبية، وبيانات قيثارية (ج: بيانو) Harpsichords بأجمل ما يمكن أن يجده المرء من صناعة في تلك الأيام فضلاً عن عيذان (ج: عود) وقيثارات وكمانجات بأشرف صنعة وأدقها وأظهر في فنون الهندسة مهارة لا تضارع واخترع آلات غريبة لإنزال الجسور والمعابر وغيرها من المكائن مثلاً: لتشغيل الطواحين. وكان أيضاً أول من إشتغل بنحت العاج.

إلا أنه عشق الموسيقى، فأصبحت له زوجة ثانية، ولعلّ زواجه الصغير ذاك الكثير اللعب به، كان السبب الذي دفع عازفي الناي المختصين بالبلاط الى أن يطلبوا منه الإنضمام إليهم فلبى طلبهم وصار يعزف معهم على آتته حيناً من الزمن إشباعاً لهوايته. ثم أخذوا يلحّون عليه كي يصير عضواً في جوقهم ففعل. لكن (لورنودي مدتشي)<sup>(١٥)</sup> وإبنة (بييرو)<sup>(١٦)</sup> اللذين كانا شديدي التعلق به، عزلاه عن هذه الوظيفة حين وجداه منصرفاً بكليته الى العزف مهملاً فنّه الرائع ومهنته الخلاقه. فألمه ذلك وأمضه وعدّ عملهما إساءة كبيرة بحقّه. إلا إنه عاد دون توقف الى عمله الأصلي. فصنع مرآة من العظم والعاج يبلغ قطرها نحواً من قدمٍ ونصف قدم مزدانة بتهاويل وزخارف نباتية دقيقة التخريم وبإبداع تصميم. كانت على شكل دولاب دائري يحيط بالمرآة يتألف من حلقات سبع صنعت من العاج

(١٥) وهو الملقب بالقانوني أو العظيم (١٤٤٩-١٤٩٢). دعاه الفلورنسيون الى تولي الحكم بعد والده. وقد كان مثقفاً، شاعراً، سحر الشخصية. إحترم نظام فلورنسا الجمهوري إلا أن مؤامرة حيكته ضده بزعامه فرانشيسكو سالفياتي (شئت هذا بعد أن أحبطت المؤامرة) أدى الى قيام الپايا بحرم لورنزو في (١٤٧٩). وهو والد الپايا ليون العاشر. (١٦) (١٤٧٢-١٥٠٤) تولى الحكم بعد وفاة أبيه. أبدى عجزاً في الحرب التي شنها شارل الثامن ملك فرنسا (١٤٩٤) فثار ثائر الفلورنسيين عليه وهاجموا قصره ونهبوه ونفوه وأعادوا النظام الجمهوري. توفي غرقاً وتلته فترة أعيد بها النظام الجمهوري لفلورنسا حتى ١٥٢١.

الأبيض والعظم الأسود وحُفرت حفرًا دقيقاً بتهاويل. كلّ حلقة تمثل واحدة من (الفضائل السبع) وقد ركبت المرأة وحلقات (الفضائل) بشكل ما أن يدور الدولاب حتى تدور الفضائل معها. ولما كانت هذه الأشكال السابقة مربوطةً بأثقال فإنها لا تتحرك ولا تنقلب إلى أسفل مهما دار الدولاب. وكان الوالد يلمّ باللاتينية فحفر حول المرأة هذا البيت الشعري: Rota sum: semper, quaquo verto stat sirtus: ومعناه: "كيفما دارت عجلة الحظ فالفضائل ستبقى ثابتة منتصبية". وبعد زمن يسير اعيدت إلى الوالد وظيفة العازف وضم مجدداً إلى جوق نافخي الناي.

بعض هذه الأحداث وقع قبل مجيئي إلى هذه الدنيا إلاّ إنني أذكرها جيداً عن طريق السماع فلم أشأ إغفالها. في تلك الأيام كان أعضاء هذا الجوق من ذوي الوجاهة والمهن الرفيعة. بل بعضهم كان أعضاء في الإتحادات النقابية الكبرى لتجار الصوف والحريز<sup>(١٧)</sup> ولهذا السبب لم يكن إحترافه الموسيقى عيباً فيه أو منقصة له وهذا الذي جعله يرى في إتقاني النفخ بالزنا اعزاً أمنية عنده في الحياة. ومما كان يورثني أشد الغم والضيق هو ترديده القول بأنني سأكون أعظم موسيقار في العالم لو بذلتُ جهداً صادقاً في هذا المضمار، إذ كان يتوهم في الكفاءة العظمى.

كما قلت، كان الوالد من أعظم الناس إخلاصاً لآل مدينتي وأحفظهم للعهد. بدليل أن (بييرو) استودعه أموالاً ومقتنيات ثمينة جداً عندما نفي من فلورنسا لاتعدّ ولاتحصى بكثرتها. وعندما أنتخب بعد ذلك (بييرو سودريني Piero Soderini)<sup>(١٨)</sup> العظيم، بقي الوالد في وظيفته كموسيقى. وكان (سودريني) على علم بكفاءة الوالد ومواهبه الجمّة، فراح يستخدمه في أعمال هامة عديدة ذات طابع هندسيّ، وظلّ هذا الحاكم الجليل يعمر أبي بالعطف والرعاية بكلّ ماوسعه ذلك طوال مدة حكمه. في ذلك الزمن وأنا صبيّ صغير أمر الوالد بحملي إلى القصر وجعلني أنفخ في الزناي على طبقة (الصيّاخ) بمرافقة موسيقى القصر. وكان يحملني طوال العزف واحداً من موظفي القصر. وبعد نهاية العزف طاب لـ(كونفالونير Gonfalonier)، أي (سودريني) أن يتحدث إليّ وقد سرّ بثررتي ودفع إليّ ببعض الحلوى وقال للوالد:

- إلى جانب الموسيقى، عليك يا (جيوفايني) أن تعلمه طرفاً من فنونك الرائعة التي تحذقها.  
فأجاب الوالد:

- لست أريده أن يتعلم شيئاً آخر غير الموسيقى عزفاً وتأليفاً، فلو مدّ الله في عمره فياني أمل أن أجعله أعظم موسيقار في العالم.

(١٧) أنشئت الإتحادات النقابية السبعة الكبرى، والإتحادات الأربعة عشر الأصغر منها في أوائل القرن الثالث عشر. ويضمّ الصنف الأول مزاوولي مهن الطب والقانون وغيرها فضلاً عن الصناعات الهامة الأخرى. بقيت هذه الإتحادات تقوم بدور رئيس في السياسة والحياة الإجتماعية في فلورنسا.

(١٨) كان سودريني الكونفالونير الوحيد الذي أنتخب رئيساً مدى العمر في العام (١٥٠٢) إلاّ إنه عزل في العام ١٥١٢ بمسعى من البابا يوليوس الثاني زعيم (الحلف المقدس) المقام ضد ملك فرنسا (لويس الثاني عشر) الذي أخلصت جمهورية فلورنسا في تحالفها معه.

فتدخل واحد من المستشارين الكبار السن قائلاً:  
- لا يا أستاذ (جيوفاني) أطع الكونفاليونير وأعمل بما يقترح. ما ضرّ الغلام أن يكون ضليعاً في صناعة أخرى الى جانب مهارته في العزف.

ومرّ الزمن، وعاد آل مديتشي الى الحكم. وما أن استقرّ بهم المقام حتى بدأ الكردينال الذي انتخب بابا فيما بعد بإسم (ليون)<sup>(١٩)</sup> يخصّ الوالد بالرعاية ويشمله بالعطف الخاص. والآن، ولما كان آل مديتشي مبعدين رُمجت من شعار القصر<sup>(٢٠)</sup> وهو شعارهم الخاص الكراتُ المنقوشة عليه ورُسم في محلّها صليب أحمر كبير وهو شعار وعلم الجمهورية (الكوميون Commune)<sup>(٢١)</sup>. فلما عاد آل مديتشي، مُسح الصليب الأحمر فوراً وأعيد نقش الدرع بكراته الحمراء فوق أرضية مذهبية، بتنظيم في غاية الجمال.

فما كان من الوالد وهو شاعر بالسليقة على نحوٍ ما، كما كان يملك مقدرةً على التنبؤ بالغيب وهي هبة سماوية بلاشك - أن نظم الأبيات التالية وأثبتها تحت الشعار عند إزاحة الستار عنه:

شكة السّـلاح هذه قـد دفنت

منذ زمن طويل تحت الصليب المقدس الرقيق

وهي الآن تنتظر بفرح ومجد

ظهور عباءة بطرس الرسول<sup>(٢٢)</sup>

قرأ الأبيات كلّ الفلورنسيين. وما مضت أيام حتى اعلن نبأ وفاة البابا يوليوس الثاني<sup>(٢٣)</sup> فرحل الكردينال دي مديتشي الى روما. وجاء انتخابه للكرسي الرسولي مفاجأة لم يتوقعها أحدٌ وتسمّى بإسم البابا ليون العاشر، تلك الشخصية العظيمة الكريمة وأرسل إليه الوالد رباعيته التي نظمها متنبأً فيها بما حصل فعلاً.

فكتب البابا رداً له يقول فيه بأنه يحبّذ ان يأتي الى روما ليصيب حظاً وينال حظوة. ولم يكن الوالد يرغب في ترك فلورنسا، في الواقع إنه بدلاً من مكافأته على إخلاصه، أقدم (جاكوبو سالفياتي Jacobo Salviati) على إقالتة من وظيفته في جوق البلاط الموسيقي يوم نُصّب

(١٩) جيوفاني دي مديتشي: تبوأ العرش الباباوي بإسم ليون العاشر. ولد في فلورنسا ١٤٧٥ وتسّم العرش الباباوي في ١٥١٣ وتوفي في ١٥٢١. كان من هواة الفن والأدب والعلم وقد قرب أصحابها وشجعهم. عاد الى فلورنسا مع أخيه (غويانو) الذي أصبح دوقاً في العام ١٥١٢ لكنه نزل عن الحكم في عين السنة.

(٢٠) هو الآن قصر ريكاردي (نسبة الى أسم الأسرة التي إبتاعته في ١٦٥٩). أمر ببنائه كوزيمو الأكبر دوق فلورنسا وكلف ميكيلوزو ميكولوزي به فأتمّه في ست عشرة سنة (١٤٤٤-١٤٦٠). وهو آية من هندسة الرنيسانس المعمارية. أصبح ملكاً للدولة في ١٨١٤ وهو الآن مقر حكومي.

(٢١) وهو عبارة عن صليب أحمر على أرضية بيضاء.

(٢٢) بما أن البابا خليفة الرسول بطرس أحد تلاميذ المسيح الأثني عشر. فالنبوءة المقصودة هي أن الكردينال جيوفاني سينتخب عما قريب بابا أي يرتدي بُرْدَة بطرس.

(٢٣) غويانو دلأريغري (١٤٤٣-١٥١٣) تسّم عرش البابوية في ١٥٠٣. وللرسام الشهير رافائيل صورة له.

كونفالونيراً.<sup>(٢٤)</sup> ذلك هو الذي دفعني الى تعلّم فن الصياغة. وقسمت وقتي بين هذا وبين التمرّن على الموسيقى والنفخ في الناي ضد رغبتني تماماً.

لما زاد إلحاح الوالد على وجوب تفرّغي للموسيقى وإحترافي لها. رجوتّه أن يسمح لي بساعات قليلة من اليوم أفضيها في عمل التصاميم. ووعدته متوخياً رضاه أن أخصص البقية كلها لدراسة الموسيقى. فإذا به يقول:

- إذن فأنت لا تلتدّ بالعرف.

فأجبتته بالنفي، وقلت إنني أرى الموسيقى فناً تافهاً بالقياس الى ما صحّ عزمي على إتخاذه حرفاً. فلم يجد الوالد الكريم بداً وقد تملكه اليأس - من إرسالي الى دكان والد ميكالانيولو (الفارس باندنللو Cavalire Bandinello) الذي كان يعرف باسم (ميكالانيولو Michelagnolo). وهو من (پنزي دي مونتني Pinzi de Monte) صانغ قدير واقف تمام الوقوف على أسرار الصنعة. إلاّ إنه إنحدر من أسرة وضيفة خاملة جداً وأبوه كان فحّاماً. وهذا ليس بالذي يحطّ من قيمة (باندنللو) الذي بنى حظوظ أسرته. لكن مما يؤسف له أنه لم يبينها على دعائم الشرف والنزاهة. ولا حاجة بي هنا الى الكلام عنه بأي شيء.

بعد أن إختلفت الى دكان (ميكالانيولو) بضعة أيام، أمسكني الوالد عنده لأنه لم يكن يصبر على فراقني أو يحلو له العيش دون أن يراني باستمرار. فعدت الى ممارسة النفخ بالزرنابي مرغماً كارهياً حتى بلغت الخامسة عشرة. ولو إنني عمدت الى تدوين كلّ مامرّ بي من أحداث حتى بلوغي هذه السنّ وجئت الى وصف الأخطار المميته التي تعرضت لها، لأدرك القاريء العجب. ولكن لما كان عليّ التزام الإختصار وتحاشي الكتابة الكثيرة وبما أن عندي الكثير مما اقول فسأهمل التطرق اليها.

عند بلوغي الخامسة عشرة تحديت رغبة الوالد وتتلذمت للصانغ (أنطونيو دي ساندرو Antonio di Sandro) المعروف عند الناس باسم (ماركوني) وكان حاذقاً ماهراً في الصنعة مستقيماً نزيهاً راجح العقل كريم المعاملة وأبى الوالد أن أتقاضى منه اجراً أسوة بالتلاميذ الآخرين كي ابقى حراً استمر أو أنقطع كما أشاء ذلك لأنني إنما إخترت هذه الصنعة إشباعاً لهواية ورغبة في النفس فحسب وليكون بإمكانني معالجة تخطيط التصاميم بحرية ويقدر ما أشاء من الوقت. وكان سروري بهذا التدبير عظيماً.

ورضي أستاذي الممتاز الذي كنت أخدمه بما أحققه من عمل الى درجة كبيرة. حتى إنه كان يكلف ابنه الوحيد غير الشرعي بمهامٍ لاتتعلق بالعمل يقضيها بمكاني ليقبيني قريباً منه. إن رغبتني في تعلم هذا الفن، أو بالأحرى موهبتي الطبيعية فيه أو كلاهما في الواقع تعاوننا الى الحد الذي وجدت نفسي بعد أشهر قلائل أنافس لا الصانغين الجيدين وحدهم بل خير من وجد منهم من الشبان. وبدأت أجنبي ثمار كدّي وإجتهادي. وحرصت على إبهاج الوالد الحبيب الشيخ بالنفخ على الناي أو الزرنابي بين

(٢٤) هو زوج ابنة لورنزو دي مديتشي الكبير، رُقي الى منصب الكونفالونير في العام ١٥١٤ ولم يبق شاغلاً هذا المركز غير شهرين.

الفينة والفينة. وكنت أستدر الدموع والآهات منه كلما عزفت له وهو جالس يصغي بكلّ جوارحه. ولذلك كنت بدافع من الحبّ البنوي كثيراً ما أدخل المسرة الى قلبه بهذه الوسيلة، حتى يتظاهري بأني التذّ بها أنا الآخر.

كان لديّ آنذاك شقيق يصغرني بعامين. فتىّ عُرّف بالأقدام وعلوّ الهمة إنخرط فيما بعد في مدرسة جيوفاني دي مديتشي المعجزة والد الدوق كوزيمو<sup>(٢٥)</sup>. وأصبح واحداً من أقدر ضباطه. كان شقيقي آنذاك في الرابعة عشرة وأنا في السادسة عشرة. وفي يوم أحد وقع شجار بينه وبين شاب في العشرين أو نحوها قبل حلول الظلام بساعتين في موضع يقع بين باب (سان غاللو San Gallo) وباب (پنتي Pinti). فتقارع سيفاهما وحمل أخي على غريمه ببسالة وجرأة فأصابه بجرح بليغ وكاد يجهز عليه. وكان بين المتفرجين عدد غير قليل من أقرباء الجريح وأصحابه فلما وجدوا الدائرة تدور على صاحبهم فزعوا الى سلاحهم واستعانوا بالحجارة يقذفونها على أخي فأصيب بواحدة صرخته. وظل مطروحاً فاقد الوعي كأنه ميّت. وإتفق إنني كنت ساعتئذ واقفاً بين المتجمهرين أعزل وحيداً لا صديق يقربي يشدّ أزرِي. وكنت أحت أخي قبل إصابته على الفرار بعد أن نال بغيته من الخصم. فلما رأته بمحض الصدفة يسقط مجدداً التقطت سيفه ووضعت جسمي بينه وبين السيوف المسددة إليه وحلت بينه وبين السيل المقذوف من الحجارة ولم أبرح حتى أقبلت ثلة من المقاتلين الأشداء من جهة باب (سان غاللو) وأنقذتني من هياج الغوغاء. وكان إعجاب هؤلاء بالشجاعة التي أظهرها حدث صغير لا حدّ له. فحملت أخي المغشي عليه الى المنزل وكلّ إعتقادي إنه ميت. وبعد أن إحتوانا المنزل بذلنا جهداً كبيراً حتى أفاق.

بعد أن عوفي حكم علينا مجلس الثمانية<sup>(٢٦)</sup> بالنفي لمدة ستّة اشهر محرماً علينا الإقتراب من المدينة بمسافة عشرة أميال. وقد سبق له أن حكم على خصومنا بالنفي عدة سنين. قلت لأخي:  
- إذن فلنرحل معاً.

وفارقنا والدنا المسكين بعد أن زودنا ببركته عوضاً عن المال إذ لم يكن يملك منه شيئاً. وكانت وجهتي (سيينا) لأبحث عن رجل في غاية اللطف أعرفه وأسمه (الأستاذ فرانشسكو كاستورو Maestro Francesco Castoro) كنت معه مرّة عندما هربت من والدي. فبقيت بصحبته عدة أيام نشتغل في الصياغة حتى بعث الوالد بطلبي. وعرفني (فرانشسكو) حالما حطت رحلي وأعطاني عملاً، فضلاً عن أيوائتي طوال إقامتي في (سيينا). فإنتقلنا إليه أنا وأخي. وتفرغت لعملي عدة أشهر. كان أخي يعرف قليلاً من اللاتينية إلا أنه كان أصغر سنّاً من أن ينمي قابلية تذوق الدرس والتحصيل فكان

(٢٥) هو جيوفاني دللاباندي أشهر من أن يُعرف. انحدر من الفرع الأدنى لاسرة دي مديتشي وكان شقيق (كوزيمو) الملقب (بأبي الوطن Pater Patria) وأمه كاترينا سفورزا. من شهيرات نساء زمانها. وإبنه (كوزيمو) الذي صار أول دوق أكبر لفلورنسا. مات قتيلاً في ١٥٢٦ في كوفرنو ولم يتعد الثامنة والعشرين في معركة مع جيوش الإمبراطور - بعد عمر حافل. وقد كتب چليليني مرثية في ذكراه (أنظر بلليني ريمي، ص ٢١٥).

(٢٦) الثمانية (qi Otto) هو مجلس قضاة مسؤول عن الأمن وتطبيق القانون داخل مدينة فلورنسا.

ينفق أيامه متلهياً متسكعاً.

الأمر الثاني الذي وقع هو أن الوالد توسط في قضيتنا عند الكردينال دي مديتشي (الپاپا كليمنت فيما بعد)<sup>(٢٧)</sup> فعدنا الى فلورنسا. إلا أن أحد تلاميذ أبي بدافع من سوء خلق فيه زين للكردينال بأن يبعث بي الى (بولونيا) للتعلم على أستاذ من جهاذة فن الموسيقى يدعى (أنطونيو) لأتقن العزف على خير وجه. والحق يقال كان هذا الرجل موسيقاراً عظيماً. وأبلغ الكردينال والدي بأنه في حالة إرسالي الى (بولونيا) فسيؤدني برسائل توصية مفيدة. فكاد الفرح يقضي على والدي وزال كل تردده في إرسالي. وكنت أنا نفسي راغباً أيضاً بدافع الشوق الى رؤية المزيد من الأماكن في الدنيا.

وفي (بولونيا) وجدت عملاً عند رجل يدعى الأستاذ (أركولي دل پيفيرو Arcole del Peffero). فريحت شيئاً من المال. كما كنت أواظب يوماً على دروس الموسيقى فحققت تقدماً جيداً في هذا الفن اللعين. إلا إني جنيت فائدة أكثر بكثير بإحترافي الصياغة. فمهرت فيها ووقفت على إسرائها. ولما لم يزودني الكردينال بأية مساعدة مالية فقد سكنت مع منمنم<sup>(٢٨)</sup> بولوني يدعى (سكيبينيونى كالفاليتي Scipione Cavalletti). ويقع منزله في شارع (سيدتنا العذراء شفيعه باراكان Baracan). وهناك بدأت أعمل تصاميم فنيّة. وأشتغل لحساب يهودي يدعى (گرازيا ديو Grazia Dio) بكسب ومال وفير. بعد نهاية الأشهر الستة عدت الى فلورنسا. ولم يرتح لعودتي تلميذ الوالد المدعو (پييريونو) عازف الناي. وحسباً في أرضاء أبي صرت أختلف الى داره لممارسة النفخ بالناي أو الزرناي مع أخيه (جيرولامو Girolamo) الأصغر منه ببضع سنين. وكان يختلف تمام الاختلاف عن (پييرو) فهو شاب مستقيم محبوب.

وفي يوم ما قصد الوالد منزل (پييرو) لسمعنا ونحن نؤدي دوراً. وبلغ من فرط إعجابه بأدائي أن هتف قائلاً:

- لأجعلن منك عازفاً يشار إليه بالبنان وسأتحدي كل من يحول بيني وبين عزمي.

فردّ (پييرو) بقولة أصاب فيها كيد الحقيقة إذ قال:

- إن عزيزك (بنقوتو) سيثري وينال شهرةً وشرفاً لو درس فن الصياغة بدأب أكثر من معاناته شغلة التزمير السخيفة هذه .

فأستشاط الوالد غيظاً ولاسيما حين وجدني أشاطره الرأي، وقال وقد بلغ به الإنفعال أقصاه:

- كنت دائماً على علم بأنك تعمل على إحباط مسعاي العظيم. وإنك أنت الذي سعيت في اعفائي من وظيفتي في القصر. لقد كافأتني بشر الجزاء وهو النوع من نكران الجميل الذي تقابل به عادةً

(٢٧) كليمنت السابع (١٤٧٨-١٥٣٤) صار فيما بعد من أعظم نُصراء چليني. وهو گويليو الإبن غير الشرعي لگويليانو شقيق لورنزو الثاني الكبير. انتخب پاپا في ١٥٢٣. رفض هذا پاپا رجاء الملك هنري الثامن الإنكليزي السماح له بطلاق زوجته. فكان ذلك سبب انفصال كنيسة انكلترا عن المذهب الكاثوليكي.

(٢٨) النمنمة هي شغل التطريز على القماش بإسلاك الذهب والفضة.

الأفضال الكبيرة. عَيَّنْتَكَ في وظيفتك فأفقدتني وظيفتي<sup>(٢٩)</sup> علمتك كلَّ ما تعرفه من الموسيقى فحلت دون قيام أبنِي بتحقيق رغبتِي فيه. والآن تذكّر هذه الكلمات القليلة من النبوءة: لن تمرَّ أسابيع قليلة، ولا أقول أعوام أو أشهر إلا وستكبو بك حظوظك كبوَّة لا قيام لك من بعدها بسبب نكران الجميل هذا الذي قابلتني به.

أجاب الأستاذ بييرينو:

- معظم الناس يا أستاذ جيوفاني يزدادون حَرْفًا كلما تقدّم بهم العمر. وأنا لا أستغرب منك هذه الأقوال فأنت مخرف، ولا عجب إذ أراك تبتدئ كل ما لديك في هذه الدنيا دون أن تفكر بحاجة أولادك. أمّا أنا فقد نويتُ عكس ذلك. وصممت على أن أخلف لأولادي ما يجعلهم قادرين على مدّ يد العون لأولادك.

فكان جواب الوالد على هذا قوله:

- ألا فاعلم أن فاسد الشجر لا يحمل طيب الثمر، والعكس هو الصحيح. وأضيف الى هذا قلبي: إنك إنسان نذل وإن أبناءك سيخرفون ويصابون بالعتة والفقر وسيأتي يوم يقصدون فيه أولادي الأذكيا الأغنياء ليتصدقوا عليهم.

وإستمرّا يتبادلان جارح القول وكاد أحدهما يمسك بخناق الآخر ثم ترك الوالد منزل (بييرينو) وخرجت معه وقد لُزمت جانبه قائلاً. إني سأنتقم منه ولن أدع الإهانة التي لحقها به هذا الودغد تضيع هباءً، لو تركني أو اصل تماريني في التصاميم والرسم. فأجابني قائلاً:

- بورك فيك يا ولدي العزيز. وأنا أيضاً كنت رساماً مجيداً. لكن أرجوك بعهدٍ تقطعه على نفسك أن تواصل التمرين في الزرناي بين آن وآخر بعد إنتهائك من عملك. ففي ذلك تسرية عن نفسك لأن صنعتك شاقة مرهقة أولاً وحباً بي أنا والدك الذي جاء بك الى هذه الدنيا وربك ولقنك أصول هذه الفنون وزرع فيك بذور هذه المواهب الرائعة، أفلا تعدني بأن تمسك زرنك أو تلك الناي البديعة فتسلي نفسك بأنغامهما أحياناً؟

فأجبتُه: "أجل فإمتثالاً لرغبتِه سيسرّني جداً أن أقوم بذلك". وعندها قال لي هذا الوالد الشيخ الصالح إن إنتقامه الأكبر من إهانات أعدائه هو في إشتهار أمرِي ونبوغي في فن الموسيقى.

مامرّ شهر على هذه الحادثة إلا وتحققت نبوءة أبي. فقد شرح (بييرو) المذكور في بناء قبو بمنزله الواقع في زقاق (دلو ستوديو Dello Studio) وفيما كان يقف مع عدد من أصحابه في الغرفة التي تعلقو القبو وهو يغتاب أبي أستاذه السابق مردداً العبارات التي تفوه الوالد بها عن خرابه المتوقع، في تلك اللحظة بالذات مادت به الأرض وإنخسفت تحت قدميه ربما بسبب خطأ في بناء القبو أو بقدره القادر على كل شيء الذي لم ينتظر نهاية الأسبوع ليعطي ماهو مستحق، فهوى من حالق وإنهالت

(٢٩) باجي (المرجع السالف: ص١٢) يثبت نصاً من وثيقة في سجلات فلورنسا الرسمية، تعطي سبباً أو صورة أخرى غير التي جاءت في المتن. فقد ذكرت أن جيوفاني مُنح راتباً تقاعدياً وسُرِحَ نظراً لطول خدمته Senex et inhabilis del

فوقه الحجارة والأجرأت فكُسرت ساقاه في حين لم يصب أحد من الواقفين على الحافة باذى وتسمروا في مواضعهم ذاهلين مشدوهين بسبب ما كان يحدثهم به ساخراً متهكماً قبل لحظة.  
ما أن سمع الوالد بالنبأ حتى شدَّ سيفه الى وسطه وذهب لعيادته وقال له بمحضر من أبيه (نيقولايو دي فولتيرا (Nicolao die Volterra) بوقيّ البلاط:

- تلميذي العزيز پيبرينو! إنني لا أدري كيف أُعبر عن حزني وأسفي لما أصابك. لكن لو تذكرت قولتي وما أنذرتك به عن سوء العقبى قبل زمن ليس ببعيد. لو تذكرت ما تنبأت به آنذاك عن مستقبل أبنائي وأبنائك فإن علاقتهما أيضاً ستكون كما توقعت.

بعد فترة وجيزة قضى (پيبرو) ناكر الجميل هذا نحبه بسبب السقطة. وخلف زوجة سيئة السمعة. وولداً واحداً. هذا الولد قصدني بعد مرور سنين يطلب مني عوناً مالياً وأنا في روما فنفتحته بشيء لأن التصدق على الفقر جانب من طبعي، كذلك تذكرت وعيناي مغرورتان بالدموع النعيم الذي كان يرفل فيه ابوه عندما نطق الوالد بنبوءته وهي أن أبناءه سيقصدوننا مستجدين طالبين إحساناً. والآن بعد أن أوفيت هذه الحادثة حقها من التفصيل بقي على أن أوصى بالأب يستهين أحد بنبوءة إنسان ظاهر الذليل يُساء إليه بغير حق. إذ ليس لسانه هو الناطق بل الله هو المتكلم الموحى.

تفرغت الى فن الصياغة وأخلصت له. وصرت بفضلها قادراً على إعانة أبي مالياً. قلتُ أن شقيقي الأصغر (چكينو<sup>(٣٠)</sup> Cechino) كان على بعض الإلمام باللاتينية. وقد رسم والدي أن أكون موسيقاراً نظرياً ومحترفاً شهيراً. وأن يغدو ابنه الأصغر قانونياً ضليعاً. إلا إنه لم يفلح في صدنا عن السبل التي سلكتها ميولنا الطبيعية، تلك الميول التي شدتني الى فن الزخرف على المعادن ودفعت بأخي المتين الألواح المتناسق الجسم الى إحتراف الجندية. وفي يوم من الأيام جاء الى المنزل - وكان بعد صبيلاً يافعاً- بعد أن تلقى أول تدريب عسكري في المدرسة الحربية التي أنشأها السيد العظيم (جيوقاني دي مديتشي) ولم أكن في الدار آنذاك. كانت ثيابه غير لائقة فشكا أمره الى شقيقاتنا فقمنا الى ثيابي من دون علم أبي ودفعت إليه بمعطفٍ وسترة وهما من خير ما أملك (كان في مقدوري إقتناء هذه الثياب الغالية بفضل مكاسبي من عملي الذي جعلني قادراً على مساعدة الوالد والأخوات الكريمت الصالحات). ولما إكتشفت فقدان ثيابي بهذه الطريقة غير الآمنة وتعذر علي إيجاد شقيقي لإستعادتها منه. شكوت الأمر للوالد متسائلاً كيف يسمح أن يُساء اليّ، وها إنه يرى بعينيه كيف أكدح وأرهق نفسي لمساعدته بكلّ طيب خاطر. فأجابني: إنني بمثابة الإبن الصالح. وأن أخي هو الإبن الضال الذي فقدته ثم عاد إليه بعد أن يئس من عودته<sup>(٣١)</sup> وزاد قائلاً إن ما أوصى به الله هو أن على من يملك الكثير أن يعطي الذي لا يملك شيئاً. ورجاني أن أحمل هذا التصرف المشين إكراماً له وأن الله لاشك سيزيد من حلالي وبيارك فيه.

وكأي شاب غرير قليل التجربة كان جوابي للوالد المسكين المحزون - مشوباً بالحدة والعناد - حزمت

(٣٠) تصغير اسم فرانشسكو.

(٣١) ورَدَ مثلُ "الإبن الضال" في أنجيل لوقا (فصل ١٥).

ثيابي القليلة القديمة وبالنزير البسيط المتبقي لديّ من المال توجهت الى واحدٍ من أبواب المدينة. ولما كنت أجهل أيّ منها يفضي الى طريق روما فقد سلكت السبيل المؤدية الى (لوكا)، وإستأنفت السفر من (لوكا) الى (بيزا).

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما وطئت قدمي (بيزا). توقفت بالقرب من الجسر الوسطاني حيث تقوم دكة السمك الحجرية(\*) ودنوت من دكان صائغ مجاورة وبدأت أرقب بإهتمام صاحبها وهو ماضٍ في عمله. فحانت منه التفاتة اليّ والقي بعمله وخرج ودنا مني يسألني عن هويتي وحرفتي. فأجبت أنه لي بعض الإلمام بصناعته فدعاني الرجل الكريم الى دكانه ودفع اليّ بعمل فوراً وهو يقول:

- إنني اتوسم في وجهك الموحى بالأمانة ما يؤيد لي بأنك فتى مستقيم حسن الخلق.  
ثم أناط بي أعمالاً حلّي من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وبعد إنقضاء اليوم أخذني إلى بيته وكان في خفضٍ من العيش؛ يحيا حياة ناعمة مع زوجته الجميلة وأولاده. فكرت في مبلغ قلق الوالد وألمه لفراقي فبادرت الكتابة إليه. وذكرت له إنني أقيم في منزل رجل كريم عالي الخلق يدعى (أوليفيري ديللا كيوسترا Oliviere della Chiostra) وإني مستخدم عنده وقد كلفت بأعمال دقيقة وهامة جداً. ورجوته ألاّ يستسلم الى القلق إذ إنني أروم الإستزادة في موضوعات فنيّ فإذا تمكنت منه ومهرت فيه خلال زمن قصير فإني سأظفر بما يعود عليه بالفائدة ويخلع عليه شرفاً.  
أسرع الوالد العزيز بكتابة الرسالة التالية جواباً:

"ولدي. إن الحبّ الذي أكنّه لك يحفزني على القدوم إليك لولا ما يمنعه شرفنا الذي أضعه فوق كل إعتبار. في الواقع وبدون مبالغة ان عدم رؤيتك يومياً كما اعتدت؛ صيرني مثل ذلك الذي فقد نور عينيه. إن لقبك هي أمينتي الكبرى. على إنني سأبقى ماضياً في إدارة شؤون الأسرة وقيادتها في طريق الصلاح وعلبك في الوقت نفسه أن تضاعف جهودك للوصول الى حدّ الكمال بفنك. ووصيتي لك أن تبقى حافظاً هذه الكلمات القليلة البسيطة ولتكن دليلاً يهديك الى الطريق السوية دوماً:  
في أي دار حللتا كن أميناً مستقيماً.

وقعت رسالة أبي هذه بيد أستاذي (أوليفيري) فقرأها دون علم مني واعترف لي بذلك فيما بعد قائلاً:

- الحقّ يا بنقنوتو إنني لم أكن مخدوعاً بوجهك السمح. وقد أثبتت ذلك رسالة أبيك التي وقعت بيدي صدفةً ومنها يظهر كم هو رجل صالح مستقيم. ولك أن تعتبر نفسك من الآن فصاعداً وكأنك في بيتك تعيش مع أبيك.

كنت أديم التردد الى (كامبوسانتو Campo Santo) طوال إقامتي في (بيزا) إذ إكتشفت هناك عدداً كبيراً من التحف الأثرية الجميلة وأعني التوابيت الرخامية. كما وقفت في (بيزا) نفسها على آثار قديمة كثيرة في أماكن أخرى وكنت أدارسها بدقة وتمحيص منفقاً كل ما توفر لي من أوقات الفراغ

(\*) دكة السمك الحجرية كانت تستخدم بمثابة سوق السمك وهي على رصيف الضفة الحجري.

بعد ساعات العمل في تأملها وتحري وجوه الفن فيها. وزاد من تعلق أستاذه بي عندما كان يزورني في الغرفة الصغيرة التي خصصها لي فيجدني مكباً على العمل وصار يحبني حب الوالد لابنه. وكانت السنة الواحدة التي قضيتها معه مثمرة للغاية. وصغت عدداً من الحلي الذهبية والفضية الجميلة الهامة. وقد أثار في هذا الرغبة في المواصلة والمثابرة. وأبي في أثناء ذلك يطرني برسائله متوسلاً ضارعاً لأعود إليه مذكراً إياي أبدأ بممارسة الموسيقى التي بذل قصارى جهده في تعليمي إياها فما أقرأ هذا حتى تزايدت كل رغبة في العودة. الى هذا الحد بلغ كرهى لمعالجة الموسيقى بهذا الزنناي اللعين. والواقع إنني كنت في فردوسٍ طوال إقامتي في (بيزا) حيث لم تمسك يدي قط بزناي.

بإنتهاء العام سنحت لأستاذه فرصة للسفر الى فلورنسا لبيع مقدار من برادة الفضة والذهب تخلقت له من العمل. وكان هواً (بيزا) غير الصحي قد أسلمني الى مس من الحمى فعدت الى فلورنسا معه وبني من آثارها. ورحب الوالد به ترحيباً حاراً وصار يلح عليه في غفلة مني بالأخذني بل يبقيني. فنزل عند رجائه وتركني ولازمت الفراش مقدار شهرين وأبي ساهر على علاجي بحنانٍ وحذب يجلان عن الوصف، وكان لايني يردد قوله إن فترة مرضي هي عنده بمثابة ألف سنة وإنه ليتطلع الى اليوم الذي سأكون فيه قادراً على تطريبه بألحاني. وكان على معرفة بالطب والكتب اللاتينية. فيجس وهو ممسك برسغي التسارع الفجائي في ضربات قلبي كلما طرق موضوع الموسيقى! فيدرك ردة الفعل وينأى عني وجلأ باكياً. لم تفتني ملاحظة تلك الكآبة، فطلبت من إحدى شقيقاتي إحضار الزنناي لأنها أقل الملاهي إجهاداً للعازف، والحمى لم تزايدت - ورحت أنفخ بحركات بارعة من الشفتين والأصابع، فأسرع الوالد الي وأخذ يطرني بوابل من دعائه وبركاته. وقال إنني تقدمت كثيراً خلال الفترة التي قضيتها بعيداً عن فلورنسا، ورجاني الإستمرار في التمرن وإستحلفني بالأهمل هذه الملكة العظيمة فتضيع مني هدراً.

بعد أن استرددت صحتي، عدت الى صديقي الشهم الكريم (ماركوني) الصانع فساعدني على كسب بعض المال وبذلك أمكنني مساعدة الوالد والأسرة. وفي تلك الفترة من الزمن قدم الى فلورنسا نحأت يدعي (بييرو توريجياني<sup>(٣٢)</sup> P. Torrigiane) كان قد عاد من انكلترا بعد زيارة إمتدت سنوات غير قليلة. وبما إنه صديق حميم لأستاذه فقد كان يزوره يومياً. وبعد أن القى نظرة على رسومي وتصاميمي قال:

- إن السبب في مجيئي الى فلورنسا هو لإستخدام ما أمكن من الصناعات الحاذقين لأن هناك عملاً هاماً جداً كلفني به ملكي (يقصد هنري السابع). وطريقتك في العمل ووضع التصاميم أقرب الى

(٣٢) إشتهر بأنه مهتم أنف ميكالنجلو الشهير، وهو نحات فلورنسي معروف. ذاع أمره في إنكلترا بسبب النصب التذكاري الذي صنعه لهنري السابع في كاتدرائية (ويستمنسر آبي). غادر انكلترا الى إسبانيا، وأحس هناك بأنه لايلقى المعاملة التي تليق به فما كان منه والعهد على الراوي إلا وأضرب عن تناول الطعام حتى مات جوعاً. والوصف الذي قدمه جليليني له يطابق وصف (فاساري) ج: ٦.

النحت منها الى الصياغة. وأنا أرغب في إسداء العون لأبناء جلدتي الفلورنسين فإن عاوتنتني في صبّ تمثال برونزي ضخم كلّفتُ به هناك فسأجعل منك نحاتاً باقعة، وسأغنيك.

كان (توريجياني) هذا رجلاً متين البنيان متناسق الأعضاء في غاية الوسامة؛ يحسبه المرء من جبايرة المحاريين لا من النحاتين، أضف الى هذه الهيئة حركاته الأمرة وصوته القوي الرنان تقطيبته التي كانت توقع الرعب في أشجع القلوب. وكان يتحفنا كل يوم بحكاية عن مآثر إقدامه ومغامراته بين أولئك الإنكليز الوحوش. ومرة بدء يتحدث عن (ميكالنجلو بوناروتي) بعد أن وقعت نظاره على رسم من رسومي كنت قد إستنسختها<sup>(٣٣)</sup> من صورة حائطية لذلك الفنان الخالد. وهي أول أثر فنيّ تجلت فيه عبقرته السماوية. رسمها منافساً بها فنّاناً آخر يدعى (ليوناردو دافنشي)<sup>(٣٤)</sup> Leonardo da Vinci) وقد رسمت لقاعة المستشارية بقصر السنيوري والموضوع هو فتح جيوش فلورنسا مدينة (بيزا). إختار (ليوناردو دافنشي) المعجز أن يصور هجوم الفرسان وإستيلاءهم على الرايات والبيارق. فأتى بالعجب العجاب الذي يقف عن وصفه القلم. أما ميكالنجلو فقد صور سرية من المشاة أفرادها يستحمون في نهر الأرنو والوقت صيف والمنظر يمثل حالة إستنفار وإنذار فترى الجنود العراة يهرعون الى سلاحهم ثم الى المعركة. وقد رسمت الفكرة بدقة وإبداع فاقت بالإعجاز كل ما رسمه القدماء والمحدثون. وكما قلت كانت لوحة ليوناردو بالغة الروعة أيضاً. واحدة من هذه اللوحات في قصر مديتشي، والأخرى في قاعة البابا. وقد صارتا وقبل أن يعتورهما التلف مثل مدرسة تقصدان من جميع الأرجاء.

ومع أن ميكالنجلو الموهوب رسم بعدها صور البيعة الكبرى للبابا يوليوس<sup>(٣٥)</sup> إلا أنه لم يبلغ بها نصف الكمال الذي بلغه في هذه الصورة. ولم تفصح عبقرته مرة أخرى عن نفسها بمثل هذه القوة في أولى دراسته تلك.

ولأعد الى (بييرو توريجياني)، فقد قال وهو ممسك بصورتني:

- إعتدنا أنا وبوناروتي وكنا صبياناً أن نذهب لدراسة الرسم في جناح (ماساجيو Masaccio)<sup>(٣٦)</sup> بكاتدرائية (كارميني Carmine)<sup>(٣٧)</sup> وكان من طبع بوناروتي أن يتخذ من أي أحد يرسم هناك مادة

(٣٣) لم ينشئ چليني عن ولائه لميكالنجلو ولم يتحول عن أعجابه به. والصورة الحائطية المشار إليها أتمها بين عامي ١٥٠٤ و ١٥٠٥ لقاعة المستشارين في قصر فيكيو. والآن يكاد لايبين لها أثر. وقد جرت محاولة أخيراً لإستنقاذ صورة ليوناردو المنوه بها دون جدوى فقد تلفت هي الأخرى. مثل ميكالنجلو في الصورة جانباً من معركة كاجينا في الحرب مع بيزا. أما ليوناردو فقد صور مشهداً من موقعة أنغياري Anghiari.

(٣٤) دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) نحات ورسام ومهندس ومعمار وفيلسوف. وواحد من العبقرات المعدودة في كل زمان ومكان غني عن التعريف. وهو صاحب لوحة الجيوكندا المشهورة.

(٣٥) هي الكاتدرائية الشهيرة بإسم سيستين Sistine. في روما.

(٣٦) توماسو دي سرجيوفاني (١٤٠١-١٤٢٩) هو أول من أوجد الأسلوب الإمتلاني القوي في رسم الإنسان. والرسم الوحيد الذي وصلنا له هو لوحته الجصية في الكنيسة المشار إليها، وأبرز ما فيها صورة آدم وحواء بعد الخطيئة.

(٣٧) هذا الجناح من الكنيسة يخض آل برانكاچي في فلورنسا وقد تولى ماساجيو المذكور زخرفتها برسوم تمثل جوانب =

للسخرية والمناكدة. وفي ذات يوم خصني بمناكدته واستفزني حتى إنني فقدت السيطرة على نفسي بشكل غير مسبوق مني فجمعت قبضتي وسددت لكمة الى انفه بلغت من الشدة بحيث شعرت وكأن العظم والغضروف يسحقان تحت قبضتي مثل قطعة بقسماط هشّة وسيبقى هكذا يحمل (توقيعي) حتى مماته.

ملأتني هذه القصة إشمئزازاً أنا الذي اعتدت مشاهدة روائع ميكالنجالو العبقري كل يوم، وزرعت كراهة (توريجياني) في نفسي بحيث ما عدت أطيع النظر إليه فكيف بالذهاب معه الى إنكلترا؟ كنت أحاول طول إقامتي في فلورنسا تشرب أسلوب (ميكالنجلو) واحتذاءه ولم أثن عن ذلك أبداً. في تلك الأيام نمت صداقة وثيقة جداً بيني وبين شاب صانع عالي الأخلاق ساحرها في مثل سني يدعي (فرانشسكو ابن فيليبو). ووالده هو الرسام البارح فرا فيليبو<sup>(٣٨)</sup> ولم نكن نفترق إلا لماماً للمودة العظيمة التي يكنّها أجدنا للآخر. كذلك كان منزله غاصاً بالدراسات الرائعة التي كان والده قد رسمها وتم أيضاً عدة دفاتر منها بريشته نقلها عن آثار روما القديمة. فعلقت بها بل جننت جنوناً. هذه الصداقة إستمرت سنتين تقريباً.

في تلك الفترة من حياتي أتمت صياغة حلبة فضية ذات زخرف بنصف بروز لا يزيد حجمها عن كفّ طفل. وهي ابزيم لحزام رجل. وكان الشائع أن تتخذ بهذا الحجم. نقشت عليها مجموعة من أوراق النبات المعروفة مع رؤوس ملائكة صغار (كروبيم) وغير ذلك من التهاويل البديعة. وقد أجزتها في دكان (فرانشسكو سالمبيني F. Salimbene). ولما عرضتها على أرباب الصنعة أعضاء نقابة الصاغة أبدوأ أعجابهم بها وأعترفوا بأنني أحسن فنان بين تلاميذ الصناعة. وكان ثم حفار على الخشب يدعى (جيوفانباتستا Giovonbatista) المعروف عادة بإسم (تاسو Tasso)<sup>(٣٩)</sup> وهو في مثل سني. أسر لي يوماً برغبته في التوجه معي الى روما إن خطر لي ذلك. كنا نتحدث في الأمر بعد تناولنا الغداء مباشرة. وبما إنني كنت أشعر بإستياء من أبي -والسبب هو الموسيقى بالطبع- فقد قلت ل(توماسو):

- أف لك! إنك رجل أقوال لا رجل أعمال.

أجاب:

- إسمع. أنا كذلك حانق على أمي ولو كان عندي ما يكفيني من المال للوصول الى روما لفعلت دون أن أتوقف لحظة لإدارة المفتاح في قفل دكاني الحقيير.

=من حياة بطرس الرسول. والكاتدرائية نفسها وتدعى اليوم (سانتا ماريا دل كارميني) كانت قد بُنيت في أواخر القرن الثالث عشر دمرتها النار في ١٧٧١ وأعيد بناؤها وسلم منها لحسن الحظ جناحاً برانكاچي وكورسيني. وقد أظطلع ماساچيو بزخرفتها (١٤٢٤). وترك أجمل أثر لديه فيها.

(٣٨) فيليپو لبيبي Filippo Lippi (١٤٥٧-١٥٥٤) رسام معروف. وابن الرسام الأبعد منه شهرة فرافيليبو (١٤٠٦- = ١٤٦٩). مازالت آثارهما تزين كنائس فلورنسا. أما صديق چليني فقد عرف بإسم (جيوفانباتستا) ونال شهرة كبيرة في فنه الذي عالجه.

(٣٩) إل تاسو (١٥٠٠-١٥٥٥) مهندس ونقاش خشب. صمم اللوجيا التي هي في السوق الجديدة. (أنظر فاساري - ميللافيزي- المرجع المفصل في الفهرست).

فقلت: إن كان هذا العائق الوحيد الذي يقفك، فلديّ من المال ما يكفي إثنين وإستأنفنا السير يحدث بعضنا بعضاً بهذا الشكل. وعلى حين غرة وجدنا أنفسنا ونحن نواجه باب (سان پيترو گاتولينى)<sup>(٤٠)</sup> قبل أن ندرك أين نحن. وهنا قلت:

- تاسو! إنها إرادة الله. لم يكن أحد منا قد لاحظ الى أين نتجه. والآن وأنا هنا أشعر وكأنني قطعُ نصف الطريق.

وتم القرار وإنطلقنا نغذّ السير ونحن لاننكفّ نتساءل:

- ماذا سيقول عنّا أبوانا العجوزان في هذا المساء؟

وإتفقنا على أن لانفكرّ فيهما حتى نبلغ روما. وشددنا مئزرينا كلّ خلف ظهره وإنطلقنا نحو (سيينا) نكاد لاننطق بلفظة واحدة طول الطريق. وبعد بلوغنا المدينة شكّا (تاسو) آلاماً في قدميه وقال إنه لن يخطو خطوة أخرى. وصارحني برغبته في العودة من حيث أتى وطلب مني قرصاً فقلت:

- الباقي عندي لا يكفي لإكمالي الرحلة. وكان عليك أن تفكر في الأمر ملياً قبل أن تترك فلورنسا. فإذا كان السبب في عدولك آلام قدميك فسنجد لك حصاناً بريد عائداً الى روما ونكتربه وبذلك يزول عذرك.

إكترتُ حصاناً. ولما لم أجده ينطق بكلمة واحدة ألويتُ عنان جوادي شطر الباب الروماني فلمّا تبين فيّ العزم لحق بي ضالماً، يبذل أقصى مجهود لجرّ نفسه جرّاً وهو يلعن ويدمدم ساخظاً على مسافة مني. وعندما بلغت الباب أدركتني به الشفقة فتوقفت أنتظره حتى إذا وصلني أردفته خلفي وأنا أقول له معاتباً:

- لو علم أصدقائنا بأننا قررنا الوصول الى روما ثم خار عزمنا ولم يتبق منه ما يكفيننا الى أبعد من (سيينا) فماذا سيقولون عنّا.

فأقرّ صديقي (تاسو) بصواب قلبي وكان بطبيعته مرحاً فبدء يضحك ويغني ودخلنا روما وكان غناؤنا ودعابتنا لاتنقطع طول الطريق. وكنت آنذاك في السادسة عشرة من عمري، أي بعمر القرن الذي نحن فيه.

ما أن حطت رحلي في روما حتى وجدت لي عملاً عند أستاذ في الصناعة يدعى (فيرانزولا Firanzuala) واسمه الأصلي (جيوڤاني) ومسقط رأس (فيرانزولا) من أعمال (لومبارديا)<sup>(٤١)</sup> وقد أصاب شهرة عظيمة لخبرته التامة بصنع الصحف الكبيرة وما شاكل ذلك. فأطلعته على تصميم لمشبك صنعته في فلورنسا عند (سالميني) فأعجب به كثيراً والتفت إليّ خلفه من صنّاعه المتتلمذين وهو فلورنسي يدعى (جيانوتو جيانوتي Gianotto Gianotti) كان قد سلخ عدة سنين في خدمته وقال له بلهجة تأنيب:

- دونك واحداً من الفلورنسيين العارفين. وأنت؟ ما أنت إلا واحداً من أغبيائهم الجهلة.

(٤٠) إتخذ الباب اسمه هذا من الكنيسة الشهيرة (ماريا دلا روتوندا) في روما وكانت قبلذاك البابانثون الروماني.

٤١- بلدية تقع على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً شمال فلورنسا.

في هذه اللحظة عرفت فيه صديقي جيانوتو فأسرعت الى التحدث اليه. كنا قبل نزوحه الى روما نعالج الرسم معاً. وقد عقدنا فيما بيننا أوامر الود، إلا أن وقع تأنيب أستاذه على نفسه كان من الشدة بحيث حمله على إنكار أي معرفة سابقة بي. فألمني ذلك وصحت به وقد بلغ إنفعالي أقصاه:

- ويحك يا جيانوتو. يا أصدق خلّ من الأيام الخوالي. ألم تكن سوية في موقع كذا ومحل كذا ألم نأكل ونشرب معاً. أو ألم أبت ليلة في منزلكم الريفي؟ على إني لا أهتم. فسواء لديّ أتكلمت عني بالخير أمام هذا الرجل الكريم أستاذك أم لم تتكلم فإني أوّمل بأن تبرهن يداي هاتين على مقدرتي بما تنتجان من أعمال دون مساعدة منك.

كان (فيرانزولا) إنساناً صريحاً، عصبياً سريع الغضب الى آخر حدٍ. فما إن فرغت من قولتي حتى التفت الى (جيانوتو) وصاح به مُنتهراً:

- قبحك الله من لئيم حقير! أما تخجل من هذا التصرف إزاء من كان بالأمس صديقك الحميم؟  
وبعين الشعور الذي ملكه التفت إليّ وأضاف قائلاً:

- أدخل الدكان وبرهن على ماقلت. دع يديك تشهدان بكفاءتك.

ثم دفع إليّ بتحفة فضية دقيقة للغاية تعود لأحد الكرادلة. هي عبارة عن علبة صغيرة صُممت على شكل الناووس الرخامي الأحمر الذي يقوم أمام باب الروتوندا. (٤٢)

فإلى جانب ما إستنسخت أضفت إليه بعض التهاويل والأقنعة الصغيرة الجميلة من إختراعي. ونتيجة هذا أخذ أستاذي يدور به على الصاغة متباهياً فخوراً بالشغل الدقيق الذي أنتجه دكانه. وكان يقارب نصف (كوبيت) حجماً والغرض هو أن يستخدم كملحمة، والى هذه الملحمة يعود الفضل في أول كسب لي في روما. وقد أرسلت جانباً من المال الى الوالد الكريم مساعدة مني واحتفظت لنفسي بالبقية. وعلى ضوء ماكسبته من مال إنطلقت في أرجاء روما أتدارس آثارها وأتملاًها مدققاً فاحصاً حتى أشرفت نقودي على النفاذ فعدت الى الدكان أشتغل مجدداً. ولم تطل إقامة صديقي (باتستا دل تاسو) ففعل راجعاً الى فلورنسا.

عهد إليّ بعمل جديد على أنني قررت أن أشتغل لأستاذ آخر بعد فراغي منه وقد أغراني بذلك مواطن ميلاني يدعى الأستاذ (باگولو آرساگو Pagolo Arsago) وما حصل بعد ذلك أن (فيرانزولا) اشتبك في شجار عنيف مع (آرساگو) هذا وإنهال عليه شتماً. وكنت موجوداً آنذاك فإنحزت الى جانب أستاذي الجديد وصرت أدافع عنه وقلت لفيرانزولا محتجاً: إني ولدت حراً وسأعيش حراً وإنه غير محق بالشكوى من تصرف (آرساگو) ولا بالتظلم من عملي وإنه مازال مديناً لي ببضعة كراونات هي بقية أجري. وكصانع حرّ ليس ثمّ ما يمنعني من التوجه حيث شئت، وأنا مدرك تماماً بأن عملي هذا لا يلحق إساءة أو ضرراً بأي إنسان. وحانت لأستاذي الجديد فرصة الكلام فتدخل قائلاً إنه لم يطلب مني الإلتحاق بخدمته. وسيكون مسروراً لو عدت الى (فيرانزولا) فأجبت إني لم أخطيء بحق (فيرانزولا) ولا علم لي بأي شيء من هذا القبيل مطلقاً. على إني أريد أن أبقى سيّد نفسي. ومن

٤٢- هي بيعة القديسة سانتا ماريا دللأروتوندا وكانت قبلذاك الپانثيون الروماني.

يطلب خدمتي عليه أن يراجعني شخصياً. وإنني أنجزت العمل الذي كلفني به (فيرانزولا) ولم تعد تربطني به علاقة. فصرخ فيرانزولا قائلاً: إنه لا ينبغي أن يستخدمني وأضاف:  
- إياك أن تريني وجهك بعد اليوم.

وعندما ذكرته ببقية أجلي المستحق، ضحك ساخراً فقلت:

-إنني لقادر على إستخدام سيفي بنفس البراعة التي إستخدمتها في إستعمال العدد والأدوات لصياغة الحلبي كما رأيتني.

وبينما نحن في أخذ وردٍ إتفق أن مرَّ رجل مسنَّ يدعى السيد (أنطونيو دي سان مارينو) وكان أستاذاً (لفيرانزولا) وهو خير صانع في روما. فسمع حجتي التي بذلت جهدي لوضعها أمامه بأوضح صورة، فحكم لي ونصح (فيرانزولا) بأن ينقذني بقية أجلي. إلا أن الخصام إشتدَّ وتسعرَّ بسبب مظهر من أن (فيرانزولا) كان مبارزاً بارعاً أكثر منه صائغاً. إلا أن العقل تغلَّب أخيراً بتمسكي وإصراري الذي أدى دوره فدفع أجلي بالأخير. وبعد زمن عادت العلاقة بيني وبين فيرانزولا كما كانت وبقينا أصدقاء حتى إني صرتُ عراباً لوليدته عندما طلب ذلك.

واصلت العمل مع الأستاذ (پاگولو آرساگو) وكسبت مالاً كثيراً كنت أرسل معظمه الى الوالد الكريم. وبعد أن أكملت سنتين رضخت لتوسلاته وعدت الى فلورنسا والى دكان (فرانشسكو سالميني) مرة أخرى. وكان ربحي كثيراً وركزت جهودي لإغتراف المزيد من أسرار الفن وجددت علاقتي (بفرانشسكو دي فيليبو) وصرنا نخرج معاً. وقد أغرتني تلك الموسيقى اللعينة على تبديد الكثير من الوقت جرياً وراء اللهو والعبث. على إني كنت دائماً أحرص على تخصيص ساعات قليلة من الليل أو النهار للتعلم والدراسة.

في ذلك الزمن صنعت ماكان يطلق عليه في ذلك العهد إسم (مفتاح القلوب) وهو نطاق فضيَّ عرضه نحو ثلاث أصابع تشده المتزوجة حديثاً في وسطها. وكان نقشه بنصف بروز ورضعته بصور لطيفة على طوله. ومع أن الموصي به (رافاييلو لاپاجيوني Raffaello Lappaciu) لم يكن سخياً في دفع أجوره إلا أن الشهرة التي نلتها من ورائه كانت أكبر من أجزل العطاء عنه. وإشتغلت مع عدد كبير جداً من الصاغة في فلورنسا. ووجدت بينهم أناساً مستقيمين مثل أستاذي الأول (ماركوني) إلا إنني وجدت آخرين ممن تمتعوا بخير السمعة - يحاولون مع هذا دماري ولم يتعففوا على سرقتي بأخس الطرق كلما تسنح لهم الفرصة. فجانبتهم وتحاشيتهم ما وسعني ذلك وأنزلتهم منزلة اللصوص والعيارين. على إن صائغاً وهو المدعو (جيوڤانباتستا سولياني Giovanbatista Sogliani) تفضّل مشكوراً فأخلى لي جانباً من دكانه في السوق الجديدة بالقرب من ضفة (لاندي). وفيه أنجزت صياغة حلبي وتحف كثيرة في غاية الجمال ومكنتني أرباحي من رفع مستوى عيش أسرتي وقد أثار ذلك حقد إثنين من الأوغاد اللذين كنت قد تتلمذت عندهما من قبل وهما (سلفادوري<sup>(٤٣)</sup> Salvatore) و(ميكيلي گواسكونتي Michele Guasconti). كانا يمتلكان ثلاثة دكاكين صياغة كبيرة مع أشغال رائجة رابحة.

(٤٣) في رسالة جليليني عن الفن (ص٤) يتكلم عن سلفادوري هذا بغاية الطيب.

وعندما أدركتُ أنهما يبيطان لي شراً قصدت رجلاً كريماً الخصال أعرفه - شاكياً له الأمر وقلت أما كان عليهما أن يكتفيا بما سرقا مني تحت ستار الطيب الكاذب والتظاهر بالسماحة؟ وبلغهما هذا الكلام فراحا يتهدداني علناً قائلين إنهما سيرغماني على إبتلاع كلماتي، وبما إني كنت أجهل معنى الخوف فلم أبال بتهديدهما.

وإتفق مرةً إني كنت واقفاً مسنداً جسمي الى دكان واحدٍ من هذين الصائغين فناداني وبدأ يشتمني ويتوعدني. فأجبت لو إنهما أحسنا معاملتي لحسن كلامي عنهما بين الناس وأشدت بصلاحيهما وإستقامتهما إلا أنهما أقدما على شيء يخالف هذا ويلوما أنفسهما إذ لست انا الملموم. وفيما انا مسترسل في اقوالي اقبل فرد من اسرتهما يدعى (جيراردو غواسكونتي) كان يسوق بغلاً محملاً بالأجر - ربما جاء بتحرير منهنما فوجهه نحوي وما أن أصبح محاذياً لي حتى أمال بالحمل عليّ فأناخت الأجرات فوقي ونالني منها كبير أذى. وإستدرت في الحال فوجدته يضحك مقهقهاً فما كان مني إلا وسددت الى صدغه لكمة فسقط كالميت غائباً عن الوعي. ثم واجهت ابن عمه قائلاً:

- تلك هي الطريقة المثلى للتعامل مع أمثالكم أيها اللصوص الجبناء.

وباعتمادهم على قوتهم العددية تظاهروا بالحملة عليّ. فعلى الدم في عروقي ومددت يدي الى خنجر صغير في حزامي وصحت بهم صيحة راعدة:

- لو أقدم أحدكم على الخروج من الدكان، فعلى الآخر أن يذهب لإستدعاء الكاهن إذ لن تدرك الحاجة الى طبيب.

وأشاع قولي هذا الخوف فيهم فسمّهم في مواضعهم ولم يجسر أحد على الخروج من الدكان ثم إني إنصرفت. فأسرع الأب وأبناؤه الى (مجلس الثمانية) وقدموا شكوى ضدي زعموا فيها إني قمت بهجوم مسلح عليهم في دكانهم وهو أمر لم يسمع به في فلورنسا.

فطلبني مجلس الثمانية للمثول امامه وراح اعضاؤه يوسعوني توبيخاً. وربما كان السبب في ذلك هو إني كنت أرتدي معطفاً<sup>(٤٤)</sup>. في حين كان غرمائي يلبسون العباة والقلائس المدنية. أو لعلمهم راجعوا أيضاً القضاة كلاً في منزله وتكلموا معهم بصورة خاصة سراً، لا مثلي أنا القليل الخبرة الطاهر الذليل فإني لم أحاول مثلهم التكلم مع أي عضو ثقة مني بعدالة قضيتي ووضوح حقي.

فأجبت المجلس قائلاً إن الغضب أعماضي وقتما إستمر جيراردو في إهانتني وكان كل ردّي إني لطمته لاغير ولا أظنني أستحق مثل هذا الزجر الشديد. ما ان خرجت من فمي كلمة (لظمة) حتى قال (پرنزيقالي دلالاً ستوفي<sup>(٤٥)</sup> Prinziwalli della stufe) أحد القضاة مصححاً:

- إنك لكمته بقبضتك ولم تلمه.

(٤٤) إن لم يكن الشخص عسكرياً أو محارباً محترفاً فإن إرتداه معطفاً بدلاً من العباة وهي زي المدنيين النهاري يدخله في عداد الأشقياء والمستهترين.

(٤٥) واحد من أنصار آل مديتشي الأقوياء. دبر مؤامرة لصالحهم ضد الكونفاليونير سودريني. وأسند إليه اليساندور دوق فلورنسا منصباً في عضوية مجلس الشيوخ في ١٥٣٢ وكانت وفاته في ١٥٦١.

ثم دق الجرس فأمرنا الجميع بالخروج. وتكلم (پرنزيقالي) للمجلس مدافعاً عني فقال:  
- فكروا أيها السادة بسذاجة هذا الرجل. فهو يتهم نفسه بأنه لطم أحدهم متوهماً إنها أخفّ عقوبة  
من اللكمة. إذ في الواقع ان عقوبة اللطمة إن وقعت في السوق الجديد هي خمسة وعشرون كراوناً.  
في حين أن اللكمة شيء بسيط وعقوبتها خفيفة. إنه شاب موهوب ذكي ويعيل أسرته بمثابرتة على  
العمل. وإنني أرجو من الله أن يكثر من أمثاله في مدينتنا فهم قليلون.

كان يوجد بين القضاة عدد من أولئك الجمهوريين ذوي القلائس المفتولة إنجازوا الى خصومي  
بالتوسطات والشفاعات الكاذبة. ولأن خصومي من حزب الراهب ساقونارولا<sup>(٤٦)</sup> وكان يسرهم جداً  
إرسالني الى السجن بحكم ثقيل. إلا أن (پرنزيقالي) الشهم النبيل أحبط تديبرهم. فبدلاً من ذلك  
فرضوا عليّ دفع غرامة صغيرة مقدارها أربع ورنات<sup>(٤٧)</sup> من الدقيق تدفع الى دير (موراتي)<sup>(٤٨)</sup>  
(Murati). وعندما طلبت للمثول أمامهم ثانية أمرني أن أسكت ولا أنطق بحرف لئلا أتعرض لسخطه  
وقال إن عليّ القبول بالحكم الصادر. وبعد ذلك وجه لي توبيخ شديد، ثم أرسلونا الى المستشار وأنا  
لا انفك أردد لنفسي: "إنها لطمة وليست لكمة!" وهكذا تركنا القضاة وهم مغرّقون في الضحك.

أمرنا المستشار نيابة عن مجلس القضاة بأن نقدم كفيلاً بضمان مالي. وكنت أنا وحدي الذي حكم  
بتأدية أربع ورنات. فشعرت كمن تؤخذ منه روحه غيلةً؛ ولما لم يكن باليد حيلة فقد بعثت بطلب واحد  
من أبناء عمومتي وهو طبيب جراح يَدعى (انيبالي Annibale) والد (ليبرودورو ليبرودوري Librodoro  
Librodori) ليكون كفيلاً. إلا إنه رفض فجنّ جنوبي وانتفخت كالصِّل من فرط الإنفعال. وحزمت أمري  
على الإتيان بعمل يائس. وما هذا إلا دليل على ان المكتوب لنا في النجوم لا يؤثر في مجرى حياتنا  
فحسب بل يحكمها حكماً شاملاً.

وكان حنقي يتصاعد كلما فكرت في الأيادي التي أسدتها أسرتي لـ (أنيبالي) هذا - حتى إنني  
عزمت عزماً أكيداً على أمر جَلل وأنا بطبعي عصبي المزاج سريع الثورة. إنتظرت حتى غادر القضاة  
المجلس لتناول الغداء. وما ان وجدت نفسي وحيداً، لايقوم على حراستي موظف ما، إنسللت من  
القصر ونار الحقد تمزّق أحشائي وهرعت الى دكاني فتسلّحت بخنجر صغير، وتوجهت قاصداً منزل  
أعدائي وكان يعلو دكانهم. فوجدتهم يتناولون طعام الغداء. ما أن دخلت عليهم حتى لحظني  
(جيراردو) الفتى الذي بدء الشجار فحمل عليّ. فما كان مني إلا وسددت طعنةً الى صدره فغاب

(٤٦) جيرولامو ساقونارولا (١٤٥٢-١٤٩٨) مصلح ديني إيطالي. ورئيس دير الدومنيكان في فلورنسا منذ ١٤٩١.  
كان يعظ بحماسة ضدّ التنفس الخلق في الكنيسة والدولة. دبر ثورة في مدينة فلورنسا طرد على اثرها آل مديتشي  
السنة ١٤٩٤ بعد أن أبدى دوقها پييرو عجزاً عن مواجهة الحرب التي شنها شارل الثامن الفرنسي. وهوجم قصره  
ونهب. أسس ساقونا رولا الجمهورية التي كرهت الناس بها لقوانينها القاسية جداً. وأصدر البابا الكساندر السادس  
قرار حرمان بحقه (١٤٩٧) ففقد ثقة المواطنين وحوكم وشُنق ثم أحرقت جثته.

(٤٧) في الحقيقة كان مقدار الغرامة إثنتي عشرة وزنة كما جاء في السجلات. أنظر باجي ص ٣٢.

(٤٨) دير شهير في فلورنسا عرفت راهباته بشدة التحفظ والتعبد. وفيه توفيت السيدة الشهيرة كاترينا سفورزا. أم  
جيوفاني دي مديتشي وجدة كوزيمو دوق فلورنسا الأكبر.

النصل مخترقاً صدره وسترته حتى قميصه. لكنه لم يمس بشرته أو يصيبه بأي خدش في الواقع. على إنني توهمت من الشكل الذي هبطت به يدي ومن النصل الغائب في طبيّات ثيابه وصوت التمزّق - إنني أصبته بجرح بليغ وسقط الى الأرض وقد جنّ رعباً. فصرختُ:  
- ويل لكم أيها الغادرون. حان حينكم وسأقتلكم جميعاً.

وخيل لهم كلهم: الأب والأم والأخوات إنه يوم الدينونة قد جاء. فخرّوا على ركبهم ركعاً وراحوا يطلبون الرحمة دون تحفظ صارخين. لم أجد من المروءة في شيء أن العرض لهم بسوء يعد أن تلاشت روح المقاومة فيهم وبجيراردو وهو مستلق على الأرض مثل جثة. فدرت على عقبي وتركت المنزل والغيط يعصف بي الى حدّ الجنون. وفي الزقاق وجدت البقية من الأهل قد تجمعوا إثني عشر أو يزيدون في إنتظاري، هذا ممسك بمجرفة من حديد وهذا مسلح بقضيب فولاذي وجماعة منهم بالمطارق وآخرون بالفؤوس والعصي فحملت عليهم وأنا أخور كالشور الهائج. فأوقعت أربعة منهم أو خمسة على الأرض وسقطت معهم وأنا لا أتوقف عن كييل الطعنات بخنجري، وأطبق على الآخرون الذين كانوا وقوفاً بما وسعهم من عون ونالوا مني بكلتا اليدين بمطارقهم وفؤوسهم، ومجارفهم إلا أن عناية الله التي تتولى الأمور أحياناً فتمنع المقدّر، شاءت أن لا يحدث أحدنا بالآخر أي أذى يذكر. وكل ما فقدته هو قبعتي التي سقطت أثناء المعركة فغنمها العدو وأوسعها ضرباً وركلاً وطعناً. وإن كانوا قد نكسوا عنها خائفين في البدء. ثم إنهم صاروا يتفقدون الجريح منهم والقتيل، فوجدوا جميعهم سالمين. (٤٩)

إنصرفت سالكاً الزقاق المؤدي الى (سانتا ماريا نوفللاً) (٥٠). فإذا بي وجهاً لوجه والراهب (اليسو ستروزّي Alesso Strozzi) (٥١) ولم يكن لي به سابق معرفة. إلا إنني إستجرت به وإستحلفتته بحجة الله التي تجمعنا أن ينقذ حياتي لأنني إرتكبت إثماً عظيماً. فأجابني الراهب الشهم: "لا خوف عليك البتة. حتى لو إرتكبت أعظم معصية وكل شر في هذه الدنيا فإنك ستكون آمناً في صومعتي".  
وبعد حوالي الساعة عقد مجلس الثمانية إجتماعاً خاصاً وأصدر لائحة إتهام مريعة بحقي لم يسبق أن أصدر مثلها من قبل مهدداً بأشد العقاب كل من يأويني أو يعرف مكاني ولا يخبر عني دون أيّ إعتبار لمركزه الإجتماعي أو وظيفته، ويصرف النظر عن صفة المكان الذي أختفي فيه. فقصد أبي المسكين المنكوب شأن الوالد الطيب - دار القضاء وجثا أمام القضاء مسترحماً الرأفة بإبنة الفتى البائس. فنهض واحد من هؤلاء ذوي الرؤوس الحارة منتصباً ووجه الكلام البذيء لأبي التاعس وهو يهزّ عغيرة قلنسوته ذات التلايف:

- قم! أخرج من هنا فوراً. فغداً سوف نرسل إبنك الى ساحة الإعدام.

(٤٩) هذا غير صحيح فإن چليني أصاب (جيراردو غواسكونتي) ورجلاً آخر بجرح بليغ جداً. فحكم عليه مجلس الثمانية بالموت. (أنظر باجي ص٣٢).

(٥٠) سيأتي الكلام عن هذه الكاتدرائية فيما بعد.

(٥١) هو الذي غدر فيما بعد بالراهب (بنوتو دي فوياتو) وسيأتي الكلام عن ذلك.

فأجاب الوالد المسكين بصرامة وأنفة:

- إنكم ستعملون بمشيئة الله لا أكثر.

فأجاب القاضي:

- إن ما قلتُه هو الذي رسمه الله بالتأكيد.

بالأخير قال له الوالد "إن سلواي هي إنك لاتدري ماهي مشيئة الله" ثم خرج وبدء يفتش عنيّ مع (بييرو ابن جيوفاني لاندي) أحبّ أصدقائي وأقربهم، ذلك الذي ينزل في نفسي منزلة الشقيق بل وأكثر. أخفى بييرو تحت عباءته سيفاً بتّاراً وزرداً محبوكاً وبعد أن عثرا عليّ أفضى اليّ والذي الجسور بما آلت إليه الأمور وما قال له القضاة. ثم طبع قبلة على جبينني وكلتا عينيّ ومنحني بركته الأبوية قائلاً:

- فلتعتصم بقوة الربّ وليكن في عونك.

ثم شدّ الحسام في وسطي وساعدني على إرتداء الزرد وأضاف يقول:

- ولدي الحبيب. أنت يهذين صرت مستعداً إمّا للحياة وإمّا للموت.

ولم يستطع (بييرو) حبس دموعه فقد ظلت تسيل على خديه طول الوقت وكان قد جاءني بعشرة كراونات. فطلبت منه إن ينتف شعرات من ذقني وهي بواكير لحيتي - جلباً للحظّ. ثم ألبسني الراهب (أليسو) مسوح الرهبان وأرفق بي أحد الرهبان المقيمين دليلاً ومرافقاً. فتركت الدير وإجتزت باب پراتو راجلاً على طول أسوار المدينة الى ميدان سان گاللو San Gallo، ثم توقّلت سفح (مونتوي Montui) وفي واحد من أول المنازل بلغتها وجدت المدعو (گراسوجيو Grassucio) وهو أخّ للسيد (بندريتو دا مونتوي فاركي Banderetto da Monte Varchi) (٥٢) فأسرعت حالاً أخلع مسوح الرهبان وعدتُ مدنياً مرةً أخرى ثم امتطينا الجوادين المهيبين لنا وإنطلقنا في رحلتنا الليلية الى (سيينا) وفيها ودّعني (گراسوجيو) وعاد الى فلورنسا مبشراً والدي بسلامة وصولي. فكاد الوالد يخرج عن طوره من الفرح. ولم يصبر بل أسرع يفتش عن عضو مجلس الثمانية الذي أهانه وأوسعه شتماً وقد خال الفترة دهرًا حتى التقى به فبادره قائلاً:

- أرايت يا أنطونيو؟ الله وحده يعلم ما حصل لأبني لا أنت.

فأجابه هذا:

- صبراً صبراً. وسترى عندما نضع أيدينا عليه مرةً أخرى.

فقال الوالد:

- في خلال ذلك سأبقى شاكرًا لله لأنه أنقذه منكم.

(٥٢) الشاعر الشهير والأديب والمؤرخ (١٥٠٣-١٥٦٥) ويعرف عادة بإسم (فاركي). كان صديقاً وفيّاً لجليليني فكتب فيه مرثية عندما بلغه خبر وفاته الكاذب. وما يذكر له بالفضل إمتناعه عن إجراء اي تنقيح في هذه المذكرات التي أرسلها له لجليليني ليرى فيها رأياً.

وفي (سيينا) إنتظرت ساعي بريد روما. حتى إذا وصل إنضممت إليه وبعد عبورنا ياليا Paglia<sup>(٥٣)</sup> إلتقينا بالرسول الذي كان يحمل نبأ انتخاب الپاپا الجديد وكان الپاپا كليمنت<sup>(٥٤)</sup>. ثم بعد أن وصلت روما رحت أبحث لي عن عمل فوجدته في دكان صياغة يعود للأستاذ (سانتي Santi) الذي كان قد توفي وحلّ محله أحد أبنائه. ولم يكن هذا الإبن يزاول الحرفة وإنما أوكل العمل بها الى شاب من (ييزي Jesi) يدعى (لوكانبولو Lucagnolo) قدم من الريف غلاماً صغيراً وتلمذ على الأستاذ (سانتي). كان (لوكانبولو) هذا شاباً قصير القامة متين الألواح شديد العضل. لم أجد بين الصنّاع من يدانيه في المهارة والإبداع وفي أسلوبه بالعمل الخالي من التعقيد المتميز بحسن الذوق وسموّ الخيال. إلا أنه قصر دائرة عمله على القطع الكبيرة كالأواني والمزهريات الجميلة والقصاع وماشاكلها. بعد مباشرتي العمل. أوكل اليّ عمل شمعدانات لأسقف (سلامنكا Salanmanca) المواطن الإسباني. وقد أثقلتها بالزخارف والنقوش كما يقضي به الذوق السائد في ذلك الوقت. وما حصل بعدها أن تلميذاً لـ(رافائيل) يدعى (جيانفرانشيسكو)<sup>(٥٥)</sup> وبلقب عادة بـ(إل فاتوري Il Fatiore) وكان رساماً مجيداً تعرّف بي فوقع في نفسه موقعاً حسناً وشملي بعطفه وكان صديقاً حميماً لـ(مزكاتي) أسقف (سلامانكا) هذا<sup>(٥٦)</sup> ويفضل ذلك كلفت بإشغال عديدة من قبل أعيان المدينة وجهائها فزاد الله في رزقي وربحت مالاً كثيراً.

في تلك الأيام كنت معتاداً الذهاب للرسم أحياناً في كاپيلا ميكالنجلو<sup>(٥٧)</sup> وأحياناً في منزل (أغستينو كيجي Agostino chigi) السييني<sup>(٥٧)</sup> حيث كان ثم مجموعة كبيرة من اللوحات والصور الجميلة من ريشة الرسام العظيم (رافائيل الأوربيني). كنت أختلف الى المنزل في أيام الأعياد فحسب لأن (جيزموندو Gismondo) شقيق (اگستينو) كان يسكن فيه. وكان أصحاب المنزل يتباهون ويفخرون حينما يشاهدون شباباً من أمثالي يقصدون منزلهم للدراسة .

وفي ذات يوم دنت مني زوجة السيد جيزموندو التي كانت قد رأنتني أختلف الى المنزل كثيراً. وأخذت تتأمل رسومي ثم سألتني أنحات أنا أم رسّام وكانت سيده في غاية الجمال والظرف ولما قلت لها إني صانغ أجابت أن يدي يد رسام أكثر منها يد صانغ.

ثم أمرت واحدة من وصيفاتها بجلب حلية ذهبية على شكل زنبقة جميلة مكفتة بالماسات فعرضتها عليّ وطلبت مني تقويمها فقدرتها بثمانمائة كراون. فقالت هذا سعرها بالضبط ثم سألتني عما إذا كنت

(٥٣) نهر يقع جنوب مدينة أورفييتو.

(٥٤) أعني أن چليليني كان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وعشرين عاماً.

(٥٥) جيانفرانشيسكو پني (١٤٩٦-١٥٣٦) رسام فلورنسي وتلميذ رافائيل المفضل ووارث جزء من تركته. اجتهد هو و(گويليو رومانو) في إكمال بعض صور رافائيل التي تركها ناقصة. أنظر سيرته في (فاساري ج: ٤).

(٥٦) هو فرانشيسكو بوبادللأ قدم روما في ١٥١٧ للمشاركة في مجمع اللاتيران. وكان مع الپاپا كليمنت السابع في حصن سان أنجلو أثناء حصار ١٥٢٧.

(٥٧) وهي كاپيلا سستيني المشهورة. أما منزل (كيجي) فقد تم بناؤه في حدود ١٥٠١ وفق تصاميم وضعها (بيبروزي). وبعد العام (١٥٨٠) عرف القصر بإسم فيلا فارنيسينا Villa Farnesina.

أجد في نفسي المهارة الكافية لإعادة تكفيت الأماسات بحلية جميلة حقاً. فقلت أن ذلك ليسعدني. وشرعتُ وهي واقفة أرسم مخططاً للحلية صغيراً وقد ركبني الزهو من فرط إستمتاعي بالحديث مع مثل هذه السيدة البارعة الجمال والعالية الخلق. بعد أن فرغت من الرسم إنضمت إلينا سيدة رومانية أخرى في غاية الملاحظة. نزلت من الطابق الثاني وسألت (المادونا پورشيا) عمّا يشغلها<sup>(٥٨)</sup> فأجابت وهي تبتسم:

- إني أستمتع بمتابعة هذا الشاب المهذب وهو يرسم. إنه حسن الخلق قدر ما هو وسيم. عادت اليّ الجراءة فجأة ومع أنها كانت مشوبة بشيءٍ من التواضع الحقيقي فقد كسا وجهي إحمراراً وقلت:

- كيفما أنا ياسيديتي، فسأبقى دوماً رهن إشارتك بل وأكثر من متلهف لخدمتك.

فكسا وجه السيدة الفاضلة إحمرار الحجل بدورها وقالت:

- بالتأكيد إني أرغب في ذلك.

ثم دفعت اليّ بالزنيقة وأشارت بأن آخذها معي ثم نقدتني من جيبتها عشرين كراوناً وأردفت تقول:

- صغ الحلية وفق التصميم الذي رسمته واحتفظ لي بالذهب القديم الذي ينتظم الأماسات.

فتدخلت هنا السيدة الأخرى بقولها:

- لو كانت رجلاي في هذا، هذا الفتى، فلن أتردد في أن أعدو قاراً بهذه الغنيمة.

فردت (المادونا پورشيا) قائلة إن الفضائل يندر أن تجتمع بالذائل في شخص واحد وإن أقدمتُ على

مثل هذا العمل سيكون مناقضاً تماماً لوجهي الوسيم ومظهري الموحى بالأمانة. ثم دارت على

عقبها وقد أمسكت بيد السيدة الأخرى وقالت وهي تبتسم بعدوية:

- مع السلامة يا بنقنوتو!

قضيت جانباً من الوقت في الرسم الذي كنت أعمله منقولاً عن صورة (جويتر) في لوحة رافائيل

الأوربيني.<sup>(٥٩)</sup> وبعد فراغي عدتُ لأصنع نموذجاً شمعيّاً صغيراً للحلية المقترحة لكي تكون السيدة

فكرة حقيقية عما ستبدو به عند الفراغ منها وأخذته إليها وكانت السيدة الأخرى موجودة وقد سر

كلتاها بما عرضت ومدحتاني الى الحد الذي بثّ في نفسي الجراءة على التعهد بأن تكون الحلية أجمل

من نموذجها ضعفين.

شرعت في صياغتها. وبعد إثني عشر يوماً أكملتتها وكانت كما ذكرتُ قبلاً على شكل زنيقة

زينتها بصور أوجه وملاتك صغيرة وحيوانات كلها مطعمة بالمينا لتبدو الأحجار الأماسية التي تؤلف

الزهرة بأبهى مظهر من جمالها.

(٥٨) إن زوج چيزموندو كيجي تدعى سولپيشيا Sulpizia وهي شقيقة پورشيا (أنظر باكي ص٣٩) والقصر في الواقع يعد

آية من آيات الرينسانس المعماري. واللوحة التي يشير إليها جليليني هي لرافائيل رسمها في ١٥١٧ في سقف

القاعة الأولى.

(٥٩) يبدو هذا الوجه الآن في تلك اللوحة التي تمثل (كيبويد وپساكي) في القصر نفسه.

أظهر (لوكانبولو) الصانع القدير الذي تحدثت من قبل عن براعته -الإستخفاف بعلمي أثناء قيامي بصياغة الحلية، وقال إن هذا مضيعة للوقت وظلّ يردد على مسامعي بأنني سأجني شهرة وربحاً يزيدان كثيراً عما أجنيه الآن لو إنني واصلت معاونته في صياغة مزهرياته الكبيرة كما كنت أفعل سابقاً. فكان جوابي على هذا قولي إنني قادر على الصياغة في هذا المجال عندما أشعر برغبة في مزاولته. إلا أن ما أشتغله الآن لايتأتى للمراء كل يوم. ومهما يكن من أمر فالشهرة التي تتأتى منها لاتقل عن الشهرة المتأتية من عمل مزهرياته الفضية الكبيرة. بل وإن ربحها أكثر بكثير. ووجد (لوكانبولو) ما اقوله سخيفاً ومدعاة للضحك وقال:

- ستدرك الحقيقة يا بنقنوتو. ذلك لأننا بدأنا العمل في وقت واحد أنت بالحلية وأنا بالمزهرية. وسأتعجل في عملي به حتى نفرغ منهما في وقت واحد وعندئذ سيتضح لنا النتيجة من مقدار ما سأحصل عليه من مزهريتي، ومن مقدار ما ستكسبه من حليتك.

فأجبت إن المباراة مع صانع قدير مثله تورثني أعظم السرور وسررى أينا المصيب في آخر الشوط. وتبادلنا إبتسامة إستخفاف وانكب كل منا الى عمله بإصرار ومثابرة. ولم تمر عشرة أيام قضيناها متحرقين مشتاقين الى الخاتمة كما تسري الحمى المحرقة في الجسم، إلا وأخرجنا قطعتين فنيتين في غاية الأناقة والجمال. كان ما أخرجته يد زميلي إناء كبير الحجم أوصى بصنعه الپاپا كليمنت ليوضع على مائدة طعامه لترمى فيه العظام وقشور الفاكهة والفضلات المتخلفة وهو للمظهر والزينة أكثر منه للحاجة. وقد زين بيدين جميلتين ودارت حوله صور صغيرة وكبيرة وزخارف نباتية مُتشابكة. كان عملاً رائعاً دقيقاً إنتزع مني إقراراً بأنه أجمل ما وقعت عليه عيني من نوعه. وخيل لـ(لوكانبولو) بعد هذا الثناء أنني إعترفت بخطئي ونزلت عن رأبي فقال:

- حليتك في نظري لاتقلّ جمالاً عن إنائي. إلا أننا لن نلبث أن نتبين الفرق بين الأثنين. ثم حمل إناء الى الپاپا، فحاز رضاه التام وأمر أن تدفع له أتعابه في الحال مقدراً بحسب التعرفة المصطلح عليها في السوق. أما أنا فأخذت حليتي الى المادونا (پورشيا) فذهلت حين وقعت أنظارها عليها وأكدت لي أن عملي فاق وعددي بمراحل. ثم أردفت تقول:

-أطلب ما تشاء من أجر. فما تستحق في إعتقادي كثيرٌ ولو منحتك قلعة لما كانت كافية. وعليك أن تطلب شيئاً لا أعجز عنه.

وإبتسمت وإستطردت تقول:

- على أية حال أطلب ما أستطيعه.

فأجبتها إن أفضل مكافأة عندي هي أن أرى كم هي راضية. ثم إبتسمت وإنحنيت بإحترام وقلت وأنا أهم بالإنصراف:

- حسبي هذا الجزء.

فإلتفتت الى صاحبته وقالت لها:

- رأيت الآن أي نوع من الخلق رافق الفضائل التي حكمننا بأنها تكمن فيه؟ هذا الخلق لايمت الى

الرديلة في شيء.

لقد أدهشهما مسلكتي حقاً. وأضافت مادونا بورشيا تقول:

- عزيزي (بنقنوتو) أسبق لك أن سمعت القول المأثور؟ عندما يتصدّق الفقير على الغني، يضحك إبليس!

فأجبت:

- مع هذا فقد واجه إبليس كثيرًا من المتاعب وسوء الحظ، وإني لأريد أن أراه يضحك هذه المرّة فحسب.

على أنها عقبت على قولي وأنا أهمّ بالإنصراف إنها لا تعترم هذه المرّة أن تعطف عليه.

عدت الى الحانوت فوجدت (لوكانيلو) ومعه المبلغ الذي دفع له ثمن الإناء في صرّةٍ وما أن دخلت حتى ابتدرني بقوله:

- تعال هنا ودعنا نقارن مادفع لك عن حليتك بما دفع لي عن إنائي.

فطلبتُ منه إبقاء نقوده حيث هي حتى يوم الغد قائلاً إن حليتي في إعتقادي هي بين أمثالها تعادل في الجمال إناء بين أضرابه. ولذلك فأنا أتوقع أن لا أنال من الأجرة ما يقلّ عن أجرته.

في اليوم التالي أرسلت (مادونا بورشيا) واحداً من رؤساء خدامها الى حانوتي فدعاني الى خارجه ووضع في يدي صرّةً مفعمة بالمال. مصحوبة برسالة من سيدهته فيها تقول إنها لا تقبل أن يضحك إبليس لنفسه. ومن بين الثناء المستطاب المدير يمثل هذه السيدة قالت إن ما أرسلته لي لا يوازي الأجر الذي أستحقه بل يسوى أكثر. ومرت الدقائق كالدهر على (لوكانيلو) قبل أن يغدو وفي وسعه مقارنة مكسي بمكسيه. وإن دفع الى داخل الحانوت حيث إجتمع أكثر من عشرة من الجيران والشغيلة بداعي الشوق الى نتيجة الرهان ورفع صرته وهو يضحك ضحكة الهازيء ويصيح "بخ، بخ، بخ" ثلاثاً أو أربعاً. ثم أخرج النقود وأنشأ يقلبها ظهراً لبطن وأسقطها على المنضدة برنين وضوضاء. وقد بلغ مجموعها خمسة وعشرين غويليو Guilio، طانا بأن ما حصلت عليه لا يتعدى أربعة أو خمسة كراونات كبيرة<sup>(٦٠)</sup>.

ويبرودة دم لم تؤثر فيها صيحاته أو إبتسامات المتفرجين وأنظارهم الحديدية. إختلست نظرة الى محتويات صرتي فوجدتها تغصّ بالنقد الذهبي. فسرتُ الهوينا الى المنضدة ونظري مصوّب الى الأرض ثم رفعت صرتي بكل هدوء وتركت قطع الذهب تتساقط على المنضدة كما ينسكب الدقيق من فم الطاحونة. وأحصى المبلغ فإذا به ضعف مانال (لوكانيلو) ونتيجة هذا تحولت كلّ الأنظار التي كانت ترمقني بإستخفاف الى (لوكانيلو) حالاً. وراح الجميع يقولون:

- لقد دفع أجر (بنقنوتو) بالذهب. وهي تعادل ضعف ما تقاضيته من أجور. بالمنظرها المهيب الذي يفوق منظر نقودك!

خيّل لي أن صاحبي المسكين سيسقط ميتاً من فرط الخجل والغيرة. في الواقع أن ثلث أجري هذا،

(٦٠) يطلق على العملة الرائجة إصطلاح di Maneto وهو المقصود هنا.

هو له بحكم وجودي في حانوته فالعادة جرت أن ينال الصائغ ثلثي الأجر ويذهب الباقي الى صاحب الحانوت. إلا أن حسده المحرق تغلب على طمعه في حين كان منطوق الأمور يقضي بعكس ذلك، إذا أدخلنا في حسابنا أن (لوكانبولو) هو ابن لفلاح من (بيزي) ليس إلا. راح يلعن صنعيته ويشتم الناس الذين لقنوها له. قائلاً إنه سيكف بعد اليوم عن صنع هذه الصحف الكبيرة وسينصرف بكلّيته إلى عمل هذه التوافه القذرة الصغيرة التي أقوم أنا بصنعها مادام ربحها كثيراً بهذا الشكل. ولم يكن غضبي من كلامه بأقل منه فرددت عليه بقولي: كل طائر يصدح بأنغامه الخاصة. وكلامه إنما يدل على منبته الوضع. وتحديثه مؤكداً بأنني قادر على تحقيق أعظم النجاح في صنع توافهه الفاجرة التي تخصص فيها في حين يتعذر عليه مجاراتي أو بلوغ مهارتي في صنع توافهه الفاجرة الدقيقة. قلت هذا ودرت على عقبي غاضباً ومتوعداً إياه بما سيرى مني في القريب العاجل وأنشأ الحاضرون ينحون عليه باللوم ويرمونهُ بالتقصير في حقي وبأنه لا يسوى شروى نقير في حين أثنوا عليّ لأنني برهنت على إني الرجل الجدير بالإعتماد.

توجهت الى زيارة (مادونا بورشيا)<sup>(٦١)</sup> في يوم التالي لشكرها. وقلت لها إنها فعلت بعكس قول المثل. فحين أردت أنا إضحاك أبلّيس، جعلته هي ينكر ربه ثانية. وضحكنا سوياً بنفس راضية. ثم إنها عهدت اليّ بالمزيد من العمل في صياغة حلي جميلة لها.

في عين الوقت تمكنت عن طريق تلاميذ (رفائيل) من حمل أسقف (سلامانكا) على تكليفي بطست كبير للماء وهو من النوع الذي يطلق عليه (اكويريجيا Acquereccia) ويستعمل كحليّة لخزانة أدوات المائدة. ورسم الأسقف أن يصنع له أثنان بحجم واحد وعهد بالثاني الى (لوكانبولو) واليّ بالأول. وقد زدنا بالتصميم الرسام (جيانفرانشيسكو) الذي نوهت بذكره.

تكرّم عليّ مواطن ميلاتي يدعى (جيوڤان پيسيرو تاكا Giovan Piero Taeca) بزواوية في حانوته. وباشرت العمل في الطست ببالغ الحماسة. قمت بحساب لنقودي فأخرجت منها ما يكفي لسدّ حاجاتي وأرسلت الباقي مساعدةً مني لأبي المسكين في فلورنسا.

وتشاء الصدفة أنه إلتقى وهو يتسلمها بواحد من أولئك المجانين أعضاء مجلس الثمانية عندما أثرت تلك الزوبعة الصغيرة. وهو عين الرجل الذي أهان الوالد وجرح شعوره وأقسم أنه سيصر على إرساله الى ساحة الإعدام. وكان أباً لأولاد لا نفع يرجى منهم ولهذا قال له الوالد ملامحاً بما يقرب من التصريح:

- البشر معرّض دائماً للسقطات ولاسيما للسريعي الغضب الذين هم على حق كإبني. إلا أن حياته منذ ذلك الوقت برهنت على إني أحسنت تربيته. وإني لادعو الله لأجلك، ليكون سلوك أبنائك تجاهك لا أسوء ولا أفضل من سلوك أبنائي معي. لقد علمني الله كيف أربيهم وأنقذهم من يدك الغاشمة من حيث لم تتوقع ذلك وحفظهم لي بعد أن خاننتني قواي.

(٦١) كان زوج هذه السيدة مصرفياً شهيراً لا في إيطاليا وحدها بل في أوروبا والشرق. فضلاً عن كونه من هواة الفن المتحمسين وقصره هذا الذي بُني بتصميم وإشراف بيروزي (١٥٠٨-١٥١١). كان منتجاً للباپاوات والكرادلة.

ويعد أن تركه كتب لي يخبرني بكل ما وقع له، وإستحلفني بحبّ الله أن أمارس قليلاً من الموسيقى بين آن وآخر كيلاً أضيع هذا الفن الرفيع الذي عانى الأمرين في تلقيه لي. وكانت رسالته حافلة بعبارات رقيقة للغاية يُعرب فيها عن حُبّه الأبوي حتى أن عينيّ إخضلتنا بالدموع وصممت على أن أسعده فيما يتعلق بالموسيقى قبل أن يحين أجله. والله لايتوانى عن تحقيق الرغبات النبيلة للبشر حين تطلب منه بإيمانٍ راسخ وإخلاص.

لم يكن معي أثناء إشتغالي بطست (سلامانكا) الجميل غير صبيٍّ مساعدٍ. إتخذته خلفهً نزولاً عند إلمح بعض الأصدقاء وخلافاً لرغبتني وكان يدعى (پاولينو Paulino) لايتجاوز عمره الرابعة عشرة. وهو ابن رجل من أهالي (روما) يعيش على مدخولاته الخاصّة. كان (پاولينو) هذا يتمتع بأعلى خلق، وبإستقامة لانظير لها، وصورته في غاية الوسامة مما لم أقع على مثيل له من قبل. إن دمائه وحسن تربيته، وجمال صورته وحبه الشديد لي، دفعني الى التعلق به الى درجة صعب عليّ احتمالها. أحببته حباً جنونياً بحيث وجدته مدفوعاً الى مزاوله الموسيقى مجدداً لأجله فقد كان ذلك يسعده ولكي أتمتع بالتأمل في قسمات وجهه وهي في العادة حزينة صارمة. فما أن يصدح الناي بأنغامي حتى يشيع البشر في وجهه وتنفرج قسماته عن إبتسامة خلّابة عذبة. فلا أعود أستغرب الأساطير السخيفة التي كتبها الأغرقيق عن آلهتهم. والواقع لو أن (پاولينو) ظلّ في قيد الحياة اليوم لأوحى بالمزيد والعجيب من أمثالها.

كان له شقيقة تدعى (فاوستينا Faustina) لا أظنّ (فاوستينا)<sup>(٦٢)</sup> الأقدمين التي نقرأ عنها في كتبهم بكثير من الضجّة، تفوقها جمالاً. وكنت معتاداً زيارة بستان كرومهم بين آن وآخر ومما إستنتجت إن أباهما وهو رجل فاضل في غاية النبيل ماكان يتردد في أن أكون حَتَنُ. كل هذا جعلني أزاول الموسيقى أكثر من أي وقت مضى خلافاً للعادة.

في ذلك الحين إتصل بي شخص يدعى (جياناكومو Gionia Como) وهو عازف ناي من مواطني (جيزينا)<sup>(٦٣)</sup> في خدمة الپاپا وكان موسيقياً بارعاً، أرسل لي رسالة بطريق (لورنزو) البوقي من (لوکا) الذي هو الآن في خدمة دوق فلورنسا، يسألني عما إذا كنت مستعداً لمساعدتهم في العزف بمناسبة عيد الفيرراگوستو Ferragosto<sup>(٦٤)</sup> لبعض الأدوار الدينية من الموتيت Motet<sup>(٦٥)</sup> الجميلة جداً مما اختاروه - على أن أتولى النفخ بطبقة الصيّاح<sup>(٦٦)</sup> في زرنای. فأبديت كامل استعدادي للإلتزام

(٦٢) فلاطيا ماكسيما فاوستا (حدود ٢٩٨-٣٢٦م) إمبراطورة رومانية زوج قسطنطين الأول لم تكن قوية الخلق أو عفيفة. وقد حُك عليها بالموت. وتمّ بتنفيذه خنقاً في حوض ماء حار. (هذا إن لم يكن قصد الكاتب إمراة أخرى غيرها).

(٦٣) Cesena: هي الآن بلدة تقع على مسافة مائة وعشرين كيلومتراً شمال شرق فلورنسا.

(٦٤) والأصل فيراي أوگستا Feriae Augsta وهو من أعياد روما المعروفة ويقع في الأول من آب كل سنة. ولايُعدّ الآن من الأعياد الشعبية الهامة.

(٦٥) قطعة غنائية تصاحبها الآلات الموسيقية وتُعرف أثناء القداس.

(٦٦) أي اللحن العالي الرفيع ويطلق عليه إصطلاح Soprano.

إليهم مع إنني كنت أتحرق شوقاً للفراغ من طست الأسقف. فالموسيقى فن رائع على أية حال وإنني لأرغب كذلك في مسرة الوالد. وقضينا ثمانية أيام في التمرين معاً قبل حلول العيد، كل يوم مقدار ساعتين. وفي اليوم المعين توجهنا الى (بلقديري Belvedere<sup>(٦٧)</sup>) ورحنا نعزف أدوار الموتيت التي كنا قد تمرناً عليها - أثناء ماكان الپاپا كليمنت يتناول الغداء. وقد أتقنا الأداء بشكل دفع قداسته الى الإقرار بأنه لم يسمع قط أداءً موسيقياً بمثل هذه البراعة والتناسق بين الآلات. ثم إستدعى (جيانا كومو) إليه وسأله كيف وأين عثر على نافخ حاذق بالزرنابي مثلي وإستفسر منه عن هويتي فأفضى إليه جياناكومو بكامل اسمي. فقال البابا مستغرباً:

- إذن فهو ابن الأستاذ جيوفاني؟

فأجاب (جياناكومو) بالإيجاب فأبدى الپاپا رغبته في أن أنضم إلى الجوق. فأجاب (جياناكومو) على هذا بقوله:

- بهذا لا أستطيع أن أعدك يا صاحب القداسة. لأن حرفته ومورد رزقه هو الصياغة وهي تستغرق منه كل وقته. وأضيف الى هذا أنه صانع من الدرجة الأولى وريحه من صنعته يزيد كثيراً عما قد يكسب من مزاوله الموسيقى.

- وإنني لهذه الصنعة التي لم أكن أتوقعها أزداد رغبةً في ضمّه الى خدمتي. أدفع له عين الأجر الذي يدفع للبقية. وقل له عني أنني مستخدمه وسأكلفه في حرفته الأخرى ما يجعله مشغولاً طول وقته. ثم دفع إليه بصره في منديل فيها مائة كراون ذهبي من سكة الپاپا الخاصة وقال له:

- وزّعها بالتساوي لينال (بنقوتو) حصةً كاملةً.

وإنصرف (جيانا كومو) من لدنه وأقبل عليّ ينقل لي كلام قداسته عني. ثم قسم المبلغ بين ثمانيتنا وأضاف وهو يسلمني أجري:

- سأثبت أسمك في عداد جوقنا.

فأجبتته بقولي:

- فلنرجي القضية الآن، وسأعلمك بقراري غداً.

وإفترقنا، وسرت في سبيلي وأنا أقلب الأمر من شتى وجوهه. هل أقبل أم أرفض. وصرت أفكر كم سيربكني الأمر لو أنني أنصرفت عن دراساتي الفنية. وفي الليلة التالية ظهر لي الوالد في حلم: وكان يبكي بلوعة ويتوسل بي أن أمضي في هذا السبيل الجديد حباً بالله وإكراماً له. وقد قلت له كما خيل لي ليس ثم قوة تحملني على ذلك. فتبدلت سحنته فجأة فإمتلأت رعباً وأنا أسمعته يقول:

- إن لم تطعني فإنك تعلم عواقب لعنة الأب وإن أطعت فياني سأصّب بركاتي عليك صباً.

عندما إستيقظت من نومي استولى عليّ خوف شديد فأسرعت لإثبات إسمي في الجوق وكتبت للوالد الشيخ بذلك. وإستطار فرحاً وصار يهذي وإعتل حتى أشرف على الموت. وكتب لي بأنه هو الآخر حلم حلاًماً مشابهاً.

(٦٧) مقصورة الفاتيكان بنيت على عهد الپاپاوين أنوسنت الثامن ويوليوس الثاني (١٤٨٤-١٥٣).

بعدها أرضيت الوالد الكريم بتحقيق ظنّه فيّ اعتقدت أن أموري ستسير من نجاح الى نجاح وإني سأتوقّل سلّم المجد والشهرة. فإنكبت على عملي في إناء أسقف (سلامانكا) أصل الليل بأطراف النهار. كان هذا الأسقف إنساناً عجيباً. فهو فاحش الغنى صعب الإرضاء جداً، دأب يومياً على إرسال شخصٍ للاستفسار عما أعمل. وفي إحدى المرات لم يجدني رسوله فتفجرت كوامن غيظه وحلف بأن يسحب العمل مني ويُنيطه بغيري لإكماله وكلّ ذلك هو بسبب الموسيقى لعنة الله عليها، فقد كنت أنفق أوقاتاً فيها.

على كلّ ثابرت على العمل به ليلاً ونهاراً حتى بلغت به المرحلة التي تمكنني من إراءته له. فكانت النتيجة أن زاد شوقه الى الإستعجال به وكثر إلحاحه حتى إني ندمت على عرضه. وبنهاية ثلاثة أشهر تمّ الإثناء، ويدا رائعاً إذ صيبت فيه كلّ مهارتي. حلّيته بنقوش عجيبة لصغار الحيوانات وأوراق النبات والأقنعة. ثم بعثت به فوراً صحبة غلامي (پاولينو) الى الصائغ الخبير (لوكانيلو). فأنهى إليه رسالتي الشفوية هذه برقته وسحره:

- أي سيدي (لوكانيلو) إن أستاذي (بنقوتو) يقول: كما وعدك في السابق. دونك نموذجاً من مكوراتك وهو الآن ينتظر منك أن تريه بعضاً من قاذوراته الحقيرة التافهة.

أمسك (لوكانيلو) بالإثناء وتأمله ملياً بنظر الفاحص الخبير ثم قال لپاولينو:

- ولدي الظريف. قل لأستاذك بأنه صائغ حاذق بارع. وإني لأرجو ان لا يبخل عليّ بصداقته ولتتناسّ الذي حصل.

فأبلغني فتاي بالرسالة فأفرحتني جداً. وأخذت الإثناء الى (سلامانكا) فأمر بأن يقوم وشارك (لوكانيلو) في التقدير ورفع ثمنه كثيراً وإمتدحه بشكل قد أعجز أنا عن مثله. ثم تناول (سلامانكا) الإثناء وقال مفصلاً عن طبعه الإسباني الغليظ:

- قسماً بالله لأؤخرنّ دفع أجره بقدر ما تأخر في صنعه.

لما سمعت قوله هذا غمّ على عقلي ورحت ألعن كل إسبانيا وكل من ينتصر لهذه البلاد أو ينتمي إليها.

من البدع التي إختراعته في الإثناء مقبض يتألف من قطعة واحدة أكثرت زخرفته وجعلته يقف منتصباً بواسطة نابض (زبرك) فوق الفوهة. وفي ذات يوم كان هذا الحبر يعرض الإثناء على بعض النبلاء الإسبان مهوواً وبعد ان ترك العزفة عيشت يد أحدهم بالمقبض الجميل النابض الرقيق ذلك عبثاً خشناً فإنكسر. ولما إطلع الأسقف على التلف أمر رئيس خدمه بحمله إلى الأستاذ الذي صنعه لإصلاحه فوراً ودفع الأجر الذي يسميه الصانع إن لم يتعطل فيه. وهكذا وقع الإثناء في يدي ثانية ووعدت بإصلاحه على الفور وأنجزته. كان قد جيء به قبل موعد الغداء. وقبل المغرب بساعتين دخل عليّ الرسول وهو يلعن ويصخب قائلاً إن (سلامانكا) لم يدعه في راحة وقد قطع المسافة اليّ ركضاً وتصيب عرقاً فالأسقف يريد أن يريه لبعض السادة. ولم يدعني الرسول أنطق بكلمة واحدة وكان يصيح بي ملحفاً:

- أسرع! أسرع! عجلّ عليّ بالآناء.

وأنا الذي كنت قد قررت إهتبال فرصتي ولم يكن لدي رغبة في تسليمه له. قلت إنني غير مستعجل. فضاقت نفس رئيس الخدم وإشتد غضبه وأتى حركة كمن يهيم بتجريد سيفه بواحدة من يديه، وشق طريقه الى داخل الحانوت عنوةً بيده الأخرى فأسرعت الى إعتراض سبيله وسددت سلاحي إليه وصحت به صيحة شديدة:

- لن أدعه يخرج من يدي. أذهب فقل لسيدك الخبر أن يدفع لي أجري المستحق وإلا فإنه لن يراه.

وتبين له إن تهديده لاجدوى فيه فلجأ الى الملاينة وأخذ يتوسل بي وكأنه يتضرع تحت قدمي الصليب ويذلل الوعود مؤكداً إنه سيتعقب بنفسه مسألة تسديد أجوري لو اني سلمته الآناء الآن. إلا إنه لم يزحزحني عن موقفتي. وظللت أردد ماقلته سابقاً بأني سأعيده عندما أتسلم أجوري كاملةً. أخيراً ينس مني وأقسم بأنه سيعود على رأس مايكفي من الاسبان لتقطيعي إرباً. ثم أسرع يعدو وتركني وأنا مصمم على الدفاع حتى الرمح الأخير. ذلك لأنني كنت مصدقاً ما سمعته عن الروح الإعتدائية والطبيعة الفتاكة التي أثرت عنهم. فحشوت طبنجة صغيرة ممتازة كنت أصطاد بها وقلت لنفسني:

- لقد سرقني ملكي وأتعابي وسأبيع منه حياتي أيضاً.

وفيما كنت على هذه الحال من القلق ظهر على المرسح أسبان جنباً يقودهم ضابط أمرهم بصلافة إسبانية أصيلة أن يقتحموا الدكان ويستولوا على الإناء ويوسعوني ضرباً. عندما سمعت هذا شهرت سلاحي الناري وصحت بهم:

- الويل لكم أيها اللؤماء الفجرة. أبهذا الشكل إذن تنهبون الدكاكين والمنازل في مدينة مثل روما؟ أي لص منكم يهيم بالتحرك نحو هذا الباب سأرديه قتيلاً.

ثم سددت فوهة سلاحي الى صدر الضابط كأني أهم بإطلاق النار وأصفت:

- وأما أنت يا رئيس الحرامية. فستكون أول ضحية.

فما كان منه إلا وأعمل مهمازه في خاصرة حصانه. وفرّ هارباً لايلوي. وخرج كل الجيران على الضجة فضلاً عن بعض السادة من عابري السبيل وإجتمعوا ينتخي بعضهم بعضاً قائلين لي:

- أقتل الفجرة اللئام ونحن ظهير لك.

وأحدثت اللهجة الحماسية المخلصة التي شاعت في هذه العبارة أثرها في الأسبان فإمتلكهم رعبٌ عظيم ولم يسعهم إلا الإنسحاب. وبناء على ما وقع لم يكن ثم بد من أن يقصوا على الأسقف الحكاية. وكان رجلاً سريع الغضب فإنهال على الخدم والجنود تأنيباً وتقريعاً أولاً لمحاولتهم إرتكاب مثل هذا الإعتداء. وثانياً لأنهم بعد أن أقدموا عليه لم يمضوا فيه حتى النهاية.

ثم وصل الرسام الذي كان وسيطاً في العمل وقد طلب منه الأسقف أن يقصدني ويبلغني عنه هذه الرسالة: إن لم أسلم الإناء فسيجعل مني أشلاء وأوصالاً أكبرها أذني. وإن جئته به فسينقذني أجري في الحال. إلا أن هذا التهديد لم يرهيني ولم يحرك شعرة في رأسي وأفهمت الرسول بأني سأعرض

الأمر على البابا دون تردد.

في النهاية تلاشى غضبه وزال خوفي. وقطع لي بعض النبلاء في روما عنه عهداً بأنه سيدفع أجري ولن يلحق بي أي أذى. فتسلحت بخنجرٍ ماضٍ وأرتديت زردتي وأخذت سمتي إلى قصر الأسقف. دخلت يتبعني (پاولينو) حاملاً الإناء الفضي فوجدت كل من في القصر قد تجمعوا وهم في الإنتظار. دخلت وكأني أمرٌ خلال دائرة البروج السماوية. أحدهم بدا كالأسد، والآخر كالعقرب وثالث كالسرطان وهكذا إلى إن وجدتني أواجه الكاهن الوغد ذاك، فأنشأ يقذف بصاقاً من الشتائم كالسيل الدافق مما ينتظر من أي كاهن إسباني. إلا إنني كنت أحرق في الأرض وأبيت أن أنطق بكلمة. الأمر الذي زاده هياجاً وإنفعالاً. ثم أمر بأن يؤتى بأدوات الكتابة وأشار بأن أكتب بخط يدي مايفيد إنني راضٍ تماماً بالأجور المدفوعة لي. وهنا رفعت رأسي وقلت: بكل طيبة خاطر سأكتب ذلك عندما أرى شكل نقوده. فغلت مراجل غيظه ونفرت الدماء من وجهه. وأنشأت التهديدات والمناورات بلا نهاية. على إنني أستوفيت أجري وكتبت إقراراً بذلك وخرجت راضياً مغتبطاً.

بعد هذا أبلغ البابا بالحكاية. وكان قد رأى الإناء قبلاً دون أن يذكروا له هوية صانعه. دُهِش ورفعني بمدحه والثناء عليّ إلى السماء وصرح علناً بأنه يكن لي وداً خاصاً. وبتنتيجة ذلك أدرك أسقف (سلامانكا) الأسف على ما بدر منه تجاهي وحاول المصالحة بواسطة الرسام نفسه وإعادة علاقتنا كالسابق ووعد بتكليفني بأشغال هامة له. فأجبت إنه ليسرني سماع هذا القول لكن شريطة أن يكون الدفع مقدماً. ووصل هذا الحديث أيضاً إلى أسماع البابا وجعله يضج مقهقهاً. وحدث الكردينال (چيبو Cibò) (٦٨) الذي كان عنده في تلك المناسبة بحكاية الشجار مع الأسقف. ثم إلتفت إلى أحد موظفيه وطلب منه أن يعهد إليّ بأشغال اللبلاط باستمرار. ويعث الكردينال (چيبو) في طليبي فتبادلنا الطلي الشيق من الأحاديث وفي الختام عهد إليّ بصنع إناء كبير له يفوق حجماً ذاك الذي صنعه للأسقف. كما كلفني الكردينال (كورنارو Comaro) (٦٩) بعمل إناء آخر مثله وتبعهما عدد كبير آخر من الكرادلة أخص بالذكر منهم الكردينالين (ريدولفي Ridolfi) و(سالفياتي) (٧٠) فقد عهد إليّ بأعمال. وجنيت من ذلك أرباحاً كثيرة.

نصحتني (مادونا پورشيا) التي أسلفت ذكرها بإتخاذ دكان مستقل. فعملت بإقتراحها. ولم أتقاعس قط عن خدمة هذه السيدة الكريمة الرفيعة الخصال فكانت تجزل لي العطاء. في الواقع إنني على أغلب تقدير مدين لها بذبوع صيتي وإشتهار أمري. وفي تلك الفترة تعرفت بالسينور (گابريلي چيزيرينو Gabriele Ceaserino) (گونفالونير روما) (٧١) وتمت بيننا صداقة حميمة. فصنعت له تحفاً كثيرة،

(٦٨) نوه چليني بهذا الإناء وإناء سلامانكا في رسالته. وچيبو هو ابن أخ لليون العاشر.

(٦٩) هو ابن أخ ملكة قبرص. توفي في البندقية إذ لجأ إليها هرباً من الطاعون.

(٧٠) كلاهما من أبناء إخوة البابا ليون العاشر.

(٧١) گونفالونير لقب حاكم روما. وربما كانت هذه الميدالية هي عين الميدالية المحفوظة في متحف فيينا (أنظر بلون، ص ١٤٠).

من أبرزها ميدالية كبيرة من الذهب تُبَتَّت في مقدمة القبعة. نُقِشت عليها صورة (ليدا Leda)<sup>(٧٢)</sup> وبجعتها. وكان إغتيابها بها يفوق الحدود وأصرَّ على أن تُقَوِّم لثلاثاً يغمط حقي ولا أنال الأجر الذي أستحقه. وبسبب دقة صنعتها غالى أرباب الصنعة في تقدير قيمتها بحيث فاق ماتوقعته بمراحل. فبقيت في يدي ولم أحصل على شيء لقاء أتعابي. وعانت عين المصير الذي عاناه إناء (سلامانكا) على أنني لن أتطرق إلى هذه الحكايات لثلاثاً تأخذ الحيز الذي خصصته للأهم.

ومع أن ما أنا في سبيله قد يعتبر شذوذاً عن الحرفة التي إمتهنتها. فأنا أريد أن أكتب حول كل ناحية من نواحي حياتي. ولذلك عليّ أن أرسّم بإيجاز وإقتضاب صوراً للقاريء. لحوادث أخرى من حياتي دون الدخول في التفاصيل. الحاصل في صبيحة عيد القديس يوحنا<sup>(٧٣)</sup> كنت أتناول طعام الغداء مع عدد كبير من أهل بلدي منهم الرّسام والنحات والصائغ وغيرهم من مختلف الصناعات الأخرى. وكان بين البارزين فيهم الرّسام روسو<sup>(٧٤)</sup> وجيانفرانشيسكو تلميذ رافائيل الأوربيني عملت على جمع سائرهم من غير دعوة رسمية ورحنا نلهو ونمزح فيما بيننا جرياً على عادة الناس في مثل هذه الأعياد الكبيرة. وإتفق أن مرّ بنا وسط هذا الإحتفال جندي خفيف العقل أبله من كتيبة (ريينزو دا چيري Rienzo da Ceri)<sup>(٧٥)</sup> فدنا منّا يتسمع إلى لهونا وأخذ يسخر منّا ويصبّ الشتائم على الفلورنسيين. ولما كنت صاحب الدعوة وهؤلاء السادة الموقرون ضيوف عندي فقد عدت الإهانة موجهة إليّ شخصياً. فخرجت بخفة ومن دون أن يلحظني أحد ثم إعترضت سبيله. وكان يقف إلى جانبه بغيّ وهو ماضٍ في سخره السمج بقصد إضحاكها. قصدته رأساً وسألته عما إذا كان هو ذلك الفتى الذي يجد في نفسه الجرأة الكافية لسبّ الفلورنسيين؟ فأجاب في الحال:

- أنا هو ذلك الرجل.

فرفعت يدي وأهويت على وجهه بلطمة وأنا أقول:

- إذن فأنا هذا الرجل!

ويلمحة عين كان سيف كل منّا في يده. وما كدنا نبدأ نزالنا حتى فرّق الناس ما بيننا وكلهم منحاز إلى جانبي. فقد رأوا بأمر أعينهم إني صاحب الحق.

في اليوم التالي جاءني منه دعوة للبراز. فتقبلتها بكل شوق قائلاً إنه لعمل أستطيع أن أنفض منه يدي بوقت أسرع بكثير من إنجاز أي عمل آخر يمّ إلى حرفتي المعتادة. وقصدت لتوي رجلاً متقدماً في العمر عالي الخلق يدعى (بيفيلاكوا Bevilacqua) أثار عنه أنه كان أبرع حملة السيف في إيطاليا. خاض أكثر من عشرين معركة في زمانه وخرج منها جميعاً مرفوع الرأس. هذا الرجل القويم

(٧٢) في أساطير الإغريق هي زوج تياندر ملك سبارطة، تعلق بها جوبيتر الذي جاءها على هيئة بجعة فولدت له كاستور وبوللوس وهيلين وكليمنتسترا.

(٧٣) أهم أعياد فلورنسا. لأن هذا القديس هو شفيع المدينة.

(٧٤) جيوفاني باتستا دي أياكوبو ري روسي (١٤٩٤-١٥٤٩) ولد في فلورنسا. وكلفه فرنسوا الأول ملك فرنسا بزخرفة قصر فونتينيلو.

(٧٥) واحد من رجال الحرب المغامرين المشهورين المرتزقة. وكان في ذلك الزمن قد باع خدماته من الفرنسيين.

الخلق كان من أخلص أصدقائي. وقد عرفني صائغاً إلا إنه كان يقوم بدور الوسيط في بعض المخاصمات العنيفة التي وقعت لي.

ما أن وقع نظره عليّ حتى هتف قائلاً:

- أي بنقنوتو العزيز لو وجب عليك أن تبارز (مارس) نفسه لما شككتُ بأنك ستخرج من النزال مشرفاً. عرفتك منذ سنين عدة فما وجدتك تختصم على الباطل.

وإتخذته شاهداً وإنطلقنا الى الموضوع المتفق عليه وكلانا مسلح. ولكن لم تُرق قطرة دمٍ فقد أقبيل خصمي وأعلن إنسحابه وخرجت بشكل مشرف. ولن أخوض في مزيد من هذه التفاصيل رغم طرافتها وغرابتها بين أمثالها لأنني أريد أن أقتصد في جهدي حتى أخصّ به فني؛ فهو السبب الذي يدفعني الآن للكتابة. وفي هذا المجال لدي الكثير الجدير بالحديث.

دفعني روح المنافسة الشريفة في صنع شيء أضاهاه به بل أتفوق حتى على ذلك الصائغ البارع (لوكانيسولو)، على ألا أترك في الوقت نفسه مزاولة فن الجوهريّة العجيب الذي تخصصت فيه. فأصبت في كلا الإتجاهين المال الكثير والشهرة التي هي أهم من الربح. وكنت أعتد على خيالي في التصميم غير مقلد أحداً.

في ذلك الزمن كان في روما مواطن بيروجي<sup>(٧٦)</sup> يُعرف بإسم (لاوتيزيو Lautizio) تخصص في فرع من الفن لا يضارعه فيه أحد في الدنيا هو صنع الأختام. والعادة جرت في روما أن يكون لكل كوردينال ختم خاص يُنقش عليه اسمه وشعاره بحجم كف غلام في الثانية عشرة مع بعض التهاويل والصور إضافةً الى شعاره كما أسلفت. والختم الجيد يسوي عادة مائة كراون وأكثر. وعادتني حمى المنافسة الشريفة لتدفعني الى مباراة هذا الفنان. وإن كانت الصنعة بعيدة كل البعد عن عالم الصياغة و(لاوتيزيو) هذا لم يكن يعرف فرعاً آخر من الفن غير حفر الأختام. بدأت أتمرن على الحفر وكان يكلفني جهداً ومشقة عظيمتين إلا إنني لم أكلّ بل مضيت قدماً ولم أقتصد في مجهودي، بحثاً عن المعرفة وإستجاباً للريح.

وكان في روما أيضاً فنان آخر من (ميلان) حاذق من الدرجة الأولى يدعى كارادسو Caradosso<sup>(٧٧)</sup> متخصص في الميداليات، يحفرها بالمنقّر على رقائق معدنية وغير ذلك مما يجري مجراه وكان يصنع الپياكسات Paxes<sup>(٧٨)</sup> يحفر نصف بارز وصوراً للسيد المسيح بطول اليد، يقطعها من رقائق الذهب الأبريز يصنعها بمهارة فائقة جعلتني أسلم له بالأستاذية في هذا الفن من دون قريع أو منازع. وكنت أشدّ شوقاً الى منافسته من أي فنان آخر. وكان ثمّ أيضاً أساتذة في صنع ميداليات من الفولاذ

(٧٦) بيروجيا: مدينة معروفة تقع في نصف الطريق بين روما وفلورنسا الى الشرق.

(٧٧) صانع ميداليات شهير يعرف عادة بإسم (أمبروجوفويا) ويخصوص حكاية چليني عن لقبه ورأيه فيه. راجع رسالته في الصياغة (ص١٧ و ٤٥ و ٥١).

(٧٨) رقائق معدنية صغيرة تنقش عليها صور القديسين والذخائر المقدسة تعلق كإيقونات في بيوت العبادة بإيطاليا ليبلثها المصلون.

وهذه هي مجرد تجارب ودليل صحيح يقود الى مزاولة صناعة سك النقود. وقد صممتُ على أن أضرب بسهم في كل هذه الفنون.

يأتي أخيراً فن الطلاء الرائع بالمينا! وفي هذا المجال لم أجد أحداً يبرز فيه على مواطن فلورنسي يدعى (أمريغو Amerigo). لم أتعرف الى هذا الرجل قط. إلا أنني كنت على معرفة تامة بعمله الممتاز. ولم أر في أي بقعة من بقاع الأرض عمل أي إنسان يداني كمال عمله إلا بمراحل طويلة. إن الطلاء بالمينا هو عملية شاقة للغاية. إلا أنني لم أهتم وحوكت طاقاتي إليها لإتقان الصنعة. ومع المشقة التي كنت أتكيدها فقد كنت أشعر بلذة كبيرة وأعتبر ممارستي نوعاً من أنواع التسلية والترويح عن النفس. هذا الموقف مني هو نتيجة الموهبة الخاصة التي جبانني بها الله من مزاج صحي ورجاحة عقل بحيث كان بإمكانني بلوغ إربي في كل ما خطر ببالي عمله.

هذه الفنون التي عددها يختلف واحداً عن الآخر إختلافاً بيناً ومن كان متقناً واحداً منها ثم تحول الى آخر فلن ينجح قط في الوصول الى مستوى الفن الذي هو متقنه. على أنني جاهدت بكل ما في وسعي لأكون صانعاً قديراً في كلها. وفي الوقت المناسب سأثبت كيف حققت هذا النجاح.

في ذلك الوقت وأنا ما زلتُ شاباً في حدود الثالثة والعشرين. إنتشر في روما وباء الطاعون وصار يفتك بالناس فتكاً ذريعاً فكان يموت به عدة آلاف يومياً<sup>(٧٩)</sup> فذعرتُ لهذا بعض الشيء. وبدأت أنشد إزالة ما بي من قلق بممارسة رياضة وجدتها ممتعة للغاية. على إن هناك أسباباً لذلك سأخبر بها، وقد تم ذلك على النحو التالي: كنت في أيام الأعياد أجد رغبة عندي في الخروج وإرتياد مواقع الأنصاب والآثار القديمة وإعتدت أن أستنسخ عنها. إما بعمل نماذج شمعية أو بالرسم على الورق. كانت تلك المواقع مجرد خرائب وأنقاض مهجورة عششت فيها أسراب من اليمام. فزيت لي فكري أن أتصيد منها بسلاح الناري لتكون لي طعاماً فأتجنب الإحتكاك بالناس مخافة العدوى. فكنت أحمل بندقيتي عاتق (پاولينو) وننطلق معاً الى الخرائب. ويا ما أكثر المرات التي عدنا ونحن محمّلان باليمام السمين. ما كنت أرغب في حشو بندقيتي بأكثر من بندقة واحدة. ولذلك فإن صيدي الناجح كان نتيجة دقة تصويبي. كان لدي بندقية مستقيمة من صناعي، صقيلة الداخل ومن الخارج تبرق كالمرآة. وكنت كذلك أصنع بارودي بيدي وقد إكتشفت في أثناء ذلك خواصاً وأسراراً عجيبة ما زالت خفية حتى يومنا هذا... إنني لا أريد التوسع في هذا الموضوع كثيراً. وحسبي أن أذكر ما أريد به إثارة الدهشة والعجب في نفوس الصيادين الماهرين والمطلعين. وإليك هو: عندما أحشو بندقيتي بالبارود وهو لا يزيد وزناً عن خمس وزن البندقية. يكون في إمكانني أن أصيب هدفي بمقتل على مسافة مائتي ياردة.

ومع أن اللذة العظيمة التي كنت أجنيها من هذه النزاهات. هددت بصرفي عن عملي ودراساتي - وهذا ما نجم عنها فعلاً. إلا أنها أعطتني من جهة أخرى أكثر مما أخذت مني بكثير. فقد طرأ تحسن مطرد على صحتي وكنت أتبين الفرق بين كل رحلة صيد أقوم بها وأخرى. فقد أكسبني الهواء النقي

(٧٩) إنتشر في العام ١٥٢٣ وبلغ فتكه الأوج في ١٥٢٤ ومات به خلق كثير.

الطلق مناعةً وبث في نشاطاً وأنا بطبعي من ذوي الأمزجة الصفراوية<sup>(٨٠)</sup> ولذا أحسست بانيساط وإنشراح جراء هذه الرياضة ووجدت نفسي أحسن عملي وأتقنه أكثر لو مما كنت أقضي سائر أوقاتي في الدراسة والعمل، وكيفما كان فقد وجدت بندقيتي تريحني أكثر مما تخسرني وكانت الى جانب هذا سبباً في تعرفي ببعض جامعي التحف الأثرية ومصادقتي لهم، هؤلاء كانوا يحومون حول الفلاحين اللومباردين وبيلازموثهم أثناء حرثهم بساتين الكرم في موسم زيارتهم لروما. هؤلاء الفلاحون كانوا حين قلبهم التربة يعثرون دائماً على ميداليات أثرية وخواتم وأحجار كريمة كالزمرد والزرفير والألماس والياقوت ويتفق للجماعين القناصة أن يحصلوا على هذه اللقى واللقتات بالثمن البخس فأتى أنا أحياناً - بل في كثير من الأحيان لأبتاع من هؤلاء القناصة وأدفع بالكراون الذهبي بقدر ما دفعوا هم بالگويلو.

بهذه الصفقات - ويصرف النظر عن الريح الطائل الذي كنت أجنه وقد يبلغ أحياناً عشرة أضعاف الأصل - بنيت أفضل العلاقات مع كل كرادلة روما تقريباً وسأذكر فحسب واحدة من أبرز وأندر هذه اللقى: وقع في يدي بين عادات مختلفة رأس دولفين بحجم حبة الفول. التي تستخدم للإقتراع<sup>(٨١)</sup> تقريباً. وكان الرأس دقيق الصنع للغاية غير أن الطبيعة أظهرت تفوقها على الفن بنفاسة الزمردة نفسها وكان لونها عجيبياً إلى درجة إن الرجل الذي إبتاعها مني ببضع عشرات من الكراونات جعلها فصاً في خاتم كحجر كريم إعتيادي ثم باعها بمئات.

وتم حجر كريم من نوع آخر: رأس إنسان نُحت من أنفوس وأندر ما وجد في الأرض من الياقوت. وفيه تستوي قيمة الفن بقيمة المعدن وحجمه بقدر البندقة الكبيرة. نُحت بشكل دقيق رائع لرأس يمثل (مينرثا)<sup>(٨٢)</sup> وتم أيضاً حجر آخر مختلف وهو على شكل ميدالية تمثل هرقل وهو يربط رؤوس (التنين Cerberus) الثلاثة نُحتت بشكل متقن فبدت آية من آيات الفن حتى لم يسع (ميكانجلو) نفسه إلا الإقرار بأنه لم ير شيئاً يمثل هذا الجمال. ومن بين عدد من الميداليات البرونزية التي إقتنيتها. واحدة نُقش عليها رأس (جويتر) وهي أكبر من أية ميدالية شاهدتها والرأس بالغ حد الكمال والدقة. بإمكانني الإسترسال الى ما لانهاية حول هذه الشؤون إلا إنني أكتفي بهذا خشية الإملال. وسأعود بالحكاية الآن الى الورا قليلاً. لكنني لن أشد عن الموضوع. كما قلت قبلاً كان الطاعون قد غزا مدينة روما وفي أثناء ما كان إعصاره يهب. ظهر على المسرح طبيب عظيم الشأن يدعى (جياكومو دا كاپري Giacomo da Capri)<sup>(٨٣)</sup>. هذا الرجل القدير إضطلع الى جانب معالجة الأمراض الأخرى بعلاج

(٨٠) هو المالىخوليا بتعبير الطب القديم أي السوداوي المزاج أو طبع الكآبة.

(٨١) كان الحجر الملون أو حبات الفاصوليا أو الفول تستخدم لإعطاء الأصوات في الإقتراعات والإنتخابات العامة، بسبب تفشي الأمية في الزمان الغابر.

(٨٢) إلهة الحكمة في الأساطير اليونانية.

(٨٣) جياكومو برنارودي كاپري طبيب وجراحي مشهور وأستاذ في جامعة بولونيا. توفي في فرار وأوصى لدوقها بتركته (أنظر بقية حكاية الأواني فيما يلي).

مرضى داء السفلس (\*) في أخطر مرحلة من مرضهم. وإتفق أن هذا المرض كان مغرماً بالكهنة في روما ولاسيما الأثرياء منهم. فلما ذاع نبأ هذا الطبيب النطاسي سارع يصرح بأنه قادر على شفاء المرضى بهذا الداء مستخدماً طريقة مستحدثة عجيبة هي طريقة التبخير. لكنه كان يصّر على دفع الأجر قبل أن يباشر العلاج. وكانت أتعابه لا تحسب بالعشرات بل بالمئات من الكراونات.

هذا الرجل الكفوء كان يعرف الكثير في فنّ التصميم. وإتفق ذات يوم إنه كان يمر من أمام دكاني فلقت نظره بعض الرسوم مبعثرة هنا وهناك ومن بينها تصاميم لأوان صغيرة جميلة من وحي خيالي وإبداعاتي عملتها لمجرد قضاء الوقت والتسلية كانت تختلف إختلافاً بيناً عن كل ما شوهد من قبل. فسألني عما إذا كنت أرغب في صنع بعض الأواني الفضيّة وفق تلك التصاميم. وإغتبطت بهذا العرض لأن إختياره كان وفق هواي ودفع لي أجوراً جيدة إلا أن الشهرة التي أصبتها منها كانت أعظم من الأجر بمائة مرة أو أكثر. إذ حكم جهاذة المشتغلين في الصناعة بأنها أبدع ما شاهدوا من أمثاله وأجمل صنعاً. أنجزتها له فسارع الى عرضها لأنظار الپاپا ثم رحل عن المدينة في اليوم التالي.

كان من العلماء الأفضاء. وإنك لتستمتع منه السحر الميين عندما يتحدث في مسائل الطبّ. وقد رغب الپاپا في أن يضمّه إليه، فأجاب إنه لن يرتبط بخدمة أي إنسان في الدنيا. ومن يريده عليه أن يقصده. لقد كان شيطاناً ماكراً في الواقع إذ كان مدركاً تماماً صواب ما يفعل حين غادر روما. فبعد مرور عدة أشهر ساءت حالة كل من تولى شفاءهم الى الدرجة القصوى ولو بقي لفتكروا به.

قام هذا الطبيب بعرض الأواني التي صنعتها له على عدد كبير من النبلاء ومنهم صاحب السموّ دوق (فيرارا). وأخبرهم بأنه حصل على الإثنانين من أحد النبلاء الكبار في روما بمثابة أجرٍ إذ قال له إن وفقتُ الى شفائك فسأتقاضك هذين الإثنانين. فأجاب النبيل المزعوم إنهما من الآثار القديمة وإن له أن يطلب مايشاء من المال وسيدفعه له بدلاً عن الإثنانين. وقال الطبيب إنه تصرف بعد ذلك كمن لا يريد أن يحقق الشفاء للنبيل. فأضطر هذا الى التنازل عنهما له.

قصّ عليّ كلّ هذا في (فرارا) السيد (البرتو بنديديو Alberto Bendidio) الذي عرض عليّ بكلّ مهابة وإعتزاز تقليداً من الجبس لهما يطابق الأصل. فإنفجرت ضاحكاً ثم أقفلت فمي ولم أنبس بحرف.

(\*) السفلس كظاهرة مرضية وكموضوع لقصيدة شعرية باللغة اللاتينية نظمها في العام ١٥٣٠ (جبرلامو فراكاستورو Girolamo Fracastoro) الشاعر والمثال والفيلسوف المنطقي والجغرافي والطبيب ذو الشهرة. كانت نظريته الجرثومية حول الأمراض مرحلة حاسمة في تاريخ الطب الپاثولوجي. قال عنه البارون فردريك فون همبولت عالم الطبيعة والنبات الألماني (١٧٦٩-١٨٥٩) انه سبق عصره بما ملكه من مواهب وانه وليوناردو دافنشي في هذا المقام صنوان. عنوان القصيدة "سغلياد" وهي في ثلاثة آلاف بيت من البحر السداسي. قُدمت بهذه العبارة "قصيدة إلهية بقلم ايرز شاعر منذ فرجيل مهداة الي صديقي الثينيسي پييترو بيمو Pietro Bembo". في القسم الثالث من هذه الملحمة الشعرية أتى فراكاسترو الي كيفية تعرف الأسبان على العالم الجديد منتقلاً الى قصة وقوع الشاب الراعي المدعو سفلوس Syphilus ضحية هذا المرض بإرتكابه خطيئة الزنا في قصيدته. ويوصفه أول المبتلين به. ومن إسمه جاء إسم المرض المشهور. إلا أن الناظم كان له أحياناً يستخدم في قصيدته بديلاً أو تركيباً مزجياً هو "السفلس" أو "الداء الفرنسي" ومن هذا الأخير جاء إسمه الدارج عندنا "الافرنكي". وسنجد فيما بعد أن جليلني أبتلي بهذا المرض.

فلاحت على وجه السيد بنديديو علائم الإنفعال وكان شديد الزهو والإعتداد بنفسه وسألني بحدة:  
- أتضحك عليهما اذن؟ ثقب إنه لم يولد إنسان خلال السنوات الألف المنصرمة قادر على تقليدهما  
فحسب.

وكتمت الأمر خشية أن أخط من قدرهما وأصيب سمعتهما. وأبدت إعجابي بهما وأنا ذاهل<sup>(٨٤)</sup>.  
وفي روما نفسها صرح لي عدد كبير من النبلاء بعضهم أصدقاء لي، بأنهم يميلون إلى الإعتقاد بأن  
هذين الإنائين هما من أنفس الآثار القديمة، فجرأني هذا على الإعتراض بأنهما من صنع يدي. ولما أبوا  
تصديق قولي كان عليّ إثبات ذلك الإدعاء بعمل تصاميم أخرى جديدة. لم تكن كلمتي بحد ذاتها  
كافية لأن (جاكومو) ببعد نظره وسعة حيلته أصرّ على أن يصادر مني التصاميم الأصلية. ولقد  
جاءني من هذه العملية الصغيرة ريحٌ كثير.

إستمر الطاعون يصول ويجول عدة أشهر. وبقيت سالماً في حين توفي به كثير من أصدقائي لكنني  
سلمت من العدوى وتمتعت بالصحة. وإتفق أن صاحباً لي جاء الى داري في ليلة من الليالي بصحبة  
بغني بولونية تُدعى (فاوستينا) لتناول طعام العشاء. وكانت بارعة الحسب إلا إنها في حدود الثلاثين.  
وكان يصحبها وصيفتها الصغيرة التي يتراوح سنها بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة. ولما كانت  
(فاوستينا) مختصة بصاحبي فقد قررت أن لا أقربها ولو أعطيت ملك الدنيا مع إنها صرحت بحبها  
الجنوني لي إلا أنني ماكنت لأخون ثقة صديقي. على إني بعد أن أوبا الى فراشها، قمت الى الصغيرة  
فضاجعتها وما كان أحلاها وأشهاها. ولو علمت بها سيدتها لأقامت عليها الدنيا وأعدتها. في تلك  
الليلة قضيت ساعات هنيئة رائعة لا تُقاس بما كنت سأقضيه مع (فاوستينا).

في اليوم التالي عند وقت الغداء وجدت نفسي خائر القوى متهاكاً كأني مشيت أميالاً. وعندما  
حاولت الأكل دهمني صداع شديد وفي عين الوقت إنتبهت الى ورم دملي في ذراعي اليسرى والى  
دمل فوق رسغي اليسرى فساد الهلع ساكني الدار وفرّ صديقي وصاحبته البقرة السمينة والصغيرة  
لايلوون ولم يبق معي غير صبي دكان بانس أبي إلا ملازمتي. شعرت بإختناق وعُسر تنفس حول قلبي  
وأيقنت بأني هالك لا محالة. وإتفق أن والد مساعدتي في الدكان مرّ أثناء ذلك بالقرب من الدكان.  
وكان طبيباً مقيماً عند الكردينال (ياكو كاجي)<sup>(٨٥)</sup> (Jaco Cacci) فأسرع إليه أبته وناداه صائحاً:

- تعال يا أبي والقب نظرة على (بنقوتو). فقد أصابته وعكة وهو طريح الفراش.  
فدخل المنزل وهو يحسب أن ما بي عارضاً بسيطاً لاغير. وجسّ نبضي وبعد أن رأى ولمس ما كان  
يفضّل أن لا يرى أو يلمس، إلتفت الى إبته وصرخ به:

- قبحك الله من ولد عاق! فقد أوردتني موارد التلف. كيف أستطيعُ الدنو من الكردينال الآن؟  
أجاب الغلام قائلاً:

(٨٤) سترد قصة هذين الإنائين فيما بعد بتفصيل. وفيها أن چليني لم يكتف عن صاحب النسخة بأنه هو الصانع بل  
صارحه فعلاً.

(٨٥) ربما كان المقصود هو الكردينال (ياكو پاچي).

- أبت، إن معلمي هذا يعادل كل كرادلة روما.  
عند ذلك إلتفت الطبيب الي وقال:
- مادمت أنا هاهنا فساأسهر على علاجك. لكنني أنذرك بهذا، إن كنت قد ضاجعت امرأة فهذا آخر عهدك بالدنيا.  
أجبت:
- الأمر كما خمّنت فقد ضاجعت امرأة ليلة أمس.  
- متى كان ذلك وأي نوع من النساء هي؟  
أجبت:
- طوال ليلة البارحة. وهي صبية في مقتبل العمر جداً.  
وشعر بأن مايقوله هو السخف بعينه. فسارع يستدرك موقفه بقوله:
- مادامت الأورام حديثة لم تتقيح بعد وقد بدأنا العلاج في وقت مناسب، فلا يملكك الخوف الزائد.  
إني سأشفيك حتماً.
- وبعد أن عاجلني إنصرف عني. وما كان يغيب عن نظري حتى أقبل واحد من أخلص أصدقائي وهو (جيوفاني ريغولي Giovanui Rigagli). وشاركني الحزن على مرضي وإنفراض الخلان عني وقال مؤكداً:
- إعتد علي يا بنفثوتو صديقي. سأبقى هنا ولن أتركك حتى تبلى.  
فرجوته الأ يدنو مني فأنا مقضي علي وطلبت منه أن يقوم بعمل واحد لي: أن يأخذ ما أودعت من كراونات في صندوق صغير بالقرب من فراشي ويرسلها الى أبي المفجوع حالما يقبض الله روعي مع طي رسالة تُكتب بأسلوب رقيق بأني كنت من جملة ضحايا ذلك الوباء الرهيب.
- أجاب ذاك الصديق العزيز بلهجة قاطعة إنه لن يتركني. وهو يعرف حق المعرفة ماذا يترتب عمله لصديق عزيز مهما كانت النتيجة. وبمعاونة من الله مرت الأيام متعاقبة ويفضل العلاج الناجع مرت الأزمة وبدأت صحتي تتحسن بإطراد الى أن شفيت من الداء الفتاك. ولم أصبر على الجرح ليلتئم فقد كنت ودملي محشو بالقطن واللغائف - أخرج للنزهة على صهوة حصان قميء غير مروض، حجمه لايزيد عن حجم دب فتني كبير يكسو جسمه شعر بطول أربع أصابع كالدب تماماً. فأنتقل به لزيارة الرسام (روسو) الذي كان يعيش خارج روما بالقرب من (چيفيتا فيكيا Civita Vecchia) في موضع يدعى (چرفايترا Cervatera) وهو من أملاك كونت (انگويارا Anquillara). وكان سرور صديقي برؤيتي عظيماً. فبادرته قائلاً:
- جئت لأعمل بك ما عملت بي قبل أشهر عدة.  
فأغرق في الضحك وأحاطني بذراعيه وقبلني وطلب مني أن الزم جانب الهدوء بسبب الكونت. ونعمت بضيافة مريحة جداً أرفل في حلة من السعادة وأستمتع بأجود الخمر وأطيب المأكول وإكرام الكونت وعطفه. وإعتدت التوجه الى ساحل البحر يومياً فأتحول على طولته وحدي ثم أترجل وأقوم بجمع كميات نادرة من الحصى والأصداف والقواقع من كل شكل ولون. وفي آخر يوم نزهة لي

هاجمني على الساحل جماعة من الرجال الملثمين نزلوا الى الساحل من مركبٍ شراعيٍّ مغربيٍّ وعندما حُيِّلَ لهم إني مطوق وقد سُدَّتْ أمامي سبيل النجاة علوت ظهر حصاني الصغير بقفزة واحدة مصمماً على أن أذف نفسي أمّا في أحضان إبليس أو في أعماق البحر الأزرق. إذ كنت في موقفٍ خطيرٍ للغاية مدركاً بأنني إمّا سأردى برصاصةٍ وإمّا سأغرق. ولكن حصاني - وحمداً لله - قفز قفزة هائلة وبهذا كتبت لي السلامة. فتوجهت بالصلاة الى ربِّ العالمين. وأبلغت الكونت بما حصل. فأطلق إنذاراً ونظمت حملة إلا أن المركب كان قد أفلح. وفي اليوم التالي عدت الى روما سعيداً معافى.

خفّت حدة الطاعون وانحسر ظله وراح الناجون منه يقصد بعضهم بعضاً مهنتين بالنجاة بشوق وحنان. ومن هذا الفرح والإبتهاج انبثقت جمعية تضم نخبة الرسامين والنحاتين والصاغة في مدينة روما. ومؤسس هذه الندوة نحّات يدعى (ميكالانيولو) وهو من أهالي (سيينا). وكان فناناً قديراً يضاهي أي فنان آخر في مجال صنّعه<sup>(٨٦)</sup>. على إنه كان فوق كلِّ هذا خفيف الظلِّ مؤنساً طيّب المعشر. ومن ناحية السن كان أكبرنا، إلا أن حيويته كانت تجعله يبدو وكأنه أصغرنا.

واعتدنا أن نجتمع كثيراً، مرتين في الأسبوع على الأقل. وعليّ أن لا أنسى بأن جمعيتنا هذه كانت تضمّ أيضاً كلاً من (گويليو رومانو Giulio Romano)<sup>(٨٧)</sup> الرسام و(جيانفرانشسكو) تلميذي (رافائيل) الأملعيين. ذلك الأستاذ الأوربيني العظيم. وعلى أثر تعدد إجتماعاتنا. قررّ رئيسنا الرائع. بأن يجتمع سائرنا في داره لتناول العشاء وأن يحضر كل واحد منا ومعه ما أطلق عليه ميكالانيولو "غرابه" ومن يأتي وحيداً ولا يملك عشيقه من بغايا المدينة ويفشل في العثور على واحدة يُغرّم بدفع نفقات عشاء الآخرين.

وقد لقي أولئك الذين لا صاحبة لديهم المتاعب للعثور على رفيقة وبدلوا ما لا يستهان به من مالٍ كيلا يصابوا بالخزي في حفلة عشائنا الباهرة. ولم يكن هذا مشكلة بالنسبة اليّ كما خيل لي فهناك فتاة بارعة الحسّن تدعى (پانتاسيليا Pantasilea) كانت تحبني حباً جماً. لكنني أضطرت الى التنازل عنها لصديق عزيز هو (باكيكا Bachiacca)<sup>(٨٨)</sup> الذي كان ومازال مدلّها بحبها. وقد نجم عن هذا ما ينجم أحياناً من خصام بين المحبين. إذ لما رأّت (پانتاسيليا) السهولة التي تخلّيت بها عنها ل(باكيكا) إستنتجت بأنني لا أهتمّ بها قلامه ظفر ولا أكثرت لحبها مهما عظم وبعد ذلك بقليل. أدّى عزمها على الثأر لنفسها مني بسبب هذه الإهانة الى متاعب لانهاية لها مما سأتى الي ذكره في الوقت المناسب.

واقترب أجل الحفل والظهور فيه كلِّ مع "غرابه" وأنا ما زلت مفتقراً الى واحدة. ولكنني رأيت من

(٨٦) ينبغي أن لا يُخلط بين هذا النحات وبين ميكالنجلو بوناروتي الشهير. إن أشهر أثر خلفه ميكالانيولو هو منحوتة قبر البابا أدريان السادس في الكنيسة الألمانية (سانتاماريا دلا انيما) وواضع تصميمه هو (بيروزي).

(٨٧) گويليو رومانو (١٤٩٢-١٥٤٦) رسام معروف ومهندس معماري تلميذ رافائيل ووارث تركته إستخدمه البابا كليمنت السابع وآل تشيجي. ثم قام بهندسة وزخرفة قصر (دل تي del Te) في (مانتوا)، أنظر قاساري ج ٦.

(٨٨) المقصود أحد إثنين: إمّا فرانشسكو وإمّا أنطونيو وهما توأمان لفردي Verdi والأول منها رسام بالفسيفساء. أمّا الثاني فقد برع في فن التطريز.

الخطأ أن يفشل المرء في أمر سخيف كهذا. إن أشد ما كان يزعجني في الأمر هو كرهى أن يراني ذلك الجمع من الرجال الممتازين قادمًا وتحت جناحي فزاعة<sup>(٨٩)</sup> فذرة عجوز. أخيراً أهتديت الى حيلة لطيفة يستمتع بها الجميع الى أقصى حد.

صَحَّ عزمي على ما أنا في سبيله ثم إستدعيت فتى في السادسة عشرة هو ابن لنحاس إسباني يسكن جوارى كان يدرس اللاتينية مثابراً دؤوباً. ويدعى (دييغو Diego). وكان وسيماً بديع الصورة ذا قسما ت رائعة وبشرة عجيبة تكوين رأسه أجمل من رأس تمثال أنتينس الأثري<sup>(٩٠)</sup> وكثيراً مارسمته وقد أكسبني ذلك شهرة كبيرة. وهو منقطع لنفسه لا يخرج مع أحد ولذلك كان مجهول الهوية تماماً لا يعرفه بشر كذلك كان سيء الهنءام مهمل الثياب متعلق بدراسته الثمينة لاغير. عند دخوله طلبت منه أن يدعني ألبسه ثياب النساء وكنت قد أعدتها لهذه الغاية. فلم يبد إعتراضاً وقبل بإرتدائها حالاً. ثم أسرع فجملت ملامحه بالأسلوب الجذاب الذي صفت به شعره. وثبت قرطين في أذنيه تزينهما لؤلؤتان كبيرتان جميلتان ولما كان في القرطين فتحة فقد شبكتهما في شحمتي أذنيه فبدتا وكأنهما منقويتان ثم إنى طوقت جيده ببعض القلائد الذهبية الجميلة المكفتة بالأحجار الثمينة تكفيتاً حاشداً. وزينت أصابعه الأنيقة بالخواتم ثم وبإبتسامه على شفتي أمسكت به من أذنه برقة وجررته الى المرأة الكبيرة فما رأى هيئته فيها حتى بهت وصاح:

- سبحان الله! أهذا هو دييغو؟

قلت:

- أجل هو دييغو بالتأكيد. إنه دييغو الذي لم أطلب منه حتى الآن شيئاً لكنى أريده الآن أن يُسدي اليّ معروفاً لا ضرر فيه. وهو أن يرافقني لتناول العشاء بعين الثياب التي تكسوه الآن مع تلك الجمعية الشهيرة التي كثيراً ما حدثته عنها.

فقد الفتى تحمسه - وكنت أعرفه شاباً بعيد النظر، متزن العقل، حديد الذكاء. وأطرق وأخذ يحدق في الأرض ملياً لا يبدي حراكاً ولا ينبس بحرف. ثم رفع نظره فجأة وأرسله الي وقال:

- مع بنقوتو؟ إنى مستعد لذلك فهياً بنا.

وضعت حول رأسه وشاحاً كبيراً وهو ما يسمى في روما بـ"كفيّة الصيف" وعندما بلغنا محلّ الإجماع وجدنا المجلس مكتسماً ورحب بنا وكان (ميكالانولو) يقف بين (گويليو) و(جيانفرانشسكو). وعندما رفعت الوشاح عن رأس فتاي الجميل بسط (ميكالانولو) ذراعيه، وكان كما قلت أسرعنا بديهة وأحضرنا نكتة، ثم وضع إحداها الى عاتق (فرانشسكو) والثانية على عاتق (گويليو) مستخدماً كل قوته لإجبارهما على الركوع. ثم خرّ هو الآخر على ركبته راکعاً متظاهراً

(٨٩) وهو ما ينصب في مزرعة لتخويف الطيور وبالعامة عندنا يسمى "خراعة خضرة". وقد آثرنا ترجمتها حرفياً حرصاً على فكاهة چليليني.

(٩٠) شاب أغريقي من بئينا أشتهر بجماله كان عبداً للإمبراطور الروماني هادريان (٧٦-١٣٨) ثم لقي الحظوة عنده وتحت له عدة تماثيل في روما.

بطلب الرحمة ومهيباً بكل المدعويين:

-أنظروا الى هذا! أنظروا الى ملائكة السماء كيف يُصوِّرون. مع إننا نسميهم "ملائكة Angeli" فإن بعضهم "نساء Angiole".

ثم شرع يعني:

يا ملاكاً ساحراً أنت يا أبهى الملائك

جئت أستجدي حماكا فيأحفظ الروح وبارك

وهنا أغرق مخلوقي الجميل في الضحك. ورفع يده اليمنى ومنحه البركة الرسوليّة بلهجة وقورة متزنة. ثم هبّ (ميكالانيولو) منتصباً على قدميه وقال إنه ليقبل قدميّ الپاپا لكنه يلثم وجنتي الملائكة ولما قرن قوله بالعمل أحمرّ وجه الشاب خجلاً فبدأ أكثر جمالاً. بعد هذه الإفتتاحية إكتشفنا أن البرنامج مليء بالقصائد التي كنا قد نظمناها وأرسلناها إلى (ميكالانيولو). فبدء رفيقي الفتى يقرأها كافة غير تارك واحدة. وكان أثناء ذلك يزيد جمالاً بشكل غير إعتيادي أجذني عاجزاً عن وصفه، ثم تلا ذلك دور التعليقات والأحاديث لن أذكرها هنا بالتفصيل لأنها خارجة عن الصدد. وأكتفي بإثبات حديث واحد لأنه من كلام ذلك الرسام الممتاز (گويليو): أدار عينه الحادة النفاذة في إرجاء القاعة متفحصاً كل الموجودين ومحدّثاً بالنساء خصوصاً. ثم إلتفت الى (ميكالانيولو) وقال: - (ميكالانيولو) أيها العزيز! إن إسم الـ"غراب" الذي إخترعتّه اليوم يناسب هذا الجمع تماماً. إلا أنهم لايملكن حتى جمال (الغراب) عندما يجلسن الى جنب أجمل الطواويس طراً.

عندما حضر الطعام وقُدّم هممنا بالجلوس الى المائدة فرجا (گويليو) أن يسمح له بتعيين مواقع المدعويين. فأجيب طلبه فشرع يتناول يد السيدات كلاً بدورها ويقودها الى الموضع الذي إرتآه لها وهو الجزء الداخلي وجعل رفيقي في الوسط ثم أجلس الرجال في الجزء الخارجي وجعلني في الوسط قائلاً إنني أستحق أرفع منزلة. وكان ثمّ تعريشة جميلة من اليباسمين الطبيعي خلف موقع السيدات وبهذه الخلفية إنعكس جمالهن ولاسيما صاحبي. إنعكاساً أخاذاً تقصر الكلمات عن وصفه. بعد كل ذلك باشرنا جميعاً في تناول العشاء الفاخر الشهيّ.

بعد الفراغ من الأكل سمعنا غناءً ساحراً مع موسيقى أخاذة. كان العزف والإنشاد من المحفوظ المتداول. وطلب رفيقي المحبوب أن يُسمح له بالمشاركة. وأدى مقطوعته ببراعة فاقت كل ما سمع قبله بحيث بهت الحاضرون جميعاً. والواقع أن (گويليو وميكالانيولو) ما عادا يتحدثان عنه هازنين مستخفين كما كان دأبهما من الأول. وإنقلب هزل مديحهما جداً وأخذا يظهران ما يشعران به من إعجاب حقيقي. بعد أن فرغنا من الغناء والموسيقى إنبرى (أوريليو أسكولانو Aurelio Ascalono) وهو طراب عجيب ليتحفنا بقصيدة مرتجلة من تلحينه ونظمه تتضمن مديحاً للسيدات. وفيما كانت إيقاعاته السماوية تتحدر من فمه رائعة أخاذة، كانت السيدتان الجالستان على طرفي رفيقي مستمرتين في ثرثرتهما فقصّت إحداهما حكاية سلوكها طريق الزلل وراحت الأخرى تسأل رفيقي كيف زلّت (به) القدم. ومن هم (عشاقه) وكم من الزمن (لها) في روما؟ وما الى ذلك من أسئلة.

وفي الواقع لو لم يكن عليّ إلا أن أصف ماجري، لأعطيت تفاصيل ما لا يحصى من الوقائع الطريفة التي حصلت بسبب حنق (پانتاسيليا) عليّ. لكن هذا يخرج بي عن قصدي ولذلك سأمر بها مرور الكرام.

بدأت ثرثرة هاتين الفتاتين الوضيعتين تثقل عليّ رفيقي الذي سميناه (يومونا) فبدأت (يومونا) وسط إنزعاجها تحاول أن تتخلص من حديثهما السخيف وأخذت تنقلب الى هذا الجنب تارةً والى الجنب الآخر تارةً أخرى فسألتها الفتاة التي جاءت بصحبة (گوليبو) أتشعر بشيء من الألم. أجابت أجل فشم شيء من الألم فهي تعتقد إنها حُبلى منذ أشهرٍ وهي تشعر بآلام في الرحم. وفي شعورٍ منهما بالإشفاق مدتا يديهما حالاً تتحسان بطن رفيقي لتتبيّن أنها ذكر! فسحبنا يديهما كأن أفعى لدغتهما ونهضتا من مجلسهما وإنهالتا عليه شتائم هي في العادة من العبارات الموقوفة على الرجال الوسيمين! وإمتلأت القاعة ضجيجاً وضحكاً من فرط الدهول والدهشة. إلا أن (ميكالانيولو) الصارم طلب تعويضاً من الجماعة لفرض عقوبة مناسبة في رأيه وعندما منح ذلك. تقدّم مني ورفعني الى الأعلى وسط هتافات عامة. وهتف هو بدوره:

- عاش بنقنوتو السيد! عاش بنقنوتو السيد!

وأضاف يقول: هذا هو العقاب الذي أستحقه لمثل هذه الحيلة المُحكّمة. بهذا الشكل كانت خاتمة حفلة عشائنا ونهاية يومنا السعيد فإنصرف كلٌّ الى منزله .

لو أقدمت عليّ وصف مفصّل لما أنجزتُ من أعمال وكم عدد الأشياء التي أخرجتها يدي ولمن صنعتها فسيقتضي ذلك مني وقتاً طويلاً جداً. ولأخلص الى القول بأني كافحتُ وناضلتُ وبذلت قصاراي لإتقان كل ما أتيت الى ذكره من الفنون. إشتغلت فيها دون توقف. إلا أن الفرصة لم تعنّ لي بعد لوصف أهم وأبرز ما صنعته وسأنتظر الوقت المناسب لذلك، ويخيل لي إن الفرصة أضحت قريبة. في ذلك الحين كان (ميكالانيولو) النحات الذي نوهت به آنفاً، يعكف على العمل في قبر البابا المتوفى (أدريان). وتركنا (گوليبو ورومانو) الرسام ليشغل وظيفة عند ماركيز (مانتوا Mantua). وتفرّق باقي أعضاء ندوتنا، بعضهم هنا وبعضهم هناك، وأنصرفوا الى أشغالهم. وهكذا إنفرط عقد الندوة الرائعة التي تحدثت عنها وأصبحت أثراً بعد عين.

في حدود ذلك الزمان وقع في يدي عدد من الحناجر التركية مقابضها ونصالها من الفولاذ بل حتى أغمادها. وقد تفنن حفار والحديد في زخرفتها بنقوش على الأسلوب التركي الرفيع، وملاؤا النقوش النباتية المتشابهة المحفورة بالذهب. فتملكتني رغبةٌ محرقة لتجربة يدي في هذا الفن الذي يختلف تماماً عن الفنون الأخرى ووضعت مهارتي موضع إمتحان وعملت عدداً من الحناجر فحققت نجاحاً باهراً بها إذ كانت أدق صنعة وأقوى من مثيلاتها التركيات وثم أسباب لذلك منها اني أقطع في المعدن قطعاً أعمق وأوسع في القاعدة من قطع الصانع التركي. ومنها أن أساس الزخرف التركي هو ورق نباتة الليف مع عدد من زهرات عبّاد الشمس الصغيرة، وهي في الواقع لطيفة الى درجة كبيرة، لكن المرء يدركه السأم من النظر إليها خلافاً لتصاميمنا الإيطالية. فالعين تملّ المنظر الرتيب بأسرع مما تملّ من

دوام النظر الى الزخرف الهندسي العربي (أرابيسك Arabesque). عندنا في إيطاليا تُرسم الزخارف النباتية بمختلف الأوضاع والأشكال والأنواع. وللمباردين أسلوب طريف في التأليف بين نبتتي اللبلاب والفاشرا<sup>(٩١)</sup> هو مما ترتاح له العين ولا تشيع من النظر إليه. وللتوسكان والرومان أساليب أبدع تقدموا بها على السابقين وأحسنوا لأنهم ينقلون أوراق الأفتنثس<sup>(٩٢)</sup> Acanthis المعروف عند العامة بنبات (مخلب الدب) ويبرزون براعمها وأزاهيرها ملتوية متعاطفة. ويكون وقعها في النفس ساحراً لو حشر بينها مختلف أنواع الحيوانات وبعض الطيور. ومما يختاره الفنان هنا، يظهر ذوقه وإتجاهاته. إن الفنانين ينقلون تصاميم عن الطبيعة فيجدونها في الأزهار البرية. مثلاً الأزهار التي تسمى بد (أنف العجل). والفنان الحاذق يستمد أفكاراً جميلة من أزهار أخرى. والناس الذين يجهلون هذه الأمور يطلقون على تلك الأخيصة الفنية مصطلح (التهاوليل=grotesque) سُميت بهذا الأسم في عصرنا الحالي لأن التلاميذ عثروا على أشباهها في كهوف تحت الأرض في روما. هذه الكهوف كانت في قديم الأزمان تستخدم للسكنى كالعرف أو الحمامات أو أماكن دراسة أو قاعات أو ما شاكل وهي تحت سطح الأرض وقد بقيت حيث هي في حين كان مستوى الأرض يرتفع بمرور السنين. وفي روما يطلق على هذه الكهوف والمغاور أسم grottos وهو أصل كلمة grotesques (تهاوليل) إلا أن هذا ليس الاسم الموافق للمسمى. فمثلما كان الأقدمون مُغرمين بخلق الغيلان، بالتهجين بين العنز والبقر والخيول، فيطلقون على الهجين المولود إسم الغول كذلك يخلق فنانونا غيلاناً من نوع آخر بالتأليف والمزج بين أنواع مختلفة من النبات. ولذا فكلمة (غيلان) هي المصطلح الصحيح وليس التهاوليل. وقد ألفت تصاميمي النباتية بهذا الشكل وبعد أن كُفِّتت، بدأ عملي أجمل وأكثر إثارة من صنوها التركي.

في حدود تلك الفترة وقع بيدي بعض المزهريات وهي جرار أثرية مملوءة رماداً وقد عثرت في هذا الرماد على عدد من الخواتم الحديدية القديمة مكفنتة بالذهب وقد رصع كل خاتم منها بصدفة بحرية صغيرة. وسألت الخبيرة الملمين فقالوا كان يتحلى بهذه الخواتم كل من يريد أن يبقى في حالة إتزان ورباطة جأش مهما صادفه في حياته من أحداث جسام حسنة كانت أم سيئة. وعندما إنكشف لي سرُّها وبناء على طلب بعض السادة من أصدقائي الحميين، بدأت بصنع عدد قليل منها بعين الشكل. إلا أن خواتمي كانت من الفولاذ الجيد المطاوع. وبدأ منظرها في غاية الجمال بعد أن نقشتها وكفنتها بالذهب وكنت أحصل في أكثر الأحيان على ما يزيد عن أربعين كراوناً ثمناً لمجرد عملي الخاتم الواحد.

كانت موضة العصر تقضي بإقتناء طغراءات ذهبية صغيرة تثبت في مقدمة القبعة. وكان النبلاء والسادة يفضلونها أن تحفر بنقش أو شعار وقد عملت عدداً لا يُستهان به منها وشغلها متعب كثيراً. وكنت قد ذكرت أن (كارادوسو) ذلك الرجل القدير تخصص في صنعها وقد تضمنت تصاميمه لها

(٩١) نبات من الفصيلة القرعية ذو أوراق عريضة.

(٩٢) نبات ذو زهر أبيض أو أصفر أو قرمزي Snapdragon.

أكثر من صورة واحدة، وبسبب ذلك لم يكن يرضى بأقل من مائة كراون ذهبي ثمناً للطغراء الواحدة. ولهذا ولأنه بطيء العمل فضّل بعض النبلاء مراجعتي. فعملتُ لهم من بين أشياء أخرى ميداليةً نافستُ بها الفنان الكبير. حفرت فيها أربعة شخوص وعانيت فيها مشقةً وجهداً خارقاً واتفق بأن الأشراف الذين كنت أشتغل لهم عمدوا الى مقارنة ميداليتي بتلك التي أنجزها ذلك الفنان الحاذق (كارادوسو) فقالوا إنها أبرع صنعةً وأجمل. وتركوا لي أمر تحديد الأجر لأنهم يريدون إرضائي بالقيمة مثلما أرضيتهم بعملتي. فقلت إن خير مكافأة أنشدتها هو مضاهاتي الرجل الذي يعدُّ إمام الصنعة بلا منازع. فإذا شاطرنني السادة النبلاء رأبي هذا فأنا أعدُّ نفسي متقاضياً أجراً سخياً لقاء أتعابي. قلت هذا وانصرفوا إلا أنهم أرسلوا لي حالاً أجراً سخياً أرضاني تماماً. إن طموحي في أن أبلغ بعملتي درجة الإتقان أصبح عظيماً بحيث كان السبب في كل ما تلا بعد ذلك.

ولأنحرف الآن قليلاً عن أمور الفن. لأنني أريد تسجيل بعض الأحداث الخطيرة التي اعترضت حياتي المضطربة الحافلة بالمازق. سبق لي وأن أثبتُ بعض التفاصيل عن ندوة الفنانين الرائعة التي كنت أحد أعضائها وما أسفرت عنه علاقتي بالمرأة (پانتاسيليا) من مفاجآت طريفة. وكيف أن حبّها الزائف أصبح موضع إحتقاري. لقد زاد حقدّها عليّ بسبب مزحتي بإصطحابي (دييگو) الفتى الإسباني الى مأدبة العشاء. فأقسمت أن تتأثر لنفسها مني. وحانت فرصتها عندما تهيأت الظروف لها من حادث معين سأسفّه ونتيجة ذلك تعرضت حياتي لخطر عظيم.

وما حصل هو هذا: قبل كل شيء قدم الى روما شاب يدعى (لويجي پولچي) (Luigi Pulci) وهو ابن ذاك (پولچي) الذي قُطع رأسه لإقدامه على جريمة الزنا بابنته. هذا الشاب كان من الموهوبين. فهو شاعر وعالم جيد باللاتينية، حسن الكتابة والتأليف، وهو في عين الوقت حسن الصورة بل في غاية الوسامة والجاذبية. كان قد ترك لتوّه الخدمة عند أحد الأساقفة وجاء روما وداًء السفلس ينخر فيه نخرًا.

جرت العادة في أيام الصيف أن يجتمع الناس مساءً في شوارع فلورنسا وكان لويجي هذا أيام صباه يؤدي في هذه المناسبات أدواراً غنائية إرتجالية دائماً مع نخبة من أبداع الأصوات وأشدّها سحراً. حتى أن (ميكالنجلو بوناروتي) الملهم أمير الرسامين والنحاتين كان يندفع متلهفًا الى أي محل يغني فيه ليستمتع بالأصغاء إليه وكنت أرافقه مع صانع آخر يدعى (پيلوتو Piloto) وهو فنان موهوب. فنتبع (لويجي) نحن الثلاثة أينما كان وبهذه الطريقة نشأت العلاقة بيني وبينه.

جاء روما بعد مرور هذه السنين العديدة وهو في هذه الحالة السيئة التي ذكرتها، باحثاً عنيّ وتشبّث بي راجياً مساعدتي لوجه الله. فنازعني عوامل الشفقة بسبب مواهبه العظيمة ووفاءً لحقوق المواطنة ولكوني رقيق القلب بطبعي. فأويته في بيتي وأمنت له المعالجة الطبيّة فإستعاد عافيته بسرعة نظراً

(٩٣) وهو كذلك حفيد لويجي پولچي (١٤٣٢-١٤٨٤) الشاعر الفلورنسي مؤلف الكتاب الشهير في الأدب الإيطالي (مورگانتو Morganto).

لكونه في مقتبل العمر وكان مكباً على دراساته أثناء العلاج فساعدته في تأمين طائفة من الكتب بقدر الإمكان. فأثرت فيه معاملتي الحسنة وأدرك كم هو مدين لي وراح يلهج بشكري ويهتبل كل فرصة ليظهر مدى إمتنانه وهو يرسل دموعه مردداً: "لو فتح الله عليه بنعمة فأنه سيجازيني بقدر حسن صنيعي معه". وكنت أجيبه بأني لم أفعل كل ما رغبت في أن أفعله وإنما قمت بما أمكنني فحسب ومن واجب البشر أن يُعين بعضهم بعضاً. على إني ذكرته بأن يردّ عطفٍ بعطفٍ منه على المحتاج كما احتاج هو اليّ. وقلت له: اعتبرني صديقك الآن وعلى الدوام.

مالث هذا الشاب أن راح يغشى محافل روما وأوساطها الإجتماعية العليا فوجد ملجأ لنفسه بأن دخل في خدمة أسقف سن يبلغ الثمانين من العمر يدعى (گورجنسيس Gurgensis)، وكان لهذا الأسقف أين أخ من سادة البندقية يدعى (جيوقاني). الذي تظاهر للناس بأنه شديد الأنجذاب بمواهب (لويجي) واتخذ من هذا الإعجاب والإفتتان تعلّة ليفتح له أبواب منزله على مصاريعها ويطلق له العنان يسرح ويمرح ويأمر وينهي كأنه ربّ البيت. واتفق أن حدّث السيد جيوقاني عني وذكر له المعروف الكبير الذي أسديته له وكم هو مدين لي فكانت النتيجة أن السيد جيوقاني رغب في لقائي.

وفي ذات يوم كنت قد هيأت بعض عشاء لـ (پانتاسيليا) ودعوت مجموعة من الأصدقاء الممتازين معها. إذ بنا ونحن نهئم بالجلوس - نُفاجأ بدخول (جيوقاني ولويجي) وبعد التعارف بقيا لمشاركتنا العشاء. ما أن وقع نظر المومس الصفيقة الوجه على هذا الشاب الوسيم حتى قررت إقتناصه ولم تفتني ملاحظة ذلك. وبعد أن فرغنا من الأكل مباشرة إنتحيت بلويجي جانباً وقلت: لما كان يصير بأنه مدين لي بالكثير، فعليه أن لا يحاول مطلقاً التقرب من تلك الساقطة. فأجاب:

- عزيزي بنقنوتو. أتظني بهذه الدرجة من الجنون؟  
أجبت:

- كلاً لست مجنوناً، بل أنا شاب فحسب. وأما عني فقسماً بالله إني لا أكثرتها بها ولا أحفل لكن سأسف إذ أراك تسقط سقطةً عنيفةً بسببها.  
عندما وعى كلامي ردّ بحميّة وإخلاص انه يتمنى من الله أن يهوي من حالق وتُدقّ عنقه إن وجه إليها كلمة واحدة.

لا بد أن الفتى النكود قد صلى لربه بحرارة فاستجاب إليه وكسر عنقه فعلاً كما سأروي هذا الآن: مالث أن اتضح للملأ إن حبّ جيوقاني له كان حباً قذراً شاذاً وليس علاقة حبّ بريء. كان (لويجي) يشاهد كل يوم في حلّة تختلف عن حلّة أمس وكلها من الحرير والمخمل، وكان جليلاً إنه سلك سبيل الرذيلة وانحطّ الى الدرك الأسفل من الخلق مهملاً مواهبه الرفيعة. ثم صار يتحاشاني ويتظاهر بعدم رؤيتي أو التثبت من شخصي بعد أن أنبتّه ولمتّه على سلوكه سبيل هذه الرذائل الحيوانية التي ستدقّ عنقه يوماً ما كما حذرت من قبل.

ودفع خليله (جيوقاني) مائة وخمسين كراونا ثمناً لجواد أسحم أصيل له. كان الجواد مروّضاً ومدرباً الى آخر حدّ يركبه (لويجي) يومياً متباهياً طروباً ليقوم بزياراته للبيغي (پانتاسيليا). وقد بلغني هذا

فلم أحفل مثقال ذرة. إذ رأيت أن كلَّ أمرٍ يتصرف بحسب طبعه، وحصرت إهتمامي بدراساتي.  
ثم وفي ذات يوم وكان الوقت صيفاً واليوم يوم أحد، دعاني (ميكالانيولو) النحات لتناول العشاء  
وكان (باكيكا) الصديق الذي ذكرته سابقاً مدعواً أيضاً وقد جاء مصطحباً (پانتاسيليا) رفيقة فراشه  
السابقة. فجلست الى المائدة بيني وبين (باكيكا) وبعد أن مضى نصف مدة العشاء نهضت واستأذنت  
بالخروج قائلة إنها تشعر بضيق ولن تلبث أن تعود. ومضينا في تناول الطعام وتبادل الأحاديث  
الودية. إلا أن غيابها طال دون داعٍ. وكنت قد أرهفت أذني. وخيل لي إنني سمعت ضحكة خفيفة في  
عرض الشارع. فقممت الى النافذة القريبة الى محلّ جلوسنا والسكين الذي أستعمله في الأكل بيدي  
وبمجرد أن رفعت نفسي قليلاً، أمكنتني أن أشاهدهما معاً في الزقاق: (لويجي پولجي)  
(پانتاسيلينا) وسمعت الأول منهما يقول:

- لو شاهدنا هذا الشيطان (بنثنوتو) لكانت عاقبتنا وخيمة.  
فأجابته:

- لا داعي للخوف. أسمع الضجة التي يحدثونها. نحن آخر من يفكرون فيه.

لم يكن لدي شك في هويتهم. عندما سمعت أقوالهما إندفعت من النافذة وقبضت على (لويجي)  
من معطفه. وكنت سأقضي عليه بالسكين التي في يدي إلا أنه كان ممتطياً جواداً صغيراً أبلق فلكره  
بمهازيه وإنطلق تاركاً معطفه في قبضتي ناجياً بجلده. ولجأت (پانتاسيليا) الى الكنيسة المجاورة.  
وفي عين الوقت خرج الجميع يتراكضون وراحوا يتوسلون بي أن اهدأ وأكبح جماح غضبي ولا أزعج  
نفسي وأزعجهم بسبب مومس رخيصة. فأجبت إنني غير مهتم بها ولكنني مهتم بأمر هذا الفتى الوغد  
الذي هزء بي وأزدراني. ورفضت أي تبرير وأصممت أذني عن المحاولات التي كانت تبذل لإقناعي  
بإهمال القضية. والتقطت سيفي وانطلقت بمفردي باتجاه (پراتي Prati) ولم يكن المنزل الذي تناولنا فيه  
العشاء بعيداً عن باب القلعة المؤدي الى (پراتي).

مالبثت الشمس بعد مسيري أن اذنت بالغروب. عدت الى داخل روما وأنا أسير الهوينا. وكان  
الظلام قد ساد إلا أن أبواب المدينة لم تغلق بعد. بعد الغروب بحوالي ساعتين بلغت منزل  
(پانتاسيليا). وكنت قد صممت على أن أنزل البلاء الأعظم بكليهما إن وجدت (لويجي) هناك. وبعد  
أن أكد لي سمعي وبصري أن المنزل خال إلا من خادم حقيرة صغيرة السن تدعى (كانيدا Canida) عدتُ  
أدراجي الى منزلي وتخلصتُ من معطفي وغمد سيفي وكررت راجعاً الى المنزل الذي كان خلف الضفة  
Bamchi على نهر التيبير. كان ثم عوسج شائك كثيف هو سياج لحديقة تعود الى صاحب حان يدعى  
(روملو Romolo) تقع مقابل المنزل فأخفيت نفسي فيه منتظراً عودة المرأة مع لويجي. وبعد برهة  
مارأيت إلا (باكيكا) يقف الى جانبي لا أدري كيف؟ أكان حدساً منه أو أن أحداً دله على مخبأني.  
همس في أذني بصوت حفيظ:

- أهذا هو ثرثاري؟ (بهذا كان ينادي أحدنا الآخر تحبباً وعلى سبيل المزاح) ثم راح يتوسل بي وهو  
يكاد يبكي ويستحلفني بحبة الله أن لا ألحق أذى بالفتاة المسكينة فهي غير ملومة قط.

فأجبتة:

- إن لم تنصرف فوراً فإنني سأهوي بسيفي على رأسك.  
وإستبدَّ الرعبُ به (ثرثاري) صديقي القديم عند سماعه ماقلت بحيث قُلقلت أوعاؤه وشعر بإسهال  
لاقبل بدفعه فإنسحب يقذف ما في جوفه. كانت الليلة صافية الأديم متلالاة النجوم مُقمره. وسمعت  
فجأة وقع سنابك خيل كثيرة تدنو من الجهتين، كان (لويجي) يعينه تصحبه (پانتاسيليا) مع السيد  
(بنفنياتو Benvegnato) المواطن البيروجي أحد حجاب الپاپا كليمنت وأربعة ضباط بيروجيين ممتازين  
وبعض الجنود الفتیان الأشداء وكانوا بجملتهم يبلغون إثني عشر سياًفاً.  
ما أن أبصرت هذا وأدركت بالأ سبيل للنجاة بالفرار. قررت التراجع والاستتار بالعوسج. إلا أن  
الألم برح بي من جراء وخزات الشوك التي كانت تنال من جسمي كما ينال الشوك من جسم الثور  
فوطدت العزم على الوثوب خارجاً والفرار بجلدي وفي تلك اللحظة سمعت (لويجي) يقول وهو يطوق  
عنق (پانتاسيليا) بذراعه:  
- قبلة أخرى نكايه بذاك الخائن الدساس (بنفنتوتو)...

اجتمعت وخزات الشوك وكلمات الشاب لإشعال النار في أحشائي فما وجدت نفسي إلا وأنا أهم  
شاهراً سيفي وأنا أصيح:  
- إني قاتلكم لامحالة.

وهوى سيفي بقوة هائلة على كتف (لويجي) إلا أن أصدقائه الصعاليك كانوا قد صفحوه بزردٍ أو  
ما أشبهه، فأنحرف السيف وطاشت الضربة لتصيب أنف پانتاسيليا وفمها وسقط كلاهما على الأرض  
معاً. أما صاحبي (باكياكا) الذي إنسدل سرواله نصف المنزوع وتكور على قدميه فقد صرخ وأطلق  
ساقيه للريح. وحملت على الآخرين حملة عنيفة والسيف في يدي. وفي عين الوقت صدر ضجيج هائل  
من الحانة فخيّل للجنود البواسل أن سريه من الجند تزيد على المائة في طريقها للإطباق عليهم. على  
أنهم انتضوا سيوفهم كافة إلا أن زوجاً من الخيل أجفلت وأوقعت الخلل في صفوفهم وشاهدوا اثنين  
من أشجعهم قد سقطا على الأرض بسبب ذلك فما وسعهم إلا أن يلوذوا بالفرار. ولما رأيت النتيجة  
في صالحني قنعت بالإنسحاب بأسرع ما يمكن ولكن بصورة مشرقفة. إذ لم أشأ إستغلال حظي أكثر مما  
تحتمه الضرورة. في ذلك الإضطراب أصاب بعض الضباط والجنود أنفسهم بجراح. وسقط حاجب  
الپاپا (بنفنياتو) الذي ذكرته برضوض وكدمات بعد أن رمحه البغل الذي كان يركبه ووطئه وكال له  
بعض الرفسات. وسقط فوقه واحد من خدمه وكان منتضياً سيفه فأصابه بجرح نافذ في يده. وبنتيجة  
ما لقي من سوء حظ راح يشتم ويلعن أكثر من الآخرين ويصرخ متوعداً بالطريقة البيروجية المعهودة:  
- قسماً بالله! سأنظر في أن يتولى بنفنياتو تلقين بنفنتوتو درساً لن ينساه.

ثم أمر واحداً من ضباطه بأن يتعقبني ويلقي القبض عليّ. وربما كان هذا الفارس أشجع من الآخرين  
إلا أنه شاب صغير يفتقر الى بعد النظر والحصافة. أقبل هذا الفارس الى المحل الذي انسحبت إليه  
وكان منزلاً لنبييل من (ناپولي) قدر بعض أعماله كل التقدير وأعجب بشخصيتي العسكرية وطابعي

الحربي. فمال اليّ ميلاً شديداً وكان هو نفسه مغرماً للغاية بالفنون الحربيّة. وشجعتني الحفاوة التي لقيتها في منزله حتى لكأنني سيد بيتي. فرددت على الضابط جواباً جعله يشعر بالندم بالاريب على تعقيبي.

بعد بضعة أيام اندملت خلالها جراحهم - وأقصد جراح لويجي وبغييه والآخرين وإنفثاً غضب (بنثنياتو) وهذا قليلاً فقصد صديقي النبيل الذي كنتُ في ضيافته ليحاول إقناعي بمصالحة (لويجي). وأضاف يقول ان الفرسان البواسل الآخرين لا شأن لهم معي ولا يضمرون لي سوءاً وأنهم يريدون التعرف بي ليس إلا. فأعلمهم النبيل المذكور بأنه سيأتي مصحوباً بي أينما شأوا وسيكون من دواعي سروره أن يقنعني بالصلح. إلاّ إنه أشترط أن لا يكون ثمّ عتاب وجدال من كلا الجانبين لأنه من الأمور المخزية جداً البعيدة عن اللياقة، ويكفي أن تجرى المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبات من معانقة وشرب الخمر معاً. وإنه سيكون المتكلم الوحيد وإنه لمسرور جداً لوضع نفسه في خدمتهم. وهذا ما حصل: في أحد أيام الخميس أخذني هذا النبيل ليلاً الى دار (بنثنياتو) وكان جميع الجنود المنهزمين هناك وقد جلسوا حول المائدة. كان ثمّ شيء لن يتوقعه (بنثنياتو) وهو أن صديقي جاء على رأس ثلاثين رجلاً صنيدياً مدججين بالسلاح. دخلنا القاعة هو في المقدمة وأنا بعده وقال:

- حيّاكم الله أيها السادة! هذا بنثنوتو الذي أعتبره كأخ، وهذا أنا جننا هنا مستعدين لتنفيذ رغباتكم.

فأجاب (بنثنياتو) وهو يواجه رجالنا قائلاً:

- نحن نريد السلم والصلح لاغير.

ثم تعهد بأن لايزعجني بتعقيبات من شرطة روما. فتصالحنا وتصافينا. ثم عدت مباشرةً الى دكاني وصديقي النبيل الناڤليتاني يكاد يلازمي ملازمة الظلّ، لاتمر ساعة إلاّ وهو عندي أو مرسل أحد إتباعه يستدعيني.

أثناء ذلك شفي (لويجي) وأسأف تسكّعه على ظهر حصانة الأسود الفاحم الحسن الترويض. وفي ذات يوم كان يعرض فروسيته خارج باب پانتاسيليا تحت وابل من المطر فزلت بجواده القدم وسقط وحصانه فوقه فكسر فخذه الأيمن. وبعد أيام قلائل قضى نحبه في منزل (پانتاسيليا) وبهذا حقق نذره الذي شدّد عليه أمام الله. وهكذا يمكننا أن نرى كيف يجزي الله الصالح والطالح ويعطي كلّ إنسان ما يستحقّ.

في ذلك الحين شبّت نار الحرب الشاملة<sup>(٩٤)</sup> وفتح الناس الى السلاح. كان البابا كليمنت قد أرسل يطلب جنوداً من السيّد جيوفاني دي مديتشي<sup>(٩٥)</sup> وما وصلوا حتى انطلقوا في إرجاء روما يعيشون

(٩٤) بدأت الحرب بين الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) وبين فرنسوا الأول ملك فرنسا في العام ١٥٢١ والفترة التي ينوه بها چليني تتعلق بنقض البابا معاهدته مع الإمبراطور الذي قام بدوره بإرسال نائبه امير البوربون المهاجمة روما في ١٥٢٧.

(٩٥) هو جيوفاني دلاً باندي المار ذكره وقد توفي متأثراً بجراحه كما جاء في حاشية سابقة.

فساداً وعمت الفوضى حتى لم يعد يأمن المرء على نفسه من البقاء في دكان عمومي. وهذا مادفعني الى الإنزواء في منزل صغير لطيف خلف الضفة، مواصلاً أشغالي فيه لجميع الذين عددتهم أصدقاءً لي. في ذلك الوقت لم يكن بيدي شيء ذو أهمية كبيرة. ولذلك لاسبب يدعوني هنا الى التحدث عن عملي وقد وجدت سلواي العظمى في مزاولة الموسيقى وما جرى مجراها من وسائل التسلية.

اتبع الپاپا كليمنت نصيحة السيد (جاكوبو سالقياتي) فأستغنى عن الأفواج الخمسة التي أرسلها له السيد (جيوقاني) الذي أدركه الأجل المحتوم في لومبارديا. وما أن بلغ الأمير البوربوني<sup>(٩٦)</sup> ان روما خالية من قوة تحميها حتى زحف عليها بجيشه بأسرع ما أمكنه وهب أهل روما للدفاع عن أنفسهم بسلاحهم، ودرء الخطر عن مدينتهم.

كنت صديقاً حميماً (اليساندرو) ابن (بيرو دل بيني Piro del Bene) وعندما هاجم (الكولونيسي Colonesi)<sup>(٩٧)</sup> روما طلب مني في الواقع أن أتولى حراسة قصره وبناء على هذا رجاني الآن بأن أنتقي خمسين رجلاً أكون على رأسهم لأجل حراسة القصر مجدداً في هذه المناسبة التي تفوق سالفتها خطورةً. فانتقيت خمسين من الشبان الشجعان واتخذنا القصر مقراً حيث عوملنا خير معاملة ونُقدنا أجراً سخياً.

بلغت طلّاع الجيش البوربوني في المدينة وعسكرت امام الأسوار فرجا منّي (اليساندرو دل بيني) أن أرافقه للإستكشاف. فاخترت واحداً من رجالي المخلصين وانطلقنا وانضم إلينا ونحن ساترون فتى يدعى (چكينو دللا كاسا Cecchino della Casa) ولما بلغنا اسوار (كامپو سانتو Compo Santo) لاحت لاعيننا جحافل ذلك الجيش المهيب وهو يبذل محاولات مستميتة لخرق السور والنفوذ الى المدينة. واعتلينا ناحية من السور كان القتال فيها على أشده فشاهدنا عدداً كبيراً من جثث الشبان الذين فتك بهم المهاجمون وكان الضباب يغطى الموقع بصورة كثيفة لايتصورها العقل. التفت الى اليساندرو وقلت:

- ألا فلنسرع بالعودة الى القصر جُهدنا. فليس ثم مانعمله هنا والعدو الآن يتسلق الأسوار ورجالنا يطلقون سيقانهم للريح يبعون النجاة.  
فشاع الخوف في اليساندرو وطفق يصيح:

(٩٦) إنفصل شارل دي بوربون عن قريبه فرانسوا الأول في العام ١٥٢٣ وتحالف مع الإمبراطور شارلكان وزحف على روما بجيش قوامه عصابات من المرتزقة الألمان وغيرهم من بلدان أوروبا. وفيما هو يضرب الحصار على المدينة أصابته رصاصة من المدافع عن الأسوار بمقتل فقضى نحبه. وقد أدعى جليليني كما نرى بهذه المأثرة لنفسه إلا أن إدعائه لم يؤيده أحد.

(٩٧) نسبة الى (كولونا) وهي أسرة شهيرة إيطالية تداني شهرتها آل مديتشي وفارنيزي وبورجيا وغيرها. ظهر منهم السياسة والقادة والپاپاوات. وقد تحالفت هذه الأسرة مع الإمبراطور وفي العام ١٥٢٦ خاصموا الپاپا كليمنت. وكان يرأس مسلحيهم (بومبيو كولونا Pompeo Colona) فأشاعوا الرعب بين الأهلين وأجبروا الپاپا كليمنت على اللجوء الى قلعة سانت أنجلو. الى أن عقدت معاهدة ١٥٢٦ وكانت في صالح الإمبراطور.

- ليتنا لم نأت.

ودار على عقبيه وهم بالفرار كالمجذوب. فصدته عن ذلك وصرخت به:

- أنت الذي جئت بي الى هنا. وعلينا أن نثبت بأننا رجال.

وفي عين الوقت صويت بارودتي الى أكثف بقعة من صفوف العدو وأطلقتها مستهدفاً شخصاً مبرزاً يرتفع عن سائر المتحلقين حوله. وما أدري أكان فارساً أم راجلاً فقد حالت سحابة الدخان بيني وبين التثبيت منه، ثم استدرت بعجلة شديدة نحو (اليسانندرو) و(چكينو) وأشرت عليهم بإطلاق بواريدهم مرشداً إياهما الى كيفية إطلاقها بحيث يتحاشون نار المهاجمين. ورمى كل منّا بندقيتين متتاليتين ثم تطلعت أمامي مختلساً النظر من فوق السور فوجدت اضطراباً عظيماً يسود جحافل العدو ذلك لأن واحدة من بندقاتنا قد أصابت أمير البوربون بمقتل. ومما استنتجت فيما بعد لأبد وأنه كان ذلك الرجل الذي أستهدفته بندقتي لبروزه عن جماعته.

بعد هذا انسحبنا فقطعنا (كامپوسانتو) ودخلنا من باب (سان بيتر) ثم درنا من خلف لنخرج ونحن عند كنيسة (سانت أنجلو) وبذلنا أقصى جهد للوصول الى باب القلعة إذ كان كل من (ريينزو دا چيري (Rienzo da Cerie) و(أورازيو باليوني (Orazio Baylioni)<sup>(٩٨)</sup> منهمكين في قتل أو جرح كل من هرب من القتال فوق الأسوار. وفي الوقت الذي بلغنا المدخل. كان بعض قوات العدو قد إقتحم روما فراحات نجد في اثرنا. وكان قائد الحصن بهم بإنزال الأبواب الوقائية وسد المدخل فأخلى طريقاً وهذا مامكننا من شق طريقنا الى الداخل.

ما أن أحتوتنا القلعة حتى أمسك بي القائد (باللوني دي مديتشي (Pallone de Medici) وإستبقاني لأنني كنت من موظفي القلعة. وأجبرني أسفاً على مفارقة (اليسانندرو) وفيما كنت أصدع الى البرج دخل البابا القلعة من الأنفاق السرية وكان قد أبقى مغادرة قصر سانت بيتر مستبعداً أن يقوى العدو على إقتحام أسوار روما ودخولها فاتحاً.

وهكذا وجدت نفسي في القلعة. دنوت من بعض المدافع التي كانت بإمرة مدفعي يدعى گويانو الفلورنسي. فرأيتة واقفاً يتطلع من فوق السور الى منزله وهو في يد الأعداء ينهبون مافيه ويعتدون على إمرأته وأولاده. ولم يجسر على إطلاق المدافع خشية أن تصيب أسرته. فرمى بفتيلة القدح وأنشأ يلطم وجهه وينتحب بحرقة ولم تكن حال المدفعيين الآخرين بأحسن من حاله فقد أصابهم شلل. عندما رأيت هذا أمسكت بقادح ورحت بمعونة من بقي محتفظاً برباطة جأشه، أوجه بعض المدافع الثقيلة والخفيفة وأطلقها على تجمعات العدو حيثما اقتضت الحاجة. وبهذا الشكل جندلت عدداً كبيراً من أفراد العدو ولولا صنيعي هذا لاستطاعت القوات الغازية التي دخلت روما صياحاً وزحفت على الحصن مباشرة، أن تقتحمه بسهولة لأن المدافع كانت عاطلة. واصلت إطلاق القذائف دون توقف بمصاحبة بركات الكرادلة وتشجيع رهط النبلاء فشد ذلك من عزمي ورفع معنوياتي بحيث صرت

(٩٨) من افراد أسرة بيروجية شهيرة عرف رجالها بشدة المراس. كان سجين البابا في قلعة سانت أنجلو فأطلق سراحه لأجل الدفاع عن الحصن والمدينة. صار فيما بعد قائداً للبانديزي وقُتل وهو يخوض معركة في نابلي (١٥٢٨).

أحاول المستحيل. وعلى كلِّ يكفي القول إن ما قمت به كان العامل الوحيد الذي أنقذ الحصن صباح ذلك اليوم وإن عملي أدى إلى عودة المدفعيين إلى واجباتهم. ولم أتوقف لحظة واحدة طول اليوم حتى حلَّ الظلام.

ثم، وفي أثناء ما كان جيش العدو يتدفق إلى داخل روما من جهة (تراستيفيري Trastevere) عين البابا (أنطونيو سانتا كروچي Antonio Santa Croce) وهو نبيل روماني عالي القدر قائدًا للمدفعيَّة. فكان أول ما عمل أن جاء إليَّ وأظهر لي عطفًا لأمزيد عليه ونصيني أمرًا لبطارية تتألف من خمسة مدافع ممتازة في الـ (النجيل: البرج Angel) وهي أعلى موضع في القلعة. تلك باحة تدور على طول القلعة وتشرف على (براتي) وسائر أحياء روما. ووضع تحت أمرتي فصيلًا من الجند لمعاونتي في معالجة المدافع ودفع مخصصاتي مقدماً وأجرى عليَّ خبزاً وخبزاً، ثم رجاني الإستمرار بالشكل الذي بدأتُه. وكنت شديد الشوق والرغبة في الواقع ربماً لأنَّ طبيعي يميل إلى الحرب والقتال أكثر من مزاولتي صناعتي الحقيقية. وبنتيجة ذلك كان إنجازي هنا أعظم بكثير من إنجازي في صناعة الصياغة!

أرعى الليل سدوله وبه أتمَّ العدو إحتلال روما. ووقفنا نحن المدافعين عن القلعة وأنا بالذات الذي كان لا يميل من الإستمتاع برؤية الأشياء غير الإعتيادية - وقفنا نتأمل في الحرائق والمنظر الذي لا يصدق الممتد أمام أعيننا. لقد بلغ من الغرابة بحيث لا يمكن أن يتصوره أو يتميزه أحدٌ إلا أولئك الموجودين في القلعة. على أني لن أعمد إلى وصف هذا المشهد. وسأقصر الكلام عن وقائع حياتي وما يتعلق بها من أحداث مباشرةً.

لم أتوقف مطلقاً عن إطلاق مدافعي خلال شهر كامل كُنَّا خلاله محاصرين داخل القلعة. وقد جرَّ هذا إلى مختلف الأحداث والوقائع وكلها يستأهل الذكر. إلا أن كرهني الإطالة سيجعلني أهمل التفاصيل حول ما لا يتعلق بحرفتي. وسأترك معظمها وأصف فحسب ما لا بُدَّ لي منه - أعني الوقائع التي تمتاز بأكثر الطرافة والغرابة. وأولها هو أن السيد (أنطونيو سانتا كروچي) طلب مني النزول من البرج لأوجه بعض القذائف إلى بعض المنازل القريبة من القلعة كان قد إحتلها بعض رجال العدو. وفيما أنا أصليهم بقنابري، سددتُ قذيفة مدفع موجهة إليَّ إلا أنها أصابت السور وهدمت جزءاً منه. ولم أصب بسوء إلا أن الانقراض إنهالت من الأعلى وسقطت على صدري فألقتني على الأرض مبهور الأنفاس جثة هامدة كالمغمى عليه. لكن كان في وسعي أن أسمع أقوال الناس الواقفين حولي. وسمعت (أنطونيو سانتا كروچي) يصرخ بألم:

- وا أسفي عليه! فقدنا فيه خير ما لدينا من عضيد.

واجتذبت الضجة إلينا صاحباً لي وهو الزامر (جيانفرانشيسكو) وبصرف النظر عن أسمه الذي ينم عن حرفته فقد كان إطلاعه في أمور الطب يفوق تمكُّنه من الموسيقى. شاهد ما وقع وأسرع وهو يبكي وجاء بقارورة من أجود الخمور اليونانية ثم سخن آجره حتى إحمرت من فرط الحرارة. ووضع فوقها ملء كَفَّ من الأفسنتين وسكب فوقه محتويات القارورة. وعندما تشبعت الأعشاب بالخمر وضع الآجر على صدري فوق الرضَّ الظاهر وضغط عليها. وأحدث الأفسنتين أثره في الحال فعاد إليَّ

رشدي وحاولت أن أقول شيئاً لكن صوتي احتبس في حلقي ولم أستطع النطق بشيء. والسبب هو أن بعض الجنود الأغبياء بادروا الى حشو فمي بالتراب معتقدين إنهم يمنحوني بذلك الأسرار الأخيرة. في حين أنهم كادوا يقضوا عليّ بالحرممان الكنسي بقدر ما يتعلق الأمر بحياتي! وعانيت الأمرين حتى عدت الى حالتي الطبيعية. فما أصابني من التراب كان أشدّ مما أصابني من الضربة؛ بعد أن تماكنت نفسي تماماً عدتُ الى أتون المدافع أطلقها بكلّ حماسةٍ ومثابرة.

لجأ الپاپا الى طلب العون من دوق أوربينو<sup>(٩٩)</sup> الذي كان يقود جيش البندقية. وأرسل له من يعلمه بخبطته وهي: تضرّم القلعة ثلاث نيران تحذيرية من أعلى بنائها بصورة متواصلة كل ليلة وتطلق ثلاث قذائف معاً ثلاث مرات. طالما ترسل القلعة هذه الإشارة. فمعناه إنها مازالت صامدة. وكان من ضمن واجباتي إشعال النيران وإطلاق المدافع. وواصلت أثناء النهار توجيه قذائف مدافعي حيث تحدث أكثر ما يمكن من الضرر وارتفعت مكانتي عند الپاپا بعد أن شاهد بنفسه كيف أقوم بواجبي. ولم تأت النجدة من الدوق ولا أريد الخوض في الحديث عن العلل والأسباب فهذا ليس من شأنني واللبيب تكفيه الإشارة.

وبينما كنتُ مثابراً في أعمال إبليس هذه، اعتاد بعض الكرادلة المقيمين في القلعة أن يختلّفوا اليّ ويراقبوني. ولاسيما كردينال رافنا وكردينال دي غادّي de Gaddi<sup>(١٠٠)</sup> وقد رجوت هذين الأثنين أكثر من مرّة بأن لا يقترباً كثيراً مني لأن طاقيتيهما الحمراوين البغيضتين يمكن مشاهدتهما من مسافة بعيدة، ونجم عن ذلك إننا تعرضنا الى خطرٍ كبير من البنايات المجاورة مثل قصر (تورّي دي بيني Torre de Bini) ولما لم يؤثّر قولي فيهما أمرت بقفل غرفتيهما عليهما، وبذلك خلقت لي منهما عدوين لدودين. فضلاً عن هذا كثيراً ما كنتُ أحظى بزيارة (أورازيو باليوني) الذي كان شديد الحبّ لي. وذات مرّة بينما كان يبادلني الحديث لاحظتُ تجمعاً ولغطاً في حانة كانت تقع خارج مدخل القلعة في محلة تدعى (باكانللو Baccanello) ولافتة الحانة كانت على شكل شمس حمراء اللون رُسمت بين إثنين من النوافذ. وكانت النافذتان مسدودتين الأمر الذي استنتج منه (أورازيو) وجود جمع حاشدٍ من الجنود خلفها ووراء اللافتة بالضبط يعاقرون الخمر ويحتفلون. فقال لي:

- بنفوتو! لو أنك انحرقت عن سبيلك وأطلقت قذيفة مدفعك الصغير بمسافة ذراعٍ من اللافتة فأغلب ظنيّ إنك ستحقق عملاً ماثوراً. هناك ضجيج ولغط عظيمان يصدران من الحانة ولابدّ وأن فيها بعض من ذوي الشأن والمكانة.

قلت:

(٩٩) هو (فرانشيسكو ماريا دلاً روفيري) القائد العام الجيوش الپاپا والتعريض الذي يخصه به جليلني لاشكّ يستأهله لعدم كفاءته أو ربما لخيانته.

(١٠٠) وضع هذا الكردينال بمشاية رهينة عند حلفاء الإمبراطور، وأرسل الى نابلي ولما قُتل اليساندرو دي مديتشي (أنظر الحواشي السالفة) قام بمحاولة فاشلة لإعادة النظام الجمهوري في فلورنسا. ورد ذكره أكثر من مرّة في هذه المذكرات وكانت وفاته في العام ١٥٥٢.

- اني قادر على إصابة الهدف في القلب. إلا اني قلق بسبب برمبل مليء بالحجارة كان قائماً بالقرب من فوهة المدفع فقد ينقلب ويسقط الى الأسفل بتأثير قوة الإطلاق.  
فأجاب يقول:

- لاتضع الوقت يا بنفنونو فأولاً لا يمكن أن يسقط بقوة إندفاع القذيفة وموضعه كما ترى. وثانياً لو سقط فالضرر الناجم سيكون بسيطاً لا كما تعتقد وان كان الپاپا نفسه يتمشى تحته. أطلق مدفعك.

كان في هذا فصل الخطاب. وأطلقت مدفعي وأصبت الشمس في الصميم مثلما وعدت. لكنني كنت قلقاً حول البرميل فقد سقط كما قدرت بين الكرديينالين فارنيزي<sup>(١٠١)</sup> وجاكوبو سالفياتي ولولا الصدفة البحتة لقضي عليهما وسُحقا تحته. فقد كان الكردينال في تلك اللحظة يلوم زميله لأنه تسبب في حصار روما ونهبها ولهذا أخذنا يتبادلان السباب فابتعد أحدهما عن الآخر ليكون أقدر على التعبير عن آرائه. وبهذا التباعد أخطأهما البرميل. وسمع السيد الطيب (أورازيو) الدوي فاندفع الى تحت، واختلست نظرةً الى الصحن في الأسفل حيث سقط البرميل فسمعتهما يقولان:  
- لايد من قتل المدفعي.

وعندها وجهت فوهة مدفعين نحو الدرج عازماً على أن يتلقى أوّل القادمين كائناً من كان كلّ القوة الضاربة لواحد منهما. ولاشك في ان بعض إتياع الكردينال (فارنيزي) أمروا بالصعود والهجوم عليّ فوقفت عند المدفع ويدي فتيل القدح مشتعلاً وصرخت بالمهاجمين وقد عرفت بعضاً منهم:  
- إياكم أيها الحمقى الحفراء أخاطب! إن أجتراء أحدكم على ارتقاء هذه الدرجات فلديّ مدفعان مهيبان وسأجعل اشلائكم تتطاير. انكصوا على اعقابكم. عودوا ادرجكم وخبروا الكردينال باني كنت أنفذ أوامر رؤوساتي. وكل ما فعلنا وما سنفعل هو في سبيل الدفاع عن هؤلاء الكهنة لا إلحاق الأذى بهم.

فعادوا من حيث أتوا وأقبل (اورازيو باليوني) على أثرهم يعدو ويصعد الدرج نهياً فصحت به محذراً وأنا على علم تام بهويته... إلا يتقدم والّا فهو هالك. فتأخر قليلاً وفيه بعض خوف ثم قال:  
- بنفنونو! أنا صديقك.

فأجبت:

- طيب. لا بأس ياسيديّ تفضل ولكن بمفردك.

كان ذا كبرياء وعزّة نفس. فوقف ساكناً هنيهةً ثم قال بلهجة غاضبة:

- تحدثني نفسي بأن لا أتقدم وأن أفعل بعكس ما أنوى عمله بك تماماً.

فأجبت:

- مثلما كان وجودي هنا لغرض الدفاع عن الآخرين وحمايتهم. كذلك إنني لقادر على الدفاع عن نفسي وحمايتها.

(١٠١) فيما بعد انتخب پاپا وتسمّى باسم پولس الثالث.

وعلى أثر هذا قال إنه جاء بمفرده. وعندما بلغ القمة رأيت سحنته منقلبة. فوقفت هناك منتظراً ويدي على قبضة سيفي أصوب إليه نظراً حاداً. وما أن تلاقت إنظارنا حتى بدأ يضحك وانفرجت أساريره وعادت الى هيئتها الطبيعية ثم قال متلطفاً:

- عزيزي بنقوتو. اني لأشعر نحوك بأعظم الحب. وسأثبت لك ذلك بمشيئة الله. كنت أتمنى من صميم قلبي لو قضيت على هذين الوغدين. فأحدهما هو علة كل هذه البلوى. ومن المحتمل جداً أن الثاني سيأتي بما هو أدهى وأمر.

ثم طلب مني (في حالة السؤال مني) أن لا أذكر وجوده معي عندما أطلقت المدفع. وأن لا أهتم أو أقلق بعد هذا.

انجرت هذه الحادثة الى مضاعفات عظيمة. ولم يسدل عليها الستار إلا بعد وقت طويل جداً. إلا اني لا أريد التعقيب على ذبولها وسأقتصر على القول بأنني كدت أثار للوالد من (جاكوبو سالفاتي) الذي على حدّ قوله قد أساء إليه مرات ومرات. ونكّل به. على اني ولو بدون قصدٍ أربعته وأربته الموت شاخصاً أمامه<sup>(١٠٢)</sup> أما عن (فارنيزي) فلا أقول عنه الآن شيئاً. وسيتبين من السياق كم كان من الخير لي لو قتلتته.<sup>(١٠٣)</sup>

واصلت القتال بمدافعي. لا يمرّ عليّ يوم إلا وأسجل فيه مآثرة جديدة ونجاحاً باهراً لا ينقضي يوم عليّ ان لم اجندل فيه بعض المحاصرين فيرتفع رصيدي عند الپاپا بإطراد.

واتفق ذات يوم أن الپاپا كان يتمشى حول الحصن ولمح في (پراتي) كولونياً أسبانياً كان في خدمته قبلاً. وعرفه من ميزات جسمانية معينة فيه. وبينما كان يخزره ببصره من فوق طفق يتحدث عنه. وبدون علم مني بهذا كنت في عن الوقت أتطلع وأنا في أعلى نقطة من البرج فشاهدت شخصاً يشرف على حفر الخنادق كان يحمل رمحاً ويرتدي بزة عسكرية وردية اللون. صرت أفكر كيف أناله فتناولت مدفعاً صغيراً كان بالقرب مني ونظفته - إن المدفع الصغير هو في الواقع أكبر وأطول من البندقية ذات الحامل الدائر على الركيزة والشبيه جداً بالبندقية القصيرة. بعد أن نظفته حشوته بقدر كبير من البارود الناعم مخلوطاً بالخشن. وصويت إليه باحكام رافعاً السبطانه في الهواء. لأنه كان على مسافة بعيدة ولا ينتظر من هذا الطراز من المدافع إصابة الهدف بدقة من هذا المدى. ثم أطلقت النار فأصابت في وسطه بالضبط. كان قد شد سيفه بتلك الخيلاء الإسبانية المعهودة لا الى الجنب بل الى أمام فأصابت القذيفة السيف وشطرت حامله شطرين. بلغ العجب بالپاپا منتهاه فضلاً عن سروره بما حصل وقد فوجي بالأمر وهو مازال يتحدث عن الرجل. إذ كان يستبعد جداً أن يصيب أي شكل من المدافع هدفه من هذه المسافة البعيدة، بل يراه ضرباً من المحال. ولم يستطع أن يفهم كيف قُطع الرجل بالقذيفة الى قسمين ولذلك أرسل بطليبي وسألني الإيضاح.

(١٠٢) أنظر ماسبق حول محاكمة چليني.

(١٠٣) يلمح چليني بهذا الى إعتقاله الطويل الأمد في قلعة سانت أنجلو بأمر من الپاپا پولس الثالث فارنيزي وسيأتي ذكره في القسم الثاني من المذكرات..

فخبرته بما تكلفته من عناء في التصويب وأما عن قطع الرجل الى نصفين فهذا أمر لا أستطيع تعليله ولايستطيع هو نفسه. ثم خررت راکعاً على ركبتي طالباً غفران خطيئة القتل هذه وأمثالها التي اقترفتها دفاعاً عن الكنيسة في القلعة. فرفع يده ورسم شارة صليب كبيرة على رأسي وقال إنه يمنحني بركته ويغفر لي كل القتل التي ارتكبتها في خدمة الكنيسة الرسولية. بعد ان انصرفت من لدنه صعدت الى البرج وواصلت إطلاق قذائفي بأحكام. ولم تضع قذيفة واحدة عبثاً. وملك القتال عليّ كل مشاعري فنسيت دراساتي، رسومي، موسيقي المحبوبة ضاعت كلها بموسيقى المدافع كلها. ولو إني أردت تفاصيل العظام التي صنعتها في جهنم الحمراء هذه لأدهشت العالمين إلا اني سأمرّ بها مرّ الكرام خشية الإطالة. بإستثناء بعض الأحداث الهامة الأخرى التي لايسعني اغفالها.

أجل كان كل أفكاري يتركز ليلاً ونهاراً فيما يمكنني عمله شخصياً للدفاع عن الكنيسة. ولعلمي إن العدو عندما يبذل الحرس اعتاد المرور من باب (سانتوسبيريتو) الكبير وهو ضمن مدى مدافعي تماماً. فبدأت أوجه ناري الى تلك الجهة. إلا اني لم أوقع بالعدو الخسائر التي كنت أرجوها لأن الرمي كان منحرفاً. وإن كان عدد القتلى الذي ينجم عن قذائفي مما لايستهان به. ولما تبين العدو أن طريقه معرض للخطر قام في احدى الليالي بتكديس أكثر من ثلاثين برميلاً فوق سقف بناية وبذلك حجب عني خطّ الروية. فبدأت أفكر ملياً في وسيلة لمعالجة الموضوع فأهتديت الى حلّ. حولت اتجاه مدافعي الثقيلة الخمسة الى البراميل مباشرة ثم انتظرت الى الساعة الثانية قبل المغرب وقتما يتم تبديل الحرس مباشرة.

ولأن الحرس كانوا يتصورون بأنهم غير معرضين لخطرٍ ما فقد أقبلوا على هونهم بنفوس مطمئنة وبصورة متحاشدة وصفوف متقاربة أكثر من المعتاد. فلما أطلقت مدافعي لم أنسف البراميل التي كانت تعوقني بل قتلت أكثر من ثلاثين رجلاً دفعة واحدة نتيجة سقوط هذه البراميل عليهم وحققت عين القدر من الخسائر مرتين آخرين، وأوقعت خللاً كبيراً في صفوف العدو. ونتيجة هذا وكذلك لأنهم أثقلوا بالأسلاب جراء النهب العظيم ورغبتهم في التمتع بما كلفهم الغالي من التضحيات، فقد سادتهم روح العصيان والهروب من الخدمة على أن قائدهم المقدم چيان دي أوربينو<sup>(١٠٤)</sup> Gian di Urbino سكن ثائرتهم. وأضطروا كارهين الى إستبدال طريقهم. وسلوك سبيل دائرية بطول ثلاثة أميال عوضاً عن نصف الميل السابق.

بعد هذه المأثرة صرت موضع إحترام وتكريم خاص من قبل جيمع النبلاء في القلعة وقد أدى ذلك إلى نتائج كنت أريد أن أذكرها وأنفض يدي منها لكنها أمور لا علاقة لها بصناعتي وهي الدافع الحقيقي لما أدونته. ولو شئت تزيين قصة حياتي بأحداث من هذا القبيل لأطلت الكتابة كثيراً. إلا أن ثم حادثاً واحداً ينبغي لي أن أذكره.

وسأغفل الكثير وأجيء الى الوقت الذي استدعاني البابا كليمنت وقد أستبدّ به القلق والحرص على إنقاذ التيجان الباباوية والأكداس المكدسة من الأحجار الكريمة والحلي الرائعة التي تعود إلى

(١٠٤) قائد إسباني شهير كان في معية أمير أورانج الهولندي أثناء الحصار.

الكرسي الرسولي. أخذني الى غرفته وأغلق علينا الباب وكان ثالثنا (كافاليريرو Cavalierino) فقط، وهو في السابق سائس خيل النبيل (فيليبو ستروزي<sup>(١٠٥)</sup>). فرنسي المولد وضيع المنبت لكنه خادم مخلص للغاية وأهل للثقة دون حدّ، وكان الپاپا كليمنت قد صبّ النقود في جيبيه واعتمد عليه اعتماده على نفسه. لم يكن في الغرفة المقفلة غيرنا نحن الثلاثة: الپاپا، كافاليريرو، أنا. وضعا التيجان الپاپاوية، وأكداس الجواهر العائدة للسدة الرسولية أمامي وأمرت بنزاع الأحجار الكريمة من مواضعها في الحلي الذهبية. فقمتم بما طلب منّي. ويعد أن لففتها بالكاغد خطناها ببطانة ثياب الپاپا وثياب كافاليريرو، بعد فراغنا من هذا دفعاّ اليّ بكل الذهب المتخلف وتقدّر زنته بحوالي مائتي پاوند وطلبا مني أن أصهره وأجعله سبائك بنهاية مايمكن من السرية. فصعدت الى البرج حيث أمنت من دخيل أو رقيب وكان لدي غرفتي الخاصة ومفتاحها في يدي وبإمكاني إقفالها. بنيت داخل الغرفة كورا من الآجر ووضعت في قعره وعاء كبيراً مما يستخدم لإحتواء نفاية المعدن على شكل صحيفة طعام وبدأت أضع الذهب فوق الفحم فأخذ يذوب ويسيل شيئاً فشيئاً في الصحيفة. وكنت طوال الوقت والكور متقدّ - لا أفوتّ فرصة واحدة في الحاق الحسائر بالعدو. أتابع تحركاته وأستطلع من عل. وكان مخدقاً تحتنا على مرمى حجر منّا. فقررت أن أطلق عليهم بعض نفايات وكسارات من الذخيرة من أكداس وجدها هناك كانت فيما مضى تستخدم بمثابة عتاد فتخيرت مدفعاً صغيراً وآخر متوسطاً كلاهما معطوب السبطانة. وحشوتهما بالعتاد الفاسد وأطلقتهما. فأنهالت مقذوفاتي عليهم كالحمم وأصابت العدو بضربات قاصمة لم تكن داخله في حسابه، وفي أثناء انهماكي بهذا واصلت عملية صهر الذهب. وقبل صلاة الغروب بقليل لمحت شخصاً يمتطي بغلاً يخبّ به بسرعة على طول الخنادق والراكب يكلم المخدقين. وكنت مستعداً بمدفعي قبل أن يصير مقابل خطّ ناري. فصويت بدقة وأصيته في وجهه بقطعة من الذخيرة التي كنت أستخدمها وأصابته بقية القذائف البغل فسقط ميتاً تحته. وعلى أثر ذلك سمعت ضجّة وصيحات هائلة من الخنادق. فأطلقت المدفع الثاني ناشراً الخراب والدمار.

الرجل الذي أصبته كان أمير اورانج<sup>(١٠٦)</sup> وقد حُمل من الخنادق الى الحانة القريبة. وبعد قليل من الوقت توافد إليها كلّ القادة وأمراء العسكر واجتمعوا معاً. ولما سمع الپاپا بما حصل أرسل بطلبي وسألني كيف حصل هذا فقصصت الحكاية وزدت قائلًا: لايد وأن الجريح عالي المقام لأن كل قادة الجيش أسرعوا الى الحانة التي نقل إليها وهم الآن فيها مجتمعون.

كان الپاپا كليمنت سريع الخاطر ذا ذكاء متوقد فاستدعى قائد المدفعية (أنطونيو سانتا كروچي)

(١٠٥) ورد ذكره في حاشية سابقة. تزوج بابتة پييرو دي مديتشي إلا إنه كان أشدّ خصوم هذه الأسرة. بعد موقعة مونتورولو الذي هزم فيها سجن. وأما قتل نفسه أو إنه قتل داخل السجن بأمر من الدوق كوزيمو دي مديتشي في ١٥٣٩.

(١٠٦) هو فيلبرت دي شالون Philbert de Chalons نقض حلفه مع فرانسوا الأول وإنحاز الى الإمبراطور. ولذلك خلف أمير البوربون في قيادة الجيش الذي هاجم روما. وافاه الأجل و١٥٣٠ أثناء معركة كافيناانا Cavinana.

وهو السيد الذي كنت قد ذكرته قبلاً وطلب منه أن يأمر سائر مدفعييه بتوجيه مدافعهم (وكان لدينا منها عدد يفوق الحصر) الى هدف واحد وهو الحانة. وأن يصبوا قذائفهم عليها في وقت واحد عندما يسمعون الإشارة وهي اطلاقه بندقية. وكان بذلك يتوقع القضاء على كل القادة. ومن نتيجة ذلك أن يتمزق الجيش وينحل بعد أن كانت الفوضى قد دبت فيه. وزاد قائلاً:

- ربما سمع الله صلوات أولئك الذين لم ينفكوا عن التوجه إليه بضراعتهم فيكون هذا هو السبيل لتحررهم من الصعاليك الكفرة هؤلاء.

تهياناً بمدافعنا طبق أوامر (سانتا كروچي) وصرنا ننتظر إشارة البدء. وسمع الكردينال (أورسينو Orsino) بما يجري فهرع الى البابا يحتج. وقال انه محض جنون تنفيذ هذه العملية، بعد أن أشرفوا على عقد الصلح. فلو قضي على القادة الكبار فإن الجنود الذين سيصبحون بدون ضابط سيهاجمون القلعة ويقتحمونها ويلحقون الدمار التام بكل شيء. فهو مهدهد من الداخل قدر ما هو مهدهد من الخارج. وفي لحظة يأس ترك القرار لهم فألغيت الأوامر السابقة. ولإداركي بأننا سنؤمر بالتوقف عن الإطلاق. فقدت السيطرة على نفسي وأطلقت أحد المدافع الصغيرة فأصبت أحد أعمدة باحة البيت الذي كان ثم تجمع فيه. وأحدثت قذيفتي تخريباً كبيراً بحيث هم العدو بإخلاء المكان. وأراد كردينال (اورسينو) أن أشنق أو أرمي بالرصاص فوراً لولا دفاع البابا الحار عني. ومع إنني أتذكر جيداً العبارات الخشنة الغاضبة التي تبودلت بينهما إلا أنني لن أثبتها لأنني لا أكتب تاريخاً. وسأقصر الموضوع على شؤني الشخصية.

بعد إذابتي الذهب حملته الى البابا فشكرني بحرارة على حسن صنيعي ثم أمر كافاليريينو بأعطائي خمسة وعشرين كراوناً معتذراً بأنه لا يملك أكثر لمكافأتي. وبعد بضعة أيام تم إعلان الصلح.<sup>(١٠٧)</sup>

أنطلقت باتجاه (بيروجيا) برفقة كتيبة تتألف من ثلاثمائة رجل للإنضمام الى (اورازيو باليوني). وهناك صار يلح عليّ بقبول قيادة الكتيبة. فرفضت وقلت إنني أريد أولاً الذهاب لروية الوالد. وثانياً لرفع عقوبة النفي المفروضة عليّ في فلورنسا. وهنا بلغ بأمر تسلمه قيادة قوات فلورنسا. وكان عليّ إتصال بالموفد الفلورنسي (بييرماريا دي لوتو Pier Maria di Lotto) وقد زكّاني أمامه خير تزكية باعتباري واحداً من رجاله.

وهكذا بلغت فلورنسا مع عدد من الرفاق والطاعون يفتك بأهلها فتكاً ذريعاً ووجدت أبي الشيخ الصالح. وكان موقناً بأنني إما قتلت في أثناء حصار روما أو سأعود إليه في أسوأ حال. فكان عكس ماقدّر. إذ جئت حياً ومعني المال الكثير وخادم وجواد مطهّم أصيل. وغمرنا الفرح الطّاعي في هذا

(١٠٧) سلّمت القلعة في الخامس من حزيران إلا إن البابا كليمنت ظلّ حتى الثامن من تشرين الثاني معتقلاً ولا شبهة في أن چليني ساهم في الدفاع عن الحصن حتى الأخير. على أن وصفه لبطولاته ومآثره يجب أن يؤخذ ببعض التحفظ. وللوصول الى أوثق الروايات عن حصار روما، أنظر باكي (المرجع السالف ص ٧١).

اللقاء ووقع عليّ الوالد الشيخ يقبلني ويحتضنني حتى خيل لي أنه سيسقط ميتاً. حدثته بكلّ ماتعرضت له من الأخطار الجسام التي عانيتها في حصار روما ثم دفعت إليه بمبلغ كبير من المال حصلت عليه في خدمتي العسكرية. وإعتنقنا وتلاثمنا عدة مرات. ثم انطلقنا فوراً الى مجلس الثمانية لرفع قرار النفي الصادر بحقيّ.

وتشاء الصدفة أن يكون أحد الذين أصدروا الحكم عليّ عضواً في المجلس مرّة ثانية. وهو عين الرجل الذي خاشن الوالد وأنذره بأنه سيسعى الى إعدامي الحياة. وهكذا نال الوالد ثأره ببعض عبارات التعريض مدعماً بالمكانة التي نلتها عند (أورازيو باليوني).

هكذا كان الوضع عندما صارت الوالد بأن السيد (أورازيو باليوني) قد اختارني ضابطاً عنده وأنّ على الآن التفكير في تعبئة جنودي وتنظيم الكتيبة. فاضطرب المسكين اضطراباً عظيماً وأنشأ يتوسل بي مستحلفاً بحجة الله أن أعدل عن هذا المسلك وان كان يدرك جيداً أن ما في نفسي من ملكات يجعلني كفوءاً لذلك بل ولأمور أعظم. وأضاف يقول أنّ ابنه الآخر شقيقي، يقوم بأعمال بطولية بوصفه عسكرياً. وأما أنا فعليّ أن أكرّس نفسي الى فنيّ العجيب الذي أفنيت في إتقانه والدرس فيه السنوات الطوال. ومع اني وعدته بإطاعة أمره إلا أنه أدرك بذكائه المعهود وحسه المهف بأني - حال ظهور أورازيو على المسرح وبسبب الوعد الذي قطعته له وغير ذلك من أسباب كثيرة أخرى - سأنضم إليه في حملته العسكريّة. ثم تفتت ذهنه عن أفضل تحليل لإقناعي بترك فلورنسا والتوجه الى (مانتوا) فقال لي:

- ولدي الحبيب هاهنا الطاعون قد أستشرى وإنني لأرتعد فرقاً إذ أتصورك دائماً وأنت قادم الى البيت تحمل هذا الوباء. وأذكر إنني رحلت في شبابي الى (مانتوا) حيث أصبت الريح والشهرة وبقيت عدة سنين فيها. لذلك أتوسل بك بل أمرك مستحلفاً إياك بمجبتك لي أن ترحل إليها. وسفرك اليوم خير من سفرك في الغد.

كنت دائماً مغرمّاً بالتنقل ورؤية الدنيا. ولأنني لم أكن قد رأيت (مانتوا) قبلها فقد سرّني التوجه إليها. تركت لأبي معظم المال الذي حملته الى البيت. وتعهدت بأن أبقى في عونه أينما كنت وتركت أختي الكبرى للعناية به. كانت تدعى (كوزا) وكانت قد عزفت عن الزواج وترهبت في دير (سانتا اورسولا) إلا أنها أجّلت دخولها الدير ومراسيم التكريس لتتولى العناية بالوالد المسنّ المسكين. ولرعاية أختنا الصغرى المتزوجة بنحّات يدعى (بارتولوميو).

امتطيت جوادي الرائع الأصيل وانطلقت نحو (مانتوا)<sup>(١٠٨)</sup> مزوداً ببركة الوالد. ولو إنني عمدت الى وصف هذه الرحلة القصيرة بتفصيل لأخذت كتابته مني وقتاً طويلاً. كانت الدنيا إذ ذاك تجثم تحت غيوم الحرب والطاعون، فلم أبلغ المدينة هدفي إلا بشقّ الأنفس. إلا اني رحمت أبحث عن عمل حالما وطئتها قدمي.

وجدت ضالتي عند صانع ميلانيّ يدعى (نيقولو) وهو صانع دوق مانتوا الخاص. مامرّ عليّ يومان

(١٠٨) تبعد هذه المدينة عن فلورنسا زهاء مائة وخمسين كيلومتراً الى الشمال.

في المدينة إلا وتوجهت لزيارة (غويليو رومانو) الرسام المبدع الذي سبق لي ذكره وكان من أعزّ أصدقائي. فرحّب بي ترحيباً حاراً. إلا أنه إمتعض جداً مني لأنني لم أنزل في داره فور قدومي. وكان يعيش عيشه السادة العظام وقد استخدمه الدوق في عملٍ محلّ خارج أسوار المدينة يعرف بإسم (دل تي del Té)<sup>(١٠٩)</sup>. وهو مشروع ضخم على مقياس واسع كما أتوقع أن يبدو اليوم. ولم يضع (رومانو) وقتاً في التوصية بي عند الدوق بعبارات ثناء حارة. وبنتيحة ذلك كلّفني بعمل موديل وعاء لدم المسيح الذي جاء به لونغينس<sup>(١١٠)</sup> على زعم أهالي مانتوا - وعندما عهد اليّ بالعمل التفت اليّ (غويليو) وطلب منه أن يتولى تخطيط التصميم لي فأجابه (غويليو):

- مولاي إن (بنفوتو) ليس بالرجل الذي يحتاج اليّ تصاميم الآخرين. وسيرى سموكم رأيي هذا عندما يعرض عليكم تصميمه.

بدأت العمل بالانموذج بحيث جعلت الحقّ الأصلي يدخل في الوعاء بكلّ تساوق وانسجام ثم صنعت نموذجاً صغيراً من الشمع للغطاء وهو عبارة عن تمثال للسيد المسيح جالسٌ يرفع يده اليسرى القابضة على صليب كبير وهو متكيء عليه وصوّرت يده اليمنى كأنها تهم بفتح الجرح في جنبه باصبعه. إنتهيت من النموذج وكان سرور الدوق به عظيماً بحيث جعلني أفهم بأنه سيحتفظ بي في خدمته بشروط تجعلني أحيا حياةً مرفهة. وفي خلال ذلك ذهبت للسلام على أخيه الكردينال<sup>(١١١)</sup> الذي كان قد رجا سموه أن يسمح لي بصنع ختم له. فباشرت به إلا أنني أصبت بحمى الربيع أثناء عملي فيه، وكنت أهذي وأفقد الوعي عندما تعاودني. وفي هذه الحالة أروح العن (مانتوا) ومن يحكمها وكلّ من يسكن فيها مختاراً لامجبراً.

كل ما قلته نقله اليّ الدوق صانعه الميلاي بعد أن أدرك جيداً أن الدوق يرغب في استخدامي. وعندما أبلغ الدوق بهذياني هذا غضب غضباً شديداً ولما كنت حانقاً على مانتوا، فقد ضاهى انفعاله انفعالي. على أية حال انتهيت من ختم الكردينال وقد صرفت فيه مع أشياء صغيرة أخرى له على حساب الدوق زهاء أربعة أشهر. وكان نيافته كريماً جداً في مكافأتي ورجاني أن أعود اليّ روما حيث كان مبدع تعرفي به.

تركت (مانتوا) وجيبي مملوء وحللت في (غوڤنولو Govenolo) وهو الموضع الذي شهد مصرع البطل المغوار النبيل جيوفاني<sup>(١١٢)</sup> وفيه عاودتني الحمى فترةً قصيرة إلا أنها لم تعوقني عن مواصلة السفر. وقد طردتها عني بسرعة وكان هذا آخر هجمة لها وآخر عهدي بها. وصلت فلورنسا مشتاقاً لرؤية

(١٠٩) يقع خارج باب بوستريا في مانتوا. وقد أشرف رومانو على بنائه وزخرفه مع فنانين آخرين.

(١١٠) فيلسوف وخطيب يوناني (٢١٣-٢٧٣). كان وزيراً لزنوبيا ملكة تدمر ونفي معها اليّ إيطاليا عندما قهرها الرومان.

(١١١) هو كردينال أركولي Arcole. واسمه فردريكو غونزكا. كان أسقف مانتوا ثم نصب كردينالا في ١٥٢٧، وتولى الوصاية بعد وفاة أخيه الدوق. توفي أثناء ترأسه مجمع ترنت في ١٥٦٣.

(١١٢) جيوفاني دي مديتشي (دللا باندي) وقد سبق التعريف به في حواش سابقة.

الوالد. وجدت باب الدار مغلقاً فطرقته فبدا لي من النافذة عجوز حذباء عجفاء وراحت تنشال عليّ بالشتائم وطردتني قائلة أن النظر الى وجهي يصيبها بالغثيان فصحت بها:  
- عونك اللّهم أليس ثمّ شخص آخر في البيت غيرك أيتها الشمطاء الشوها؟  
- كلاً لعنك الله لا أحد هنا.

قلت:

- كلّ ما أتمناه هو أننا لن نستبقيك عندنا طويلاً.

وسمعت الضجة جارة لنا فخرجت وأخبرتني بأن والدي وكل من كان في الدار قد أدركهم الأجل المحتوم بالطاعون<sup>(١١٣)</sup> وبما أن قلبي كان يحدثني ويهجس لي بهذه الفاجعة فقد خفّف ذلك من لوعتي وأضطرابي. ثم أضافت الجارة تقول: لم يسلم من الموت إلا أختي الصغيرة لبيراتا وإنها الان تحت رعاية امرأة صالحة تدعى (اندرية دي بيلأجي).

توجهت الى الفندق ولقيت وأنا في طريقي صديقاً عزيزاً يدعى (جيوفاني ريغولي Giovanni Rigogli). فترجلت عند منزله وانطلقنا الى الميدان الكبير وسمعتُ هناك ان أخي ايضاً مازال في قيد الحياة. فرحت أبحث عنه ووجدته في دار صديقه (برتينو ألدو براندي Bertino Aldo Brandi). ولا تسل عن فرحنا وعن عواطفنا المتدفقة. فقد كان كل منا يعتقد أن أخاه ميت. وتعانقتا وتحاضنا بشوق لا يحدّ. ثم أنه قبض على يدي وهو يقهقهه ضاحكاً طوال الوقت وقال:  
- هيا بنا يا أخ. سأخذك الى مكان ما لن تحزره. عليّ أن أخبرك بأنني زوجتُ شقيقتنا لبيراتا ثانية. وهي تحسبك في عداد الأموات.

وفي طريقنا إليها صار بعضنا يخبر بعضاً عن التجارب العجيبة التي مرّت بنا. ثم عندما وصلنا دار لبيراتا ووقع نظرها عليّ سقطت متهاككة بين ذراعيّ وقد انعقل لسانها بهذه الزيارة المباغطة وأغمى عليها. ولو لم يكن أخي معي لساورت زوجها الظنون في أن أكون أي شخص خلا أباها، بسبب غشيتها وإنعقال لسانها. والواقع أن الشك بدء يساوره إلا أن (چكينو) شرح كل شيء. وعالج لبيراتها حتى أفاقته. وبعد أن ذرفت بعض الدموع لذكرى أبيها وأختها وزوجها وابنها الصغير بدأت تهيمّ لنا عشاءً. وقضينا بقية الأمسية بإنشراح ولم نأت الى ذكر الموتى ثانية. بل تحدّثنا عن الزيجات والأعراس وتمتعنا بهذا الإحتفال الصغير.

ومع قيام الرغبة عندي في العودة الى روما. إلا أن رجاء أخي وأختي فجح في ابقائي. حتى (بييرو دي جيوفاني لاندي) نفسه ذو الأيدي البيضاء والذي بذل العون الكبير لي في محني السابقة كما ذكرت - فقد نصحني هو الآخر بالبقاء في فلورنسا فترةً من الزمن. ولما طرد آل مديتشي<sup>(١١٤)</sup> (أعني

(١١٣) مات في فلورنسا حوالي أربعين الف نسمة بوباء الطاعون الذي اجتاح المدينة ما بين أيار وتشرين الثاني ١٥٢٧.

(١١٤) انتهز الجمهوريون فرصتهم بحصار روما وإعتقال البابا كليمنت (١٥٢٧) في قلعة سانت انجلو فثاروا بزعامة (آل بانينيوني) على حكاهم وطردوهم وأعيد النظام الجمهوري وأنتخب نيقولو كاپوني Niccolo Capponi كونفالونيراً.

النبيلين: ايبوليتو Ippolito و ألساندرو. وأولهما نصب فيما بعد كردينالاً وثانيهما أختير دوقاً). أشار عليّ الصديق (بييرو) بالترهيب والبقاء ترقباً لما سيحدث. لذلك بدأت أزاوّل صنعتي في السوق الجديد وراجت أعمالتي في تكفيت الأحجار الكريمة وربحت مالاً كثيراً.

في ذلك الحين قدم من سيينا شخص يدعى (جيرولامو ماريتي Girolamo Marretti) كان خارق الذكاء ذا حيوية، قضى شطراً من حياته في تركيا. جاء الى دكاني ذات يوم وكلفنني بعمل طغراء من الذهب لمقدمة قبعته. وأوصى أن يمثل النقش المحفور صورة (هرقل) وهو يعالج فتح شدقي الأسد قسراً. وفي أثناء إشتغالي بها؛ كت أحظى بعدة زيارات من (ميكالنجلو بوناروتي). عانيت مشقة كبيرة في هذه الطغراء. وفتحت فتحاً جديداً في تصميمي للصورة وفي طريقة تعبيرتي لشراسة الأسد. وكان (ميكالنجلو) الخالد يجهل تماماً أسلوبتي الذي كان جديداً بالنسبة إليه. وقد أدى ذلك به الى إمتداح عملي والإشادة به حتى شعرت وكأن نار الطموح للإجادة والسمو بالعمل تحرقني حرقاً. على أنه لم يكن لدي ما أعمله سوى تكفيت الجواهر ومع أن ربحي من هذا كان كبيراً إلا أنني لم أقنع به. ولم يرو غلتي فقد كنت أريد أن أجرب خطي في فنون أسمى من فن تكفيت الجواهر. ثم ظهر المدعو (فيدريغو جينوري Federego Ginori) في أفق حياتي. كان شاباً يتدفق حيوية قضى جانباً من حياته في ناپلي حيث أكسبته وسامته وقامته المشوقة وحضور بديهته شهرة داوية حتى أن إحدى الأميرات عشقته وأصبحت خليلته. واتفق انه رغب في ان تُصنع له طغراء يظهر فيها (أطلس) وهو يحمل الدنيا على كتفيه، فرجا من (ميكالنجلو) ان يخطط له رسماً تقريبياً. فقال له:

- اذهب، ابحث عن صانع شاب يدعى (بنقنوتو) وسيرضيك عمله بالتأكد، ثق انه لن يحتاج الى نموذج مني. ولكي لاتظن اني أمسك نفسي عنك في أمر بسيط كهذا فساخظ لك تصميماً وفي عين الوقت اتصل ببنقنوتو وأطلب منه نموذجاً صغيراً أيضاً. وسيكون في وسعك عندئذ اختيار أفضلهما.

فجاءني (فيدريغو جينوري) وفاتحنني بمطلبه ونقل لي الشئ العاطر الذي أغدقه عليّ (ميكالنجلو) ورغبته في أن أصنع نموذجاً صغيراً من الشمع في حين وعده (ميكالنجلو) العظيم بعمل مخطط.

كان لأقوال (ميكالنجلو) عني تأثيراً الإلهام والوحي في نفسي، وبدون أن أضيع دقيقة واحدة باشرت متلهفاً بصنع النموذج. وبعد فراغي منه جاءني رسام يدعى (گوليانو بوجيارديني Giuliano

=وفي العام ١٥٢٩ عقد الصلح النهائي بين البابا والإمبراطور وكان من شروطه إعادة آل مديتشي الى الحكم فسبق جيش الى المدينة وألقى عليها الحصار ولم تستسلم إلا بعد أحد عشر شهراً. وعاد (اليساندرو) لتولى الحكم بموافقة الإمبراطور. ومع أن سعة عقل هذا الدوق وإدراكه الواسع أكسباه محبة الفلورنسيين إلا أن قوته وخشونته وفرضه الضرائب والأنوات والعمل على الاثراء الشخصي أسخطت الناس عليه. وانتهز قريبه وعشيرته لورنزو هذه النعمة فاغتاله ظاناً انه سيرتفع في نظر الجمهور الساخط على القتييل وتنشب ثورة في المدينة فيها غنم كبير له. فلم يحصل هذا واضطر الى الهروب.

(Bugiardini) من أخلص أصدقاء (ميكالنجلو) يحمل لي الرسم، فأطلعت (كويليانو) على نموذجي الشمعي الصغير في عين الوقت وكان يختلف تماماً عن المخطط. وكانت النتيجة أن (فيدريغو) فضلاً عن (بوجيارديني) حكماً أن أتخذ نموذجي الشمعي أساساً. فبدأت بصنعه وشاهده العليم الحبير (ميكالنجلو) فلم يجد عنده غير الثناء العظيم عليّ. وكما ذكرت في الأول كان ثم صورة أطلس<sup>(١١٥)</sup> محفورة في صفحة رقيقة من الذهب ومثلت قبة السماء بكرة بلورية حُفرت فيها دائرة البروج في حقل من اللازورد وأكملنا بنقش عبارة Summa tulisse في الأسفل فخرجت تحفة يجلب جمالها عن كل وصف. وحازت رضا (فيدريغو) ونقدني عنها أجراً عالياً. وكان أثناء ترده إلى دكاني يأتي مع صديقه الحميم (ألويجي آلأماني Aluigi Alamanni)<sup>(١١٦)</sup> وهو آنذاك في فلورنسا. فكان ذلك سبباً في نشوء صداقة متينة بيننا.

أعلن البابا (كليمنت) الحرب على فلورنسا. ووضعت المدينة في حالة الدفاع وعبثت المليشيا في كل ميدان من المدينة. وكان عليّ أن أنتظم فيها أيضاً. فتجهزت بشبكة سلاح وعدة حرب فاخرة وأنضمت إلى فريق أرفع النبلاء الفلورنسيين وكان يبدو عليّ كل فرد منهم الحماسة والشوق للمساهمة في الدفاع. وكالعادة راح الخطباء في الميادين العامة والساحات الكبرى يستنهضون الهمم وإلى جانب هذا بدأ شبان فلورنسا يتجمعون سوية ولا حديث لهم غير الحرب. وفي ذات يوم التأم في دكاني جمع من الأشخاص بينهم رجال شجعان في عنفوان رجولتهم وشبان أشداء في مقتبل العمر ينتمون جميعاً إلى أعرق وأهم أسر المدينة. وكان الوقت ظهراً وفي أثناء ذلك تسلّمت رسالة من روما أرسلها إليّ رجل من تلك المدينة يدعى (الأستاذ جاكوبينو دلاً باركا Maestro Jaibino della Barca). وأسمه الحقيقي في الواقع هو (جاكوبو دلاً باركا). لأنه كان يملك عبارة للنقل في نهر التيسير بين (پونتوسستو Ponto Sisto)<sup>(١١٧)</sup> وبين (پونتو سانت أنجلو) رانحة غادية. كان (جاكوبو) هذا إنساناً ذكياً ومحدثاً بارعاً ذا فكاهاة وسرعة خاطر. وكان إلى زمن غير بعيد مصمماً لحانكي السجاد في فلورنسا. وهو الآن من خاصّة البابا كليمنت المقربين وكان هذا يأنس جداً بأحاديثه. ويبدو أن البابا كان يجاذبه ذات مرة أطراف الحديث فأنجّر بهما إلى أحداث حصار روما ودفاع القلعة. فتذكرني البابا بالكتابة التي ودعوتني.

وتضمن الكتاب ضرورة الإنضواء في خدمة البابا وما سيصيني من خير أن لبيت الدعوة. كاد الشوق يقتل الشباب المجتمع عندي لمعرفة محتويات الرسالة. وكان عليّ أن أكتم الأمر عنهم ماوسعني. بعد ذلك كتبت لجاكوبو راجياً منه أن لا يرسلني بأي شكل كان وفي أي ظرف شراً كان أم

(١١٥) في أساطير الإغريق. أحد العمالقة الذين حاربوا الآلهة. حكم عليه زفس (جوتتر) زعيم الآلهة أن يحمل قبة السماء على كتفيه.

(١١٦) أديب وشاعر فلورنسي وواحد من أبرز معارضي أسرة دي مديتشي ومقاومي إستيدادهم. نفي إلى فرنسا وعاش في حماية فرنسوا الأول وتوفي في ١٥٥٦.

(١١٧) اي بين الجسرين اللذين ذُكرا في المتن. اي سيسستو وسانت أنجلو.

خيراً. وهذا ما جعله أكثر عزمًا وتصميمًا فكتب إليّ ثانيةً بأسهاب وتفصيل وتهويل قد يلحقني منه أذى كبير لو انكشف فحوى رسالته. قال: ان الپاپا خوگه بأن يأمرني بالتوجه الى روما فوراً. وانه ينوي تقليدي منصباً في غاية الأهمية فان أردتُ أن أحقق نجاحي في الحياة وأعيش في بحبوحة فعلياً أن أترك كل شيء دون تأخير والآن أبقى أقاتل الپاپا مع ارهاط من الشوار المجانين. قرأت الرسالة فامتلتُ خوفاً ولجأتُ إلى صديقي العزيز (پييرو لاندي) وما أن وقع نظره عليّ حتى سألتني ماذا حصل لي ودهاني لأبدو بهذه الحالة من القلق. قلت اني لا أستطيع مصارحته بالسبب الذي أدى بي الى هذه الحالة. وكل ما أرجوه منه أن يتسلم مفاتيحي وأن يعيد الجواهر والذهب الى فلان وفلان المثبته أسماؤهم في دفترٍ صغيرٍ. ثم ينقل كل مقتناي من داري ويحافظ عليه بلطفه وكرمه الماثورين. واني سأعلمه بمكاني خلال بضعة أيام. إن هذا الشاب ذا الفكر الناقب والنظر النفاذ ربما حزر ما أضمره أو كاد فقد أجابني قائلاً:

- عزيزي الأخ، أذهب حالاً ثم أكتب لي. وأما عن أشيائك فثق إنها ستكون في حرز حريز. نفذت ما نصحتني به وتركت فلورنسا وعند وصولي روما كتبتُ له. فبنا رعاه الله من صديق صدوق! أشد وفاء وأرجح عقلاً وأعلى خلقاً وأعظم إثارةً وأكبر قلباً من أي صديق آخر عرفته!!

حال وصولي روما رحلتُ أفئتش عن أصدقائي وكان إستقبالهم وترحيبهم بي حاراً. وشرعت في مزاوله صنعتي فوراً لأتزود بشيء من المال ولم أصنع شيئاً هاماً يستحق الذكر والوصف. كان ثم صانع كبير السن دذو سمعة عالية في النقابة معروف بأمانته وإستقامته يدعى (رافايلو دل مورو Raffaello del Moro) طلب مني هذا الرجل بأدب أن أشتغل في دكانه ان شئت. فقد كُلف ببعض الأشغال الهامة يضيق بها وقته وفيها ربح كبير. فأسرعت بالقبول مسروراً.

مرّ أكثر من عشرة أيام دون أن أفكر في التوجه الى (جاكوبو دللا باركا) وفي ذات يوم إلتقي بي بمحض الصدفة فرحب بي أجمل ترحيب وسألني كم مرّ عليّ وأنا هنا فقلت حوالي أسبوعين فاستاء جداً وقال إنني تصرفت بشكل خالٍ من اللياقة تجاه الپاپا الذي سبق فأصرّ على أن يكتب لي ثلاث مرات ملحفاً. ولما لم أكن أقل انزعاجاً منه فقد كظمتُ ما أشعر به من غيظ ورفضت أن أنطق بحرفٍ. وعندها شرع (جاكوبو) الذي عرف بالحدلقة والثرثرة يرتجل خطبة وتدفتت العبارات من حلقه كصيب الغيث.

فصبرت عليه حتى أفرغ ما في جوفه. وقلت: بإمكانه أن يأخذني الى الپاپا متى شاء ولم أزد. فأجاب: الآن نذهب اذن. فأجبت اني لعلی أتم استعداد وأنطلقنا معاً الى القصر. وبالإتفاق كان اليوم (خميس الغُسل Maunday) عندما وصلنا جناح الپاپا سمح لنا بالدخول رأساً لأن رفيقي كان معروفاً ولأن قدومي كان متوقعاً. فوجدنا الپاپا قد أوى الى فراشه بسبب وعكة بسيطة. وكان عنده كل من السيد (جاكوبو سالفياتي) ورئيس أساقفة كاپوا Capua<sup>(١١٨)</sup> ما أن وقعت إنظار قداسته عليّ حتى

(١١٨) مدينة تقع على مسافة ٢٨ كيلومتراً من شمال (ناپلي).

انبسبت أسارير وجهه وبان عليه السرور فقبلت قدميه بكلّ خشوع وإتضاع ثم دنوت منه وجعلته يدرك بأني أريد التحدث معه في أمر هام. فأتى بإشارة من يده تقهقر على أثرها كلّ من جاكوبو ورئيس الاساقفة الى مسافة عنا فبادرت فوراً الى القول:

- أيها الأب الكليّ القداسة. منذ أيام حصار روما وأنا لم أعترف بخطاياي ولم أتناول القربان المقدس. إذ لا أحد يمنحني الحلة والغفران. وما حصل هو هذا. عندما صهرت الذهب وقمت بكلّ ما ينبغي عمله من نزع الأحجار الكريمة أمر قداستك (كافاليريينو) بأن يدفع لي مكافأة صغيرة لقاء أتعابي. ولكن كلّ ما نلتُ منه هو الإساءة. وبعد أن عدت إلى غرفتي حيث قمت بإذابة الذهب عمدتُ الى غسل الرماد ووجدت فيه ما تبلغ زنته باوند أو نصف الباوند من حبات الذهب الصغيرة بحجم بذرات الدخن. ولما كنت خالي الوفاض لا أملك ما استعين به على السفر الى مسقط رأسي والوصول إليها بشكل لائق! (١١٩) فقررت أن أستعين بهذا الذهب على أن اردّه إليك عند سنوح الفرصة لي. وها أنذا الآن عند قدمي قداستك الغافر الذنوب الحقيقي. اناشدك بأن تجيز لي الإعتراف وتناول القربان المقدس، لأستطيع برضاك نبيل رضى الله.

وأطلق البابا تنهيدة خافتة - ربما لتذكره كلّ ما عاناه ثم قال:

- بنفنونو! بالتأكيد أنا هو ذاك الذي قلت فيّ إنني لقادر على حلّك من جميع الخطايا التي اقترفتها. وأكثر من هذا إنني لراغب في ذلك كن مطمئناً ولا تخشى مصارحتي بكلّ شيء ولا تكتم عني حتى ولو كان ما أخذت يعادل تاجاً ياباويًا: Tiara. اني أكثر من مستعدٍ لأمنحك الغفران.

فأجبت:

- يا صاحب القداسة. لقد أعترفت بكلّ ما أخذت. وقد بلغت قيمته عند صرفه في دار الضرب (بيروجيا) ما لا يزيد عن مائة وأربعين دوقية. أخذت النقود وذهبت لأصلح بها حال والدي الشيخ المعدم.

قال البابا:

- أثبت أبوك بأعماله إنه انسان فاضل مستقيم ذو ملكات ومواهب لم تلد أم من هو بمثل طبيته وأنت شبيهه بالضبط. ويؤسفني أن كانت النقود قليلة. وأنا أقدمها لك هبة خالصة وأمنحك الغفران الكامل. قل هذا لمعرفك إن كان ضميرك خالياً من أي شيء يتعلق بي. ثم بعد أن تعترف وتتناول القربان، عد اليّ ثانيةً. وسيكون الخير ذلك في هذا.

بعد إنصرافي من لدنه دنا منه جاكوبو سالفيا تي ورئيس الأساقفة فأنشأ يتكلم عني لهما بحرارة تفوق الحرارة التي يمدح بها أي انسان آخر. وقال بأني إعترفت له وإنه منحني الغفران. وأمر رئيس الأساقفة بأن يرسل في طلبي ويسألني عما إذ كان هنا كأمرٍ آخر يقلقني وأن يمنحني المغفرة الكاملة وأعطاه السلطان المطلق لذلك وزاد بأن أوصاه أن يعاملني بما يسعه من لطف.

وإستولى على (جاكوبينو) ونحن في طريقنا عائدين نوع من الفضول فظلّ يسألني عن محتوى

(١١٩) هذا القول يناقض مارواه عن نفسه عند بلوغه فلورنسا بعد الحصار.

حديثي الطويل الذي تمّ يمثل هذه السريّة مع الپاپا. وظلّ يلحّ في السؤال فقلت بالأخير: اني لا أعتزم إخباره إذ ليس في الحديث ما يهّمه شخصياً. وليكفّ عن السؤال. أنجزت كلّ ما تمّ ترتيبه مع الپاپا من المراسيم الدينية. وما أن خرجنا من يومي العيد حتى ذهبت للسلام عليه. وكان في ترحيبه بي أكثر لطفاً من المرة الأولى وقال:

- لو وصلت روما قبل هذا بقليل لعهدت إليك بإعادة صنع هذين التاجين العائدين لي اللذين أذبنهما في القلعة. ولكن لما كانت قيمتهما بذاتهما وبدون الجواهر - غير كبيرة. فإني سأسند إليك عملاً في غاية الأهمية، سيتيح لك الفرصة لإظهار كفاءتك. إنها عروة لغفّارتي<sup>(١٢٠)</sup> أريدها بحجم صحيفة صغيرة وبإستدارتها، قطرها ثلث كويت (ستة أنجات). النقش سيمثل صورة الله الأب بنصف بروز وعليك أن ترصع في الوسط هذه الألماسة الدقيقة القطوع، فضلاً عن عدد كبير من الأحجار الكريمة. كان قد بدء بها رجل يدعى (كاردوسو Caradosso) ولم يتمّها وأنا أريدك أن تنتهي منها بسرعة لأنعم قليلاً بلبسها. فاذهب وأصنع لي نموذجاً جيداً. ثم أمر بعرض كل الأحجار الكريمة عليّ. وبعدها انطلقت الى داري كالقذيفة...

توفي (فيدريغو جينوري) بدء السلّ أثناء حصار فلورنسا. وآلت الطغراء التي صنعتها له الى (لويجي آلماني). وهذا بدوره أخذها وقدمها مع طائفة من أروع آثاره القلمية هدية الى ملك فرنسا (فرانسوا الأول). فسّر بها الملك سروراً لا حدّ له وقام الرجل الألمعي (لويجي آلماني) باعطاء جلالته نبذة عني كرجل فضلاً عن مواهبه كفنّان ومدحني فأفرط في مدحي مما حمل الملك على إبداء رغبته في التعرف بي.

وفي عين الوقت كنت قد وقفت كل وقتي ومجهودي على إكمال نموذج لعروة غفّارة الپاپا بالحجم الطبيعي كما أرادته بالضبط. إن هذه الثقة التي أودعت بي. أثارت سخط كثير من أرباب الصنعة الذين كانوا يعتقدون برون أنفسهم أهلاً لها فحقدوا عليّ. وكان ثمّ شخص يدعى (ميكيلوتو Mich-elotto) ماهر جداً في الحفر على العقيق فضلاً عن كونه جوهرياً بارعاً، ورجل له خبرة السنين وصيت العمل الدقيق وهو عين الصانع الذي كلّفه الپاپا بصياغة التاجين الپاپاويين. أعرب هذا الرجل عن دهشته لأنني لم أقصده للمشاركة فيما عهد به الپاپا اليّ وهو القدير الكفوء موضع ثقة قداسته. وبعد أن تأكد بأنني لا أنوي مراجعته قصدني هو نفسه وسألني بم أشتغل؟ فأجبت:

- بما عهد اليّ الپاپا؟

فقال:

- فوضّني الپاپا بالإشراف على كلّ عمل يعود الى قداسته.

فقلت:

- عليّ أن أستفسر من قداسته أولاً وسيكون في وسعي بعد ذلك أن أختار الجواب المناسب لطلبه.

(١٢٠) هذه التحفة الشهيرة من أعمال چليني نزعتم من الغفّارة وأضيف ثمن ذهبها وأحجارها الكريمة الى مبلغ الغرامة الحربية التي فرضها ناپليون بوناپرت (أنظر بلون ص ١٤٥).

فأنفعل من ردّي وقال:

- إنك ستندم على هذا.  
وأنصرف عني حانقاً.

ثمّ إنه اجتمع مع كل أعضاء النقابة الآخرين وبعد التداول في الأمر قرروا أن يتركوا القضية في يده وبرأيه. وكانت خطوته الماكرة التالية هي جمع أكثر من ثلاثين نموذجاً تخطيطياً لعروة الغفارة عملها عددٌ من الرسامين الماهرين. ولما كان وثيق الصلة بالپاپا محترم الرأي عنده، فقد اتفق مع جوهرى آخر من أهل ميلان يدعى (پومپيو) وهو من المقرين جداً عند قداسته كما يمتُّ بصلّة القرابة إلى أمين الخزانة الپاپاوية (ترايانو Traiano). هذان الصائغان أعني پوكپيو وميكيلى أبلغا الپاپا بأنهما شاهدا نموذجي ومنه يبدو إنني غير كفوء لإنجاز مثل هذا العمل البالغ الدقة.

فأجابهما الپاپا بأنه يريد الإطلاع عليه أيضاً، فإن وجدني قاصراً عن الأمر حقاً فسيعهد بالعمل الى آخر من الأكفاء. فبيننا له أن في حوزتهما الآن نماذج جميلة وهي كاملة. فأجاب الپاپا إنه مسرور لسماح ذلك. إلا أنه يفضل أن لايتفحص النماذج قبل فراغي من نموذجي، وعندئذ سيفاضل بين الجميع. فرغت من نموذجي في بضعة أيام وأخذته الى الپاپا في صباح يوم فأعاقني السيد (ترايانو) وسارع في إستدعاء (ميكيلوتو وپومپيو) فحضرنا مع نماذجهما. ثم دخلنا جميعاً وخفّ الصائغان الى عرض الرسوم وكان شوق الپاپا لرؤيتها لا يقل عن لهفتهما الى عرضها.

إن المصممين الذين لا يمارسون صنعة التكفيت بالأحجار الكريمة لا يدرون كيف ينسقون الجواهر في الحلية أو يضعونها في اماكنها المناسبة. إذ لم يتلقوا درساً على يد خبراء مُجربين قضوا وقتاً في مجال الممارسة. ومن الطبيعي أيضاً أن يكون الجواهرى بارعاً في التأليف بين ما يرسمه من تهاويل وصور على المعدن وبين توزيع الأحجار الكريمة في ثنايا رسومه على الحلية وإلا لا يعود لعمله قيمة فنية. لذلك كنت تجد الألماسة الرائعة في كل الرسوم المعروضة وقد جعل موضعها وسط صدر الله الأب. هذه الهفوة لم تخف عن عين الپاپا الناقدة. وهو صاحب الذوق السليم ومتذوق الفن الرفيع. فلم يحفل بها. إذ بعد أن تفقد عشرتها منها القى بالباقي على الأرض واستدار نحوي وكنت واقفاً عن كتب وقال لي:

- ألا فلنلق نظرةً على أمودجك يا بنثوتو. ونأمل ألا تكون قد وقعت في الغلط نفسه.

فتقدمت منه وفتحت علبة صغيرة مستديرة. وهنا أضاءت عينا الپاپا بنور مفاجيء وهتف يقول:

- ماكنت ستعملها بأفضل من هذا حتى ولو تقمصت نفسي. وهؤلاء الآخرون ماكانوا ليجدوا وسيلةً يحطون بها من قدرهم أفضل مما فعلوا.

ثم تجمع عدد كبير من كبار الأشراف حولنا وراح الپاپا يشير إلى الفرق بين نموذجي والنماذج الأخرى. وارتفع بمدحه الى السّماكين. في حين سُمّر الصائغان في مكانهما فرّقاً وذهولاً وهما منتصبان أمامه. ثم إنه التفت اليّ وقال:

- إنني لا أرى إلا عقبة واحدة. إلا إنها هامة جداً يا بنثوتو. فالشمع مادة لبننة مطواعة ومن السهل

الإشغال بها. والإمتحان الحقيقي هو عندما يشتغل المرء بالذهب.

فأسرعت الى الإجابة بحرارة:

- أيها الأب الأقدس. هذا عهدٌ بيني وبينك إن لم أصنع الحلية بشكل يفوق عشرة أضعاف النموذج دقةً وجمالاً فياني لن اتقاضى منك دانقاً واحداً.

فشاع لغط عام وارتفعت أصوات من بعض رجال الحاشية المحيطين بنا. وقال منهم قائل: إنني أسرف في الوعود. إلا أن أحدهم وهو فيلسوف كبير جداً التزم جانبي وتكلم في صالحني إذ قال:

- من سيماء هذا الشاب وتناسق أعضاء جسمه، أجدني واثقاً من أي شيء يعد به بل وأكثر.

فأضاف البابا قائلاً:

- لهذا السبب أتفق معك.

ثم استدعى أمين سره (ترايانو) وأمره أن يأتي من الخزانة بخمسمائة دوقية ذهبية وفيما نحن ننتظر عاد قداسته يتأمل طريقتي الفضة في براعة التأليف بين الألماسة وبين صورة الله الأب. كل ما فعلت هو أنني وضعت الألماسة في المركز تماماً. وصورة الله الأب وهو ملتفت برشاقة الى جهة - يجلس فوقها. وكان تأليفاً في غاية الأناقة والجمال لا ينقص من تأثير الألماسة. وجعلت تحتها ثلاثة من صغار الملائكة يسندون الحجر الكريم بأيديهم مرفوعة الى الأعلى وجعلت الملاك الأوسط بارزاً تماماً في حين نقشت الآخرين بنصف بروز وأضفت عدداً آخر من الملائكة الصغار بتناسق مع الأحجار الكريمة الأخرى وألبست صورة الأب جبة فضفاضة تتطاير في الهواء ويخرج من حناياها عدد من الملائكة الصغار (الكروبيم) وكان ثم زخارف أخرى جميلة تزيد في الصورة العامة روعةً وكلها عملت بالجص الأبيض على الحجر الأسود.

عندما جيء بالمال قام البابا بتسليمه اليّ بنفسه ثم رجا مني بلطفٍ ساحرٍ أن أنجزها بأسرع ما يمكن وهو في قيد الحياة ليسرّ بها وأضاف يقول إنني لأنفع نفسي بذلك.

أخذت المال وانصرفت ومعني نموذجي وبلهفتي الى البدء بالعمل خلت أن دهرأ إنقضى قبل الوصول الى الدكان. وبعد ثمانية أيام من العمل الشاق المتواصل أرسل البابا أحد أمنائه وهو نبيل من أهل (بولونيا) رفيع القدر. وطلب مني أن أخذ العروة الى البابا وأعلمني هذا السيد الذي لا يدانيه أحد في البلاط لطفاً ورقةً أن الغرض من استدعائي هو رغبة صاحب القداسة في القاء نظرة على ما أنجزته فيها فضلاً عن تكليفي بعمل آخر لا يقل عنها أهمية وهو حفر قوالب لسكة دار الضرب في روما. وأوصاني بأن أستعد للإجابة عن إستفسارات البابا وأسألته بهذا الشأن. فأدخلت إليه وعرضت عليه الصحيفة الذهبية الرقيقة ولم يكن فيها غير صورة (الأب) إلا أن دقة التصوير فاقت النموذج الشمعي فلم يتمالك البابا نفسه وهتف مشدوهاً:

- إعتباراً من الآن سأصدق كل ما تقول.

ويعد أن أمطرني بوابل من الثناء اردف يقول:

- أريد أن اكل إليك مهمة ثانية لاتقل أهميتها عندي عن الأولى وربما فاقتها وأملى أن تنجح فيها.

ثم بسط لي رغبته في أن يكون لسكته قوالب خاصة وسألني عن مبلغ خبرتي وهل سبق لي أن مارست مثل هذه الصناعة. وكم أراني أهلاً للاضطلاع بها. فأجبت إني راغبٌ وأن لي ثقةً بمقدرتي. وقلت إني قد تابعت الطريقة وشاهدت كيف تجري لكنني لم أطبقها عملياً بنفسني.

كان المدعو (توماسو دا پراتو Tommaso da Prato) الداتاريو الپاپوي<sup>(١٢١)</sup> حاضراً في هذه المقابلة. ولكونه صديقاً لخصومي فقد تدخل بقوله:

- أبانا الأقدس إنك تُغرق هذا الشاب بثقتك إغراقاً وهو شديد التلهف إليها بحيث بات مستعداً للوعد بخلق دنيا جديدة. لقد أوكلت إليه عملاً خطيراً وأنت تعهد إليه الآن بعملٍ أخطر وستكون النتيجة أن يعوق أحدهما الآخر.

التفت الپاپا إليه وهو حائق تماماً وأمره ألا يتدخل فيما لا يعنيه. ثم طلب مني أن أعمل له نموذجاً لدويلون ذهبي<sup>(١٢٢)</sup> يُشاهد فيه السيد المسيح عارياً موثق اليدين من الآية (هوذا الرجل Ecce Homo) وعلى الظهر پاپا وإمبراطور كلاهما ممسكان بصليب قائم مع إنحراف قليل وعبارة "وكان فيهم روح واحدة وإيمان واحد Unus spiritus et una fides erat in eis". ما أن أكمل الپاپا توصياته لي بشأن هذه العملة الجميلة حتى دخل (باندنللو) النحات وكان ذلك قبل أن يمنح لقب (فارس). وبمزيج من جهله وإدعائه الفارغ المعهود قال معقّباً:

- يجب أن يزود الصاغة بتصاميم عندما يعهد إليهم بأشغال في مثل هذه الدقة والجمال. فاستدرت نحوه واجبته في الحال إني في غنى عن تصاميمه في مجال صناعتي. كما إني على ثقة بأنه لن يمرّ طويل زمن حتى تصيب تصاميمي تصاميمه بضربة موجعة. طرب الپاپا لقولي ثم مال نحوي وقال:

- والآن أذهب بسلام يا عزيزي بنثنوتو وضع كل طاقاتك في خدمتي ولا تهتم بما يقوله هؤلاء الحمقى المغفلون.

فخرجت و عملت بسرعة لاتصدق قالين فولاذيين. ضربت بهما عملةً ذهبيةً. وفي عصر يومٍ أحد بعد الغداء حملت قطعة النقد مع القالبين الى الپاپا فأدهشه الأمر كما سرّه لا لدقة الصنعة وحدها وهو ماخلف فيه إنطباعاً عظيماً بل لأنني كنت سريعاً في إنجاز الطلب بشكل غير متوقع أبداً. ولكي أزيد من أعجاب الپاپا جئت بمسكوكات عتيقة من عمل أولئك الفنانين البارعين الذين كانوا في خدمة الپاپاوين (يوليوس وليون). وبعد أن تأكدت من إعجابه بقالبي وتفضيله إياه على مارآه. أخرجت من جيبي طلباً مكتوباً رجوته فيه إسناد منصب مراقب دار الضرب لي. وكان الراتب الشهري لهذه الوظيفة ستة كراونات ذهبية. عدا أجره القوالب التي تدفع من قبل المدير العام لدار الضرب بنسبة دوقية واحدة لكل ثلاثة. فأخذ الپاپا عريضتي والتفت وناولها للداتاريو وأمره أن يبت في الطلب

(١٢١) الداتاريو Datario الپاپوي هو السكرتير الأول لدائرة المظالم والشكاوى والاسترحامات. ويتولاهما من هو في درجة أسقف أو كردينال.

(١٢٢) الدويلون هو أسم العملة الذهبية الإسبانية الرائجة في ذلك العصر.

بالإيجاب على الفور. فأخذ الداتاريو العريضة وقال وهو يدسّها في جيبيه:  
- أيها الأب الأقدس أرى أن لا يستعجل قداستك بهذا القدر. فهذه الأمور تستدعي كثيراً من المداولة  
والتحريض.

فأجاب البابا:

- سمعت ما قلتُ. والآن هات العريضة.

أمسك بها ووقعها بإندفاع ثم أعادها مشفوعة بهذه العبارة:

- لا أظنك تملك الآن أي جواب على هذا. فعجّل بالإجراءات وتلك مشيئتي إن حذاء (بنثنوتو) أغلى  
قيمة من أعين كل أولئك المغفلين.

شكرت فضل قداسته وعدت الى عملي والدنيا لاتسعني من فرط السرور.

لم أترك دكان (رافاييلو دل مورو) وبقيت أزاول عملي عنده. كان لهذا الرجل الفاضل إبنة فتية في  
غاية الجمال. وكان يضعني نصب عينه كلّمًا فكر في أمر مستقبلها متمنياً في سرّه أن أتزوجها. وقد  
هجست نبتة بعض الشيء فرحبت بها ووقعت من نفسي موقعاً حسناً. إلا أنني لم أظهر ما ينمّ عما  
أضمره وأشعر به. في الواقع كنت شديد التحفظ والانطواء مما أثار دهشته. واتفق أن داءً خبيثاً  
أصاب يد الفتاة المسكينة اليمنى وسرت الأكلة في عظمتي خنصرها وعظمة بنصرها وتسبب إهمال  
أبيها أن يتولى علاجها دجال مشعبد قال إن لم يحصل الأسوء فإن الشلل هو المتوقع للذراع كلها.  
وهصر الألم قلب الوالد المسكين ولما وجدته في هذه الحالة المفجعة صارحته بأنني لا أثق بقول هذا  
الطبيب الجاهل أبداً. فقال إنه لا يعرف طبيباً ولا جراحياً وليس من أصدقائه من يمتنهن الطب ورجاني  
أن آتي طبيب إن كنت على معرفة بأحدهم. ولم أضع وقتاً وأستدعيت طبيباً اسمه (جاكوبو) وهو  
جراحى من بيروجيا ذو سمعة وشهرة. لاتسل عن الرعب الذي كان مستولياً على الفتاة إذ لا يدّ وإنها  
حذست أقوال الدجال في عاقبة المرض. إلا أن الطبيب النطاسي الذي استقدمته قال بعد فحصها أن لا  
خطر ثم يتهددها مطلقاً. وستكون قادرة على إستخدام يدها بأحسن ما يمكن وإن كان أصبعها  
الأخيران سيظلان أضعف قليلاً من البقية. إلا أن هذا لن يكون عائقاً قط.

وبدء بعلاجه وبعد أيام قلائل عندما إرتأى أن يستأصل العظام المتسوسة من الأصبعين. استدعاني  
أبوها لأشاهد شيئاً مما كان ستعانيه الفتاة المسكينة. كان الطبيب يريد استخدام عدد من الأدوات  
الجراحية البدائية المصنوعة من الحديد ورأيت انه لا يحقق أي تقدم في عملياته وإنه سيسبب لها آلاماً  
فظيعة. فطلبتُ منه أن يتريث لمدة خمس دقائق حتى أعود. ثم هرعت الى دكاني وصنعت شفرةً  
فولاذية صغيرة معقوفة رقيقة ماضية كحدّ الموسى ثم عدتُ وبدأ الطبيب عملياته بها فأنجزها بيسر  
ولطف ولم تشعر الفتاة بالألم ما وتمت العملية والعلاج بمدة وجيزة. ولهذا تزايد حبّ الرجل لي ففاق حبّه  
لولديه وبذل الغالي والنفيس لكي تستردّ ابنته الجميلة صحتها.

في تلك الأيام ارتبطت بحبل الودّ مع السيد (جيو فاني غادي G. Gaddi)<sup>(١٢٣)</sup> وهو موظف في بيت

(١٢٣) مواطن فلورنسي من أشد مشجعي الأدب والفن تحمساً. كان مديراً لبيت المال البابوي.

المال البابوي ومن عشاق الفن ومشجعيه. وإن كان هو نفسه عاطلاً عن مواهبه. وكان يشاطره السكن عالم متبحر بالآداب اليونانية يدعي (جيوقاني)، وباحث آخر أيضاً يدعي (لودوفيكو دا فانو Lo-dovico da Fano) والسيد (أنطونيو الليغريتي<sup>(١٢٤)</sup> Antonio Allegretti) والسيد (أنيبال كارو Annibal Caro<sup>(١٢٥)</sup>) وهو بعد شاب في مقبل العمر. وكنت أنا وذاك الرسام الممتاز (باستيانو Bastiano البندقي<sup>(١٢٦)</sup>) نستمتع بصحبتهم. وكنا نجتمع بهم عند جيوقاني كل يوم تقريباً. شاءت المقادير أن تكون صداقتي لجيوقاني السبب في أن يسعى إليه الصائغ الفاضل (رافايللو) ليقول له:

- سيدي العزيز جيوقاني أظن إنك تعرف أي نوع من الناس أنا. ولي الآن رغبة في تزويج ابنتي الصغيرة من (بنفوتو) ولما كان يشق عليّ أن أجد وسيطاً أفضل من مقامك الشريف فقد قصدتك بهذا الأمر راجياً عونك. وإنني أترك لك تحديد صداقتها.

ما كان الرجل الطيب يختم كلامه حتى اندفع الأحمق المأفون يجيبه بلهجة جازمة وعبارات خرقاء لا طعم لها:

- أقفل هذا الموضوع يارافايللو. فأنت بعيد عن مرامك هذا بعد كانون الثاني عن ثمر العليق. صدم الرجل المسكين وخابت أماله في، فحاول تزويج أبنته بآخر وحقدت عليّ الأم والبنت نفسها وبقية أفراد الأسرة وأنا لا أدرك السبب. وما استنتجت هو أنهم يقابلون إحساني بالأساءة وعطفي بالموجدة. فقررت أن أفتح لي دكاناً في عين الحي. ولم يخبرني (جيوقاني) بشيء إلا بعد أن تمّ تزويج الفتاة. وقد حصل هذا بعد بضعة أشهر.

كنت في تلك الأثناء أعمل بجدّ لإنهاء القطعة وفي نفس الوقت أقوم بوظيفتي في دار الضرب ذلك لأن البابا أمرني بعمل تصميم لقطعة نقد أخرى بقيمة كارلينيّن<sup>(١٢٧)</sup> في وجهها تُنقش صورته. وفي ظهرها يُنقش منظر سير السيد المسيح فوق الماء ماداً يده إلى تلميذه بطرس مع عبارة "Quare dubitasti = لماذا داخلك الشك؟". وقد أعجب بها الكلّ حتى أن واحداً من أمناء سرّ البابا يدعى (إل سانگا Sanga) وكان من أحسن الناس ثقافة وإطلاعاً قال لقداسته:

- فليختر قداستك بهذه العملة فهي تفوق كل ماضيه القدامى لأنفسهم مع ما كانوا يتمتعون به من عزّ وما يحفّ بهم من مظاهر الرفعة والعظمة. فردّ عليه البابا بقوله:

(١٢٤) شاعر فلورنسي.

(١٢٥) أحد أعظم كتاب زمانه (١٥٠٧-١٥٦٦) ومن الشعراء المعدودين عرف بترجمة الاينياد وكان في ذلك الحين سكرتيراً لجيوقاني غادي. وهو من أعزّ أصدقاء چليني وعلى معرفة تامة بطبعه الناري الذي لا صلاح له (بلون ص٩٥).

(١٢٦) هو سيباستيان دل بيومبو Sebastian del Piombo. رسام بندقي معروف (١٤٨٥-١٥٤٧) ولد في البندقية وامتاز بالوانه.

(١٢٧) مفرداها (كارلين) عملة إيطالية عتيقة متغيرة القيمة.

- وكذلك فليفخر بنقنوتو بخدمته امبراطوراً مثلي يقدر قيمته.  
وكنت أوالي عرض الحلبة الذهبية الهامة على البابا كل يوم بناء على طلبه فيزداد إعجاباً بها  
بازدياد رؤيته إياها.

في ذلك الحين كان أحد اخوتي في خدمة الدوق أليساندرو وجاء الى روما بمعيته وكان الدوق الذي  
منحه البابا مؤخراً دوقية (پنا Penna) قد استخدم عدداً كبيراً من المقاتلين الأشداء الممتازين الذين  
تلقوا تدريبهم في معهد جيوفاني دي مديتشي. وقد برزوا كلهم بالإقدام والشجاعة. إلا أن الدوق كان  
يعد أخي واحداً من أشجع شجعانهم.

في ذات يوم بعد الغداء توجهنا الى دكان المدعو (باچينو دلاً كروچي Baccino della Croci) ويقع  
بالقرب من الضفة حيث إعتاد هؤلاء العسكريون النجباء الإختلاف إليه. فانطرح على ضفة منه  
وأدركنه سنة من النوم. وفي تلك الأثناء مرت دورية من الشرطة تقود موقوفاً وهو كابتن سابق في  
جيش جيوفاني دي مديتشي من لومبارديا يدعى (چستي Cisti) ولم يكن أتذ في خدمة الدوق. واتفق  
أن كابتن آخر وهو (كاتيفانزا دلگي ستروزي Cattivanza delgi Strozi) كان يقف عند باب الدكان. فلما  
راه (چستي) صاح قائلاً:

- كنت في طريقتي إليك لأفئك ما بدمتي لك من نقود قليلة. فإن أردتها فعليك أن تفعل شيئاً قبل  
أن يقفلوا عليها وعلي باب السجن!

كان الكابتن (كاتيفانزا) من أولئك الذين يدفعون الآخرين لخدمتهم ولايزجون أنفسهم في مكان  
الخطر. فوجد عدداً من الشبان ذوي البأس والإقدام. لايجزمون عن أمثال هذه المغامرة، فتوجه إليهم  
وطلب منهم أن يلحقوا بالكابتن (چستي) ويتسلموا منه النقود. فإن إعترضت الشرطة سبيلهم فعليهم  
أن يثبتوا لهم ويبرهنوا على معدنهم بإستخدامهم القوة. وكانوا أربعة كلهم مرد لم تنبت لحاهم إن لم  
تعوزهم الشجاعة فهم يفتقرون الى الخبرة ولا يصلحون لمثل هذا الأمر الكثير التعقيد. أحدهم كان  
يدعى (برتينو ألدو براندي) والآخر (أكويلوتو دا لوگا) أما الآخران فلا أتذكر اسميهما. كان أولهما  
تحت أمره أخي وهو الذي دربه وبينهما مودة وإخلاص.

أجل، اندفع هؤلاء الشبان الأربعة يتعقبون الشرطة الذين كانوا يزيدون عن الخمسين وهم مسلحون  
بالبنديات والحرايب والسيوف الثقيلة ذات المقبضين. لم يطل الحديث بين الفريقين ووضع الأربعة  
أيديهم على سلاحهم وكان هجوماً عنيفاً صاعقاً فلو أظهر (كاتيفانزا) وجهه في تلك الساعة لولى  
الشرطة الأدبار دون حاجة منه الى إمتشاق سيفه.

وبعد معركة قصيرة أصيب (برتينو) بجرح بليغ وسقط على الأرض وأصيب (أكويلوتو) بجرح في  
ذراعه الأيمن أقعده عن إستعمال سيفه فانسحب ناجياً بجلده وحذا الآخران حذوه. ثم حمل (برتينو)  
وهو في حالة خطرة.

كل هذا جرى ونحن جلوس حول المائدة إذ قد جيء بوجبة الظهر متأخرة ساعة واحدة عن الموعد

المعتاد. سمع (جيوقاني) الإبن الأكبر الضجة فنهض يريد أن يخرج لإستطلاع الأمر فناديته قائلاً:

- ناشدتك الله لاتذهب ففي مثل المسائل لا بدّ وأن تخسر شيئاً وليس ثم ربح فيها قطّ.  
وتوسل به أبوه كيلا يخرج يقول مشابه. إلاّ إنه انطلق مسرعاً الى تحت غير ملتفت الى أقوالنا. وما أن بلغ الضفة حيث وقع القتال حتى رأى (برتينو) محمولاً. ففكر راجعاً بسرعة. وفي طريقه لقي أخي (چكينو) فاستوقفه وسأله ما الأمر. ومع أن بعض المستطرقين والمتفرجين أشار الى الفتى من طرفٍ خفيّ أن لا يخبره بما وقع ويقفل فمه. إلاّ انه كالا هبل الأخرق - راح ينفذ الحكاية برمتها وختمها بقوله ان الشرطة قتلت (برتينو) فأطلق أخي المفجوع صرخة عظيمة لاتخطئها الأذن عن مسافة عشرة أميال ثم سأل جيوقاني:

- أيمكنك أن تصف لي قاتله؟

فأجاب (جيوقاني):

- أجل. هو رجل يحمل سيفاً ذا مقبضين وثم ريشة زرقاء في قبعته.

فاندفع أخي المنكود وأدرك القاتل متعرفاً عليه من الوصف وبإقدامه المعهود قذف بنفسه الى وسط الدورية وفاجأ غريمه غير معطيه فرصة وطعنه طعنةً نجلاء وجندله على الأرض والسيف غائب في بطنه حتى المقبض، ثم إستدار نحو البقية وهاجمهم بعنفٍ وشراسة وكاد يهزمهم جميعاً لولا أن واحداً من حملة البندقيات أطلق النار عليه دفاعاً عن نفسه فأصيب الفتى البائس السبيء الحظّ بجرح في أعلى ركبته اليمنى. وفيما هو على الأرض مسجى تفرق الشرطة مسرعين خشية أن يهاجمهم مقاتل في مثل إقدامه.

ولما إستمرّ الضجيج تركت المائدة أنا الآخر وتمنطقت بسيفي (في تلك الأيام كلّ رجل كان يحمل سيفاً) وتوجهت الى جسر سانت انجلو، وهناك وجدت تجمعاً لعدد كبير من الناس وعرفني بعضهم فأفسح لي بشكل يلفت النظر الى شيء ما كنت لأرغب قطّ في تكبد العناء لرؤيته لو عرفت مسبقاً ما هو. في مبدء الأمر لم أتبينه، لأنه كان يرتدي ثياباً غير الثياب التي رأيتها عليه قبل ساعات فكان هو الأسبق الى معرفتي والى مخاطبتي قال:

- يا أعزّ أخٍ. لاتحزن لما نزل بي من نكد طالع فصناعتي تحت خطاي الى ذلك. خذني من هنا بسرعة فما بقي لي من الحياة قليلٌ.

وفي أثناء ما كان يتكلم أطلعتني بعض الواقفين بالإختصار الذي يتطلبه الموقف على ما وقع، واجبته قائلاً:

- أخي إنه لأعظم مصابٍ بي. إنها الفاجعة الكبرى والقارعة القاصمة فلتطمئن نفسك بأني سأنتقم لك بيدي ممن أصابك قبل أن تغمض عينيك.

كانت كلماتنا ذات دلالة واضحة لكنها شديدة الإيجاز.

في تلك اللحظة كان فصيل الحرس على بعد خمسين خطوة منّا، ذلك لأن ضابطهم (مافيو Maffio) أمر قسماً منهم بالعودة لنقل العريف الذي قتله أخي فخففت الحظى نحوهم. وقد لمت أطراف معطفي

حول جسمي لما محكماً. قصدت (مافيو) حتى صرت أمامه وكنت قاتله لامحالة لو لم أجدني محشوراً بين الجمع المحتشد حوله. ثم وبسرعة البرق إنتضيت سيفي حتى منتصفه ألا أن برلنغييري برلنغييري (Berlinghier Berlinghieri) أسرع فكتفني من خلف. كان صديقاً عزيزاً جريئاً بأسلاً لاشك في بسالته وكان معه أربعة من الفتیان من عياره.

فصاحوا (بمافيو):

- أمض لطيتك. فقد كاد هذا الرجل يصرعك وهو بمفرده.

فسأل "من هو؟"

فأجابوه:

- هو شقيق الرجل الذي تراه هناك.

كان هذا كل ما يريد سماعه فأنسحب الى (توري دي نونا Torre di Nona)<sup>(١٢٨)</sup> برجاله فوراً. والتفتوا الي قائلين:

- حلنا دون ماترغب يا بنثوتو مستخدمين القوة وما فعلنا هذا إلا حرصاً عليك والآن فلنذهب لمدارة الجريح أخيك فحاله تسوء بسرعة.

عدنا الى أخي فحملناه الى منزل قريب وتشاور الأطباء الذين جيء بهم أثناء قيامهم بعلاجه إلا أنهم لم يتوصلوا إلى رأي قاطع في بتر ساقه - ربما كان فيه نجاته - على كل، ما أن ضمّد الجرح حتى أقبل الدوق الساندرو وأخذ يوجه الى (چكينو) عبارات ملأى بالعطف والمواساة وهو ما يزال مالكاً وعيه. فأجابه أخي:

- مولاي! إنني لن أسف على شيء قدر أسفي على فقدانك خادماً قد لا يكون أشجع كل جنودك لكنه غير قابل للتعويض بأي شخص آخر يخلص لك ويمحضك الود مثلي.

فقال له الدوق "عليك أن تفكر في إنقاذ حياتك فحسب. وأمّا عن الأمور الأخرى فأنا لا أجهل أبداً إخلاصك وبسالته". ثم التفت الى أحد مرافقيه وأوصاه بأن يلبوا كل طلب للفتى الباسل ويكفوه كل حاجة.

وبعد أن إنصرف بدء جرح (چكينو) ينزف بشدة وتعذر إيقاف النزف ولم يكف عن الهذيان طول الليل التالي، إلا عندما هموا بمناولته الأسرار الأخيرة، فقد قال:

- عليكم أن تعرفوني أولاً ثم تناولوني القربان. والآن أصبح يتعذر أخذ القربان المقدس على هذا الجسم الفاني. ألا دعوني أخذه روحياً من خلال عينيّ وسيضيئ روعي الخالدة التي لا تطلب منه غير الرحمة والغفران.

بعد هذا القول نُحي القربان جانباً. وعاد يهذي مرةً أخرى وخرج من فمه أقبح القول وأهول الهرف الشنيع. وإستمر هذا طول الليل دون إنقطاع. وبيزوغ شمس اليوم التفت الي وقال:

- أخي العزيز. لا أريد أن أبقى هنا بعد الآن. لأنهم يرغموني على القيام بعمل يائس بحيث يجعلهم

(١٢٨) هو سجن المجرمين العاديين في روما.

يأسفون لإعتراضهم سبيلي.

ثم باعد ما بين رجليه ورفع الجريحة منهما الى أعلى وكانت مستقرّة داخل صندوق ثقيل جداً، كأنما يهم بأمّتطاء جوادٍ. أخيراً أدار وجهه نحوي وردد العبارة التالية ثلاث مرات:  
- وداعاً وداعاً.

بهذه الكلمات خرجت روحه الشجاعة<sup>(١٢٩)</sup> في الوقت المناسب وهي الساعة الثانية والعشرين مساءً. دفنته بإحتفال مهيب في كنيسة الفلورنسيين<sup>(١٣٠)</sup> ثم شيدت له ضريحاً من الرخام في غاية الجمال ونقشت فيه مجموعة من الرايات والبيارق وأعلاماً ولا أنسى أن أذكر هنا. إن رفيقاً له كان قد سأله أي واحد من حملة البندقيات أصابه وهو يستطيع تشخيصه فأجاب بالإيجاب ووصفه له. وقد حاول أخي بكلّ ما في وسعة أن يحول دون سماعي هذا، لكنني أبلغتُ به وبشكل مفصل وسأبين ما أسفر عنه ذلك في الوقت المناسب.

أعود الى شاهد القبر الرخامي، فأقول تكرمّ عليّ بعض الأدباء اللامعين الذين يعرفون أخي بقطعة تأبينية قالوا إن الفتى الشهم النبيل يستأهلها وإليك هي:

Francisco Cellino Florentino, qui quad in teneris annis ad Joannem Medicem ducem plures victorias retulit et significavit, facile documentum dedit quantae fortitudinis et consilii vir futurus erat ni Crudelis foitarchibuso transfurus fuit, quinte besto jaceret Bevenuto frater posuit. Obiit die xxvi, Maii, MDXXIX.<sup>(١٣٢)</sup>

قضى نحبه وهو في الخامسة والعشرين وقد رغبت أن أثبت تحت شعار أسرتنا إسمه الذي به يناديه الجنود وهو "چكينو ابن الزامر Cecchino del Piffero"<sup>(١٣٢)</sup> (إما أسمه الحقيقي فهو (جيوفانفرانشيسكو چليني) فأمرت بحفر هذا الإسم بأحرف عتيقة الطراز في غاية الجمال كلها مكسورة عدا الحرفين الأول والأخير فقد جعلتهما مستقيمين. فسألني الأدباء الذين كتبوا التأبين عما ترمز إليه الحروف المتكسرة فأجبت إنها جسمه تلك الآلة العجيبة قد تفسخت وتحللت أما الحرفان السالمان فالأول منهما يرمز الى عطية الله العظمى وهي روحه المتقدمة بالقوة الربانية الروح التي لايعتربها إنكسار. أما الحرف الأخير فقد أبقيته على حالة لاخلد المجد والشهرة التي نالتها شجاعته الرائعة. فوجدوا هذا التدبير في غاية السمو والنبيل وصار بدعة يقلدها الآخرون.

(١٢٩) هناك وصف لمقتل چكينو چليني في كتاب (قصص العنف: فاركي الص ١١-٥٠).

(١٣٠) أصل إسمها (كنيسة سان جيوفاني فلورنتيني) بوشر ببنائها في أيام البابا ليون العاشر وتم ذلك تحت إشرافه وساهم في هندستها وزخرفتها كل من ميكالنجلو وچاكوبو داسانسافينو وسان گاللو.

(١٣١) هذه ترجمتها التقريبية:

"في هذا الموضع يتوي جثمان فرانشيسكو چليني الفلورنسي. الشاب اليافع الذي حقق إنتصارات باهرة وكتب له شهرة فائقة وأعطى البرهان على الشجاعة والقوة والمقدرة وعلى حسن المشورة منذ ان بلغت سنه الخامسة عشرة. أصيب بطلق ناري من بندقية إخرقت جسمه وهو يرقد هاهنا في الضريح الذي أعدّه له شقيقه بنفوتو چليني. كانت وفاته في ٢٧ من ايار ١٥٢٩.

(١٣٢) ومعنى الإسم "الصادق ابن العازف على الناي".

وحفرتُ شعار أسرة چليني<sup>(١٣٣)</sup> على الرخامة أيضاً إلا أنني غيرتُ فيه قليلاً. ففي (رافناً) وهي مدينة عتيقة جداً، حيث تحظى أسرة چليني بمقام رفيع جداً وشعارها هناك يمثل رجل الأسد الأمامية بلون ذهبي على أرضية زرقاء فاتحة. والمخلب الأيمن من الرجل المسك بزنبقة حمراء وفوقها خطٌ وثلاث زنايق ذهبية صغيرة. وهذا هو شعار آل چليني الصحيح. والشعار الذي أطلعني عليه الوالد ليس فيه غير المخلب دون زنايق مع بقية الرموز الأخرى. إلا أنني فضلتُ شعار چليني فرع (رافنا) كما وصفته آنفاً.

ولأعد إلى ما نقشت منه على قبر أخي فقد جعلت في مخلب الأسد بلطةً حربية بدلاً من الزنبقة. ولم أغير من حقل الشعار. وإني ما أقحمتُ البلطة إلا لأذكر نفسي دائماً بدءاً بواجب الثأر من قاتله. وإنهمكت في شغلي محاولاً الفراغ من حلية الياپا الذهبية. فقد كان شديد الإهتمام بإحجازها واعتاد أن يرسل بطلبي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الواحد ليلقي نظرة عليها. ويزداد إعجابه وسروره بها كل مرة يشاهدها. لكنه كان يكثر من لومي وتأنيبي أحياناً بغضبٍ بسبب حزني العظيم لوفاة أخي. وفي إحدى المرات قال لي وقد راعه مني كأبتي وضعف حالي:

- بنقنوتو! أف لك يا بنقنوتو ماكنت أعتقدك مغفلاً إلى هذا الحد. ألم تكن تعرف ان الموت لاعلاج له؟ انك تبذل قصارى جهودك لتلحق به.

تركت مجلس الياپا وعدت إلى بيتي لأشتغل في الحلية وأعمالي في دار الضرب إلا أنني بدأت في عين الوقت أتعقب البندقي الذي قضى على أخي وأراقبه مراقبة دقيقة كأنه فتاة هُمت بحبها. كان هذا الرجل حيناً من الزمن جندياً في كتيبة الخيالة الخفيفة. ثم دخل مسلك شرطة البارجلو في فوج حملة البندقيات. وما زاد في حقدني عليه إنه كان يتبجح ويفاخر بما قدمت يداه فيقول:

- لولا فتكي بذاك الشاب لألحق بنا هزيمة نكراء وصرع مناً عدداً كبيراً. لقد أصبته وقد كاد يقضي علينا.

أدركت بأن حالة الهم التي تلازمني لكثرة رؤيتي له قد حرمتني الأكل والنوم وأني أصبحت حطاماً. لذلك كُتبتُ السؤال الذي ظل يساورني فلا أجد له جواباً قاطعاً: أمخلٌ بالشرف ومهينٌ للسمعة ما أنا مصمم عليه أم لا؟ وفي أمسية حزمت أمري على التخلص من عذابي.

كان الرجل يسكن في منطقة تسمى تورّي سانگونجينا (Torre Sanguina) وداره ملاصقة لدار غانية من أشهر غانيات روما تدعى (سنيورا أنتيا Signora Antea). أعلنت الساعة الرابعة والعشرين ليلاً. ووجدت البندقي واقفاً على عتبة منزلة بعد أن فرغ من عشائه. فزحفت إليه وييدي خنجر مستوي. وكان هو مسلحاً بسيفٍ ووجهت إليه طعنةً من الخلف قاصداً أن أفصل بها رأسه عن جسده لكنه إستدار فجأة فوقعت الضربة في أعلى كتفه الأيسر وقطعت العظم.

فقفز وقد طاشت الضربة بعقله من فرط الألم المبرح فأقلت السيف من يده ثم أطلق ساقيه للريح فجددت في أثره حتى أدركته وبينني وبينه خطوة أو إثنتين ثم هوت يدي بطعنة أخرى في عنقه.

(١٣٣) في المكتبة الوطنية بفلورنسا رسم لشعار الأسرة من عمل چليني نفسه.

وغاص النصل عميقاً حتى باءت محاولاتي لإقتلعه بالفشل. في تلك اللحظة وأنا أستخدم كل قوتي لجذبه - اندفع من بيت (آنتيا) أربعة جنود وبأيديهم السيوف مجردة. فاضطرت إلى تجريد سيفي لأدافع عن نفسي. وتركت الخنجر في موضعه ووليت الأدبار خشية أن يُفتضح أمرى وتُعرف هويتي. وقصدت منزل الدوق الساندرو دي مديتشي ويقع بين ميدان (نافونا Navona) والروتوندا. ما ان احتوتني جدران الدار حتى أفضيت للدوق بما حصل. وذكر ما فهمت منه ان لا حاجة بي إلى التواري عن الإنظار إن كنت وحدي. وطمأنني قائلاً "واصل عملك في حلية الپاپا فهو يكاد لا يصبر حتى تنهتي منها". ونصحتني بأنه يفضل أن أشتغل في داري لمدة أسبوع. أضف الى كل هذا. إن الجنود الذين فاجأوني، ظهروا الآن على مسرح الأحداث ومعهم خنجري ووصفوا ما وقع وكيف انهم حاولوا ما يشبه المستحيل لإنتزاع الخنجر من عنق القتيل الذي لا معرفة لهم به. وفي أثناء ذلك لقيهم جيوفاني بانديني وكشف لهم أن الخنجر هو خنجره واني قد إستعرت منه بقصد الإنتقام به من قاتل أخي. وعندما فهم الجنود ذلك راحوا يعتذرون لإعتراضهم سبيلي وان كنت قد أصبت ثأري كاملاً. مرّت ثمانية أيام ولم يرسل الپاپا في طلبي كعادته. بالأخير أرسل لي عن طريق أمين سرّه وهو النبيل البولوني الذي ذكرته آنفاً والذي أخطرتني بلطف أن قداسته قد علم بكل شيء. إلا أن مكانتي عنده باقية كما كانت وما عليّ إلا أن أمضي قدماً في عملي وأن أبقى ساكناً. عندما لقينا الپاپا عبس بوجهي وبسرّ.

وكانت نظرات التهديد الحادة التي يرسلها كالنصال المرهفة تكاد تنزع عني روحي ولكن ماكاد يتفحص شغلي حتى إنفجرت أساريه وأضاء وجهه بالبشر وأظن في مدحي قائلاً إنه لإنجاز رائع في وقت وجيز جداً. بعد هذا نظر الي شزراً وقال:

- الآن وقد شُفيت فأعط لحياتك حقها. وأعرف كيف تضع قدمك أي بنقنوتو!  
حزرت المعنى الذي يكمن في عبارته واجبته إني سأفعل حتماً. وسارعت ففتحت دكاناً ممتازاً جداً على الضفة مقابل دكان (رافايللو) وهناك أكملت حلية الپاپا في غضون أشهر قلائل.

كان الپاپا قد بعث اليّ بكلّ الأحجار الكريمة المختارة لوضعها في الحلية ماعدا الألماسة فقد إرتتها في ساعة الضيق لدى بعض الصيارفة الجنوبيين. فكفّت الجواهر في أمكنتها. وأنزلت نموذجاً للألماسة في الموضع المخصص لها. كانت اشغالي وقتذاك رائجة جداً والناس يقصدونني متزاحمين ولذلك إستعنت بخمسة من الصاغة القديرين الجوالين. وكان دكاني يضيق بما يحوي من النفائس بين الحلي الثمينة والأحجار الكريمة والذهب والفضة. فاقتنيت كلباً ضخماً الجئنة كثيف الشعر جميل الشكل هو هدية من الدوق (اليساندرو) كان بالأصل كلب صيد دُرّب على قنص كل أنواع الطيور ومادب من الحيوان وهذا ما تأيد لي عند خروجي للصيد. على اني وجدته حارساً يقظاً لا تغفل له عين وبذات الكفاءة في الصيد. إذ ما يسقط الطير بعد إصابتي له حتى يعدو إليه ويأتيني به. وأتفق وقد بلغت التاسعة والعشرين من العمر - أن اتخذت لي خادمة بيت رائعة الجمال بديعة

التكوين وإستفدت منها كنموذج. كما كنت أستمتع بها جنسياً موقياً حق نزوات الشباب. ولهذا حرصت أن تكون غرفة نومي بعيدة بمسافةٍ عن غرف نوم الصنّاع وعلى مدى من دكاني أيضاً. وأبقيت الفتاة في عليّة صغيرة متداعية مجاورة لي. وكنت أحتلي بها كثيراً وأستبقيها عندي حتى الصباح. وفي هذه الأحوال يثقل نومي أحياناً بعد ممارسة الجنس خلافاً للأحوال الإعتيادية. فأنا بالأصل أخف الناس نوماً.

في إحدى الليالي تشاء الصدف أن يقتحم لصٌ دكاني. سبق أن أستعد للأمر بأن إنتحل صفة الصائغ وإستطلع الموقع وتعرّف جيداً الى الجواهر والحلي التي تحتويها دكاني فدبّر خطته للسطو عليها. دخل الدكان ولم يجد غير القليل التافه من الحلي الذهبية والفضية. وبينما هو منهمك في كسر بعض الإدراج بحثاً عن الجواهر التي شاهدها، هجم عليه كلبى فدافع عن نفسه بسيفه دفاعاً يشويه الإرتباك. ثم ان الكلب شرع يجري هناك وهنا في أرجاء المنزل. فاقتحم غرفة نوم الصنّاع التي كان بابها مفتوحاً لحرارة في الجو. ولم يوقظهم نباحه القويّ فبدء يسحب أعظيتهم عنهم بأنيابه ويجرهم من ثيابهم فلم يلقوا عليه بالاً وتجاهلوه. وعندئذ راح يعضّ الواحد بعد الآخر من ذراعه حتى أرغمهم على النهوض. ثم أطلق نباحاً شديداً محاولاً جرّهم الى إقتفاء أثره. إلا ان الاوغاد الملاحين لم يشاؤا مرافقته وحمي غضبهم منه وراحوا يقذفونه بالحجارة والعصي وكان ذلك سهلاً بالنسبة اليهم لأنني كنت قد أوصيتهم بإيقاد النور طوال الليل. بالأخير أحكموا إغلاق الباب وحالوا بين الكلب وبينهم. فيئس من تلقي أي عون منهم ومرق الى الطابق الأسفل فلم يجد اللص في الدكان فإنتقل في أثره. ولما أدركه صال عليه وأمسك بتلابيه ومزق معطفه وسحبه من ظهره. ماكان أحد يدرى مآل هذا اللص مع الكلب لو لم يستنجد ببعض الخياطين ويستحلفهم بحبة الله أن يدفعوا عنه غائلة الكلب المسعور. فصدقوا قوله وإنبروا النجدته ولم يفلحوا في ردّ الكلب عنه إلا بشق الأنفس.

في صباح اليوم الثاني دخل صنّاعي الدكان فشاهدوا أقفاله مكسورة والأدراج مفتوحة والإضطراب يسود جوانبه فبدأوا يتصايحون:

- النجدة! اللصوص!

فايقظتني صيحاتهم وإندفعت إليهم وقد تملكني الفزع. وما أن شاهدوني حتى بدأوا يصرخون:

- كان الله في عوننا. لصٌ سلط على الدكان وسرق كل ما فيها!

بلغ إرتعادي وهلعي حداً ماعدتُ بعده أملك الشجاعة للدنو من الخزانة وتفقد جواهر الپاپا، غشي الرعب على باصرتي فما عدت أرى شيئاً. وإستبد بي القلق العظيم فأمرت الصنّاع أن يفتحوا الأدراج بأنفسهم ويحصوا ما فُقد من الجواهر. ولأذكر هنا قبل أن يفوتني أن صنّاعي كلهم كانوا اشباه عرايا لا تكسو أجسامهم إلا قمصان نومهم. ففتحوا الخزائن والأدراج ليجدوا الأحجار الكريمة والحلية الذهبية كاملة لم ينقص منها شيء.

فعادوا حالاً يصرخون جذلين:

- كل شيء على مايرام. أشغالكم مع الجواهر هاهنا كلّها. إلا أن اللص ذهب بكلّ ثيابنا ولم يُبق لنا

غير القمصان التي تكسو أجسامنا.

وبعدها بيّنوا لي انهم خلعوا ثيابهم كلها بسبب الحرارة الخائقة وتركوها في الدكان ليلة أمس. تمالكت نفسي حالاً وأفرخ روعي وبدأت أشكر الله ثم قلت لهم:

- إذهبوا كلكم وإبتاعوا لكم ثياباً جديدة وسأدفع ثمنها عندما أسمع منكم ماقع بالضبط.

إن أكثر ما كان يقلقني أو بالأحرى يربعني، هو أن أجد نفسي الآن في حالة ذعر مخيفة - وهذا ضد طبيعتي وما جُبلت عليه نفسي، وإن اكون هدفاً للشك أيضاً إذ سيفكر الجميع بأنني اخترعت قصة اللص لتغطية سرقتي أموالهم وجواهرهم. في الواقع إن واحداً من أقرب موظفي البابا وأوثقهم (فضلاً عن غيره مثل فرانشيسكو دل نيرو F. del Nero، وزانا دي بيليوتي Zana di Biliotti محاسب البابا وأسقف فازونا<sup>(١٣٤)</sup>) كان قد قال البابا:

- أيها الأب الأقدس كيف تستأمن شاباً متهوراً ناري الطبع على هذه الجواهر العالية القيمة. شاب لم يبلغ الثلاثين بعد وميله الى القتال يفوق ميله الى الفن؟

فيجيب البابا بالسؤال التالي:

- هل يعلم أحد منكم بأنه أقدم على شيء يؤيد ظنونكم ويبررها؟

فيجيب مدير ماله (فرانشيسكو دل نيرو) بسرعة:

- كلاً أيها الأب الأقدس، لأن الفرصة لم تسنح بعد.

فيرد البابا بقوله:

- إن لي كل الثقة بأمانته ولو زلّت به القدم فعلاً لكذبت نفسي.

عندما تذكرت هذا فجأة ارتعدت فرائصي وأدركني الخوف فعلاً. وبعد أن أوصيت عمالي بشراء ثياب لهم، أخذت الحلية الذهبية ورتبت الأحجار الكريمة بخير ما يمكن من التنظيم وحملتها لساعتي الى البابا. لم يضع (فرانشيسكو دي نيرو) وقتاً في إبلاغ قداسته بشيء مما ذاع من الروايات حول ما وقع في دكاني. فأيقظ في نفسه شكاً فجائياً. ثم تسرع في إستنتاجه بأن ما حدث هو أسوأ المتوقع. نظر اليّ نظرة صاعقة تنبئ بشراً مستطير. وسألني بلهجة صارمة:

- ما الذي جاء بك؟ ما الأمر؟

- أنظر! هاهي ذي كل جواهرك وكذلك ذهبك. لم يفقد منها أي شيء.

فإنسبطت أساريه وقال:

- الآن إسمك على المسمى فحافظ عليه. ألا "مرحباً بك".

وأريته ما عملته فيها وكنت أثناء تفحصها أروي له قصة اللص ومبلغ قلقي وما كان يحز في نفسي أكثر من أي شيء. وكان يتطلع اليّ باستمرار ولا يحول أنظاره عني طوال حديثي. وكان (فرانشيسكو دي نيرو) موجوداً ولهذا إعتوره بعض الضيق لما ساوره من شك فيّ.

بالأخير إنفجر ضاحكاً بسبب الخطبة الطويلة العريضة التي القيتها وقال وهو يبتعد:

(١٣٤) إسمه جيرولاموسكيو وهو كاهن إعتراف البابا. وفازونا (فيزون بالفرنسية) تقع بالقرب من مدينة (أفنيون).

- بنفثوتو! فلتبقي ذاك الرجل الأمين الذي عرفته بك.

وضاعفت جهودي في سبيل إنجاز اشغال الپاپا. في ذلك الزمن أيام كنتُ موظفاً ثابتاً في دار الضرب، إنتشرت في روما عملة مزيفة تحمل أشكال قواليبي. فجيء ببعضها الى الپاپا حالاً، وحامت الشكوك حولي وشدّد الپاپا على (جاكوبو بالدوچي Jacobo Balducci) الذي كان في حينه مدير دار الضرب بالسعي بكلّ الوسائل للقبض على المزيّف الحقيقي. لأنه واثق من أمانتي واستقامتي. إلا أن النذل الخبيث الذي كان من خصومي أجابه:

- أرجو الله أيها الأب الأقدس أن يصدق فيه قولك. فلدينا أسباب تحملنا على الشك فيه. وعندها التفت الپاپا الى حاكم روما وأمره بأن يستعجل في العثور على الفاعل. وفي عين الوقت أرسل قداسته يستدعيني وراح بكلّ لباقةٍ يدير دفة الحديث متدرّجاً الى موضوع العملة حتى جاء الى بيت القصيد. قال:

- بنفثوتو! أتراك قادراً على سكّ عملة مزيفة؟

أجيبته في الحال إني لقادر على سكّ نقود متقنة الصنع أبرز بها كل ممارسٍ لهذه العملية القذرة. ذلك لأن أولئك الذين إتخذوا هذا العمل الدنيء وسيلة رزق ومصدر عيش هم ممن لا يحذقون صنعة ما تعينهم على الكسب والعيش الحلال ولا يملكون مؤهلات ومهارة حقيقية. وأنا بمواهبتي ومهارتي المتواضعة أكسب من المال أكثر مما أستطيع إنفاقه. ومنذ ان بدأتُ أعمل القوالب لدار الضرب وأنا أتسلم كل صباح قبل تناول الفطور ثلاثة كراونات على الأقل. وتلك هي العادة المتبعة دائماً في دفع هذا المبلغ. وإن المحتال مدير دار الضرب يكرهني لأنه يريد أن يحصل على القوالب بسعر أقل. ثم ختمت كلامي بالقول:

- إن ما يسمح الله والبشر لي به من رزق، فيه الكفاية وأكثر. وسيكون مكسبي أقل من هذا بكثير لو إنصرفت الى سكّ العملة الزائفة.

ووضح للپاپا قصدي جيداً. ففي حين كان قد أصدر أمراً بفرض المراقبة الدقيقة عليّ في حالة إعتزامي الرحيل عن روماً أمر الآن بإجراء بحث دقيق شامل عن الفاعل الحقيقي. وأن أترك لحالي ولا أضايق لأنه لا يرغب في أن يجرح مشاعري خشية تركي الخدمة عنده. وأعطيت هذه التعليمات المشددة لبعض موظفي القصر الرسولي. وبعد تنفيذ تلك الأوامر ووضعها موضع الإجراء الدقيق. توصلوا الى الرجل الذي يبحثون عنه فوراً تقريباً. وكان سكّاكاً يعمل في دار الضرب اسمه (چيزاري ماكاروني Cesare Macharone) وهو مواطن روماني. وقبضوا أيضاً على شريك له وهو سبّاك في دار الضرب أيضاً. في ذلك اليوم بالذات اتفق اني كنت أمر بميدان (نافونا) وكلبي الجميل يدب في أعقابي. وما أن بلغت مدخل المقر العام للبارجلو (صاحب الشرطة) حتى بدء الكلب ينبح بناحاً مسعوراً. ثم وثب وثبة كبيرة واندفع من فتحة الباب وهجم على شاب كان هناك. أوقف هذا الشخص بتهمة سرقة بناء على شكوى صائغ من أهالي<sup>(١٣٥)</sup> (پارما Parma) يدعى (دونينو Donnino) كان سابقاً من تلاميذ

(١٣٥) من المدن الكبيرة الهامة في إيطاليا تقع شمال فلورنسا على بعد حوالي ١٧٠ كيلومتراً.

(كارادوسو). وحاول الكلب مستميتاً تمزيق الشاب ارباً ارباً لو لم تأخذ الشرطة الرحمة به. وقد زاد شعورهم بالرافة نحوه أنه كان يدافع عن نفسه بكلّ جراءة وذلاقة. وأظهر دونينو عجزاً عن الإتيان بادلة إثبات كافية ضدّه. زد على هذا إن أحد عرفاء الشرطة كان من جنوا وعلى معرفة بأبي الشاب. فبين حادث الكلب وبين ما ذكرته بدا وكأن السلطة لن تتردد في إخلاء سبيله. ما ان عدوت في أثر الكلب وصرت بينهم حتى هاج هاتجه مرة أخرى وهجم على الشاب غير عابىء بالسيف والعصي. فهددني الشرط بأنهم سيعمدون الى قتله إن لم أبعده عن الشاب. فأمسكت به وعقرته متشبثاً جهد إمكانى وفي تلك اللحظة وأثناء ما كان الشاب يجرّ معطفه - سقطت من القباء لفافات ورق. فشخصها (دونينو) قائلاً إنها تعود له ثم وقعت إنظاري على خاتم صغير يعود لي فصرخت:

- هذا هو اللصّ الذي سطا على دكاني وسرقني، ولهذا عرفه كلبى.  
أطلقت الكلب من عقاله وقيم هو يهم بالوثوب بدأ الشاب يتوسل ويطلب الرأفة قائلاً إنه سيعيد لي كل ما أخذه مني. فأمسكت بالكلب بينما راح يعيد الذهب والفضة والخواتم الصغيرة التي تعود لي فضلاً عن خمسة وعشرين كراوناً. ثم عاد يطلب الرحمة. قلت إن أراد الرحمة فعليّه أن يتوجه بصلاته الى الله لأنني لن أساعده ولن أقف في سبيله.

عدت الى داري مستأنفاً أعمالى. وبعد بضعة أيام شُنق (جيزاري ماكاروني) مزيف العملة على الضفة أيام دار الضرب وحكم على شريكه بالتجديف في السفن<sup>(١٣٦)</sup> وشُنق اللصّ الجنوبي في ساحة (كامپودي فيوري). وخلصت سمعتى وزاد إعتبارى بشكل لم أحلم به.

وكنت أشارف على الإنتهاء من الاشغال التي كلفني بها البابا. وقع فيضان عظيم غمر روما كلها بالماء عندما أعلنت دقات الساعة الثانية والعشرين (قبل الغروب بساعتين) وأخذ الليل يرخي سدوله وراح منسوب المياه يرتفع بإطراد وبسرعة. وبقيت لأرى ما سيحدث. كانت واجهتا منزلي ودكاني تطلان على الضفة. وظهر المنزل الذي يواجه (مونتى جيوردانو Monte Gerdano) أعلى بعدة أقدام من الواجهة. كان أول همى هو سلامتى، يليها شرفى وسمعتى. فبادرت إلى حشو جيوبى بكل الأحجار الكريمة، وتركت حلية البابا عند صنّاعى. ثم علوت الشباك الخلفى للدار حافى القدمين وقفزت منه وأنا أخوض في الماء حتى بلغت (مونتى كافاللو Monte Cavalle) وهناك لقيت (جيوفانى گادى) الموظف في البلاط البابوي ومعه الرسام البندقي (باستيانو). كان جيوفانى شديد التعلّق بي وكنّت أعدّه بمثابة أخ لي. فلما كان اللقاء بيننا قمت بإيداع كلّ الجواهر عنده وطلبت منه المحافظة عليها.

بعد أيام قلائل هبط مستوى الماء وزال الخطر وصار بإمكانى العودة الى الدكان وإكمال الحلية. شاكرًا لله ومجهودي فقد بلغت بها قمة النجاح وقال عنها كلّ من رآها إنها قطعة فنيّة رائعة لم ير مثلها في روما. ولم يجد البابا العبارات الكافية للثناء علىّ عندما حملتها إليه. وقال:  
- لو كنت من الملوك الأغنيا. لأقطعت عزيزى بنقوتو من الأرض قدر ما يمتد إليه بصره. إلا أننا في

(١٣٦) عقوبة قاسية لم يبطل العمل بها الى مفتتح القرن التاسع عشر. بموجبها يؤخذ المحكوم الى سفينة تعود للسلطة وتقيّد رجلاه في الموضع الذي خصص للتجديف مع سائر المحكومين لايزاوله إلا لقضاء حاجاته الجسميّة.

هذه الأيام أمراء فقراء مفلسون. مع هذا فسندخل له الحصول على الخبز الذي يسد حاجته المحدودة. تركته يمضي في الحديث على رسله حتى يفرغ ما في جعبته منه. ولما كان منصباً من مناصب حملة الصوالج شاغراً فقد سألته هل يمكنه تعييني فيه؟ فأجاب انه إنتوى إكرامي بشيء أهم من هذا بكثير. فأجبت قداسته: لعله ينعم عليّ في الوقت الحاضر بما طلبته كشيء أشبه بضمّان. فأطلق ضحكة عالية وقال إنه لشديد الرغبة في تحقيق مطلبي هذا لكنه لا يريدني في وظيفة لها واجباتها الفعلية. وإن عليّ التفاهم مع حملة الصوالج الآخرين ليتوزعوا واجباتي. وفي الوقت نفسه منّحهم ما كانوا قد طلبوه منه وهو تمكينهم من أستحصال أجورهم المتأخرة قضائياً. وصار يدخلني من هذه الوظيفة زهاء مائتي كراون سنوياً.

واصلت خدمة البابا وعملت له أشياء صغيرة في أوقات مختلفة. ثم طلب مني يوماً أن أهيء له نموذجاً لكأس القربان كثير الزخارف. فقامت بعمل نموذج وتصميم تخطيطي. الأول منهما صنعتها من الخشب والشمع وفي مكان العقدة صممت ثلاث مجسمات تامة البروز رمزتُ بها. لفضائل الرجاء والإيمان والمحبة. وإلحلال الموازنة والمساواة فيه جعلت في القاعدة ثلاث دوائر صغيرة في داخلها مشاهد بنصف بروز: مشهد يمثل ميلاد يسوع المسيح، ومشهد يمثل قيامته وبعثه، ومشهد يمثل بطرس الرسول مصلوباً ورأسه في الأسفل<sup>(١٣٧)</sup> إذ كانت هذه وصية البابا.

وكان قداسته لا يفتأ يلح في رؤيته وأنا أشتغل به. وقد بدا لي في حينه أن قداسته نسي تحقيق ما أنعم عليّ به قبلاً. ولما كانت قد شغرت وظيفة في دائرة (Piombo)<sup>(١٣٨)</sup> فقد طلبتها منه ذات مساء. فوجدته قد غسل ذاكرته من كل المديح والحماسة التي أظهرها لي عندما إنتهيت من حلبيته. إذ أجابني قائلاً:

- وظيفة البيومبو تعود على متقلدها بأكثر من ثمانمائة كراون سنوياً. فإن عينتك فيها فلن تعمل شيئاً سوى حَكْ بطنك طول اليوم. وبذلك تفقد مهارتك العجيبة وتلومني شخصياً. فأجبت قائلاً:

- إن اصائل القبط تحسن قنص الفيران وهي سميحة أكثر مما تحسنه وهي جائعة. وكذلك الصناع الأمناء فإنهم يكونون أكثر إجادةً واتقاناً لأعمالهم عندما يوسع لهم في الرزق. وليتذكر قداستك أن الأمراء الذين يرفهون عن الفنانين ويفسحون لهم سبل العيش الهنيء إنما يسقون جذور العبقرية التي تولد عادةً ضعيفة ومريضة. وليكن قداستك على علم أيضاً بأني ما طلبت هذه الوظيفة بفكرة الظفر بها فأنا قانع بالمنصب المتواضع منصب حامل الصولجان وأما الأخرى فأنا أراها في أحلام

(١٣٧) عندما حُكم على الرسول بطرس بالصلب في روما، أبقى أن يُصلب ورأسه في الأعلى قائلاً إنه لا يستحق أن يموت بالشكل الذي مات سيده المسيح.

(١٣٨) دائرة في بلاط البابا فيها تختم البراءات الباباوية بأختام رصاصية (Piombo) ويتقلدها مدنيون أحياناً. ومن أشهر من عين فيها المهندس المعماري العظيم برامانتي. وساستيانو الذي ورد ذكره هنا. ولم يكن هذا الآخر ليستحقها إذ ما أن نالها حتى قعد ولم ينجز بعدها أعمالاً تذكر.

الليقظة فحسب. (١٣٩)

ثم أنهيت كلامي بقولي:

- ومادام قداستك لاينوي إسنادها اليّ فإنك لتحسن صنعاً إن أنعمت بها على فنان جديرٍ بها لا على دعويّ خامل لايفعل شيئاً غير حَكّ بطنه كما ذكر قداستك. وأطلقت قذيفة الوداع فذكرته بأن يحتذي حذو سلفه الفاضل الپاپا يوليوس الذي أسند مثل هذه الوظيفة الى المهندس المعماري الألمعي (برامانتي Bramanti). ثم إنحيت وإنصرفت وأنا أتقدّ غيظاً. بعد إنصرافي تقدم منه (باستيانو فينيزيانو) الرسام وقال له:  
- أيها الأب الأقدس، لماذا لاتسند المنصب الي من أوقف كل وقته على فنّه؟ لقد تفرغتُ بكلّيتي الي عملي وإني لأرجو منك أن تحكم. إن كنتُ جديراً به.  
أجاب الپاپا:

- هذا الشيطان ينقنوتو! إنه لايتحمّل أيّ شخص يرفض له طلباً. ولقد كنت في الواقع أميل إلى تقليده أياها. لكن ليس من الأدب أن يظهر المرء صلافته أمام الپاپا لذلك فإن رأيي لم يستقر على ما سأفعله.

وأسرع أسقف (فازونا) يهتيل الفرصة مزكياً (باستيانو) ومتوسطاً له فقال:

- أيها الأب الأقدس. إن (بنقنوتو) شاب مندفع وهو يبدو والسييف في عاتقه أفضل مما يبدو مرتدياً مسوح الرهبان الذي يتحتم عليه إرتداؤها إذا ما أسندت إليه وظيفة في (الپومبو)، إلا فلتتكرم بمنح هذا المنصب للرجل الموهوب باستيانو وسيكون بمقدورك في مناسبة أخرى أن تجد لبنقنوتو وظيفة حسنة قد تكون أكثر لياقة به.

فألثفت الپاپا الي النبيل (بارتولومو فالوري B. Valori) (١٤٠) وقال له:

- إن لقيت بنقنوتو. فيبلغه عني بأنه هو الذي أعطى المنصب للرسام باستيانو. إلا انه يمكنه أن يعتمد على الفوز بأول منصب مناسب يخلو. وفي أثناء ذلك عليه ان يحسن عمله وينجز ما يشتغل به لي.

في مساء اليوم التالي بعد حلول الظلام بساعتين لقيت السيد (بارتولومو) في منطقة قرب دار الضرب وهو في عجلة من أمره على أثر إستدعاء الپاپا له وكان يتقدمه إثنان من حملة المشاعل لكنه توقف عندما حبيته وأشار على بالدنو. ثم أبلغني بغاية اللطف والحرارة ما أمره الپاپا بإبلاغي. فأجبت اني سأحجز العمل بأكثر دقة وتفرغاً من أي عمل قمت به قبلاً ولكن ذلك كله سيكون بروح خالية من أقل أمل بالحصول على أي شيء من الپاپا. فأثبتني على قولي هذا واردف قائلاً ليس هذا

(١٣٩) في جواب جليلني تعريض لا يخفى بكلام الپاپا. فمن عادة القطط عندما تكون عاطلة متخمة البطن أن تحك بطنها بأظافرها وقتاً ملياً.

(١٤٠) فلورنسي. ظل مخلصاً لآل مديتشي حتى شبع من غدرهم. فانضمّ الي (فيليبو - ستروزي) وساهم في مؤامرتة ضدهم. فقطع رأسه في ١٥٣٧.

بالأسلوب الذي يُرد به على وعود البابا. فقلت: لعلمي بأني لن أظفر بشيء، فلاكون مجنوناً إن اعتمدت على ما قال، أو أجبته بغير هذا الجواب. ثم تركته وانصرفت لشأني.

لأبْد أن (بارتولومو) نقل خطبتي الصغيرة الغاضبة. وربما زاد فيها شيئاً من عنده لأن البابا لم يستدعني إليه طوال شهرين أو أكثر. ولم يكن لدي طول هذه المدة أقل رغبة للذهاب إليه مختاراً. إلا أنه كان يتحرق لإلقاء نظرة على الكأس التي أقوم بعملها له ولذلك طلب من السيد النبيل (روبرتو پوجي Roberto Pucci) <sup>(١٤١)</sup> أن يتحرى ويستعلم عما يجري. إعتاد هذا السيد الماجد زيارتي يومياً وكنا دائماً على صفاة ومودة. وكان الزمن يقترب لموعد سفر البابا الى بولونيا <sup>(١٤٢)</sup> ولما أيقن أخيراً بأني لن أقصده من تلقاء نفسي، جعلني أفهم عن طريق السيد (روبرتو) بأنه يريدني ومعني الكأس ليرى التقدم الذي جرى في العمل به.

فأخذته إليه ووجد أن أهم قسم فيه قد تم. ثم رجوت منه أن يدفع لي خمسمائة كروان منها كأجور ومنها لأنني كنت في حاجة ماسة الى ذهب لأكمل به الكأس. فلم تخرج من فمه غير هذه العبارة:

- عجل به، أكمل العمل!

فانصرفت وأنا أقول بأني سأكملة حتماً إن زودني ببعض المال.

عندما سافر البابا الى (بولونيا) ترك الكردينال سالقياتي نائباً پاپوياً في روما وأمره أن يحتثني في العمل وما قاله له عني هو هذا:

- بنقنوتو قليل التقدير لمواهبه، وهو أقل تقديراً لنا، فاحرص على متابعة عمله في الكأس وأجعله يعكف عليه ليكون كاملاً عند عودتي.

فلم يكن من الكردينال البهيمية إلا وأن أرسل بعد ثمانية أيام من رحيل البابا يستدعيني مع الكأس. فقصدته بدون الكأس. وما أن وقع نظره عليّ حتى قال:

- أين لحمك المفروم ذاك، هل كُمل طبخه؟

أجبت:

- سيدي الجزيل الإحترام. اللحم لم يكمل طبخه ولن يكمل حتى أزود ببعض الخضراوات أضعها فيه. كان هذا الكردينال أشبه بالحمار منه بالبشر. وقد زاد حيوانية عندما وعى كلامي فإنفجرت كوامن غبظه وصرخ بي:

- لأبعثن بك الى السفن العقابية. وعندها ربّما ستتكرم وتنجز العمل.

وهنا لم أر مناصاً من النزول الى مستواه الحيواني فأجبتته:

(١٤١) من أشياع آل مديتشي لكنه كان أكثر إخلاصاً لهم من بارتولومو فالوري. وقد حاول كثيراً إقناع البابا بالعدول عن محاصرة فلورنسا.

(١٤٢) القصد من رحلته هو الإجتماع بالإمبراطور شارل الخامس للمداولة معه في إقامة حلف ضدّ الدولة العثمانية والحضور مجمع ديني هناك. وبولونيا مدينة كبيرة تبعد عن روما زهاء ٤٠٠ كيلومتراً الى الشمال وعلى القاري أن لا يخلط بينها وبين بلاد (بولندا).

- عندما ارتكبت جريمة تستحق الحكم عليّ بالتجذيف في السفن فيامكانك ياسيدي إرسالني إليها. إلا أن ما أقدمتُ عليه حتى الآن لا يكونُ عندي سبباً للقلق من هذا. ودعني أضيف: بسببك أنت، لم تعد لدي نيّة في إكماله. فلا ترسل في طلبني مرة أخرى لأنك لن تراني إلا باللجوء إلى القوة. بعد هذا لجأ الكردينال (المهذب) إلى أسلوب الملاينة والمسايرة لحملي على مواصلة العمل في الكأس وحمله إليه ليراه. إلا أنني كنت أردّ عليه بقولي: إذا رغب في أن يرى طبخة اللحم المفروم، فيجمل به أن يزودني بشيء من الخضراوات. كان هذا الردّ الوحيد الذي وجده عندي، فيئس بالأخير ورفض يده من الموضوع نهائياً.

لم يكد يستقرّ المقام بالپاپا بعد عودته من (بولونيا) حتى أرسل بطلبي وكان الكردينال قد كتب له بشرّ ما يمكنه الكتابة عنيّ، ولذلك كان قد استه في أقصى حالة من الإنفعال والعصبية وحدة المزاج. في فترة غياب الپاپا أصيبت عينايا بالتهاب خطير حتى خيل لي أنني مشرف على الموت من فرط تباريح الألم. وكانت هذه العلة الأساس في عدم إكمالي العمل بالكأس. في الواقع أن ما كابدته جعلني أعتقد بأنني سأعيش بقية عمري ضريباً، وحملني هذا الاعتقاد على الإستعداد بهذا النمط من الحياة الذي ينتظرني فحسبت كم أحتاج من المال لأستعين به على العيش إن وقع هذا. ولذلك كنت أحاول وأنا في طريقي إلى الپاپا - التفكير في أسلوب إعتذار لنفسي عن تقاعسي في إنجاز كأسه الذهبي. وقررت أن أنتهز فرصة عرضه وقيامه بفحصه لأشرح له ما أصابني من الضرّ غير أنني لم أحسن التقدير إذ ما أن وجدت نفسي أمامه حتى صاح بخشونة:

- ضع شغلك هنا! هل هو كامل؟

فأزحت عنه اللغائف فعاجلني بصرخة أخرى وقد فقد السيطرة على نفسه:

- أقول لك والله شاهد؛ ديدنك أن لاتهتمّ قلامه ظفر بأيّ إنسان ولولا مركزي وقدسية هذا الشيء لكدت بك و به من النافذة.

وجدته وقد خرج عن طوره فكان هميّ الوحيد أن أنجو بنفسي منه. وبينما كان ماضياً في صولته. وضعت الكأس تحت معطفي وتمتمت لنفسي.

- ما من قوة في العالم ترغم رجلاً أعمى على عمل دقيق كهذا.

وعندما صاح وقد زاد إرتفاع صوته:

- تعال هنا! ماهذا الذي تقوله؟

نازعته ففكرتان: هل أثب وثبة جنونية إلى الدرج؟ أم أبقى؟ ثم إتخذت قراراً فركعتُ وصرخت (لأنه لم يكف هو نفسه عن الصياح):

- إن أسلمني مرضي إلى العمى. فهل يترتب عليّ مواصلة العمل؟

فأجاب:

- كان بمقدورك أن تبصر طريقك جيداً إلى هنا. لا أصدق حرفاً مما تقول.

لكنني لاحظت إنخفاض صوته قليلاً فأسرعت أقول:

- لو سأل قداستك طبيبك الخاص فإنك ستجد الحقيقة عنده.  
فقال:

- عندما أجد متسعاً من الوقت سأتحقق من مدى إنطباق إدعائك على واقع الأمور.  
وجدت إنه صار الآن مستعداً للإصغاء اليّ فبدأت أقول:

- بالتأكيد أن السبب الوحيد لإبتلائي بالمرض هو الكردينال سالقياتي إذ ما أن ترك قداستك روما حتى إستدعاني وعندما جئتُه وصف شغلي باللحم المفروم وهددني بأنه سيرغمني على اتمامه وأنا في سفينة العقاب. وأثرت فيّ معاملته الفظة فهاجت أعصابي هياجاً شديداً وشعرت وكان وجهي يلتهب ناراً، وعيني تحرقاني الماء بحيث عجزت عن تلمس سبيلي الى منزلي. وبعدها بيومين نزل الماء الأبيض على كلتا عينيّ فلم أعد اتبين خيطاً من النور. ولذلك لم أكن قادراً على مد يدي الى عمل منذ رحيل قداستك.

ثم نهضت من ركعتي وإنصرفت. وأبلغتُ فيما بعد أن الپاپا قال معقّباً على القضية:

- بإمكان المرء أن ينقل المسؤولية الى عاتق آخر ولكن ليس بالإمكان نقل حكمتها وتعقلها معها. لم أطلب من الكردينال تعقيب الأمر بمثل هذه الصرامة والعنجهية. وإن كان إدعاء بنقنوتو بمرض عينيه صحيحاً وهو ما سأتحققه من طبيبي، فعلينا أن نأسوه ونتألم له.

وكان في مجلس الپاپا وقتئذ رجل نبيل من كبار القوم تربطه بالپاپا صداقة متينة فسأل عن هويتي. وقال شارحاً غرضه من هذا:

- أيها الأب الأقدس، إن السبب في سؤالي هو رؤيتي لك الآن وانت تنتقل من أقصى حالة غضبٍ عليه الى أقصى حالات العطف. فقل لي من هو؟ إن كان يستحق المساعدة بحث له بسرٍ دواء يشفيه من مرضه.

فأجابه الپاپا:

- إنه أعظم أساتذة صنعه طراً. لا يُعرف أحدٌ يباريه فيها. وفي المرة القادمة اذ نكون معاً سأريك شيئاً من أعماله الرائعة بل سيمكنك أن تشاهد الشخص بالذات في عين الوقت. وسيكون من دواعي سروري إن صنعت فيه معروفاً.

بعد هذا بثلاثة أيام إستدعاني الپاپا بعد أن فرغ من غدائه. فوصلت لأجد هذا النبيل معه بالذات. فأمر قداسته بإحضار حلبة الزنار التي صنعتها له.

في الوقت الذي أخرجت الكأس وعرضته فأعجب به النبيل إعجاباً لا حدّ له وقال إنه لم ير تحفة بمثل هذه الروعة.

ولما أحضرت الحلبة ونظرها تضاعف إعجابه ثم أنه صعّدني بأنظاره ملياً وقال:

- إنه لأصغر سنّاً بكثير من سعة وقوفه على أسرار هذا الفن. وإنه مازال على إستعداد للإستزادة والتحليق في أجوائه.

وسأل عن أسمى فقلت: بنقنوتو. فقال:

- ستري الآن بأني (بنقنوتو)<sup>(١٤٣)</sup> أيضاً. خذ نبتة سوسن، أزهاراً وساقاً وجذوراً وأوراقاً. ضعها جميعاً في قدر واغلها على نارٍ بطيئة ثم أغسل عينيك بمائها عدة مرات يومياً وستبرأ بالتأكيد. لكن عليك أن تتطهر بتناول مسهل قبل مباشرة العلاج.

وكان حديث الپاپا معي في غاية من اللطف. وخرجت وأنا أشعر بنوع من الرضا. في الواقع أن عدوى المرض إنتقلت اليّ وأعتقد إنها جاءتني من الخادم الصغيرة الجميلة التي كانت عندي وقت حادث السطو على دكاني. بقي داء السفلس كامناً لا يظهر حوالي أربعة أشهر ثم إنطلق فجأة من مكمنه وانتشر في كلّ أنحاء بدني ولم يظهره بطوره الإعتيادي المعروف فقد غطي جسمي بطفح أحمر كل واحدة منها بحجم الصولدي. ورفض الأطباء أن يشخصوه بالأقرنكي. مع اني شرحت السبب الذي يحملني على الإعتقاد بأنه هو بعينه. مهما يمكن فقد واصلت العلاج بحسب ما رسموه فلم يطرء تحسن على حالي بالمرّة. وبالأخير ورغم تحذير أحدق أطباء روما قررت تعاطي (خشبة الحياة Lignum Vitae)<sup>(١٤٤)</sup> وتعاطيت ذلك ببالح مايتصور من العناية واتباع أدق الحمية. وما مرت أيام حتى بدأت أشعر بتحسن كبير. وبنهاية خمسين يوماً على مرضي برئت تماماً أو بت أكثر حيوية ونشاطاً من سمكة النهر. وفي سبيل التعويض عن العناء الكبير الذي كنت ارضح تحته. وبدون فصل الشتاء - قررت أن أسري عن نفسي قليلاً بالخروج للصيد. وهذا ما أدى الى تعرضي الى كل تقلبات المناخ وخوض المستنقعات. فأصبت بإنتكاسة وتردّت صحتي في أيام قلائل وساءت حالي أكثر من الأول بكثير فأسلمت نفسي للأطباء مجدداً. وصارت حالتي تزداد سوءاً بإزدياد علاجهم. ولما ركبتني الحمى قررت العودة الى تعاطي خشبة الحياة. وكان الأطباء ضد ذلك تماماً وقالوا لو اني عالجت نفسي بها مع وجود الحمى فسأهلك في غضون أسبوع. وصممت على تجاهل رأيهم وبعد أن داومت متبعاً عين القواعد كالسابق. تركتني الحمى بعد أربعة أيام من تناول هذا المنقوع المقدس، ولم يبق لها أثر وشعرت بتحسن كبير. في الواقع ما إنقطع قط عن تناول هذا المنقوع وأنا أتقدم حثيثاً في نماذج قطع الكأس. وفي خلال فترة الحمية أبدعت من النماذج والتصاميم ما لم أوفق لمثله طوال أيام حياتي. بنهاية خمسين يوماً شُفيت تماماً. وشرعت أتولى بناء صحتي بغاية الجدية والإهتمام. وشعرت بعد ذلك الصيام الطويل بتحرري تماماً من ذلك الوهن والسقم حتى لكأنني ولدت من جديد. ومع كل المتعة التي كنت أجنبيها من قيامي ببناء صحتي الغالية، أبيت أن أهمل صناعتي وأوقفت من وقتي غاية ما وسعني على العمل في الكأس وفي دار الضرب.

واتفق أن نصب الكردينال سالقياتي الشديد الكره لي كما بينت - نائباً رسولياً في (پارما). وما حدث بالمناسبة هو أنه قبض في هذه المدينة على صائغ من أهل (میلان) أسمه طوبيا Tobia بتهمة تزوير وبعد أن حكم عليه بالشنق وحرق جثته. تقدم بإسترحام بطلب التخفيف الى الكردينال

(١٤٣) جاء ذكر التورية المقصودة والمستمدة من معنى إسم بنقنوتو في أكثر من موضع من المذكرات.  
(١٤٤) أسم لاتيني يطلق على أي شجرة استوائية من فصيلة ال: Guaiacum وهو من جملة الادوية النباتية التي كان يعتمد عليها الطب في ذلك الزمن.

بسبب كونه صانعاً حاذقاً جداً. فعمل الكردينال على منع العدالة من أن تأخذ مجراها وإيقاف تنفيذ الحكم وكتب للپاپا يقول لقد وقع بين يديه أعظم صائغ حاذق في الدنيا كلها. وإنه محكوم عليه بالشنق والحرق وتزييفه العملة، إلا أنه إنسان ساذج ومستقيم، إدعى بأنه أستشار معرّفه حول سك العملة فأجازة الكاهن بعمل ما حُكم عليه من جراه. وأضاف الكردينال الى كل هذا قوله: "لو إستقدمت هذا الرجل الى روما فإن قداستك سينجح في إرغام أنف بنقنوتو وتحطيم غروره المفرط. وإني لواثق بأن عمل (طوبيا)، سيرضيك أكثر من عمل بنقنوتو بكثير".

وبنتيجة هذا أرسل الپاپا بطلبه في الحال. وما وطئت رجله روما حتى جمعني وإياه في مجلسه وطلب منّي أن نصمم كلّ على حدة نموذجاً لخلية تزين قرن حيوان (اليونيكورن)<sup>(١٤٥)</sup> وهو أجمل ما في نوعه كان قد كلّف قداسته سبعة عشر ألف دوقية من العملة الپاپوية. وكان قداسته يريد أن يقدمه هدية لملك فرنسا إلا أنه رغب قبل هذا أن يزينه بالتهويل والزخارف الذهبية.

بعد أن صنعنا نموذجينا حملناها الى الپاپا. كان الشكل الذي إختاره طوبيا على هيئة شمعدان. والقرن البديع مثبت في الرأس ليقوم مقام الشمعة والقاعدة تتألف من أربعة روس صغيرة لليونيكورن. وهو بمجموعة خيال ساذج ومخالف للذوق السليم الى درجة مقرفة حتى لم أتمالك من الإبتسام في سرّي وأنا على مبعده فلم تفت ابتسامتي الساخرة ملاحظة الپاپا وناداني حالاً وقال:  
- ألا دعنا نشاهد ما عملت.

كان نموذجي مجرد رأس اليونيكورن بالحجم الطبيعي المناسب للقرن صورته بأبدع شكل يخطر بالبال. ذلك لأنني نقلت التصميم عن رأس حصان ورأس أيل وزينته بعُرف بديع وعدد آخر من الزخارف الأخرى. والنتيجة أنه ما أن شوهد حتى أسرع الجميع يقولون بتفوّق تصميمي. وكان في المجلس بعض ذوى الوجاهة والنفوذ من الميلايين فوجدوا الفرصة السانحة ليقولوا:

- أيها الأب الأقدس، إن قداستك سيرسل هذه الهدية الثمينة الى فرنسا. ولا يخفى أن الفرنسيين قوم غلاظ لم تصقلهم المدنية. ولن يتبيّنوا الفن الرفيع الذي يتجلى في موديل بنقنوتو. وشمعدان كالذي عمله (طوبيا) وهو مانراه هنا، سيعجبهم كثيراً. وعمل كهذا لن يأخذ وقتاً طويلاً. ثم إن بنقنوتو سيكون إذ ذاك متفرغاً الى إنجاز العمل بكأسك. وسيتم عمل شيئين في وقت واحد. فضلاً عن إنك ستفتح باب رزق للرجل المسكين بمنحه فرصته للعمل.

كان موضوع الكأس في اليوم التالي شغل الپاپا الشاغل. فسارع بإتباع نصيحة الميلايين وعهد في اليوم التالي بصنعه الى (طوبيا) وأبلغني عن طريق مدير المخازن<sup>(١٤٦)</sup> والمستودعات بوجود إتمام

(١٤٥) Unicorn أي وحيد القرن. وهو حيوان خرافي يُرسم عموماً بجسم ورأس حصان وبقوائم الإبل الخلفية وذيل أسد مع

قرن في جبهته. وعلى ذلك يكون القرن الذي يصفه چلبيني هو للخرتيت وإسمه العلمي Rhinoceros Unicornis.

ولاشك في أنه كان نادراً في ذلك الزمان لأن وطن هذا الحيوان في مجاهل أفريقيا ولم يكن معروفاً من العالم

الأوروبي آنذاك. فمن يحصل على قرن خرتيت لاشك يعتقد أنه فاز بقرن ذلك الكائن الخرافي.

(١٤٦) هذه الدائرة تشمل مستودعات السلاح والذخيرة العامة في البلاط الپاپوي.

الكأس. فكان جوابي اني لا أريد إلا أن أنتهي من مثل هذه التحفة الفريدة في جمالها. ولو كان معدنه غير الذهب لأمكنني إتمامه بسرعة دون مساعدة أحد. ولكن لما كان من الذهب فعلى قداسته ان يزودني بشيء منه إن كان يريد مني إتمامه وجواباً على الرسالة التي أبلغتها لرجل البلاط الوضيع النسب - قال:

- عونك اللهم! إياك أن تطلب من الپاپا ذهباً وإلا دفعه الغضب الى تدميرك.  
فأجبت:

- هل يتفضل سموك في هذه الحالة. فيعلمني طريقةً لصنع الخبز دون دقيق؟ ذلك لأن هذا العمل ياسيدي المبجل لا يتم قط بدون ذهب؟

بدأ هذا الموظف يدرك بأنني أعيبه به وأسخر. فقال إنه سينقل كلماتي بحذافيرها الى الپاپا. وقام بذلك فعلاً فهاج هائج الپاپا وقال أن سيصبر ليري الى أي مدى يبلغ الإستهتار والجنون بي فلا أتمه. ومر أكثر من شهرين، ومع اني قلت بأنني لن أمد يدي إليه. فقد واصلت الوقت العمل به بكل رغبة وإشتياق وبدأ الپاپا يحمل ضغنا لي وزادت نقمته عندما وجد اني لا أنوي حمله إليه. وهدد بإنزال عقابه بي مهما كانت النتائج. وقد سمع قوله هذا جوهريه الميلاني (پومبيو) الذي يمت بصله قرابة الى المدعو(تريانو) أقرب واحب موظفي الپاپا كليمنت. فأقبل كلاهما على الپاپا وقالا له:

- لو قداستك عزلته من وظيفته في دار الضرب. فرمّا حفزه ذلك على إكمال الكأس.  
فأجاب الپاپا:

- سيأتني من هذا نتيجتان سيئتان. أولاهما اني سأفتقد العمل الجيد في دار الضرب وهو بالنسبة لي أمر هام جداً وثانيهما اني لن أحصل على الكأس مطلقاً.

إلا أن هذين الميلانيين وقد تبينا مبلغ سخط الپاپا مني - نجحنا بالأخير في حمله على عزلي<sup>(١٤٧)</sup> من وظيفتي وإسنادها الى فتى (پيروجي) يعرف بإسم (فاغيولو Fagiolo) وجاءني (پومبيو) يبلغني بأمر العزل قائلاً أنه سيعمل على حرمانني من أشياء أخرى إن لم أفرغ من صنع الكأس. فأجبتته بقولي:

- قل لقداسته أنه قد سلب نفسه بعزلي، ولست أنا المسلوب. وكذلك الأمر بالنسبة للأشياء الأخرى. وإن أراد إعادتي فلن أقبل قط.

خيل لهذا النذل المنحط أن قدميه لاتسرعان به الى الپاپا كما يجب وما أن مثل امامه حتى أفضى إليه بما قلت مُضيفاً أكاذيب من عندياته. وبعد أسبوعٍ جاءني هو نفسه يحمل لي رسالة من الپاپا. قال ان قداسته لا يريدني اكمال الكأس بعد الآن. وانه يطلب اعادته اليه بالهيئة التي آل اليها بالضبط. فأجبت هذا الرجل لايمكنه أخذ الكأس مني كما فعل بأخذ وظيفتي في دار الضرب. وزدت قائلاً:

- كما ترى: الوضع هو هذا في ذمتي خمسمائة كراون تعود الى الپاپا وسأعيدها الى قداسته فوراً

(١٤٧) كان ذلك في العام ١٥٣٣ على الأرجح.

أما الكأس فهي ملك حلال لي أتصرف بها كما أشاء.  
أسرع (پومپيو) لإبلاغ أقوالي هذه فضلاً عن عبارات مرة قذفته بها شخصياً لإقتناعي بأنه يستأهلها.

بعد مضي يومين أو ثلاثة على هذا وكان يوم خميس جاءني إثنان من أمنا سرّ قداسته أحدهما السيد (پيبر جيوفاني) وهو بعد في قيد الحياة وقد أصبح أسقفاً وكان وقتها أمين مستودعات البلاط الپاپوي. والثاني وهو أرفع منه منزلة - غاب إسمه عن ذاكرتي. وإبتدراني بقولهما:  
- أي بنقوتو، نحن قادمان بأمر الپاپا لنبلغك بعد إخفاق كل المحاولات الرقيقة إماً أن تسلمنا الكأس أو أن نأخذك أنت الى السجن.

فتطلعت إليهما باسماً وقلت:

- ياسيديّ الموقرين. لو أعطيت قداسته الكأس فإني أنزل له عن ملكي الخاص، لا عن شيء يملكه هو. وهذا ما ليس في نيتي ولن أعطيه إياه فبعد الجهود العظيمة والمشاق التي تكبدتها للوصول به الى المرحلة النهائية. يعز عليّ أن يقع بيد حيوان جاهل لن يضيع وقتاً في إتلافه.  
كان (طوبيا) الصائغ حاضراً عندما نطقت بهذا. فبلغت به الصفاقة أن يطلب مني تسليمه تصاميم الكأس أيضاً. وأوثر هنا أن لا أدون ردّي على طلبه. على أية حال كان الرد من النوع الذي يليق بمثل هذا المنحط.

والح عليّ أمينا السرّ بحزم رأبي على ما انتويه بسرعة. قلت لهما إني مستعد وتناولت معطفي.  
ثم وقبل أن أترك دكاني رفعت رأسي الى صورة السيد المسيح بكلّ إحترام - وقبعتي في يدي:  
- أنت أيها الرب الأقدس الحيّ، العادل الرحيم. كل ما تفعله نابع من عدالتك التي لاتسمو إليها عدالة. ربّ أنت تعلم إني بلغت الثلاثين من عمري، ولم اهدد بالسجن لأني عمل اتيتّه. والآن وقد شاءت إرادتك أن أقاد فأنا أشكرك من أعماق قلبي.

ثم التفت إلى أميني السرّ وبواحدة من التعابير الصارمة التي كانت تشيع في وجهي - قلت:  
- رجل من وزني يستأهل أن يخفره حرس لا يقل رفعة عن سيادتكما فاجعلاني بينكما وخذاني الى حيث شئتما فأنا سجينكما.

فإنفجر السيدان الجليان ضاحكين ووضعاني في الوسط. وسرنا ونحن نتبادل طلي الأحاديث حتى بلغنا حاكم روما و يدعى (ماگولوتو Magolotto) وكان ينتظر مقدمي ومعه المدعي العام. وعند وصولنا قال أمين السرّ للحاكم وهما مستمران في الضحك:

- إننا نعهد إليك بهذا السجين. كن شديد العناية به. كان من دواعي سرورنا العظيم أن نقوم بمهام شرطتك لأن (بنقوتو) قال لنا أنه بمناسبة إعتقاله لأول مرة في حياته - لا يستحق حرساً أدنى مناً.  
وعادا الى الپاپا رأساً وقصاً عليه ما وقع لهما فبدأ لأول وهلة وكأن مراجل غيظه ستتفجر إلا إنه كظم ما به وأطلق ضحكة مقتضبة. فقد كان في مجلسه عدد من وجهاء القوم والكرادلة أصدقائي ممن أعتد على مكانتي عندهم.

في تلك الأثناء كان الحاكم والمدعى العام يستخدمان معي أسلوباً هو مزيج من التهديد والتحذير والتجريح والنصيحة. قالوا: من البديهي إنه يحق للشخص الذي عهد إلى آخر بالقيام بعمل شيء له أن يستعيد ذلك الشيء عندما يشاء وبالكيفية التي يشاء. فكان جوابي أن تصرفاً كهذا لا ينطوي على ذرة من العدالة. وبالتأكيد أن البابا لا يمكن أن يسلك مثل هذا السلوك. لأنه ليس واحداً من أولئك الأمراء الصغار الطغاة الذين يستغلون رعاياهم بأبشع ما يمكن من إستغلال غير أبهين للعدالة أو القانون. إن نائب المسيح لا يمكن أن يقدم على شيء كهذا. عندئذ إتخذ الحاكم الوضع الذي تتسم به وظيفته بوصفه شرطياً وقال:

- بنفثوتو! بنفثوتو! أنت تدفعني إلى معاملتك بما تستحق. عليك أن تحترم منزلتي ومركزتي. وأبعث في طلب الكأس.

أجبت:

- لو أنت تعاملني بما استحق فسيكون ذلك بالتجلة والكياسة الواجبين لي.

قال مرة أخرى:

- أبعث بطلب الكأس فوراً ولا تنتظر مني تكرار ذلك عليك.

فأجبت:

- تكراً عليّ بالسماح لي بإضافة كلمات قليلة دفاعاً عن نفسي

فالتفت المدعى العام الذي كان أهدأ طبعاً بكثير من الحاكم وقال له:

- دعه ياسيدي يتكلم مائة كلمة. فما نريده هو أن يسلمنا الكأس فحسب.

فبدأت أقول:

- هب ياسيدي أن شخصاً ما يبني له قصرًا أو داراً. وجد من حقه أن يقول للبناء "اني ماعدت أريد أن تشتغل عندي في قصري أو داري" فيسرحه بعد أن يدفع له لقاء عمله. انه يكون قد إستعمل كامل حقه في ذلك. أو أن نبيلاً دفع بجوهرة ثمنها ألف كراون إلى صانع لتكفيتهها فوجد ان الجوهري لا يقوم بالعمل كما أراده هو. فمن حقه أن يقول له "لا حاجة لي بعملك فأعد اليّ الجوهرة". إلا أن قضيتي لاتشبه أيًا من هاتين. إنها ليست قضية دار أو جوهرة. كل ما يمكن أن أومر به هو إعادة الخمسمائة كراون التي تسلمتها كمقدمٍ لأنعابي. ولكما ياسيدي أن لاتدخرا وسعاً أو طاقة فكلّ ما يمكنكم الحصول عليه مني هو الكراونات الخمسمائة. فأبلغا البابا بذلك. إن تهديداتكما لاتخيفني أبداً، فأنا رجل مستقيم السيرة. ولا يثقل ضميري جرم أخشى منه.

فنهض الرجلان وقالوا إنهما سيقصدان البابا ويعودان منه بتوصيات قد لا أجدها مبعثاً للسرور.

بقيت موقوفاً ورحت أقطع القاعة الواسعة ذهاباً وإياباً ومرّت ثلاث ساعات قبل أن يعودوا وفي أثناء غيابهما توافد عليّ كل كبار التجار الفلورنسيين زائرين وشرعوا يتوسلون بي بحرارة أن أضع نهاية لهذا الخصام مع البابا أو سيكون فيه دماري. فكان جوابي إني قد قررت قراراً لا رجعة فيه على ما أنويه.

ما أن عاد الحكم والنائب العام من القصر حتى استدعيتني للمثول أمامها وتكلم الحاكم بما يلي:  
- يؤلني بابتنوتو أن أعود من نائب المسيح الأقدس بهذه الأوامر، إما أن تجلب الكأس في الحال أو أن تتدبر أمر نفسك.  
فأجبت: ماكنت أصدق حتى هذه الساعة أن يصدر من نائب المسيح الأقدس مثل هذا الظلم. وإني لأتوى أن أراه واقعاً قبل أن أصدقه قولاً. ثم أردفت:  
- فأفعلا اذن مايمكنكما بي.  
قال الحاكم:

- بقي شيء قليل مما حملته من الپاپا وعليّ أن أصارحك به ثم أقوم بتنفيذ الأوامر التي تلقيها، يقول: عليك أن تأتي بالكأس الى هنا. وعليّ أن أودعه صندوقاً وأختمه ثم أحمله إليه. إنه وعد بشرفه أن لا يكسر الختم، وأن يعيده إليك دون تأخير وهو يريد أن يتمّ كل ذلك حفظاً لما الوجهه. فضلاً عن شرف كلمته.  
فأجبت ضاحكاً يسرني جداً أن أنزل له عن الكأس بالشكل الذي رسمه لأنني أريد التأكيد كم تسوى كلمة الپاپا.

ثم بعثت بطلب الكأس فختم عليه بالشكل الذي رسم وسلمته للحاكم فأخذه الى الپاپا تحت هذه الشروط. وبحسب ما أنبأني الحاكم أن الپاپا تسلّم الصندوق وصار يقلبه عدة مرات ثم سأله هل شاهد ما بداخله فأجاب الحاكم بالإيجاب وان الختم عليه جرى بحضوره ثم أردف يقول أن الكأس في رأيه تحفة رائعة. وعند هذا قال الپاپا:

- خير بنقنوتو أن الپاپاوات يملكون سلطان الحَلّ والعقد في أمور أخطر وأعظم بكثير من هذا. قال هذا وبحركة خفيفة تنمّ عن الغضب فتح الصندوق وحلّ الخيط وكسر الختم.  
ثم راح يتفرس فيه ملياً. وعلمت فيما بعد أنه عرضه على الصائغ (طويبا) فلهج بالثناء عليه. فسأله الپاپا أيكنه الإضطلاع بمثل هذا النوع من الشغل وعندما أجاب بالإيجاب أوصاه بأن يتبع تصميمي ولايحيد عنه ثم التفت الى الحاكم وقال له:  
- أنظر فيما إذا رغب بنقنوتو فسأدفع له في حالة تنازله عنه لنا مايقدره أهل الخبرة. وإذا شاء أن يتمّه لنا بنفسه فدعه يضرب لنا أجلاً محدداً. وإن وجدته مستعداً فعلاً لذلك فسأدفع له كل ما يحتاج للعمل به ضمن حدود معقولة.

فأجاب الحاكم:  
- أيها الأب الأقدس إنني لأدري من أي معدن فظيع صبّ هذا الفتى فحولني سلطنةً تمكيني من تلقيه درساً بليغاً بأساليبي الخاصة.  
وكان تعقيب الپاپا على هذا. أنه مخوّل بأن يفعل مايشاء في حدود الكلام فحسب وإن كان واثقاً بأنه سيعقد الأمور بهذا. وعلى أية حال إن لم يجد وسيلة لتسوية الأمور غير إستعادة النقود فليبلغني بدفع الكراونات الخمسمائة الى جواهره (پومپيو).

عاد الحاكم واستدعاني الى مكتبة ونظر اليّ عابساً مقطباً كما لو كنتُ أحاكم وقال:

- للپاپاوات سلطان على حلّ وعقد أي شيء في الدنيا وكل ما يفعلونه يكون موضع رضا السماء. هذه هي كأسك. بعد أن فتحها قداسته وفحصها.

فأسرعت أقول بصوت جهوري:

- شكراً لله. فقد صرت أعرف الآن قيمة كلمة الپاپا.

بدأ الحاكم يتهدّدني ويتوعّدني حتى إذا وجد ذلك لايجديه شيئاً تحول الى الملاينة والملاطفة. فقال:

- بنفنونو! إني لشديد الأسف عليك لأنك لاتدري أين تكمن منفعتك. وعلى أية حال يمكنك أن تنصرف الآن. وأدفع الكراونات الخمسمائة الى (پومپيو) متى شئت ذلك.

خرجت أحمل كأسي. وبادرت الى دفع المبلغ. وربما خيّل لصديقي الپاپا الذي كان حريصاً على أن يشدّني الى خدمته ويضع في عنقي طوق العبودية ثانية - إني لا املك المبلغ بتمامه أو اني لن أعيده لأسباب أخرى. وربما خيّل له إني لن اسدده فوراً. فلما جاءه (پومپيو) ضاحك الثغر وفي جيبه المال. بدأ ينهال عليه بالكلام الجارح ويشكو بمرارة من النتيجة السيئة التي آلت إليها القضية. قال له:

- إذهب الى بنفنونو في دكانه. وكن معه لطيفاً مؤدباً بقدر ما يؤهلك له جهلك الحيواني. وقل له إن كان يرغب في إكمال الكأس وعمل وعاء للقربان المقدس أحمله عند الإحتفالات مع الكأس فسأدفع له كلّ ما يحتاجه لإكماله شريطة أن يشتغل.

ناداني (پومپيو) فخرجت إليه من الدكان. وبدأ يتصبص لي ويتملقني هذا الأحمق الأبله وردد كلّ ما أمره الپاپا بانهاهه اليّ. فأجبت في الحال إن أمنيته الكبرى في هذه الدنيا هو إستعادة مكانتي عند مثل هذا الپاپا العظيم تلك المكانة التي فقدتها لا بخطأ مني بل بسبب مرضي الشديد وسوء سريرة الحساد الذين لا همّ لهم غير عمل الشرّ. ثم أردفت:

- وبما أن للپاپا العديد من الخدم والأتباع. فارجو أن لاتدعه يرسلك اليّ ثانية، إن كنت تريد ان تبقى حياً. وان كانت حياتك عزيزة عليك فعليك أن تلزم جانب الحذر. إني لن اتواني عن خدمة الپاپا ليلاً ونهاراً مفكراً في إرضائه. إمّا أنت فلا تنس بعد حملك رسالتي هذه الى قداسته أن تتحاشاني ولا تتدخل في شؤوني وان فعلت ذلك فسأنزل بك العقاب الذي تستحقه. وعندها ستدرك الذنوب التي إقترفتها.

نقل هذا الرجل كل ماقلته وحرّف في كلماتي لتبدو أشد قوة. ولتخلّف إنطباعاً أسوء. وبقيت الأمور على هذه الحال فترة كنت خلالها حاصراً اهتمامي بعلمي في الدكان. في تلك الأثناء كان (طوبيا) عاكفاً على إنهاء زخرفة ونقش قرن (البونيكورن) فضلاً عن تكليف الپاپا إياه البدء بالكأس على نفس القاعدة والأسلوب الذي إتخذته. لكنه أصيب بخيبة وإستياء بعد أن شاهد ما أنجز فيهما. وبدء يندم متحسراً على قطع علاقته بي. ولم يحز العمل بالقرن رضاه فأخذ ينحى باللائمة على أولئك الذين زكّوا له (طوبياً) ونتيجة هذا صار (باچينو دلالاً كروچي Baccino della Groce) يختلف اليّ كثيراً طالباً مني بإسم الپاپا أن أبدء العمل في وعاء القربان الشعاعي. فأجبت برجائي من

قداسته أن يتيح لي فترة نقاهة بعد المرض الذي ألمَّ بي. إذ لم أشف منه بعد بصورة تامة. على إنني أضفت مستدركاً إنني سأثبت لقداسته كيف إدخرت له كل ساعة وجدتني قادراً على العمل فيها. وقد باشرت بعمل صورة له من المعدن وأكملت القوالب الفولاذية لأطبعتها هنا في بيتي. وقد سهل ذلك وجود شريكِي (فليجي Felice) عندي وكان قبلاً تلميذي.<sup>(١٤٨)</sup>

في ذلك الزمن جريا وراء نزوات الشباب تعلقت بهوى فتاة صقلية جميلة جداً وبدا منها أيضاً إنها تبادلني الحب. إلا أن أمها وقفت على الأمر وبدأت تشكّ فيما سيعقب ذلك. في الواقع إنني قررت الهروب مع الفتاة الى فلورنسا والبقاء ثم لمدة سنة دون البوح بكلمة واحدة للأُم. إلا أنها سمعت بما أنويه فغادرت روما سراً تحت جناح الليل سالكة طريق نابلّي وأشاعت إنها ستتجه عن طريق (جيفيتا فيكيا Civita Vecchia)<sup>(١٤٩)</sup> لكنها رحلت من طريق (أوستيا Ostia)<sup>(١٥٠)</sup> فلحقت بهما متبعاً الطريق الأولى وصيرتني أضحوكة في محاولة العثور عليها. والقصة تطول إن فصلت وقائعها. وكل ما أريد قوله هو اني كنت على شفا الجنون أو الموت. وبعد مرور شهرين كتبت تقول إنها في صقلية وإنها في غاية التعاسة في عين الوقت قذفت نفسي الي أحضان الشهوات واللذائذ وعلقت بحب جديد كيما أسلو الأول.

أدت سلسلة من الظروف الغريبة إلى قيام صداقة بيني وبين كاهن صقلي كان في غاية الذكاء وعلى إطلاع واسع باللاتينية واليونانية. ومرة كئنا نتسامر فجرنا الحديث الى فن إستحضار الأرواح السفلية. فقلت:

- كنت أرغب طول طول حياتي في رؤية أو سماع شيء عن هذا الموضوع.

لما سمعني الكاهن أبدي هذه الملاحظة أسرع يقول:

- الرجل الذي يباشر في مثل هذه الأمور يجب أن يكون شجاعاً قوي العزم والإرادة.

فأجبت: لو سنحت لي الفرصة فسأبرهن بأنني أملك الكثير من الشجاعة والعزم، فقال:

- لو كنت حسن العدة من هاتين الصفتين فسأملأ جوفك من هذه الأمور.

واتفقنا على إجراء تجربة في إستحضار الأرواح معاً. وفي أمسية أكمل القس إستعداداته وطلب مني أن أدعوا أتنين لا أكثر. فأخذت صديقي العزيز (فينجنزيو رومولي Vincenzo Romoli) وجاء القس برجل من بستويا<sup>(١٥١)</sup> من الذين يمارسون عمل إستحضار الأرواح. فانطلقنا الى الكوليسيوم<sup>(١٥٢)</sup>

(١٤٨) اسمه الكامل فليجي كواندنيي وهو من أخلص أصدقاء چليني وسيأتي ذكره فيما بعد.

(١٤٩) بلدة على الساحل الغربي تقع شمال روما بمسافة ٦٠ كيلومتراً تقريباً.

(١٥٠) بلدة على الساحل الغربي تقع جنوبي روما بمسافة ٣٠ كيلومتراً.

(١٥١) بلدة تقع شمال غرب فلورنسا بمسافة أربعين كيلومتراً.

(١٥٢) أهم آثار روما وهو بناء ضخم ذو أربع طبقات ذات مقاعد مدرجة وفي وسطه ساحة لألعاب المصارعة بدء ببنائه

الأمبراطور قسيسيان في ٧٢ ميلادية وانتهى منه بعد ثمانين سنوات وهو على شكل بيضوي أطول قطر فيه

بطول ١٨٨ متراً. ومحيطه ٥٢٧ متراً وكان يسع حوالي خمسين ألف متفرج. وهو في وقت چليني خرائب كما

يبدو الآن تقريباً.

وهناك إرتدى القس الجببة التي يرتديها مستحضرو الأرواح. وبدء يرسم على الأرض دوائر ويأتي بمراسيم وحركات مذهلة للغاية. وكان قد أشار علينا بجلب بعض البخور الثمينة ونار متقدة. ومادة كريهة الرائحة. بعد أن هيأنا كل شيء. دخل القس الدائرة ثم أدخلنا إليها بيده الواحد بعد الآخر، ووزع علينا الأعمال. فأعطى ذات الحماسية<sup>(١٥٣)</sup> زميله المستحضر. وأناط بي ويرفيقي العناية بالنار وإحراق البخور. ثم بدء يهتمهم ويجمعهم أكثر من ساعة دون إنقطاع. وظهرت فرق من الأرواح أثر فرق حتى غص الكوليسيوم بها وكنت منشغلاً بالبخور. فبعد أن شاهد القس هذا الجمع الحاشد من أرواح الجان التفت اليّ قائلاً:

- بنفثوتو! سلها عما تريد.

قلت:

- أريد أن تجمعوني بفتاتي الصقلية أنجليكا.

فلم نظفر بجواب تلك الأمسية. إلا أن شوقي أزداد الى المزيد مما رأيت. ولكن مستحضر الأرواح أشار بأن علينا أن نعاود التجربة وسأحصل على مايشفي غليلي تماماً من كل ما أسأل عنه. إلا أنه اشتراط على أن أجلس معي صبيلاً صغيراً طاهر الذليل لم يرتكب فاحشة.

أخذت معي واحداً من صبيان دكاني لايتجاوز عمره الإثني عشر عاماً كما صحبت (فنجزيو رومولو) السالف الذكر. ولما كان (أنبولينو غادي Agnolin Gaddi) صديقاً لكلينا فقد ضمناهما إلينا. وعند وصولنا المكان السابق أخذ مستحضر الأرواح يستعد كالسابق ولكن بدقة وعناية أكثر ثم أدخلنا الدائرة التي رسمها بكثير من المراسيم والفخامة والجمجمة ثم طلب من صاحبي (فنجزيو) أن يهتم بالبخور ووضع النجمة الحماسية في يدي وطلب مني إبقائها موجهة الى الأنحاء التي يعينها لي. فأوقفت صبي الدكان الصغير تحتها تماماً. وكان (أنبولينو غادي) يعاون فنجزيو في النار والبخور. وبدأ مستحضر الأرواح بهمهمته وجمجمته المرعبة، منادياً أجواقاً من الجنّ بإسمائها أمراً إياها بسلطان الله الحيّ الأزلي غير المخلوق. مستخدماً اللغة العبرانية فضلاً عن اليونانية واللاتينية. وكانت نتيجة ذلك أن إمتلأ الكوليسوم على رحيه بعدد من الجنّ يزيدون مائة ضعف على أقبل منهم في المرة الأولى في خلال فترة وجيزة. وظل فنجزيو وأنبولينو مشغولين بالنار وبأكداً كبيرة من البخور النادر. ثم أشار الساحر عليّ فعدت أطلب الإجتماع بأنجليكا. فالتفت اليّ قائلاً:

- أما سمعتهم يقولون إنك ستكون حيث هي خلال شهر واحد؟

ثم عاد يتوسل بي أن أصمد لأن الأرواح الموجودة تزيد بألف عمّا إستحضر منها وإنها من أخطر جنس. وبما إنها وافقت على ماطلبناه منها فعليها - حسب قوله - أن نعاملها بلطف وان نصرّفها برقة وبكثير من الأناة. وفي تلك الأثناء أطلق الصبي الذي كان واقفاً تحت النجمة الحماسية - صرخة مريضة وقال مرتعداً أن ملايين من أهول الرجال شكلاً يحفون بنا ويهددوننا. وأضاف يقول أن أربعة من أضخم المردة الجبابرة قد ظهوروا وهم مدجون بالسلاح يهمون بالإطباق علينا. وكان مستحضر الأرواح

(١٥٣) أداة على شكل نجمة مخمسة أو مخمس اعتيادي مما يستخدمه السحرة والمنجمون.

المرتعد فراقاً طوال الوقت يحاول بكل ما في وسعه اقناعهم بالإنصراف عننا متوسلاً برقة وبلطف. وراح (فجنزيو) الذي كان يهتز كالقصبه في مهبّ الريح يزيد في حرق البخور. ولم أكن أنا نفسي بأقل هلعاً من الآخرين إلاّ اني حاولت أن أبدو بالأقل منه. فشدت من عزماتهم وشجعتهم. وإن كنت أكاد أسقط ميتاً عند رؤيتي مدى الخوف الذي تملك مستحضر الأرواح.

دفن الصبي رأسه بين رجليه وهو يبكي وقال:

- سأموت هكذا! كلنا سنموت!

فقلت له:

- كل هذه المخلوقات هي عبيد وخدم لنا ليس إلاّ. وكل ماتراه هو محض دخان وأشباح فهيّا ارفع رأسك.

رفع رأسه ثم صرخ ثانية:

- الكوليسيوم كله يلتهب والنار تندفع إلينا.

ثم حجب عينيه براحتيه، وطفق يبكي قائلاً إنه الآن ميت ولا يريد أن يرى شيئاً بعد الآن وإستجد مستحضر الأرواح بي متوسلاً راجياً أن أصمد مشيراً بأن أحرق شيئاً من بخور الحلتيت<sup>(١٥٤)</sup> فتوجهت الى (فينجنزيو) بالطلب حالاً وفيما أنا أخاطبه تطلعت الى أنيولينو غادي الذي كان شبه ميت من فرط الخوف وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما فصحت به:

- أنيولو! لا داعي للخوف في موقف كهذا. عليك أن تمد يد العون لنا. أقذف بشيء من الحلتيت في النار حالاً.

وفيما كان يهيمّ بالتحرك أطلق ضربةً مجلجلة وأدركته الحاجة الى التبرّز بشكل لا قبل له بدفعها فلم يستطع حبسها فكانت ريحها أشدّ نتائفةً من الحلتيت نفسه وأفاق الصبي على الصوت الداوي والريح النتنة فرفع رأسه قليلاً ولما سمع قهقهةتي زابله شيء من الخوف. وقال إن الجان بدأ يولي الأدبار كالمجانين. وبقينا حيث نحن إلى أن سمعنا ناقوس السحر. وعندها فتح الصبي فمه ثانية ليعلن بأنه لم يبق من الشياطين غير قليل وهم يعيدون جداً عننا. وبعد أن أكمل السّاحر مراسيمه خلع قباةً وجمع أكداً الكتنب الكثيرة التي كان قد جلبها ثم خرجنا جميعاً من الدائرة واحداً ملتصق بالآخر سيّما الصبي الذي حشر نفسه في الوسط متشيشاً بسرّوالم السّاحر من جهة وبمعطفي من الجهة الأخرى. وكان لا يفتأ يصيح ونحن نسير نحو منازلنا حذاء الضفة بأن الشياطين التي رآها في الكوليسيوم تتراقص أمامنا. فتعلوا اسطح المنازل وتهبط على الأرض مرة بعد مرة.

وقال مستحضر الأرواح إنه دخل الدوائر السحرية مرات عديدة لكن لم يتفق له أن شهد شيئاً بهذا المقدار. وحاول إقناعي بالقيام بتكريس كتاب للشيطان<sup>(١٥٥)</sup> معاً قائلاً إننا سنجنّي من ذلك ثروة

(١٥٤) نباتٌ يكثر في الشرق وإسمه العلمي Asafoetida وهو من فصيلة الجزريات كان يستخدم في طب القرون الوسطى لعلاج التشنج ويتعاطاه الناس أيضاً للوقاية من المرض.

(١٥٥) المقصود من هذا غير مفهوم. ولم نهتد الى أي ترجمة أو شرح ينير السبيل لنا.

طائلة إذ سيكون في وسعنا الطلب من الجنّ إرشادنا الى دفائن الكنوز التي يعجّ بها جوف الأرض وبهذا سنغدو أثرياء جداً. وقال أن كلّ شوّون الغرام والعشق هو عبثٌ وحمق لا تكسب المرء شيئاً ولا تجديه. فأجبتني لشديد الرغبة في العمل بما قال لو إني أعرف شيئاً من اللاتينية. على إنه ظلّ يحاول إقناعي قائلاً أن المعرفة باللاتينية لا نفع فيها ولو شاء لاستخدم عدداً كبيراً ممن يتقنها. إلا أنه لم يجد شخصاً واحداً له قوّة إرادتي وإنه لمن الحكمة أن أصغي الى نصحه وظلّ يضرب على هذه النعمة حتى بلغنا المنزل. وفي تلك الليلة صار كل منّا يحلم بالشياطين والجان.

صرت التقي بالسّاحر كلّ يوم تقريباً وظلّ يلحّ عليّ بمشاركته في مشروعه الذي ذكره. وأخيراً سألته كم يقتضي له من وقت. وأين بتعين علينا أن نذهب؟ فأجاب سنبلغ غايتنا في أقل من شهر. وأصلح موضع هو جبال (نورچيا Norcia) (١٥٦). وأضاف يقول ان واحداً من أساتذته كرّس كتاباً في موضع قريب جداً يعرف باسم (باديا دي فارفا Badia di Farfa) (١٥٧) إلا أنه عانى في الحقيقة بعض الصعوبات فعليتنا والحالة هذه أن نتحاش إجرائها في الجبال. هذا فضلاً عن أن الفلاحين في نورچيا أناس ذوو تجربة وممارسة وممن يوثق بهم في هذا الفنّ الأسود. وسيكونون خير عون لنا عند الحاجة. لاشك وأن هذا الكاهن السّاحر ذو قابليّة عظيمة على الإقناع إذ ما وجدت نفسي إلا وأنا أكثر من مستعدّ الى مشاركته في مشروعه. لكنني إشتربت أن يدعني أفرغ من عمل ميداليات الپاپا. وقد أفضيت للكاهن بسرّي هذا فكان الأوّل في الوقوف عليه ورجوته أن يكتمه في نفسه. في عين الوقت بقيت أسأله هل يعتقدني سألتقي بالفتاة الصقلية خلال الوقت الذي وعدت به فقد إستغربت كثيراً لدنوّ اليوم المضروب للقاء وأنا لا أسمع شيئاً عنها. فأجاب مؤكداً بأنني سأجد نفسي في المكان التي هي فيه لأن الجنّ لا تنكل عن وعودها قط وستفنى بالعهد الذي قطعته لي. إلا إنه ينبغي أن أكون على حذر وأبقي عيني مفتوحين لخطبٍ أو مصيبة محتملة. وأضاف يقول: يجب على أن أرغم نفسي على احتمال شيء يصعب الصبر عليه والسكوت عنه وفيه أعظم الخطر. وقال سيكون مفيداً لي لو رافقته لتكريس الكتاب. فهو الطريقة التي يمكنني بها تفادي ذلك الخطر العظيم والحصول على الثروة الطائلة في عين الوقت وصرت الآن مهتماً بالأمر أكثر منه. قلتُ له أن شخصاً يدعى (جيوثاني دا كاستيل بولينزي Giovanni da Castel Bolognese) وهو خبير متضلع في عمل المداليات من النوع الذي أقوم حالياً بصنعه من معدن الفولاذ. قد حلّ الآن في روما وأن مطمحي الوحيد هو منافسة هذا الفنان لأستوعي إنتباه الدنيا وإعجابها ... فبالكشف عن مهارتي بهذه الوسيلة لا بحدّ سيفي سأقضي على أعدائي قضاءً مبرماً. إلا إنه ظلّ يلحّ عليّ بقوله:

- أرجوك يا بنقنوتو، أرجوك، تعال معي وأجتنب الخطر العظيم الذي أراك معرضاً له. إلا إني كنت عاقد العزم على الفراغ من ميدالياتي أولاً مهما كلف الأمر. وإقتربت نهاية الشهر وأنا غارق في بحر عشق ميدالياتي بحيث نسيت (أنجيليكا) وأضربها وإستغرقت تماماً في عملي.

(١٥٦) الجبال القريبة من بلدة نورچيا وهي على مسافة ١٣٠ كيلومتراً تقريباً شمال شرقي روما.

(١٥٧) موضع يقع في مرتفعات السابين. Sabine في ضواحي روما.

في ذات يوم وكان الوقت قريباً من موعد صلاة العشاء. خطر لي ببالي أقصد دكاني لسبب ما خلافاً لموعدي الإعتيادي وكان منزلي خلف الضفة في حين تقع دكاني على الضفة. وكنت قليل الإرتياد لها إذ تركت الأشغال بعهدة شريكى (فيليجي). ومختصر القول، بعد أن مكثت هناك برهة تذكرت بأني على موعد مع (السّاندرو دل بيني) فغادرت الدكان حالاً وعند وصولي الضفة التقبت (السيد بنديتو) وهو من أعزّ أصدقائي.

كان (بنيديتو) مسجلاً عقود وقد عاش في فلورنسا. وهو ابن شحاذ ضير من أهل (سيينا) سكن عدة سنين في (نابلي). ثم إنتقل الى روما حيث كان بعض التجار السيينيين قد عهدوا إليه بتمشية أعمال تجارية وإختصّ منهم بأسرة كيجي.<sup>(١٥٨)</sup>

وكان شريكى فيليجي يديم ملاحظته ومطالبته بمبلغ من المال له في ذمته نشأ عن شراء (بنديتو) بعض الخواتم منه. وفي يوم التقائنا بالذات كان شريكى قد لقيه عند الضفة وهو برفقة عدد من مخدوميه فبادر (فليجي) بصلافته المعهودة وأسلوبه الفظّ يطالبه بالدين فتهاترا. وعندما رأى مخدوموه مايجري أخذوا ينتهرونه وقالوا انهم لا يريدون شخصاً تتعقبه الكلاب النابحة. وأنهم سيستخدمون آخر عوضاً عنه فحاول الدفاع عن نفسه دفاعاً مستميتاً قائلاً إنه سيردّ للصائع دينه. وإنه لم يعد يستطيع ضبط نفسه ليتحاشى فورة رجال مجانيين. فحزّ في نفوس التجار السيينيين تلفظه بمثل هذه العبارة. وفصلوه من وظيفته في الحال. وبعد أن تركهم. إنطلق الى دكاني كالذئفة ولعله كان يريد الإنتقام من (فليجي) وشاءت الصدفة أن يلقاني وهو بهذه الحالة في وسط الضفة. وأنا الذي كنت أجهل الناس بالقضية بادرت فحييته بحرارة كعادتي. وكان الردّ الوحيد الذي جاءني منه رشقة من الشتائم والسياب. وتذكرت في الحال تحذيرات الساحر كلّها. فكظمت شعوري وغالبت نفسي مانعاً إياها عن الإتيان بعمل ترغمني عليه كلماته وقلت

- سر بنيديتو أي صديقي العزيز لاحاجة بك إلى مخاشنتي فأنا لم أسيء إليك قطّ. ولا علم لي مطلقاً بما تشكو منه. وأما عن قضيتك مع فيليجي فأذهب إليه وتفاهم معه فهو أدري بالجواب الذي يناسبك. أما أنا فلا أعرف شيئاً عن الموضوع. أرجو الأتسيء اليّ بشتي على هذه الشاكلة لاسيما وأنت تدرك جيداً بأني لست من أولئك الذين يصبرون على إهانة.

فعاد يتهمني بأني على علم تام بالمسألة. وقال إنه من صف الرجال الذين يرغموني على احتمال الأكثر من هذا وأني وفيليجي زوج من أكبر النصابين والأنذال.

كان قد تجمع حولنا عدد من المتفرجين يرقبون المباراة. إستفزني بهذه الشتائم القبيحة والحق يقال فما وجدت نفسي إلا وأنا أنحني الى الأرض وأجمع قبضتي على كمية من الوحل (كانت الدنيا ماطرة) وبسرعة البرق لظمت بها وجهه. فانكفأ الى الخلف فأصابت زاوية حادة من تلك الحجارة رأسه فسقط على الأرض فاقد الوعي. ولكثرة النزف منه عجل المتفرجون بالحكم بموته.

وبينما كان ممدداً على الأرض وبعض الناس يتهيأون لنقله. مرّ بهم (بومبيو) الجواهري الذي جئت

(١٥٨) جاء ذكر اسرة كيجي ووصف مقدار نفوذها وغناها في حاشية سابقة.

الى ذكره قبلاً وكان البابا قد إستدعاه لأمر يتعلق بعمله. فشاهد سوء حال (بنيديتو) وسأل عن الضارب فأجيب:

- الضارب بنفنونو. ولكن المضروب هو المعتدي.

وما أن صار أمام البابا حتى بدأ هذره بقوله:

- أيها الأب الأقدس، بنفنونو قتل (طوبياً) الصانع وقد شهدت الحادث بأمّ عيني.

وإجتاحت البابا فورة من الغضب فأمر الحاكم الذي كان موجوداً عنده بالقبض عليّ وشنقي في المحلّ الذي شهد الحادث. وأكدّ عليه بأن لا يترك حجراً إلاّ قلبه بحثاً عني وأن لا يريه وجهه حتى يتمّ شنقي.

لما تبيّنت المأزق الذي وقعت فيه وأنا أرى هذا الحقيير ملقى على الأرض صرت أفكر في قوة خصومي وما سينجم عن الحادث من عواقب. فأسرعت عدواً ولجأت الى (جيوثاني كادي) الموظف في بلاط البابا وفي نيتي أن أتهياً على جناح السرعة لترك روما.

لكن (جيوثاني) نصحني بأن لا أكون عجولاً بهذا القدر إذ ربما لم يكن الأمر بالخطورة التي تصورتها ثم أرسل يستدعي (أنيبال كارو) الذي يشاطره السكنى وطلب منه أن يذهب لإستطلاع الأمر والى أي حدّ تطور. وفي أثناء ذلك دخل نبيل روماني وكان من خاصة الكردينال دي مديتشي<sup>(١٥٩)</sup>. وقد أرسله الكردينال إلينا. إنتحى بنا جانباً ثم أخبرنا بما نقله الكردينال له عن لسان البابا وليس ثم سبيل والحالة هذه لطلب معونة الكردينال. ونصح بأن أحاول جهدي لأنفادي العاصفة الأولى لغضبته. وأضاف يقول إن أي منزل في روما غير مأمون. وما أن غادرنا حتى رمقني (جيوثاني) بنظرة كاسفة وبدأ وكأنه يكاد ينفجر باكياً. وقال:

- ما أتعسني وأشقاني إذ لا أرى طريقاً لمساعدتك قط.

فأجبت:

- بعون الله وحوله سأعين نفسي وكلّ ما أطلب منك هو إعارتي حصاناً.

كان قد أمر بأن يُسرح جواد عربي أسحم، أرشق وأبدع حصان في روما كلّها. فامتطيته ووضعت بندقيّة محشوة فوق حافة السرج الأمامية مهيّئة لإستخدامها في الدفاع عن نفسي. وعندما بلغت جسر (سيستي Sisti) وجدت حرس الشرطة كلهم ينتظرون فيه راكبين وراجلين. فلكرت الجواد فانطلق بي يعدو هذباً ومرق من بينهم والشكر لله الذي أسدل غشاوة على أبصارهم، وهكذا نجوت. ثم إتجهت بأسرع ما أمكنني قرية إسّمها (پالومبارا Palombara) وهي مُلك للنبييل (جيوثاني) سافللو (Giovanbatista Savello)<sup>(١٦٠)</sup> بعد هذا أعدتُ الحصان الى جيوثاني. ولم أعلمه بمحلّ إختفائي.

(١٥٩) هو ايپوليتو الأين غير الشرعي لجوليان دوق نيمور. كان رجل حرب أكثر منه رجل دين تأمر على اليساندرو قريبه. ثم عرض خدماته على شارلكان في حملته لغزو تونس ومات على ما قيل - بالسّم في آيوليا، العام (١٥٥٥).

(١٦٠) من نبلاء روما قائد كتائب الخيالة في قوات البابا كليمنت السابع. ومازالت قلعة سافيللي قائمة اليوم في=

أواني السيد جيوفانباستا يومين في منزله وأراني من التكريم والحفاوة ما أعجز عن وصفه ثم أشار عليّ بمغادرة (بالومبارا) والتوجه إلى (ناپلي). حتى تمر العاصفة وأرفق معي دليلاً لإرشادي إلى الطريق. وفي أثناء سفري التقيت بصديق نحّات كانت وجهته (سان جرمانو San Germano) لإكمال ضريح پييرو دي مديتشي في (مونت كاسينو Monte Cassino)<sup>(١٦١)</sup> وهو يُدعى (سُولُوسْمِيُو Solosmeo)<sup>(١٦٢)</sup>. وقد زوّدني بماكنت أتلهّف إلى سماعه من الأخبار. روى لي كيف ان البابا كليمنت أرسل أحد أمنائه مساء يوم فراري للسؤال عن (طوبياً) فوجده يشتغل في دكانه سليماً معافى لا يدري شيئاً عما يجري. وعندما أبلغ البابا بالأمر بإستدار نحو (پومپيو) وقال له:

- إنك لنذل حقير. لكن دعني انذرك. لقد أيقظت الأفعى التي ستلدغك وهو ماتستحقه.

ثم طلب من الكردينال دي مديتشي أن يحيطني بالرعاية لأنه لا يريد أن يخسرني مهما كلف الأمر. في تلك الأثناء كنت أنا (وسولوسميُو) في درينا إلى جبل كاسينو ونحن نغني. ومن هناك إنطلقنا نحو ناپلي بعد أن قام رفيقي بتنظيم أعماله هناك. ولما صرنا على مسافة نصف ميل من المدينة إعترضنا صاحب حان فدعانا إلى حانه وقال انه عاش سنوات عدة في فلورنسا قائماً على خدمة (كارلو جينوري Carlo Ginori)<sup>(١٦٣)</sup> ولكوننا فلورنسيين فإنه سيحفظنا بضروب من الرعاية والتكريم مما لانحلم به إذا ما حللنا عنده. فأفهمناه مراراً وتكراراً بالأمر في الذهاب معه فصار يتقدمنا مرةً ويتأخر عنّا مرةً مردداً الدعوة بقوله إنه ليودّ أن نزر حانه. فضايقني كثيراً ولذا سألته أيعرف محلّ إقامة امرأة صقلية تدعى (بياتريس) وبنيتها الجميلة (أنجليكا) وكلتاها من بائعات الهوى. فظن إنني أسخر به فصاح:

- لعن الله كل بائعات الهوى وكل عشاقهن!

ثم لكز حصانه بمهمازيه وإبتعد عنّا نافضاً يديه منّا. وحسبت إنني نجوت أو كدت من هذا الوحش المزعج، بهذا الشكل البارع. إلا اني كنت واهماً لأن ذكرى حبي العظيم لأنجليكا إندفع بقوة عارمة وفيما كنت أحدث رفيقي به متنهداً متأوها تأوه الواله المغرم إذا بصاحب الحان يكرّ راجعاً بسرعة خاطفة. حتى صار بيننا وهتف:

- قبل يومين أو ثلاثة. نزلت امرأة وفتاة في منزل قريب من حانتي. وإسماهما عين ما ذكرت. لكنني لا أدري هل هما من صقلية؟

فأجبت أن لإسم (أنجليكا) معنى كبيراً عندي ولذلك صممت الآن على زيارة حانه وهكذا دخلنا مع

=بالومبارا على بعد (٣٧) كيلومتراً من روما قرب جبل جنارو Gennaro.

(١٦١) يقع جنوب شرقي روما ويبعد عنها بحوالي مائة وثلاثين كيلومتراً.

(١٦٢) وإسمه الحقيقي أنطونيو دا سيتينيانو A. da Settignano: وهو نحّات متوسط الكفاءة وتلميذ سانسوفينو. لم يكن إلا واحداً من عدة نحّاتين استخدموا في نحت ضريح (پيرو) ابن لورنزو الكبير. مات غرقاً في ١٥٥٤. ان الكره لباندنلو هو الذي جمع بينه وبين چليني.

(١٦٣) أنتخب رئيساً (كونفالونيراً) لدولة فلورنسا في ١٥٢٧ وبقي في الحكم شهرين.

مضيفنا مدينة ناپلي ونزلنا في حانه. وماصبرت فقد خيل أن دهرأ مرّ على نقل متاعي فتوجهت الى الدار القريبة، حيث وجدت (أنجيليكا) فرحبت بي ترحيباً زاخراً بالعواطف والأشواق وبقيت معها من حوالي الساعة الثانية والعشرين قبل الغروب حتى صباح اليوم التالي في متعة لم أذق مثلها طوال حياتي.

وفي وسط لذتي وإنشراحي هذه تذكرت أن هذا اليوم هو آخر أيام الشهر الذي كان قد حددته الجنّ في دائرة الساحر كموعّد للقائي بأنجيليكا. ألا فليفكر ملياً كلّ من يتدخل في أمور الأرواح بالأخطار العظيمة التي تعرضت لها.

وأتفق إنني كنت أحمل في صرتي خاتماً ألباسياً. فعرضته على صاغة ناپلي وقد وجدت مع صغر سنيّ إن لي سمعة كبيرة في ناپلي أهلتني الى أن أحظى بأعظم التكريم والترحيب من صاغتها. ومنهم جواهري عالي المكانة اسمه (دومينيكو فونتانا Domenico Fontana). فخلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في ناپلي أغلق هذا الرجل الشهم دكانه ولم يتركني لحظة. فأخذني الى عدد كبير من الآثار القديمة الرائعة داخل ناپلي وخارجها. بل وصحبنني للسلام على نائب الملك الذي أسره برغبته الشديدة في التعرف بي. (١٦٤)

وعندما أفسح لنا السبيل الى سمّوه رجبّ بي أجمل ترحيب وفيما هو يلقي التحية إستقرت عينه على الخاتم الألباسي الذي ذكرته فطلب مني أن أسمح له برؤيته ورجاني أن لا أنساه إن خطر ببالي ببعه. وعندما إستعدت الألباسة ثم عدت فسلمتها له ثانية وأنا أقول: نفسي وألباستي تحت تصرفه. فقال رداً على ذلك أنه ممتنّ جداً للألباسة، ولكنه سيكون أكثر إمتناناً لو بقيت عنده. وسيعاملني بشكل مرضٍ الى آخر حدّ. وواصلنا حديثنا بكلّ تأدب ثم عدنا الى قيمة الألباسة وسألني سمّوه أن أسمى بلا تردد المبلغ الذي أريده ثمناً لها. فقلت أن ثمنها يبلغ مائتي كراون بالضبط. فقال إنه ثمن معقول جداً. فما دمت أنا الذي قمت بتركيبها. وهو لا يجهل بأنني أبرع صانع في العالم، فقد أفلحت في إظهار صفاتها وكامل محاسنها. مالا يقوى عليه آخر. فأجبت في الواقع إنني لست بالذي قام بتركيبها. وأن الشغل سيء ومظهر الألباسة يعود إلى صفاتها وجوهرها الطبيعي ولو أعدت تركيبها لزيد بريقها كثيراً. ثم إنني أدخلت ظفر إبهامي المدبب في طرف حفر الخاتم وقلعت الألباسه وبعد أن فركتها أعدتها الى نائب الملك فسرّ كثيراً وبانت عليه الدهشة. وبعدها كتب أمراً بدفع المائتي كراون التي طلبته ثمناً لها.

عدت الى الفندق لأجد بعض الرسائل من كردينال دي مديتشي يحثني فيها على العودة الى روما دون تأخير وأن أقصد حالاً منزل نيافته ولا أترجل إلا فيه. فقرأت الرسالة على مسامع أنجيليكا فشرعت تبكي وتتوسل لي بدلال الحبّ أن أبقى في ناپلي أو أن أحملها معي الى روما. فقلت إن قررت المجيء الى روما معي فسأعطيها الكراونات المائتين التي تسلّمتها من نائب الملك وبإمكانها أن تحفظها لنفسها. ولمحتنا الأم نتشاور معاً فدنت منا لتقول:

(١٦٤) هو بيترو الفاريز دي توليدو ماركيز فيللاً فرانكا. عيّن في ١٥٣٢ وتوفي في ١٥٥٣.

- بنفثوتوا! إن كنت تنوى أخذ أنجليكا الى روما فأترك لي خمس عشرة دوقية كدفعة لقاء حصولك على طفلتني. وبعدها سألحق بها أيضاً.

قلت للعجوز المحتمالة إنني سأدفع لها ثلاثين بكل سرور إن تخلت لي عن (أنجليكا). ودفعت وتمت الصفقة. ثم طلبت (أنجليكا) أن ابتاع لها ثوباً من القטיפفة السوداء حيث انه رخيص جداً في نابلي. فلبيت طلبها بكل سرور. أرسلت بطلبه ودفعت ثمنه. وعندها أرادت العجوز أن أشتري لها أشياء أخرى لإبنتها. ومبالغ أخرى أكثر بكثير مما دفعت لها. وهنا قلت إليها مبتسماً وقلت:

- (بياتريس) عزيزتي! أليس فيما أعطيت الكفاية؟

أجابت:

- كلاً.

فقلت:

- حسناً إذن. إن ماليس فيه الكفاية لك، هو كاف لي.

ثم قبلت (أنجليكا) وإفترقنا - هي تبكي وأنا أضحك. وسرت ووجهتي روما. تركت نابلي ليلاً ونقودي معي مصرورة في موضع خفي خشية أن أقع ضحية للعادة النابليتانية المأثورة فأهاجم وأقتل. وبالفعل فقد أضطرت الى خوض معركة دفاع حاذقة عن نفسي عند وصولي (سلجياتا Selciata) ضد عصابة من الفرسان قصدت قتلي. وبعد أيام قليلة لتركي (سولوسميو) لمباشرة عمله في (مونت كاسينو). وصلت (أنباني Anagni) (١١٦٥) صباحاً فقررت أن أصيب شيئاً من الطعام في حانة من حاناتها. وقبل وصولي وفقت الى صيد عدد من الطيور ببندقيتي. إلا ان نابض مغلاق البندقية ضرب كفي وأصابني بجرح بليغ الى حد ما، لكنه بدا خطيراً جداً لأن النزف كان شديداً. دخلت الحان ووضعت حصاني في الاسطبل وصعدت إلى الطابق الأعلى فوجدت في الباحة جمعاً كبيراً من وجهاء القوم النابليتان بينهم سيدة في مقتبل العمر ساحرة الصورة من أجمل ما وقع عليه نظري وهم جلوس يهيمون بالأكل.

صعدت وصعد في أعقابي خادمي الشاب الحسن السمتم ويده حربة ثقيلة في رأسها بلطة. فملكهم الرعب وصعقوا لأن المنطقة قد أشتهرت بأنها وكر للقتلة والمجرمين وهاهم يرون رجلين مسلحين وتلك الدماء النازفة. كل هذا جعلهم ينتفضون وقوفاً وهم يرتجفون خوفاً ويضرعون الى الله كي يخف الى نجدتهم. فأطلقت في الحال ضحكة وقلت لهم أن الله قد إستجاب لهم فعلاً فقد أرسل رجلاً في مثل وزني ومعدني لأدفع عنهم غائلة أي مهاجم. ثم طلبت منهم مساعدتي في تضييد الجرح فأخرجت تلك السيدة الجميلة مندبلاً مطرزاً بالذهب تطريزاً ثقيلاً. وهمت بربط الجرح. فاعترضت على هذا إلا أنها بادرت بإندفاع الى شقه نصفين وراحت تشده على يدي برقة ولطف كبيرين بنفسها.

وهذا بالهم نوعاً ما وتناولنا وجبة طعامنا في جو رائق ثم امتطينا خيولنا وانطلقنا معاً. إلا أن السادة الرجال لم يزايلهم الشك مني. فمهدوا بدهاء ومكر لأخو بالسيدة الجميلة بحديث وإنسحبوا

(١١٦٥) بليدة تقع على مسافة ستين كيلومتراً تقريباً جنوب شرق روما.

هم الى الخلف فواكبتها وأنا على صهوة جوادي الرشيق الصغير مشيراً في عين الوقت الى خادمي من طرف خفي بالإبتعاد عنّا. وتبادلنا أحاديث ممتعة للغاية. ولم تكن تدور حول أشياء يمكنك شراؤها من السوق. ولهذا كانت سفرتي الى روما من أبداع ما قمت به من أسفار.

بلغت روما وترجلت في قصر الكردينال. وعندما لقيتُ نيافته أخذنا نتجاذب أطراف الحديث فشكرته على مسعاه في عودتي. ثم رجوته في أن يحميني ويحول بيني وبين السجن وأن تفرض عليّ غرامة بدل ذلك وإن أمكن أن أعفى. وكان عظيم السرور برؤيتي وطمأنني بالأشياء يدعو الى قلقي. ثم التفت الى أحد إتباعه وكان سيداً من أهالي (سيينا) يدعى (پيرانطونيو پيجي P. A. Pecci) وطلب منه أن يبلغ (البارجللو) نيابة عنه بالكف عن ملاحقتي. ثم سألته عن حالة الشخص الذي قذفته بالحجر. فأجاب إنه في حال سيئة جداً وربما ستزداد سوءاً إذا علم بعودتي الى روما وقد أقسم ميمناً بأن يموت على سبيل الإنتقام مني فحسب! فأنفجر الكردينال يقهقه لهذه الفكاهة وقال:

- بإمكانه أن يجد طريقةً أخرى ليؤكد لنا بأنه ولد في سيينا.

ثم توجه اليّ وقال:

- لأجلي ولأجلك أصبر أربعة أيام أو خمسة. ولا تظهر نفسك في الضفة وبعد ذلك إذهب حيث شئت. وليمت الحمقى إن شاؤا.

عدت الى منزلي وإستأنفت العمل لإنجاز الميدالية التي كنت قد باشرت بها. صورتُ رأس الپاپا كليمنت على الوجه مع صورة تمثّل السّلام<sup>(١٦٦)</sup> على الظهر، ورمزت للسّلام بأنثى ممشوقة القدر عليها غلالة شفافة ويدها مشعل توقد به النار في مجموعة من الأسلحة المقدّسة كما أظهرت في خلفية الصورة حائط هيكلي وثني يجلس فيه (فيوري) إله النار وهو مثقل بالسلاسل ونقشت حول الصورة عبارة Clauduntur belli Porta.

وفي خلال إنشغالي بالميدالية عوفي الرجل الذي ضربته. وكان الپاپا لايفتأ يسأل عنيّ. في عين الوقت تحاشيت الإختلاف الى قصر الكردينال دي مديتشي لأن نيافته كان يعهد اليّ في كلّ زيارة بعمل هام فيعيقني عن إكمال الميدالية. على أن السيد (پيير كارنيسكيي Pier Carnesecchi)<sup>(١٦٧)</sup> أحد أصفياء قداسته المقربين وكان قد أمر من لدنه بأن يتفقدني - قال لي بكثير من اللباقة أن الپاپا شديد الرغبة في خدماتي. فأجبت على هذا بأنني في غضون أيام قلائل سأثبت لقداسته بأنني ماترت خدمته قط.

بعد بضعة أيام أخرى أكملت الميدالية وسككت ثلاث قطع واحدة ذهبية والثانية فضية والثالثة نحاسية، وعرضت السكّة على (پيير) المذكور فأخذني الى الپاپا في الحال. كان الوقت بعد الغداء في

(١٦٦) الغرض من هذه الميدالية هو إحياء لذكرى السلام الذي دام ست سنوات (١٥٣٠-١٥٣٦).

(١٦٧) امين سرّ كليمنت السابع. مواطن فلورنسي وأديب كبير كانت له صلة بالعالمين المفكرين فالديز Valdez في نابلي وميلانكتور Melanethon في فرنسا. وتأثرت أراؤه بهما كثيراً. أتهم بالزندقة وقطع رأسه وأحرقت جثته في روما

يوم جميل من أيام نيسان وكان الپاپا في البلغديري. وعندما مثلت بين يديّ قداسته أسرع فسلّمته الميداليات مع قلبها فأخذها مني وكانت لمحة واحدة منه كافية لإقناعه بالمهارة والدقة التي تجلّت في صناعتها فنظر الى (بيترو) ملياً وقال:  
- لم يحظّ العالم القديم بميداليات كهذه.

وفيما كان هو والآخرون يقبلون الميداليات مرة والقالب مرّة قلت بكلّ تواضع وأدب:  
- لو لم تبدل قوّة عليا من سوء حظوظي فتحول بيني وبين البلايا التي يهددني بها نكد طالعي لكان قداستك سيخسر خادماً محبباً مخلصاً لا بسبب خطأ ارتكبه أحدنا. لذا فأنا أرى أيها الأب الكليّ القداسة أنه لا يمكن أن يرتكب خطأ عندما يلعب المرء ورقته الأخيرة - إذا ما تريت على حدّ قول البسطاء فعدّ من الواحد الى السبعة قبل أن يقطع الورق مرّة واحدة. إن لسان الدّ أعدائي الكاذب القذر قد أفلح في إثارة قداستك بسهولة حتى إنك أمرت الحاكم بالقبض عليّ وشنقي فوراً. إلا أن قداستك سرعان ماتبين كم كان ظالماً بحقي وكيف إنه كان سيحرم نفسه من خادم مخلص بالوزن الذي ذكرته أنت فيلحق بنفسه الضرر الفادح. إني لو اثق بأنك كنت ستشعر ببعض الندم أمام الله والبشر، المخدومون الصالحون وهم مثل الآباء الصالحين يجب عليهم أن لا يدعوا أيديهم تهوي بقسوة وتهوّر على رؤوس خدمهم وأبنائهم لأن أسفهم لن يجديهم نفعاً بعد أن ينفذ الأمر. وبما أن الله أحبط عمل سوء حظي ونجّاني من أجل قداستك. فأرجو أن لا يُستثار غضبك عليّ بمثل هذه السهولة في المرّة القادمة.

كان الپاپا قد توقف عن النظر في الميداليات وأرهف أذنه الى أقوالي. ولما كان في مجلسه عددٌ من الإشراف وعليه القوم فقد إحمّر وجهه قليلاً وبدأ عليه الخجل. ولما لم يجد لنفسه مخرجاً من إضطرابه فقد قال إنه لا يتذكر إصداره أمراً كهذا مطلقاً. وعندما أدركت حراجه موقفه سارعت بإدارة دقّة الحديث الى أمور أخرى لإنقاذه من حيرته.

ثم طفق قداسته يتحدّث حول الميداليات وسألني بعد أن إستهول حجمها كيف وفقت الى سكّها بهذه الدقّة والاتقان إذ انه لم يجد بين الميداليات العتيقة ما يوازيها حجماً. وتجادبنا أطراف الحديث حول الموضوع بعض الوقت. ولما كان يخشى أن ألقى عليه خطبةً أخرى أقسى من الأولى، قال لي إن الميدالية في غاية الجمال وقد سرّ بها كثيراً لكنه يستحسن أن يكون لها ظهرٌ آخر بحسب ذوقه، هذا إذا كان الإستبدال ممكناً. فلما أجبته بالإيجاب إقترح قداسته أن أصور له موسى الكليم وهو يضرب الصخرة فينبجس منها الماء مع هذه العبارة (Ut bilat populus)<sup>(١٦٨)</sup> = ليقرب من أجل الشعب). وأضاف يقول:

- إنصرف الآن يا بنقنوتو. وقبل أن تنتهي منها سوف أكفيك كلّ حاجاتك.  
بعد أن غادرته بدأ يفخر أمام الجميع بأنه سيكون كريماً جداً في عطائه بحيث سيضمن لي عيشة

(١٦٨) قصد بها تخليد ذكرى بئر فجره بنفسه في أورثيبيتو (١٥٢٨). وقد عمل الجزء التذكاري أنطونيو دا سان غالو. والقالب مازال محفوظاً في دائرة الوثائق الپاپاوية (الأوفيزي).

مترفةً ولا يحوجني الى أن أشتغل لغيره. وإنصرفت الى إكمال ظهر الميدالية مخصصاً لها كل وقتي. بعد هذا اللقاء إعتلّ الپاپا وقررَ أطباؤه بأنه مقضيّ عليه على أغلب الإحتمال. وأدرك الخوفُ عدويّ مما يمكن أن يحصل فاستأجر مواطناً ناپلياً ليفعل بي ماكان يتوقع أن أفعل به. فأضطرت الى الدفاع عن حياتي البائسة إلاّ أنني مع هذا اكملت ظهر الميدالية، اخذتها الى الپاپا فوجدته طريح الفراش وحالته تنذر بالخطر، إلاّ أنه إستقبلني بحرارة وشوق ورغب في القاء نظرة على الميدالية والقالب وأمر بجلب نظارتيه مع عدد من الشموع إلاّ أنه عجز عن رؤية أي شيء منها. فراح يتفكرها بلمس أصابعه وجهاً لظهر وظهرًا لوجه مدة ليست بالقليلة ثم أطلق زفرة عميقة وقال انه شديد القلق عليّ ولومدّ الله في عمره وأعاد عافيته إليه فسيّسوي الأمور كلها.

بعد هذا بثلاثة أيام لفظ الپاپا إنفاسه الأخيرة<sup>(١٦٩)</sup> فضاعت كلّ جهودي. إلاّ انيّ شددت من عزمي وعزيت النفس بقولي: بفضل هذه الميداليات ذاع صيتي واشتهر أمرى ولن يتردد الپاپا التالي في إستخدامي وربما كانت مكافأتي أكثر. وبهذا الشكل تجلّدت، ونفضت عن رأسي كلّ الإهانات التي تلقيتها من (پومپيو) ثم ليست زردى وتمنطقت بسيفي وتوجهت الى كاتدرائية الرسول بطرس حيث قبلت قدمي الپاپا الراحل دون أن أذرف دموعاً. وبعدها عدت الى الضفة لأرقب الفوضى التي تعمّ عادة في مثل هذه المناسبات. وبينما كنت جالساً مع لقيف من الأصدقاء أتفق أن مرّ (پومپيو) وكان محاطاً بعشرة رجالٍ مدججين بالسلاح وعندما صار مقابلي توقفت وأتى بما يشعر منه أنه يريد إثارة شجار.

وكان من معي من الأصدقاء شباناً ذوي إقدام وإندفاع. فأشاروا عليّ بإمتشاق سيفي إلاّ اني فكرت بأن عملي هذا قد يصيب أناساً لادخل لهم في القضية بضررٍ فادحٍ ولذلك قررت أن الأفضل هو المخاطرة بحياتي فقط. وبعد أن تسكع (پومپيو) فترةً من الوقت لاتزيد عن تلاوة صلاة العذراء مرتين<sup>(١٧٠)</sup> ضحك ضحكة ساخرة وهو ينظر الى ناحيتي وشاركه الجميع فيها. ثم مضوا لطيتهم وهم يشيرون اليّ بأصابعهم ويستفزونى بغمزاتهم ولمزاتهم الوقحة.

أرادني أصدقائي أن أخوض معركة مع هؤلاء. فأجبت ببعض إنفعالٍ اني لأخبر بكيفية الثأر لنفسي وإني قادر على القتال وحدي. ولادخل لهم في المسألة فأغاظهم قولي وتركوني ساخطين وكان بينهم أعز صديق لي وهو (البرتاجيو دل بيني Albertaccio del Bene) ماعرفت شخصاً في مثل حلالة شمائله ولا أشجع منه. وكان يحبنى حبّه لنفسه وهو أخ لكلّ من (الساندرو) و(الببيزو Albizzo) من أغنياء ليون في وقتنا هذا.

أدرك أن الموقف الذي إتخذته وسكوتي عن الإهانة ليس مبعثه الجبن بل هو نتيجة للجرأة الفائقة، ذلك لأنه كان أعرف الناس بأخلاقي. ففهم ماقصده بأقوالي ورجا مني أن أسمح له بالمساهمة فيما أنا مزعم ومصمم إلاّ اني أجبته:

(١٦٩) كانت وفاته في الخامس والعشرين من أيلول ١٥٣٤.

(١٧٠) حوالي دقيقتين.

- عزيزي البرتاچيو. اني لأعزك أكثر من الباقين. ولاشك إن الوقت سيأتي حين يمكنك أن تساعدني. ولكن دعني لوحدي في هذه القضية وإنصرف لشأنك أن كنت تبادلني المودة حقاً. أسرع وأترك هذا المكان كالآخرين فليس هناك وقت أضيعه. قلت هذا وفارقته.

في تلك الأثناء إتجهت عصاية الأعداء ببطء نحو مايسمونه بـ(كيافيكا Chiavica) حتى وصلوا الى نقطة تقاطع طريقين، وكانت الطرق تؤدي الى مختلف الإتجاهات. إلا أن الشارع الذي يقع فيه منزل (پومپيو) كان يؤدي رأساً الى (كامپودي فيوري) ولسببٍ ما دخل (پومپيو) دكان صيدلي في ركن (كيافيكا) وبقي برهة هناك لقضاء حاجة.

وقيل لي إنه راح يفخر بالعمل الجريء الذي تحداني به كما يظن. وفي كل الأحوال إنقلب الأمر عليه وكان هو المبتلى، إذ ما أن وصلت المنعطف حتى خرج من دكان الصيدلي فأفسح له أشقياؤه السبيل ثم أحاطوه ووضعوه بينهم.

إستللت خنجري الصغير الشديد المضاء وإقتحمت عليه الطوق من الرجال ووضعت يدي بكل برود وبسرعة على صدره بحيث عجز سائرهم عن صدّي ووجهت طعنتي الى وجهه لكنه لوى رأسه بدافع الخوف العظيم وغاب نصل خنجري تحت أذنه تماماً. ثم عقبته بطعنيتين أخريين فقط إلا أنه كان ميتاً في الثانية. ولم يكن هذا قصدي. لكن المثل السائر هو "لاسوم في الطعان. والحرب لاتعرف قاعدة". سحبت الخنجر من جسمه بيدي البسرى وجردت سيفي باليمنى لأدفع عن نفسي إلا أن هؤلاء الأشقياء تحوطوا الجمثة الهامدة ولم تبدر من أي واحد منهم بادرة التقدم. فدرت على إعقابي سالكاً (سترادا يوليا Strada Julia) أقلب وجه الرأي في آمن مخبأ. سرت حوالي ثلاثمائة خطوة. فالتقاني صديقي العزيز (پيلوتو Piloto) الصائغ وقال:

- أي صديقي، بعد أن وقع المقدور علينا أن نفكر بسلامتك. قلت:

- فلنذهب الى منزل (البرتاچيو) فقبل فترة قصيرة كنت قد قلت له: لا البث أن آتيك ناشداً عونك. وبوصولنا المنزل وجدنا ترحيباً حماسياً ينتظرنا وما هي غمضة عين إلا وأجتمعت لدينا كل نخبة الشباب من الضفة بإستثناء الميلانيين وعرضوا جميعاً حياتهم فداءً لي. وأرسل السيد (لويجي روجلليا Luige Rucellia) بكرمه المعهود يعرض تقديم كل ما أحتاج إليه وحذا حذوه عدد كبير من الأكارم أمثاله. ثم أنهم باركوا في يدي قائلين إن (پومپيو) خرج عن كل الحدود في إهانتي وكان عجبهم أنني صبرت عليه هذه المدة.

وسمع الكردينال (كورنارو Cornaro) (١٧١) بالحادث فبادر من تلقاء نفسه بإرسال ثلاثين جندياً مدججاً بالسلاح وكثير من حملة البنادق والحراب لنقلي الى قصره بكل مظاهر الإحترام. فوافقت واتجهت إليه بخفارة الجنود وعدد يفوقهم من الشباب أصدقائي. وفي عين الوقت كان النبيل

(١٧١) فرانسسكو كورنارو هو أخ ماركو كورنارو الذي مرّ ذكره في أول المذكرات.

(ترايانو) كبير أمناء السرّ في البلاط الپاپوي ومن أقرباء القتل، قد أرسل نبيلاً رومانياً عالي المقام الى الكردينال دي مديتشي يبلغه بالجريمة الكبرى التي ارتكبتها ويقول أن نيافته مكلف بعقابي. فكان جواب الكردينال قوله له:

- كان سيرتكب جريمة كبيرة لو لم يرتكب هذه الجريمة الصغيرة. أشكر عني السيد ترايانو لإبلاغي بشيء لا علم لي به.

ثم التفت الكردينال - والنبيال الروماني حاضر - الى أسقف فورلي (Forli\*) أحد إتباعه المقربين وقال: - أبحث بحثاً دقيقاً عن بنقنوتو وجئني به لأنني أنوي مساعدته وحمايته - وكل من يتدخل في شؤونه يتدخل في شؤوني. ومن يضاره يضارني.

إحمر وجه الميلاي إنفعالاً وإنصرف ثم جاء أسقف فورلي ليجدني مع الكردينال كورنارو وأخبره بأن الكردينال دي مديتشي أرسله بطلب (بنقنوتو) لأنه يريد أن يكون هو مجيره وحاميه. وكان الكردينال كورنارو من أولئك السريعي الإنفعال فإنتفض إنتفاضة الدبّ الغاضب وردّ قائلاً أنه قادر على حمايتي كالكردينال مديتشي. فرجاه الأسقف أن يكلمني على حدة في أمر لا علاقة له بالموضوع خاص بأعمال الكردينال مديتشي. فردّه عليه الكردينال كورنارو قائلاً. بقدر ما يتعلق الأمر بهذا اليوم فليحسب نفسه انه تكلم معي. فسخط الكردينال مديتشي وإستبد به الغضب. إلاّ اني زرتّه في الليلة التالية دون علم من مضيغي بحراسة لا يُستهان بها وتوسلت به أن يتلطف ويدعني أبقى في ضيافة كورنارو وحدثته عن حسن ضيافته والعطف الذي شملني به وقلت لو سمح لي نيافته بالبقاء عند كورنارو فسيكون لدي صديق آخر يدعمني وقت الشدة. ومهما يكن من أمر فإن نيافته صاحب الأمر وما عليّ إلاّ الطاعة. فقال إفعل ما تجده مفيداً لك. فعدت الى قصر كورنارو. وبعد أيام قليلة إعتلى كورنارو عرش الپاپوية<sup>(١٧٢)</sup>.

بعد أن قام الپاپا الجديد بتصريف الأمور الهامة أرسل بطلبي. وقال إنه لا يريد أحداً غيري يتولى ضرب نقوده وتصميمها. وكان ذلك بمحض من نبيل يدعى (لاتينو چوئينالي (Latino Juvinole)<sup>(١٧٣)</sup> وثيق الصلة بالپاپا فقال له إني مختف بسبب قضية قتل ارتكبتها بحق مواطن ميلانيّ يدعى (پومپيو) ثم بسط جميع الأسباب والمبررات التي يراها لمعدرتي. فردّ الپاپا بقوله:

- لا علم لي بموت (پومپيو) إلاّ اني أقدر معاذير بنقنوتو وكلها تبرر تصرفه ولذلك صدر له (كتاب أمان) ليكون مصوناً من أي تعقيب.

كان بين الحاضرين ميلانيّ يدعى (مسرّ أمبروجيو (Messer Ambrggio) وهو من أصدقاء (پومپيو) ومن المقربين الى الپاپا، فتدخل بقوله:

(\*) مدينة تقع على مسافة مائة كيلومتراً تقريباً شمال شرق فلورنسا وثلاثين كيلومتراً جنوب غرب رافينا. (١٧٢) ألساندرو فارنيزي: إتخذ له أسم پولس الثالث وأنتخب في ١٣ تشرين الأول من العام ١٥٣٤. (١٧٣) ويعرف أيضاً بإسم جيوفاني رامانيتي. كان شاعراً وأديباً مثقفاً عرف بعلاقته الوثيقة مع الأديب (مبوكاسيتالوني) وغيره من متأدبي العصر.

- ليس من الحكمة في شيء إصدار قرارات عفو خطيرة كهذه في أيام جلوسك على العرش البابوي الأولى.

فأجابه البابا:

- إنني أدري منك بمثل هذه المسائل. فألا فذاذ في فنهم من الرجال مثل (بنفونوتو) هم فوق القانون ولا سيما هو شخصياً. ذلك لأنني أعرف كم أستفّر.

وهكذا صدر (كتاب الأمان) وبدأت فوراً بخدمة البابا ونلت حظوة كبيرة عنده.

ثم جاءني (لاتينو چوفينالي) نفسه وأبلغني رسمياً بأن البابا قد عهد إلي بمهمة ضرب نقده. وقد أزعج هذا كل أعدائي. وبدأوا يحاولون الإيقاع بي ووضع العقبات في سبيلي. ولماسمع البابا بهذا أشبعهم توبيخاً وتأنيباً وأكد لهم إصراره على أن أقوم بالعمل. وبدأت بعمل القوالب للقطعة من فئة الكراون<sup>(١٧٤)</sup>، فجعلت فيها صورة الرسول بولس مع عبارة "تم إنتخابه Vas electione". لقد خلفت هذه المسكوكة إنطباعاً في البابا يفوق ما خلفته التصاميم التي قام منافسي بعملها. ونتيجة ذلك صرح بأنه لا يود بعد الآن أن يسمع كلمة واحدة بخصوص العملة. فقد قرر نهائياً أن أكون المسؤول عنها ولا أحد غيري. فبدأت عملي أمنياً مرتاح البال وكان السيد (لاتينو چوفينالي) يهيء لي مقابلاتي مع البابا كما رسم من قبل قداسته. وأردت إستعادة وظيفتي في دار الضرب. إلا أن البابا ركن إلى المشورة في الأمر فقال لي أنه سيعيدني بعد أن أنال العفو عن جريمة القتل وأن أظفر به في يوم عيد سيدتنا مريم<sup>(١٧٥)</sup> الذي يقع في شهر آب، عن طريق أعضاء بلدية روما. والسبب في هذا هو أن العادة جرت كل سنة في يوم هذا العيد الكبير أن يمنح هؤلاء الموظفون حرية إثني عشر متهماً خارجاً على القانون. وقال إنه سيزودني خلال ذلك بكتاب أمان آخر كفيل بحمايتي حتى ذلك اليوم.

عندما وجد أعدائي فشل حيلتهم في الحيلولة بيني وبين دار الضرب فكروا في مؤامرة أخرى. كان الميت (پومپيو) قد أوصى بثلاثمائة دوقية مهراً لأبنة غير شرعية له. فدبروا تزويجها بأحد مقربي النبيل (پيبرلويجي)<sup>(١٧٦)</sup> ابن البابا، كيما يستخدم هذا الشخص حظوته عند سيده ليطلب يدها، فتم لهم ذلك. كان هذا العريس فتى من الريف رباه (پيبرلويجي) وقيل أنه لم يقبض من مهر عروسه إلا النزر اليسير إذ أستولى پيبر عليه لسيدته هذا. وأخذ الفتى الريفى إرضاءً لعروسه يلح بإستمرار على سيده راجياً منه أن يسعى في إعتقالي. فتعهد له بذلك حالما يعلم أن مكانتي عند البابا قد إعتراها وهن.

(١٧٤) بحساب ذلك الزمن الدوقية الذهب الواحدة تسوى عشرة كراونات غير ذهبية. والكراون الذهبي يعادل دوقية ذهب أو أقل قليلاً.

(١٧٥) هو الإسم الفلورنسي لعبيد (الحبل بلادنس) عند الكاثوليك. ويقع في ١٥ آب. لقد تم إصدار العفو عن چليني عن طريق نقابة القضاة.

(١٧٦) هو ابن البابا بولس الثالث غير الشرعي. أغدق عليه أبوه المال والجاه وأحاطه بضروب العز وفي العام ١٥٤٥ نصبه دوقاً لپارما وپياجنزا. كان نذلاً ساقطاً لا يؤمن جانبه غداً لآمزية فيه ولا نفع. أقدم بعض رجال من حاشيته على ذبحه وأنقذوا رعاياه من شره في العام ١٥٤٧. ووصف چليني له مطابق لسيرته تماماً.

وبقي الوضع هكذا مدة شهرين. ثم لما حاول هذا الخادم المطالبة بالمهر أوقف (بيير لويجي) مساعيه. إلا إنه أكد لزوجة الرجل بأنه سيثأر لها من قاتل أبيها على كل حال. ومع معرفتي بما يجري فقد أكثرت من زياراتي لـ (بيير لويجي) وكان يتظاهر بالود الكثير. في الوقت الذي كان قد اعتزم أحد أمرين: إما أعتيالي أو حمل البارجلو على إعتقالي.

وعهد الى شيطان كورسيكي صغير بمهمة القضاء على حياتي بصورة دقيقة محكمة جهد إمكانه وفي الوقت عينه وعد أعدائي وعلى رأسهم (ترايانو) ذاك الكورسيكي الصغير، بجائزة تبلغ مائة كراون وزعم هذا أنه سيقتلني بالسهولة التي يشرب بها بيضة حديثة الوضع غير مسلوقة. وكنت على علم بما يدبر لي فاحتطت للأمر، فإذا سرت فبرفقة عدد من أصحابي. وإذا خرجت لا أخرج إلا مشتملاً بزرد ساينج محبوب مسلحاً بغدارتين إستحصلت بهما ترخيصاً رسمياً لاتغفل عيني ولا تغمض. ولفرط طمع هذا الكورسيكي فقد ظن بأنه كفيل وحده بالمهمة لئلا يشاطره أحد آخر ثمن رأسي، وإنه لن يتعرض إلى أي خطر. وذات يوم أرسل يطلب حضوري نيابة عن السيد بيير لويجي. وكان ذلك بعد الظهر فتوجهت إليه حالاً. لأن السيد كان ذات مرة قد نوه برغبته في أن أصنع له بعض الأتية الفضية الكبيرة الحجم. غادرت منزلي وأنا بكامل شكة سلاحي كالعادة. وإحتششت الخطى في شارع (بوليا) وكل ظني أن الشارع خال في تلك الساعة من النهار. بلغت نهاية الشارع وإنعطفت نحو قصر فارنيزي وأجلت نظري كعادتي فوقع على الكورسيكي الصغير وهو ينهض من مكانه ويتقدم ليصير في وسط الشارع. وبهذا ضاعت عليه فرصة المفاجأة ولم أؤخذ على غرة لحسن إنتباهي. وتهيبأت للدفاع عن نفسي فتباطئت في سيرتي قليلاً، وحاذيت الجدران لأوسع المسافة له. لكنه صار يتعقبني محاذياً الجدران، حتى قصرت المسافة بيننا. وإتضح لي نية الشر التي يضمها. وقد حسب انه نائل بغيته لا محالة حين وجدني وحيداً. بدأت الكلام فقلت له:

- أيها الفتى الباسل. لو إن الوقت ليل لقلت إنك أشتبهت بي وظننتني شخصاً آخر. لكن الوقت نهار وأنت تعرفني حق المعرفة. ليس بيني وبينك نزاع وما أصبتك بضر ما. لكني مستعد تماماً لأكون تحت أمرك.

أجاب وهو يعترض سبيلي. بصلافة ولهجة وعيد قائلاً: إنه لا يدري عمّا أتحدث. فقلت: - نيتك ليست بخافية عني أبداً. واني أدري بماذا تتحدث، إلا أن المهمة التي كُلفت بإنجازها هي أصعب وأخطر مما تتصور، وربما إنقلب الأمر عليك. تذكر إنك تتصدى لرجل لا يأبه بمائة إن إجتمعوا عليه، إن ماتعهدت به ليس مما يتفق ومظهر رجل شجاع مثلك.

في أثناء ذلك إتخذت أنا الآخر موقفاً عدائياً وإنقلبت سحنة كلينا وكأنا صرنا في حالة تأهب للإشتباك. وتكاثر المارة حولنا وأدركوا بأن كلماتنا سيعقبها سيلان دماء. أخيراً خانتة الشجاعة الكافية لمهاجمتي. وقال:

- لا بأس عليك. سنلتقي ثانية.

فأجبت:

- إنني لعلني استعداد دوماً للقاء ذوي الشأن من الناس أو من يبدو أنهم كذلك.

وتركته وواصلت سيرتي الى منزل (بيير لويجي) لأجد أنه لم يرسل بطليبي. وبعد عودتي الى دكاني بعث الكورسيكي برسالة عن طريق صديق للطرفين يعلمني فيها بالأحاجة تدعوني بعد اليوم الى إتخاذ الحيلة لنفسني منه، لأنه يريد أن يفوز بصدقتي. ولكن ينبغي لي أن أكون على حذر دائم من الآخرين لأنني معرض لخطر داهم. فقد حلف على هلاكي أناس ذوو نفوذ ومقام فشكرته برسالة وزدت في إحتياطاتي. ولم تمض على هذا أيام حتى أبلغني أصدقائي أن (بيير لويجي) قد أصدر أمراً بأن يلقي القبض علي في مساء ذلك اليوم. ووصلني الخبر في آخر ساعات العصر، وإستطلعت رأي بعض أصدقائي فأشاروا علي بالفرار حالاً. ولما كان تنفيذ الأمر سيجري في الساعة الأولى من الليل فقد ركبت مع قافلة البريد القاصدة الى فلورنسا. والذي حصل هو ان (بيير لويجي) بعد أن أظهر الكورسيكي عجزه وإفتقاره الى الشجاعة لتنفيذ ما وعد به. أعطى الأوامر بإعتقالي بسلطانه الخاص تهديته لابنة (پومپيو) التي ظلت تسأل عن مصير مهرها. وعندما فشل في كلتا المحاولتين في الثأر لها. دير أخرى تالفة. سأتي الى ذكرها في مناسبتها.

وصلت فلورنسا وتمت مقابلة بيني وبين الدوق (اليساندرو) فرحب بي بحرارة فاقت العادة وحاول إقناعي بالبقاء في خدمته. على اني في تلك الأثناء التقيت بواحد من أصدقاء الصبا وقد كنت أبا عماد لابنه وهو نحّات يعيش في فلورنسا وأسمه (إل تريبولينو Il Tribolino) (١٧٧) وكنا يوماً نتجادب أطراف الحديث فذكر لي أن أستاذه الأول (جاكوبو دل سانسافينو Jacobo del Sansavino) (١٧٨) قد إستدعاه الى البندقية ليشتغل عنده. ولما لم يكن قد شاهد هذه المدينة قبلاً فهو جدّ مشوق الى رؤيتها متوقفاً أن يريح مالا كثيراً. ثم سألتني هل سبق لي رؤية البندقية؟ فأجبت كلاً. فرجا مني أن أرافقه ووعدته. لذا كان جوابي للدوق (اليساندرو) إنني أودّ زيارة البندقية أولاً وبعدها سأكون جدّ مسرور للعودة الى خدمته. وأخذ علي العهد والميثاق وأمرني أن أقصده قبل السفر لتبادل بعض الحديث. فتوجهت إليه في اليوم التالي بعد أن تأهبت للسفر - لأستأذن منه. فوجدته في قصر پازي Pazzi. الذي كان يشغله آنذاك السينور لورنزو چيبو دي مديتشي (١٧٩) مع زوجته وبناته. ثم أبلغته بموعد سفري عن طريق التبيل الشاب (كوزيمو دي مديتشي وهو اليوم دوق فلورنسا) فجاءني بالموافقة من سموه وقال: علي أن أقصد (نيكولو دا مونتني أگوتو Nicolo da Monte Aguto) الذي سينقذني خمسين

(١٧٧) وإسمه الكامل (نيكولودي پيريكولي Nicolo de Pericole) (١٥٠٠-١٥٥٠) مهندس معماري ونحات فلورنسي تلميذ (اندرية كونتونجي دال مونتني أسانسافينو). أنجز أعمالاً هامة في روما وبولونيا ولوريتو لآل مديتشي بصورة خاصة. يؤثر عنه أنه صنع نموذجاً مصغراً لمدينة فلورنسا بطلب من البابا كليمنت أثناء القاء الحصار عليها.

(١٧٨) هو (جاكوبو تاتي) واحد تلامذة أندريه كونتونجي المار ذكره رحل الى البندقية وقت حصار روما. وبعدها إنصرف تقريباً الى هندسة المباني. كانت وفاته في ١٥٧٠.

(١٧٩) قاتل الدوق الساندرو وقد مرّ ذكره في حاشية سابقة.

كراوناً ذهبياً وهي منحة من سموه عربوناً لحبه وعليّ أن أعود بعد الترفيه عن نفسي لأكون في خدمته.

تسلمت النقود من (نيكولو) ورحت أبحث عن (تريبولي). وكان ينتظرنني وقد أكمل إستعداده ثم سألني هل حزمت سيفي ضمن المتاع؟ فأجبت: إن من ينطلق في سفرة على ظهر الخيل لا يفعل شيئاً من هذا القبيل. فقال: إنه القانون داخل الأسوار في فلورنسا. وثم موظف يتولى مراقبة مثل هذه الأمور يدعى (سر مورتيزو Ser Maurizio) لا يتردد لاتفقه الأسباب في جلد النبي يوحنا المعمدان نفسه. فعليك أن تضع سيفك بين المتاع ولا تتقلده إلا بعد خروجك من المدينة. فأطلقت ضحكة راعدة وإنطلقنا في سبيلنا، ولقينا أحد سعاة البريد القاصدين الى البندقية فانضم إلينا وكان يلقب بالنائح (Lamentone). واجتازنا (بولونيا) ثم بلغنا (فيرارا) مساء يومٍ وهناك وجدنا محلاً للمبيت في فندق يقع في الميدان. وخرج (النائح) يفتش عن بعض المبعدين السياسيين ليسلمهم الرسائل التي كان قد حملها لهم بإذن من الدوق من زوجاتهم. وخوّل الدوق الساعي أن يكلمهم وحده ولا يدع أحداً يتصل بهم وإلا كان عقاب المتصل بهم عين عقابهم.

في غضون ذلك، وجدنا لدينا ساعتين من الفراغ قبل حلول الظلام فخرجنا معاً لمشاهدة عودة دوق فيرارا<sup>(١٨٠)</sup> من بلفيوري Belfiore بعد حضوره حفلة المبارزة بين الفرسان. ولقينا في طريقنا عدداً كبيراً من المبعدين الفلورنسيين. فأطالوا النظر فينا كأنما يريدون حملنا على الكلام معهم. فما كان من (تريبولو) وهو أجبين من عليها، أن طفق يردد باستمرار:

- لا تنتظر إليهم لاتخاطبهم بكلمة واحدة إن شئت العودة الى فلورنسا.

إنتظرنا مقدم الدوق وبعد ذلك عدنا الى الفندق، فوجدنا (النائح) هناك. وبعد الغروب بساعة واحدة. دخل الفندق كل من (نيقولو بننتندي N. Benintendi) ورجل مسن هو على غالب ظني (جاكوبو ناردي J. Nardi)<sup>(١٨١)</sup> فضلاً عن عدد آخر من الشبان. وراحوا يمتطون الساعين بالأسئلة حول زوجاتهم وذويهم في فلورنسا. وبقيت أنا (تريبولو) بعيدين عنهم حتى نتحاشى مكالمتهم. بعد مجاذبة (تريبولو) أطراف الحديث برهه. قال (نيقولو بننتندي) مشيراً إلينا:

- لي معرفة جيدة بالسيد هذين. لا أدري كم بلغ بهما السخف ليستنكفا عن محادثتنا.

أشار عليّ (تريبولو) كالعادة بالصمت. عندئذ قال لهم (النائح) أننا ممنوعان عن التحدث إليهم. ولأنك الإذن الذي يملكه هو؛ فقال (بننتندي) هذا هراء في هراء، والى سقر بهما وبئس المصير. وأضاف الى ذلك أقوالاً لطيفة أخرى من هذا النوع وعند ذلك رفعت رأسي، وبكل ما أمكنتني من

(١٨٠) هو الدوق اركولي الثاني.

(١٨١) هو المؤرخ الفلورنسي المشهور (١٤٧٦-١٥٦٣) وواحد من أنزه الجمهوريين وأشدهم حماسة. كان من الحزب المعادي لآل مديتشي. أبعده الى ليگهورن في ١٥٣٠، ثم الى البندقية وفيها دون تاريخ بلاده، وترجم تاريخ ليفي Levy من اللاتينية. أما الاخوان (بننتندي) فقد تم إبعادهما عن فلورنسا في ١٥٣٠، وكان نيقولو أحد أعضاء مجلس الثمانية.

لطف قلتُ:

- أيها السادة الأماجد في وسعكم إلحاق أكبر الأذى بنا. ونحن أعجز الناس عن مساعدتكم في عين الوقت. ومع إنكم وجهتم إلينا الفاظاً خشنة جداً فليس في نيتنا أن نفقد إتزاننا. فقال الشيخ (ناردي) إني نطقت بأقوال تليق بشاب مهذب طيب المنبت. إلا أن (نيقولو بننتندي) قاطعه قائلاً:

- فليقبلاً إستي، هما ودوقهما!  
وأضاف يصفنا بأننا زوج من الحمير.

قلت إنه واهم بخصوصنا. ولا علاقة لنا قطّ بأموره. وإنحاز الشيخ (ناردي) الى جانبنا وقال ل(بننتندي) إنه على خطأ. إلا انه مضى قدماً في إهاناته وشتائمته. عندئذ قلت له إني سأفعل وأقول له مايكره وعليه أن ينصرف لشؤونه الخاصة ويتركنا. فكرر قوله أن بإمكاننا نحن والدوق أن نلثم إسته وما نحن إلا زوج من الحمير، وعندئذ قابلت سبابه بمثله وجرّدت سيفي. فعثر الشيخ وهو يريد ان يستيق الى الدرج وسقط فوقه الآخرون وصاروا كومةً عليه. وإندفعت الى أمام أصول بسيفي هائجاً على إمتداد الجدار وأنا أصبح:

- لأبيدنكم عن بكرة أبيكم.  
إلا اني إحتتت بأن لا أمس أي منهم بأذى وإن كان ذلك عندي من أسهل الأمور. وفي وسط هذه الضجة راح صاحب الفندق يصرخ. و(النائح) معه يصيح:

- لا تفعل!  
وأخذ بعضهم يطلق صرخات إستنجاد "الغوث! القاتل!" والبقية يتنادون "ألا فلنخرج من هنا!" وإختلط حابلهم بنايلهم وكان منظرأً عجباً، يشبه قطيعاً من الخنازير ثم أقبل صاحب الفندق يحمل ضوءاً. وصعد الى الطابق الأعلى وأغمدت سيفي. وطفق (النائح) يعاتب (بننتندو) ويلومه على سلوكه السيء بينما قال له صاحب الفندق:

- إن تجريدك سيفك هنا يعني المخاطرة بحياتك. ولو سمع الدوق بعملك الطائش هذا لأمر بشنقك وأنا لا أريد معاملتك بما تستحق. لكن إياك أن تريني وجهك في هذا الفندق والأستنال ماتكره. ثم توجه اليّ فهيمت بالإعتذار منه. إلا أنه أسكتني وقال أنه يدري كم ضببت أعصابي وصبرت على الإهانات. ونصحتني باليقظة والحذر من هؤلاء خلال رحلتي .

بعد تناول العشاء أقبل النوتي ليأخذنا بركبه الى البندقية. فسألته أيجوز أن نكتري قاربه لأنفسنا؟ ولما وافق عقدنا الإيجار. وفي صباح اليوم التالي إمتطينا خيولنا وقصدنا الشاطيء وهو يبعد بضعة أميال أو نحوها عن فرارا. (١٨٢)

(١٨٢) تقع فراراً في منتصف الطريق بين فلورنسا والبندقية الى الشمال الشرقي وبينها وبين نهر البو بضعة كيلومترات ومنها يركب المسافر الى البندقية قارباً يقطع به النهر حتى مصبه في الأدرياتيک ويستأنف المسافر رحلته بحراً حتى البندقية.

وبوصولنا ثمّ، وجدنا أبا نيقولو بننتندي مع ثلاثة آخرين يرقبون طريقي وكانوا مسلحين برمحين. في حين كنت مسلحاً بحربة جيدة إبتعتها من (فيرارا). فضلاً عن كامل شكّتي من السلاح. ولم أشعر ولو بقليل من الخوف في حين طفق (تريبولو) يبكي ويندب قائلاً:

- رحماك اللهم! ها هم جاؤا لقتلنا!

التفتُ إليّ (النائح) وقال:

- خير ما تفعله هو أن تعود الى فرارا فالمسألة تبدو خطيرة. أرجوك يا بنقوتو لا تثر غضبهم ولا تستفزهم فهم كالوحوش الكاسرة.

أجبت:

- هيّا بنا. فالله في عون صاحب الحقّ وعلى أية حال سترى كيف أكون في عون نفسي. أليس هذا هو القارب الذي أكثريناه؟

قال (النائح): بلى.

- إذن فكل ما يترتب عليّ عمله هو أن أركبه رغماً عنهم.

وهمزت جوادي وعندما صرت على مسافة خمسين خطوة منهم ترجلتُ وسرت بقدم ثابتة متقدماً وأنا ممسك بحريتي. وتخلّف عني (تريبولو) وسار ورائي لاصقاً بظهر حصانه كأنه كتلة جليد. و(النائح) ينفخ ويلهث كزفيف الريح، وتلك عاداته إلا أن نخيره وشخيره الآن كانا أكثر بكثير من المعتاد. وقد وقف منتظراً ما سيسفر عن هذه المشادة اللعينة. ولما بلغت القارب تقدّم النوتي مني قائلاً إن هؤلاء السادة الفلورنسيين يرغبون في الإنضمام إلينا إن لم يكن لديّ مانع.

فأجبت:

- إكترينا القارب لأنفسنا وليس لأحد آخر غيرنا حقّ إستخدامه. وأنّ قلبي ليتنزى أماً لعدم إمكاني إصطحابهم.

وهنا قال شابٌ صلفٌ من أسرة (ماغالوتيّ Magalotti):

- بنقوتو! سنعمل على أن يكون بإمكانك ذلك.

فأجبت:

- إن كانت لمشيئة الله، وللحقّ الذي هو بجانبني ولقوتّي أثرها، فإنكم لن تستطيعوا أن تحققوا شيئاً كهذا.

قلتُ هذا وقفزت الى داخل القارب ثمّ سدّدت سنان حريتي إليهم وقلت :

- بهذا سأثبت لكم أن ما تريدون غير ممكن.

وأراد الفتى (ماغالوتي) أن يعرض فروسيته فأمسك بسلاحه وتقدم مني الأّ إني إنتقلت بسرعة إلى حافة القارب وسدّدت إليه ضربة كادت تخرقه وتصرعه في الحال لو لم ينكفيء الى الخلف. ولم يتقدم أحدٌ من رفاقه لمعونته بل نكصوا على أعقابهم. في هذه الحالة وجدت نفسي في موقف القادر على ازهاق روحه. إلاّ إني بدلاً من مهاجمته قلت:

- أنهض أيها الصديق والتقط سلاحك وأنصرف. إنك لترى الآن بكل وضوح بأني لا أستطيع حمل نفسي على عمل ما لأريد عمله، وأن ماكنت أستطيعه لا أرغب في إتيانه.

ثم ناديت (تريبولو) والنوتيّ والناتج) وإنطلقنا كلنا الى البندقية. وبعد أن قطعنا عشرة أميال من مجرى الـ(پو) أدركنا الشبان بزورق. ولما حاذونا صاح بنا ذاك الأحمق (بييرو بننتندي).

- سر في سبيلك الآن يا بنقوتو. لكننا سنلتقي ثانية في البندقية. فرددت عليه قائلاً:

- إذن فعجل. فأنا ذاهب إليها وسأكون مستعداً للفائك في أي وقت.

ووصلنا البندقية وتوجهت إلى أحد إخوة الكردينال (كورنارو) أستمد منه النصيحة وسألته أيمكنني أن أحمل سلاحاً في المدينة. فقال أجل يمكنك ذلك بالتأكيد فإن أسوء ماقد تتعرض له لا يزيد عن مصادرة سيفك.

وذهبنا والسلاح في أيدينا لزيارة النحات (جاكوبو دل سانسافينو) الذي كان قد أرسل يستدعي (تريبولو). قال له إنه ليس بحاجة الى خدماته في الوقت الحاضر. وبإمكانه مراجعته في وقت آخر.

وما سمعت هذا حتى غلبني الضحك وقلت لـ(سانسافينو) وأنا أبتسم:

- إن الشقة بين منزليكما بعيدة بعض الشيء، في حالة مراجعته لك وقتاً آخر.

أما (تريبولو) المسكين فقد صعق ولم يجد له في فمه الذاهل غير هذه العبارة:

- هاهي رسالتك عندي. كتبتهما تطلب حضوري .

فكان جواب (سانسافينو) أن الفنانين البارزين من عياره قد يقدمون على مثل هذه التصرفات بل وأكثر! وهزّ (تريبولو) كتفه وظلّ يردد لنفسه "الصبر! الصبر!".

ورغم جودة الطعام الذي قدمه (سانسافينو) لنا. فإني إنحزت الى جانب (تريبولو). إذ كان هو المحقّ قطعاً. ولم يكفّ (سانسافينو) عن المفاخرة بإنجازته الأعمال العظيمة مستخفاً بـ(ميكالنجلو) وغيره من النحاتين ومتمدحاً نفسه الى درجة لا تحتمل.

فأثقل على وضايقي حتى إني كنت أغصّ بكل لقمة تدخل فمي. ولم يصدر مني تعليق على أقواله إلا قولي:

- سيدي جاكوبو، أعلم إن الفنانين البارزين يتصرفون وفق ما يمليه عليهم فنهم وشهرتهم. والعباقرة الذين ينجزون الأعمال الرائعة الجيدة يبدون في أضواء أسنى وأبهى لو تركوا للآخرين أمر إذاعة مواهبهم والتغني بها والإشادة بأعمالهم بثقة وجرأة.

وقمنا، كل منّا يغلي غضباً.

في ذات اليوم كنت أتمشى بالقرب من الـRialto<sup>(١٨٣)</sup> فالتقيت بييرو بننتندي وكان بصحبة عدد من الرفاق. وقد أدركت أنهم ينوون بي شراً فأنسللت الى دكان صيدلي منتظراً مرور العاصفة. وبعد

(١٨٣) جزيرة ومنطقة مشهورة في البندقية وتقع على القناة الكبرى.

هذا سمعت أن الفتى (ماغالوتي) الذي عاملته بكل لطف وكرم قد أشبعهم تأنيباً. وهكذا إنتهت المسألة.

بعد أيام قلائل إنطلقنا الى فلورنسا عائدين. وفي الطريق أتفق لنا أن بتنا في موضع يلي (جيوگيا Cioggia)<sup>(١٨٤)</sup> على اليسار منها وأنت تقصد الطريق الى (فرارا). طلب صاحب الفندق أجرته مقدماً حسب العادة التي إختطها وقبل أن نأوي الى فراشنا. وعندما قلت إن العادة جرت في الفنادق الأخرى أن يتم الدفع صباحاً، أجب بقوله:

- إني أريد أجرة هذه الليلة مقدماً وفقاً للسنة التي أختطها أنا.

وردت على هذا بقولي: إن أولئك الذين يريدون أن يدفع لهم وفق ما يرسمون هم عليهم أن يصنعوا لأنفسهم عالماً خاصاً بهم يتفق مع ما يرسمونه لأن السنة في هذا العالم تختلف عن سنتهم. فأجاب صاحب الفندق قائلاً: كفاني مضايقة له لأنه لن يحيد عن سنته هذه. وكان (تريبولو) يرتجف خوفاً ويلكزني ملحاً بأن أسكت لئلا يتطور الأمر فنلقى ما نكره. وهكذا دفعنا الأجرة صاغرين كما رسم وأوينا الى فراشنا. وكانت أغطيتنا وأفرشتنا ممتازة حقاً وفي غاية النظافة وكلها جديد. لكنني أرقت ولم يغمض لي جفن طول الليل مفكراً في طريقة تنيلني ثأري. تارة كنت أقلب في فكري إشعال النار في الفندق وتارة أفكر في ذبح الجياد الأربعة الأصيلة المربوطة في إسطبله. وكلتا الفكرتين سهلة التنفيذ. إلا اني ماكنت أرى وسيلة لضمان سلامتي وسلامة صديقي بعدها. أخيراً ما فعلته هو أنني وضعت أمتعتي وأمتعة (تريبولو) في القارب. ثم وبعد أن شدنا حبال الجرّ بالحيل قلت: إني نسيت حُفّين في الفندق وسأذهب لإحضارهما وعليهما الأبحر حتى عودتي. عدت الى الفندق وناديت صاحبه. فأجاب أن لاشأن له بنا. وإمكاننا أن نذهب ونسلق أجسامنا في المبعى. وكان يقف بالقرب مني خادم الأسطبل وهو صبي رث الهيئة أثقل النعاس عينيه فقال لي:

- لن يحرك صاحب الفندق إصبعاً واحدة للبايا نفسه فهو يضاجع قحبة كان يراودها منذ زمن طويل. ثم طلب مني حلواناً يكفي لكأس من الخمر فنفتحته بدرهيمات من تلك النقود الصغيرة القيمة الرائجة في البندقية. وطلبت منه أن يذهب ويخبر الرجل المكلف بحبال الجرّ أن ينتظرنني قليلاً حتى أبحث عن حفيّ وأعود. ثم صعدت الى الطابق الأعلى وإستخدمت سكيناً مرهفة الحدّ لتمزيق أغطية وفرش الأسرة الأربعة هناك قطعاً قطعاً. وأظنني أحدثت من الضرر ما يتجاوز قيمته خمسين كراواناً. عدت الى القارب ومعني بعض القطع الممزقة من الأغطية دسستها في جيبي وأمرت الرجل المسؤول عن حبال الجرّ بأن يقلع بنا حالاً. وبعد أن قطع مسافة قصيرة ميتعداً عن الفندق. تذكر رفيقي (تريبولو) بأنه نسي سيور (كورگي Corregge) حقيبته الصغار في الغرفة ولا مناص من رجوعنا إليها. فقلت: لاتهتم بضياح سيرين صغيرين فيماكناني أن أعمل له قدر مايشاء من أكبر (الكورجي) فوراً!<sup>(١٨٥)</sup> فأجاب اني لا أنفك قطّ عن المزاح، وإنه سيعود لسيوره مهما كلفه الأمر. والتفت الى

(١٨٤) بلدة على الساحل الأدرياتيكي بينها وبين البندقية خمسة وعشرون كيلومتراً تقريباً.

(١٨٥) لكلمة Corregge في الإيطالية معينان: الأول الذي قصده تريبولو: هو السير الجلدي الذي تربط به الحقائق =

الحبال أمراً أياه بالعودة، في حين كنت أحتشّه للإسراع بنا الى الأمام. في عين الوقت شرحت لـ(تريبولو) الضرر الذي أحدثته وأريته نماذج من الضرر بإخراجي قطع الأغطية وعرضها عليه مع السكين. فإمتلاً رعباً وراح يصيح بالنوتي للإسراع:

- عجل، أسرع ولا تتوان.

وأبى أن يؤمن بخروجه من دائرة الخطر حتى بلغنا أبواب فلورنسا. وما أن شارفنا الأسوار حتى التفت اليّ قائلاً:

- ناشدتك الله أن نحزم سيفينا في متاعنا فقد كفانا مغامرات كانت مصاريني تتمعج في أحشائي طوال وجودي معك.

فأجبت:

- لا حاجة بك الى حزم سيفك في متاعك يا عزيزي (تريبولو) لأنك لم تشدّه الى وسطك قطّ. قلت ذلك مبادهةً وعفو خاطراً لاني لم أراه يُظهر رجولةً طوال الرحلة.

وعندها تطلع الى سيفه ثم قال متعجباً:

- والله إنك لمصيب! فيها هو ذا مازال مشدوداً مثلما حزمته قبل تركي منزلي.

كنتُ في نظر صديقي هذا رجلاً سيء الصحبة. لأنني حافظت على كرامتي ودافعت عن نفسي محبطاً نبات الشرّ التي كانت تدبّر. وأنا من جهتي وجدت مسلكه أسوء بكثير من رأيه في مسلكي لأنه لم يتقدم لمساعدتي وقت الشدة. ألا فليحكّم بيننا المنصف المحايد.

ما أن تجلت حتى أسرعرت لمقابلة الدوق اليساندرو لأقدم له شكري على منحة الخمسين كراوناً. وبيّنت لسموه أنني على أتمّ استعداد لخدمته في ما أحسنه من صناعة. ففوضني حالاً في عمل قوالب لنقوده وكان أول قالب عملته هو لمسكوكة بقيمة أربعين صولدياً<sup>(١٨٨٦)</sup> في وجهها صورت رأس سموه وعلى ظهرها نقشت صورتي القديسين كوزيمو وداسيانو. فأعجب بها الدوق وحازت رضاه التام واصفاً أياها بأنها أجمل قطعة نقد في سائر بلاد المسيحية وهذا ينطبق على كلّ من رآها وتعامل بها في مدينة فلورنسا وغيرها. ونتيجة ذلك رجوت سموه أن يعين لي مرتباً ويخصّص لي مكاناً في دائرة الضرب. فأجاب: عليّ أن أستمر في خدمته وسيجزل لي العطاء فوق ما أتأمل وأضاف يقول إنه أصدر أوامره لمدير دار الضرب وهو السيد (كارلو أچيووالي Carlo Accioiali) بأن يصرف لي ما أحتاج من مال. وقد تبين لي أن الأمر كما قال. إلاّ اني كنت لا أسحب إلاّ القليل. لأبدو موضع ثقة وإطمئنان.

ثم اني صنعت قالباً لمسكوكة من فئة (غويليو Guilio) على وجهها صورة جانبية للقديس جيوفاني وهو جالس على مقعدٍ وبين يديه كتاب يقرأ فيه. ونقشت على الظهر منها شعار الدوق اليساندرو ولا

=والصناديق. والمعنى الثاني الذي قصده جليليني هو (الضربة) أي خروج الريح من الدبر مع صوت. وبهذا

يتضح المزاح الذي قصده جليليني.

(١٨٨٦) الصولدي هو أصغر عملة في أوروبا.

أظني صنعت مسكوكة بمثل هذا الجمال. وعملت قالباً ثالثاً لمسكوكة من فئة نصف (غوليبو) صوّرت فيها وجه القديس جيوفاني كاملاً وهو في فتوته. وهي فضية، لا يقدر وجه الصعوبة فيها إلا الخبراء في الفن. أخيراً قمت بعمل قالب لقطع الكراون الذهبي، في وجهها نقش صليباً معقوفاً يحيط به عدد من الكارويم وعلى الظهر منها نقش شعار الدوق.

بعد فراغي من هذه المسكوكات رجوت سموه أن يقرر لي مرتباً وأن يسند إلي منصباً في دار الضرب إن كان راضياً عمّا قمت به فأجابني بكل لطف إنه راض تمام الرضى وإنه سيرتب ذلك. وكان حديثنا يجري في مستودع سلاحه، وهو يتفحص بندقية صغيرة نفيسة أرسلت إليه من المانيا. ولما لاحظتني أديم النظر فيها متمعناً. ناولني قطعة السلاح البديعة هذه قائلاً أنه يدري جيداً كم تهفون نفسي إلى أمثالها. وإنه على سبيل العيون لما وعدني به، يخيرني الآن في إنتقاء أي قطعة سلاح تعجبني من مستودعه هذا. باستثناء هذه البندقية، مردفاً أن في مستودعه من قطع السلاح مايفوقها جمالاً ويضاهيها صنعةً. فقبلت هديته وشكرته. وعندما لاحظتني أجيل بصري في القاعة. أمر أمر المستودع وإسمه (پريتينو دا لوكا Pretino da Lucca) بأن يعطيني أي قطعة أختارها. ويعد بضع كلمات ودّ ومعاملة إنصرف وبقيت لأختار أفضل وأجمل بندقية رأيتها أو ملكتها وحملتها مع إلى منزلي.

وبعد يومين جئت إلى سموه بموديلات صغيرة لبعض القطع الذهبية الفنية التي أمرني بصنعها وكان ينوي إهدائها إلى زوجته التي لم تنزل آنذاك في نابلي<sup>(١٨٧)</sup>. فسألت منه مرة أخرى أن يستعجل في إتخاذ التدابير حول ما وعدني به. إلا أنه سموه قال انه يريد أولاً أن أصنع له قالباً لصورة دقيقة له. مثل تلك التي صنعتها للپايا كليمنت. فبدأت الصورة بالشمع وأوصى بأن يسمح لي بالدخول عليه في أية ساعة أريدها للعمل بها. ولما أدركت أن العمل سيأخذ مني كثيراً من الوقت أرسلت أستقدم (پيترو پاگولو Pietro Pagolo) من مونتو ريتونو (Monte Ritondo) بالقرب من روما. وكنت قد ضممته إلي في روما منذ صباه. لما علمت أنه كان يشتغل عند الصانع (برناردو ناچيو Bernardo Naccio) الذي لم يحسن معاملته فأخذته منه ودرّيته تدريباً جيداً على كيفية سك النقود بالقوالب. في تلك الأثناء كنت منهمكاً بصورة الدوق وكثيراً ما كنت أجده مستسلماً إلى غفوة بعد الغداء. مع صفيه لورنزو<sup>(١٨٨)</sup> ذاك الذي إغتاله فيما بعد. كنت أستغرب كيف يضع الدوق ثقته في مثل هذا الرجل.

وإتفق أن أوتافيو دي مديتشي<sup>(١٨٩)</sup> الذي يهيمن على كل كبيرة وصغيرة من الشؤون في فلورنسا، كان يريد أن يقدم المدير الفني لدار الضرب العجوز (باستيانو جنيني Bastino Cennini) خلافاً لرغبة الدوق. وكان هذا صانعاً من الطراز القديم لايمتاز ولو بالقليل من المهارة. وفي أثناء سك الكراونات

(١٨٧) هي ماركيت أميرة النمسا والأبنة غير الشرعية للإمبراطور شارلكان خطبت لألساندرو في ١٥٣٠ وتم الزواج -

١٥٣٦ في نابلي. وكان عمرها ١٤ عاماً عندما جاءت فلورنسا بعد أشهر قليلة من الزواج.

(١٨٨) جاء ذكر ذلك بالتفصيل في أول حواشي الكتاب إلا أن جليليني في الصفحات التالية من مذكراته يذكر سبباً آخر لقيام لورنزو بإغتال قريبه.

(١٨٩) يمّ إلى الدوق بقرابة عصبية بعيدة. ولم ينسل من ظهر كوزيمو الملقب Paten Patriae.

خلط بين أدواتي وأدواته الساذجة الخرقاء. فشكوت الأمر للدوق وعندما أدرك إنني محقّ إنزعج كثيراً وقال:

- إذهب الى أوتافيو مديتشي وأعلمه بما وقع.  
فقصده حالاً وبيّنت له التلف الذي أصاب عملي من إجراء ذلك. فأجاب بما يتوقع من الحمير أمثاله:  
- نحن نريدها هكذا.

فأجبت: هذا ليس بالشكل الذي يجب أن تكون وهو أمرٌ غير معقول وغير منصفٍ.  
فقال:

- وإذا كانت هذه رغبة الدوق؟  
أجبت:

- إنها لن تسرني أيضاً وأنا لا أقبل بهذا.  
وأمرني بالخروج من عنده قائلاً "فلتبتلعها وإن إختنقت بها!"  
عدت الى الدوق وأبلغته بفحوى المشادة الخشنة بيني وبين أوتافيو. ورجوت من سموه أن لا يدع  
قطعة النقد الجميلة التي عملتها له تشوه بهذه الصورة ثم أستاذنته بالسفر.  
فقال الدوق:

- لقد أشتت أوتافيو كثيراً. وسأقوم بإصلاح الأمر بالشكل الذي تريد لأن التأثير يشملني أيضاً.  
في عين اليوم وكان يوم خميس - وصلني من روما كتاب أمان غير محدد صادر من البابا. ومع  
أمرٍ يوجب عليّ أن أسافر في الحال الى روما لأمنح العفو الذي سيتم في عيد سيدتنا العذراء في  
أواسط آب كيما تسقط عني نهائياً تهمة القتل. فانطلقت لمواجهة الدوق، فقيل أنه راقد في فراشه  
بعد ليلة حمراء ماجنة. وفي غضون ساعتين فقط أتممت وضع اللمسات الأخيرة على الصورة الشمعية  
ولما أطلعته عليها وهي كاملة إغتبط كثيراً. ثم اني عرضت عليه (كتاب الأمان) الذي أمر البابا  
بإرساله اليّ وعقبت على هذا قولي إن قداسته قد إستدعاني لأقوم ببعض الأشغال له. وبهذا سأحتل  
مكانتي في مدينة روما الرفيعة. وسأقوم في عين الوقت بإكمال ميداليته.  
فأجاب الدوق وهو شبه مستاء:

- بنفثوتو! أنجز ما يسرني وإبق حيث أنت الآن. سأخصص لك مرتباً وأسند إليك الوظيفة التي  
طلبتها في دار الضرب، وسأعمل لأجلك أكثر بكثير مما تريد وتأمل لأنك لم تسأل إلا المعقول  
والممكن. ناشدتك الله من سينظر في أمر القوالب الجميلة التي عملتها لي؟  
فأجبت:

- مولاي! لقد إحتطت لكل شيء. فعندي هنا واحد من تلاميذي، وهو فتى روماني تعبت في تعليمه  
وسيخدم سموك خدمة ممتازة الى حين عودتي بميداليته كاملة، مستعداً لخدمتك أبداً. في روما لديّ  
دكان فيه صناعات وأعماله رائجة جداً. إلا إنني بعد أن أحصل على العفو سأترك كل أعمالها فيها  
بعهدة تلميذ لي هناك وسأعود بإجازة سموك الكريمة.

لم يكن معنا في هذه المقابلة غير (لورنزو دي مديتشي). الذي ذكرته آنفاً. فأوما إليه الدوق عدة مرات بأن يحثني على البقاء. إلا أن كل ما قاله هذا لي هو:  
- بنفثوتو! خير لك أن تبقى هنا.

وعندما قلت أنني مصمم على إستعادة مكانتي في روما مهما حصل، سكت ولم ينطق بشيء وظلّ واقفاً يركز إنظاره في الدوق بشكل ينذر بالشر.

وبعد أن أكملت النموذج الشمعي وضعته في صندوق واقفلته وقلت للدوق:

- مولاي لا حاجة بك الى القلق من جانبي، فسأصنع لك ميدالية أجمل بكثير من تلك التي صنعتها للپاپا كليمنت. وهذا طبيعيّ ويديهيّ فتلك أول ميدالية حاولتها. والسيد لورنزو هنا الذي عرفته غزير المعرفة والذكاء سيقوم بعمل تصميم لظهرها جدير بسموك.

فأسرع لورنزو يجيب:

- كل ما يشغل فكري هو كيف سأمدك بظهر جدير بسموه! (١٩٠)

فأرتسمت إبتساماً ساخرة على وجه الدوق وتطلع الى لورنزو ثم قال:

- لورنزو! عليك أن تتدبّر له ظهراً للميدالية وعليه أن ينجزه هنا ولا يغادر فلورنسا.

فأجاب لورنزو في الحال:

- سأعمله بأسرع ما يمكنني. ولي أمل في إنجاز شيء يكون موضع دهشة الدنيا كلها.

أما الدوق الذي كان يعتبره أبه مافوناً تارةً وجباناً رعديداً تارةً أخرى، فقد إنقلب في سريره وأطلق ضحكة إثر قوله هذا. فتركتهما دون أن تتبادل المزيد من المجاملات. ولم يصدّق الدوق بأني سأرحل عن فلورنسا ولذلك لم يفتح الموضوع معي بعد هذا. ولما أنبئ بأني رحلت فعلاً. أرسل أحد خدمه في أعقابي فأدركني في (سيينا) وأعطاني خمسين دوقية من سموه مع رسالة قال فيها: "خذ هذا المبلغ مع حبي وعد الي بأسرع ما يمكنك. وعن السيد لورنزو أعلمك بأنه يتهيأ لإمدادك بالظهر العجيب للميدالية التي تقوم بصنعها".

تركت (بيسترو باگولو) الفتى الروماني الذي ذكرته سابقاً مزوداً بتعليمات كاملة حول كيفية إستعمال القوالب. ولكن العمل كان أدق وأصعب من أن يصيب فيه نجاحاً كبيراً. وبقيت دائماً لدار الضرب بمبلغ يزيد عن سبعين كراوناً لقاء عمل القوالب.

صحبت في سفرتي الى روما تلك البندقية الجميلة ذات الزند الصواني، هدية الدوق وإستخدمتها عدة مرات كمسلاة وتلهية. والواقع اني صنعت الأعاجيب بها.

ويوصولي روما ترجلت في منزل جيوفاني غادي - لأن منزلي الصغير في (سترادا يوليا) لم يكن مهيباً لإستقبالي. وكنت قد أستودعته قبل تركي روما مجموعتي الكبيرة من الأسلحة الجميلة وغير ذلك من مقتنيات التي كنت أعتزّ بها كثيراً وقررت أن لا أذهب الى الدكان بنفسي بل إستدعيت شريك (فيليجي) بدل ذلك وطلبت منه أن يرتب منزلي ويهيئه للسكنى بصورة عاجلة.

(١٩٠) يلمح لورنزو هنا تلميحاً قبيحاً بنية القتل التي كانت تساوره منذ زمن.

وفي اليوم التالي ذهبت الى المنزل لإعداد ثيابي وغير ذلك مما أحتهجه وبت فيه لأنني كنت أنوى أن أحظى بمقابلة البابا في اليوم التالي لأقدم شكري على ما فعله لي. في ذلك الحين كنت أستخدم خادمين صبيين في المنزل يسكنان فيه. وكان ثمّ غسّالة تسكن تحت الدكان وتقوم بإعداد أشهى المأكّل لي.

في تلك الأمسية دعوت عدداً من الأصدقاء لتناول العشاء وبعد أن إستمتعنا ببضع ساعات في أطيّب مجلسٍ أويت الى فراشي. ولم يكد الليل ينقضي - لم يبق للفجر غير ساعة - حتى طرق سمعي خبّط عنيف في باب منزلي. ضربة إثر ضربة والواحدة أعنف من الأخرى. فناديت الخادم الأكبر سنّاً - وهو (چنچيو) الذي رافقني في عملية إستحضار أرواح الجنّ - وأشرت عليه أن يذهب ليرى من هو ذلك المعتوه الذي يخبط الباب بهذه الخشونة في هذه الساعة من الليل. وعلى أثر خروجه أشعلت مصباحاً آخر غير الذي إعتدت إبقائه مضيئاً طول الليل. وعجلت بإرتداء زردٍ محكم فوق قميصي وإرتديت فوقه بعض الألبسة القديمة إلتقطتها كيفما إتفق. وعاد (چنچيو) وهو يصيح:  
- سيديّ العزيز! إنه البارجللو مع ثلّة من الحرس، وهو يقول أن لم تفتح الباب فوراً فسيحطّمه. إنهم يحملون المشاعل ولا أدري ماذا؟

قلت:

- أنزل وأخبرهم بأنني أرثدي ثيابي ولن ألبث حتى أخرج إليهم.  
وتصورت أنها مكيدة دُبرت لقتلي كتلك التي نسج خيوطها (بيير لويجي) قبلاً. فتسلّحت بخنجر ماضي الحدين ووضعت كتاب الأمان في يدي اليسرى، ثم هرعت الى النافذة الخلفية التي تطل على بعض الحدائق وتطلعت منها فوجدت أكثر من ثلاثين شرطياً في الأسفل. ولم أستحسن محاولة فرارٍ من هذه الجهة من الدار فعدت وسرت نحو الباب يتقدمني الخادمان الصبيّان وقد أمرتهما بفتح الباب عند إشارتي لهما بذلك. وقفت مستعداً متخذاً وضع الدفاع والخنجر في يميني وكتاب الأمان في يسري وقلت للصبين:

- والآن لا تخافا، إفتحا الباب.

وبسرعة البرق قفز البارجللو (فيتوريو Vittorio) متبوعاً بإثنين الى الداخل لاشك ظنّ إنه سيقبض عليّ بسهولة وبسرعة. وعندما وجدوا اني متأهب لهم نكصوا على الأعقاب وصاح البارجللو:

- ليس هذا من قبيل المزاح!

وعلى أثر ذلك قذفت إليهم بكتاب الأمان وطلبت منهم مطالعته. ثم صرختُ:

- لن أدعكم تلمسوني. فكيف بإعتقالي؟

أمر البارجللو بعض رجاله بالتقدم وإلقاء القبض عليّ. وأن لا يهتموا بأمر كتاب الأمان إلا فيما بعد. إلا إنني دفعت يدي المسكّة بالخنجر الى أمام جواباً على هذا وصحت:

- الله في عون صاحب الحق! إن لم تدعوني وشأني فستقبضون على جثة هامدة.

وإمتلأت الغرفة بهم. وبدا وكأنهم يهمّون بأخذني عنوة وأقتداراً، وأظهرت إستعدادي للنزال.

بالأخير أدرك البارجللو إني مصمم على ماقلتُ. فبعث يستدعي كاتبه وطلب منه أن يتلو عليه نصّ كتاب الأمان. وتظاهر أثناء ذلك بأنه يهيم بالقبض عليّ مرتين أو ثلاثاً إلاّ اني لم أغفل لحظة واحدة. أخيراً عدلوا عن محاولتهم ورموا كتاب الأمان وعادوا من حيث أتوا... بدوني.

عدت الى فراشي وقد بلغ إنفعالي حدّاً أطار النوم من عيني وبقيت مؤرقاً حتى الصباح وقررت أن أفصد عرقاً حالما تبدو تباشيره، إلاّ أنّي رأيت قبل ذلك أن أستطلع رأي (جيوفاني گادي) فأشار عليّ بمراجعة طبيب من معارفه. وكان أولّ سؤال طرحه هذا عليّ هو هل استولى عليّ الخوف؟ ألاّ تصوّر لنفسك أي نوع من الأطباء هذا ليسألني هل استولى عليّ الخوف بعد أن وصفت له بتفصيل أحداث الليلة المرعبة التي مرت بي! لم يكن أكثر من مشعبد سخيف دائم الضحك على التوافه وبدون داعٍ. وصف لي بتكشيرة ضاحكة أن أشرب قارورة من الخمر اليونانية. وأريح فكري وأقويّ من معنوياتي ولا أدع للخوف سبيلاً اليّ:

فقال له السيد جيوفاني:

- أنت نفسك كنت ستصعق رعباً يادكتور؛ حتى لو كانت بُنيتك مصبوبة من معدن البرونز أو الرخام فما بالك برجل من لحمٍ ودم؟

فأجاب الدّجال قائلاً:

- نحن ياسيديّ العزيز من طينة مختلفة. ولم نخلق وكلّنا أشباه. وهذا الرجل ليس برونزاً ولا رخاماً لكنه صبّ من الحديد.

ثم وضع أصابعه على نبضي. وضحك ضحكته البليدة الخرقاء وأضاف يقول:

- ضع يدك هنا. إنه ليس بنبض إنسان بل نبض أسدٍ أو تنين!

كان نبضي في الواقع متسارعاً عنيفاً. وقد يكون بشكل لم يقرأ عنه هذا الطبيب في جالينوس وإبقراط<sup>(١٩١)</sup> ولذا أدركت أيّ درجة من سوء الحال بلغتُ إلاّ اني خوفاً من انتكاسة، تماسكت وتظاهرت بالنشاط وطيب المزاج. وفي أثناء ذلك أمر (گادي) بإحضار الطعام وجلسنا جميعاً لتناوله. وكان معنا فضلاً عن (جيوفاني گادي) كلّ من (لودوفيكو دا فانو) و (أنطونيو اللكريتي) و (جيوفاني گريكو) وكلهم من رجال العلم وجهابذته. فضلاً عن فتى في مقتبل العمر يدعى (آنيبال كارو) الذي إمتاز بوسامة وحده ذكاءٍ وجراءة. وكان كلّ الحديث أثناء الغداء يدور حول شجاعتي. وحملوا خادمي الصغير (چنچيو) على رواية القصة مجدداً وكان صبيّاً بهيّ الطلعة خفيف الروح سريع البديهة فمثّل حركاتي وسكناتي وكيف تأهبت للنزال بأدق تمثيل مردداً عن الكلمات التي قلتها وذكرني بتفاصيل كنت قد نسيتها وكرروا سؤالهم هل أدركه خوف هو نفسه؟ فأجابهم لا وعليهم أن يطرحوا السؤال على سيّدة هل أدركه خوفٌ. ذلك لأنه كان يشعر بنفس شعوري.

(١٩١) Galen (١٣٠-٢٠٠) طبيب وفيلسوف من يرگاموم. كتب عدة رسائل وكتب في الطب والتشريح والعلاج.

وأعتمده أطباء القرون الوسطى مرجعاً. الى جانب سلفه ايوقراط اليوناني (٤٦٠-٣٧٧ ق.م) الذي يعتبر أبا الطب الحديث. لوضعه هذه الصناعة على أسس علمية.

بدأت أضيّق ذرعاً بهذه الثرثرة. وشعرت بأنّفعالٍ شديدٍ فنهضت مبدياً رغبتني في الذهاب الى السوق لشراء ثياب جديدة وحرير أزرق لي ولجنجيو. حتى نستعدّ للإضمام الى الموكب الذي سيسير يوم العيد بعد أربعة أيام. وقلت لهم أيضاً إنني قررت أن يحمل (جنجيو) أثناء المسيرة مشعلاً أبيض منيراً.

بعد مغادرتي مجلسهم ذهبت فابتعت حريراً أزرق وأمرت بتفصيله وخطاطته ثياباً. ثم أوصيت بخياطة سترة زرقاء أنيقة وصدار صغير من قماش السرسنيت<sup>(١٩٢)</sup> وابتعت لـ(جنجيو) صداراً وسترة من الحرير الرقيق بلون أزرق أيضاً. بعد أن فرغت من هذا، ذهبت لرؤية البابا فأشار عليّ بمراجعة (السيد امبروجيو Messer Ambrogio) الذي كان قد تلقى منه تعليمات حول أوصائي بعمل صحن كبير من الذهب.

وجدتُ (امبروجيو) وتبين لي أنه كان مطلعاً على تفاصيل حادث البارجللو وإنه كان متآمراً مع خصومي وقد دبر أمر إستدعائي الى روما. وإنه أشبع البارجللو لوماً وتأنيباً لأنه لم يعتقني. وعلمت أيضاً أن البارجللو إعتذر محتجاً بأنه وقف مكتوف اليدين أمام (كتاب الأمان) المدون بمثل هذه الصيغة. وبدأ (امبروجيو) يبحث معي في التعليمات التي أصدرها البابا بشأن مهمتي وطلب مني تهيئة التصميم في حين أنه سينظر في تزويدي بكل ما أحتاج. وعند حلول (عيد العذراء) قمت بزيارة للبابا مرة أخرى ولما كانت العادة المتبعة هي أن يسلم المرشحون للعفو أنفسهم للسلطة ويوسعوا في السجن، فقد بينت للبابا بأنني لأرغب في أن ألقى في السجن ورجوت منه أن يدعني طليقاً. غير إنه أجاب: هذه هي عادة متبعة وعليّ أن أطبقها. فما كان مني إلا أن جثوت على ركبتيّ ثانية شاكراً له (كتاب الأمان) الذي أصدره لي وقلت إنني لأرغب في العودة الى فلورنسا لأخدم دوقها الذي ينتظرني بفارغ صبر. فاستدار البابا الى جهة بعد سماعه قولي وأمر واحداً من رجال حاشيته الموثوقين بقوله:

- فليل بنقنوتو العفو دون أيداعه السجن. ولتتأكدوا من تنظيم جواز مروره وفق الأصول.

بعد أن كتبت الوثيقة وقعتها البابا وتم تسجيلها في الكايبيتول<sup>(١٩٣)</sup> وفي يوم العيد شاركت في الموكب الإحتفالي بأعظم ما يمكن من التشريف سائراً بين إثنين من النبلاء ونلت العفو الكامل.

بعد أربعة أيام من هذا هاجمتني حمى خبيثة ووجدت نفسي أرتجف برداً قارساً فلازمت الفراش حالاً وأنا موقن تماماً بدنو ساعتني الأخيرة، وإستدعيت خيرة أطباء روما ومنهم (فرانشسكو نورچيا F. Norcia) وهو شيخ طاعن في السن، يتمتع بأفضل سمعة في المدينة. شرحت لهؤلاء الأطباء ما كنت أعتقد سبباً لمرضي. وأضفت اني رغبت في بداية المرض أن الجأ الى الفصد وإخراج بعض الدم، لكن أشير على بالاً أعمد الى ذلك. ثم اني رجوتهم أن يفصدوني حالاً إن لم يكن الوقت قد فات. ولكن الأستاذ فرانشسكو أجاب: لو تمّ الفصد في ذلك الوقت لشفيت تماماً. أمّا الآن فلا فائدة منه. وإنهم

(١٩٢) قماش من النسيج الحريري الدقيق، يُجلب من الشرق. واسمه يدل عليه فكلمة سراسين هي تصحيف من (شرقين)

(١٩٣) دار الحكومة رفي روما.

سيلجأون الآن الى وسائل علاج أخرى.

وبداؤا في تطبيبي، بكل مايميلكون من معارف لكن حالتي كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وبعد أسبوع تردت حالتي إلى الحد الذي أياأس الأطباء مني وقالوا فليعط كل مايشتهي دون قيد، فهذا مايجلب له الراحة في ساعاته الأخيرة. وأردف (فرانشسكو) يقول:

- طالما فيه نفس يتردد، فلکم أن تستدعوني في أي وقت إذ لا أحد يدري مايمكن أن تصنعه الطبيعة من خوارق لرجل في مثل تركيبه. إن غاب عن الوعي فجرّبوا هذه العلاجات الخمسة فيه، واحداً بعد الآخر بالترتيب وبعدها راجعوني وإني مستعد للمجيء في أية ساعة من ساعات الليل. إني لأفضل إنقاذه على إنقاذ اي كروينال من روما.

وواظب (السييد جيوفاني غادي) على عبادتي مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد. ودأب حال مجيئه على تقليب وتفحص أسلحتي الجميلة، من بنديات صيد أو دروع أو سيوف متمتماً:

- هذه قطعة جميلة الصنع حقاً! وهذه أبدع! وهذه...

وكان هذا شأنه أيضاً مع تصاميمي وغيرها من مقتنياتي الصغيرة، فكاد بذلك يسلمني الى الجنون حتى ضقت به ذرعاً وكان يأتي برفقة المدعو (ماتيو فرانزيسي Mattio Franzesi) (١٩٤). الذي كان يبدو منزعباً لأنني أصارع الموت بهذه القوة وأخذ منه وقتاً طويلاً، ليس طمعاً في مغنم من موتي بل لأنه كان يرغب في أن يحصل (جيوفاني) على مايتمناه.

كان شريكى (فيليجي) الذي أتيت الى ذكره قبلاً يلازم فراشي، مقدماً خدماته وبإذلاً عونه بتفانٍ لا نظير له. كنت في أقصى حالات الضنى والاضمحلال جسمانياً يصعب جداً إلتقاء إنفاسي. إلا اني بقيت صافي الفكر، مستوفز العقل حاضر الذهن كسابق أيام صحتي. ومع ذلك ففي ذات يوم ظهر بالقرب من سريري رجل مسنّ مرعب الهيئة وحاول أن يسحبني بالقوة الى سفينته الكبيرة. فصرخت مستنجداً بفيليجي وناشدته أن يدفع غائلة هذا اللثيم عني. فهرع اليّ وكان يكنّ لي أعظم الحبّ وصرخ والدموع تسيل من عينيه:

- أخرج أيها الخائن الغدار، الذي يريد أن يستلب كل ما عندي.

فعقبّ غادّي الذي إتفق وجوده إنذاك بقوله:

- صاحبا المسكين يهدي! لم يبق له من الحياة فير ساعات قليلة.

وأضاف (ماتيو):

- لاشكّ وإنه قد قرأ (دانتي) (١٩٥). والآن وهو مريض جداً. أفلت منه زمام عقله وراح يتجول على غير هدى.

ثم ضحك وصاح:

- إنصرف عتاً أيها النذل العجوز ولا تزعج صديقنا بنقنوتو!

(١٩٤) شاعر معروف محبوب جداً في الأوساط الأدبية آنذاك لطفة روح ولطف نكته.

(١٩٥) يقصد ملحمة الشهيرة الكوميدي الالهية.

كانا يسخران مني في الواقع، فالتفتُ إلى (جيوثاني غادي) وقلت له:

- سيدي العزيز أؤكد لك إنني لا أهذي فهناك رجل عجوز فعلاً يعذبني، إلا أن أفضل خدمة يمكنك أن تقدمها لي هي أن تخلصني من هذا الجرذ الصغير الذي يهزأ بمصابي. وإن شرفني سيادتك بزيارة أخرى فلتصطحب السيد أنطونيو الليكرتي أو السيد أنيبال كارو. أو أي واحدٍ من أصحابك الغرّ الميامين ذوي المواهب وسمو الذوق الذين لا يتصرفون كالوحوش.

وعندها أمر جيوثاني رفيقه (ماتيو) على سبيل المزاح بأن يغادر المنزل ولا يأتي بعد هذا. ولما استمرّ (ماتيو) في ضحكه وعبثه إنقلب المزاح جداً وآلى (جيوثاني) على نفسه أن يقطع كل صلة به. ثم أرسل يستدعي الليكرتي ولودوفيكو إنيبال كارو بدلاً عنه. وقد شعرت براحة تامة عندما احتوى مجلسنا هؤلاء الرجال الممتازين حتى إنني حدثتهم بشكل معقول إلا إنني كنت أوصل الإلحاح على فليبي بطرد الشيخ العجوز عني. وسألني (لودوفيكو) عمّا أراه أو أتخيله بالضبط وطلب مني أن أصفه. وفيما أنا أقوم باعطاء صورة له أمسك العجوز بذراعي وجذبتني إليه جذبة عنيفة فصرخت مستنجداً بهم قائلاً أنه يريد القائي في قاربه الرهيب. ثم فقدت الوعي حالاً متخيلاً إنني ملقي في بطن القارب فعلاً. وقد أخبروني بعد ذلك إنني كنت في نوبة أنتفض وأهتز وأسلق جيوثاني بهجر القول والسباب قائلاً أنه لا يأتي إلا لسرقتي لا حباً بي. وبهذا السباب وتلك التهم إحمراً وجهه خجلاً وعاراً. ثم قالوا إنني إنقطعت عن الهذيان وخدمت حركتي تماماً فظنوا إنني لفظت آخر أنفاسي. ومكثوا معي أكثر من ساعة حتى بدأ جسمي يتصلّب فحسبوني ميتاً وتركوني. وعند عودتهم إلى منزلهم أبلغوا النبأ (ماتيو فرانزيسي) الذي أسرع بالكتابة إلى صديقي العزيز (بنيدتو فاركي) في فلورنسا. قائلاً أنهم رأوني أودع الحياة في الساعة كذا وكذا من الليل. فما كان من هذا العبقري والصديق الصدوق إلا أن نظم قصيدة رثاء رائعة، أوحاها له نبأ موتي المزعوم وسأثبته هنا فيما بعد.

مرت ثلاث ساعات بطولها ولم أعد إلى وعيي وجربّ بي (فيلبيجي) كلّ العلاجات التي أوصى بها الطبيب (فرانشسكو) ولما وجد إنني لم أفق. هرع إلى الطبيب بأسرع ما تنقله قدماه وأنشأ يطرق بابه طرقات متواصلات حتى أبعده عن سريره. وطلب منه ضارِعاً والدموع تجري على خديه أن يأتي معه إلى المنزل حيث كنت جثة هامدة.

فأجاب فرانشسكو بعد سماعه هذا وكان حادّ الطبع:

- ماتراني فاعلاً يا بني وماذا يجدي مجيئي الآن؟ إن مات فإنني حزين عليه أكثر منك. لكن أتظنّ اني لو جئت معك حاملاً كلّ طبيّ - سأتمكن من إعادة الحياة إليه، بدفع الأنفاس إلى دبره؟  
وإذ رأى الفتى البائس يبتعد عنه باكياً رق قلبه وناداه وأعطاه زيتاً ليدهن به صدري ورسغيّ. وأوصاه بأن يقرص أصبع قدمي ويدي الصغيرة بشدّة فإن عدت إلى رشدي فعليه أن يرسل في استدعائه حالاً. ففعل (فيلبيجي) كلّ ما أوصي به إلا أن الصبح انبلج تقريباً دون أن تبدو بارقة من الأمل فيّ. فصدرت الأوامر بتفصيل الكفن وثبّه الغاسل بالإستعداد لغسل الجثة. لكنني عدت إلى نفسي فجأة. وناديت (فيلبيجي) ليأتي ويطرد عني الشيخ الذي يحاول أيدائي. أراد فيليبيجي أن

يستدعي الطبيب إلا أنني طلبت منه البقاء بجانبني بدل ذلك لأن الشيخ يبتعد عنه خائفاً منه على ما يظهر. وعندما مسست يد فيليجي رأيت الشيخ يلوذ بالفرار وهو مستشاط غيظاً. فعدت أتوسل به أن يبقى قريباً مني.

وبعد برهة أقبل الأستاذ فرانشسكو وقال إنّه قد صمم تصميماً لا رجعة فيه على شفائي مهما كلفه الأمر! وأنه لم يجد في أي شاب قوة احتمال كتلك التي أظهرتها. وكتب وصفاً تتضمن عطوراً ومحاليل ومروّجات ولبائخ وأنواعاً مختلفة أخرى. وأفقت لأجد أكثر من عشرين علكة طبية لاصقة بظهري وشعرت وكأنني أثقب وأكسر وأسحق. وأجتمع حولي عدد كبير من الأصدقاء ليشهدوا معجزة عودة الحياة اليّ. وكان بينهم نفرٌ عديد من عليّة القوم. وفي محضرٍ منهم أعلنتُ وصيتي فأمرت بأن يعطى (مونالبيراتا) أختي المسكينة في فلورنسا كل ما أملكه من ذهب قليل يناهز ثمانمائة كراون بين عملة فضيَّة وذهبية ومصوغات وتبر. أما بقية تركتي ويضمنها سلاحي فقد أوصيت بها الي فيليجي العزيز فضلاً عن أوصائي له بخمسين دوقية ليبتاع بها ثياب حداد. وبسماعه هذا إرتقى عليّ وأحاطني بذراعيه قائلاً أن كل ما يرغب هو أن أعيش، فقلت:

- إن كانت هذه رغبتك فأمسك بي كما فعلت قبلاً وأمنع عن هذا الشيخ الذي يخشاك. فداخل الخوف بعض الموجودين حتى كادوا يخرجون عن وعيهم. إذ كانوا على ثقة بأنني مالك زمام عقلي الآن وإن كلامي صادر عن صفاء في الذهن لا عن هذيان.

إمتد بي المرض إلا أن صحتي أخذت تميل الى التحسن وواصل فرانشسكو الطبيب عيادتي بمعدل خمس مرات في اليوم الواحد. إلا أن (جيوثاني) الذي كان يشعر بالوجل إنقطع عن زيارتي تماماً. ووصل زوج أختي (ليبيراتا) الى روما قادماً من فلورنسا ليقبض الميراث، إلا انه كان في غاية اللطف والطبيرة إذ فرح جداً بإبلائي. وقد سررت برؤيته وشعرت براحة نفسية يقصر لساني عن وصفها. وبرهن لي على حبه الصادق إذ أكد أنه ماجاء إلا ليعنى بي ويتولى تربيته بنفسه وقد قام بذلك فعلاً عدة أيام ويعد أن أصبح شفائي مؤكداً أعدته الى فلورنسا.

عند سفره دفع لي بمرثية السيد بنديتو فاركي التي نظمها اثر سماعه بنياً موتي وها هي ذي:

(في الموت الكاذب المزعوم لبثفوتو چليني)

أي (ماتيو) (١٩٦٦)! من سيعزينا؟ من سيطلب من مآقينا

الكف عن ذرف الدموع فوق نعشه؟

أه من الحقيقة المرّة. إنه تركنا في هذه الدنيا بعجلة الشباب

ليعرج الى السماء ويتخذها منزلاً. ايه أيتها الروح الصديقة النقية.

ليس في الفن من يباريك. فقد أصبت القدح المعلي. ولم يبذك منافس وفي هذه

الدنيا التي لم تشهد لك نظيراً. يكون خير من فيها أسبق من غيره الى وداعها.

أيتها الرح السامية أنظري إلينا من علاك واضرعي لأجلنا إن كنت

(١٩٦٦) المخاطب هو ماتيو فرانزيسي الذي كتب للشاعر بنينه بوفاة چليني.

تشعرين بحبّ لنا ، فنحن أقصر عن إستجلاء الحقيقة من خلال الضباب الذي يحفّ بنا .  
أنا لا أبكي سعادتك لكنني أبكي سقمي وأنت الآن ومجلسك في السماء  
تشخص بإبصارك الى الأله القدير وتراه وجهاً لوجه  
ذلك الذي أظهرت أسمى عبقريتك البشرية في تصوير خياله<sup>(١٩٧)</sup>

كان دائي عضالاً حتى خيل لي اني لن أبرح الفراش أبداً. ولم يكلّ ذلك الطبيب الفاضل  
(فرانشسكو نورجيا) ولم يملّ. كلّ يوم يأتيني بعقار جديد مجاهداً في تقوية هيكلني المنهوك. ومع كل  
مجهوده هذا بدا وكأن الوهن لا يتطرق الى المرض الذي ابتليت به. وبتنيجة هذا كاد كل الأطباء  
المعالجون يدركهم اليأس. وتحيروا فيما يفعلون. كنت أشعر بظماً قاتل إلا اني أمتنعت عن شرب الماء  
بناءً على أوامره أياماً عدة. ولم يبرح فيليجي مكانه بقربي وكان جدّ مغتبط لأنه وفق في إنقاذ  
حياتي. وقلّت مضايقة الشيخ لي وأن كان كان يزورني أحياناً في أحلامي. وفي ذات يوم تركني  
(فيليجي) لأمر ما بعد أن أوصى أحد خلفنا وخادمة تدعى (بياتريس) بالسهر عليّ. وسألته الخلفة  
ماذا حلّ بصبيّ الدكان (چنچيو) ولماذا لا أراه وأنا في حاجة إليه؟ فقال أن الصبيّ أشدّ مرضاً مني  
وقد أشرف على الموت. وكان (فيليجي) قد أوصاهم بكتمان ذلك عنيّ. فزاد إنفعالي وجاشت نفسي  
عند سماعي ذلك ثم ناديت الخادمة ببياتريس التي كانت من أهل (پستويا) وطلبت منها أن تأتي  
بالمبردة البلورية الكبيرة المملوءة بالماء القراح الموضوعه هناك. فركضت إليها حالاً وجاءتني بها وهي  
ممتلئة حتى الحافة. وأمرتها أن تدينها من فمي قائلاً إن تركتني أشرب ملء فمي منها فإني سأبتاع  
لها ثوباً.

كانت هذه الخادمة قد إختلست من المنزل أشياء صغيرة ذات قيمة عندي ولخوفها من إفتضاح أمرها  
كان يسرها أن تراني ميتاً. ولذلك جاءتني بالقارورة مرتين وتركني أشرب قدر ما أمكنني من الماء  
وإحتسيت أكثر من قارورة ثم جذبت الأعطية عليّ وبدأت أنضح عرقاً ورحت في نوم عميق.  
بعد ساعة من الزمن عاد (فيليجي) وسأل الخلفة عن حالي فأجابه:  
- لا أعلم. جاءته (بياتريس) بتلك القارورة مملوءة ماءً فأفرغ كل ما فيها تقريباً في جوفه. ولا أدري  
الآن أهو حيّ أو ميّت.

قالوا لي أن (فيليجي) كاد يقع مغشياً عليه من فرط الأسى. وأسرع فتناول عصاً غليظة وراح  
يضرب الخادمة بجنون وهو يصرخ:

- الويل لك أيتها الغادرة. فقد قتلته؟

فيما كان (فيليجي) يهوى عليها بالضربات الموجهة وهو تعول باكية، كنت أنا مستغرماً في حلم.  
خيل لي إنني أرى الشيخ وقد أقبل عليّ بحبال في يده يريد ربطني فيظهر له فيليجي ويصول عليه  
ويبيده بلطة حرب فيفلت الرجل الأثيم منه صارخاً:

(١٩٧) هنا تنويه بتصوير چليني للذات الإلهية في عروة زنار الپاپا كليمنت. وفي المخطوطة الأصلية للمذكرات نجد هذه  
القصيدة مذيلة بتوقيع (فاركي).

- أتركني الآن، ولن تراني لمدة طويلة.

في تلك اللحظة إندفعت (بياتريس) الى غرفتي وهي تصرخ بأعلى صوتها. فأيقظتني وهتفت:

- دعها وشأنها. فبدلاً من سوء قصدها في عملها هذا، ربّما جاءني منه نفع كبيرٌ والآن تعال وساعدني فقد أبتلّ كلّ جسمي بالعرق. ألا أسرع بريك.

هدأ (فيليجي) وأضاء وجهه بشراً. ثم نشفتني وأصلح وضعي. فشعرت بتحسّن كبير جداً. عاهدت نفسي على الشفاء. ولحظ الأستاذ فرانشسكو في بكاء الخادمة وجريان الصبي هنا وهناك والضحكات التي يطلقها (فيليجي). كل هذا حمل الطبيب على الاعتقاد أن شيئاً خلاف العادة قد حصل وكان سبباً في التحسن الذي طرأ عليّ. في أثناء ذلك دخل الطبيب الآخر (برناردينو) الذي رفض في البداية أن يعمد الى فصدي وقال فرانشسكو ذلك العالم المفضل:

- ألا مرحى لقوى الطبيعة. إنها تعرف ما تحتاج والأطباء لا يعرفون شيئاً.

وأضاف ذلك الطبل الأجوف برناردينو حالاً:

- لو شرب ملء قارورة أخرى لشفي الساعة.

إلا أن الأستاذ فرانشسكو الذي كان كبير السن والطبيب الواسع المعرفة قال:

- سيكون ذلك مصيبة عظيمة. وآمل من ربي أن تحصل لك.

ثم التفت اليّ وقال لي أكان بوسعي أن أشرب أكثر مما شربت. فأجبت بالنفي لأنني أطفأت ما أشعر به من الظمّ تماماً. وعندها توجه الي (برناردينو) ليقول:

- أترى كيف أن الطبيعة نالت كفايتها بالضبط لا أكثر ولا أقل؟ وبنفس الشكل كانت تطلب حاجتها عندما سألك هذا الشاب أن تجري له عملية فصد. لو عرفت في حينه إنه بحاجة الى شرب قارورتين من الماء ليتحقق له الشفاء فلماذا لم تشر عليه بها. فيكون لك كل الفضل؟

وإنصرف هذا الدجال وهو يكاد ينشق غيظاً ولم يرني وجهه مرة أخرى. ثم أشار الأستاذ فرانشسكو بوجوب نقلي من الغرفة التي أنا فيها وبضرورة أخذني الى احد تلال روما. وسمع الكردينال كورنارو بشفائي فأمر بأن أنقل الى واحد من منازل في مرتفعات (كافاللو) وفي مساء اليوم نفسه جرى نقلي على كرسيّ بكلّ عناية مدثراً بالأغطية. وما وصلت حتى بدأت أتقيأ ووجد في القيء دودة يكسوها الشعر طولها حوالي خمسة إنجات. وبدت في غاية القبح بشعرها الطويل وبقع مختلفة الألوان مع أخضر وأسود وأحمر وما إليها. فحُفظت لتعرض على الطبيب الذي صاح مشدوها بأنه لم ير مثل هذه قط، وقال لفيليجي:

- اعتن بصديقك (بنقنوتو) بعد شفائه. ولا تدعه يتعرض إلى أزمة. إذ مع انه نجا فإن أي إنتكاسة أخرى قد تورده حتفه. ها أنت ترى كيف كان مرضه شديداً بحيث لو جئنا له بالإسرار الأخيرة لما ادركناه بها. وأنا واثق الآن بأنه سيعود الى إنجاز أعماله الجميلة بعد قليل من الصبر وبمرور فترة قصيرة من الزمن.

ثم التفت اليّ وأردف قائلاً:

- عزيزي بنفثوتو، كن معقولاً، ولا تنغمس أو تفرط في تعاطي اللذات. وعندما يتم شفاؤك أريد أن تصنع لي تمثالاً للسيدة العذراء بيديك. إذ اني أريد أن أصلي لها منذ اليوم بسبب حبي لك. فوعده بذلك ثم سألته ألا توهلني حالتي للسفر الى فلورنسا؟ فقال يجب علي أن انتظر حتى تزد صحتي تحسناً. وعندئذ سنرى فعل الطبيعة فيك.

بعد مرور أسبوع لم يطرء على صحتي تحسّن كبير. حتى ضقت ذرعاً بنفسي فقد تحملت العذاب الرهيب أكثر من خمسين يوماً.

لذلك صحّ عزمي على السفر وتأهبت لذلك فإنطلقت الى فلورنسا انا وعزيزي (فيليجي) بمحفتين. ولم أكتب لأحدٍ بنيتي فلما وصلت منزل أختي أخذت تضحك وتبكي في آن واحد. وتقاطر عدد كبير من الأصدقاء لزيارتي يوم وصولي، وفي مقدمتهم (بييرو لاندي) أعز صديق عندي وأقربهم الى نفسي في هذه الدنيا.

وفي اليوم التالي حظيت بزيارة صديق آخر وهو (نيقولو دا مونتي أگوتو). وكان قد سمع الدوق يقول:

- كان خيراً لبنفثوتو لو قضى نحبه. فقد جاء هنا ليضع جبل المشنقة في عنقه. فلن أغتفر له ما فعل أبداً.

وبعد أن أذرنني نيقولو أردف يقول بلهجة اليأس:

- قل لي ما الذي دفعك الى المجيء يا بنفثوتو؟ الا تدري كم أحفظت الدوق عليك باستصغارك له؟ وبأذني هذه سمعته يقول مقسماً بأنك تضع الجبل في عنقك.

فأجبت:

- أي نيقولو! أرجوان تذكّر سموه بأن البابا كليمنت أراد مرةً أن يفعل عين الشيء بي وكان مخطئاً بقدر ما كان الدوق مخطئاً. قل له بأني أحتاج الى العناية والتمريض وأن يدعني أسترده عافيتي. وعند ذلك سأبرهن له أنه لن يجد مثلي خادماً مخلصاً طول حياته. لا يد وأن عدواً حسوداً أو غر صدره علي، إلا فلينتظر حتى اتعافى وعندئذ سأكون في موقف أستطيع به تقديم حساب عن نفسي سيصيبه بالدهشة.

فعلاً كانت هذه الواقعة من عمل وسعي الأريزي<sup>(١٩٨)</sup> جورجيو فاساري ربّما رداً للجميل الذي صنعه له. فقد إستضافته في روما ودفعت عنه مصاريفه ولأقل الحقيقة إنه قلب منزلي رأساً على عقب. ذلك لأنه كان يشكو حكة جلدية مزمنة كاد لها يمزق لحمه من كثرة الهرش المستمر بيديه. كان قد شاطر الفراش المدعو (مانو Manno) أحد صنّاعي وهو إنسان أنيس رقيق الطبع. فراح يسلم جلد ساقه (مانو) ظاناً أنه يهرش ساقه بمخالبه الصغيرة القذرة التي لم يكن يقلّمها قط.

فترك (مانو) الخدمة لدي مقسماً بأنه سيقبله. إلا أنني سوّيت الأمور فيما بينهما وصالحتهما. ثم إنني سعيت له فظفرت له بمنصب عند الكردينال دي مديتشي. ولم أتوان قط عن مساعدته في هذا

(١٩٨) نسبة الى (أريزو Arizzo) وهي بلدة تبعد حوالي ٨٥ كيلومتراً عن فلورنسا وتقع الى الجنوب الشرقي منها.

الأمر أو ذاك (١٩٩).

وبقابل كل هذا سعى بي الى الدوق قائلاً إنني تخرصت بكلام السوء على سموه، وفخرت بأني سأكون أول من يعلو أسوار فلورنسا مع مبعدي الدوق وخصومه. وبحسب ما بلغني فيما بعد أن (أوتافيو دي مديتشي) الذي أراد أن يصيب ثأره مني بعد غضب الدوق عليه بسبب سك العملة وسفري من فلورنسا، قام بتلقين (جيورجيو فاساري) كل هذه العبارات ونقلها هذا الى الدوق. ولما كنت بريئاً من هذا تهمة الغدر التي ألصقوها بي لم أشعر بأي قدر من الخوف وعالجني الطبيب القدير (فرانشيسكو دا مونتيشاركي (F. da Montevarchi) بكل حذق. جاءني به صديقي العزيز (لوكا مارتيني) الذي كان يلازمي أغلب ساعات النهار.

أرسلت صديقي المخلص (فيليجي) الى روما للإشراف على الأعمال هناك. وبعد أسبوعين عندما وجدت نفسي قادراً على رفع رأسي عن المخدّة قليلاً. وإن لم أكن أقوى على الوقوف. رتبّت أن أحمل بمحفة الى قصر مديتشي ووضعت في الشرفة الصغيرة العليا وتركت هناك منتظراً مرور الدوق. وأقبل عدداً لا يستهان به من موظفي القصر أصدقائي يجاذبونني أطراف الحديث. وقد أدركهم العجب لإصراري على تكبد مشقة المجيء وأنا في مثل هذه الحالة من السقم والهزال. وقالوا كان عليّ الإنتظار حتى تنصلح حالي ثم أزور الدوق. وتجمع عدد كبير من الناس يتطلعون اليّ كأنما يتطلعون الى معجزة لا لأنهم سمعوا بموتي فحسب، بل لأنني كنت في ذلك الوقت أبداً كجثة ميت.

وبحضر منهم جميعاً شرحت كيف أنّ أحد لأنذال الأشرار أبلغ سموّ الدوق بأني فخرت بقولي: سأكون أول من يعلو الأسوار على سموه. وإنني تطاولت عليه بهجر القول أيضاً. وبتنتيجة ذلك صارت حياتي وموتي سيان عندي حتى أبرئ نفسي من هذه التهمة الشنعاء وأتوصل الى معرفة ذاك الواشي البذئ اللسان الذي إفتري عليّ بهذه الأكذوبة. وكان بين الحضور الذين أصغوا الى أقوالي عدد كبير من وجهاء المدينة وأشرافها فعبروا عن شديد عطفهم وعقب أحدهم بشيء وعلقّ ثانٍ بشيء آخر. وكررت أني لن أبرح هذه البقعة حتى أكتشف هوية الشخص الذي إتهمني. وعندها شقّ خياط الدوق الأستاذ (أوكسطينو) الجمع الملتف حولي من السادة.

وإقترب مني قائلاً:

- إن كان هذا كلّ ماتريد معرفته. فبإمكاني إرشادك إليه في هذه الدقيقة.
- وفي تلك اللحظة بالذات شاءت الصدفة أن يمرّ الرسام (جيورجيو)، فهتف (أوكسطينو):
- هذا هو الرجل الذي وشى بك. وأنت أعرف الناس بصحة التهمة أو زيفها.
- ولعجزي عن الحركة سألت (جيورجيو) بأشد وأعنف لهجة: أصحيح ما قيل عنه؟ فأنكر قائلاً إنه ليس بصحيح وإنه لم يقل شيئاً من هذا لقبيل، فردّ عليه (أوكسطينو) قائلاً:

(١٩٩) جيورجيو فاساري (١٥١٢-١٥٧٤) رسّام وكاتب سير الفنانين الإيطاليين وبسفره الجليل هذا أشتهر. كانت كتابته عن چليليني (وإن لم يفرد له فصلاً خاصاً) منصفة لطيفة رغم الخلاف بينهما. كذلك ذكر الصانع (مانو) بالخير وهو عين من جاء ذكره في هذه الحكاية الغربية. (قمنا بنقل كثير من التعاريف بالفنانين الوارد ذكرهم هنا من كتابه)

- قبحك الله يا طير المشنقة! أما تدرك بأني متأكد من كونك القائل؟  
فأسرع (جيورجيو) مولياً دبراً وهو يردد قائلاً "كلاً إنني لم أقدم على شيء من هذا" وبعد قليل مرّ  
الدوق فرُفعت قليلاً حتى يلحظني سموه فتوقف. وعندما أعلمته إنني جئته بهذا الوضع لتبرئة نفسي.  
فيحلق بي وأظهر عجبه من بقائي في قيد الحياة. ثم أوصاني أن أكون كما كنت رجلاً مستقيماً وأن  
أعمل على إستعادة صحتي.

بعد عودتي الى المنزل لحق بي (نيقولو دا مونتني أگوتو) وكان يبحث عني ليقول لي إنني فحوت من  
أشدّ عاصفة رآها، وهو يكاد لا يصدق بعد أن رأى مصيري المحزن يكتب بحبرٍ غير قابل الزوال. والآن  
وبعد زوال الخطر، ما عليّ إلا أن أعنى بصحتي حتى إذا إسترددتها عليّ أن أسرع بالرحيل عن  
فلورنسا لأنني مهتدّ من جهة ما وهناك رجل معيّن قادر على أيقاع أعظم الأذى بي وأردف يقول:  
يجب عليك أن تتخذ الحيطه التامة لنفسك. ثم أنتقل فجأة ليسألني:

- أي نوع من الإهانة الحقّت بذلك الوغد الكبير (أوتافيو دي مديتشي)؟  
فأجبت: لم أسيء إليه قطّ غير إنه أساء اليّ كثيراً. وقصصت عليه تفاصيل ما وقع لي معه في دار  
الضرب.

فقال:

- أرحل بأسرع ما يمكنك، لكن لا تهتمّ فستنال ثارك بأسرع ماتظنّ.  
فركزت إهتمامي بإستعادة قواي. وزودت (بييترو باگولو) بتعليمات حول سكّ العملة ثم بارحت  
فلورنسا قاصداً روما دون كلمة اقولها للدوق أو غيره.

قضيت في روما ردهاً من الوقت اروح فيه عن نفسي مع الأصدقاء، ثم إستأنفتُ عملي في ميدالية  
الدوق. وأكملت الرأس في أيام معدودة وطبعته على الفولاذ فكان أدق عمل أنجزته من هذا النوع.  
وكان يكثر التردد الى دكاني (مرة واحدة يومياً على الأقل) شخصٌ مغفّل كثير الحمق يدعى  
(فرانشسكو سوديريني)<sup>(٢٠٠)</sup> وشاهد مرة أو مرتين ما بيدي من عمل فأيدي ملاحظته التالية:

- ما أقساک أيها الرجل إذ تريد تخليد هذا الطاغية الوحش الصّاري. وبما أنك لم تصنع شيئاً من قبل  
يمثل هذا الجمال. فلا بدّ وأن تكون عدوّنا اللدود بقدر ما أنت صديقهم الحميم، مع أنه هو والپاپا  
أرادا شنقك مرتين دون سببٍ. ذلكم هو فعل الأب والإين وعلبك أن تنتظر ما سيحل بك على يد  
روح القدس.

والشيء بالشيء يذكر إن الإعتقاد السائد أن الدوق الساندرو هو ابن للپاپا كليمنت<sup>(٢٠١)</sup> وحلف  
(فرانشسكو) أيضاً إنه لو إستطاع لو استطاع لسرق قوالب الميدالية.  
فأجبت: حسناً فعل بمصارحتي. فسأعمل جهدي على أن لا يقع نظره عليها بعد الآن.

(٢٠٠) من خصوم آل مديتشي. نفي الى سيللو في العام ١٥٣٠.  
(٢٠١) هذا هو الشائع. لكن البعض يقول أن أباه هو لورنزو دوق أوربينو.



- وهي تكاد تتجمد فناديت (فيليجي) بقولي:
- فلنتدبر أمراً لساقي. إذ لا طاقة لي بتحمل هذا.
- فترجل (فيليجي) وبشهامته المعهودة ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، راح يجمع حطباً وأعشاباً ليوقد ناراً. وفيما أنا بانتظاره دسست يدي في صدر الأوزة فوجدته دافئاً. وبملاحظتي هذا أوقفته . وبادرت الى حشو جزمتي بريش الأوزة. فشعرت فوراً براحة عظيمة. وانتعشت نفسي.
- امتطينا حيوانينا وغذنا السير الى روما. وكان الليل قد أدر كنا وصعدنا نشزاً في الأرض وأرسلنا أبصارنا الى جهة فلورنسا. وأطلقنا معاً هتاف عجب ودهشة:
- يا إله السماء! أي شيء هائل هذا الذي نراه فوق أفق فلورنسا؟
- كان ما رأيناه يشبه شعلة نارٍ عظيمة جداً. نوراً ساطعاً في السماء. قلت لفيليجي:
- سنسمع غداً ولاشك بحدث عظيم وقع في فلورنسا.
- كان الظلام حالكاً عندما احتوتنا أسوار روما واقتربنا من الضفة والمنزل وكان حصاني ينطلق بي بسرعة الريح. ولذلك لم نر لا أنا ولا الحصان أكداً الانتفاض والجص والأجر المكسر التي كوَّمت في وسط الشارع. فأصطدم حيواني بها صدمةً عنيفةً وعشر ثم كبابي ورأسه بين أماميته. وكان فضلٌ من الله أن خرجت سليماً لم أصب بخدش. وأسرع الجيران يحملون المشاعل بضوضاء وجلبة. إلا أنني أتصبت واقفاً وواصلت السير من دون ركوب حتى منزلي وأنا أضحك متعجباً كيف سلمت بعد أن كاد يدق عنقي. ووجدت بعض الأصدقاء في داري فجلسنا نتناول العشاء ورحت أقص عليهم حوادث اليوم ونجاتي وعن العلامة المشؤومة من النور التي رأيناها. فراحوا يتساءلون:
- ما الذي ستسفر عنه هذه العلامة غداً؟
- فقلت:
- لاشك إنها تشير الى حادث جلل وقع في فلورنسا.
- إنتهينا من العشاء مستأنسين بعضنا ببعض. وفي اليوم التالي وردت الأنبياء في ساعة متأخرة بمقتل الدوق ألساندرو. وكان من أثر ذلك أن عدداً كبيراً من معارفي أقبلوا عليّ يقولون:
- لقد كنت مصيباً حقاً حول وقوع حادث عظيم في فلورنسا.
- وفي وسط الجلبة أقبل (فرانشيسكو سودريني) وهو يترنح فوق بغل هرم متشاقل الخطى وهو كالمجنون يضحك ويقهقه حتى ليكاد فمه ينشق. وناداني بصوت مرتفع قائلاً:
- هذا هو ظهر ميدالية ذاك الطاغية النذل الذي وعدك به لورنزو دي مديتشي.
- ثم أردف يقول:
- أنت تريد تخليد الدوقات. ونحن لانريد دوقاً بعد الآن.
- ثم شرع يسخر مني كأنني رئيس الأحزاب التي تتولى نصب الدوقات. وجاءنا أيضاً المدعو (باچيو بتيني Baccio Bettini) برأسه المتورم الشبيهة باليقطينة وبدأ بدوره يسخر مني بخصوص الدوقات قائلاً:
- إننا جردناهم من دوقيتهم. ولن يكون عندنا أي دوق بعد اليوم وأنت تريد أن تخلدّهم.

وإستمرّ في هرائه وتخريفه هذا حتى ضاقت نفسي به فقلت:

- أيها الحمقى المجانين. ما أنا إلاّ صانع مسكين أشتغل لكل من يدفع أجري وأنتم تتشفون بي كأني أحد الزعماء السياسيين. ولكنني رداً على سخريتكم البلهاء أقول لكم ولتذكروا ذلك جيداً: لن يمرّ يوماً أو ثلاثة إلاّ وسيكون عندكم دوق آخر ربما أسوء من السلف بكثير.

في اليوم التالي قدم (بتيني) الى دكاني وقال:

- ما الفائدة من إنفاق المال على السعاة، وأنت تدرك الأمور قبل وقوعها؟ أي جرسٍ خفيّ فائق للطبيعة يخبرك بها؟

ثم انبأني بأن (كوزيمو دي مديتشي)<sup>(٢٠٤)</sup> ابن جيوفاني قد نصب دوقاً. ولكن بشروط وقيود معينة تحول بينه وبين حزّ الرؤوس والعبث بالمقدرات كما يحلولة ويشتهي.

وهنا جاء دوري في الضحك عليهم، فقلت:

- هؤلاء الرجال في فلورنسا. وضعوا شاباً على صهوة جوادٍ مُطهم أصيل وأعطوه مهمزاً. وسلموه العنان بكلّ حرية. ثم أطلقوه يسرح في مرج جميلٍ موقرٍ بالفاكهة حافل بالأزهار وغير ذلك مما يبهج الخاطر. ثم أوصوه بالاعتدال الحدود التي رسموها له. والآن قولوا لي من ذا الذي يستطيع أيقافه عندما يصمّم على اجتياز تلك الحدود؟ إن القوانين لا يمكن أن تطبّق على من هو سيّد القوانين.

بعد هذا تركوني بسلام ولم يضايقوني قطّ.

بدأت في تصريف شؤون العمل ولم يكن عندي شغل ذو أهمية. لأنني كنت أنتظر عودة صحتي اليّ كاملةً. فمازلت أراني عليلاً، لم تزل عني آثار المرض الخطير. في ذلك الزمان عاد الإمبراطور منتصراً من حملته في تونس<sup>(٢٠٥)</sup> فإستدعاني البابا لتبادل الرأي في إختيار هدية مناسبة له وسألني رأيي فقلت: خير هدية هي صليب ذهبيّ كنت قد إنتهيت من تصميم نقوشه وحليته وأظنّه مناسباً جداً لجلالته. فذلك سيرفع من قدر قداسته كما يكسبني إسماً وسمعةً.

كنت في الواقع قد عملتُ ثلاثة تماثيل كاملة الجسم الواحد منها بطول الكفّ - صممتها قبلاً لكأس البابا كليمنت. وهي ترمز الى الايمان، والرجاء، والمحبة. فأضفت إليها ما يجانسها لقاعدة الصليب. وحملت النموذج الشمعي الى البابا مع تصميم شمعي للسيد المصلوب وإضافات أخرى جميلة. فسرّ بها كثيراً وتمّ التفاهم على كلّ شيء. وجرى تخمين التكاليف قبل إنصرافي. وكان ذلك مساءً بعد الغروب بأربع ساعات. وأمر البابا (لاتينو جيوفينالي) بدفع ما أحتاج من المال في صباح اليوم التالي.

زين لـ (جوفينالي) هذا الذي كان فيه عرقٌ كبيرٌ من الغباء والحمق، أن يقترح على البابا نموذجاً

(٢٠٤) كان تنصيبه في التاسع من كانون الثاني ١٥٣٧.

(٢٠٥) هنا يعود چليليني بذكرياته زهاء سنتين أو سنة واحدة الى الورا. فقد وصل الإمبراطور نابلي قادماً من تونس في ٣٠ تشرين الثاني ١٥٣٥ وزار روما في ٥ نيسان ١٥٣٦ أي أن مايقصه الآن وقع قبل إبتلائه بالمرض الخطير الذي وضعه.

جديداً للهدية قام هو بتصميمه والتفكير فيه. وبذلك وقع الإضطراب في الترتيب الذي قرّرناه. ولما جئته أطلب المال في صباح اليوم التالي أجاب بصلافته الحيوانية المعتادة:  
- نحن الذين نضع التصاميم. وما عليك إلا التنفيذ، فقبل إنصرافي من لدن الپاپا مساء أمس فكرنا بشيء أفضل جداً.

ما أن سمعتُ هذا حتى ابتدرته دون أن أدعه يضيف كلمة أخرى:  
- لا أنت ولا الپاپا تستطيعان ان تفكرا بشيء أحسن من عملٍ يبدو فيه السيد المسيح، والآن يمكنك أن تسمعني قدر ماتحِبُّ من الهراء والثرثرة.

توكلي عني غاضباً دون أن ينبس بكلمة واحدة، وأخذ يسعي جاهداً لإسناد المهمة الى صانعٍ آخر. فرفض الپاپا وأرسل يستقدمني في الحال وقال لي إنني محقٌ تماماً لكنهم يريدون الإستفادة من كتاب نوافلٍ وادعيةٍ للعدراء مريم بصوره الرائعة العجيبة الملونة. كان هذا الكتاب قد كلف الكردينال دي مديتشي ألفي كراون وأكثر دفعها لصانعه. وسيكون خير هدية للإمبراطورة. وبعدها ستقدمون ما إقترحتهُ أنا للإمبراطور. لأن الصليب في الواقع هدية لاثقة به. وبين أن هذا البديل لم يتخذ إلا لضيق الوقت. إذ يتوقع وصول الإمبراطور خلال شهرٍ ونصف شهرٍ أو نحوه، وقد رغب في أن تكون جلدتا الكتاب من الذهب الخالص المزخرف وأن يرصع ترصيعاً كثيفاً بالأحجار الكريمة التي تعادل قيمتها ستة آلاف كراون. ما أن تسلّمت الذهب والجواهر حتى بدأت العمل وبعدها إشتغالي بدأب بضعة أيام بدأ جمال صنعتي فيه حتى أن الپاپا لم يكتفم أعجابه وأغرقني بالثناء وأكد لي أن ذلك الحيوان (چيوفيناني) لن يزعجني بعد الآن.

كان العمل بالكتاب قد شارف التمام عند قدوم الإمبراطور. ونصبت أقواس نصرٍ كثيرة في غاية الفخامة إحتفالاً بتلك المناسبة. وبعد أن دخل روما بابهة وجلال منقطعي النظر (أترك للآخرين وصفهما لأنني أريد أن أقصر حديثي على ما يمستني شخصياً)، أخرج الپاپا فوراً الأماسةً كان قد إبتاعها بأثني عشر ألف كراون. وأرسل بطليبي ثم سلّمني الأماسة وطلب مني أنه أصوغ لها خاتماً يناسب أصبعه. ولكنه طلب أولاً أن آتي بالكتاب إليه مهما بلغت فيه من تقدّم فجئته به فسّر كثيراً ثم شاورني في أفضل ما يمكن أن نتقدم به من عذر للإمبراطور بخصوص عدم إكماله. فأجبت إن خير عذر نتوسل به هو مرضي، فهو تعليل معقول سيصدقه الإمبراطور لامحالة بعد أن يرى شحوبي وهزالي.

فقال الپاپا: رأيك حسنٌ ومقبولٌ جداً. ولكن يجب عليك عند التقديم . أن تذكر بأنك تقدم نفسك هديةً له مع الكتاب. ثم شرح لي المراسيم التي سأتبعها بالضبط ولقنني العبارات التي سأقولها. فكررت الكلمات التي لقننتها ثم سألته هل سيُسّر لو تكلمت هكذا؟  
فأجاب:

- لو وجدت في نفسك الإرادة للتحدث الى الإمبراطور بالشكل الذي تخاطبني فهو غاية المنى.  
فأجبت "سيكون لدي من قوة الإرادة والثقة في حديثي مع الإمبراطور أضعاف ما عندي عند

التحدث إليك. لأن الإمبراطور يرتدي ثياباً من عين الطراز الذي أرتديه وسأكون وكأني أكلم رجلاً مثلي والأمر يختلف جداً بالنسبة الى قداستك ففيك أرى جلال الالهية وهيبتها بسبب ثيابك الكهنوتية التي تضفي عليك هالة القداسة فضلاً عن مظهرك المهيب الموحى بالرهبة. وهو ما ليس عند الإمبراطور" عند ذلك قال الپاپا:

- إنصرف على بركة الله يا بنقنوتو. إنك لداهية أريب. إرفع رأسنا وسيعود ذلك عليك بالخير العميم هياً الپاپا جوادين عربيين كانا من مقتنيات الپاپا كليمنت، لم يشاهد أفضل منهما في كل بلاد المسيحية. وأمر أمين سره (السيد دورانتي Messer Durante) أن يقودهما عبر اروقة القصر ثم يقدمهما هدية للإمبراطور، مشفوعة بخطبة قصيرة أعدّها له الپاپا. فسرنا معاً وعندما صرنا في حضرة الإمبراطور أدخل الجوادان وهما يجوسان خلال الممرات بجلال وإتساقٍ رائعين فأثارا إعجاب الإمبراطور والحاضرين كافةً.

وعند هذا تقدم (دورانتي) مضطرباً ونطق بخطبته متعلثماً متردداً مرتجاً كأن لسانه ملتصق بحلقه بلهجة تمازجها رطانة برشية<sup>(٢٠٦)</sup> فكان مشهداً مخجلاً لم يسمع بمثله حتى أن الإمبراطور لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة قصيرة. في تلك الأثناء كنت قد رفعت الغطاء عن الكتاب. وعندما لاحظت الإمبراطور قد تحول بنظره اليّ بغاية الجلال واللفظ تقدمت اليّ أمام وقلت:

- يا صاحب الجلالة الأقدس. إن أبانا الكلي القداسة الپاپا يولص ببعث بكتاب "سيدتنا" هذا الي جلالتكم هدية. إنه مستنسخ باليد. وقد حلاه بالصور أعظم فنّان في مجال فنّه. وهذا الغلاف النفيس من الذهب المكّفت بالأحجار الكريمة لم يكمل بعد كما يراه جلالتك بسبب المرض الذي ألمّ بي. ولهذا فإن قداسته يقدمني لك مع الكتاب لأقوم بإعجازه بالقرب من شخص جلالتك. مع استعدادي للقيام. بكلّ ما تكلفني به من عمل. وسأبقى طول عمري رهن إشارتك وفي خدمتك.

فكان جواب الإمبراطور على هذا قوله:

- إنني لمسرور بالكتاب وبك أنت. إلا اني أريدك أن تنتهي منه في روما. وبعد إكماله وإبلالك من المرض إلحق بي، وجتني به.

وأخذ بجاذبني أطراف الحديث منادياً أيّ باسمي المجرّد مما أثار دهشتي إذ أن اسمي لم يذكر في تلك المناسبة وأخبرني بأنه شاهد عروة زنار الپاپا كليمنت بكلّ الصور العجيبة التي نقشتها فيه. وإمتد بنا الحديث على هذه الوتيرة حوالي نصف ساعة في شؤون فنية ومواضيع تتعلق به. ووجدت إنني مضيت بعيداً في تحقيق النجاح المأمول فوقما توقعت. فإنتهزت فرصة سكون وإنقطاع حديثٍ وإنسحبت بعد أن إنحنيت له. وسُمع الإمبراطور يقول:

- اعطوا بنقنوتو خمسمائة كراون في الحال.

فجاء الشخص الذي أنيط به دفع المبلغ وسأل: أين هو رسول الپاپا الذي كان يكلم الأمبراطور؟ فبرز إليه (دورانتي) وسطا على الكراونات الخمسمائة. فأسرعت أشكو الأمر للپاپا فقال لا تبتئس

(٢٠٦) بنسبة الى Brescia وهي بلدة في شمال إيطاليا تقع بين فيرونا وميلان. وتبعد زها - ٨٠ كيلومتراً شرقاً عن المدينة الأخيرة.ش

فإني أعرف كل ما وقع. وكم كان تصرفك لائقاً في حديثك مع الإمبراطور. وأكد لي إنني سأتسلم حصتي من المبلغ.

عدتُ إلى دكاني وبدأتُ أشغل بالحاتم الأماصي الذي كلفني به البابا وبعث إليّ بأربعة من الجواهرية وهم أفضل من في روما، للمداولة معي بشأنها. ذلك لأن البابا كان قد أبلغ بأن الجواهري المدعو (ميليانو تارغيتو Miliano Targhetto) قد كفتها في البندقية، وإنه أمهر جواهري في العالم. وإنه لما كانت الألماسة رقيقة بعض الشيء. فإن مثل هذا العمل الصعب فيها يحتاج إلى تبادل رأي ومشاورة. كان إغتابطي عظيماً بزيارة هؤلاء الجواهرية الأربعة ومنهم ميلاني يدعى (گايو Gaio) وهو من أكبر الحيوانات في الدنيا إعتزازاً بنفسه، يعرف القليل ويدعى أنه يعرف الكثير جداً. وكان الآخرون في غاية التواضع، ومن أكفاً ما وجدت في مجال فنهم. بدء (گايو) هذا بالكلام قبل كل أحد فقال:

- بنفثوتو! عليك بمركب (ميليانو). بل أرفع له قبعتك. فإن تظليل الألماس أدق وأصعب ناحية في فن الجواهري. وميليانو هو أعظم جواهري عرفته الدنيا. وهذه أصعب ألماسة. وكان جوابي أن مباراتي لمثل هذا الصانع الكامل ستكسبني المزيد من الشهرة والمجد. ثم التفت إلى بقية الجواهرية وقلت:

- أنظروا، مركب (ميليانو) في حوزتي لكنني سأحاول التفوق عليه بعمل مركب من إختراعي فإن لم أنجح فسأستعمل مركب ميليانو.

فقال ذلك الحيوان (گايو):

- لوضعت محلولاً مثل هذا فسأكون على استعداد لأرفع قبعتي له إحتراماً. فأجبت:

- فلو حضرت أفضل منه، فسيستحق منك إحتراماً مضاعفاً.

فأجاب أجل وهو كذلك. وبدأت أهيء مركبي وراعيت الدقة والحذر (وسأقوم في الموضع المناسب بشرح كيفية التحضير). والحقيقة التي لا ريب فيها أن هذه الألماسة كانت صعبة للغاية، لم ألق في غيرها ما لقيت فيها من العنت لا قبلها ولا بعدها. وقد تم مزج مركب ميليانو بأدق ما توصل إليه المفهوم العلمي. على إنني ما كنت لأخشى الفشل بسبب ثقتي الكبيرة في نفسي. وبالفعل وفقت في عمل مركب يتفوق على مركب ميليانو لا أن يضاهيه فحسب. بعدها باشرت في محاولة التفوق على مركبي نفسه فصنعت بطريقتي أخرى حتى بلغت غاية ما أصبو إليه. بعد هذا دعوت الجواهرية الأربعة وعاملت الألماسة بمركب (ميليانو) ثم أزلت الطلاء عنها بمسحها، وعدت فظليتها بمركبي الأول ثم عرضتها عليهم فتناولها رافايللو دل مورو، وهو واحد من أخبرهم في الصنعة وقال لگايو:

- لقد بذ بنفثوتو صاحبك ميليانو.

وتناول (گايو) الألماسة وهو متردد في تصديق ذلك ثم قال:

- بنفثوتو! إن قيمة هذه الألماسة إرتفعت بمقدار ألفي دوقية على ما كانت وهي مطلية بمركب ميليانو.

عندئذ أُجبت:

- مادمت تفوقت على مجهود ميليانو. فلن ان كنت أستطيع التفوق على نفسي.  
ورجوتهم أن ينتظروني لحظة، ثم أنسحبت الى قبة صغيرة وهناك بعيداً عن الإنظار أعدت طلاء  
الألماسة وجئت بها إليهم. فهتف غايو:  
- لم أر أعجب من هذا في كل حياتي! هذه الألماسة تسوى ثمانية عشر ألف كراون وكنا قد قدرناها  
بأثني عشر ألفاً.  
والتفت الثلاثة الآخرون الى (غايو) وقالوا:  
- إن بنفثوتو فخر صناعتنا. ومن حقّه علينا أن نرفع قبعتنا له ولما أنجزه.  
وقال (غايو):

- سأذهب الى الپاپا وأعلمه بهذا. وإني لأقترح أن ينال بنفثوتو ألف كراون ذهبي لقاء تركيب الألماسة.  
وأسرع الى الپاپا ووقصّ عليه الحكاية برمّتها، فكانت النتيجة أن الپاپا أرسل يستفسر عن إكمالي  
الخاتم ثلاث مرات في ذلك اليوم. وجئت به قبل الغروب بساعة وكان مسموحاً لي بالإنصراف والدخول  
دون عائق، ولذلك رفعت سجف الباب بكلّ لطفٍ فشاهدت الپاپا مع مركيز (گواستو Guasto) وكان  
يحاول حمل قداسته على تنفيذ مطلبٍ وسمعت قداسته يجيبه:  
- قلتُ لك كلاً: فمن واجبي أن أكون محايداً لا أكثر ولا أقل.  
وفيم أنا أهم بالعودة من حيث أتيت ناداني قداسته فتقدمت وبيدي الخاتم الجميل، فإنتحى بي  
جانباً وأرتد المركيز مبتعداً عنّا مسافة. قال الپاپا وهو يتفحص الخاتم:  
- بنفثوتو! باشر معي في حديث ودعه يبدو وكأنه في أمرٍ خطيرٍ ولا تتوقف قط حتى ترى الماركيز  
يترك الغرفة.

ثم أخذ يتمشّى ذهاباً وأياباً في الغرفة. وقد أستمرأت هذه الفكرة بالأحرى فضلاً عن إنها قد تكون  
ذات فائدة لي. فبدأت أشرح الطريقة التي إستخدمتها لتنظيف الألماسة ومضاعفة تأثيرها. وظلّ  
الماركيز واقفاً حيث هو متكئاً على سجادة حائطية مائلاً بثقله على رجلٍ تارة، ومنتقلاً به الى الرجل  
الثانية تارة أخرى.

كان موضوع حديثي بدرجة من الأهمية بحيث إقتضى للاحاطة بجوانبه ثلاث ساعات على الأقلّ.  
وقد إغتبط به الپاپا وإنتعش حتى أنه نسي كم كان منزعجاً في حديثه مع الماركيز، والماركيز مازال  
واقفاً وحشرت في حديثي ذلك الفرع من الفلسفة الذي يمسّ صناعتنا وبعد أن اصلت الكلام زهاء  
الساعة، نفذ صبر الماركيز وترك الغرفة منفعلاً. عند ذلك بدء الپاپا يجاملني ويحتفي بي وقال:  
- صبراً عليّ يا بنفثوتو وستجد المكافأة التي تحظى بها قابلياتك في أكثر من الألف كراون التي أفتى  
(غايو) بأنك تستحقها .

وراح الپاپا يمتدحني أمام رجال الحاشية بعد إنصرافي. وكان بينهم (لاتينو جوفينالي) الذي جئت  
الى ذكره قبلاً. وقد جعلته من عداد أعدائي إذ حاول جهد طاقته الحاق الأذى بي. ولما رأى اللهجة

الحماسة الودودة التي كان الپاپا يستخدمها في الحديث عني، قال:

- لا يشك أحد قط في أن (بنقوتو) في نهاية الذكاء والكفاءة. ومع انه من الطبيعي جداً أن يميل المرء الى أهل بلده ويخصهم بالود الزائد لكن عليه ان يكون حذراً فيما يقول عن الپاپاوات. ولقد أثر عن (بنقوتو) هذا قوله: إن شخصية الپاپا كليمنت الآسرة لاتدانيها أي شخصية في هذه الدنيا من الأمراء والملوك. وهو ذو مواهب خارقة وذكاء نادر إلا إنه سي الحظ. أما عن قداستك فحديثه يعكس ذلك تماماً إذ يقول أن التاج الپاپوي لا يدخل رأسك إلا بصعوبة فهو أضيّق من أن يحشر. وإنك تبدو أقرب شبيهاً الى شاخص من القش مكسو بالشباب. وليس عندك ماتزهو به وتعتر غير حسن حظك.

كان لهذه الكلمات وقع الصاعقة على الپاپا، لاسيما والناطق بها يعرف كيف يلقيها بلهجة مؤثرة مقنعة. وقد صدقه الپاپا. الله يعلم أن مثل هذا القول لم يخطر ببالي فكيف بقوله؟ كان الپاپا يخشى على سمعته وإلا لأنزل بي ضربة لاقيام لي بعدها. لكنه وهو الذكي الأريب تضاحك وتظاهر بعدم الإكتراث. إلا أنه أسرها في نفسه وأنى في أحشائه حقداً عظيماً لي يقصر عنه الوصف. وقد شعرت بهذا عندما لم أعد قادراً على مواجهته إلا بشق الأنفس بعد أن كنت أتردد إليه بكل حرية وفي أي وقت شئت.

لما كنت طويل التردد في البلاط الپاپوي، وخبرتي به تمتد الى سنوات عدة فقد خمنت بأن أحدهم قد سعى بي ودبر لي هذه الوقعة. وبعد قيامي بتحريات دقيقة. إكتشفت كل شيء باستثناء إسم المفترى. ولو كنت عرفته في حينه لما مزج إنتقامي منه رحمة أو إقتصاد.

صرفت كل اهتمامي بإكمال غلاف الكتاب الصغير وبعد تمامه حملته الى الپاپا الذي لم ير مناصاً والحق يقال من كيل المديح لي جزافاً. وطلبت منه أن يرسلني معه كما وعد فأجاب إنه سيعمل المناسب، وأن دوري في القضية إنتهى ثم أصدر أمراً بأن يزداد في أجري. ولقد حصلت عن الأعمال التي أقتضتني أكثر من شهرين في شغل متواصل، على خمسمائة كراون. منها مائة وخمسون فقط أجرة تركيب الأمانة. والبقية عن عملي في الكتاب الذي كان يسوى أكثر من ألف كراون بالتأكيد، لكثرة مانقشت فيه من زخرف وحشود من الصور والابنته وأغنيتته بالحجر الكريمة والطلاء بالمينا. على كل أخذت ما أمكنني الحصول عليه وصح عزمي على مغادرة روما. بعد هذا أرسل الپاپا الكتاب الى الإمبراطور مع حفيدة (سينور سفورزا Sforza) (٢٠٧) ولما قدم الهدية للإمبراطور أظهر هذا إمتنانه العظيم وسأله عني. وكان الفتى (سفورزا) قد لقن مايقول: فأجاب أن السبب في اعاقتي هو مرضي. وقد نبئت بهذا فيما بعد.

في عين الوقت إتخذت كامل الأهبة للرحيل الى فرنسا مفضلاً أن أذهب وحدي. وقد تبين لي تعذر ذلك بسبب فتى كان عندي يدعى (أسكانيو Ascanio). كان في مقتبل الشباب وخير خادم متفانٍ

(٢٠٧) ابن بنت الپاپا پولس الثالث. صار في ما بعد من مشاهير القادة العسكريين فخدم أولاً في جيوش الإمبراطور شارلكان. ثم في جيش فرنسا.

يحظى به المرء. كان يشتغل خلفه عند صائغ إسباني يدعى (فرانشسكو)، فتركه وجاءني يطلب عملاً فترددت في ضمه الي خوفًا من إغصاب سيده الأسبق وقلت له:  
- لا أريدك. إذ ربما أعاظ ذلك أستاذك.

إلا أنه سعى حتى حمل سيده على توجيه رسالة الي قال فيها انه لا يمانع في إستخدامه عندي. فضمته الي وأستمر يعمل في دكاني بضعة أشهر. كان هزيلًا شاحب الوجه عندما جاءني ولذلك لقبناه بـ (Il Vechino) أي "الشيخ الصغير". وكنت في الواقع أنظره بهذا المنظار فقد أثبت بأنه مساعد كفاء ولأنه كان فهِيمًا بشكل يصعب عليك أن تتوقعه من أبن ثلاث عشرة وهو العمر الذي إدعاه لنفسه.

أعود الى حديثي فأقول: بعد أشهر قليلة من وجوده عندي زال عنه شحوبه وإمتلاً جسمه وإنتهى بأن صار من أكثر الشبان وسامةً في روما. كان مساعداً ممتازاً كما ذكرت، وحقق تقدماً عظيماً في الصناعة. حتى فاز بحبيي فإعتبرته في مقام ابن لي وكسوته الثياب التي يختارها الأب عادة لفلذة كبده. ولما وجد النعمة التي هبطت عليه عد نفسه سعيد الحظّ جداً لوقوعه عليّ. وكثيراً ما كان يتردد الى أستاذه السابق ويشكره لأنه كان السبب في النعمة التي يرفل فيها وكان لهذا الصائغ الإسباني زوج جميلة صغيرة السن وفي مناسبة أحدى زيارته سألته هذه:

- قل لي يا (سورغيتو Surgetto) (وهو اللقب الذي كانوا يطلقونه عليه أيام وجوده عندهم) ما الذي يجعلك تبدو بهذه الوسامة؟  
فأجاب أسكانيو:

- مادونا فرانشسكا! هذا من فضل أستاذي. بل أن فضله يمتد الى أكثر من هذا بكثير!  
ان طبع هذه المرأة الحقود جعلها تغضب من جوابه فقد عدته تعريضاً بهما. وكانت فضلاً عن هذا مثلومة الشرف سيئة السمعة. وصرت الحظ أن الفتى أخذ يكثر من زيارته خلافاً لمألوف عادته. ثم أتفق ذات يوم أنه أعتدى على واحد من صبيان الدكان بالضرب فهرع المضروب يستقبلني عند عودتي شاكياً باكياً وقال أن (اسكانيو) إعتدى عليه دوغما سبب فالتفت الي (اسكانيو) وقلت:  
- بسبب أو بدون سبب. أياك أن تمد يدك على أي شخص من أهل بيتي مرة أخرى. وإلا نالك مني ماتكره.

وجد في نفسه الجرأة في الإعتراض على قولي. فهيمت به فوراً وأشبعته ضرباً ولكماً ورفساً، بشكل لم يذق مثله في حياته. وما أن تمكّن حتى فرّ هارباً دون قبعة أو سترة. ومضى يومان على فراره وأنا أجهل أين هو. كما إني لم أحاول التفتيش عنه. بعد هذا جاء لزيارتي سيد إسباني يدعى (دون ديبغو) وهو من أكرم الرجال وأطيب الناس قلباً. كنت قد قمت له ببعض الإشغال في السابق. وكان بيدي شغل له في ذلك الحين ونحن على أحسن علاقة. قال لي إن (اسكانيو) عاد الى أستاذه السابق. وسألني إن شئت أن أبعث إليه بقيعته وسترته وهما من جملة ما ابتعته له. فكان جوابي أن (فرانشسكو) أساء التصرف جداً كالأجلاف تماماً. إذ لو انه أعلمني حال وصول أسكانيو بيته لتركته

له بكل سرور إلا أنه ابقاه يومين دون أن ينطق بكلمة ولهذا فإنني لا أعتزم أن أتركه هناك وليكن على حذرٍ مني إن وقع نظري على الفتى في منزله. فنقل (دون ديبغو) اقوالي هذه. إلا أن فرانشسكو جعلها مادة للتندر والمزاح.

في صباح اليوم التالي رأيت (اسكانيو)<sup>(٢٠٨)</sup> في دكان أستاذه يعالج شيئاً تافهاً مربوطاً بأسلاك. ولما مررت به ورأني نهض وانحنى لي إحتراماً. إلا أن فرانشسكو كشر هازناً. ثم أرسل بوساطة هذا النبيل الإسباني قائلاً أنه يرجو مني أن أتلفظ على اسكانيو بالثياب التي منحتها له، على إنه لن يكون للموضوع تأثير في حالة إرسالها أو الإحتفاظ بها لأنه سيكفيه حاجته من الثياب. بعد أن وعيت فحوى الرسالة قلت لـ (دون ديبغو):

- سيدي (دون ديبغو) لقد عرفتك في كل شيء مثلاً للإستقامة والكرم. إلا أن فرانشسكو هذا النذل السيء السمعة هو بعكسك تماماً. إلا بلغه عني هذا: إن لم يحضر (اسكانيو) بنفسه في دكاني قبل ناقوس صلاة المساء فإنني قاتله لا محالة. وقل لاسكانيو أيضاً أن لم يترك العمل عند أستاذه في عين هذا الموعد فسيلقى عين المصير.

لم يعقب (دون ديبغو) على قولي إلا أنه عاد ليشيع الخوف الهائل في أوصال فرانشسكو، حتى كاد يفقده عقله من فرط حيرته. في تلك الأثناء كان (اسكانيو) قد خرج يبحث عن ابيه الذي قدم الى روما من مسقط رأسه (تاليس كوزو Taglia Cozzo)<sup>(٢٠٩)</sup>. ولما سمع ابوه عن النزاع نصح (فرانشسكو) بدوره بأن يأتيني باسكانيو فصاح فرانشسكو به:

- طيب. إذهب انت بنفسك وليرافقك أبوك.

الآن (دون ديبغو) قال له:

- إني لأشعر يا فرانشسكو، بالعاصفة تهب. وأتحسس وقوع مشكلة خطيرة. وأنت تعرف جيداً أي صنف من الرجال هو بنقوتو فاقدم ولا تتردد. خذ اسكانيو إليه وسأرافقكما.

كنت في دكاني وقد تأهبت لما أنا مقدم عليه وأخذت أذرع الأرضية جيئة وذهاباً منتظراً ناقوس صلاة المساء لأبشر أعنف وأقبح عملٍ قمت به في حياتي وفيما أنا بهذا إذ دخل عليّ (دون ديبغو) وفرانشسكو واسكانيو ووالده الذي لم يسبق لي به معرفة. عندما تقدم (اسكانيو) مني رميت الجميع بنظرة صاعقة وعيناى تقدحان شرراً. فعلت وجه فرانشسكو صفرة الموت وقال متلعثماً:

- ها أنا ذا أعيد إليك (اسكانيو)، ولم أكن أدري قط بأنني أزعجك بإبقائه عندي.

وأعقبه (اسكانيو) قائلاً بكل إحترام:

- سيدي! إني أرجو صفحك. وقد جئت لأنفذ كل أوامرك وأكون رهن إشارتك.

(٢٠٨) سيتردد ذكر هذا الفتى في فقرات كثيرة من المذكرات. فقد رافق چليني الى فرنسا ومكث فيها بعد أن غادرها

سيده، وصار صانعاً للملك هنري الثاني. وتزوج بنتاً من أسرة روبيا Robbia التي أشتهرت بكثرة ما أنجبت من

الفنانين. ويبدو أنه عُرف فيما بعد بإسم (سنيور دي بيليو Signor de Beallieu).

(٢٠٩) بلدية تقع شمالي شرق روما بحوالى سبعين كيلومتراً.

- أجتت لإكمال المدة التي أرتبطت بها معي؟  
فأجاب بالأيجاب، وأضاف أنه لن يتركني بعد الآن. عندها ألتفتُ الى الصبي الذي كان (اسكانيو)  
قد إعتدى عليه وأمرته أن يسلمه صرةً ثيابه وأردفت قائلاً:  
- دونك كلّ الثياب التي ألبتعتها لك. فخذها وخذ معها حريتك، وأذهب أنتى شئت.  
كان (دون ديبغو) يتوقع كلّ شيء إلا هذا. فبذت عليه علامم الدهشة واضحة. وبعدها راح الأب  
والأبن يستغفران ويطلبان صفحي وإعادته الى العمل عندي. فسألت من هو هذا الشخص الذي  
يلتمس لاسكانيو، فقال إنه ابوه فرجبت به وجاملته ثم قلت:  
- مادمت أباه فإنني سأعيده الى العمل إكراماً لك.

كما ذكرت قبل قليل، صح عزمي على السفر الى فرنسا، وسبب هذا يرجع إني ادركت بأن الپاپا لم  
يعد لي عنده التقدير أو المكانة ذلك لأن خدماتي المخلصة لُطخت بالافتراءات كذلك كنت أخشى أن  
أنال الأسوء من كيد اعدائي لذلك كنت متحرراً الى إختيار بلاد أخرى قد يقبل عليّ الحظّ فيها بعد  
ادبار، وكنت على استعداد للرحيل وحدي. وفي ليلة من الليالي قررتُ أن أنطلق صباحاً. ففوضت  
شريكي (فيليجي) بإستعمال كل ما أملكه الى حين عودتي. وإن لم أعد فكلّ ما أملكه هو له. وكان  
لديّ مساعدٌ من أهل (بيروجيا) عاونني في صنع حلّي الپاپا هذا الشخص الح عليّ بإصطحابه وقال  
إنه سيتكفل بنفقات سفره. وإن شاءت المقادير أن أبقى في خدمة ملك فرنسا فمن الأفضل أن يكون  
معني مساعدون إيطاليون من بني جلدتي وخصوصاً أولئك الذين هم أهل لإعتمادي. كنت قد دفعت له  
حسابه وصفيت كل علاقتي معه إلا أنه تشبّث بي وألحف وتوسّل حتى وافقت على اصطحابه بالشروط  
التي إقترحها هو.

وكان (اسكانيو) حاضراً أثناء ذلك فكاد بجهش بالبكاء، ثم إنه قال لي:  
- عندما عدتُ إليك، قلت لك إني سألازمك طول العمر وأنا ثابت على قولتي.  
قلتُ إني لا أوافق على هذا بأيّ حال من الأحوال، إلا أن الفتى المسكين بدء بتأهب للحاق بي سيراً  
على القدم. فرق له قلبي وزودته بحصان. وضعتُ حقيبة فوق كفل الحصان وأثقلت نفسي بمتاع يزيد  
عن حاجتي بكثير وتركت روما متجها الى فلورنسا. ومن فلورنسا الى بولونيا. ثم الى البندقية ثم  
الى بادوا. وهناك جرّني صديقي العزيز (البرتاچيو دي بينيني) من الفندق جرّاً وأنزلني في داره. وفي  
اليوم التالي توجهت لتقبيل يدي المونسنيور (بييترو بمبو Pietro Bembo) (٢١٠) ولم يكن قد نصب  
كردينالاً بعد. فرحب بي ترحيباً حاراً لا أقوى على وصفه ثم التفت الى (البرتاچيو) وقال:  
- إني أريد بنقنوتو وكلّ خدمه ان يمكثوا ضيوفاً عندي ولو بلغ عددهم المائة. وإن شئت أنت صحبته  
فتعال وأبق هنا معي. وإلا فإنني مصمم على الإحتفاظ به.

(٢١٠) (١٤٧٠-١٥٤٧) نصب كردينالاً في ١٥٣٩، وولد في البندقية وكان كما وصفه چليني أدبياً ضليعاً ومن أكبر  
مشجعي الأدب والعلم. ويشك (پلون Plon) (أحد مترجمي المذكرات الى الفرنسية) في أن چليني أكمل صنع  
الميدالية فهو لا يذكرها بشيء لا في مذكراته ولا في رسالته.

وهكذا قضيت أطيب الأوقات مع هذا السيد الأملعي. وأفرد لي حجرة فخمة حتى بالنسبة الى كوردينال وأصرّ على ان اتناول كل وجبات الطعام معه وبعدها بدأ يلّمح بكياسة وبأسلوب رقيق برغبته في أن أعمل له صورة. ولم يكن أحبّ اليّ من هذا فجلبت كميةً من مسحوق باريس الأبيض الناصع في صندوق وبدأت العمل. في اليوم الأول جلست ساعتين كاملتين، أنقل رأسه الجميل بدقة أذهلت سيادته. كان أديباً المعياً عظيم الشأن فضلاً عن عبقرية غير عادية في قرض الشعر لكن لما كان يجهل تماماً أمور فنيّ فقد تصوّر بأني إنتهيت من الصورة، في حين اني لم أكّد ابدء. وتعدّز عليّ أفهامه بأن ضبطها وإتقانها يتطلب وقتاً طويلاً. أخيراً قررت أن أصبّ فيها كلّ معرفتي وأن أوقف عليها كلّ وقتي. وكانت لحيته قصيرة، يشذبها على طريقة أهل البندقية الأمر الذي كبّدني عناءً كبيراً في تصوير الرأس حتى غدا موضع رضاي. مع كلّ ذلك فقد تمّ. وإعتقدت بأنّ يدي أنجزت أبداع عمل وأكمله من جميع النواحي. وكان الكوردينال ذاهلاً حائراً. إذ بعد أن وجدني أفرغ من النموذج الشمعي في ظرف ساعتين، حسب إنني سأصبه بالفولاذ في ظرف عشر ساعات. ولكن سرعان ما وجد إنني في الحقيقة لم أنته من النموذج الشمعي إلا بعد مائتي ساعة، وتعاطم قلقه عندما إستأذنته بالرحيل الى فرنسا ثم أخذ يتوسل بي لأعمل على الأقل نموذجاً لظهر الميدالية بمثل الحصان (بيكاسوس Pegasus)<sup>(٢١١)</sup> يحيط به أكليل الغار. فعملته في ثلاث ساعات تقريباً ووقع في نفسي مضيفي أفضل موقع لدقته وجماله وعلق بقوله:

- حسبت أن تصوير الحصان بهذا الشكل أصعب بعشرة أضعاف من تصوير الرأس الذي كلّفك هذا القدر من العناء. إنني لا أدرك اين تكمن الصعوبة.

ثم بدء يتوسلّ بي لأقوم بصبه بالفولاذ قائلاً:

- رجائي منك أن تنجزه كفضل خاصّ منك وبإمكانك الإستعجال به لو شئت.

أكدّت له إنني سأقوم بعمل الميدالية عندما أستقرّ في موضع وأباشر عملي وإنني لا أنوي أن أشتغل بها هنا. وبين هذا الأخذ والردّ، كنت في سبيل شراء ثلاثة خيول للرحلة الى فرنسا. ولم أكن على علم بالنفوذ الذي يتمتع به (بمبو) في (بادوا) إذ كان يتتبع حركاتي خفية. فلما هممت بدفع ثمن الخيول وكنا إتفقنا على خمسين دوقية قال المالك:

- نظراً لأنك من كبار الفنانين فإنني أقدمها لك هدية!

فأجبت:

- ليست الهدية هديتك. ولا أريد قبولها من المهدي الحقيقي لأنني لم أتمكن من عمل أي شيء له. وعندئذ صارحني الرجل اللطيف القول، بأني إن لم أقبل هذه الخيول فلن أجد حصاناً واحداً يُشترى في (بادوا)، وسأضطر الى السفر سعياً على القدم، ففهمت وعدت الى المونسنيور الميجل (بيسترو) فتظاهر بأنه لايعرف شيئاً عن القضية. إلا أنه رحبّ بي بحرارة وعاد يلحّ عليّ بالبقاء في (بادوا)،

(٢١١) في أساطير الأغرقي. هو حصان مجنح. خرج من دم (ميدوسا) بعد أن قتلها پرسوس. (أنظر الحواشي التالية).

ولما كان هذا يخالف رغبتى وبما أنى عقدت العزم على مغادرة (بادوا) فقد اضطرت الى قبول الخيول وإنطلقت بها حال سبيلى.

إخترت الطريق المارة بالـ(غريسون Grisons)<sup>(٢١٢)</sup> لأن الطرق الباقية لم تكن آمنة بسبب الحرب الدائرة وقتذاك<sup>(٢١٣)</sup>. وعبرنا قمتيّ (آلبولا Albula) و(برنينا Bernina)<sup>(٢١٤)</sup> مخاطرين بأرواحنا إذ كان يغطيها ثلج كثيف في الثامن من أيار. ثم توقفنا في محلّ يسمى (فالنشتد Wallensdadt)<sup>(٢١٥)</sup> إن لم تخنيّ الذاكرة. فوجدنا نزلاً متواضعاً للمبيت. وفي تلك الليلة وصل ثمّ ساع فلورنسي يدعى (بوسباكا Busbaca). كنت قد سمعتُ من يمدحه ويصفه بأنه رجل ثقة وكفاءة. ولم أدر إن سلوكه المتحاييل قد أفقده سمعته. ما أن وقع نظره عليّ في الفندق حتى ناداني باسمي وقال لي أنه يقصد (ليون) لأعمال في غابة الأهمية ثم سألني إقراضه بعض المال ليستعين به على السفر. فأجبتُه إنى لا أملك مالاً للإقراض إلاّ انى سأتكفلُ بنفقاته إن جاء معي حتى (ليون). وبدأ هذا النصاب ينسج خيوطاً من الأكاذيب والدموع تنهمر من عينيه قائلاً عندما يكلف ساع مسكين فقير بمهمة خطيرة تتعلق بالدولة فيجد نفسه بحاجة الى المال فمن الواجب على أي فلورنسي من طبقتي الإجتماعية أن يساعده. وأضاف يقول أنه يحمل معه أشياء في غاية الأهمية تعود الى النبيل (فيليبو ستروزي). وكان معه حقيبة ذات غطاء جلدي قال وهو يهمس في أذني أن في داخلها طاساً فضيةً مملوءة بأحجار كريمة قيمتها عدة آلاف من الدوقيات فضلاً عن رسائل في غاية الخطورة مرسلها (فيليبو ستروزي). عندما سمعت قوله هذا أشرتُ عليه بأن يدعني أخفي هذه الجواهر في ثيابه التي يرتديها فهو أقلّ خطراً عليها من بقائها في الحقيبة وأن يترك لي حفظ الطّاس الذي قد يسوي عشرة كراونات وأن شاء إبتعته منه بخمسة وعشرين. فأجاب الساعي يقول إنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من المجيء معي لأن بيع الطاس يسيء الى سمعته.

فتركنا الأمور بهذا الشكل. وفي صبيحة اليوم التالي إستأنفنا السفر فبلغنا بحيرة تقع بين (فالنشتاد) و(فيسنّ Wesen) وطولها يبلغ خمسة عشر ميلاً<sup>(٢١٦)</sup>، فتكون (فيسن) في نهايتها. أدركني الهلع عندما شاهدت أي نوع من القوارب تستعمل في هذه البحيرة لأنها مصنوعة من خشب الصنوبر وهي صغيرة وضيقة وغير مجلّفة<sup>(٢١٧)</sup> أو مطلية بالغار. ولو لم أشاهد أربعة من المسافرين الألمان يركبون واحداً منها مع خيولهم لما أقدمت أنا نفسي ولعدتُ من حيث أتيت دون تردد. فعندما رأيت إستهتارهم الأحمق قلت لنفسي إن هذه البحيرات الألمانية لا تُغرق الناس مثل بحيراتنا

(٢١٢) من المقاطعات السويسرية.

(٢١٣) هي الحرب التي نشبت بين إسبانيا وفرنسا في بيدمونت وإنتهت بمعاهدة نيس في ١٥٣٧.

(٢١٤) قمتان من سلسلة جبال الألب الشرقية. يزيد إرتفاع الثانية عن ثلاث عشرة ألف قدم.

(٢١٥) بلدة تقع في الشمال الشرقي من سويسرا.

(٢١٦) تدعى هذه البحيرة فالين Wallen وليس كما سمّاها چليليني .

(٢١٧) أي ليست ملتحمة الألواح بشكل يمنع دخول الماء.

الأبطالية. مع هذا فإن رفيقي السفر قالوا:

- بنفوتوا! سيكون تهوراً منّا أن نستقلّ هذا القارب مع أربعة خيول.

فأجبتهم:

- أما ترون أيها الجبناء كيف سبقنا هؤلاء السادة الأربعة الى قاريهم وهم يضحكون غير مباليين؟ لو كان ما في البحيرة خمر لقلّلت إنهم مُبتهجون لفكرة احتمال غرقهم فيه. لكنه ماءٌ فحسب وإنني لواثق بأنهم يكرهون أن يتلعمهم الماء أكثر مما نكره.

يبلغ عرض البحيرة ثلاثة أميال وطولها خمسة عشر. ويشرف على أحد شاطئها جبلٌ أشمّ مليء بالكهوف والعديد من الأطناف والكتل الصخرية. أما الشاطيء المقابل فهو سهل مبنسط ممرع أخضر. وبعد أن قطعنا أربعة أميال من الشاطيء هبت ریحٌ شديدة فطلب منا الملاحون مساعدتهم ففعلنا فترةً من الزمن، وبدأت أشير إليهم واصيح بأن يتجهوا بنا الى الساحل الآخر لننزله. فقالوا هذا غير ممكن لأن الشاطيء ضحلٌ رمليٌ وقد يتحطم بنا القارب فنغرق جميعاً وطلبوا منا نجاتهم مرةً أخرى. وأخذ النوتيّة يهيب بعضهم ببعض للمعاونة. فتبين لي الخطر المحدق بنا من وضعهم السيء. فوضعت اللجام في عنق جوادي الذكي وأمسكت بالرّسن بيدي اليسرى. وبدالي وكأن الحيوان أدرك بغريزة فصيلته ماذا أقصد حالما الويت برأسه الى جهة العشب الغضّ. كان هدفي أن يسبح الى تلك الجهة ويسحبني خلفه الى اليابسة. وفي تلك اللحظة إندفعت الى القارب موجة عاتية وإعتلته. فصاح اسكانيو:

- أبي رحماك عونك!

وهم بالارتقاء عليّ. فجردت خنجري الصغير وأمرتهم بأن يحدوا حدوي. وقلت بصوت جهوري إن الخيول ستنقذ أرواحهم وهذه هي الوسيلة التي سأستخدمها أنا للنجاة، إلاّ إنني سأقتله إن حاول التشبث بي ثانية. وهكذا قطعنا أميالاً أخرى والخطر محدد بنا.

وجدنا وسط البحيرة قطعة أرض منبسطة تصلح للإستراحة. ورأيت الألمان الأربعة وقد نزلوا إليها. فطلبت من النوتيّة كذلك الرسو أيضاً. لكنهم رفضوا معاندين فقلت لأصحابي الشبان:

- حان الوقت الآن لنثبت لهؤلاء أي صنف من الرجال نحن. جرّدوا سيوفكم وسنرغمهم على إنزالنا الى الساحل.

حققتنا ما أردناه بعد أن أبوا وقاوموا ما إستطاعوا.

بلغنا الشاطيء الآخر أخيراً. وكان علينا أن نتوكل الجبل جيداً بمسافة ميلين. وهو كما وجدنا أصعب من إرتقاء سلم. كنت مرتدياً زرداً كاملاً. وفي رجلي جزمة ركوب ثقيلة وبيدي بندقية. والله يصبّ علينا كل مافي سمائه من مطر. هؤلاء الألمان الشباطين كانوا يتقدمون بخطى حثيثة مذهلة وقد جمع كل منهم زمام حصانه الصغير بيده في حين لم تكن خيولنا ذات نفع قط. وأخذت قوانا تخور من الجهد الذي نبذله لإرغامها على الصعود الشاق. وكان (إسكانيو) في المقدمة وقد أعطى (بوسباكا) حريته ليحملها عنه. فعثر فرسه الهنغاري الممتاز وأجفل مرتداً الى الخلف بسبب وعورة المرتقى وعجز

تماماً عن الإحتفاظ بتوازنه وإرتقى على سنان الحربة التي كان الساعي النذل ممسكاً بها لم يكن من حضور الذهن في شيء ليبعدها عنه. فنفذت في عنقه. فتقدم عاملي الآخر للمساعدة فزلت القدم بحصانه الأسحم وهوى الى ماء البحيرة، لكنه علق بشجرة ضعيفة الساق لاتتحمل ثقله فمالت به الى تحت. وكان هذا الحصان محملاً بخروج مزدوج، وفيهما أودعت كل نقودي وأثنى ماعندي. لكنني صحت بالفتى أن يعنى بنفسه وليذهب الحصان الى سقر. كانت الهاوية التي إستعدت لإستقبال الحصان يعمق ميل. يليها سفح شديد الإنحدار ينتهي بالبحيرة وتحت موضع السقطة مباشرة يوجد مقرّ للنوتية. فلو أكمل الحصان سقطته لهوى على أم رأسهم. توقفت قليلاً إذ كنت أتقدم الركب. ورحت أعدّ الثواني إنتظاراً للسقطة وهي كما بدا لي محتومة لا سبيل لتفاديها. ثم صحت بالجماعة:

- لانهتموا بأي شيء. ودعونا ننقذ أنفسنا ونحمد الله على ذلك. إني متألم فحسب على (بوسباكا) المسكين الذي شدّ وعاء جواهره بقيمتها البالغة آلافاً من الدوقيات في سرج الحصان الساقط معتقداً انه آمن موضع لها. أمّا أنا فلن أفقد أكثر من بضع مئات من الدوقيات. ولن أشعر بخسارتها قط يعون الله.

فهتف (بوسباكا) قائلاً:

- لست مهتماً بمقتنياتى. إلاّ أنني شديد الحزن على ما فقدت.

قلت:

- أتهتم بالقليل الذي عندي ولا تكترث بالكثير الذي تحمله؟

فأجاب يقول:

- سأصارك بالحقيقة والله! ففي مثل هذه المآزق الخطرة يجمل بالإنسان أن يقول الصدق. أنت فقدت مقداراً من الكراونات. وهي كراونات حقيقية وأنا أعرف هذا. ولكن أتدري إن حقيبة الطاس التي زعمت لك أنها مملوءة بمقدار كبير من الحجر الكريم والتي كذبت حولها كثيراً؟ أتدري أن ليس فيها إلا كافيّاً!

بهذا لم أستطع مغالبة الضحك. وشاركني فيه الشابان. أما (بوسباكا) فقد أجهش بالبكاء. في تلك الأثناء ولدهشتنا جميعاً مارأينا الحصان إلا وقد تحامل على نفسه وإستوى على قوائمه بعد أن نفضنا أيدينا عنه وعددناه هالكاً. وإستجمعنا قوانا ومضينا نتوقل الجبل ضاحكين. وقد سبقنا الألمان الأربعة الى القمة ثم أرسلوا إلينا عدداً من الرجال لمساعدتنا. أخيراً بلغنا موضع الإستراحة في ذلك المستوحش، منهكين جائعين نقطر ماءً. فأستقبلنا بحرارة وأمكننا تحفيف ثيابنا وإصابة فترة من الراحة وإشباع بطوننا. وعالجنا خيولنا المجرّحة المخدوشة بأعشاب جبلية دلّنا عليها القوم. كانت شقوق الصخر تعج بهذه الأعشاب. وقالوا أننا لو قمنا بوضعها على ورم أو جرح في الحيوان فإنه يبقى صالحاً للحمل والركوب فضلاً عن إلتئام الجرح تدريجياً بتأثيرها فطبقتنا قولهم هذا وحشونا جراح حيواناتنا بها. ثم شكرنا هؤلاء السادة الألمان وإنطلقنا في رحلتنا نحن نشعر بالنشاط، لانفك نحمد الله على نجاتنا من هذا الخطر العظيم.

وتوقفنا في موضع يلي (قيسَن) وبتنا ليلتنا فيه. وكان صوت غناء خفير الليل الرخيم يتناهى إلينا طوال الليل. وبما أن بيوت القرية كلها من خشب الصنوبر فوظيفة خفير الليل الوحيدة هو الإنذار بالحريق. وكان (بوسباكا) يرتعد ويتنهد أثناء نومه - من تأثير يوم الأحد الماضي في أعصابه كلما رفع الخفير عقيرته بالغناء ويهبُّ من فراشه صارخاً:

- رحماك يا رب! إنني أغرق...

كان بعض هذا من آثار متاعب اليوم السابق. وبعضه لمحاولته مساء اليوم نفسه مغالبة الألمان في الشراب. وقرع الكأس بالكأس مع كل من وجده منهم. فمرة كان يصرخ "إنني أحترق" ومرة كان يصيح "إنني أغرق". وبين هذا وذاك كان يحلم أنه يعذب في سعير جهنم والكافيار معلَّق برقبته.

على كل حال كانت ليلتنا ممتعة مؤنسة وإنقلبت متاعبنا إلى مرح. ووجدنا الجو صحواً رائعاً في الصباح. وذهبنا لتناول الطعام في موضع صغير رائع يدعى (لاخن Lachen) (٢١٨) وقدم لنا أشهى المأكول وبولغ في خدمتنا. وبعدها إستأجرنا بعض الأدلاء وكانوا في طريق عودتهم إلى مدينة تسمى (زوريخ Zurich). سلك بنا الدليل طريقاً معبداً تحاذي البحيرة. ولم يكن ثمَّ طريق غيرها. وهذا كان يغمره الماء. فأدى إلى عثار الحصان وفوقه الدليل الأبله. وسقط هو وراكبه في الماء وكنت أسير خلفه فجذبت عنان حيواني وانتظرت حتى إستوى الحصان الساقط على قوائمه فنهض الدليل وشرع يغني ثنائية وكان لم يحدث شيء مشيراً علينا باللاحاق به. وعند هذا إندفعت نحو اليمين مجتازاً بعض الحواجز ومرشداً (بوسباكا) والفتية إلى الطريق. فصاح بنا الدليل قائلاً بالألمانية لو أن أحداً رأني لأطلق عليّ الرصاص. إلا أننا إحتثنا خيلنا إلى الأمام ونجونا من الخطر.

ثم بلغنا (زوريخ) وهي مدينة ساحرة تستطع مثل جوهرة صغيرة. وإسترحنا فيها يوماً كاملاً وحظطنا الرحل في اليوم التالي ببلدة جميلة أخرى إسمها (سولوثورن Solothorn) (٢١٩) ومنها إلى لوزان ومن لوزان إلى (جنيف) ومن (جنيف) إلى (ليون) ونحن نغني ونضحك طوال الطريق. ومكثت في (ليون) أربعة أيام وقضيت وقتاً ممتعاً مع بعض الأصدقاء وعُوضت عما دفعت من نفقات لـ(بوسباكا). وبعد ختام الأيام الأربعة إنطلقت إلى باريس. وكانت رحلة طيبة خلا حادثة واحدة بالقرب من (لاपालيس La Palice). عندما حاولت الفستك بنا عصابة من قطاع الطرق عرفت بإسم "المغامرين". إلا أننا قاتلناهم ببسالة، وإندفعنا مسرعين إلى باريس. فوصلناها بسلام نتضاحك ونغني طول الطريق ولم يقع لنا حادث يذكر.

خلدت إلى الراحة مدة من الزمن في باريس، ثم بدأت أبحث عن الرسام (روسو) الذي كان في خدمة الملك. وكنت أعد صاحبي هذا أفضل صديق لي في الدنيا. إذ أنني أريته من العطف والإكرام في روما مايجل عن الوصف. إن في مقدوري إجمال فضلي الكبير عليه ببضع كلمات، ولأجل أن أظهر صفاقة الوجه ونكران الجميل الذي قابلني بهما سأثبت الوقائع. ففي (روما) أطلق لسانه الخبيث

(٢١٨) تقع في الساحل الجنوبي الغربي لبحيرة زوريخ.

(٢١٩) بينها وبين زوريخ إلى الغرب حوالي ٤٥ ميلاً. ويبدو من هذا أن چليني كان سريع السفر.

في إنتقاص أعمال رافائيل الأوربيني فوق في ورطة. إذ حلف تلاميذ (رافائيل) على قتله. وكنت أنا منقذه من محنته بحراستي له ليلاً ونهاراً وتضحيتي براحتي في هذا السبيل. ثم أطلق لسانه في القذف والتشهير بالمهندس المعماري الممتاز (أنطونيو دا سان غالو (Antonio di san Gallo) (٢٢٠) ونتيجة ذلك سُحب من يد المهندس عمل كان قد عهد به اليه من قبل (أينولو دي جيزي (Agnolo di Gesi). فبدأ (أنطونيو) يلاحقه ويضيق عليه حتى أوصله الى حالة الجوع فأقرضته بضع عشر من الكراونات سترًا لخلته. ولم يسدها لي الى يومنا هذا. ويعلمي أنه الآن في خدمة الملك فقد قصدته كما قلت في زيارة لا لأطلبه بديني أو متوقعاً منه الوفاء به، وإنما كنت أومل ان يستخدم نفوذه لمساعدتي في دخول خدمة الملك أيضاً. لما وقعت أنظاره عليّ بدت عليه علائم الإرتباك والهرج فكان أول قوله:

- إنك يا بنفوتو أنفقت مالاً كثيراً في رحلتك هذه الطويلة ولاسيما في هذا الوقت الذي تركت كل الأفكار في الحرب. ولم يعد أحد يكثر بمجهوداتنا التافهة.

فأجبت بقولي إن المال الذي جئت به يكفي لعودتي الى روما سالكاً نفس الطريق التي أوصلتني الى باريس، وهذا ليس بالرد الذي توقعته على ماصدر مني تجاهه من أياد بيضاء. وإني صرت الآن أصدق كلام (أنطونيو دي سان غالو) عنه.

أدرك مبلغ نذالته فأراد أن يلطّف الموقف بضحكة منه إلا أنني أريته حوالة مالية بمبلغ خمسمائة كراون مسجوبة لأمرى على (ريچاردو دل بيني (Ricciardo del Bene). فعلا هذا الحقيير الخجل التام من نفسه. وبذل كلّ جهده لإيقائي إلا أنني أطلقت ضحكة شامتة في وجهه وخرجت صحبة رسام كان واقفاً هناك. هذا الرجل يدعى (سكوازبلا (Squazzella) كان مواطناً فلورنسياً. وقد إتفقنا على السكنى عنده بمبلغ معين انا وثلاثة خدم وثلاثة خيول. فبالغ في رعايتنا وخدمتنا على أحسن وجه. فزدت له في الأجر المتفق عليه.

بعد ذلك حاولت الوصول الى الملك، وقد قدمني إلسيه أمين خزائنه المدعو (يوليانو بوناكورزي (Giuliano Buonaocorsi) وكان عليّ الإنتظار طويلاً وكنت أجهل ان روسو راح يحاول المستحيل للحيلولة دون ذلك. ولما علم (يوليانو) بالأمر أخذني في الحال الى (فونتينلو) والى الملك رأساً. وكانت مقابلة في غاية اللطف وتبسط جلالته معي فمكثت في حضرته ساعة كاملة. ولما كان الملك يتهيأ للرحيل الى (ليون) فقد أمر (يوليانو) أن يأخذني معه وقال إنه ليودّ ان نبحث أثناء السفر بعض الأعمال الفنية التي يفكر جلالته في تنفيذها له.

(٢٢٠) أنطونيو الأصغر. وهو تلميذ عمه أنطونيو دبوليانو. عمل في (لوريتو) و(اوقيتو) وروما. وساهم في بناء كاتدرائية بطرس المعروفة. أنظر سيرته في (فاساري، ج٥). كلفه الكردينال فارنيزي ١٥١٤ (فيما بعد الپايا بيوس الثالث) بيضاء قصر فارنيزي الذي يعتبر اليوم من أجمل أبنية الرينسانس في روما. فأعجز الواجهة وطبقتين منه ثم توفي وقام ميكالنجلو بإكماله. وما يذكر في هذا الصدد ان تصميمه لبناء كاتدرائية القديس بطرس وهو من الخشب وبارتفاع أكثر من (١٥) قدم على قاعة كبيرة مازال موجوداً وهو من محفوظات الفاتيكان. وقد رفضه ميكالنجلو بسبب الزوايا والحيايا الكثيرة فيه وإتخذ التصميم الحالي.

فسافرنا وراء الركب الملكي وفي الطريق بالغت في تقديم إحتراماتي لكردينال (فرارا)<sup>(٢٢١)</sup> الذي لم يكن قد تسلم بعد قلنسوة الكردينالية. وكانت أحاديثنا تمتد بنا طويلاً في الليالي. وأشار عليّ نيافته بالبقاء في (ليون) وعرض أن أكون ضيفاً عليه في دير داخل المدينة يعود له فأتمتع بالراحة حتى يقفل الملك عائداً من ساحة القتال. وقال ان الملك سيتوجه الى (جرينوبل Grinoble). ولو أنني بقيت في ديره لنت كل ما أريده.

بعد وصولنا (ليون) إعتلتّ صحتي. وإبتلي اسكانيو بحمى الربيع: وبتنتيجة ذلك ضقت ذرعاً بالإفرنج وبلاطهم وإنتابني حنين الى (روما) لا قبل لي بمغالبته. ولما تبين الكردينال شدة شوقي الى العودة. دفع لي مبلغاً من المال لأصنع له إبريقاً وطستاً فضييين ما أن يستقر بي المقام هناك. وهكذا باشرنا في رحلة العودة على خيول ممتازة سالكين طريق (سامپلون Simplon)<sup>(٢٢٢)</sup> ورافقتنا فرنسيون شرطاً من الرحلة. وكان اسكانيو يعاني من حمى الربيع التي لازمته دون فكاك وأنا مريض بحمى مستمرة لاتزايطني لحظة واحدة وفي معدتي غشيان شديد لا أظنني تمكنت من إبتلاع رغيف كامل خلال أسبوع واحد، طوال أربعة أشهر. بتّ متحرقاً للعودة الى إيطاليا لأموت فيها لا في فرنسا.

بعد إجتياننا جبال (سامپلون) جئنا الى نهر بالقرب من موضع يسمى (انديڤيرو Indevro)<sup>(٢٢٣)</sup> وكان واسع المجرى عميق الغور فوقه جسر طويل ضيق لا حاجز على جانبيه. وفي صباح ذلك اليوم كان الجسر مكسواً بطبقة سميكة من الجمد الأبيض. وصلت الجسر متقدماً على الآخرين وأدركت الخطورة التي تنطوي على عبوره فأمرت صانعيّ وخادميّ بالترجل وقيادة الخيل باليد وقطعتة أنا بسلام وكنت أثناء ذلك أتبادل الحديث مع واحد من إثنين من الإفرنج وهو من النبلاء. أما الآخر وكان مسجّل عقود فقد كان يتبعنا على مسافة وهو يهزأ بي وبالفرنسي لاننا نتكبد عناء السير في حين لا خطر ثمّ. وإلتفت الى الخلف فوجدته في منتصف الجسر فرجوته أن يلتزم جانب الحذر لأنه في أخطر جزء منه. إلا أن طبيعة الفرنسيين أبت إلا أن تؤكد نفسها فيه، فقد صاح برطانتته الفرنسية قائلاً إني جبان وليس هناك أقل خطر. ولم يكذب ينهي قوله هذا حتى لكز جواده لكزة خفيفة. فإنزلقت قدم الحصان الى حافة الجسر وهوى في اللجة وأرجله متجهة الى السماء بالقرب من صخرة عظيمة. إن الله الذي يرحم الحمقى والمغفلين دفع الحيوان وراكبه الأكثر حيوانية منه الى الماء العميق فغاص كلاهما. ما إن رأيت هذا حتى إستدرت بأسرع ما أمكنني وقفزت معتلياً الصخرة. وإنحنيت حتى إستطعت الإمساك بطرف السترة التي يرتديها وسحيتها الى فوق إذ كان تحت مستوى الماء. وكان قد إبتلع كمية كبيرة منه ولم يبق بينه وبين الغرق إلا قيد شعرة. فكان كلّ ما حضره من جواب باللغة الفرنسية قوله

(٢٢١) أحد أفراد الأسرة الحاكمة لدوقية فرارا وهو (أبوليتو ديستي Ipolito d'Este) ابن ألفونسو دوق فرارا عاش حيناً من الزمن في فرنسا. وكان من مشجعي الأدب والفن.

(٢٢٢) مضيق جبلي بين سويسرا وإيطاليا يمتد اليوم بالقرب منه نفق طوله سبعة أميال.

(٢٢٣) في بعض التراجم ثبت الإسم هكذا [VALDEVERDO: فالديڤردو] وربما قصد چليني قال دي فيدر بمقاطعة التيرول السويسري. وأراد بالنهر [دوڤرين].

إنني لم أفعل شيئاً والمهم هو وثائقه التي تسوى عشرات من الكراونات. وكان الغضب يبدو من لهجته وهو يقطر ماءً. عندئذ توجهت الى الدليلين اللذين يرافقانا وأمرتهما بإنجاد الأحق وسأدفع لهما أجراً على هذا. فقام أحدهما بمساعدته وتمكن بكثير من المهارة والمجهود من إستنقاذ الوثائق ولم يفقد منها شيء. إلا أن الدليل الآخر لم يحرك إصبعاً واحدة.

والشيء بالشيء يذكر إننا إتفقنا على كيس مصرف واحد أتولاه أنا. فعندما بلغنا الموضع الذي ذكرته سابقاً وانتهينا من الغداء. نفحت الدليل الذي أعانه من سقطته بدرهيمات. فإعترض الفرنسي قائلاً إنه غير مسؤول عن دفعها وبإمكانني التبرع بها من مالي الخاص لأنه لايعتزم إعطائي أي شيء أكثر من الأجر الذي إتفقنا عليه لقاء خدماته كدليل. وهذا ما اضطرنني الى الرد عليه بحدّة ومصارحته برأيي فيه. ثم أقبل الدليل الآخر على - وهو الذي لم يبذل جهداً قط - مطالباً بمبلغ له أيضاً. فقلت له:

- إن من يحمل الصليب هو الذي يستحق الجزاء ولا أحد غيره.

فأجاب يقول أنه سيريني عما قريب صليباً يستدر الدموع من عيني. فقلت رداً على هذا: في هذه الحالة سأشعل قطعة صغيرة من شمعة له وليكن على يقين بأنه أول من سيبيكي (٢٢٤).

الموضع الذي كنا فيه هو بمثابة حدود بين الألمان والبنادقة فإنطلق الرجل ثم عاد يتبعه رهط من الرجال وهو يحمل رمحاً كبيراً. كنت فوق حصاني الممتاز فخفضت فوهة البندقية ثم إستدرت الى رفاق السفر وقلت:

- سأتولى قتله أولاً. وعليكم أنتم أن تؤدوا واجبكم أيضاً. فهؤلاء من قطاع الطرق القتلة. وهم يتعللون بهذه الحجة النافهة للقضاء علينا.

وتدخل صاحب الفندق الذي تناولنا غداءنا عنده، فنادى واحداً من مقدميهم وكان رجلاً طيباً كبير السن ورجا منه ان يضع لهذا النزاع حداً وقال له (يقصدي):

- إنه رجل شجاع للغاية. وإن تمكنتم من تقطيعه أشلاء، فلن يكون ذلك إلا بعد أن يصرع منكم عدداً كبيراً. وربما يقلت منكم بعد هذا.

وخفت الضجة وانفضّ الجمع وقال لي رئيسهم الشيخ:

- إذهب بسلام. كان بإمكاننا أن نقطع أوتار ركبتيك تقطيعاً، وإن كان معك مائة رجل.

أصاب الرجل كبد الحقيقة ولم أجهل ذلك قط وكنت قد صممت على الموت ولكنني رفعت رأسي بعد أن تلاشى صدى السياب والشتائم وقلت:

- لقد إنتويت أن أقدم على كل ما يسعني الإقدام عليه لأثبت بأنني من الأحياء الذين لايموتون بسهولة والرجل الذي يحسب له كل حساب.

(٢٢٤) في ترجمة أخرى نقلت هذه العبارة على الشكل الآتي: "... إنني سأشعل شمعة صغيرة لذلك الصليب قد يكلف هو يحملها عندما يعاد للتكفير عن آثامه وهو مرتد قميصاً أبيض". وهي من المراسيم التي تتبع عند تنفيذ حكم الموت في ذلك الزمن.

وواصلنا السفر. وفي تلك الليلة قمنا بتسوية حساباتنا في أول موضع إستراحة وفارقت رفاق السفر وبينهم ذلك الفرنسي البغيض وإن بقيت على أحسن صفا مع النبيل الآخر. وذهبنا لوحدا الى فرارا ومعنا خيولي الثلاثة. بعد أن ترجلت قصدت بلاط الدوق حالاً للسلام على سموه، لأتمكن من إستئناف سفري صباح اليوم التالي الى (سانتا ماريا دالوريتو Santa Maria da Loreto). إنتظرت وقد مرت ساعات على الغروب فأقبل الدوق. فلثمت يديه ورحب بي ترحيباً حاراً وأمر بجلب الماء لغسل يدي فقلت له مبتسماً:

- مولاي لي أكثر من أربعة أشهر لم أتناول خلالها من الغذاء شيئاً أكثر من مجرد إبقاء روعي في جسدي. ولإدراكي بأني لأستطيع الإستمتاع بالطعام على مائدتك الملكية، فسأبقى أجاذبك أطراف الحديث أثناء تناول سموك عشاءه، وسيستأنس أحدنا بالآخر في الوقت نفسه أكثر بكثير مما لو تناولناه معاً.

وهكذا صرنا نتبادل أطراف الأحاديث زهاء ثلاث ساعات ثم إستأذنت منه وإنصرفت. ولدى عودتي الى الفندق وجدت مادية فخمة في إنتظاري. فقد أرسل الدوق من مائدته أصنافاً مع كثير من الخمر المعتقة. ولما كان قد مرّ على موعد عشائي الإعتيادي مقدار ساعتين فقد تفتحت شهيتي فتناولت طعامي بلذة لأول مرة بعد أربعة أشهر.

وفي صباح اليوم التالي توجهت الى سانتا ماريا دا لوريتو. فأديت فريضة الصلاة والدعاء ثم إنطلقت نحو روما وبلغتها لأجد (فيليجي) المخلص الأمين. فتركت له دكاني بكل ما فيها من أثاث وبضاعة، وفتحت دكاناً آخر تجارو (سوغيرلر Sugherell) العطار وهي أوسع وأرحب من الأولى. حسبت أن ملك فرنسا العظيم قد نسيني تماماً. ولذلك تعهدت القيام بكثير من الأشغال لمختلف النبلاء كما كنت أشتغل أيضاً في إبيرق وطاس الكردينال الذي كلفني بهما. وإستخدمت عدداً كبيراً من الشغيلة وقمت بصفقات تجارية طيبة في الحلبي الذهبية والفضية. وإتفقت مع مساعدي البيروجي أن يعمل قائمة بكل المبالغ التي أنفقتها عليه في الرحلة مع الشيباب وغيرها من المصاريف فبلغت سبعين كراونا تقريباً وإتفقنا على أيفاء دينه هذا بدفع ثلاثة كراونات كان يكسبها من عمله عندي. وبنهاية شهرين فرّ الوغد الزنيم وتركني مثقلاً بالعمل. قائلاً انه يرفض ان يدفع أي شيء من دينه المتبقى.

ونصحت باللجوء الى القضاء لإستحصال حقي. في حين كان أول ما طرء في فكري هو قطع ذراعاه وكنت سأفعل ذلك حتماً لو لم يقنعني أصدقائي بأن هذا لن يعود علي بالفائدة، إذ سأخسر نقودي وربما خسرت روما معها ثانية، كما إن المرء لا يدري ماذا يتأتى من القتال في حين كان بإمكانني إستحصال أمر بإعتقاله وعندى العقد المكتوب بخط يده، فعملت بنصيحتهم وإن كنت أفضل تسوية الأمر بطريقتي الخاصة. ورفعت شكوى أمام القاضي الپاپوي وربحتها بعد عدة أشهر. وكانت النتيجة أيداعه السجن.

وتم إكتنفتني الأشغال من كل صوب وكلها مهم ومن بينها قيامي بعمل كل الحلبي والمصوغات

الذهبية والجوهرية للسيد النبيل (جيرولامو أوروسيني Grolamo Orsini) (٢٢٥) وهو والد (پاولو Paolo) الذي هو اليوم حنّ الدوق كوزيمو دي ميديتشي دوقنا الحالي. ولم أكد أنتهي منها حتى تراكتت عليّ أعمال هامة أخرى هكذا دون فاصل. وكان عندي ثمانية مساعدين نعمل ليلاً نهاراً في سبيل السمعة والريح.

فيما أنا منهمك بأعمالي المتراكمة وصلتنني رسالة عاجلة جداً من كردينال فرارا، هذا نصها:  
"أي بنقوتو صديقي العزيز:

خلال الأيام القلائل الماضية تذكرك الملك العظيم القويم الدين وأبدى رغبته من ضمك الى خدمته. فكان جوابي له بأنك قطعت وعداً بالعودة دون تأخير متى طلبت منك ذلك نيابة عن جلالته. فقال جلالته يجب أن يزود بنقوتو والحالة هذه بما يحتاجه من نفقات السفر. على أن تكون بالشكل الذي يليق بمن هم في مكانته. ثم أمر قائد أسطوله فوراً بأن يصرف لك من بيت المال مبلغ قدره ألف كراون فانبرى (الكردينال دي غادي) الذي كان موجوداً أثناء الحديث. وتقدم من جلالته قائلاً لاجابة تدعو الى إستصدار مثل هذا الأمر لأنه (أي كردينال دي غادي) قد أرسل لك مبلغاً كافياً لتستعين به على السفر وإنك في طريقك الينا فعلاً. فإن كان ما زعمه الكردينال دي غادي صحيحاً - وهو ما أشك فيه كثيراً فأجب رسالتي حالاً. وسأمسك بطرف الخيط هنا وأعمل على إرسال المنحة التي وعدتها بها ملكنا المعظم."

ألا فلتشهد الدنيا وكل من عليها من البشر كيف تعمل سوء الحظوظ في طوالنا نحن أبناء البشر المساكين! لم اوجه طوال حياتي اكثر من كلمتين لهذا المغفل التافه الحقير من الكرادلة. وهذا التباهي والإدعاء لم يكن بدافع سوء النية ولا كان بقصد إيدائي وإنما هو محض فضول أحقق يريد به أن يظهر بمظهر الراعي للفقراء والمهتم بأمرهم وصاحب العلاقة بهم كإبراً عن كابر، ولاسيما أولئك الذين يريد الملك ضمهم الى خدمته - مقلداً بذلك كردينال فرارا). لقد كان بدرجة من البلادة والغباء بعد ان أقدم على هذه الفعلة، إنه لم يخبرني بها قط ولو لحقني علم بها فرما كنت سأتدبر مخرجاً وأقبله من عناده الغبيّ بها تغطية لحيلته الساذجة الخرقاء. وبذلك يمكنني على الأقل المحافظة على سمعة هذا الجرو المدلل البليد فهو على كل حال ابن بلدي.

ما أن إنتهيت من تلاوة الرسالة حتى أسرع في الإجابة ومما قلت:

"أمّا عما زعمه الكردينال دي غادي فلا علم لي به مطلقاً. ولو كان إقترح عليّ شيئاً

(٢٢٥) أسرة أورسيني هي إحدى أشهر أسر تين في روما. تنازعتا النفوذ طوال ثلاث قرون وكان منهما القادة والأمراء والياپاوات والكرادلة. (الأخرى هي أسرة كولونا) ويرى الآن قصر آل أورسيني مشيداً فوق الملعب الروماني الأثري المعروف مارجلوس. الذي بدأ يوليوس قيصر بتشبيده وأكمله أغسطس قيصر في (١١ ق.م). وجيرولامو أورسيني هنا هو سيد إقطاعية براجيانو Braciano والقائد المعروف وزوجه هي فراشسكا سفورزا، وإبنه دوق براجيانو تزوج بنت كوزيمو دي ميديتشي ثم قتلها. وتزوج بثكتوريا أكوامبوني وهي بطة مأساة (الشيطان الأبيض) للقصاص الدرامي (جون ويست ١٥٨٠-١٦٢٥) الإنكليزي.

من هذا القبيل لما تحركت من أيطاليا من غير إعلام نيافتك الكلي والإحترام خاصة وإن أشغالي في روما كثيرة وجسيمة بشكل ما عهدته قبلاً..."  
ثم إستطردت أقول مستدركاً:

"... إلا أن إشارة واحدة من جلالته القويم الدين، تأتيني عن طريق مقامٍ سامٍ كمقام الكردينال (فرارا) تجعلني لا أتردد لحظة في ترك كل شيء..."

بعد إرسال هذا الجواب. تفتق ذهن صانعي البيروجي الخائن عن عملية غادرة كتب لها النجاح في الحال، ويُعزى جانب من نجاحها الى بخل البابا پولس فارنيزي وحرصه الشديد. إلا أن السبب الرئيس يعود الى ابنه النغل الذي كان يُلقب وقتئذٍ بـ(دوق كاسترو). هذا الصانع أخبر واحداً من مقربي (سنيور بيسير لويجي) بأنه كان في خدمتي سنيماً عدة وهو بحكم طول خدمته مطلع على كل أسراري وبإمكانه أن يقسم ميمناً للسنيور بيسير لويجي بأن ثروتي تزيد عن ثمانين ألف دوقية. ومعظم هذه الثروة هو أحجار كريمة وجواهر من ممتلكات الكنيسة، وإنني قد سرقتها في قلعة سانت أنجلو أيام حصار روما. وحثهم على إلقاء القبض عليّ بسرعة وسرية لئلا أعلم بنواياهم وأفلت من قبضتهم. في صباح ذات يوم. وضعت معطفي على كتفي وخرجت من الدكان لأتمشي قليلاً. كنت قد إشتغلت حتى ساعة متأخرة من الليلة الفائتة ولم أتوقف إلا والساعة تشير الى الثالثة قبيل الفجر وقد أشغلني حلمي العروس التي نوهت بها. فإنتهزت فرصة قيام العمال بفتح الدكان وتنظيفه. فقادتني قدماي الى (بوليا سترادا) ولما بلغت منعطف كياثيكا Chiavica. إعترضني (كرسپينو Chripino) البارجللو وكلّ رجاله وقال:

- أنت سجين البابا.

قلت:

- كرسپينو إنك تعتقل شخصاً غير مطلوب إعتقاله.

فأجاب:

- كلاً، فأنت بنقنوتو الفنّان. وأنا أعرفك حقّ المعرفة. ومن واجبي أن آخذك مخفوراً الى قلعة سانت أنجلو، وهو المكان الذي يوخذ إليه النبلاء والفنانون أمثالك.

ثم ألقى أربعة من رجاله بأنفسهم عليّ محاولين إنتزاع الخنجر الصغير المشدود الى جنبي وبعض الخواتم في أصابعي. إلا أن (كرسپينو) ردّهم قائلاً:

- إرفعوا أيديكم عنه! أدوا واجبكم فحسب بألا تدعوه يهرب منكم.

ثم تقدم وسألني بأدب تسليم سلاحي. وفيما أنا أقوم بذلك تذكرت فجأة اني قتلت (پومپيو) في هذه البقعة بالذات. إقتادوني الى القلعة ووضعوني في غرفة مقفلة بوصفي سجيناً، وتقع فوق السور مباشرة. وكانت هذه أول مرة في حياتي البالغة سبعة وثلاثين سنة، أذوق فيها طعم السجن.<sup>(٢٢٦)</sup>

عندما فكر (بيسير لويجي) بجسامة المبلغ الذي إتهمت بسرقة طلب من والده في الحال أن يمنحه

(٢٢٦) كان إعتقال چليليني في ١٦ تشرين الأول ١٥٣٨.

أياه عند إستحصله. فوافق البابا بطيية خاطر بل وعده أن يساعده في إستحصله. ولهذا فبعد ان بقيت سجيناً ثمانية أيام ولأجل إنهاء القضية أرسلوا بطلبي للتحقيق. جيء بي الى واحدة من القاعات البابوية الكبرى في القلعة ذات المنظر المهيب. والمحققون هم حاكم روما، وهو من (پستوي) ويسمى (بنديتو كونفرسيني Beneditto Conversini) رُسم فيما بعد أسقفاً لـ (بيزي Jesi) ومدير مالية الدولة وقد نسيت إسمه. و(بنديتو دا كالي B. da Cagli) قاضي محكمة الجزاء.

بدأ الثلاثة إستجوابي بلطف زائد، ثم راحو يهددون ويتوعدون بشكل شرس لأنني قلت لهم: - سادتي! إنكم ما إنفككتم خلال أكثر من نصف ساعة تسألوني عن حكاية الثور والديك وغيرها من الحكايات العجيبة. والمرء لا يسعه إلا أن يصف كلامكم هذا بالثرثرة العشوائية. واقصد بالعشوائية إنكم تنطقون بكلام لا معنى له. واقصد بالعشوائية إنكم لاتقولون شيئاً أبداً. ولذلك أرجو منكم ان تخبروني بحقيقة مطلبكم ودعوني اسمع كلاماً معقولاً بدلاً من الثرثرة العجيبة.

عندها لم يستطع حاكم روما الپستوي ان يخفي طبعه العنيف فصرخ: - انك شديد الثقة بنفسك. في الواقع شديد الغرور والإدعاء ولأجعلنك تزحف كالجرود عندما تسمع ما سأقول. وهو ليس بالثرثرة ولا بالعشوائية كما وصفت، وإنما سلسلة من الحجج والبراهين سترغمك على محاولة تفسير مسلكك.

وبداً كالآتي:

"إننا نعلم بصورة مؤكدة بأنك كنت في روما عندما حوصرت هذه المدينة السيئة الحظ. وكنت آنذاك في قلعة سانت أنجلو بوظيفة مدفعي، ولما كنت صانعاً وجواهرياً فإن البابا كليمنت بناء على معرفته السابقة بك ولما لم يكن هناك صائغ غيرك، وضع ثقته بك وطلب منك ان تقوم بقلع الجواهر التي يحتويها تاجاه الباباويان وحلله الكهنوتية وخواتمه. ثم طلب منك بناء على ثقته بك أن تخطط هذه الجواهر في حواشي وبطانات ثيابه التي يرتديها هذه الجواهر. وفي أثناء قيامك بهذا العمل إحتفظت لنفسك بقسم منها في غفلة من قداسته، مما تبلغ قيمته ثمانين ألف كراون. وإنك أفشيت سرّك هذا لأحد عمالك متباهياً وهو الذي أخبرنا بالحادث. ونحن الآن نأمرك بكل صراحة بتسليم الجواهر أو قيمتها وسنخلي سبيلك."

لما سمعت هذا لم أجدني إلا وأنا أنفجر مقهقهاً. ثم وبعد ان تمالكت نفسي، قلت: - اني اشكر الله لأنه وقد شاءت إرادته أن أسجن لأول مرة، لم يشأ أن أخذ بجريرة تافهة مما يقع فيه الشباب عادة نتيجة نزقهم وطيشهم. ولو كان ما زعمتموه صحيحاً. فلا جناح علي ولا يمكن أن توقع بي عقوبة دينية لأجله، لأن القانون في ذلك الظرف كان قد أوقف العمل به ولذلك بإمكانني التخلص من المسؤولية بتقديم هذا الدفع وكموظف رأي من واجبه حراسة هذا الكنز للكنيسة المقدسة الرسولية حتى تسنح لي الفرصة لإعادته إلى بابا صالح - أو في الواقع الى الرجل الذي طلبه مني وهو أنت، في حالة ما إذا كانت القصة صحيحة.

ولم يدعني أكمل دفاعي فقد قاطعني الحاكم البيستويي المخرف بغضب:

- ضعها في أي قالب كلامي تريده يا بنفنونو، فما نسعى إليه هو إستعادة مالنا. فعجّل به وإلا ستلقى ممّا أكثر من الكلمات.

وتهبياً للنهوض والإصراف، فقلت:

- اني مازلت تحت الإستجواب ايها السادة. ولذلك أرجو ان تفرغوا منه، واذهبوا بعدها حيث شئتم.

فعاودا الى مقاعدهم حالاً. إلا أنهم كانوا يتميزون غيظاً مني. واطهروا ما يفيد بأنهم سمعوا مني الكفاية وانهم مقتنعون تقريباً بحصولهم على كل ما يريدون معرفته. إلا انني بدأت الكلام بقولي:

- ايها السادة ينبغي لكم ان تعلموا بأنني عشت في روما زهاء عشرين سنة ولم ادخل سجنًا لا فيها ولا في مدينة اخرى...

وهنا صاح الكلب الشرطي المسمّى حاكماً:

- لكنك إرتكبت بعض جرائم قتل...

أجبت:

- أنت تقول هذا لا أنا. وعلى اية حال لو حاول احدهم قتلك، فلا بدّ وأن تدافع عن نفسك مع إنك كاهن. فإن قتلته فالقانون الإلهي سيعذرك ويقدر ظروفك. ولذا فإن شئتم أن يطلع البابا على نتيجة تحقيقكم وإن سمحتم لي بحرية القول فدعوني أوصل دفاعي. اعيد القول إنني عشت في هذه المدينة الجليلة روما زهاء عشرين سنة. وفي خلال هذه الحقبة من الزمن انجزت اعمالاً فنية رائعة. ولما كنت أدري بأن هذه المدينة هي كرسي السيد المسيح، فقد كنت دائماً أوكد لنفسي انه اذا ما اراد أمير دنيوي ان يعتدي عليّ ظلماً فملجأ سيكون العرش المقدس وحاميّ هو نائب السيد المسيح الذي سيدافع عني. اما الآن فعونك أيتها السماء! الى أين أذهب ولمن أشكو؟ أي أمير سيدفع عني غائلة هذه التهمة الغادرة؟ أما كان عليكم ان تكشفوا عن الموضوع الذي خبأت فيه هذه الآلاف الثمانين من الدوقيات قبل القبض عليّ؟ أما كان يترتب عليكم أن تقوموا بفحص سجلات الجواهر التي تحرس دائرة التوقيعات البابوية على الإحتفاظ بها أشد الحرص طوال خمسمائة سنة؟ فإذا وجدتم بعد هذا شيئاً مفقوداً فعليكم عند ذلك أن تضعوا أيديكم على دفاتري وسجلات حساباتي ولا تكتفوا بشخصي. استطيع ان أوكد لكم أن السجلات التي تتضمن قائمة بكلّ جواهر البابا وحليته الكهنوتية ليس فيها شائبة. ولن تجدوا أياً مما يعود الى البابا كليمنت مفقوداً إلا إذا دونت ملاحظة دقيقة عن ذلك. على ان هناك أمراً واحداً. فعندما كان هذا البابا التاعس كليمنت يفاوض الصلح مع هؤلاء اللصوص الإمبراطوريين الذين نهبوا روما وبعثوا على الكنيسة. أقبل شخص يدعى (جيزاري اسكاتينارو (Cesaro Iscatinaro)<sup>(٢٢٧)</sup> إن لم تخني الذاكرة، ليقوم بدور المفاوض وعقد المعاهدة. وبعد أن إنتهى أو كاد من مناقشاته مع البابا المساءة معاملته، أراد قداسته ان

(٢٢٧) لابد وأن يكون جيوفاني بارتولوميو غاتينارا. وهو الشخص الذي بحث معه البابا كليمنت السابع الشروط الممهدة للصلح. وإنتهت بالمعاهدة التي أدت الى إستسلامه وبقائه رهينة في قلعة سانت انجلو على نحو ما تقدم.

يظهر بعض عطف تجاهه فما كان منه إلا أن أسقط من إصبعه خاتماً ألماسياً قيمته نحو أربعة آلاف كراون. فإنحني (إسكاتينارا) والتقطه وأنا واقف. فرجاه الپاپا ان يقبله هديةً منه اكراماً لحاطره. فإذا كانت هذه الألماسة ناقصة فيها إني أخبرتكم بمصيرها على اني اكاد اكون واثقاً بأنها مؤشرة هي الأخرى في السجلات. وعلى هذا يمكنكم الانصراف خجلين من الاسلوب الغاشم الذي اتبعتموه في حملتكم على رجل في وزني. رجل أدى أجلّ الخدمات للعرش الپاپوي وبوسعي القول: لو لم أكن ذلك الرجل الذي ترون. لسهل على جنود الإمبراطور الذين دخلوا الحوزة Borgo إقتحام قلعة سانت انجلو دون ان يلاقوا مقاومة. فكنت انا الذي اسرعت الى المدافع التي تركها المدفعيون وجنود الحامية. (ولم انل عن ذلك اية مكافأة) مستنهباً همة أحد رفاقي النحات (رافايللو دا مونتيللوپو) وكان قد ترك هو الآخر موقعه واخفى نفسه في زاوية حيث وجدته مرتعباً منهياراً. فبثت فيه الشجاعة وبتعاوننا وحدنا قتلنا الكثير من العدو وأجبرناه على التحول الى طريق آخر. وأنا الذي اذقت (إسكاتينارو) طعم ناري لأنه تهاجم على الپاپا وكلمه بلهجة خلت من الإحترام كالملاحدة واللوثريين. ولما حصل هذا أمر الپاپا كليمنت السابع بتفتيش الحصن للعثور على مطلق النار وشنقه. انا الذي جرحت أمير أورانج في رأسه في أسفل خنادق القلعة. الى جانب هذا كم صنعت للكنيسة المقدسة من الحلبي الذهبية والفضية والتحف المكفّته بالجواهر، كم من الميداليات الجميلة والنقود الشهيرة! حسن! اذهبوا واخبروا الپاپا بكل ماقلته. وزيدوا عليه هذا: اما بخصوص جواهره فكلها موجودة عنده، واني لم أنل من الكنيسة غير الجراح والرجم بالحجارة اثناء حصار روما. وقلوا له أيضاً اني ما بنيت أي أمل على أي شيء خلا ما وعدني به الپاپا پولس من مكافأة صغيرة وأخال كلامي الآن واضحاً تماماً بالنسبة الى قداسته وبالنسبة اليكم انتم كهنته".

كانوا ينتظرون نهاية اقوالي وهم مصعوقون بما سمعوا. ثم تبادلوا النظرات وخرجوا مشدوهين. ذهب ثلاثتهم جميعاً معاً الى الپاپا لينقلوا اليه اقوالي. فشعر بالحنج من نفسه وامر بأن تُفحص السجلات فحماً دقيقاً. فتبين للجميع انها كاملة لم يفقد منها شيء. إلا انهم ايقوني حبيساً في القلعة من دون ان يقولوا لي كلمة واحدة. حتى (السنبور پيبر لويجي) فقد اعترف بأنه ارتكب خطأ فاحشاً. وبعدها بذلت كل الجهود الممكنة لإيرادي حتفي. (٢٢٨)

بينما كانت هذه الأحداث تمرّ بي ابلغ الملك فرنسوا بتفاصيل الإجراءات المتعسفة التي إتخذها الپاپا پولس بحقي والظلم الذي آتاه بإبقائي سجيناً. وكان قد أوفد أحد نبلائه سفيراً الى روما وهو السيد (دي مونتلوك de Montluc) (٢٢٩). فبعث يأمره بأن يتقدم بطلب إطلاق سراجي بإعتباري أحد مستخدمي جلالته. كان الپاپا من الدهاة إلا أنه تصرف بخصوص قضيتي تصرف الحمقى السذج. إذ

(٢٢٨) نشر (پرتولوتي) نص المحظر الرسمي للتحقيق. ويستفاد منه ان چليني لم يكن بمثل الصلابة وذلاقة اللسان اللتين وصف بهما نفسه هنا.

(٢٢٩) وفيما بعد اسقف فالنسي Vaence. كان على رأس الوفد الذي أرسل بمناسبة إنتخاب الملك هنري دانجو لعرش بولونيا. وأخوه (بلينز) مارشال مشهور.

كان جوابه لسفير الملك قوله: يجب أن لا يهتم جلالته بشخص مثلي يستفز الناس ويدفعهم الى القتال بالسلاح دائماً. ولهذا فهو ينصح جلالته بأن يسقطني من حسابه لأنه إعتقلني لجرائم قتل وغيرها من الجرائم الكبرى التي إرتكبتها.

فرد الملك على هذا بقوله: إن العدل يسود مملكته والقانون له الكلمة العليا. وهو لا يتردد في معاقبة الخارجين عليه مثلما لا يتردد في إكرام المشاهير والعباقرة والموهوبين ، وأضاف يقول: وبما ان قداسته غير مهتم بخدمات بنقوتو وإنه كان قد تركه يغادر روما فلما وجده (أي الملك) في مملكته سره أن يضمه اليه ويفيد من خدماته. ولذلك فهو يطلب تسليمي له بوصفي واحداً من اتباعه.

سبب لي هذا قدراً كبيراً من الأذى وكثيراً من المشاكل. مع كل ما يعكسه من الخطوة العظيمة التي يتمناها كل أمريء من طبقتي. لقد أثير حنق البابا بهذا وكان يخشى في حالة إخلاء سبيلي ان انشر على الملأ سوء فعله وظلمه الصارخ فأفضحه فضحاً. لذلك صار يفكر في طريقة للقضاء على حياتي دون ان يلحق بسمعته ضرر.

كان محافظ قلعة سانت انجلو مواطناً فلورنسياً يدعى (جيوجيو) وهو حائز لقب فارس ومن أسرة (أوگولينى Ugolini). بذل لي هذا الإنسان الكريم كل ما في طوقه من التسهيلات وأحسن معاملتي بشكل يجعل عن لوصف. لقد تركني حراً أتقل في أرجاء الحصن على هواي بعد أن أعطيته كلمة شرف بألا أحاول الفرار. ولم يكن يجهل مقدار الظلم الذي حاق بي. رغبت منه أن يدعني اخرج من القلعة وأتدبر شؤوني وأعمالي بعد إعطائي ضمانة. فأبى ذلك لأن البابا يأخذ قضيتي مأخذاً جدياً. وقال إنه يثق بكلمتي ثقة تامة لأن الناس أجمعوا على اني إنسان شريف. فأعطيته كلمة الشرف، وسمح لي بمواصلة عملي داخل القلعة بشكل محدود. كنت أتوقع ان يزول غضب البابا بعد تأكده من براءتي فيطلق سراحي إرضاءً للملك، لذلك أبقيت دكاني مفتوحاً. وكان مساعدي (اسكانيو) يأتيني ببعض الأشغال الى القلعة إلا أنني لم أكن في حالة نفسية تؤهلني للعمل الجدي المتواصل. ففكرة بقائي سجيناً دون وجه حق كانت تذيبني مرّ العذاب. مع هذا بثت في نفسي الشجاعة. وشدت من عزمي وجعلت من الضرورة فضيلة.

وثقت عرى الصداقة بالسجانين وبعدد كبير من جنود القلعة، وكان البابا يتناول عشاءه أحياناً في القلعة. وعندئذ ينسحب السجانون من كل مكان وتُفتح الأبواب كلها فتبدو القلعة وكأنها قصر كسائر القصور. ولهذا السبب كان المعتقلون يلازمون غرفهم طوال فترة وجوده وأبوابهم مغلقة عليهم. بإستثنائي فإني أبقى حراً أتجول في أنحاء القلعة.

كثيراً ما نصحني الجنود بالفرار. بل تعهد بعضهم بمساعدتي لعلمهم بمدى الظلم الذي لحقني. فأجيبهم بأنني أعطيت كلمة شرف لمحافظ القلعة، ذلك الرجل الشهم الذي أقدم على الكثير في مجال مساعدتي. وكان بينهم جندي مقدم ذكي جداً. قال لي:

- عزيزي بنقوتو. ألا تدري إن أيّ سجين لا يمكن ان تؤخذ منه كلمة شرف. وهو غير مرغم على المحافظة عليها أو على أي شيء آخر. إفعل ما قلت لك: إهرب من هذا البابا اللئيم وإبته النغل

الذين عقدا النية على إزهاق روحك.

إلا أنني صممت على تعريض نفسي لخطر الموت ولا أخون عهدي مع المحافظ الكريم. فتحملت آلامي مع رفيق لسوء الحظ وهو راهب من أسرة (باللاقيچيني Pallavicini) (٢٣٠). واعظُ لايشقُّ له غبار قُبض عليه بوصفه لوثيرياً. كان من ناحية العشرة نعم الصديق الرفيق. أما من ناحية الدين فهو شرٌّ وغد من الرهبان في الدنيا. لقد مارس كل رذيلة وقبيحة. وكنت معجباً بملكاته ومواهبه إلا أنني كرهت رذائله الحيوانية ولطالما أثبتته عليها. لم يكن يكفُّ قط عن تذكيري بأني غير ملزم بكلمة الشرف التي قطعتها للمحافظ باعتباري سجيناً. وكان جوابي على هذا أنه يصدق على راهب ولكن لا يصدق على رجل. فكلُّ من كان رجلاً وليس راهباً يتحتم عليه أن يحافظ على كلمته مهما كانت الظروف وأينما وجد نفسه. وبما أنني رجل لا راهب، فلن أرجع عن كلمة الشرف البسيطة التي أعطيتها. وبعد أن أدرك أنه لن ينجح في إفسادى بمنطقه القوي وسفسطه الماكرة التي كان يبسطها بحذق ومهارة، فكَّر في إغرائي بطريقة أخرى. وانتظر مرور بضعة أيام كان خلالها يقرأ لي مواعظ لـ(جيرولامو ساقونارولا): إلا أن تعليقاته البليغة عليها كانت أجمل وأجمل من المواعظ نفسها. فسحرتني وأسرتني بحيث أبدت له إستعدادي لتلبية أي طلب له إلا إخلالي بكلمة الشرف. وعندما وجد إنجذابي إليه بهذه الشدة فكَّر في خطة أخرى. وبأسلوب إستدراجي مبطن. سألتني بماذا سأؤسِّل لفتح أبواب ززانتي لو أقفلوها عليّ؟ في حالة ما لو صحَّ عزمي على الهروب؟ فطاب لي أن أثبت لهذا الراهب اللامع الذكاء بأني حادّ الذهن واسع الحيلة أيضاً. فأجبتته إنني بالتأكيد لن أجد أي صعوبة في فتح أشدّ الأقفال تعقيداً. ولا سيما أقفال السجن فهي أسهل من قطعة جبن طرية.

فتظاهر الراهب بالشك في إدعائي، ليدفعني الى إفشاء السرِّ وقال بلهجة ساخرة:  
- إن أولئك الذين عرفوا بالذكاء كثيراً ما أطلقوا مثل هذه الإدعاءات. إلا أنهم يفقدون سمعتهم هذه ولا يستعيدونها البتة عندما يُطلب منهم إثبات مدعياتهم عملياً.  
وأضاف يقول إن ماسمعه مني لا يمكن تصديقه بحيث لو وضعته موضع التطبيق لخسرت ما أتمتع به من صيت. لقد وضعني هذا الراهب على المحكِّ فما وسعني إلا الإجابة بقولي: إنني تعودت الوعد بأقل ما يمكن إنجازه وأفعالي هي أكثر بكثير من أقوالي. وإن ما إدعيت حول المفاتيح هو أسهل شيء في الدنيا عندي ولن أحتاج الى أكثر من كلمات قليلة لأجعله يدرك صحة قولي. ثم إنني قمت دون تفكير وتأمل، بإثبات زعمي بإرأته عملياً كيفية ذلك. وتظاهر بأنه لايهتم مطلقاً إلا أنه إستوعب الموضوع بأسرع ما يمكن وبسعة حيلة لا تُداني.

وذكرت سابقاً أن محافظ القلعة الطيب ترك لي حرية التجوال في أرجاء الحصن ولم يكن يقفل عليّ بابي كالأخرين. كذلك سمح لي بالإشتغال بما أريد سواء بالفضة أو الذهب أو الشمع. وكنت في الواقع

(٢٣٠) عُرف هذا الراهب بأنه أقوى الوعاظ عارضةً ومن أشهرهم. أعتقل في ١٥٣٨ لمدة سبعة أشهر. ولم يكن هذا إعتقاله الأخير.

منهمكاً بضعة أسابيع في عمل طاس وإبريق كردينال (فرارا). إلا أن جو السجن أنهكني حتي أدركني الملل مما أعمل، وعلى سبيل التسرية صرت أعمل بعض التماثيل الشمعية الصغيرة فسرق الراهب شيئاً من هذا الشمع. وأخذ يعمل منه نماذج للمفاتيح بالطريقة التي شرحتها له في ساعة غفلة. وإصطنع له صديقاً وشريكاً من أحد موظفي المحافظ يدعى (لويجي) من أهالي (بادوا). إلا أنه كلف صانع مفاتيح بعملها فقام هذا بالإخبار عنهما. وكان من عادة المحافظ ان يختلف الى غرفتي لتفقدتها. وفي إحدى المرات لاحظ الشمع الذي إشتغل به هو من نفس النوع الذي ضبطه عند الراهب. وهذا أدى به القول:

- لاشك ان بنفنونو المسكين قد لحقه ظلم كبير. إلا أن هذا لا يبرر له الإساءة اليّ بعد عظفي عليه ومنحه إمتيازات خاصة له أكثر مما تسمح لي به وظيفتي.

وأضاف يقول: انه سيطبق أشد الإجراءات بحقي ولن يريني أي عطف مهما قل. وهكذا قفل عليّ غرفتي. وكان هذا من أصعب الأمور على نفسي ومما زاد في الطين بلّة السنة خدم المحافظ التي تناولتني بالقدف والتجريح بعد أن كانوا شديدي الحبّ لي. فوصفوني بناكر الجميل والغادر واللئيم والمعدوم الضمير. وإنبرى لي أحدهم بوقاحة فاقت وقاحات رفاقه ودفعتني براءتي الى إجابته بعدة. وقلت له إنني لم أغدر ولم أنكث بعهدي وإني مستعد للتضحية بنفسي لإثبات ذلك. وإن عاد هو أو غيره الى إلقاء الشتائم في وجهي، فإني سأحاسبهم عليها حساباً عسيراً. فلم يتحمل قولي هذا وأسرع الى غرفة المحافظ ثم عاد يحمل الشمع والنموذج المصنوع للمفاتيح منه. فما ان وقعت عيني عليه حتى أسرعت اقول له إن كلانا على حق. ومن الضروري ان يدعني اكلم المحافظ وسأشرح له حقيقة الأمر. لأنه أهم وأخطر مما يتصورون. فأرسل المحافظ يطلبني في الحال وأنهيت له بالحكاية من اولها الى آخرها. وكانت النتيجة ان ضيق الخناق على الراهب فإعترف هذا بكل شيء ونم عن شريكه الموظف. وكاد الموظف ان يُشنق وحاول المحافظ التستر على القضية إلا انها كانت قد وصلت الى أسماع البابا على انه أفلح في انقاذ موظفه واعاد اليّ حريتي كالأول.

عندما فكرت في القسوة والإجراءات الصارمة التي اتبعت معي في هذه القضية. بدأت أقلب في فكري المسألة. فوازنت الموضوع وقلت لنفسي:

- لو ثارت عاصفة ثانية كهذه. وزالت ثقة الرجل بي فلن أجد نفسي ملزماً بالعهد الذي قطعته له. سأدرس الموضوع قليلاً. وإني لمتأكد بان إجتهادي سيصيبني نجاحاً أكثر مما أصابه ذلك الراهب الوجد.

بعد هذا طلبت تزويدي من الخارج بأغطية جديدة خشنة. ولم أعد الأغطية المتسخة ولما إستفسر عنها خدمني قلت لهم أسقطوها من حسابكم لأنني أعطيتها لبعض الجنود الفقراء. ولو إنكشف الأمر لتعرض خدمني هؤلاء الى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة في عنابر السفن. ولذلك كتم غلامي وخدمتي ولاسيما (فيليجي) أمر الأغطية كتماناً تاماً. بعد هذا قمت بإفراغ فراشي من حشوة القش وإحراقه تدريجياً في الموقد الذي كانت غرفتي مزودة به لحسن الحظ وللسماح لي بأيقاده. ثم بدأت أقطع

الأغطية على شرائط بعرض سبع إنجات. ولما هيات منها ماقدّرت انه يكفي للهبوط به من الإرتفاع العظيم للحصن الى خارج السور. قلت لخدمي إني أعطيت أغطيتي الحشنة وماعدت بحاجة الى أكثر وعليهم ان يزودوني الآن بأغطية ناعمة وإني من الآن فصاعداً سأعيد إليهم المتسخة منها وتنوسي الموضوع كله.

اشار الكردينلان (سانتيكواترو) و (كورنارو) على عمالي وخدمي بإقفال دكاني. وقالوا لي بصراحة إن الپاپا ليس لديه أقل نية في إخلاء سبيلي. وإن الإهتمام العظيم الذي أبداه الملك فرانسوا بي قد أضرب بي أكثر مما نفعني. ففي آخر رسالة شفوية عن الملك أبلغها (مونسور دي مورلوك di Mor-luc). قال ان على الپاپا ان يحيل قضيتي الى القضاة المدنيين العاديين فإن إرتكبت جرماً فبإمكانه معاقبتي وإن كنت بريئاً ولم أقترب ذنباً فالعدالة تقتضي بإطلاق سراحي. هذا القول أغاظ الپاپا بحيث أبعد عن رأسه أي فكرة تساوره حول إخلاء سبيلي. ولكن الذمة تقضي عليّ أن أعترف بأن المحافظ لم يأل جهداً في مساعدتي.

ولما رأى خصومي أن دكاني قد أقفلت أخذوا يتجرأون على عمالي وخدمي ولم يكن يمرّ يوم واحد دون أن يعتدوا عليهم بالسبّ والسخر منهم وبأصدقائي الذين يأتون لزيارتي في السجن. وفي واحدة من هذه المناسبات طلب مني إسكانيو الذي إعتاد زيارتي مرتين في اليوم- أن أسمح له بخياطة سترة صغيرة من معظفي الذي لم ألبسه إلا مرة واحدة في مسيرة يوم العيد وهو من الساتان الأزرق. فأجبتة ليس هذا بالوقت والمكان المناسب لإرتداء مثل هذه الثياب. فتألم الفتى لرفضى إعطاءه هذا الشيء التافه الحقيق، وصرّح إنه يريد العودة الى مسقط رأسه (تاليباكوزا). فثار غضبي وقلت سأكون سعيداً لو تخلصت منه. فحلف انه لن يعود الى زيارتي بعد الآن. وكنا أثناء هذه المشادة نتمشى حول سور القلعة. وإتفق ان المحافظ كان يتجول هناك وعندما إقتربنا منه قال لي (إسكانيو):

- إني سأتركك إذن. نهائياً.

فأجبت:

- أتمنى أن تكون ثابتاً على قولك وأن يكون هذا نهائياً وسأخبر الحرس أن لا يسمحوا لك بالمجيء هنا بعد الآن.

ثم إلتفت إلى المحافظ ورجوت منه بإلحاف أن يأمر الحرس بعدم إفساح السبيل له الى داخل القلعة مرة أخرى وقلت:

- إن متاعبي تكفيني وهذا الغلام السخيف الصغير يأتيني ليزيد فيها. لذلك أرجوك ياسيدي أن تمنعه من زيارتي.

وقد تألم المحافظ جداً لهذا لأنه كان على علم ودراية بمواهب (اسكانيو) العظيمة، والى جانب هذا فقد كان وسيم الوجه بحيث بدا من المستحيل على من يتطلع اليه أن لا يهفو قلبه له. إنصرف الفتى والدموع تجول في عينيه. ولا يفوتني ان اذكر انه كان يحمل سيفاً قصيراً كان أحياناً يخفيه في طياته ثيباه.

بعد تركه القلعة محزوناً ووجهه مخضّل بالدموع. حكمت الصدف بأن يلتقي بواحد من ألدّ خصومي وهو (جبرونيمو)<sup>(٢٣١)</sup> البيروجي الذي ذكرته سابقاً مع شخص آخر يدعى (مكييلي Michele) وكلاهما صائغ. وكان (مكييلي) هذا صديقاً للبيروجي وعدواً لإسكانيو فقال له:

- مالذي يبكي اسكانيو؟ لعل أباه توفي؟ أنت تدري ان أباه في القلعة.  
فصاح اسكانيو:

- انه حي! أما أنت فأبشر ان منيتك حانت الآن...

وشهر سيفه وضربه ضربتين موجّهتين الى رأسه. بأولاهما جندله على الأرض وبالثانية قطع له ثلاث اصابع من يده اليميني وإن كان الهدف رأسه. وتركه ملقى على الأرض كأنه ميت. وأعلم الپاپا بالحادث فوراً، فقال وهو يتلظى غيظاً:

- مادام الملك يريد ان يحاكم فأذهبوا بلّغوه بأن يهيء دفاعه خلال ثلاثة أيام.

وُضعت أوامر الپاپا موضع التنفيذ في الحال. لكن المحافظ الشهم أسرع من فوره الى الحصن. ودافع عني دفاعاً بارعاً فجنيني سحق الپاپا وانقذ حياتي. وهرب (اسكانيو) الى موطنه (تالياكوزا)، وكتب لي من هناك يستغفرني ألف مرّة. وقال انه أخطأ بحقي في زيادة متاعبي. وأقسم انه في حالة ما تمّت مشيئة الله وخرجت من السجن فإنه لن يتركني. فكتبت له اقول بأنني سأرسل في طلبه تماماً عندما أخرج من السجن بإدارة الله. وعليه خلال ذلك ان يواصل تعلم الصنعة. في فترة معينة من كل سنة تنتاب المحافظ إختلالات عقلية تسلمه الى نوبة من الجنون. وعندما تبدأ فيه يروح يتكلم ويتكلم بل ويهذي دون توقف. والوهم فيه يختلف بين سنة وأخرى. فمرّة يتنخيل نفسه جرة زيت. وفي سنة ثانية انه إستحال الى ضفدع ويقلده بالقفز والنطّ مثله. ومرّة ثالثة يتراءى له انه ميت ويجب ان يُهال عليه التراب ويدفن. في كل سنة يستولي عليه وهم من هذه الأوهام. وفي هذه المرة الأخيرة بدأ يتصور نفسه خفاشاً وكان حين يتمشى يخرج من فمه صاصاً عالية مثل صوت الخفاش ويحرك يديه وجسمه كأنما يريد أن يطير. فإذا شعر الأطباء ومرؤوسه بإقتراب النوبة حاولوا إلهاءه وصرفه عنها بمختلف الوسائل ولما وجدوا انه يستأنس بيّ ويرتاح الى أحاديثي صاروا يستدعونني ويرجون مني ان ابقى ملازماً له. فأظلّ مع هذا البائس أحياناً اربع او خمس ساعات دون ان اقف لحظة عن الكلام او اقطع مسير الحديث. وكنت اتناول طعامي على مائدته وانا أجلس قبالته. فلا يتوقف عن الكلام ولا يدعني أسكت. وكنت أكل خلال هذه المحادثات بشهية عظيمة. اما البائس فلا يأكل ولا ينام. وبنتيجة هذا أصابني إنهاك وتعب شديدين حتى لم يبق عندي طاقة. أحياناً كنت الاحظ نظرة مخيفة في عينيه. واحدة تنظر الى هذه الجهة، والأخرى الى الجهة الأخرى.

سألني يوماً هل وجدت في نفسي هوى الى الطيران؟ فأجبت اني حاولت وفعلت كل ما هو صعب اجراؤه على البشر. فأما بخصوص الطيران فقد قلت له بأن الله قد انعم عليّ بتكوين متين لدن ملائم للعدو والقفز مسافات كبيرة. وبإمكانني كذلك إستخدام براعة يدي، ولذلك فإنني بالتأكيد قادر على

(٢٣١) هو عين الصائغ الذي وشى به وأخذ معه الى فرنسا.

الطيران.

فراح يسألني عن كيفية ذلك وماهي وسائلتي. فقلت لو تأملنا معشر الطير وما يعينه على الطيران، بفكرة تقليدها بوسائل فنية، فلست أجد في هذا المضمار خيراً من تقليد الخفاش. ما ان سمع المسكين إسم الخفاش المرتبط بأوهامه في تلك السنة حتى أخذ يصرخ:  
- إنه يقول قولاً صحيحاً! هذا هو الصحيح، هذا هو بالضبط!

ثم إلتفت الي وقال:

- بنقنوتو! لو سنحت لك الفرصة. أتجد في نفسك الشجاعة على الطيران؟

فأجبت لو انه منحني حريتي فيما بعد فإنني لقادر على الطيران حتى (پراتي) بجناحين من الكتان المشمع.

فأجاب:

- وان نفسي لتنهفو الى أن أأخذو حذوك. ولكن بما أن الپاپا قد أصدر اليّ أوامر مشددة بأن أحرصك كما لو كنت عينيه وبما اني أعلم إنك شيطان واسع الحيلة في تخطيط فرارك. فإنني سأحبسك خلف مائة قفل لأحول بينك وبين الإفلات مني.

فبدأت أتوسل به مذكراً أياه بأن الهروب لا يصعب عليّ ولكني أعطيته كلمة شرف بأني لن أخون ثقته. وإستصرخته بحمية الله. وبالنظر الى كلّ ما حبانني من عطف بالأ يزيد من بؤسي بؤساً وأن لا يضيف الي ما أقاسي إجراءً تعسفياً كهذا. وفيما انا أتكلم راح يصدر أوامره بأن أوضع في القيد وأخذ الى زنزانة محكمة الأبواب والمغاليق. ولما أدركت عقم محاولاتي معه وان الأمر مبتوت فيه قلت بمحضر من كلّ مرؤوسيه بأن لا يدخر أي جهد في إحكام السجن عليّ وان يتوخى كل الدقة في تشديد الحراسة لأنني سأبذل كلّ ما في طوقني لأهرب. ثم أخذوني ووضعوني في زنزانة إنفرادية وإتخذوا كل الإحتياطات الدقيقة بشأني.

بعد هذا بدأت أفكر في خطة لتحقيق فراري. ما أن أقفلوا الباب عليّ حتى بدأت أقوم بفحص الزنزانة. وبعد أن إستقرّ فكري على طريقة للخروج بدأت أفكر في كيفية الهبوط من سور الحصن المرتفع وهو البرج الضخم كما يدعى، فقممت بخياطة جميع الأغطية الجديدة التي كنت قد عملتها شرائط، على هيئة حبل ثم رحت أقدرّ الطول الذي يلزمي منها للبلوغ الى الأرض. بعد هذا أخذت كلابتين من أحد حراس القلعة وهو مواطن (ساقويي). هذا الرجل كان من واجبه الإشراف على المراحيض والأنابيب وكان يزاول النحت بالحشب على سبيل الهواية وعنده عدد كبير من هذه الكلابات وبينها كلابة كبيرة محكمة. وجدت أنها تفي بغرضي فأختلستها منه وأخفيتتها في قش الفراش. ولما حان وقت إستخدامها أخرجتها وأخذت أعالج قلع المسامير التي تشد مفاصل الباب بخشبة. وكان الباب مزدوجاً ولهذا لم تكن رؤوس المسامير المدببة تظهر من الجهة الثانية. وكان قلع كل مسمار منها يقتضي مني جهداً خارقاً. إلا أنني حققت نجاحي. بعد أن نزعت المسامير الأول جويته بمشكلة الإحتيال على إخفاء الفراغ المتخلف عن عين الفاحص. ثم وفقت الى ذلك بمزج قليل من برادة الحديد الصديء

مع الشمع وعمل تقليد للمسامير الطويلة التي كنت أقلعها من هذا المزيج وقد أتقنت لونها تماماً. وهكذا رحلت أقلد كل مسمار أنزعه وأضع التقليد في محل المسمار الذي أخلعه، على إنني تركت المفصل مسمرهً بألواح الباب بمسامير عتيقة أعدت دقها في المفصل المشدودة الي الباب بشكل متخلخل. وقد أورتني هذه العملية همماً كبيراً وقلقاً لا يمكن وصفه. لأن المحافظ كان يحلم كل ليلة بأني نفذت ما إعتزمته وفررت. فيرسل رجاله بين الفينة والفينة لتفقد زنانتني. ومن هؤلاء سجان إسمه وأخلاقه ينطبقان على الشرطي. ويدعى (بوزا Bozza) ولم يكن يأتي إلا ومعه آخر يدعى (جيوفاني) ويلقب بـ(بيدينيوني Pedignone) وكان هذا جندياً، أما (بوزا) فهو خادم. لم يدخل جيوفاني زنانتني مرةً واحدة دون إهانتني وكان من سكنة منطقة (براتو) يشتغل عند عقاقيري. وكان كل يوم يقوم بفحص المفصل في الباب وكل أنحاء الغرفة فحصاً دقيقاً جداً. وكان من عاداتي القول تعقيباً:

- أنعموا النظر وليكن فحصكم دقيقاً لأنني صممت على الفرار مهما كلف الأمر. وقد جعلت كلماتي هذه منهم أعداء الداء لذلك بالغت في إخفاء أدواتي ووسائلني في الفراش- وأعني بها الكلابتين وخنجر كبيراً ممتازاً وما شاكل ذلك، مخفية بكل عناية مع الحبل داخل الفراش. وكنت أقوم فجر كل يوم بتنظيف غرفتي بنفسني وكنسها وتنظيمها بشكل مريح فأنا بطبعي أحب النظافة والنظام. بعد أن أفرغ من هذا أعمد الى تسوية فراشي وأرتبه وأنثر فوقه أزهاراً، كان يأتي بها رجل (ساقويي) وهو المكلف بالإشراف على الأنايبب والمراحيض. وله ولع شديد بالحفر على الخشب ومنه إختلست الكلابتين التي إستعملتها لقلع المسامير من المفصل. وأعود الى الفراش فأقول عندما يدخل (بوزا) و (بيدينيوني) الغرفة أبتدرهما محذراً أيهما من الإقتراب من فراشي لئلا يلوثاه أو يوقعا الإضطراب به. في بعض الأحيان يعمدان الى لمسه لمسة خفيفة نكاية بي وإعاطة فأصبح:

- قبّحكما الله من أذدر الجبناء. سأختطف سيف أحدكما وأعمل فيكما طعناً وأثخنكما جراحاً لن تنسيهاها بوقت وجيز. أتظنان انكما جديران بلمس فراش رجل من وزني. لن أبالي بالمخاطرة بحياتي بعد أن أنزع حياتكما أولاً. ألا أغربا عن وجهي وأتركاني لآلامي وبؤسي ولانضييفا الى ما أحمله منها قدراً آخر وإلا أريتكما ما يمكن أن يقدم عليه اليأس. وينقلان أقوالي هذه للمحافظ فيصدر إليهما أمراً قاطعاً بالأا يقربا فراشي وأن لا يدخل عليّ بسيفيهما. لكن يجب ان يراقباني مراقبة دقيقة. بعد أن تأكدت ان الفراش سيبقي في مأمن أيقنت بأني إنتهيت من كل شيء. فالخطة تتوقف على ذلك.

في ليلة يوم عيد، كان المحافظ في أقصى حالات هوسه. فلم يكن يخرج كلام من فمه غير ترديده: "إنه خفاش، وإذا سمعوا ان بنفوتو قد طار من القلعة فليدعوه يلحق بي طائراً لأنه أفضل مني بالطيران الليلي وبإمكانه أن يدركني ويمسكني. ويردد كذلك قوله: - بنفوتو خفاش مزيف وأنا الخفاش الحقيقي. وبما ان حراسته قد عهد بها إليّ فدعو أمره لي

وسأقبض عليه.

ظل يعاني هذ الحالة عدةً من الليالي فأرهب مرؤوسيه وأنهكهم وكانت انباؤه تصلني بمختلف الوسائل. ولاسيما الرجل الساقويي الذي كان صديقاً حميماً. في ليلة العيد هذه قررت تنفيذ خطتي بالهرب مهما كلف الأمر. فتوجهت أولاً إلى الله وبكلّ حرارة دعوته إلى نصرتي وردّ الأذى عني في هذه العملية الخطرة. بعد هذا أخرجت أدواتي وبقيت أتأهب طول الليل. وقبل إنبلاج الصبح بساعتين قلعت العوارض الحديدية بأعظم مشقة إلا أن الباب والمزلاج أعجزاني وأعياني أمرهما، فاضطرت إلى أن أنشر الخشب وبالأخير نجحت. حملت الحبال التي كنت قد لفتتها حول قطعتين من الخشب مثل كبةً الخيوط وتوجهت نحو مراحيض البرج. ولمحت هناك أجرّتين في السقف فعلوتهما بكل سهولة. كنت أرثدي صدراراً وسروالاً ضيقاً من قماش أبيض وحذاءً طويلاً من الجلد. وضعت خنجري في فردة منه. ثم عقلت رأس أحد الحبلين بشكل أنشودة حول قطعة من الحجر القديم بارزة من الجدار بمقدار أربع أصابع. بعد هذا رفعت انظاري إلى السماء متوجهاً إلى الله بهذا الدعاء.

- سيدي وإلهي هبني العون والقوة لأنك تعلم اني على حق وأني أريد لنفسى النجاة.

قلت هذا وتركت جسمي ينزلق إلى الأسفل ببسر وهوادة معتمداً على قوة ساعدي، إلى أن مسّت قدماي الأرض. لم يكن ثم ضوء قمر إلا أن السماء كانت صافية الأديم تماماً. ما إن إستقر جسمي على الأرض حتى رفعت ناظري إلى أعلى أتأمل في الإرتفاع الكبير الذي هبطت منه بهذه الجرأة. وخُيل لي بأني أصبحت حراً فسرت بقلب خال من الهم إلا أنني كنت واهماً. لان المحافظ كان قد أقام في هذه الجهة جدارين عاليين يحتويان الإسطبل وبيت الدجاج. وكان الموضع مقفلاً بمزلاجين ثقيلين من الخارج. لما وجدت سبيل النجاة مسدوداً في وجهي، غلا دمي في عروقي ورحت أسير جيئةً وذهاباً أتلمس لنفسى مخرجاً وأفكر في وسيلة للخروج من المأزق، عثرت بعارضة خشبية مغطاة بالطين فسحبتهما بجهد كبير ثم أسندتها إلى الجدار وتسلفتها مستخدماً أقصى ما لدي من طاقة حتى علوت الجدار. إلا أن الجدار كان حاداً الحافة ولذلك تعذر عليّ أن أستجمع القوة الكافية لجرّ الخشبية إلى الأعلى ورائي. لذلك قررت إستخدام كبة الحبال ثانية. وكنت قد تركت الأولى مشدودة بأعلى البرج. ربطت قطعة من الحبل حول الدعامة وإنزلت بها إلى الجهة الثانية من الجدار مستخدماً كل ما تبقى عندي من طاقة. شعرت بقواي تخور وأصيبت راحتي يدي بتسلخات وأخذ الدم ينزف منهما. جلست لأصيب بعض الراحة وغسلت يدي ببولي. بعد أن إلتقطت أنفاسي وإستجمعت قواي توجهت بسرعة إلى الجدار الثاني الذي يواجه (براتي) ثم رتبت حزمة الحبال معتمداً شداً إحدى نهايتيها بالسور كي أستطيع الهبوط من هذا الإرتفاع الذي يقلّ عن الإرتفاع الأول ويعين الطريقة. ما إن أكملت إستعدادي بالحبال حتى لمحت أحد الحراس خلفي يقوم بواجب الحفارة. وبإدراكي ان خطتي مهددة وحياتي معرضة للخطر، قررت مواجهته. ولما تبين عزمي الثابت في عيني وأنا أتقدم منه والخنجر مشرع في يدي، نكص على عقبيه مسرعاً. لمحت حارساً آخر ويدا وكأنه لا يريد ان يراني. فعدت إلى لفةً حبالى وشدت طرفها في مسنن السور ونزلت هابطاً.

لا أدري ما حصل بالضبط لي في آخر مرحلة من الهبوط. ربما خيل لي أنني قريب جداً من الأرض ولذلك أفلت الحبل لأصل إليها بقفزة. أو لأن يدي قد كلتتا بحيث كان الجهد أكثر مما أتحمّل. فقد سقطت وبسقطتي إصطدم قذال رأسي بالأرض الصلبة ففقدت الوعي. وبقيت كذلك منطرحاً أكثر من ساعة ونصف الساعة على ماقدّرت. وبعد تباشير الصبح عمل هواء الفجر الرفيق النقيّ على إفاقتي قبل بزوغ الشمس. إلا أنني لم أستجمع قواي العقلية وشعرت وكأن رأسي منفصل عن بقية جسمي. وإنني في شاطيء الأعراف (المطهر) ثم بدأت أستعيد رشدي شيئاً فشيئاً. ولاحظت أنني خارج القلعة فتذكرت فجأة كل ما حصل وكل ما أقدمت عليه. وأحسست بصدمة رأسي قبل إدراكي إن ساقني مكسورة. مددت يدي الى قذالي ثم سحبتهما وهما ملطختان بدمائني. ثم فحصت نفسي بدقة، وخلصت الى أنني لم أصب بأذى كبير. إلا أنني لما حاولت النهوض وجدت الكسر في ساقني اليميني فوق الكعب بثلاثة إنجحات، أو نحوها. ولم يفزعني هذا وأخرجت خنجري وجرّته من غمده الذي كان ينتهي بكرة صلبة كبيرة وكانت هي سبب كسر عظمة ساقني لأن سقطتي كانت في الجهة التي أخفيته فضغطت الكرة على العظم وفطرتة.

ألقيت بالغمد جانباً وقطعت بالخنجر جزءاً من الحبل وربطت به سائقي ربطاً محكماً. ثم أخذت أزحف على أربع والخنجر في يدي قاصداً مدخل المدينة وقد وجدته موصداً. على أنني لاحظت صخرة كبيرة تحت الباب الذي لم يكن قد حُشر وثُبت بشكل محكم. فحاولت زحزحتها فإستجابت ليديّ وتحركت ثم أخرجتها من مكانها بسهولة وزحفت الى الداخل من خلال الحفرة التي أحدثتها. كانت المسافة بين موضع سقوطي من فوق السور وبين المدخل الذي نفذت منه الى روما تربو على خمسمائة ياردة.

وفي داخل المدينة صرت هدفاً لهجوم عدد من الكلاب الضخمة التي أخذت تصول عليّ بشراسة وتعصّبي. وتكرر ذلك عدة مرات فضويقت كثيراً واضطرت الى قتل أحدها بطعنة من خنجري فأطلق عواءً أليماً. فلحقت به البقية مبيتعدةً بحكم غريزتها، وعدت احبوا مجاهداً للوصول الى بيعة (ترانسپورتينا).<sup>(٢٣٢)</sup> ثم بلغت رأس الشارع الأخير الذي يمتد الى (سانت انجلو) إخترت الطريق الذي يؤدي الي كاتدرائية بطرس الرسول، لأن نور النهار أخذ ينتشر حولي ولإدراكي خطورة موقعي، ثم لقيت سقّاء يسوق حماراً محملاً بفناطيس الماء فناديته ورجوته ان يحملني ويتركني عند درج الكاتدرائية وقلت له:

- اني سيء الحظ. حاولت الهبوط من النافذة بعد مغامرة غرامية. وعند سقوطي إنكسرت ساقني. إن البيت الذي تركته هو لأسرة بارزة وإن حياتي في خطر عظيم وقد أقطع إرباً. لذا أرجو منك أن تحملني بسرعة وسأعطيك كراوناً ذهبياً.

وهزرت صرة مالي التي كانت مملوءة فهرع اليّ ورفعني وكان مسروراً جداً بحملي على ظهره حتى الدرجات العليا للبيعة. وأشرت إليه بأن يتركني حيث أنا ويذهب الى حمارة وواصلت الزحف على

(٢٣٢) كنيسة صغيرة بين سانت انجلو وكاتدرائية بطرس. وهي مكرسة لقديسة بهذا الاسم.

أربع متجهماً إلى منزل الدوقة<sup>(٢٣٣)</sup> وهي زوج الدوق (أوتافيا) و بنت الإمبراطور غير الشرعية. وكانت من قبل تحت الدوق إلساندرو دوق فلورنسا.

ذهبت إليها ، لأنني كنت واثقاً بأنني سأجد حولها عدداً كبيراً من أصدقائي الذين رافقوها من فلورنسا . كذلك كنت أتمتع بمكانة وحظوة عند هذه الأميرة العظيمة بسبب إشادة محافظ القلعة بي . فقد أخبر البابا على سبيل الشفاعة بي أنني وفرت على روما ما يوازي ألف كراون من الضرر عند دخول الدوقة مدينة روما بمنعني من وقوعه . فما حصل هو هذا : إن المطر يوم قدوم الدوقة كان يندر بعاصفة هائلة توقع بالمدينة كثيراً من الضرر وإستولى القلق على المحافظ ولم يدر ما يصنع فرفعت معنوياته بتوجيه عدة قطع من المدافع الثقيلة نحو الرقعة التي تتجمع فيها أكثف الغيوم ومن حيث ينصب المطر بغزارة فما إن أطلقت المدافع حتى توقف نزول المطر . وبعد الرشقة الرابعة إحتبس المطر تماماً وإنقشعت الغيوم وظهر قرص الشمس وبهذا كنت السبب (على حد قوله) في مواصلة الإحتفالات العامة بالمناسبة ونجاح المهرجان . ولما سمعت الدوقة بالحكاية عقبته قائلة :

- إن (بنثوتو) كان حد الفنانين الذين يقدرهم زوجي السابق أليساندرو وينزلهم في نفسه منزلة رفيعة . وأنا أيضاً لن أنسى أمثاله من الرجال إن وجدت مناسبة لمساعدتهم .

كما أنها ذكرتني أيضاً عند زوجها الحالي الدوق أوتافيو . ولهذا السبب قصدت سموها مباشرة . وكانت تسكن قصرأ جميلاً جداً في (بورگو فيكيو Porgo Vecchio) وقد قدرت أنني سأكون في أمان تام عندها . لأن البابا نفسه سيعجز عن مدّ يده إليّ . لكن لما كان ماقت به من عمل يفوق طاقة البشر فقد شاءت إرادة الله لخيري ان يكبح جماح غروري بإنزال عقاب بي يفوق سالفه . وما حصل هو أنه فيما كنت أزحف على أربع فوق الدرج لمحني أحد خدم كردينال (كورنارو) وعرفني حالاً . وكان الكردينال يشغل القصر في تلك الفترة ، فأسرع إليه وأيقظه من نومه قائلاً :

- سيدي الكلي الاحترام . إن صديقك (بنثوتو) هنا . لقد فرّ من القلعة وهو يزحف ملطخاً بالدماء . وبحسب الظاهر إن إحدى ساقيه مكسورة . ونحن لاندرى الى أين يريد التوجه .

فبادره الكردينال حالاً :

- اسرع . احمله اليّ .

عندما جيء بي اليه طمأنني على نفسي . ثم إستقدم حالاً أمهر الأطباء في روما فتوفروا الى معالجتني كان أحدهم من (بيروجيا) وإسمه (جاكومو) وهو جراحى من الطبقة الأولى . فجبر الساق بدقة وإتقان ثم شدّها . وفصدني بنفسه وكانت عروقي متورمة بشكل غير إعتيادي وأراد أن يفتح فتحةً واسعة نوعاً ما فتدقق الدم بقوة فأصاب وجهه وتلطح بالدم الغزير حتى إضطر الى التوقف عن علاجي وإعتبر ذلك نذير شؤم ولم يستمر إلاّ بكثير من التردد . والحق يقال انه اراد تركي اكثر من مرة لعلمه ان العقاب يهدد من يعالجني أو من يواصل معالجتني على الأقل . ووضعني الكردينال في غرفة سرية

(٢٣٣) أميرة النسا : تزوجها الدوق ألساندرو لتقوية مركزه . وبعد إغتباله تزوجت الدوق أوتافيو في مدينتي إبن أخ البابا يولس الثالث وكان دخولها روما في الثالث من تشرين الثاني ١٥٣٨ .

وإنطلق الى البلاط حالاً وهو ينوي إلتماس البابا العفو عني وإطلاق سراحي.  
كانت روما في تلك الأثناء تغلي كالمرجل، والناس في هرج ومرج وإنفعال فقد لوحظت الحبال  
الكتانية متدلّية من مسنّات البرج الكبير في القلعة. وتوافدت جموع غفيرة لمشاهدة هذا المنظر  
العجيب. أما المحافظ فقد إنتابته نوبة جنون شديدة. وأصرّ متحدياً موظفيه على الطيران من فوق  
السور الى الأسفل بوصفه الوسيلة الوحيدة للقبض عليّ كما تخيّل. وفي أثناء ذلك سمع (روبرتو  
چوچي) والد (السيد باندولفو) بالنبأ. فذهب الى القلعة ليتحقق الأمر بنفسه ثم إنقلب الى قصر  
الكردينال كورنارو، فقصّ عليه هذا الحكاية برمّتها. فأعلمه الكردينال بأنني موجود الآن في إحدى  
غرف القصر والأطباء يقومون بمعالجاتي. هذان الرجلان الغيوران قصدا البابا سوية وركعا أمامه فلم  
يدعهما ينطقان بحرف إذ إبتدرهما قائلاً:

- إني أعرف ماتريدان مني.

فقال السيد (روبرتو پوچي):

- أيها الأب الأقدس إننا نطلب حرية هذا الرجل السيء الحظ، بوصفه عملاً من أعمال البرّ والعطف.  
انه يستحق بعض العطف بسبب مواهبه، فضلاً عن انه اظهر من الشجاعة والإقدام والذكاء مايندر  
وجوده لدى البشر. إننا لاندرى نوع الجريمة التي حملت قداستك على إلقائه في السجن هذه المدة  
الطويلة. فإن كانت كبيرة فقداستك ذات الجلالة والحكمة تنسح لغرض ارادتك على كل الأشياء،  
أما إذا كانت مما يمكن العفو عنه فإننا نلتمس ذلك إكراماً لنا.

شعر البابا بشيء من الحجل. وقال اني اعتقلت "بناءً على رجاء تقدم به أحد رجال بلاطه. فقد  
تحدى كل الحدود في اعتداءاته وحدة طباعه. ومع هذا ولمعرفتنا بمواهبه العظيمة وكذلك لأننا نريد  
إبقائه عندنا. فقد رتبنا بأن نحويه بعطفنا وكرمنا بحيث لاندع له سبباً للعودة الى فرنسا. اني لشديد  
الألم بسبب ما أصابه من أذى شديد، قولاً له إن البابا يرجو له الشفاء فإذا تمّ له ذلك فسنعوضه خيراً  
عما عاناه.

أسرع الرجلان الكريمان اليّ بهذه البشرى السارة من البابا.

في أثناء ذلك بدء وجهاء روما وأشرفها يتقاطرون لزيارتي من كلّ عمر وطبقة. وأصرّ محافظ  
القلعة وهو في أحد نوبات جنونه الحادة بأن يحمل الى البابا وهناك أخذ يئن متوجعاً ويقول ان لم  
يعدني قداسته الى السجن فإنه يرتكب بحقه خطأ كبيراً وأردف قائلاً:

- لقد هرب مني وحث بكلمة الشرف التي قطعها لي! أنظر، أنه طار عني في حين وعدني بأنه لن  
يحاول ذلك.

فأطلق البابا ضحكةً عالية وقال له:

- إذهب، إذهب الآن، وسأتيك به مهما كلف الأمر.

فقال المحافظ:

- إبعث إليه بحاكم روما ليسأله عمّن سهّل له الفرار. فإن كان واحداً من رجالي فسأتولى شنقه في

الموضع الذي هبط منه (بنقنوتو).

بعد إنصراف المحافظ إستدعى الپاپا الحاكم وقال له باسمًا:

- انه لشجاع حقًا. ومقام به يشير الإعجاب حتى إني أقدمت على نفس العملية من الموضع نفسه عندما كنت شابًا.

كان الپاپا يقول الحقيقة. فقد جيء به الى القلعة معتقلًا لقيامه بتزوير رسالة پاپاوية عندما كان يتولى منصب الأستاذ المعيد في معهد (پاركو ماجيوري)<sup>(٢٣٤)</sup>. وقد أبقاه الپاپا ألكساندر معتقلًا مدة. ولما كانت جريمته محلّة بالشرف فقد قرر قطع رأسه. إلا أنه أجّل إنفاذ ذلك بعد عيد القربان المقدس. وعلم (فارنيزي) بما بيّت له. فإتصل به (پيبيترو كيافيلووزي (Pietro Chiavelluzzi) الذي هبأ له بعض الخيل ورشا حراساً من القلعة. وفي يوم عيد القربان بالذات أثناء ما كان الپاپا يتصدر الموكب الديني والناس في شاعل، وُضع (فارنيزي) في سلة كبيرة وأدلي من الحصن. ولم يكن السور الخارجي قد أُقيم بعد ولذلك لم يعان في هروبه ما عانيت من المشقة. فقد كان البرج قائماً وحده. كذلك كان إعتقاله جزاءً وفاقًا. أما إعتقالي فهو ظلم صارخ. وكان يريد من ذكر هذا التباهي أمام الحاكم بشجاعته وإقدامه على المغامرات أيام كان شابًا. غير مدرك انه يكشف بهذا عن طبيعته الإجرامية.

قال للحاكم:

- إذهب إليه واحمله على الإعتراف باسم من عاونه وسهّل عليه سبل الفرار ولا يخشى على شريكه العاقبة مهما كانت صفة ذلك الشريك فيكفيه أننا عفونا عنه ويمكنك أن تؤكّد له ذلك.

جاءني الحاكم وقد رُفّي قبل يومين الى رتبة الأسقفية ونُصّب أسقفًا لـ (بيزي Jesi) - وقال لي:

- عزيزي (بنقنوتو) إن كانت وظيفتي تملأ الناس رعباً فإني جئت لأطمئنك. لقد جئت منفذاً وأمر الپاپا الصريحة الذي أخبرني بأنه هو الآخر كان قد فرّ من القلعة إلا أنه لم يحقق ذلك إلا بمساعدة العديد من الأصدقاء والشركاء الذين سهّلوا له الأمور ولولا ذلك ما نجح في مسعاه. إني أقسم لك بالأسرار المقدسة التي أمنحها بحكم وظيفتي الروحية وقد نصبت أسقفًا قبل يومين. أن الپاپا قد حرك وعفا عنك وهو شديد الألم للحادث الذي أصابك. فإعمل على أن تتعافى بسرعة وانظر الى الأمور بمنظار جميل وتوقع كل الخير. أما هذا السجن الذي ذقت مرارته ظلماً والحق يقال، فسيعود عليك بالخير العميم وستطأ بقدمك على الفقر والخصاصة. ولا تعود تفكر بالسفر الى فرنسا وتنهك كيسانك بالحلّ والترحال والتنقل. لذا أرجو ان تقصّ عليّ دون تردد مل ما وقع بالضبط ومن ساعدك. وعندها فلتكن مرتاح البال ولتحقق شفاءً عاجلاً.

فسردت عليه الوقائع من الألف الى الياء ولم أترك صغيرة أو كبيرة، حتى لم أغفل قصة السقاء الذي حملني على ظهره. بعد أن سمع الحاكم كل هذا عقّب بقوله:

- إن هذه الجلائل من الأعمال لهي في الواقع أكبر من أن يأتيها إنسان بمفرده. الحق يقال انك الوحيد

(٢٣٤) هذا المعهد (Collegi degli Abreviatori di Parco Maggiore a Minori) أسسه الپاپا پولص الثاني (١٤١٧-١٤٧١). إن

أليساندرو فارنيزي (پولص الثالث) هرب من السجن فعلاً إلا أن ذلك حصل في زمن الپاپا انوسنت الثامن

(١٤٣٢-١٤٩٢) لا أليكساندر السادس پورجيا (١٤٣١-١٥٠٣).

بين الرجال القادر عليها.

ثم انه امسك بيدي واستطرد يقول:

- لاجابة بك الى القلق عليك ان تطيب بالاً. لأنني وبهذه اليد التي أمسكها أوكد لك بأنك أصبحت حراً وإن عشت فستعيش سعيداً هائلاً.

كانت زيارته قد أعاقت حشوداً من السادة العظام الذين جاؤا لرؤيتي. لأنهم أرادوا كما كان بعضهم يقول لبعض - مشاهدة ذلك الرجل صانع المعجزات! فلما غادرني دخلوا علي وأطالوا البقاء وقدم لي بعضهم الهدايا وعرض بعضهم الآخر خدماته. في تلك الأثناء عاد الحاكم الى الپاپا ونقل له ماقلته. وكان ابن الپاپا حاضراً وقد ملك العجب سائر الموجودين وقال الپاپا:

- إنه في الواقع عمل يجل عن الوصف الكلامي.

وهنا تدخل السيد (بيير لويجي) قائلاً:

- لو أطلتته يا ابانا الأقدس لأقدم على أعمال أقطع. فهو اعتدائي الطبع مشاكس الى آخر حد. اسمح لي ان أقص عليك واحدة من وقائعه لم تسمعها. فقبل ان يودع السجن اختصم صاحبكم بنقوتو هذا مع سيد من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) حول ملاحظة بسيطة ذكرها عنه. هذه الملاحظة رد عليها بنقوتو بوقاحة وشراسة من يريد ان يثير قتالاً. فشكا السيد الأمر الى الكردينال فثار ثائره وقال لو انه تمكن من (بنقوتو) لأذبه ولقنه درساً ينسيه تهوره. وعندما سمع (بنقوتو) ما قيل عنه حشا بندقية وشرع يتدرب على إصابة الهدف بها مطلقاً ناره على قطعة من النقد. وفي ذات يوم بينما كان الكردينال يطل من الشباك. تناول (بنقوتو) بندقيته وكان دكانه تحت قصر الكردينال - وتهياً لإطلاقها، إلا ان الكردينال حذر فأسرع بالانسحاب. ولكي يبدو الحادث صدفة غير متعمدة، اطلق بنقوتو النار على حمامة غاب كانت قد وكرت في تجويف في أعلى القصر وأصابها في رأسها وهي شيء يكاد يكون مستحيلاً. والآن فلقد استك ان تتصرف به كما تختار، كل ما أردت من سرد هذه الواقعة هو تقديري بأنه قد يندفع يوماً ما بشعور الإنتقام لإعتقاله ظلماً الى إطلاق النار عليك. انه شرس الطباع للغاية مع إعتداد بالنفس وثقة لا حد لها. وقتله (پومپيو) خير شاهد، فقد طعنه بخنجره طعنيتين في حنجرته حين كان محاطاً بعشرة رجال يحرسونه، ثم نجا منهم سالماً ومُلقاً بهم العار وكلهم رجال أشداء.

وإتفق ان السيد المقصود من خاصة الكردينال (سانتا فيوري) كان موجوداً وهو ذاته الذي حصل بيني وبينه الخلاف فأسرع يؤيد قصة (بيير لويجي)، إلا أن الپاپا لم يعقب على القصة بكلمة ولو أنها ملأته حنقاً.

والآن أراني مضطراً الى ايضاح الحقيقة بأمانة، بخصوص هذه الحادثة:

في ذات يوم جاءني هذا السيد الذي هو من خاصة سانتا فيوري بخاتم ذهبي ميقع بالزئبق وقال "نظف هذا الخاتم واستعجل به". وكنت منشغلاً بأعمال هامة بين يدي من الحلبي الذهبية والأحجار الكريمة. فبسبب هذا وإستيائي من صلاتته ولهجته الأمرة وهي تصدر من شخص لم يسبق لي به معرفة ولم أكلمه من قبل فقد قلت له اني لا أملك جلوداً وعليه ان يأخذ خاتمه الى صانع آخر فأجاب

فجأة وبدون سبب:

- إنك لعمار!

فأجبتك إنك لمخطيء وأنا من ناحية الأدمية أفضل منك. أمّا إذا إستفزتني فستجد ركلاتي أقوى بكثير من ركلات الحمار.

فذهب الى الكردينال وقصّ عليه ما وقع وصورني له وكأني الشيطان بعينه. بعد الحادثة بيومين كنت أصوب بندقيتي الى حمامة غاب إتخذت لها وكرّاً في شق جدار مرتفع خلف قصر الكردينال. وكنت قد علمت ان الصائغ (جيوفان فرانشسكو دلاً تاكا) الميلاني حاول إصابتها بعدة عيارات فلم يوفق الى. وكان بيني وبينه منافسة في الصيد. وفي هذه المناسبة عندما كنت أطلق النار لم يكن يظهر من الحمامة إلا رأسها فقد زاد حذرنا لكثرة العيارات التي أطلقت عليها قبلاً. وفي هذه المرة كان يوجد في دكاني لفيغ من الأصدقاء والنبلاء فاسترعوا إنتباهي إليها قائلين:

- ارفع نظرك وانظر! إنها حمامة (جيوفان فرانشسكو دلاً تاكا) وهو لا يكلّ من إطلاق النار عليها. انظر الى المخلوقة المسكينة لقد بلغ بها الشك حدّاً لا تجرّ معه على إخراج رأسها. فشخصت ببصري الى فوق وقلت:

- لو أنها إنتظرتني بقدر ما يقتضيني لتسديد سلاحي إليها فإن هذا الجزء الصغير الظاهر من رأسها يكفيني هدفاً.

فقال السادة النبلاء إن مخترع البندقية نفسه يعجز عن ذلك. فأجبت:

- حسن فلنراهن على قارورة من خمر بالوميو اليونانية. إن بقيت الحمامة على وضعها هذا حتى أهدف إليها بالبروكاردو (وهو الاسم الذي أطلقتته على بندقيتي) فإني سأصيب رأسها.

قلت هذا وسددت بندقيتي مستخدماً ذراعياً لا غير كمسند. وحققت ما وعدت دون ان تكون لدي فكرة عن الكردينال او اي شخص غيره. في الواقع اني كنت اعدّ الكردينال احد القلائل الذين اعتزّ بمكانتي عندهم. ألا فليتأمل البشر جميعاً كم تخفي الأقدار من أوراق في كمها عندما تنوي تحطيم إنسان وها هوذا الپاپا يكاد ينفجر حنقاً متمتماً لنفسه مكتئباً لما سمعه من إبنه.

بعد يومين من هذا توجه الكردينال (كورنارو) ليسأل الپاپا إسناد أسقفية لواحد من خاصته يدعى (اندرية چنتانو Andrea Centano) وكان الپاپا في الواقع قد وعده بالأسقفية، وقد شغرت الآن فذكره الكردينال بوعدده. فأقرّ الپاپا بصحة ذلك وقال انه ينوي البرّ بوعدده. إلا انه يريد من نيافته ان ينيله فضلاً: ومايريده هو أن يدفع اليه بـ(بنقوتو).

فقال الكردينال:

- آه! لكن بعد أن عفا عنه قداستك ودفعت به اليّ بإعتباره مطلق الحرية؟ ماذا ترى سيقول الناس عنا؟

فردّ عليه الپاپا قائلاً:

- أنا اريد (بنقوتو) وانت تريد الأسقفية، فدعهم يتقولون بما يشاؤون.

فأخذ الكردينال الطيب يضرع الى الپاپا طالباً الأسقفية على ان يفكر في المسألة الأخرى وبعد هذا

سيعمل بكل ما يريده قداسته وماهو قادر على الأمر به. إلا أن الپاپا الذي كان شبه خجلان من الاسلوب الحبيث الذي اتبعه للنكول عن كلمته ردّ بقوله:

- سأرسل بطلب (بنقوتو)، ولأجل إراحة نفسي قليلاً سأضعه في إحدى غرف حديقتي الخاصة بالطابق الأرض حيث سيكون في وسعه أن يحقق شفاءه ويستعيد صحته. ولن أمتع زيارة أصدقائه كافة وسأتولى الإنفاق عليه حتى يزول هذا الهاجس الصغير عني.

عاد الكردينال الى قصره، ويعث الي فوراً بالرجل الذي طلب له الأسقفية. ليقول لي ان الپاپا استعادني إلا أنه سيسكنني في الطابق الأرضي من حديقته الخاصة حيث يمكن لكل من يريد زيارته مثلما يكون في بيته. فرجوت (أندريه) ان يتكرم ويبلغ الكردينال عني بأنني أرغب أن أحمل داخل فراش من هنا وانتقل الى محل مأمون خارج روما. لأنه إنما يبعث بي الى موت أكيد اذا ما وافق على تسليمي. ورجوته أن يتركني أتدبر مصيري بنفسي. ومن المعتقد أن الكردينال عندما سمع اقتراحي رغب جداً في ان يضعه موضع التنفيذ. إلا أن (أندريه) الذي كان يجري وراء الأسقفية كشف المسألة. فأرسل قداسته بطلبي فوراً ووضعني في إحدى الغرف المفضية الى حدائقه الخاصة في الطابق الأرضي. وأرسل الي الكردينال من يحذرني من تناول أي طعام يُقدم لي هناك ووعد ان يبعث بطعام من عنده. وقال انه ارغم على هذا العمل ونصحني بأن أبقى معنوياتي عاليةً وأنه سيساعدني على إستعادة حريتي.

في هذه الظروف كنت أستقبل الزائرين يومياً. مع عروض هامة بالمساعدة من كثير من النبلاء الكبار. وكان الپاپا يرسل طعاماً إلا أنني لا أفره وإقتصر على ما يبعث به الكردينال (كورنارو). من بين أصدقائي فتى يوناني في الخامسة والعشرين من العمر، ذو قوة بدنية خارقة الى جانب كونه أبرع من حمل السيف في روما. ومع إنه خائر القلب ينقصه الإقدام إلا أنه أهل للثقة عظيم السداجة. كان قد سمع شيئاً عن وعد الپاپا بخصوص تعويضني عن كل المتاعب التي عانيتها وكانت نيته حقيقية في البداية وهذا ماقاله في الواقع. إلا أنه رجع عن كلامه بالأخير وأظهر خلافه، ولذلك إختليت بالفتى اليوناني وصارحته بما في نفسي، وقلت:

- يا أعزّ أخ. لقد صمموا على إغتياي. وهذا هو وقت المساعدة إنهم يعتقدون بأنهم سيخدعونني بإظهار الرعاية والإكرام الفائقين لي، وسببه الوحيد هو تغطية ما يبيتون لي.

فأجاب الفتى الطيب بقوله:

- عزيزي بنقوتو. الشائع في روما أن الپاپا قد أسند إليك منصباً يدرّ عليك مرتباً قدره خمسمائة كراون. لذا أرجوك أن لا تدع الشكوك تفقدك هذا الشيء الحسن.

فوضعت يدي على صدري متقاطعتين<sup>(٢٣٥)</sup> ورحت أتوسل به لإخراحي من المكان الذي أنا فيه. وأضفت: مع إنني مدرك بأن في إمكان پاپا مثله ان يصلح حالي إلا أنني على يقين بأنه يخطط للقضاء عليّ بشكل سرّي حفظاً للمظاهر وإنه يحاول جهده توجيه ضربة قاضية. لذلك ينبغي له ان يعمل

(٢٣٥) وهو أسلوب من أساليب رسم علامة الصليب.

بسرعة ويحاول إنقاذ حياتي. فإن ساعدني على الهرب بالطريقة التي شرحتها له فسأبقى الى الأبد مديناً له بالفضل. وسأظلّ مستعداً دائماً لوضع حياتي تحت تصرفه عند الحاجة. عندما بلغت في كلامي هذه المرحلة إنحدرت الدموع من عيني، وقال:

- أخي العزيز. إنك مصمم على تدمير نفسك. لكنني لا أستطيع أن أرفض تنفيذ ما طلبته. فأشرح لي الكيفية وسأعمل بكلّ ما ترسم وإن كان ذلك خلافاً لرغبتني.

سوينا الموضوع بهذا الشكل وشرحت له خطتي. وكان نجاحها من السهولة بمكان. على انه عدل عن الأمر في الوقت الذي كنت أتصور بأنه قد بدأ في إتخاذ الخطوات العملية لما رتبت. وجاءني ليقول انه عزم على ان يعصيني لخيري ومصلحتي وانه على ثقة تامة من كلّ ما سمعه من أقرب المقربين للباپا أولئك الذين هم على إطلاع تام في قضيتي. فأسقط في يدي وإستسلمت الى اليأس والغمّ وكان ذلك في عيد القربان (عيد الجسد) في العام ١٥٣٩.

مرّ اليوم بأكمله، وفي ليلته بالذات بعد هذه المجادلة الكلامية جيء بطعام كثير من مطابخ البابا. وبكمية أخرى فاخرة من قصر الكردينال كورنارو. وإتفق إن كان عندي عدد من الأصدقاء فإستقيبتهم لمشاركتي في العشاء وكنت أثناء ذلك في فراشي وساقى مشدودة الى ألواح خشبية. إلا أنني إستأنست بهم وطال بقاؤهم. وبعد أن مضى من الليل ساعة تركوني وإنصرفوا وقام إثنان من خدمي بإعدادي للنوم ثم إنصرفا ليناما في الغرفة الخارجية وكنت أحتفظ بكلب أسود فاحم كثر الشعر مدرب على الصيد يلازمي ملازمة الظل ولايتعد عني أكثر من خطوة وبنام تحت سريري اثناء الليل. في تلك الليلة ناديت الخدم ثلاث مرات على الأقل ليأخذوه عني لأنه كان يهرّ هريراً مريعاً. ولما دخلوا هجم عليهم وحاول أن يعضّهم فأحجموا وخافوا من أن يكون مسعوراً إذ راح يعوي بدون إنقطاع. وإنصرم من الليل أربع ساعات تقريباً وأنا على هذه الحال. ثم وبينما كانت الساعة تدق دخل (البارجلو) غرفتي يتبعه عدد كبير من رجاله فبرز الكلب من تحت الفراش وحمل عليهم بوحشية، ممزقاً معاطفهم وجواربهم وظنوا من فرط هلعهم انه مسعور. إلا أن (البارجلو) وهو رجل ذو خبرة قال لهم:

- إنه لشيء طبيعي أن يعرف الكلب الأصيل بغريزته الخطر الذي يهدد صاحبه قبيل وقوعه. فليتسلح إثنان منكم بالعصي وليضرباه حتى يخرج وليقم البقية بربط (بنقنوتو) بهذا الكرسي. وليؤخذ الى حيث أمرتم بأخذه.

كما قلت كان يوم عيد الجسد قد إنقضى والوقت يشير الى الساعة الرابعة ليلاً تقريباً. فحملوني وأنا تحت الأغطية لايبين مني شيء. يتقدمني أربعة منهم لتفريق قلة من المستطرفين الذين مازالوا في الشوارع. وبها الشكل جاؤوا بي الى موضع يدعى (توري دي نونا)<sup>(٢٣٦)</sup> حيث وضعوني في غرفة المحكوم عليهم بالموت. طرحوني فوق فراش رثّ. وخلفوا معي واحداً منهم ظلّ طوال الليل يندب حظه العاثر ويلعن سوء طالعي مردداً قوله:

(٢٣٦) كان سجن المجرمين الإعتيادين في روما وقد سبق ذكره.

- اسفي عليك يا بنثوتو المسكين! ماذا فعلت بهم؟

من وجودي في هذا المكان ومن القول الذي أسمعني الحارس أيقنت بأني من الهالكين. وقضيت شطراً من الليل وأنا أجهد عقلي بتعليل مشيئة الله في معاقبتي بهذا الشكل. ولما لم أجد سبباً وجيهاً فقد إشتد إضطرابي وراح الحارس يبذل مافي طوقه لتهدئة روعي وتسلبتي ولكني رجوته بمحبة الله أن يسكت ولا يوجه اليّ كلاماً. إذ سيكون في وسعي وأنا بمفردي أن أعمل على إراحة نفسي وضبط أعضابي بسرعة. فوعدني بذلك.

عندئذ تحولت بكلبتي الى الله متضرعاً بحرارة لكي يقبلني في ملكوته وذكرت في صلاتي بأني كنت قد تظلمت لأني بالنظر الى القوانين لا أستحق هذه النهاية. وإن كنت قد ارتكبت جرائم قتل فإن نأبه جلّ جلاله قد إستدعاني من مسقط رأسي وعفا عني بسلطة الشرائع البشرية وبسلطانه الروحي. فضلاً عن أن كلّ ما أقدمت عليه كان محافظة مني على الجسد الذي منحه لي عزّ وجلّ. لذلك لا أراني أستحق هذه النهاية عند النظر في أحوالنا في هذه الدنيا. وقد بدا وكأن مثلي مثل السائر السبيء الحظ في شارع، تسقط على رأسه صخرة من إرتفاع كبير فتقتله. من الواضح أن هذا من تأثير طالع الإنسان. وهذا لا يعني أن الأقدار تكيد لنا معاً أو تخطط لإسعادنا. لكننا جميعاً نخضع لتأثير صدف إقتران النجوم بعضها ببعض. إني على معرفة بأني حرّ الإرادة. وأعرف عن يقين بأني لو كان إيماني كإيمان القديسين فإن ملائكة السماء ستأتي وتخرجني من هذه الزنزانة وتبسط عليّ حماية أكيدة من المحن والأرزاء التي أعانيها. ولكن مادام لايجدني أهلاً لهذه النعمة فمعنى هذا أن تأثير الأفلاك سيعمل عمله السبيء في مصيري. إسترسلت في تأملاتي هذه بعض الوقت ثم هدأت نفسي وغلبنى النوم.

أيقظني الرجل عند الفجر وقال:

- إنك رجل صالح ولكنك سبيء الطالع!

قلت:

- كلما عجّلت بالخروج من سجن هذه الدنيا كلّما كان سروري كبيراً، لاسيما وأنا واثق من خلاص نفسي وبأني أموت ضحية ظلم وعدوان. إن مخلصنا سيحشرني ضمن قديسيه وصديقيه ورسله الذين قُتلوا مثله ظلماً. والآن وقد جاء دوري لأعدم الحياة دون حق، لايسعني إلا أن أتقدم بالشكر لله مخلصاً. لماذا لا يأتي الرجل الذي سينطق بحكم الموت؟  
- إنه مضطرب جداً وهو يبكي.

وهنا ناديته بإسمه (بنديتو دا كالي Benedetto da Cagle) وقلت:

- تقدم مني ياعزيزي (بنديتو) فأنا مستعد تماماً ومتمالك زمام أعصابي. إنّه لمّا يكسبني مجداً وفخراً أن أموت وأنا بريء، لا أن أموت وأنا مستحق الموت. تقدم مني أرجوك وجئني بالكاهن لأسرّه بكلمات قليلة، لا حاجة تدعوني الى الإعتراف. فقد سبق لي أن تقدمت بإعترافي المقدس لله تعالى. إلا أنني أريد إكمال الفرائض التي سنّتها كنيسةنا المقدسة، أمنا الحنون التي أقدمت على

هذا الخطأ العظيم بحقي فكان من دواعي سروري أن أغفر لها. فهيا إذن يا عزيزي (بنديتو) وعجل بما أنت في سبيله قبل أن يتغلب عليّ شعور آخر.

بعد أن إنتهيت من أقوالي هذه أمر هذا الرجل العالي الخلق، السجّان بإقفال الباب عليّ. لأن تنفيذ الحكم لا يمكن أن يجري إن لم يكن هو موجوداً. وبعد هذا أسرع الى دار زوج السنيور (بيير لويجي) التي كانت مع الدوقة (وهي التي سبق ذكرها). وعندما صار أمامها قال:

- سيدتي الجليلة. تكرمي عليّ بتحقيق رجائي محبة لله وأسألي البابا إن يبعث بشخص آخر غيري ليبلغ (بنثونوتو) بحكم الموت. ويقوم بالإجراءات التي تتطلبها مني وظيفتي. لأنني أتصلّ منها ولن أزلها مرة أخرى.

ثم إنصرف متنهداً من أعماق قلبه وهو مثقل بالهم.

وقالت الدوقة وكانت حاضرة وقد ظهر عليها الغضب:

- تلك هي العدالة التي يجدها المرء في الـ (روما) التي يحكمها نائب المسيح! إن الدوق زوجي الراحل كان عظيم التقدير لهذا الرجل بسبب سمو خلقه ومواهبه العظيمة. وكان يودّ أن يبقى الى جانبه وقد عارض في مجيئه الى روما.

ثم إنصرفت وهي تتمتم لنفسها بإنفعال وحنق. وعندها توجهت عقيلة السنيور (بيير لويجي) وإسمها (السنيورا جيروليمبا) الى البابا وألقت بنفسها عند قدميه بحضور من عدد من الكرادلة وراحت تتشفع بحرارة جعلته يحمرّ خجلاً ويرد بقوله:

- لأجلك سندعه يعيش. وإن كنّا في الواقع لم نحمل ضغينة له أو نبّيت له شراً.

ولم يضيف هذه العبارة الأخيرة إلا لوجود الكرادلة هناك وسماعهم كل ما قالت تلك المرأة العظيمة الثابتة الجنان.

كنت أنتظر وأنا أرتجف رعباً وقلقاً وقلبي يدقّ دقات عنيفة وكان كلّ من أوكل لهم تنفيذ هذه المهمة الكريهة في حالة مشابهة لحالتي ينتظرون وهم في أشدّ حالات البؤس والإضطراب. ولكنهم تفرقوا بعد وقت العشاء وإنصرف كلّ لشأنه وجيء إليّ بشيء أتبلّغ به. فعجبت لهذا وقلت لنفسي:

- الآن تغلبت الحقيقة على طبيعة الشرّ في نجمي. وأني لأدعو من الله بأن تقضي مشيئته بنجاتي من هذه العاصفة.

وشرعت في تناول الطعام. ولما كنت قد سلمت أمري الى سوء طالعي فقد بدأت الان أمل بطالع حسن. أكلت بشهية وبقيت أنتظر ومرّت فترة من الليل تقارب الساعة دون أن أسمع أو أرى أحداً ثم دخل على إثرها (البارجلو) مع ثلة من الحرس ووضعوني على نفس الكرسي التي نقلوني به ليلة أمس من ذلك المكان. ثم وبعد أن كرر عدة مرات بلطف وبلهجة عطوفة بأن ليس ثمّ ما يدعو الى قلقي أمر رجاله بتحاشي الإصطدام برجلي المكسورة. وأن يعنوا بي عنايتهم بأعينهم فأطاعوه وحملوني الى القلعة التي هربت منها وأصعدوني الى آخر طبقة من البرج وأقفلوا عليّ باب باحة صغيرة برهة من الوقت. وجيء بالمحافظ محمولاً وهو مريض وفي أسوء حال. فقال لي:

- أتري كيف نلتك ثانية؟

أجبت:

- أجل ولكن أتري كيف هربت كما عاهدتك القول؟ ولو لم أقايض بأسقفية مقرونة بتعهد وضمان  
ياپوي للكردينال البندقي من فارنيزي الروماني وكلاهما خدشا وجه الشريعة الإلهية، لما إستطعت  
أن تمسك بي ثانية. والآن وبعد أن سلكا هذا السبيل الشائن فلا جناح عليك أن فقتهما في سوء  
العمل لأنني ما عدت أهتم قلامه ظفر بهذه الحياة.

فراح المسكين يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

- الله! الله! إنه لا يهتم أعاش أو مات وهو الآن أكثر جسارة مما كان وهو معافى. ضعوه هناك تحت  
الجنيحة وحذار أن يكلمني أحد عنه مرة أخرى إنه سيكون علة موتي.

حُملت الى ما تحت الجنيحة أودعتُ غرفة حالكة الظلام شديدة الرطوبة تملؤها العناكب الكبيرة والدود  
المؤذي. وقذفوا بفراش بال من القنب على الأرض، وتُركت دون طعام تلك الليلة خلف أبواب مقفلة  
أربعة. وبقيت على هذه الحال حتى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي فجيء اليّ بطعام تبلّغت به.  
ثم طلبت منهم أن يأتوني ببعض كتسي لأطالع. فلم يردّ عليّ أحد منهم. إلا أنهم أبلغوا المحافظ  
التعاسس بطلبي الذي سألتهم أن ينقلوه له. في اليوم التالي دفعوا اليّ بكتابي المقدس الإيطالي  
وبكتاب آخر يتضمن "أخبار جيوفاني فيبلائي" فطلبت بعضاً من كتبي الأخرى فأجابوا:

"لا يمكن تزويدك بأكثر من هذا وما لديك كاف ويزيد عن الحاجة" ولذلك أمضيت الوقت وأنا في  
أتعس حال فوق فراش رطب مهلهل أخذ ينزّ ماءً بعد إنقضاء ثلاثة أيام، وكنت عاجزاً تماماً عن الحركة  
بسبب ساقبي المكسورة. فأزحف على ركبتي ويدي كلما أردت ترك الفراش لقضاء الحاجة. مقاسياً  
أشدّ الآلام وأنا أحاول عدم تلويث البقعة التي أنام فيها. وكان ينفذ اليّ غرفتي شعاع حائل اللون لمدة  
ساعة ونصف ساعة كل يوم من ثقب ضيق فأستعين به على القراءة لهذه الفترة القصيرة من الوقت  
فحسب. وأما ما تبقى من ليلي ونهاري فقد كنت أمضيه صابراً في الظلام الحالك متجهماً بفكري الى  
الله ومتأملاً ضعفتنا البشري. وأيقنت أن حياتي الشقية ستنتهي خلال أيام قلائل في هذه الظروف  
وهذا المكان. على أنني تعللت بالتصبر والتسلي بالمفاضلة بين الموت تحت النطع بسكين الجلاذ والعذاب  
الفظيع الذي يرافق تنفيذ ذلك، وبين ملاقات الموت وأنا شبه مخدر أثناء النوم وكيف أن هذا سيكون  
أحسن نهاية بكثير لحياتي. وشعرت بقواي تخور شيئاً فشيئاً حتى غدا تكويني المتين عادةً، معتاداً  
عذاب (المطهر) الذي أقاسيه. ثم وبعد أن طرء عليّ هذا الشعور وكيفت نفسي له. صح عزمي على  
إحتمال محنتي العظمى مادام فيّ نفس يتردد.

شرعت أقرأ الكتاب المقدس من الأول، قراءة تأمل وإيمان وقد سحرني بحيث صرت أتمنى أن أفضى  
كلّ وقتي فيه لولا إفتقاري الى النور، فكانت آلامي تجيش وتهاجمني حالما ينحسر النور عني. كان  
عذابي شديداً بحيث صممت أكثر من مرة على وضع حدّ لحياتي بيدي. على أنهم لم يسمحوا لي  
بسكين ولهذا لم يكن من السهل تنفيذ ذلك. وفي أحد المرات تناولت عارضة خشبية كانت ملقاة

ورفعتها وجعلتها في وضع يمكن ان تسقط به كما يسقط الفخ. أردتها أن تهوي على رأسي فتهشمه تهشيماً مرةً واحدة. وعندما هيات كل شيء وهممت بكل تصميم أن أعدّها للضربة القاضية وتقدمت ماداً يدي لإسقاطها ماشعرت إلا بقوة خفية تقبض على يدي وتقذف بي مسافة أربعة كوبيتات الى الخلف. فإعتراني خوف عظيم وبقيت في مكاني مشلولاً جسماً وروحاً من الفجر حتى ما قبل الليل بخمس ساعات، أي عندما جاؤوني بالغداء، لا بد وأنهم جاؤا قبل هذا عدة مرات ولم أفطن إليهم. وسمعت صوت الكايتن (ساندرينو مونالدي Sandrino Monaldi) وهو يقول:

- واسفأ على الرجل التعس، كان من العباقرة الأفاذا؛ والآن تأملوا النهاية التي آل إليها.

فتحت عيناي عند سماعي هذا لأجد بعض الكهنة يحللهم الكهنوتية، فصاحوا:

- آه! قلت لنا إنه قضى نحبه.

فقال بوزا:

- وجدته ميتاً ولهذا قلت لكم إنه توفي!

فأسرعوا بإنهاضي، ورفعوا الفراش الذي كان أشبه بصحفة من المعكروني ورموه خارج الغرفة. وعندما أعلموا المحافظ بذلك أمر بتزويدي بأخر.

عندما فكرت بالجهة التي أحبطت محاولتي رجحت أنها قوى آلهية، إنها ملاكي الحارس. في الليلة التي تلت رأيت حلماً عجبياً، رأيت فتىً بهيّ الطلعة تقدم مني وراح يؤنّبني بقوله:

- أتدري من الذي منحك هذا الجسد الذي هممت بإتلافه قبل أن يحين أجله؟

وتراءى لي بأني أجيبته بأن كل ما أقدمت عليه هو بأمرٍ من الله رب الطبيعة.

فأجاب:

- إذن فأنت تستخف بأعماله وتريد تدميرها؟ دعه يرشك ولا تفقد الأمل من سلطانه المنقذ.

ونطق بالكثير من العبارات البليغة لا أتذكر واحداً بالألف منها. وبدأت أستيقن بأن هذا الكائن الملائكي قد نطق بالحق. ثم أجلتُ أبصاري بالزنزانة فإستقرت على قطع من الأجر المكسّر. فحككت واحدة بالأخرى وعملت معجوناً ثم تقدمت من الباب زاحفاً على ركبتي ويدي وكسرت من حافة الباب الخشبي الحادة بأسناني شظية. بعد هذا جلست أنتظر موعد تسلل الضياء الى محبسي، فورد أولاً قبل المغرب بثلاث ساعات ونصف الساعة، وبقي ساعة واحدة. فبدأت أكتب بخير ما يمكنني من صفحات الكتاب المقدس غير المطبوعة. أخذت ألوم قواي العقلية لأنها ضاقت ذرعاً بالحياة. فأجابت تلك القوى جسدي معذرة بالآلام المبرحة. ثم تمسك جسدي بالأمل في إنصلاح الأمور وقد كتبت كل هذا على شكل محاورة هكذا:

"ياقواي الروحية المعذبة، مالذي يجعلك بهذه القسوة لتكرهي الحياة؟" "إن شئت أن نعمل ضد إرادة السماء فمن سيعيننا في نضالنا؟" "ألا فلنذهب، نبحث عن حياة أفضل." "صبراً ولا تستعجل الذهاب. فالسما وعدت أن تسعدنا أكثر من ذي قبل." "سنيقي في الأعماق فترة." "فإذا شاء الإله الأعظم أن يشملنا بنعمائه فلن نعرف

## الألم بعد الآن.

عادت إليّ قواي العقلية وبعد أن هدأت نفسي بما أملك من قدرة، واصلت قراءة الكتاب المقدس، وإعتادت عيني الظلام. فصرت أستطيع القراءة ثلاث ساعات بعد أن كنت أعجز عن ذلك في ساعة ونصف الساعة. وأخذت أفكر ملياً في قدرة الله العجيبة وقوة تأثيرها في نفوس البسطاء الذين يظنون مقيمين على أيمانهم الراسخ بأن الله سينيلهم حتماً ما يصبون إليه وأكدت لنفسي أنا الآخر بأن الله سيساعدني أيضاً بسبب رحمته الإلهية الواسعة، ولكوني بريئاً. وقيت بإتصال مستمر معه، أصلي له أنا، وأستغرق في تأملاتي فيه أنا. وكانت غبطني في تأملاتي هذه بالله على هذا النحو بدرجة من الزخم بحيث أنستني كل آلامي السالفة. ورحت طول اليوم أرتل المزامير. وقصائد من نظمي موجهة إليه تعالى. على أنه كان ثم شيء واحد يورثني أعظم الألم فما حدث هو أن نمت أظفري وإستطالت فمنعتني من لمس جسمي دون إحداث خدش فيه. وتعدّر عليّ إرتدائي ثيابي إلا بعد طي الأظافر الى أمام أو خلف وكان هذا مصدر عذاب لي. في عين الوقت بدأ التسوس ينخر أسناني ويعمل في جذورها تخريباً، وقد إنتسبت الى ذلك عندما أصبحت الأسنان السليمة تدفع الأسنان الميتة. وأخذت تثقب لثتي شيئاً فشيئاً وبدأت الجذور تخرج من تجاويها. لما أدركت الأمر صرت أسحبها بنفس السهولة التي أسحب بها سيفاً من غمده دون ألم أو نزف. روّضت نفسي على كل حال- وتحملت هذه البلياء الجديدة وتواصلت أيامي وأنا بين تراتيل المزامير والكتابة بمعجون الأجر الذي أتيت الى ذكره. وشرعت أكتب قصيدة على روي (كاپيتولو)<sup>(٢٣٧)</sup> في مدح السجن. وصفت فيها كل ما وقع لي فيه. وسأثبتها هنا في محلها المناسب.

وكان المحافظ الطيب يتتبع أمري كثيراً وبصورة سرية ويراغب أحوالي بوساطة مرؤوسيه. وقد وجدني في آخر يوم من شهر تموز وأنا ممتليء حبوراً، مفكراً لنفسي أنه مناسبة لإحتفال عظيم يقام في روما عادة في أول يوم من شهر آب فرحت أقول لنفسي:  
- كنت كل السنين المنصرمة أفضي هذا العيد المفرح في تعاطي صنوف اللهو والعبث أما في هذه السنة فسأقضي في التأملات بالأمر الإلهية والتهجد لله.  
ثم أردفت:

- لكم أحسن الآن بالراحة والسعادة، مما يفوق ما كنت أشعر به بمراحل!  
وقد سمعت هذه العبارة، فنقلت الى المحافظ فقال بلهجة الحائق المستغرب:  
- رباه! إنه سعيد وسط بؤسه، وفيما هو يحقق إنتصاره هذا، أعاني أنا من العذاب وسط كثير من أسباب الراحة. إنه وحده هو الذي سيوردني حتفي أسرعوا إليه وأقذفوا به الى أعماق جبّ الجبّ الذي مات فيه (فوایانو Foiano)<sup>(٢٣٨)</sup> الواعظ جوعاً. لعل حبوره سيزول عنه عندما يجد نفسه في

(٢٣٧) وهي القصيدة الطويلة التي يجمع فيها الناظم وقائع كثيرة. ويطلق عليها عادة إسم (الملحمة).  
(٢٣٨) هو الزاهب بنديتو تيبزي من مدينة فوایانو. كان منتسباً الى رهبنة القديسة ماريا نوفيلا في فلورنسا وواحد من أنصار ساقونارولا. دأب على الوعظ بحماسة وحرارة مندداً بإستبداد آل مديتشي في أيام حصار فلورنسا. =

هذه الحال.

وأقبل عليّ الكاپتن (ساندرينو مونالدي) يصحبه حوالي عشرين من أعوان المحافظ. فوجدوني راكعاً. ولم ألتفت إليهم أو أتحرك عندما دخلوا وواصلت صلاتي. كنت أمجدُ الله الأب وهو محاطُ بالملائكة، والمسيح وهو يُبعث حياً منتصراً، وهي الصورة التي كنت قد رسمتها على الجدار بقطعة فحم نبشت عليها في أرضية الغرفة. كان قد مضى عليّ أربعة أشهر وأنا مستلق على ظهري في فراشي بساقي المكسورة. وكثيراً ما حلمت بأن الملائكة جاءتني لتصلح ساقي وتشفيني. فبعد هذه الأشهر الأربعة جُبر عظم الساق وعاد كأنه لم يُكسر.

دخلوا عليّ وصليل أسلحتهم مرتفع وكأنهم يواجهون غولاً أو تينناً يقذف ناراً وقال الكاپتن:

- تعلم كم يبلغ عددنا. والضجة الكبيرة التي أحدثها دخولنا إلا أنك لم تتحرك.  
من كلماته أدركت البلاء العظيم الذي ينتظرنني منهم. ولكن لما كان سوء الحظ قد صار جزءاً من وجودي فقد أجبته:

- الى هذا الربّ الذي يرعاني، إليه ذلك الذي هو في السماء، أودعت روحي وقلبي وقوة إدراكي.  
تاركاً ما يعود لكم بالضبط. إنكم لاتستحقون أن تتطلعوا الى ما هو حسن فيّ ولا يمكنكم لمسه.  
وإعملوا بالذي يخصكم مني كلّ ما تتمكنون عليه.

وبان الخوف على الكاپتن، لأنه لم يكن يدري ما أنوي أن أصنع، فتوجه الى أربعة من أقوى حرسه بنية وقال:

- إنزعوا أسلحتكم.

وأضاف بعد أن فعلوا ما أمرهم به:

- والآن أطبقوا عليه بسرعة وأمسكوه، ما بالكم؟ وفيما ما يكفي ليجعلنا في مأمن من الخوف حتى من الشيطان نفسه حكّموا قبضاتكم عليه كيلا يفلت منكم.

فأمسكوا بي وبدأوا يستخدمون معي الحشونة. وعندها صرت أتوقع أعظم الشرّ، فرفعت أنظاري الى السيد المسيح وقلت:

- أيها الربّ العادل. أنت قدمت نفسك كفارةً عن كلّ خطايانا بموتك على صليبك الجليل، فلماذا وجب عليّ براءتي أن تدفع ديون شخص آخر لا معرفة لي به؟ إن كانت هذه مشيئتك، فما عليّ إلاّ الرضا بها.

وحمولوني وساروا بي على نور مشعل ضخم وطننت أنهم سيلقون بي في ما يسمى "حفرة" سامالو Sammalo<sup>(٢٣٩)</sup> وهو جبّ مخيف إبتلع جوفه عدداً كبيراً من الأحياء قذف بهم الى بئر يقع في أسس القلعة الراسخة في الأرض. لكنهم جنّوني أياه وإعتبرت نفسي سعيداً عندما ألقوا بي في الزنزانة

=سجنه كليمنت السابع وقطع عنه الطعام فمات جوعاً في سانت انجلو.

(٢٣٩) في طبقات وترجمات للمذكرات (روكسوني، وقاليري) أن إسم هذا المكان الرهيب مشتق من إسم القديس (سان ماروكو). لأن أيقونة أو صورة لهذا القديس قد ثبتت فوق فوهة هذا الجبّ.

القدرة التي ذكرتها سابقاً وفيها مات الواعظ الفواياني جوعاً. ثم إنهم تركوني من دون أن يلحقوا بي أذى آخر. ولما صرت وحدي بدأت أرتل تساييح "من الأعماق صرخت De profundis... و"الرحمن يا الله Missrere" و"رجائي بك يارب Inte domine speravi". وأمضيت عييد الأول من آب مع الرب يكاد قلبي يتفجّر بالأيمان والأمل طوال اليوم. وفي اليوم التالي أعادوني الى ززانتي الأولى حيث كنت قد رسمت أولى تلك الصور التخطيطية للرب. ولما إحتوتني الغرفة وعدت الى رسومي لم أتمالك نفسي من البكاء لفرط فرحي وسعادتي. بعد هذا أمر المحافظ بأن يُنقل إليه يومياً كل ما أقوله وأفعله وكان الپاپا مطلعاً على كل ظروف مرض المحافظ مع العلم ان الأطباء قد قطعوا كل أمل بشفاؤه؛ فقال تعقيباً:

- قبل أن يموت أريده ان يقضي على حياة (بنقنوتو) بأي شكل يختاره فهو سبب موته ولهذا فلن يموت إلا بعد أ يصيب ثأره منه.

وعندما نقل پيبر لويجي قوله هذا للمحافظ، قال هذا:

- إذن فالپاپا يدفع اليّ (بنقنوتو) ويريد مني أن أصيب ثأري فيه؟ دع القضية لي.

إذا كان الپاپا قد غصّ بحقه عليّ. فالذي يبدو لأول وهلة أن كره المحافظ لي أشد نكراً وأخيث من حقد الأول. وفي هذه المرحلة اقبلت عليّ تلك الروح غير المرئية التي حالت بيني وبين عزمي على قتل نفسي. فهزّنتني هزاً ورفعنتني فوقفت على قدمي وأنا لأراها ولكنني أسمعها جيداً:

- أسرع يا بنقنوتو، اسرع الآن وتوجه الى الله وقل صلاتك. اطلقها بأعلى صوتك.

فإمتلأت رعباً وخررت راکعاً وبدأت أتلو كثيراً من أدعيتي وصلواتي بصوت جهير. ثم تلوت "من يسكن المغارة Qui habitat in adjutorio?" ثم تبادلته الحديث معه سبحانه وتعالى. وجاءني في التلو الصوت بنفسه - واضحاً رائعاً:

- إذهب وإسترح، ولا تخش شيئاً بعد الآن.

وما حصل هو هذا: إن المحافظ بعد أن أصدر أمراً جازماً يقتلي، عاد فجأة وألغاه وقال:

- أليس هذا هو (بنقنوتو) ذاك الذي بسطت عليه حمايتي وندبت نفسي للدفاع عنه بكل حرارة. والذي كنت متأكداً من براءته وبأنه يعاقب ظلماً وعدواناً؟ كيف أرجو رحمة الله ومغفرة لذنوبي ان لم أغفر للذين أساؤوا اليّ كثيراً؟ أيترب عليّ أن أسيء الى رجل بريء فاضل خدمني وأكرمني؟ كلا ثم كلاً فيدلاً من القضاء على حياته ساهبه الحياة والحرية وسأكتب في وصيتي بالأى يطالبه أحد بأي شيء من المال الكثير الذي أنفقته عليه في سجنه.

وأبلغ الپاپا بما قاله المحافظ وإستاء كثيراً.

في تلك الأثناء كنت أديم تلاوة صلواتي المعتادة مع نظم قصيدتي وبدأت أرى أحلاماً جميلة سعيدة كل ليلة، تلازمني فيها تلك الروح غير المرئية التي كنت أسمعها كثيراً ومازلت. سألتها فضلاً واحداً لاغير هو أن تأخذني الى حيث أستطيع رؤية الشمس وقلت بكل إخلاص إنني لأرغب في أن أتطلع الى الشمس مرة واحدة فقط ثم أموت سعيداً. كل ما قاسيت من عذاب هذا السجن، كلها

أصبحت عندي ذكريات عزيزة ومفرحة ولم تعد بعد الآن تورثني الإضطراب. مع هذا كان أعوان المحافظ يلحون عليه بشنقي من مسنن السور الذي هبطت منه. ولما وجدوا سيدهم قد عدل نهائياً عن هذه النيّة، ساءهم الأمر كثيراً وراحوا يحاولون يشتمى الطرق إبقائي في حالة خوف عظيم. على أنني كما بينت، تعودت المضايقات ولم أعد أخشى شيئاً. وكلّ ما كنت أصبو إليه هو أن أرى في حلم من أحلامي قرص الشمس فواصلت صلواتي المخلصة متوجهاً بها رأساً الى السيد المسيح بحرارة وأنا لا أنفك من تلاوة هذا الدعاء:

- يا ابن الله الحق! إني أتضرع إليك بحق ميلادك الطاهر، وبحق موتك على الصليب وبحق قيامتك المجيدة، إجعلني مستحقاً رؤية الشمس حتى ولو كان ذلك في الحلم. فإن شاءت إرادتك أن أراها بعينيّ هاتين الفانيتين فإني ناظر الآن الحج الى ضريحك الأقدس.<sup>(٢٤٠)</sup>

هذا الدعاء الى الله والنذر كان في الثاني من شهر تشرين الأول ١٥٣٩<sup>(٢٤١)</sup>. وفي اليوم التالي الثالث من تشرين إستيقظت قبل طلوع الفجر وبزوغ الشمس بساعة تقريباً فنهضت من زاويتي الحقيمة وتذثرت بقطعة رثة لأن البرد كان شديداً وبدأت وأنا واقف أصليّ بحرارة أكثر من السابق طالباً من السيد المسيح أن ينعم عليّ من جوده بإيضاح الإثم الذي أقدمّ عنه هذه الكفارة الكبرى، على الأقل عن طريق الوحي الإلهي. وبما إني لم أحظ منه بفضل إراءتي الشمس ولو في أحلامي فقد رجوته، بكلّ عزته وجبروته أن يتنازل ويعرّفني بالسبب الذي من أجله نلت هذا العقاب.

ما أن نطقت بهذا القول حتى وجدت نفسي محمولاً مسافة بعيدة وكأنني على بساط من الريح. نُقلت الى غرفة حيث بدا لي ذلك الكائن الخفي واضحاً مرئياً على شكل شاب في مقتبل العمر يشع النور في محياه وهو في منتهى الجمال إلا أن جماله من النوع الوقور لا من النوع الحسيّ، فدعاني للدخول بقوله:

- هؤلاء الناس الذين تراهم هم ولدوا منذ الأزل ثم توفوا.

فسألته عما حدا به الى الإتيان بي، فأجاب:

- تعال معي ولا تلبث أن تفهم.

وجدت نفسي وأنا لابس زرداً وبيدي خنجر. وقادني بهذا الشكل خلال تلك القاعة الواسعة وهو يريني كل هؤلاء الناس يتجولون هنا وهناك بألوفهم المؤلفة. وبلغ بي باباً فولجته قبلي الى موضع أشبه بزقاق ضيق. وعندما جذبني خلفه وجدت نفسي دون سلاح مرتدياً ثوباً أبيض وأنا حاسر الرأس أقف عن يمينه وقد ملكني العجب لما حصل. وتعذّر عليّ أن أتبين ماهية الزقاق لكنني رفعت رأسي فإذا بي أرى نور الشمس ينعكس على جدار شبيهه بواجهة منزل فوق سمت رأسي تماماً. فقلت:

- أيها الصديق ماذا يترتب أن أفعل لكي أرفع نفسي بحيث يتسنى لي رؤية قرص الشمس بالذات؟ فأراني درجاً عظيم الإرتفاع عن يمين وأجاب:

(٢٤٠) أي الى زيارة بيت المقدس أورشليم. وهو أعظم نذر في ذلك الزمن.

(٢٤١) يكون قد مرّ على إعتقال جليليني سنة واحدة تنقص أسبوعين.

- إذهب الى هناك لوحدهك.

فسرت عنه وأخذت أصعد الدرج العظيم بمفردي ووجهي يقابل الطريق الذي جئت منه وأخذت أشعر بإقترابي من الشمس شيئاً فشيئاً، فإحتشثت الخطى وصرت أرتفع وأرتفع حتى إنكشف أمامي قرص الشمس كله وبهرت أشعتها الساطعة عيني فأغمضتهما تلقائياً. ولكنني فتحتهما عندما أدركت غلظتي وأخذت أبحلق بالشمس بنظر لا يريم وصرخت:

- الشمس! إنها الشمس التي طالما صبوت إليها! لن أريد شيئاً آخر غيرها بعد الآن، وإن أصابني نورها بالعمى.

بقيت وأنظاري شاخصة إليها لاتتحول وبعد أن مكثت هناك فترة وجيزة رأيت قوة تلك الأشعة الهائلة ترمي على الجانب الأيسر من الشمس وبقيت الشمس صافية الأديم دون أشعتها. فحدقت فيها بفرح غامر متعجباً من كيفية إنحسار الأشعة عنها. بدأت أفكر في النعم الإلهية التي منحني الله أياها في صباح هذا اليوم، فهتفت:

- يا للقوى العظيمة! يا للفضيلة المجددة! كم من النعم العظيمة اغدقت علي بما فاق مأمولي؟ بدأت الشمس الخالية من أشعتها مثل حمام مليء بأنقى الذهب الذائب. وفيما أنا واقف أفكر في هذه الرؤيا العجيبة بدأ مركز الشمس ينتفخ ويتجسم حتى أصبح بالأخير متخذاً شكل السيد المسيح وهو مسمر على الصليب، مسبوك من مادة الشمس نفسها. وبدا بجمال يسلب اللب وبهيئة ساحرة بحيث يعجز تصور المرء أن يصل الى واحد بالألف مما رأيته منه. وهتفت وأنظاري عالقة بالصورة:

- معجزة! معجزة! رباه، رحماك يارب. أيها القوى اللامتناهية. أي أعجوبة هذه التي سمحت لي بمشاهدتها في هذا اليوم؟

وبينما كانت أبصاري عالقة، وأنا أقول هذا، تحركت صورة المسيح وإنحازت الى جانب من الشمس الذي تحولت اليه الأشعة. وإنفخ مركز الشمس مرة أخرى وأخذ يكبر حتى إتخذ هيئة السيدة العذراء مريم بأكمل حسن- وهي جالسة على عرش والطفل بين ذراعيها وهي تبتسم. وكان ثم ملاكان يقفان كل زوج على جانب منها- في غاية الوسامة ورأيت كذلك عن يمين الشمس شخصاً في ثياب الكهنة أولاني ظهره ووجهه وهو يقابل العذراء مريم والسيد المسيح. شاهدت كل هذا بدقة ووضوح وكحقيقة لا ريب فيها. ولم أنفك طوال الوقت عن التسبيح والدعاء لله بصوت جهير. بقيت هذه الرؤيا ماثلة أمامي حوالى ثمن الساعة ثم تلاشت. وحملت الى زنزانتى الحقيمة وبدأت فجأة أصرخ عالياً:

- بنعمة الله صرت مستحقاً لرؤية مجده في أمور لم يرها أحد من أهل هذه الدنيا الفانية على أغلب احتمال. إذن فهذا دليل على الحرية والسعادة والحظوة عند الله. فبينما أنتم أيها الأنذال ستبقون أنذالاً على طول، تعساء يجلكم العار أمام الله. والآن إستمعوا لي. إني لعلى يقين بأنه في عيد جميع القديسين- وهو اليوم الذي ولدت فيه من العام (١٥٠٠) الموافق للأول من تشرين وفي الساعة الرابعة بعد حلول الليل- في هذا اليوم عينه الذي سيأتي. سترغمون على أن تخرجوني من هذه الزنزانة المظلمة ولن يسعكم أن تفعلوا خلاف هذا، لأنني قد رأيت ذلك بعيني على عرش الله

نفسه. إن الكاهن الذي كان متوجهاً الى الله ومدبراً ظهره لي هو بطرس الرسول وقد كان يسترحم لي وهو خجلٌ من الظلم الفادح الوحشي الذي يحيق بالمسيحيين في عقر داره. قولوا لأيٍّ من أمثالكم: ليس لأحدٍ القدرة على إلحاق الأذى بي بعد الآن. وقولوا لذلك السيد العظيم الذي يسكني هنا، لو أنه يسمح لي إما بشيء من الشمع والكاغد أو بالوسائل التي تمكنني من التعبير عن مجد الله الذي شاهدته فسأجلو تماماً ما يبدو مشكوكاً فيه.

مع إن الأطباء فقدوا آخر أمل في حياة المحافظ، فقد ظل مسيطراً على قواه العقلية. ولم يعد يرى تلك الأخيصة الجنونية التي كانت تستولي على حواسه كل سنة. وكان ضميره يعذبه باستمرار لإعتقاده الراسخ بأن ما عانيت وما أزال أعاني هو الظلم الفادح وأنباً البابا بالأشياء العجيبة التي تراءت لي وتحدث بها. ولكن البابا الذي ما كان يومين بالله ولا بأي شيء آخر قال معقياً على هذا بأنني لأشك مجنوناً وأوصاه بأن يحاول كل ما في وسعه ليحقق الشفاء لنفسه. وبعد هذا الجواب أرسل المحافظ رسالة تسرية وتهدئة لي. وبعث إليّ بأدوات للكتابة ومقدار من الشمع مع الأدوات للعمل. جاءني برسالته الرقيقة واحدٌ من أعوانه الذين يكتنون لي وداً. كان هذا الرجل يختلف تماماً عن عصبة الأنذال الذين تمّنوا موتي.

تسلمت الكاغد والشمع وشرعت في العمل. وكتبت أثناء ذلك هذه القصيدة مهداة الى المحافظ:

"سيدي! لو كان في وسعي أن أثبت لك رؤيتي النور السرمدي الذي

كشفه لي الله بذاته في هذه الدنيا الفانية.

فإنك ستولي كلماتي البليغة ما تستحق من إعتبار.

إن رؤياي لمجد الله التي شاهدتها؛ تلك العجائب لم

تنكشف لأنظار أي من البشر قبل أن تزول كل أحزان هذا العالم المظلم

عندئذ ستفتح أبواب العدالة المقدسة وتسقط (فيوري)<sup>(٢٤٢)</sup> الرذيلة

من حالق وهي مكبلة بالسلاسل صارخة مستعيذة بالسما لحسارها المومع.

لو كان لدي ضياء فإن مواهبي الغنية ستتولى إثبات هذه الرؤيا

الإلهية. وعندئذ سيسقط عني عبء صليبي الثقيل!"

دفعت بالقصيدة الى الخادم الصديق الذي جاءني صباح اليوم التالي يحمل فطوري. فسلمها بدوره الى المحافظ في غفلة من أعين خصومي. كان يسرّ المحافظ ان يراني مطلق السراح لأنه تأكد بأن الظلم الشنيع الذي ألحقه بي هو السبب الرئيس في موته، فأخذ القصيدة وقرأها أكثر من مرة ثم قال: - ليس هذه بأقوال أو أفكار مجنون. بل أنها ثمرة عقل راجح وخلق قويم وأمر فوراً أحد أعوانه بأخذ القصيدة الى البابا وأن يسلمها إليه يداً بيد وأن يرجوه إطلاق سراحه. وفي أثناء ما كان سكرتيره يسعى الى البابا بالقصيدة، أرسل لي نوراً للليل وللنهار وزودني بكل ما يلزم من وسائل الراحة. بدأت حالتني الصحية تتحسن بعد أن تردت الى أسفل درك.

(٢٤٢) في الأساطير اليونانية (الفيوري Furi) هي واحدة من إلهات الإنتقام.

وقرأ الپاپا القصيدة عدة مرات وبعث بجواب للمحافظ يؤكد له أنه سيفعل في القريب العاجل مايسره. ولولا إصرار (پيبر لويجي) على إبقائي في السجن ضد رغبة الپاپا والده، لأطلق سراحي فعلاً.

كان الموت يدنو من المحافظ بخطىً حثيثة. وكنت في تلك الأثناء أرسم وأعمل تصاميم للرؤيا العجيبة. وفي صبيحة عيد جميع القديسين، أرسل المحافظ ابن أخيه (پيبر اوگوليني) ليعرض عليّ بعض الأحجار الكريمة، فصرخت حالما شاهدت ذلك:

- هذا هو عربون تحريري.

وكان الفتى بليداً يغلب عليه بطة الفهم:

- لاتتقوّل عليّ بهذا أبداً يا بنقنوتو.

فأجبتة:

- خذ جواهرك وانصرف. لقد كانت معاملتي هنا بدرجة من الفظاظة بحيث كان الضياء الوحيد الذي أستنير به هو ما في هذا الجحر المظلم الكئيب وهو لا يصلح لتقدير قيمة الجواهر. وأما عن قضية تركي هذا السجن فلن ينقضي عليّ هذا اليوم إلا وقد جئت أنت بنفسك لإطلاق سراحي: هذا ما لا بد منه ولن تستطيع أن تحول دونه.

تركني وأقفل باب سجنى مرة أخرى. وبعد أكثر من ساعتين عاد دون أن يصحبه حرس مسلح، بل كان برفقته فتیان اثنان لمساعدتي على السير. ونُقلت الى الغرفة الكبيرة التي كنت أحتلها في السابق في العام ١٥٣٨<sup>(٢٤٣)</sup> وأعيدت لي كل أسباب الراحة التي أردتها.

إشددت وطأة الداء على المحافظ وبعد أيام فارق الحياة. توفي وهو يظنني مطلق السراح. وإستخلف أخوه (أنطونيو أوگوليني) وهو الذي قال له أنني قد خرجت من السجن. وبالقدر المتيسر لي من المعلومات رجّحت بأن الپاپا هو الذي أمر (أنطونيو) بإبقائي سجيناً في هذا الجناح الرحب حتى يخطره بقراره في أمري. في تلك الأثناء قام (دورانتى السيجي) الذي ذكرته سابقاً بتدبير مؤامرة لقتلي بدمس مادة لها أثر سمّي في الطعام الذي أتناوله بمعاونة ذلك الجندي الذي كان عقاقيرياً في (پراتو) على أن لا يقضي به على حياتي حالاً بل بصورة تدريجية فلا يظهر مفعوله إلا بعد أربعة أو خمسة أشهر. كانا قد إتفقا معاً على وضع مقدار من مسحوق الألماس في طعامي وهو ليس من قبيل السموم بحد ذاته إلا أنه في منتهى الصلابة ومهما سُحق فإنه يحتفظ برؤوسه الحادة. إن الألماس لا يشبه المعادن والأحجار الأخرى التي تفقد أطرافها الحادة عند سحقها فتصبح ملساء كروية وبنتيجة هذا فإنها عند دخولها المعدة مع الطعام تلتصق دقائقها بجدار المعدة والأمعاء أثناء عملية الهضم. ثم تندفع شيئاً فشيئاً بما يدخل من الطعام الى داخل الأنسجة الهضمية فتمزقها شراً ممزقاً وتحدث الوفاة. في حين لو مُزج أي مسحوق آخر من الحجر أو الزجاج بالطعام فإنه سيخرج مع الفضلات، إذ ليس لديه خاصية الإلتصاق.

(٢٤٣) كان ذلك في العام ١٥٣٩.

أعطى (دورانتني) هذا الحارس أمانةً زهيدةً الثمن وقيل إن صائغاً يدعى (ليونني الأريزي) وهو من ألد أعدائي كُلفَ بسحقها. وكان هذا الصانع معدماً والأمانة قد تساوي بضع عشرات من الكراونات، فدفعت للحارس بمسحوق مدعيماً أنه مسحوق الأمانة ليوضع في طعامي. وفي صباح ذلك اليوم وكان يوم جمعة تناولت المسحوق مع طعامي. تناولته مخلوطاً بالصلصة وبالشوربا وباللحم المطبوخ مع الخضار. وكانت شهيتي منفتحة لأنني صمت ليلة العيد والجمعة وهو يوم العيد وقد شعرت فعلاً بأسناني تطحن شيئاً صلباً إلا أنني لم أشك بشيء يرقى إلى هذه المكيدة الشيطانية. وبقي قليل من الصلصة بعد فراغي، فلقت نظري ذرات دقيقة تخلفت معها. فأخذتها للنافذة حيث الضياء قوي جداً متذكراً وأنا أفحصها بأن الطعام كان يضرّ أسناني صباح هذا اليوم على غير المعتاد. وبعد فحص دقيق بقدر ما توصل إليه إستنتاجي أيقنت بأنه مسحوق الأمانة، فاعتبرت نفسي في عداد الموتى، ولجأت بقلب مثقل بالهم إلى الصلاة، وقد إستقرّ فكري بأن القضاء قد حمّ ولات حين مناص. رحلت ساعة كاملة أبتهل إلى الله وأشكره للميتة الهنيئة التي خصني بها؛ مادامت طوالعي قد حكمت عليّ بهذا المصير فقد رأيتني سعيداً لأنني سأغادر هذه الدنيا بهذه الطريقة السهلة ولم يسعني إلا أن أبارك للدنيا وللنساء التي عشتها فيها وأنا الآن مزعم العودة إلى مملكة أخرى صرت مستحقاً لها بنعمة الله.

كانت هذه الأفكار تجول في رأسي والمسحوق البالغ الدقة في راحة يدي، ذلك المسحوق الذي كنت متأكداً بأنه أمانة. ولكن بما أن الأمل لا يموت قط، فقد أغراني بآرق منه بمحاولة صغيرة. فأمسكت بسكين صغيرة ووضعت بعض المسحوق بينها وبين أحد قضبان السجن الحديدية وضغطت برأس السكين عليها بقوة فإذا بها تتفتت. وأنعمت النظر فوجدت أنها إنسحقت فعلاً وأصبحت كالطحين. فعاد الأمل يشيع في كياني وقلت لنفسي:

- إنها ليست بحجر دورانتني الصلب، وإنما هي حجر هش رخيص لا يلحق بي ضرراً. ومع إنني قد روّضت نفسي على الهدوء والموت بسلام فقد بدأت أرسم خططاً جديدة، إلا أنني شكرت الباري ودعوته بالبركة لحالة الفقر التي كان لها الفضل في نجاتي من الموت وهي في كثير من الأوقات مسببة للموت. فالسيد دورانتني<sup>(٢٤٤)</sup> أو كائناً من كان- أعطى (ليونني) الأمانة تزيد قيمتها عن مائة كراون وأمره بأن يطحنها لي، لكن فقره أقنعه بالإحتفاظ بها وطحن بدلها حجراً من البريل الأخضر لا تسوى أكثر من كارليني. ولعله ظن أن مفعولها لا يختلف عن مفعول مسحوق الأمانة مادامت هي الأخرى من الأحجار الكريمة.

(٢٤٤) أمين سرّ البلاط البابوي ثم أسقف برنچيا ثم كردينال. له أبحاث في العلوم والقانون. إن بنفثوتو يكيل التهم جزافاً لأناس مثل دورانتني عرفوا بحسن السمعة. أما ليونني الذي ذكره فهو نحات وصانع مشهور. عرف بتهور وطبع حاد. حكم عليه في ١٥٤٠ بالأشغال الشاقة في السفن لجرمة عنف إقتربها. تجدد سيرته في (فاساري، ج٨).

في تلك الفترة من الزمن سُجن في القلعة أسقف بافيا<sup>(٢٤٥)</sup>، المُسنينور دي روسي d' Rossi اليارمي، شقيق الكونت (سان سكوندو Count San Secondo). بسبب القلاقل التي وقعت في (پافيا)، ولما كان صديقاً حميماً لي فقد حشرت رأسي من خلال كوة زنزانتي وناديته بأعلى صوتي قائلاً إن هؤلاء المجرمين قد دسوا لي مسحوق الألباس بغية القضاء على حياتي. كما إنني أرسلت إليه صحيفة أحد خدمه شيئاً من هذا المسحوق، دون أن أطلععه على أنني تبينت حقيقة أمره. بل قلت أنهم قد سمّوني بعد وفاة ذلك المحافظ الكريم. وبما أنه لم يبق لي إلا القليل من الزمن في هذه الدنيا فقد رجوته أن يزودني برغيف واحد من أرغفة خبزه يومياً لأنني ماعدت أقرب أي طعام يردني منهم. فوعدني بإرسال شيء من طعامه. وأحدث (السيد أنطونيو) ضجة كبيرة حول الموضوع لأنه لم يكن طرفاً في المكيدة وطلب شيئاً من المسحوق. ومع إنه توهم أيضاً بأنه مسحوق الألباس فقد أعاد التفكير في القضية وأهمل تعقيبها ظاناً بأن البابا وراها. ومنذ ذلك الحين قصرت غذائي على ما يردني من مائدة الأسقف وواصلت نظم ملحمتي الشعرية عن السجن. ذاكراً فيها الأمور التي تحصل لي كافة يوماً بيوم بالتفصيل والدقة. وأخذ السيد أنطونيو يبعث اليّ طعام من مائدته أيضاً. وكان يأتيني به (جيوقاني) العقاقيري من پراتو، الذي أتيت الي ذكره وكنت أعرف مقدار كرهه لي، فهو الذي دس لي مسحوق الألباس ولذلك قلت له إنني لن أقرب أي طعام يأتيني به قبل أن يسبقني الي تناول شيء منه. فأجاب هذا إمتياز ينفرد به البابوات . فأجبتة لما كان من واجب النبلاء تذوق طعام البابا، فإن واجبه بوصفه حارساً وعقاقيرياً ومن سكنة (پراتو) أن لايرفض القيام بهذه الخدمة لمواطن فلورنسي في مقامي. فراح يكييل لي السباب والشتم فكلت له الصاع صاعين.

إن السيد أنطونيو الذي صار يخجل بعض الشيء من نفسه ولاسيما إعتزاه تحميلي نفقات بقائي في السجن وهي التي أبرأ ذمتي منها المحافظ المتوفى، عمد الي إستبدال هذا الحارس بأخر صديق وعهد إليه بإحضار طعامي. وبلغ من شهامته انه كان يتذوق طعامي من دون طلب أو تردد. وأخبرني كيف ان (مسيو مونتوك) كان يلاحق البابا لطلب إطلاق سراحه نيابةً عن الملك الفرنسي وإن البابا يكنّ كثير ميل الي تحقيق مطلبه، وإن الكردينال فارنيزي<sup>(٢٤٦)</sup> الذي كان صديقاً سابقاً وراعياً لي، ذكر أيضاً بالأمل لي في الخروج من السجن إلا بعد فترة. فعقبت على هذا بقولي بأنني سأجد وسيلة لمغادرته رغم أنفهم كافة.

فرجاني هذا الشاب العالي الخلق بالسكوت ولاأدع أحداً يسمع بمثل هذه الأقوال التي قد يصيبنني منها أذى. وأضاف يقول: "مادمت قد وضعت ثقتك بالله فعليك بانتظار مراحمه والصبر". فأجبتة ان القدرة الإلهية لاتخشى من عمل الظلم الخبيث.

بعد مرور بضعة أيام على هذا قدم كردينال (فرارا) الي روما للسلام على البابا فإستبقاه هذا لمدة

(٢٤٥) نسبة الي بلدية تقع جنوب ميلان تبعد عنها مسافة (٣٠) كيلومتراً تقريباً.

(٢٤٦) هو إبن (بيير لويجي) أي حفيد البابا پولص. رئيس أساقفة پارما. كان يطمح الي العرش البابوي إلا أن حزب آل مديتشي وقف حائلاً دون ذلك فلم ينجح. كان ذلك بعد وفاة البابا پولص الثالث فارنيزي.

من الزمن الي أن حان وقت العشاء ذلك لأنه كان واسع الإطلاع معقّباً للمعارف وقد أراد أن ينفرد مع الكردينال بحديث مبسّط حول الشؤون الفرنسية السيئة. والمعروف أنه عندما يأكل الناس في جمعية فكثيراً ما يقولون أشياء ما كانوا ليتفوهوا بها في مناسبات أخرى. ولما كان الملك الفرنسي العظيم سمحاً وكريماً للغاية في معاملته ولما كان الكردينال يدرك هذه الخصلة في الملك إدراكاً تاماً فقد خرج عن كل حدّ في التعهد للپاپا بما لم يتوقعه هذا. فطابت نفسه وبدا في أحسن حال من الإنشراح مما زاده في هذا أنه إعتاد أن يأكل بنهم شديد وشرهة عنيفة ثم يتقيأ بعدها. فلما وجد الكردينال قداسته بهذه الحالة من الإنشراح، وكم طابت نفسه وتهيات لمنح الإنعامات، أخذ يطلبني ملحاً باسم الملك مؤكداً وموضحاً كم إن جلالته يرغب في تحقيق هذا الرجاء. وضحك الپاپا ضحكةً مجلجلة وقد شعر بأن وقت قيئه دنا كما ان تأثير الخمرة الكثيرة التي عبّها بدء يظهر فيه. فقال: (٢٤٧)

- في هذه اللحظة بالذات أريدك أن تأخذ معك الى البيت.

ثم أصدر الأوامر العاجلة بإخلاء سبيلي وترك المائدة. فأرسل الكردينال بطليبي فوراً قبل أن يبلغ الخير (بيير لويجي) الذي لم يكن يريد خروجي من السجن بأي حال من الأحوال. ووصل رسول الپاپا الى القلعة يصحبه نبيلان من خاصة الكردينال. وفي حوالي الساعة الرابعة ليلاً أخرجوني من زنزانتني وجاؤا بي الى منزل الكردينال الذي حيّاني بحرارة. وإستضافني في بيته وبقيت مرتاحاً منعماً. أرغمني السيد أنطونيو شقيق المحافظ المتوفى وخلفه على تسديد نفقات السجن ومايلحق بها من أجور الحرس والشرطة وأمثالهم. متجاهلاً وصية أخيه الميت بحقي. وقد كلّفني هذا عدة عشرات من الكراونات. ثم أن الكردينال أوصاني بالتمزام الحذر التام لو كنت أقيم لحياتي وزناً، فلو لم يضمن إطلاق سراحي في تلك الليلة لما خرجت منه قط. وقد سمع مؤخراً ما أشيع بأن الپاپا أسف كثيراً على منحي حريتي (٢٤٨).

عليّ أن أعود الى الوراة قليلاً مادام كلّ هذه الأحداث قد ذكرتها في ملحمتي الشعرية. من بين من زارني أثناء وجودي القصير في قصر الكردينال (كورنارو) وفي حدائق الپاپا الخاصة صديق عزيز هو السيد (برناردو غاللوزي B. Galluzzi) أحد صرّافي السيد (بيندو ألتوفيتي Bendo Altoviti) وكنت قد أودعت لديه بضع مئات من الكراونات. عادني أثناء وجودي في حدائق الپاپا وأراد إعادة المبلغ المؤمن عنده. فاحتججت بقولي لامحل لها آخر لا عند صديق أعزّ منه ولا في مكان أفضل مما هي فيه. فتردد وتمنّع وأبدى عزوفاً حتى أقنعتته بما يشبه الإرغام على إبقائها لديه. وبعد أن أطلق سراحي علمت أن هذا الفتى المسكين برناردو غاللوزي قد أفلس وهكذا فقدت مالي.

كذلك أذكر أنني حلمت في السجن حلماً مرعباً. فقد خيل إليّ أن كلمات في غاية الخطورة قد كتبت

(٢٤٧) هذه أيضاً من الشائعات والمبالغات التي خصّ بها جليليني أولئك الذين كان يعدّهم من أعدائه. إذ لم يؤثر عن الپاپا پولص هذه الطبيعة.

(٢٤٨) تاريخ إطلاق سراحه كما أورده باكي هو في ٢٤ كانون الأول ١٥٣٩ أو هو على الأقل التاريخ الذي يحدده له الأمر الرسمي بإطلاق سراحه. إلا أن (كارو) و(الأمابن) يذكّران مايدلّ على أنه حرّر في الأيام الأولى من هذا الشهر.

على جبيني كأنما حُطت بقلم: وقد قال لي كاتبها ثلاث مرات "أسكت. ولا تخبر أحداً بها". وعندما إستيقظت وجدت جبيني مُعلماً. وقد ذكرت في ملحمتي الشعرية عدداً من أمثال هذه الأمور. كذلك تنبأت من دون أن أدرك المغزى والأهمية - بكلّ ماوقع للـ(سنيور پير لويجي) بوضوح ودقة جعلتاني موقناً بأن ملاكاً من السماء كشفها لي.<sup>(٢٤٩)</sup>

هناك أمر يجب أن لا أغفله- ولعله أعظم حدث وقع لأى من البشر- وإني لأكتب هذا إثباتاً للعناية الإلهية ولحقيقة الأسرار الربانية التي حباها الله بها. فمنذ أن حلمت بتلك الرؤيا العجيبة حتى الآن، وشعاع من النور مستقرّ فوق رأسي كان من السطوع بحيث لا تخطئه قط عيون أولئك القلائل الذين رغبت في أن يروه. وكان يمكن رؤيته صباحاً فوق خيالي لمدة ساعتين بعد طلوع الشمس. وكان أوضح للعين عندما يسقط ندى خفيف على العشب. كما يرى أيضاً في السماء عند غروب الشمس. وقد إنتبهت الى وجوده أثناء إقامتي في فرنسا وفي باريس ويعزى سبب وضوحه الى أن هواء تلك البلاد أكثر صفاءً ونقاوة من جو إيطاليا حيث الضباب القاتم الكثيف يغطي سمادها غالباً. وكنت أنبه الآخرين الى هذا النور كلما شعرت بوجوده في إيطاليا وإن كان أقل وضوحاً منه في ذلك الجزء من تلك البلاد.

سأثبت الآن الملحمة الشعرية التي نظمته في السجن وفي مدحه وبعدها سأواصل تدوين قصة حياتي بكلّ تقلباتها والصروف التي مرت بها. وكذلك قصة ما سيأتي بعدها من أحداث. أقدم هذه القصيدة الى لوگامارتيني<sup>(٢٥٠)</sup> وقد خاطبته فيها كما سيتبين منها:

من يريد معرفة قوة الله وقدرته. وكم يستطيع البشر الإستعداد منهما.  
فليقض وقتاً في السجن بعيداً عن أهله، كنيباً سقيماً معدّب الفكر.  
بعيداً الاف الأميال عن وطنه ومسقط رأسه.  
إن شئت أن تقيم الدليل على صمودك فأدخل السجن وأنت بريء  
ليمرّ بك الشهر إثر الشهر وأنت منسي لا تأمل عوناً من أحد.  
وتجرّد من القليل الذي تملك وتقف مواجهاً الإهانات والموت كل يوم،  
يائساً من تبدل حالك. إن اليأس سيدفعك الى عمل جنوني  
الى كسر أبواب السجن والقفز من أسوار الحصن العالية.  
ثم لتعود اليه ثانيةً وتوضع في زنزانة أضيق وأفظع من الأولى.  
أي عزيزي (لوکا) اعرني سمعك فلديّ من الأنبياء ما هو أدهى:

(٢٤٩) ينوه هنا بإغتياله الذي وقع بعد هذا التاريخ بثماني سنوات.

(٢٥٠) هذه القصيدة هي كما سيلاحظ من قبيل الوعظ الممل، لم يحفل أحد مترجمي المذكرات بترجمتها ترجمة دقيقة. وهي من البحر المسمى ترزارما Truzarima الذي يستخدم لنظم قصائد الهجاء والسخر غير المبتذل او الفاحش في كثير من الأحيان. واصل هذا البحر فلورنسي (انظر سايموندز: الرينسانس في إيطاليا- الأدب الإيطالي: القسم الثاني).

الساق مكسورة، والأمل خائب، وأنت ترتجف برداً بلا رداء  
 أو غطاء وبدلاً من كلمة عطف لاتجد من الأنبياء إلا أسوأها  
 يحملها إليك الحارس مع طعامك. ذلك البهيمه الذي لم يمرّ عليه  
 طويل زمن مذ كان يمزج العقاقير في (براتو).  
 إن المرء لا يشتهر إلا بتراكم المحن والأرزاء عليه.  
 المصطبة الخشبية مقعدك الوحيد. تجلس عليه وأنت ساهم  
 تبدد وقتك العبقري الخلاق في فراغ تام.  
 وللحارس قوانينه. إنه لا يسمح لك بكلمةٍ ويمنع عنك ما تطلب  
 وقلما يفتح الباب فتحةً تكفي لحشر نفسه فيه.  
 وعبثاً تسأله أن يمنّ عليك بما تشغل به وقتك ويطرد عنك السأم  
 من كاغد وحرير وقلم، وأدوات العمل، ونار تتدفأ بها.  
 بينما تدور أفكارك كلها في دائرة أملٍ وهو الخروج من السجن.  
 يؤسفني أن تكون كلماتي قاصرة عن التعبير عما أرومه إلا القليل.  
 إن المظالم التي إنصبت عليها تعدُّ بالمئات. وفي وسعي أن  
 أبسطها بتفصيل واحدة واحدة. إلا أنني أعود الى غرضي  
 الأوّلي لأنشد ما يجب إنشاده في مدح السجن.  
 لست أظن أن السنة الملائكة قادرة على أيفائه حقه من المديح.  
 في السجن لاتجد من الأماجد والأكارم إلا المعتقلين. أولئك  
 الذين حبسهم الحكام الطغاة، أو أعوانهم الأشرار بدافع الحقد  
 والحسد والبغضاء عليهما لعنة الله.  
 ولكن هذه هي الحقيقة التي سأكشفها الآن. إن السجين رغم آلامه  
 وعذابه الجهنمي، يتوجه الى الله بالصلاة ربما بطلب المغفرة  
 من حياة أئيمة حفلت بالشروع. ألا أبقه سنتين في الأسر  
 القاسي فسيتطهر ويصبح في عداد القديسين، وأخاً لكل  
 البشر. سيجد نفسه طاهراً روحاً وجسماً. وبذلك  
 يقترب من الذات الإلهية.  
 والآن أصغ الى هذه المعجزة: ذات مرة حين حفزني  
 الرغبة في الكتابة. إندفعت الى تحقيق هذه الحاجة بكلّ قواي.  
 أخذت أقطع الغرفة ذهاباً وأياباً وأنا غارق في التفكير.  
 فوقع نظري على صدعٍ في الباب فأمنت لنفسي شظية من  
 خشبيةٍ إنتزعتها بأسناني. ووجدت قطعةً أجرّ ملقاةً فطحنتها